القول المفيد على كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

اعتنى به جمعًا وترتيبًا وتصويبًا، وعزا آياته
وخرّج أحاديثه، ووضع فهارسه، وأشرف على طبعه

د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل
د. خالد بن علي بن محمد المشيقح

الجزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أذنت للشيخين الفاضلين (سليمان بن عبد الله أبا الخيل وخالد بن علي المشيقح) أن يقوما بتصحيح مؤلفنا المسمى (القول المفيد على كتاب التوحيد) وهو مجموع من شرحنا كتاب التوحيد للطلبة وأن يخرجا أحاديث الشرح والأصل ويرقما ما فيهما من الآيات ويحذفا ما فيه من تكرار أو نحوه مما وقع أثناء الشرح وأن يتوليا طبعه ونشره مع الحرص التام على تصحيح الطبع وأن لا يحتفظا بحقوق الطبع ممن أراد طبعه وتوزيعه مجانا. وأسأل الله تعالى أن يثيبهما على ذلك ويتقبل منا جميعا وينفع به كل نفع بأي صلة إنه قريب مجيب. كتبه محمد الصالح العثيمين في ٢٢/٧/١٤١٤هـ

محمد العثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العَالمين قيوم السَّموات والأرضين، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَريكَ له إله الأولين والآخرين، وأشهدُ أن محمَّداً عبدُه ورَسولُه المبعوث بتوحيدِ ربِّ العَالَمين صلَّى الله عَليه وعَلى آله وأَصحَابه، ومن تَبعهم بإحسَانٍ، وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعدُ : فإن كتابَ التَّوحيدِ للإمام الدَّاعيةِ الشيخ مُحمَّد بن عبْد الوهَّاب ت(١٢٠٦هـ) رحمه الله، وأجْزَل له الأجْرَ والثَّوابَ، وضَّحَ فيه التوحيدَ الَّذي أوْجَبه الله عَلى عِبادِه، وخلقَهم لأجْلِه، ولأجْلِه أرسَلَ رسُلَه وأنْزَل كتبَه، وذكرَ فيه مَا يُنافي أصلَه من الشِّرك الأكبر، أو كمَالَه الواجب من الشِّرك الأصغر والبِدَع فصار بَديعاً لم يُسبَقْ إليه، عَلَماً للموحِّدين، وحُجَّةً على الوثنِيين والخُرَافيِّين، وعَمَّ النفعُ به، فاشتَغلَ به العلماءُ بالشَّرح والتَّدْريس، فتَصدَّى لشرحه جماعةٌ من العلماءِ الجهابذةِ النُّبلاءِ، وأوَّلُ من تَصدَّى لشرْحِه وأجادَ حفيدُه: الشيخُ سليمانُ بن الشَّيخ عبدِ الله في كِتَابه تيسيرِ العزيزِ الحميد، والشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ حسن في كتابه فتح المجيد، وللشيخ حمد بن عتيق حاشِيةٌ عليه مُفيدةٌ، وكذلك حاشية الشيخ عبدالله أبا بطين، وحاشيةُ الشيخ عبد الرحمَن بن قَاسِم، وحاشية الشَّيخ عبد الرحمنَ السعدي، وغيرها، وللشيخ عبد الله الدويش شَرحُ مسائِل كتابِ التوحيد.

وقد شَرح شيخُنا محمَّدُ بنُ صَالح العثيمين حفظه الله (كتاب التوحيد) ضِمْن دروسِه التي يُلقِيها على طَلبتِهِ في المسجدِ الجامعِ الكبيرِ بمدينة عُنيْزة عمَّرها الله بطاعته.

ولَمَـا تضمَّنـه شَرحُ الشيخِ ـ حفـظه الله ـ من الفَـوائِد، وتَوضِيحِ المعاني، وشَرْحِ الألفاظِ، والتَّقْسِيماتِ البديعة كانت الرغبة الملحَّة من كَثيرٍ من طلبَةِ العِلْم في اسْتنسَاخ هذا الشَّرح من الأشرطة، ليتَسنَّى طبعُه، وبعد نسخِه من الأشرطة قُريء على الشيخِ ـ حفظه الله ـ فاستكمَلَ ما كان في المذكِّرات من نقص، وقد وفَّقنا الله للعنايَةِ بهذا الشَّرحِ وإخراجِه مطبوعاً! ليعُمَّ النفعُ به، وتكمُل الفائدةُ، ويسهل الرجوعُ إلى مسائله، وقد كان عملنا كما يلي:

١ ـ جَمع الكتابِ وترتيبه، وبَذْل الجهدِ في إخراجِه منقَّحاً وسَليماً.

٢ ـ إضَافة مَتْنِ كتاب التَّوحِيدِ أعْلَى الصَّفحة.

٣ ـ عزْو الآيَات القُرآنية.

٤ ـ تَخْـرِيج الأحَـاديثِ والآثار، وإن كان الحديثُ في الصحيحين أو أحَدِهما اكتُفِيَ بالعزوِ إليهما، وقد استَفَدْنا من كتابِ النهجِ السَّديدِ كثيراً.

٥ ـ وضْع فهرْسٍ لمسائِلِ الكتابِ ومَبَاحِثِه.

٦ ـ وضْع فَهَارِسَ للآيات والأحاديث الواردة في الكتاب.

وبعد، فإن كان عمَلُنا صواباً فمِنَ الله وله الحَمْدُ والشُّكرُ، وإن كان غيرَ ذلك فمِنَّا، ولا نُنكِره، غير أنَّنا لَمْ نَتعمَّده، ونسألهُ سبحانه العفوَ والمغفرةَ، والمنصِفُ من اغْتَفر قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صوابه.

ونشكر كُلَّ من رأى تقْصِيراً في إخراجِ هذا الشَّرح فساعَدَنا على استدراكه، نسأل الله أن ينفع به كما نفع بأصله إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

كتب ذلك كل من

سليمان بن عبد الله أبا الخيل

وخالد بن علي المشيقح

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين، وعليه أتوكل

تعريف التوحيد:

في اللغة : مشتق من وحّد الشيء إذا جعله واحدًا، فهو مصدر وحّد يوحد، أي جعل الشيء واحدًا .

وفي الشرع : إفراد الله سبحانه بما يختص به من الربوبية، والألوهية والأسماء والصفات .

أقسامه:

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ توحيد الربوبية .

٢ ـ توحيد الألوهية .

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات .

القسم الأول: توحيد الربوبية:

هو إفراد الله عز وجل بالخلق، والملك، والتدبير.

فإفراده بالخلق : أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله .

قال تعالى : ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾[1]. فهذه الجملة تفيد

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ٥٤ .

الحصر لتقديم الخبر، إذ أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر[1].

وقال تعالى: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾[2]. فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله.

أما ما ورد من إثبات خالق غير الله كقوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وكقوله، ﷺ، يقال لهم ـ أي للمصورين ـ: «أحيوا ما خلقتم»[3].

فهذا ليس خلقًا حقيقة، وليس إيجادًا بعد عدم، بل هو تحويل

---

(١) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/٩٢: «وأما النوع الثاني فالشرك في الربوبية فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر، المعطي المانع، النافع الضار، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي، أو المانع، أو الضار، أو النافع، أو المعز، أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته.

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر إلى المعطي الأول فيشكره على ما أولاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه لقوله عليه السلام: «**من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه**...» فالله سبحانه هو المعطي على الحقيقة فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها وساقها إلى من يشاء من عباده.... ومما يقوي هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك....» فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله، ولا يضر غيره، وكذا جميع ما ذكرنا في مقتضى الربوبية.

فمن سلك هذا المسلك استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم... وتجرد التوحيد في قلبه فقوي إيمانه، وانشرح صدره، وتنور قلبه... ولهذا قال الفضيل بن عياض: «من عرف الناس استراح» يريد ـ والله أعلم ـ أنهم لا ينفعون ولا يضرون».

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٣) من حديث ابن عمر أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب اللباس/ باب عذاب المصورين يوم القيامة ١٠/٢٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٧٠.

للشيء من حال إلى حال، وأيضًا ليس شاملاً، بل محصور بما يتمكن الإنسـان منه، ومحصور بدائـرة ضيقة، فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلـق.

وأما إفراد الله بالملك:

فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم كما قال تعالى: ﴿**ولله ملك السموات والأرض**﴾(١). وقال تعالى: ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء**﴾(٢).

وأما ما ورد من إثبات المُلْكية لغير الله كقوله تعالى: ﴿**إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين**﴾(٣). وقال تعالى: ﴿**أو ما ملكتم مفاتحه**﴾(٤). فهو مُلْك محدود لا يشمل إلا شيئًا يسيرًا من هذه المخلوقات، فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يَمْلِك ما تحت يد غيره، وكذا هو مُلك قاصر من حيث الوصف، فالإنسان لا يَمْلِك ما عنده تمام المُلك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أُذن له فيه شرعًا.

فمثـلاً: لو أراد أن يحرق مالـه، أو يعذب حيوانه، قلنا: لا يجوز. أمّا الله سبحانه فهو يَملك ذلك كله مُلكًا عَامًّا شاملاً.

وأما إفراد الله بالتدبير:

فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مُدَبر إلا الله وحده.

وأما تدبير الإنسان فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعًا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦.

(٤) سورة النور، الآية: ٦١.

وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بُعِثَ فيهم الرسول، ﷺ، بل كانوا مقرين به قال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم**﴾[1].

فهم يُقِرُّون بأن الله هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي بيده ملكوت السموات والأرض.

ولم ينكره أحدٌ معلوم من بني آدم، فلم يقل أحد من المخلوقين: إن للعالَم خالِقَيْنِ متساويين.

فلم يجحدَ أحد توحيد الربوبية لا على سبيل التعطيل، ولا على سبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة، فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده قال تعالى حكاية عنه: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾[2]. ﴿**ما علمت لكم من إلـه غيري**﴾[3].

وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الرب غيره كما قال الله تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا**﴾[4]. وقال تعالى حكاية عن موسى وهو يناظره: ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض**﴾[5]. فهو في نفسه مُقِرٌّ بأن الرب هو الله عز وجل.

وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشريك المجوس حيث قالوا: إن للعالَم خَالِقَينِ هما الظلمة، والنور، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٣) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٠٢.

فهم يقـولـون: إن النـور خير من الظلمة، لأنه يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

وأيضًا: فإن الظلمة عدم لا يضيء، والنور وجود يضيء، فهو أكمل في ذاته.

ويقولون أيضًا بفرق ثالث وهو: أن النور قديم على اصطلاح الفلاسفة واختلفوا في الظلمة هل هي قديمة، أو محدثة؟ على قولين.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد:

قال الله تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلـه إذًا لذهب كل إلـه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض**﴾[1].

إذ لو أثبتنا للعالم خالقين لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق ويستقل به كعادة الملوك، إذ لا يرضى أن يشاركه أحد.

وإذا استقل به فإنه يريد أيضًا أمرًا آخر، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد.

وحينئذٍ إذا أراد السلطان، فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر، أو يسيطر أحدهما على الآخر، فإن عجز أحدهما عن الآخر ثبتت الربوبية للقادر، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعًا، لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربًّا.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

ويقال له: توحيد العبادة باعتبارَين، فباعتبار إضافته إلى الله يسمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العِبَادة.

وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

فالمستحق للعبادة هو الله تعالى. قال تعالى: ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل**﴾[1].

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد فهي بمعنى التذلل لله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه محبة وتعظيمًا.

الثاني: المتعبد به فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة.

مثال ذلك: الصلاة ففعلها عبادة، وهو التعبد.

ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.

فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبدًا لله وحده تفرده بالتذلل محبة وتعظيمًا.

قال تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾[3] فَوصْفُه سبحانه بأنه رب العالَمين كالتعليل لثبوت الألوهية له، فهو الإله؛ لأنه رب العالَمين، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾[4]. فالمنفرد بالخلق هو المستحقّ للعبادة.

إذ من السفه أن تَجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلـهًا تعبده فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد ولا بإعداد، ولا بإمداد، فمن السَّفه

---

(1) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

(2) سورة الإسراء، الآية: ٢٢.

(3) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

(4) سورة البقرة، الآية: ٢١.

أن تأتي إلى قبر إنسان صار رميمًا تدعوه، وتعبده، وهو بحاجة إلى دعائك، وأنت لست بحاجة إلى أن تدعوه. فهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملكه لغيره؟!!

ولو كان أرفع البشر عند الله مرتبة، وهو النبي ﷺ. قال الله تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾[1].

وهذا القسم كَفَرَ به، وجَحَدَه عامَّةُ الخَلْقِ، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب قال الله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون**﴾[2].

ومع هذا فأتْباعُ الرسل قلة قال عليه الصلاة والسلام: «**فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»[3].

تنبيه:

من العجب أن أكثر المُصَنِّفين في علم التوحيد من المتأخرين يُركزون على توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقوامًا ينكرون وجود الرب ـ وإن كان يوجد من ينكر الرب ـ لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة.

ولهذا ينبغي أن يُركز على هذا النوع من التوحيد حتى نخرج هؤلاء المسلمين الذين يقولون: بأنهم مسلمون، وهم مشركون، ولا يعلمون.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٣) من حديث ابن عباس أخرجه البخاري ـ كتاب الطب/ باب من اكتوى أو كوى غيره ١٠/١٥٥، ومسلم كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ١/١٩٩.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

وهو إفراد الله عز وجل بِمَا لَهُ من الأسماء والصفات.

وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله عز وجل جميع أسمائه وصفاته.

الثاني: نفي المماثلة وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[١].

فدلّت هذه الآية على أن جميع صفاته لا يماثله فيها أحد من المخلوقين فهي وإن اشتركت في أصل المعنى، لكن تختلف في حقيقة الحال. فمن لم يثبت ما أثبته الله لنفسه فهو معطل، وتعطيله هذا يشبه تعطيل فرعون، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهًا للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلّت فيه بعض الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة، فمنهم من سلك مسلك التعطيل فعطّل ونفى الصفات زاعمًا أنه مُنزِّه لله، وقد ضل؛ لأن المنزّه حقيقة هو الذي ينفيٰ عنه صفات النَّقص والعيب، وينزه كلامه من أن يكون تعمية وتضليلاً، فإذا قال: بأن الله ليس له سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة لم ينزه الله، بل وصَمَه بأعيب العيوب، ووصم كلامه بالتعمية والتضليل؛ لأن الله يكرر ذلك في كلامه، ويثبته ﴿**سميع بصير**﴾ ﴿**عزيز حكيم**﴾ ﴿**غفور رحيم**﴾. فإذا أثبته في

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

كلامه، وهو خال منه كان في غاية التعمية والتضليل، والقدح في كلام الله عز وجل، ومنهم من سلك مسلك التمثيل زاعمًا بأنه محقق لما وصف الله به نفسه، وقد ضلوا لأنهم لم يقدروا الله حق قدره إذ وصموه بالعيب والنقص، لأنهم جعلوا الكامل من كل وجه كالناقص من كل وجه.

وإذا كان تفضيل الكامل على الناقص يحط من قدره، فكيف بتمثيل الكامل بالناقص؟! وهذا أعظم ما يكون جناية على الله عز وجل، وإن كان المعطلون أعظم جرمًا لكن الكل لم يقدر الله حق قدره.

فالواجب: أن نؤمن بما وصف الله وسمّى به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله، ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره من أهل العلم.

فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكييف في الصفة، والتمثيل في الصفة، إلا أنه أخص من التكييف.

فيجب أن تبرأ عقيدتنا من هذه الأمور الأربعة.

ونعني بالتحريف هنا: التأويل الذي سلكه المحرّفون لنصوص الصفات، لأنهم سمّوا أنفسهم أهل التأويل، لأجل تلطيف المسلك الذي سلكوه، لأن النفوس تنفر من كلمة تحريف، لكن هذا من باب زخرفة القول وتزيينه للناس، حتى لا ينفروا منه.

وحقيقة تأويلهم: التحريف، وهو صرف اللفظ عن ظاهره،

فنقول: هذا الصرف إن دل عليه دليل صحيح فليس تأويلاً بالمعنى الذي تريدون لكنه تفسير.

وإن لم يدل عليه دليل فهو تحريف، وتغيير للكَلِم عن مواضعه فهؤلاء الذين ضلوا بهذه الطريقة، فصاروا يثبتون الصفات لكن بتحريف قد ضلوا، وصاروا في مقابلة أهل السنة والجماعة.

وعليه لا يمكن أن يوصفوا بأهل السنة والجماعة؛ لأن الإضافة تقتضي النِّسْبَة، فأهل السنة منتسبون للسنة؛ لأنهم متمسكون بها، وهؤلاء ليسوا متمسكين بالسنة فيما ذهبوا إليه من التحريف.

وأيضًا الجماعة في الأصل: الاجتماع، وهم غير مجتمعين في آرائهم ففي كتبهم التداخل، والتناقض، والاضطراب حتى إن بعضهم يضلل بعضًا، ويتناقض هو بنفسه.

وقد نقل شارح الطحاوية عن الغزالي، وهو ممن بلغ ذِرْوَةَ علم الكلام كلامًا إذا قرأه الإنسان تبين له ما عليه أهل الكلام من الخطأ والزَّلل، والخطل، وأنهم ليسوا على بيّنة من أمرهم[1].

وقال الرازي وهو من رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عِقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما

---

(١) شرح الطحاوية ١/٢٤٥، وانظر أيضاً: درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٢، والإحياء ١/٩٤-٩٧.

رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القـرآن، أقرأ في الإثبات ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[1]. ﴿إليه يصعـد الكلم الـطيب﴾[2]. يعني فأثبت، واقـرأ في النفي: ﴿ليس كمثله شيء﴾[3]. ﴿ولا يحيـطون به علمًا﴾[4] يعني فأنفي المماثلة، وأنفي الإحاطة به علمًا، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[5].

فتجدهم حيارى مضطربين ليسوا على يقين من أمرهم[6]، وتجد من هداه الله الصراط المستقيم مطمئنًا منشرح الصدر، هادىء البال، يقـرأ في كتـاب الله، وفي سنة رسوله، ﷺ، ما أثبته الله لنفسه من الأسماء، والصفات، فيُثْبِتُ إذ لا أحد أعلم من الله بالله، ولا أصدق خبرًا من خبر الله، ولا أَصـح بيانًـا من بيان الله كما قال الله تعالى:

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/١٥٩، ١٦٠، والفتاوى ٤/٧١، وشرح الطحاوية ١/٢٤٤، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/٨٢.

(٦) وقال أبو المعالي الجويني: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به» وقال عند موته: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الـذي نهوني عنـه والآن إن لم يتـداركني ربي برحمتـه فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمتي، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور». انظر: شرح الطحاوية ١/٢٤٥، وتلبيس إبليس ص(٩٠)، وصون المنطق ص(١٨٣)، وفتح الباري ١٣/٣٥٠.

﴿**يريد الله ليبين لكم**﴾[1] . ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا**﴾[2] . ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء**﴾[3] .

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن الله يبين للخَلْق غاية البيان الطريق التي توصلهم إليه، وأعظم ما يحتاج الخَلْق إلى بيانه ما يتعلق بأسماء الله وصفاته حتى يعبدوا الله على بصيرة؛ لأن عبادة من لم نعلم صفاته، أو من ليس له صفة أمر لا يتحقق أبدًا، فلابد أن تعلم من صفات المعبود ما تجعلك تلتجيء إليه، وتعبده حقًّا.

ولا يتجاوز الإنسان حدَّه إلى التكييف؛ لأنه إذا كان عاجزًا عن تصوّر نفسه التي بين جنبيه فمن باب أولى أن يكون عاجزًا عن تصور حقائق ما وصف الله به نفسه، ولهذا يجب على الإنسان أن يمنع نفسه عن السؤال بـ (لِمَ) و(كيف) فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

وكذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية.

وهذا الطريق إذا سلكه الإنسان استراح كثيراً، وهذه حال السلف رحمهم الله، ولهذا لما جاء رجل إلى مالك بن أنس رحمه الله قال: يا أبا عبدالله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ كيف استوى؟ أطرق برأسه وقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا».

أما في عصرنا الحاضر فنجد من يقول: إن الله ينزل إلى السماء

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيلزم من هذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا؛ لأن الليل يمشي على جميع الأرض فالثلث ينتقل من هذا المكان إلى المكان الآخر، وهذا لم يقله الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان هذا يرد على قلب المؤمن لبينه الله ورسوله ﷺ، إما ابتداء، أو يقيض من يسأل عنه فيجاب كما سأل الصحابة رسول الله، ﷺ، أين كان الله قبل أن يخلق السموات والأرض فأجابهم[1].

فهذا السؤال العظيم يدل على أن كلَّ ما يحتاج إليه الناس فإن الله يبينه.

والجواب عن الإشْكَال في حديث النزول[2]: أن يقال: ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقيًا، فالنزول فيها مُحَقّق، وفي غيرها نحن لا ندركه، والله عز وجل ليس كمثله شيء. لكن ظاهر الحديث أن وقت النزول ينتهي بطلوع الفجر.

وعلينا أن نستسلم، وأن نقول سمعنا، وأطعنا، واتبعنا، وآمنا فهذه وظيفتنا.

---

(١) من حديث عمران بن حصين، رضي الله عنهما، وفيه: «جئنا نسألك عن هذا الأمر قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء» رواه البخاري، كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق﴾ ١/ ٤١٨.

ومن حديث أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله! أين ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء». رواه الترمذي، التفسير رقم (٣١٠٨) وقال: حسن، وابن ماجه في المقدمة رقم (١٣)، وأحمد في المسند ٤/ ١١، ١٢.

(٢) من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد/ باب الدعاء والصلاة آخر الليل. رقم ١١٤٥، ٣٦٢١، ٧٤٩٤، ومسلم كتاب صلاة المسافرين/ باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل ١/ ٥٢١.



قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿**وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلَّا ليعْبُدُونِ**﴾[1]. الآية.

سبق تعريف التوحيد[2].

لم يأت المؤلف رحمه الله بخطبة ومقدمة للكتاب، واكتفى بالترجمة؛ لأنَّك بمجرد أن تقرأ عنوان الكتاب تعرف أن موضوعه هو التوحيد.

قوله: ﴿**ما**﴾ نافية.

قوله: ﴿**إلا ليعبدون**﴾ استثناء مُفرَّغ من أعمِّ الأحوال، أي: ما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

واللام في قوله: ﴿**إلا ليعبدون**﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول، إذ لو كان كذلك لَلَزِمَ أن يكون الخلق كلّهم عبادًا لله يتعبدون له وليس الأمر كذلك.

فهذه العلّة غائيَّة، وليست مُوجبة.

فالعلّة الغائيَّة لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، أنَّها قد تقع، وقد لا تقع.

مثل: بريتُ القلم لأكتبَ به،فقد تَكتُبْ، وقد لا تَكْتُبْ.

والعلّة الموجبة معناها: أنَّ المعلول مبنيٌّ عليها، فلابدَّ أن تقع، وتكون سابقة للمعلول، وملازمة له.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦. (٢) ص (٥).

. . . .

مثل: انْكَسَر الزُجاج لشدَّة الحَرِّ.

قوله: ﴿**خلقت**﴾ أي: أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر:

ولأنــت تفــري ما خلقــت وبعض القــوم يخلق ثم لا يفــري

قوله: ﴿**الجن**﴾ هم عالمٌ غيبيٌّ مخفيٌّ عنَّا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلَّان على الخَفاء والاسْتِتار.

ومنه: الجَنَّة، والجِنَّة، والجُنَّة.

قوله: ﴿**الإنس**﴾ سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم لا يعيشون بدون إيناس، فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرَّك بعضهم إلى بعض.

قوله: ﴿**إلَّا ليعبدونِ**﴾ فُسِّر: إلا ليوحِّدون، وهذا حق، وفُسِّرَ: بمعنى يتـذلَّلون لي بالـطاعة فعلاً للمأمور، وتركًا للمحظور، ومن طاعته أن يُوحَّد سبحانه وتعالى، فهذه هي الحكمة من خلق الجنِّ، والإِنس.

ولهذا أعطى الله البشر عقولاً، وأرسل إليهم رُسلاً، وأنزلَ عليهم كُتبًا، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خَلْق البهائم، لضاعت الحكمة من إرسال الرُّسل، وإنزال الكُتب؛ لأنَّه في النهايةَ يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطَّمت.

ولهذا قال تعالى: ﴿**إنَّ الذي فرض عليك القرآن لرآدُّكَ إلى معاد**﴾[1] فلابدَّ أن يردّك إلى معادٍ تُجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نَفْعُ الله، ولهذا قال تعالى: ﴿**ما أُريد منهم**

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٥.

وقـولـه تعـالى: ﴿ولقد بَعَثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رسولاً أنِ اعبُدُوا الله واجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

من رزق وما أُريد أن يُطعمون﴾[2].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضًا حسنًا فيُضاعفه له﴾[3].

فهـذا ليس إقراضًا لله سبحانه، بل هو غنيٌّ عنه، لكنَّه سبحانه شبَّه معاملة عبده له بالقرض؛ لأنَّه لابدَّ من وفائه، فكأنَّه التزامٌ من الله سبحانه أن يُوفِّي العامل أجر عمله كما يُوفِّي المقترض من أقرضه.

قوله: ﴿ولقد﴾ اللام موطئة لقسم مقدَّر.

وقد: للتحقيق.

وعليه فالجملة مؤكَّدة بالقسم المقدَّر، واللام، وقد.

قوله: ﴿بعثنا﴾ أي أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة.

والأمة هنا: الطائفة من النَّاس.

وتطلق الأمة في القرآن على أربعة معانٍ:

أ ـ الطائفة: كما في هذه الآية.

ب ـ الإمام: ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ إبراهيم كان أمَّة قانتًا لله﴾[4].

جـ ـ المِلَّة: ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّا وجدنا آباءنا على أمة﴾[5].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

. . . .

د ـ الزَّمن: ومنه قوله تعالى: ﴿**وادّكر بعد أُمَّة**﴾[1].

فكل أمة بُعِثَ فيها رسولٌ من عهد نوح إلى عهد نبينا محمد ﷺ.

والحكمة من إرسال الرسل:

أ ـ إقامة الحُجَّة: قال تعالى: ﴿**رُسلاً مبشِّرين ومنذرين لئلّا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسل**﴾[2].

ب ـ الرحمة: لقوله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين**﴾[3].

ولأنَّ الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلّا عن طريق الرُّسل.

قوله: ﴿**أن اعبدوا الله**﴾.

أن: قيل: تفسيريَّة، وهي التي سبقت بما يدلّ على القول دون حروفه كقوله تعالى: ﴿**فأوحينا إليه أن اصنع الفُلك**﴾[4] والوحي فيه معنى القول دون حروفه، والبعث متضمِّنٌ معنى الوحي؛ لأنَّ كلَّ رسول مُوحى إليه.

وقيل: إنَّها مصدريَّة على تقدير الباء، أي: بأن اعبدوا والراجح: الأول لعدمِ التقدير.

قوله: ﴿**أن اعبدوا الله**﴾.

أي: تذلَّلوا له بالعبادة.

وسبق تعريف العبادة[5].

قوله: ﴿**واجتنبوا الطاغوت**﴾.

---

(١) سورة يوسف آية (٤٥).

(٢) سورة النساء آية (١٦٥).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

(٥) ص (٩، ١٠).

أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب، وهو في جانب، والطّاغوت: مشتقٌ من الطغيان، وهو صفة مشبَّهة، والطغيان: مجاوزة الحدّ كما في قوله تعالى: ﴿**إنّا لمّا طغا الماء حملناكم في الجارية**﴾(١) أي: تجاوز حدَّه.

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله بأنَّه: ما تجاوز به العبد حدَّه من متبوع، أو معبود، أو مُطاع.

ومراده من كان راضيًا بذلك، أو يُقال: هو طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومُطيعه، لأنَّه تجاوز به حدّه حيث نزَّله فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتّباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحدَّ بذلك.

فالمتبوع مثل: الكهَّان، والسَّحرة، وعُلماء السوء.

والمعبود مثل: الأصنام.

والمُطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله، فإذا اتَّخذهم الإنسان أربابًا يُحِلُّ ما حرَّم الله من أجل تحليلهم له، ويُحرِّم ما أحلَّ الله من أجل تحريمهم له فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت. قال تعالى: ﴿**ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب يُؤمنون بالجِبت والطاغوت**﴾(٢).

ولم يقل: إنَّهم طواغيت.

ودلالة الآية على التوحيد: أنَّ الأصنام من الطواغيت التي تُعبد من دون الله.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥١.

. . . .

والتوحيد لا يتم إلا بركنين هما:

١ - الإثبات.

٢ - النفي.

إذ النَّفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة.

مثال ذلك: زيدٌ قائم، يدلُّ على ثبوت القيام لزيد، لكن لا يدلُّ على انفراده به.

ولم يقم أحد، هذا تعطيل محض.

ولم يقم إلَّا زيد، هذا توحيد له بالقيام، لأنَّه اشتمل على إثبات ونفي.

قوله: الآية.

أي: إلى آخر الآية، وتُقرأ بالنَّصب إمَّا على أنَّها مفعول به لفعل محذوف تقديره اكمل الآية.

أو أنها منصوبة بنزع الخافض أي: إلى آخر الآية.

قوله: ﴿**فمنهم من هدى**﴾ أي: من الأمة، وقال: ﴿**منهم**﴾ مع أن الأمة مفرد، لأنها مفرد لفظًا، جمع معنى.

والمراد بالهداية: هداية التوفيق، إذ أن هداية الدلالة ثبتت بإرسال الرُّسل.

فمعنى «هدى الله»: وفّقه الله.

وجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنَّها دالَّة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أُرسلوا به لقوله تعالى: ﴿**أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾.

وقوله: ﴿وقَضَى ربُّكَ أن لا تعبُدوا إلّا إيَّاهُ وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا﴾[1]. الآية.

قوله: ﴿**وقضى**﴾ قضاء الله ـ عز وجل ـ ينقسم إلى قسمين:

١ ـ قضاء شرعي.

٢ ـ قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه وعدمه، ولا يكون إلّا فيما يحبه الله.

مثال ذلك: هذه الآية: ﴿**وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه**﴾[2] فتكون قضى: بمعنى: شرع، أو بمعنى: وصَّى، وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لابدَّ من وقوعه، ويكون فيما أحبَّه الله، وفيما لا يحبه.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرَّتين ولتعلُنَّ علوًّا كبيراً**﴾[3].

فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يُشرع الفساد في الأرض، ولا يُحبُّه.

قوله: ﴿**أن لا تعبدوا**﴾.

﴿**أن**﴾ هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مُفرَّغ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله، فمفعوله ما بعد إلا.

قوله: ﴿**إلّا إيَّاه**﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال، لأنَّ المتَّصل لا يقع بعد إلّا قال ابن مالك:

وذو اتصال منه مالا يبتدا ... ولا يلي إلا اختيارًا أبدا[4]

---

(١) (٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤.

(٤) ألفية ابن مالك ص(١٢).

إشكال وجوابه:

إذا قيل: ثبت أن الله قضى كونًا ما لا يحبه، فكيف يقضي الله ما لا يحبه؟

والجواب: أن المحبوب قسمان:

١ - محبوب لذاته.

٢ - محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهًا لذاته، ولكن يُحبُّ لما فيه من الحكمة والمصلحة، فيكون حينئذٍ محبوبًا من وجه؛ مكروهًا من وجه آخر.

مثال ذلك: الفساد في الأرض من بني إسرائيل في حدّ ذاته مكروه إلى الله؛ لأنَّ الله لا يُحب الفساد، ولا المُفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون محبوبًا إلى الله - عزّ وجلّ - من وجه آخر.

ومن ذلك القحط، والجدب، والمرض، والفقر؛ لأنَّ الله لا يُحب أن يؤذي عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليُسر. لكن يُقدره للحِكم المُترتِّبة عليه، فيكون محبوبًا إلى الله من وجه، مكروهًا من وجه آخر.

قال الله تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلَّهم يرجِعُون**﴾[1].

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه آخر؟

فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جُرعة من الدواء مُرَّة كريهة الرائحة واللون، فيشربها، هو يَكرهها لما فيها من المرارة، واللون، والرائحة، ويحبها لما فيها من الشِّفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المُحمَّاة على النار، ويتألم

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

منها فهذا الألم مكروه له من وجه محبوب له من وجه آخر.

فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه**﴾ من باب القضاء القدري؟

أُجيب: بأنه لا يمكن إذ لو كانت قضاءً قدريًّا لعَبَدَ الناس ربهم كلهم، لكنه قضاء شرعي قد يقع، وقد لا يقع.

والخطاب في الآية للنبي، ﷺ، لكن قال: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيَّاه**﴾ ولم يقل: «أن لا تعبد» ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء**﴾[1] فالخطاب الأول للرسول، ﷺ، والثاني عام فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟

أُجيب: أن الفائدة من ذلك:

١ - التنبيه، إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلِّم.

٢ - أنَّ النبي، ﷺ، زعيم أمته، والخطاب الموجَّه إليه موجه لجميع الأمَّة.

٣ - الإشارة إلى أن ما خُوطب به الرسول، ﷺ، فهو له ولأمته، إلا ما دلَّ الدليل على أنه مختص به.

٤ - في هذه الآية خاصية الإشارة إلى أن النبي، ﷺ، مربوب لا ربّ، عابد لا معبود، فهو داخل في قوله: ﴿**تعبدوا**﴾ وكفى به شرفًا أن يكون عبدًا لله - عز وجل - ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته، فقال في مقام التحدي والدفاع عنه: ﴿**وإن كنتم في ريب ممَّا نزَّلنا على عبدنا**﴾[2]. وقال في

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

مقام إثبات نبوّته ورسالته إلى الخلق: ﴿**تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده**﴾[1].

وقال في مقام الإسراء والمعراج: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾[2]. ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾[3].

أقسام العبودية:

تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

١ - عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق قال تعالى: ﴿**إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلاّ آت الرحمن عبدًا**﴾[4] ويدخل في ذلك الكفار.

٢ - عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة قال تعالى. ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا**﴾[5] وهذه تعمُّ كل من تعبَّد لله بشرعه.

٣ - خاصّة الخاصّة، وهي عبودية الرُّسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى عن نوح: ﴿**إنَّه كان عبدًا شكورًا**﴾[6] وقال عن محمد: ﴿**وإن كنتم في ريب ممَّا نزَّلنا على عبدنا**﴾[7] وقال في آخرين من الرُّسل: ﴿**واذكر عبادنا**

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٣) سورة النجم، الآية: ١٠.
(٤) سورة مريم، الآية: ٩٣.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾[1].

فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة الخاصة، لأنه لا يباري أحد هؤلاء الرسل في العبودية.

قوله: **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾**.

أي: قضى ربك أن نحسن بالوالدين إحسانًا.

والوالدان: يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلّما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسان بَذْلُ المعروف، وفي قوله: **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾** بعد قوله: **﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾** دليل على أنَّ حق الوالدين بعد حق الله ـ عزّ وجلّ ـ.

فإن قيل: فأين حقّ الرسول ﷺ؟

أُجيب: بأن حق الله متضمِّنٌ لحق الرسول ﷺ؛ لأنَّ الله لا يُعبد إلاّ بما شَرع الرسول ﷺ.

وقوله: **﴿إمَّا يبلغنَّ عندك الكبر أحدهما، أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ﴾** أي: كفّ الأذى عنهما، ففي قوله: **﴿إحسانًا﴾** بذل المعروف، وفي قوله: **﴿فلا تقل لهما أفٍّ﴾** كف الأذى، ومعنى «أف» أتضجر؛ لأنك إذا قلته فقد يتأذّيان بذلك. وفي الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صارا عبئًا على وَلَدهما، فلا يتضجّر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.

قوله: **﴿وقل لهما قولاً كريمًا﴾** أي: ليِّنًا حسنًا بهدوء، وطمأنينة كقولك: أعظم الله أجرك، أبشري يا أمي، أبشر يا أبي، وما أشبه ذلك. فالقول الكريم يكون في صيغته، وأدائه، والخطاب به، فلا يكون مزعجًا كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمَّن الدعاء، والإيناس لهما.

(١) سورة ص، الآية: ٤٦.

وقوله: ﴿واعبُدوا الله ولا تُشْركوا بهِ شيئًا﴾[1]. الآية.

قولـه: ﴿واخفض لهما جناح الذلِّ من الرحمة﴾ أي: تذلَّل لهما، وإنَّما قال: ﴿جناح الذل﴾ لأن الإنسان بطبيعته عنده كبرياء فهذا الجناح الذي يطير به إلى أعلى يخفضه لوالديه.

و﴿من﴾ في قولـه: ﴿من الـرحمة﴾ للتعليل أي: لرحمتهما؛ لأنَّهما بلغا الكبر، وصارا عالة عليك، ويتعبانك فارحمهما.

وقوله: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾.

أي: توجَّـه إلى الله بالـدعـاء لهما بالرحمة. والكاف هنا للتعليل، وما مصدرية أي: لتربيتهما إيَّايَ صغيراً.

وذكر حال الصغر؛ لأنَّ الإنسان في حال الصِّغر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولكنَّ الأم والأب يتعبـان في الاكتساب له، وتربيته تربية بدنيَّة، ودينيَّة، وخلقيَّة.

الشاهد من هذه الآية: قوله تعالى: ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾ فهذا هو التوحيد.

قوله: ﴿واعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا﴾,

﴿ولا تشركوا﴾ في مقابل «لا إلـه» لأنها نفي.

وقوله: ﴿واعبدوا﴾ في مقابل «إلا الله».

وقـوله: ﴿شيئًا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعمّ كل شيء: لا نبيًّا، ولا ملكًا، ولا وليًّا، بل ولا أمرًا من أمور الدنيا، فلا تجعل الدنيا شريكًا مع الله، والإنسان إذا كان همّه الدنيا كان عابدًا لها كما قال ﷺ: «تَعِسَ عبد الدينار

---

(1) سورة النساء، الآية: ٣٦.

وقـوله: ﴿قُلْ تعَالَوْا أَتْلُ ما حرّمَ رَبُّكم عليكم ألاّ تُشْرِكُوا به شيئًا﴾[1]. الآيات.

تَعِسَ عبد الدرهم، تَعِسَ عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة»[2].

قوله: ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ يقال فيها ما قيل في الآية السابقة[3].

قوله: ﴿وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي: إحسانًا.

واليتامى: جَمْعُ يَتيم، وهو الذي مات أبوه، ولم يَبلُغْ.

والمساكين: هم الذين عدِموا المال فأسكنهم الفقر.

وابن السَّبيل: هو المُسافر انقطعت به النفقة.

قوله: ﴿والجار ذي القربى، والجار الجُنب﴾.

الجار: الملاصق للبيت، أو من حوله، وذي القُربى: أي: القريب. والجار الجنب: أي: الجار البعيد.

قولـه: ﴿والصاحب بالجنب﴾ قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السَّفر؛ لأنه يكون إلى جنبك، ولكل منهما حق.

قولـه: ﴿ومـا ملكت أيـمانكم﴾ هذا يشمـل الإحسـان إلى الأرقّـاء، والبهائم، لأنَّ الجميع ملك لليمين.

قوله: ﴿إنَّ الله لا يحب من كان مختالاً فخورًا﴾.

المختال: في هيئته.

والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا، ولا هذا.

قوله: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم﴾.

الخطاب للنبي ﷺ.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(2) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب الحراسة في الغزو ٢/٣٢٧. (3) انظر ص(٢٩).

. . . .

وقوله: ﴿تعالوا﴾ أي: أقْبلُوا، وهَلِمُّوا، وأصله من العلوّ كأن المنادي يناديك أن تعلو إلى مكانه، فيقولَ: تعال: أي: ارتفع إلي.

وقوله: ﴿أتل﴾ بالجزم جوابًا للأمر في قوله: ﴿تعالوا﴾.

وقـولـه: ﴿ما حرَّم ربكم عليكم﴾ «ما» اسم موصول مفعول لأتلُ. والعائد محذوف، والتقدير: ما حرَّمه ربكم عليكم.

وقال: ﴿ربكم﴾ ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرّبّ هنا أنسب حيث أن الربّ له مطلق التصرُّف في المربوب.

قوله: ﴿ألاّ تشركوا﴾.

أن: تفسيرية، تفسر «أتل» أي: أتلوا عليكم ألاّ تشركوا به شيئًا وليست مصدرية، وقد قيل به، وعلى هذا القول تكون «لا» زائدة ولكن القول الأول أصح أي: أتل عليكم عدم الإشراك؛ لأنَّ الله لم يحرِّم علينا أن لا نشرك به، بل حرَّم علينـا أن نشرك به، وممَّـا يؤيِّد أن «أنّ» تفسـيرية أن «لا» هنا ناهية لتتناسب الجُمَل، فتكون كلّها طلبية.

قوله: ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

فإن قيل: كيف يصدق على نفي الشرك أنه حرام؟ وعلى الإحسان أنه حرام؟

أُجيب: أن المعنى حرام تجنبه أي: يحرم عليكم أن تجتنبوا انتفاء الشرك به، وأن تجتنبـوا الإحسـان إلى الوالدين، وإذا حُرِّم ذلك صار ضده واجبًا، فيجب حينئذٍ التوحيد، والإحسان إلى الوالدين.

قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾.

. . . .

بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حقّ الفُروع.

والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظِّ الأنثيين﴾**[1].

قوله: **﴿من إملاق﴾**.

الإملاق: الفقر، و**﴿من﴾** للسببية، والتعليل أي: بسبب الإملاق.

قوله: **﴿نحن نرزقكم وإيَّاهم﴾**.

أي: إذا أبقيتموهم، فإنَّ الرِّزق لن يضيق عليكم بإبقائهم؛ لأنَّ الذي يقوم بالرِّزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الآباء، وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد والحكمة في ذلك: أنه قال: هنا **﴿من إملاق﴾** فالإملاق حاصل فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: **﴿خشية إملاق﴾**[2] فهما غنيان فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

قوله: **﴿ولا تقربوا الفواحش﴾**.

لم يقل: لا تأتوا؛ لأنَّ النَّهي عن القرب أبلغ من النَّهي عن الإتيان؛ لأنَّ النَّهي عن القرب نهي عنها، وعمَّا يكون ذريعة إليها، ولذلك حرَّم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم؛ لأنَّ ذلك يقرِّب من الفواحش.

قوله: **﴿ما ظهر منها وما بطن﴾**.

قيل: ما ظهر فحشه، وما خفي؛ لأنَّ الفواحش منها شيء مستفحَشٌ في نفوس جميع الناس، وفيها شيء فيه خفاء.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

. . . .

وقيل: ما أظهرتموه، وما أسررتموه، فالإظهار: فعل الزِّنا ـ والعياذُ بالله ـ مجاهرة، والإبطان فعله سرًّا.

وقيل: ما عَظُمَ فُحْشُهُ، وما كان دون ذلك، لأنَّ الفواحش ليست على حدٍّ سواء، ولهذا جاء في الحديث: «**ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر**»[1] وهذا يدلّ على أنَّ الكبائر فيها أكبر، وفيها ما دونَ ذلك.

قوله: ﴿**ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلاّ بالحقّ**﴾.

النَّفس التي حرَّم الله: هي النَّفس المعصومة، وهي نفس المسلم والذميّ، والمُعاهد، والمُستأمَن.

والحق: ما أثبته الشرع.

والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الذي أثبته الشرع في قتل النفس المعصومة أن يزني المُحْصَن فيُرجم حتَّى يموت، أو يقتل مكافئه، أو يخرج على الجماعة، أو يَقطع الطريق فإنَّه يقتل، قال ﷺ: «**لا يحلُّ دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النَّفس بالنفس، والثَّيِّب الزاني، والتارك لدينه المُفارق للجماعة**»[2].

وقال هنا: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاّ بالحقّ**﴾ وقال قبلها: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾ فيكون النَّهي عن قتل الأولاد مرَّتين، مرَّة بذكر الخصوص، ومرَّة بذكر العموم.

---

(١) من حديث أبي بكرة، أخرجه البخاري، كتاب الشهادات/ باب ما قيل في شهادة الزور ٢/٢٥١، ومسلم كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر ١/٩١.

(٢) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الديات/ باب إذا قتل بحجر أو بعصا ٤/٢٦٨، ومسلم، كتاب القسامة/ باب ما يباح به دم المسلم ٣/١٣٠٢.

قوله: ﴿ذلكم وصَّاكم به﴾.

المشار إليه ما سبق، والوصية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام ولهذا يُقال: وصَّيته على فلان: أي: عهدت به إليه ليهتمَّ به.

قوله: ﴿تعقلون﴾.

العقل هنا: حُسن التصرف، وأما في قوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾[1] فمعناه: تَفهمون.

وفي هذا دليل على أنَّ هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان فهو عاقلٌ رَشيدٌ وإذا خالفها فهو سفيهٌ ليس بعاقل.

قوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن﴾.

أي: فأمَّا بالتي هي أحسن فاقربوه.

وقوله: ﴿ولا تقربوا﴾ هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخِصلة التي هي أحسن، ولم يقل سبحانه إلاّ بالحسن، فلا نقربه بأي تصرُّف إلاّ بما نرى أنه أحسن، فإذا لاحَ للوليِّ تصرّفان أحدهما أكثر ربحًا فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحًا لأنّه أحسن.

والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني، فإذا لاحَ تصرفان أحدهما أكثر ربحًا وفيه ربًا، والآخر أقل ربحًا وهو أسلم من الرِّبا، فنقدِّم الأخير، لأنَّ الحسن الشرعي مقدَّم على الحسن الدنيوي المادي.

قوله: ﴿حتى يبلغ أشدَّه﴾.

أي: إذا بلغ أشده فإننا ندفعه إليه بعد أن نختبره، وننظر في حُسْنِ تصرفه، ولا يجوز لنا أن نُبقيه عندنا.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣.

. . . .

ومعنى أشده: قوَّته العقلية، والبدنية، والخطاب هنا لأولياء اليتامى، أو للحاكم على قول بعض أهل العلم.

قوله: **﴿وأوفوا الكيل والميزان﴾**.

أي: أَوفُوا الكيْل إذا كِلتم فيما يُكال من الأطعمة، والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يُوزن كاللحوم مثلاً.

والأمر بالإيفاء شاملٌ لجميع ما تتعامل به مع غيرك، فيجب عليك أن توفي بالكيل والوزن.

قوله: **﴿بالقسط﴾**.

أي: بالعدل، ولما كان قوله: **﴿بالقسط﴾** قد يشقُّ بعض الأحيان؛ لأنَّ الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل، أو الوزن أحيانًا أعقب ذلك بقوله: **﴿لا نكلِّف نفسًا إلاّ وسعها﴾** أي: طاقتها، فإذا بذل جهده، وطاقته، وحصل النقص، فلا يعدّ مخالفاً؛ لأنَّ ما خرج عن الطاقة معفوٌّ عنه فيه، وكما أنَّ هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوُسْع، فإنَّها تفيد التغليظ من وجه، وهو أنَّ على المرء أن يبذل وُسعه في الإيفاء بالقِسط.

قوله: **﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾**.

معناه: أي قول تقوله، فإنَّه يجب عليك أن تعدل فيه سواء كان ذلك لنفسك على غيرك، أو لغيرك على نفسك، أو لغيرك على غيرك، أو لتحكم بين اثنين، فالواجب العدل، إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضدّه الجَور، والمَيْل، فلا تَمِلْ يمينًا، ولا شِمالاً، ولم يقل هنا: **﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾** لأنَّ القول لا يشق.

قوله: **﴿ولو كان ذا قربى﴾**.

أي: المَقُول له ذا قرابة، أي: صاحب قرابة، فلا تحابيه لقرابته فتميل

معه على غيره من ٔ جعل أمرك إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ الذي خلقك، وأمرك بهذا، وإليه سة ـألك ـ عزّ وجلّ ـ ماذا فعلت في هذه الأمانة.

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشر محمد ﷺ، وقال: «**وأيم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[1].

قوله: ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾.

قدَّم المتعلق للاهتمام به.

﴿**وعهد الله**﴾ ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره كما قال عز وجل: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنًا**﴾[2].

هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى: ﴿**لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾[3] هذا من جانب الله ـ عز وجل ـ فعهد الله الذي عهد به إلينا: أن نعبده وحده لا شريك له ونقوم بأمره، ويجب علينا الوفاء به.

قوله: ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾.

هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عز وجل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾.

---

(١) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب الأنبياء/ باب حدثنا أبو اليمان ٢/٤٦٦، ومسلم كتاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف ٣/١٣١٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢.

. . . .

الثانية: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾.

الثالثة: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾.

الرابعة: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾.

والآية الأولى فيها خمس وصايا صار الجميع تسع وصايا. ثم قال عز وجل: ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه﴾.

هذه هي الوصية العاشرة فقوله: ﴿وأن هذا صراطي﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأمَّلته وجدته محيطًا بالشرع كله إمّا نصًّا، وإمّا إيماء، ويحتمل أنَّ المراد به ما علم من دين الله أي: هذا الذي جاءكم به الرسول ﷺ هو صراطي أي الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

والصراط يضاف إلى الله عز وجل، ويضاف إلى سالكه، ففي قوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾[1] هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى: ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾[2] هنا أضيف إلى الله عز وجل فإضافته إلى الله عز وجل لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده جلّ وعلا وإضافته إلى سالكه لأنهم هُم الذين سلكوه.

قوله: ﴿مستقيمًا﴾.

هذه حال من «صراط» أي: حال كونه مستقيمًا لا اعوجاج فيه فاتَّبعوه.

قوله: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله﴾.

السبل: أي: الطرق الملتوية.

وتفرَّق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها «تتفرق».

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٣.

قال ابنُ مسعودٍ: «من أرادَ أن يَنْظُرَ إلى وصِيَّة محمد ﷺ التي عليها خَاتَمُهُ فلْيقْرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تعالوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ ربُّكم عليكم ألَّا تشركوا به شيئًا﴾. إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقِيمًا﴾[1]. الآية.

أي: أنَّكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتَّت بكم وبعدت، وهذا صحيح.

وهنا قال: ﴿السبل﴾ وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: ﴿سبيله﴾ سبيل واحد، لأنَّ سبيل الله عز وجل واحد، وأما ما عداه فسبل متعددة، ولهذا قال النبي ﷺ: «وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النَّار إلا واحدة»[2]. فالسبيل المُنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿يهدي به الله من اتَّبَع رضوانه سبل السَّلام﴾[3]. لأنَّ «سُبُل» في الآية الكريمة، وإن كانت مجموعة لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وقوله: ﴿ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون﴾.

أي: ذلك المذكور وصَّاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به، ورسوله ﷺ. الحديث قال ابن مسعود: «من أراد...»

قوله: «وصية محمد».

الوصية بمعنى: العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن ٨/ ٢٣٠، وقال: «حديث حسن غريب»، والطبراني في الكبير (١٠٠٦٠) بلفظ: «من سره أن يقرأ صحيفة محمد، ﷺ...» إلخ.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٣٢، وأبوداود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وابن أبي عاصم (٦٦)، وابن حبان (٣٩٩١) عن أبي هريرة وصححه الترمذي والحاكم.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٦.

. . . .

وقوله: «**محمد صلى الله عليه وسلم**» أي: رسول الله ﷺ، وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول الله ﷺ، ووصية محمد ﷺ، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا**﴾[1] لأنَّ دعاء الرسول هنا أي: مناداته، فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، أمّا الخبر فهو أوسع من باب الطلب ولهذا يجوز أن نقول: أنا تابعٌ لمحمد ﷺ، أو اللهم صلِّ على محمد وما أشبه ذلك.

قوله: «**التي عليها خاتمه**» الخاتم: بمعنى التوقيع.

وقوله: «**وصية محمد صلى الله عليه وسلم**» ليست وصية مكتوبة مختومًا عليها، لأنَّ النبي، ﷺ، لم يوصِ بشيء، ويدل لذلك: أنَّ أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب هل عهد إليكم النبي، ﷺ، بشيء؟ فقال: لا. والذي فلق الحبّةَ وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر[2].

فلا يُظنّ أن النبي، ﷺ، أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كلّه فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ، وأبقاها لأمته.

وهي آيات عظيمة إذا تدبرها الإنسان وعمل بها حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة العقل والتّذكّر والتّقوى.

وقوله: «**فليقرأ قوله تعالى**» إلخ الآيات سبق الكلام عليها.

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات/ باب العاقلة ٤/ ٢٧٤.

وعن مُعَاذِ بن جبلٍ (رضي الله عنه) قال: «كنتُ رِديفَ النبيِّ ﷺ على حمارٍ، فقال لي: «يامُعاذُ، أتدري ما حقُّ الله على العبادِ، وما حقُّ العبادِ على الله؟ قُلتُ: الله ورسولُه أعلمُ؛ قال: حقُّ الله على العبادِ أن يَعبدوهُ ولا يُشركوا به شيئًا.

قوله: «**رديف**» بمعنى رادف أي: راكب خلفه فهو فعيل بمعنى فاعل مثل: رحيم بمعنى راحم، وسميع بمعنى سامع.

قوله: «**على حمار**» أي: أهلي؛ لأنَّ الوحشيّ لا يُركب.

قوله: «**أتدري**» أي: أتعلم.

قوله: «**ما حق الله على العباد**»؟ أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به، وألقاه على معاذ بصيغة السؤال ليكون أشد حضورًا لقلبه حتى يفهم ما يقوله ﷺ.

قوله: «**وما حق العباد على الله؟**» أي: ما يجب أن يُعاملهم به، والعباد لم يوجبوا شيئًا بل الله أُوجبه على نفسه فضلاً منه على عباده قال تعالى: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة أنَّه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم**﴾[1].

فأوجب سبحانه على نفسه أن يرحم من عمل سوءًا بجهالة أي: بسفه وعدم حُسن تصرّف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ومعنى كتب: أي: أوجب.

قوله: «**قلت الله ورسوله أعلم**».

الله: مبتدأ، والرسول: معطوف عليه، وأعلم: خبر المبتدأ. وأفرد الخبر

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

وحق العبادِ على الله أن لا يُعذِّبَ من لا يُشركُ به شيئًا»، قلت: يارسول الله، أفلا أُبشِّرُ الناس؟ قال: لا تُبشِّرْهُم فَيَتَّكلوا» أخرجاهُ في الصحيحين[1].

هنا لأنه على تقدير: «مِنْ» واسم التفضيل إذا كان على تقدير: «مِنْ» فإن الأشهر فيه الإفراد والتذكير.

والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضًا.

قوله: «**يعبدوه**» أي: يتذلّلوا له بالطاعة.

قوله: «**ولا يشركوا به شيئًا**» أي: في عبادته، وما يختص به. وشيئًا نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء لا رسولاً ولا مَلَكًا ولا وليًّا ولا غيرهم.

وقوله: «**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**» وهذا الحق تفضل الله به على عباده، ولم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: «**من لا يُشرك به شيئًا**» أنَّه مجرَّد عن العبادة، لأنَّ التقدير: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ولم يذكر قوله: «**من يعبده**» لأنَّه مفهوم من قوله: «**وحق العباد**» ومن كان وصفه العبودية فلا بدَّ أن يكون عابدًا.

ومن لم يعبد الله ولم يُشرك به شيئًا هل يعذَّب؟

الجواب: نعم يعذَّب لأنَّ الكلام فيه حذف، وتقديره: من يعبده ولا يُشرك به شيئًا ويدلّ لهذا أمران:

الأول: قوله: «**حق العباد**» ومن كان وصفه العبودية فلابدَّ أن يكون عابدًا.

الثاني: أنَّ هذا مقابل لما تقدَّم: «**أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئًا**» فعلم

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس/ باب إرداف الرجل خلف الرجل ٤/٨٤، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١/٥٨.

. . . .

أن المُراد بقوله: «**لا يشركوا به شيئًا**» أي: في العبادة.

قوله: «**أفلا أُبَشِّر الناس**» أي: أأَسْكُت فلا أُبَشِّر الناس؟ ومثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو فيه قولان:

الأول: أنَّ بين الهمزة وحرف العطف محذوفًا يقدر بما يناسب المقام، وتقديره هنا: أأسكت فلا أبشر الناس؟

الثاني: أنَّ همزة الاستفهام متقدمة وحقها أن تكون بعد حرف العطف وعليه فليس هناك شيء محذوف، بل هناك ترتيب وتقديره: فألا أُبشِّر؟ فالجملة معطوفة على ما سبق، ومحل الفاء سابق على الهمزة، فالأصل فألا أبشر الناس؟ لكن لما كان مثل هذا التركيب ركيكًا، وهمزة الاستفهام لها الصدارة قُدِّمت على حرف العطف، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**أفلا تبصرون**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾[3].

والبشارة هي: الإخبار بما يَسُرُّ.

وقد تستعمل في الإخبار بما يضرُّ ومنه قوله تعالى: ﴿**فبشِّرهم بعذاب أليم**﴾[4].

قوله: «**لا تبشرهم**» أي: لا تخبرهم، ولا: ناهية.

ومعنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يُشركُ به شيئًا. وأن المعاصي

---

(١) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الانشقاق، الآية: ٢٤.

فيه مسائل: الأولى: الحكمةُ من خلق الجن والإنس. **الثانية**: أنَّ العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه.

تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى، ﷺ، عن إخبارهم لئلّا يعتمدوا على هذه البشرى، وهم لا يفهمون معناها؛ لأنَّ تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأنَّ المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشِّرك قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتَّخذ إلـهه هواه﴾**[1].

ومناسبة الحديث للترجمة: هو فضيلة التوحيد، وأنَّه مانع من عذاب الله.

المسائل:

الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس:

أخذها رحمه الله من قوله تعالى: **﴿وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾**[2]، فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

الثانية: أنَّ العبادة هي التوحيد:

أي: أنَّ العبادة مبنية على التوحيد فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لا سيما وأن بعض السَّلف فسَّروا قوله تعالى: **﴿إلا ليعبدون﴾** إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تمامًا لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد، فكل عبادة لا تبنى على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: قال الله

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله ففيه معنى قوله ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾[1]. **الرابعة**: الحكمةُ في إرسالِ الرسلِ. **الخامسة**: أنّ الرسالة عمت كلَّ أمة.

تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[2].

وقوله: «**لأن الخصومة فيه**» أي: التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش، فقريش يعبدون الله يطوفون له، ويصلون، ولكن على غير الإخلاص، والوجه الشرعي، فهي كالعدم لعدم الإتيان بالتوحيد قال تعالى: ﴿**وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله**﴾[3].

وقوله في الثالثة: ففيه معنى قوله: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾.

ووجهه: أنَّ معنى قوله: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ لستم عابدين عبادتي لأنَّ عبادتكُم مبنية على الشرك فليست بعبادة لله تعالى.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل:

أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[4].

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

الخامسة: أنَّ الرِّسالة عمَّت كل أمة:

---

(١) سورة الكافرون، الآية: ٣.

(٢) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الزهد/ باب من أشرك في عمله غير الله ٢٢٨٩/٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ٣٦.

السادسة: أنَّ دين الأنبياء واحد. **السابعة**: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصُل إلا بالكفر بالطاغوت. ففيه معنى قوله تعالى: **﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾**.[1] الآية.

أخذها من قوله تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾**[2].

السادسة: أنَّ دين الأنبياء واحد:

أخذها من قوله تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**. ومثله قوله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون﴾**[3].

وهذا لا ينافي قوله تعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾**[4]، لأنَّ الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين فواحد قال تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[5].

السابعة: المسألة الكبيرة أنَّ عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت:

ودليله قولـه تعالى: **﴿واجتنبوا الطاغوت﴾** فمن عبدالله ولم يكفر بالطاغوت فليس بمـوحّـد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأنَّ كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٣.

تنبيـه:

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئًا من ذلك لأنَّ هذه وغيرها لها أسباب، ولها موانع، فلا نقول لمن أكل الرِّبا ملعون؛ لأنَّه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه كالجهل مثلاً أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركًا فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم وكذا نقول: من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين.

إذ إن الحكم المُعلَّق بالأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصًا يتبرَّز في الطريق فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلاّ إذا أريد باللعن في قوله: «**اتقوا الملاعن**»[1] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلاً بالأدب فهذا شيء آخر.

فدعـاء القبر شرك لكن لا يمكن أن نقول لشخص هذا مشرك حتى يعرف قيام الحجة عليه، أو نقول هذا مُشرك باعتبار ظاهر حاله.

الثامنة: أنَّ الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله:

فكل ما عُبدَ من دون الله فهو طاغوت، وقد عرَّفه ابن القيم: بأنَّه كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع.

فالمعبود كالصَّنم، والمتبوع كالعالِم، والمُطاع كالأمير.

---

(١) من حديث معاذ رواه أبو داود كتاب الطهارة/ باب المواضع التي نهى النبي، ﷺ، عن البول فيهـا ١/ ٢٩، وابن ماجـه، كتـاب الطهارة/ باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق ١/ ١١٩، والحـاكم ١/ ١٦٧، وقـال: «صحيح» ووافقـه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٩٧.

التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف. **وفيها عشر مسائل. أولها: النهي عن الشرك. العاشرة**: الآيات المحكمات في سورة الإسراء. وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها الله بقوله: ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً**﴾[1]. وختمها بقوله: ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً**﴾[2]. ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿**ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة**﴾[3].

التاسعة: عِظَم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام:

المحكمات: أي: التي ليس فيها نسخ.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء:

وهي قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾[4] وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلـهًا آخر فتقعُدَ مذمومًا مخذولاً**﴾. وختمها بقوله تعالى: ﴿**ولا تجعلْ مع الله إلـهًا آخر فَتُلْقَى في جهنَّم ملومًا مدحوراً**﴾.

وقد نبهنا الله سبحانه على عِظَم شأن هذه المسائل بقوله تعالى: ﴿**ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة**﴾.

فبدأها الله بالنَّهي عن الشرك بقوله تعالى: ﴿**لا تجعلْ مع الله إلـهًا آخرَ فتقعد مذمومًا مخذولاً**﴾. والقاعدُ ليس قائمًا لأنه لا خيرَ لمن أشرك بالله، مذمومًا

---

(1) سورة الإسراء، الآية: ٢٢.

(2) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(3) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(4) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة بدأها الله تعالى بقوله: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا**﴾.[1] **الثانية عشرة**: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

عند الله وعند أوليائه، مخذولاً لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقوله: ﴿**ولا تجعلْ مع الله إلـهًا آخرَ فَتُلْقَى في جهنَّم ملومًا مدحورًا**﴾[2] فهذه عقوبته عندما يُلقَى في النَّار كلٌّ يلومه ويَدْحَرُه فيندَحر والعياذ بالله.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تُسمَّى آيةَ الحقوق العشرة بدأها بقوله تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا**﴾ فأحقّ الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به، فبُدِئَتْ هذه الحقوق به، ولهذا لما سأل النبي ﷺ، حكيمُ بنُ حزام عمَّن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟

فقال النبي ﷺ: «**أسلمتَ على ما أسلفت من الخير**»[3] فدلّ على أنَّه إذا لم يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كلُّها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

الثانية عشرة: التنبيهُ على وصية رسول الله، ﷺ، عند موته: وذلك من حديث ابن مسعود رضي الله عنه[4] ولكنَّ النبي، ﷺ، لم يوصِ بها حقيقةً بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب الله فلنْ نضلَّ بعده،ومن أعظم ما جاء به كتابُ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(٣) من حديث حكيم بن حزام، رواه البخاري، كتاب الزكاة/ باب من تصدق في الشرك ثم أسلم ٤٤٣/١، ومسلم كتاب الإيمان/ باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده ١١٣/١.

(٤) سبق تخريجه ص(٣٨).

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدَّوا حقـه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

الله قوله تعالى: **﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربّكم عليكم﴾**[1].

الثالثة عشرة: معرفةُ حق الله علينا:

وذلك بأن نعبدَه ولا نُشركَ به شيئًا.

الرابعة عشرة: معرفةُ حق العباد عليه إذا أدَّوا حقَّه:

وذلـك بأن لايعذِّبَ من لا يشركُ به شيئًا، أمّا من أشرك فإنَّه حقيقٌ أن يُعذَّب.

الخامسة عشرة: أنَّ هذه المسألة لا يعرفها أكثرُ الصحابة:

وذلك أن معاذًا أخبر بها خروجًا عن إثم الكِتْمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة.

السادسة عشرة: جوازُ كِتمان العلم للمصلحة:

إذ إنَّ كتمانَ العلم على سبيل الإطلاق لا يجوزُ لأنه ليس بمصلحةٍ ولهذا أخـبر النبي، ﷺ، معـاذًا ولم يكتم ذلك مطلقًا، وأما كِتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق فجائزٌ للمصلحة كما كتم النبي، ﷺ، ذلك عن بقية الصحابة خَشية أن يتَّكِلُوا عليه، وقال لمعاذٍ: **«لا تُبشِّرهم فيتكلوا»**[2].

ونظير هذا الحديث قوله، ﷺ، لأبي هريرة: **«بَشِّر الناس أن من قال: لا إلـه إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنَّة»**[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) سبق تخريجه ص (٤٢).

(٣) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١/ ٥٩.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره. **الثامنة عشرة**: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

بل قد تقتضي المصلحةُ تركَ العمل وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما همَّ النبي، ﷺ، أن يهدمَ الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم، ولكن ترك ذلك خَشية افتتان الناس؛ لأنهم حديثو عهد بكفرٍ[1].

السابعة عشرة: استحبابُ بشارة المسلم بما يَسرُّه:

لقوله: «**أفلا أبشِّر الناس**»؟ وهذه من أحسن الفوائد.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله:

وذلك لقوله: «**لا تبشِّرهم فيتَّكلوا**» لأنَّ الاتِّكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي: الأمن من مكر الله.

وكذا القنوطُ من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمدُ: «ينبغي أن يكونَ سائرًا إلى الله بين الخوف والرجاء فأيُّهما غلبَ هلك صاحبه». فإذا غلب الرَّجاءُ أدَّى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوفُ أدَّى ذلك إلى القنوط من رحمة الله.

وقال بعضُ العلماء: إن كان مريضًا غلب جانب الرَّجاء، وإن كان صحيحًا غلب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نَظَرَ إلى رحمة الله وفضله غلب جانب الرَّجاء وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ودليلُه قولُه تعالى: ﴿**والذين يؤتون ما آتوا وقلوبُهم وجلة**﴾[2] أي:

---

(١) من حديث عائشة رواه البخاري، كتاب الحج / باب فضل مكة ١/٤٨٧، ومسلم كتاب الحج / باب نقض الكعبة ٢/٩٦٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

. . . .

خائفـة أن لا يكونَ تقبّل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد. وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسُنَ الظنّ بالله، ويغلب جانب الخوف إذا همَّ بالمعصية لِئلاّ ينتهكَ حُرماتِ الله.

وفي قوله: «**أفلا أبشِّر الناس**»؟[1] دليلٌ على أن البشارة محبوبة فيما يَسُرُّ من أمر الدين والدنيا، ولذلك بَشَّرَتْ الملائكة إبراهيمَ. قال تعالى: ﴿**وبَشَّروه بغلامٍ عليم**﴾[2] وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشَّر النبي، ﷺ، أهله بابنه إبراهيم فقال: «**ولد لي الليلة ولد سميتُه باسم أبي إبراهيم**»[3]، فيُؤخَذ منه أنَّه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول، أو بالفعل ليحصلَ له بذلك خيرٌ كثيرٌ وراحةٌ وطُمأنينةُ قلبٍ، وانشراحُ صدر.

وعليه فلا يدخل السوء على المسلم، قال ﷺ: «**لا يحدثني أحدٌ عن أحدٍ بشيء فإنِّي أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصَّدر**»[4] وهذا الحديث فيه ضعفٌ لكن معناه صحيح.

لأنَّه إذا ذُكِرَ عندك رجلٌ بسوءٍ فسيكونُ في قلبك عليه شيءٌ ولو أحسن

---

(١) سبق تخريجه ص (٤٢).

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.

(٣) من حديث أنس رضي الله عنه رواه مسلم، كتاب الفضائل/ باب رحمته ﷺ، الصبيان والعيال ٤/١٨٠٧.

(٤) من حديث ابن مسعود رواه أبو داود، كتاب الأدب/ باب في رفع الحديث من المجلس ٥/١٨٣، وسكت عنه، والترمذي، المناقب/ باب في فضل أزواج النبي، ﷺ، رقم ٣٨٩٣ وقال: «غريب من هذا الوجه» وأحمد في المسند ١/٣٩٥.
وفي إسناده عندهم الوليد بن هشام أو ابن أبي هشام الكوفي مستور كما في تقريب التهذيب ٢/٣٣٦.
وزيد بن زائدة قال ابن حجر في التقريب ١/٢٧٤: «مقبول»، وباقي رجاله ثقات.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.
العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

معاملتك، لكن إذا كنتَ تعامله وأنت لا تعلمُ عن سيئاته، ولا محذورَ في أنْ تتعامل معه، كان هذا طيِّبًا، وربما يَقْبَلُ منك النصيحة أكثر، والنُّفوسُ يَنْفِرُ بعضُها من بعضٍ قبل الأجسام وهذه مسائلُ دقيقةٌ تظهرُ للعاقل بالتَّأمُّل.

التاسعة عشرة: قولُ المسؤول عمَّا لا يعلم، الله ورسولُه أعلمُ:

وذلك لإقرار النبي، ﷺ، معاذًا لمّا قالها، ولم ينكر النبي، ﷺ، على معاذٍ حيث عطف رسول الله، ﷺ، على الله بالواو، وأنكر على من قال: «ما شاء الله وشئت» وقال: «**أجعلتني لله ندًّا بل ما شاء الله وحده**»[1].

فيُقال: إنَّ الرسول، ﷺ، عنده علمٌ من العلوم الشرعية فلم ينكر الرسول، ﷺ، على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القَدرية فالرسول، ﷺ، ليس عنده عِلم منها، فلو قيل: هل يَحْرُمُ صومُ العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائلُ ذهبوا إلى رسول الله، ﷺ، فيبيِّنها لهم. ولو قيل: هل يُتَوَقَّع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول الله ورسوله أعلم؛ لأنَّه من العلوم الكونية.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض:

وذلك أن النبي، ﷺ، خصَّ هذا العلمَ بمعاذٍ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

---

(١) من حديث ابن عباس رواه أحمد كما في المسند ١/٢١٤، وابن ماجه كتاب الكفارات باب/ النهي أن يُقال: ما شاء الله وشئت ١/٦٨٤، وقال البوصيري في الزوائد: «وفي إسناده الأجلح بن عبدالله مختلف فيه، ضعفه الإمام أحمد، وأبو حاتم، والنسائي، وأبو داود، وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان، والعجلي، وباقي الإسناد ثقات» ورواه أيضًا الطبراني في الكبير (١٣٠٠٥) والبيهقي في السنن ٣/٢١٧.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه. الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة. الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة. الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

فيجوز أنْ نُخَصِّص بعض الناس بالعلم دون بعضٍ حيث إنَّ بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افْتَتَنَ، قال ابن مسعود: «إنَّك لن تحدث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة»[1]، وقال علي: «حدِّثوا الناس بما يعرفون»[2].

فَيُحَدَّثُ كلّ أحدٍ حسبَ مقدرتِه وفهْمِهِ وعقله.

الحادية والعشرون: تواضعه، ﷺ، لركوب الحمار مع الإرداف عليه:

النبي، ﷺ، أشرفُ الخلق جاهًا، ومع ذلك هو أشدّ الناس تواضعًا حيث ركب الحمارَ وأَرْدف عليه وهذا في غاية التواضع إذ إنَّ عادة الكُبَراء عدمُ الإرداف، وركب، ﷺ، الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك، إذ إنَّ مَنْ تواضعَ لله عز وجل رفعه.

الثانية والعشرون: جوازُ الإرداف على الدابة:

وذلك أن النبي، ﷺ، أردف معاذًا، لكنْ يُشْتَرَطُ للإرداف أن تكون الدابةُ قادرةً عليه، فإن لم تكن قادرة لم يَجُزْ ذلك.

الثالثة والعشرون: عِظَمُ شأن هذه المسألة:

حيث أخبر النبي، ﷺ، معاذًا، وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

الرابعة والعشرون: فضيلةُ معاذ:

وذلك أن النبي، ﷺ، خَصَّه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١١.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم/ باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ١/ ٦٢.

بـــاب
فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

سبق أن ذَكَرَ المؤلفُ كتابَ التوحيد أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بدَّ منه، وأن معنى قوله تعالى: ﴿**وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون**﴾(1) أن العبادة لا تصحُّ إلا بالتوحيد.

وهنا ذكر المؤلف فضلَ التوحيد، ولا يلزم مِنْ ثبوتِ الفضل للشيء أن يكون غيرَ واجب بل الفضل من نتائجه وآثاره.

ومن ذلك صلاةُ الجماعة ثبت فضلُها بقوله ﷺ: «**صلاةُ الجماعة أفضلُ من صلاة الفذِّ بسبعٍ وعشرين درجة**». متفق عليه(2).

ولا يلزم من ثُبوت الفضل فيها أن تكون غيرَ واجبة، إذ إنَّ التَّوحيد أوجبُ الواجبات، ولا تُقْبَل الأعمالُ إلا به، ولا يَتَقرَّب العبدُ إلى ربِّه إلا به، ومع ذلك ففيه فضل.

قولـه: «**وما يُكَفِّر من الذنوب**» معطوفٌ على «**فضل**» فيكون المعنى: باب فضـل التـوحيد، وبـاب ما يكفـر من الـذنـوب، وليست معطوفة على التوحيد، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفر من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفيرَ الذنوب.

---

(1) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(2) من حديث ابن عمر، رواه البخاري في كتاب الأذان / باب فضل صلاة الجماعة ١/ ٢١٦، ومسلم، كتاب المساجد / باب فضل صلاة الجماعة ١/ ٤٥٠.

وقـــولِ الله تعـــالى: ﴿الـــذين آمنـــوا ولم يَلبِسُـــوا إِيَـــمانَهُمْ بِظلْمٍ﴾.[1]. الآية.

من فوائد التوحيد:

١ - أنَّه أكبرُ دعامة للرغبة في الطاعة، لأن المُوحِّد يعمل لله سبحانه وتعالى، وعليه فهو يعمل سرًّا وعلانية، أما غيرُ الموحد كالمرائي مثلاً، فإنه يتصدَّق ويُصلي، ويذكر الله إذا كان عنده مَنْ يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: «إني لأودّ أن أتقرَّبَ إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو».

٢ - أن الموحدين لهم الأمنُ وهم مهتدون كما قال تعالى: **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾**.[2]

قوله: **﴿لم يلبسوا﴾** أي: يَخلطوا.

قوله: **﴿بظلمٍ﴾** الظلم هنا ما يقابل الإِيمان، وهو الشِّرك، ولما نزلت هذه الآية شقَّ ذلك على الصحابة، وقالوا: أَيُّنا لم يظلم نفْسَه؟ فقال النبي، ﷺ: «**ليس الأمرُ كما تظنون إنَّما المراد به الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح - يعني لقمان -: ﴿إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم﴾**»؟[3].

والظلم أنواع:

١ - أظلم الظلم، وهو الشِّرك في حقّ الله.

٢ - ظلم الإِنسان نفسه، فلا يعطيها حقها مثل: أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣ - ظلم الإِنسـان غيره مثل: أن يتعدَّى على شخص بالضرب، أو القتل أو أخذ مال، وما أشبه ذلك.

---

(١)و(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٣) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب/ قول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ ٢/ ٤٨٤.

وإذا انتفى الظلمُ حصل الأمن لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب:

أنـه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصيةٌ، فالأمنُ أمنٌ مطلق أي: كامل، وإذا كان الإيمانُ مطلقَ إيمانٍ ـ غير كامل ـ فله مطلق الأمن أي: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكبُ الكبيرة:

آمنٌ من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة قال الله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[1].

أمّا من وافى الله سبحانه محققًا للتوحيد، فإنَّه آمنٌ أمنًا مطلقًا، آمنٌ من الخلود في النار، وآمنٌ من العذاب، لأن هذا أقصى ما عنده من الإيمان.

وهـذه الآية قالهـا الله تعـالى حكـمًا بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿**وكيف أخـاف ما أشركتم**﴾. إلى قوله: ﴿**وهم مهتدون**﴾[2] على أنه قد يقول قائلٌ: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾[3]

قوله: ﴿**الأمن**﴾ أل فيها للجنس، ولهذا فَسَّرْنا الأمنَ إمّا أنَّه أمنٌ مطلق، وإمّا أنَّه مطلقُ أمن حسب الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿**وهم مهتدون**﴾ أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل، فالاهتداء بالعلم: هداية الإرشاد.

والاهتداء بالعمل: هداية توفيق.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨١، ٨٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.

عن عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهدَ أن لا إلـه إلا الله وحدهُ لا شريكَ له وأنَّ محمدًا عبده ورسولُه، وأن عيسى عبـدُ الله ورسوله وكلمتهُ ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه، والجَنَّةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، أدخله الله الجنّة على ماكان من العمل**». أخْرجاهُ(1).

ومهتدون في الآخرة إلى الجنة قال الله تعالى: ﴿**أُحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾(2).

هذه هداية الآخـرة وهي للذين ظلمـوا إلى صراط الجحيم، فيكـون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿**أولئك لهم الأمن**﴾ أن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب: أنها عامّةٌ بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

مناسبة الآية للترجمة:

أن الله أثبتَ الأمنَ لمن لم يشركْ، والذي لم يشركْ يكون موحِّدًا، فدلَّ على أن مِنْ فضائل التوحيد استقرار الأمن.

قوله: «**من شهد أن لا إلـه إلا الله**».

الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق قال تعالى: ﴿**إلا من شهد بالحق**

---

(1) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ ٢/٤٨٦، ومسلم كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١/٥٧.

(2) سورة الصافات، الآية: ٢٢.

. . . .

وهم يعلمون﴾[1] وهذا العلم قد يكون مُكْتَسَبًا، وقد يكون غريزيًّا.

والعلم بلا إلـه إلا الله غريزيٌّ قال ﷺ: **«كلّ مولودٍ يُولد على الفطرة»**[2].

وقد يكون مُكتَسبًا، وذلك بتدبُّر آيات الله، والتَّفكُّر فيها.

ولابدّ أن يوجدَ العلم بلا إلـه إلا الله ثم الشهادة بها، وقد يوجد العلم وتنتفي الشهادة مثل ما وجد عند قريش فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق، ولكنهم لا يوحِّدون الله بالعبادة.

قوله: **﴿أنْ﴾** مخففة من الثقيلة، والنُّطق بأن مُشَدَّدة خطأ، لأنَّ المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخفَّفة يمكن حذفه.

قولـه: **﴿لا إلـه﴾** أي: مألـوه، وليس بمعنى آلـه، والمألوه هو المعبود محبة وتعظيمًا، تحبه وتعظِّمه لما تعلم من صفاته العظيمة، وأفعاله الجليلة.

قوله: **﴿إلا الله﴾** أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكي عن قريش قولُهم: **﴿أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا إنّ هذا لشيءٌ عُجاب﴾**[3].

أما قوله تعالى: **﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾**[4] فهذا التألُّه باطل، لأنَّه بغير حق فهو منفيٌّ شرعًا. وإذا انتفى وقوعًا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه البخـاري في كتاب الجنائز، باب / إذا أسلم الصبي فمات ١/٤١٦، ومسلم، كتاب القدر / باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤/٢٠٤٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٥.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠١.

فلا قرار ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرةٍ خبيثة اجتثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾[1].

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ وبين قوله تعالى حكاية عن قريش: ﴿أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها﴾ فهذه الآلهة مجرَّد أسماء لا معاني لها، ولا حقيقة، إذ هي باطلة شرعًا لا تستحق أن تُسمَّى آلهة، لأنَّها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق.

التوحيد عند المتكلمين:

يقولون: إنَّ معنى إلـه: آله، والآله القادر على الاختراع، فيكون معنى لا إلـه إلا الله: أي: لا قادر على الاختراع إلّا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحد الله فتقول: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له، ولا يقولون هو واحد في عبادته، ولو كان هذا معنى لا إلـه إلا الله لما أنكرت قريش على النبي، ﷺ دعوته ولآمنت به وصدَّقت، لأنَّ قريشًا تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلغ من كلمة لا قادر، لأنَّ القادر قد يفعل، وقد لا يفعل، أمَّا الخالق فقد فعل، وحقَّق بقدرة منه، فصار توحيد المشركين خيرًا من توحيد هؤلاء المتكلِّمين والمنتسبين للإسلام، فالتوحيد الذي جاءت به الرُّسل في قوله تعالى: ﴿مالكم من إلـه غيره﴾[2] أي: من إلـه حقيقي يستحق أن يُعبد وهو الله.

ومن المُؤسف أنَّـه يوجـد كثير من الكُتَّاب الآن الذين يكتبون في هذه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

الأبـواب تجدهم عنـدمـا يتكلَّمـون على التوحيد لا يقرِّرون أكثر من توحيد الـرُّبـوبية، وهذا غلط، ونقص عظيم، ويجب أن نغرسَ في قلوب المسلمين توحيد الألوهيَّة أكثر من توحيد الرُّبوبيَّة، لأنَّ توحيد الربوبيَّة لم يُنكره أحد إنكارًا حقيقيًّا، فكوننا لا نقرر إلَّا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذي في الحقيقة يغلب الهوى فيه نقص عظيم، فعبادة غير الله هي التي يسيطر هوى الإنسـان على نفسـه حتى يصرفـه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء، ويعبد هواه حتى جعل النبي ﷺ الذي همّه الدرهم والدينار جعله عابدًا[1]، وقال الله عز وجل: ﴿**أفرأيت من اتَّخذ إلـهه هواه**﴾[2].

فالمعاصي من حيث المعنى العام، أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص فتنقسم إلى أنواع:

١ ـ شرك أكبر.

٢ ـ شرك أصغر.

٣ ـ معصية كبيرة.

٤ ـ معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يَتعلَّق بحقِّ الله، ومنها ما يتعلَّق بحقِّ الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق لا إلـه إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: «كل معصية فهي نوع من الشِّرك».

---

(١) سبق تخريجه ص (٣١).

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

وقال بعض السَّلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص». ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن فلا يُجاهد نفسه على الإخلاص، ولهذا قِيلَ لابن عباس: «إنَّ اليهود يقولون نحن لا نوسوسُ في الصلاة، قال: فما يصنع الشيطان بقلبٍ خَربٍ». فالشيطان لا يأتي ليخرِّب المهدوم، ولكن يأتي ليخرِّب المعمور، ولهذا لَمَا شُكي للنبي، ﷺ، أن الرجل يجد في نفسه ما يستعظم أن يتكلَّم به قال: «**وجدتم ذلك؟**» قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[1] أي أنَّ ذاك هو العلامة البيِّنة على أنَّ إيمانكم صريح، لأنَّه نفر منه، وورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح.

قوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**» من: شرطية، وجواب الشرط: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

والشهادة هي: الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، وإلاّ فهي كذب، ولهذا لما قال المنافقون للرسول، ﷺ، ﴿**نشهد إنَّك لرسول الله**﴾[2] وهذه جملة مؤكَّدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿**والله يعلم إنَّك لرسوله، والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون**﴾[3] فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان، لأنَّه خال من الاعتقاد بالقلب، وخال من التَّصديق بالعمل، فلم ينفع، فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان وتصديقٍ بالعمل.

وقوله: «**لا إله إلا الله**» أي: لا معبود على وجه يستحق أن يُعبد إلاّ الله،

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الوسوسة في الإيمان ١/ ١١٩.
(٢)(٣) سورة المنافقون، الآية: ١.

. . . .

وهـذه الأصنـام التي تُعبد لا تستحق العبادة؛ لأنَّه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: «**وحده لا شريك له**» وحده: للإثبات.

لا شريك له: للنفي في كل ما يختصّ به من الـرُّبـوبيَّة، والألـوهيَّة، والأسماء والصفات.

ولهـذا كان النبي، ﷺ، وغيره من المؤمنين يلجأون إلى الله تعالى عند الشدائد، فقد جاء أعرابي إلى النبي، ﷺ، وعنده أصحابه، وقد علَّق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ قال: **يمنعني الله**»[1] ولم يقل أصحابي، وهذا هو تحقيق توحيد الرُّبوبية، لأنَّ الله هو الذي يملك النَّفع والضُّـرَّ، والخلق، والتدبير، والتَّصرف في المُلك إذ لا شريك له فيما يختصّ به من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختصّ به حتى نسلم من شُبُهات كثيرة منها شبهات النافين للصِّفات، لأنَّ النَّافين للصفات زعموا أنَّ إثبات الصفات إشراك بالله عز وجل حيث قالوا يلزم من ذلك التَّمثيل، لكننا نقول: الصِّفات للخالق تختصُّ به، والصفات للمخلوق تختص به.

قوله: «**وأنَّ محمدًا عبده ورسوله**».

محمد: هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي خاتم النبيين.

وقوله: «عبده» أي: ليس شريكًا مع الله.

---

(١) من حديث جابر رواه البخاري كتاب الجهاد/ باب من علق سيفه بالشجر ٢/٣٣٥ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين/ باب صلاة الخوف ١/٥٧٦.

. . . .

وقوله: «ورسوله» أي: ليس كاذبًا على الله.

فالرسول، ﷺ، عبدٌ مربوب، جميع خصائص البشريَّة تلحقه ما عدا شيء واحد، وهو ما يعود بأسافل الأخلاق، فهو ممنوع منه، قال تعالى: **﴿قل لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله﴾**(١) وقال تعالى: **﴿قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا﴾**(٢) وقال تعالى: **﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه مُلتحدًا﴾**(٣).

فهو بشرٌ مثلنا إلا أنه يُوحى إليه قال تعالى: **﴿قل إنَّما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ أنَّما إلـهكم إلـه واحد﴾**(٤).

ومن قال: إنَّ الرسول، ﷺ، ليس له ظل، أو أن نوره يطفىء ظله إذا مشي في الشمس فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كنت أمدّ رجلي بين يديه وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح». فلو كان النبي ﷺ له نور لم تعتـذر رضي الله عنهـا ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا والعياذ بالله.

ومن الغلوّ قول البوصيري في البردة المشهورة:

يا أكـرم الخلق ما لي من ألـوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن يوم المعـاد آخذاً بيدي ... فضـلًا وإلا فقـل يا زلـة القـدم

فإن من جودك الـدنيـا وضرتهـا ... ومن علومـك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شيئًا ما دامت الدنيا والآخرة من الرسول ﷺ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة الجن، الآية: ٢١.

(٣) سورة الجن، الآية: ٢٢.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٦.

. . . .

ونشهد أن من يقول هذا ما شهد أنَّ محمدًا عبدالله بل شهد أن محمدًا فوق الله! كيف يصل بهم الغلوّ إلى هذا الحد؟!! وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إنَّ المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة. وقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح**»(١).

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: «**من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني**»(٢) والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا ليلة المولد إذا تلى التالي «**المُخرّف**» كلمة المصطفى قاموا جميعًا قيام رجل واحد. يقولون: لأنَّ الرسول، ﷺ، حضر مجلسنا بنفسه فقمنا إجلالاً له، والصحابة رضي الله عنهم أشدّ إجلالاً منهم ومنَّا ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول، ﷺ، وهو حيٌّ يُكلمهم لا يقومون، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شيئًا، فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد؟ فهؤلاء ما شهدوا أن محمدًا عبدالله ورسوله، وهؤلاء المخرّفون مساكين إن نظرنا إليهم بعين القدر فنرقّ لهم ونسأل الله لهم السلامة، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع فإننا يجب أن ننابذهم حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول، ﷺ، أشدُّ الناس عبودية لله أخشاهم لله وأتقاهم لله قام يصلي حتى تورَّمت قدماه وقيل له في ذلك فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(٣). وقد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر هذا

(١) من حديث عمر رواه البخاري، كتاب الأنبياء/ باب قول الله: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ ٤٨٧/٢.

(٢) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ٢٨٤/٤، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء/ باب الحث على ذكر الله تعالى ٢٠٦١/٤.

(٣) من حديث عائشة رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب تفسير سورة الفتح ٢٩٣/٣، ومسلم كتاب صفات المنافقين/ باب إكثار الأعمال ٢١٧٢/٤.

. . . .

تحقيق العبادة العظيمة.

أمـا الرسالة: فهو رسول أرسله الله عز وجل بأعظم شريعة إلى جميع الخلق فبلَّغها غاية البلاغ مع أنه أوذي وقوتل، حتى إنَّهم جاءوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوها على ظهره، كل ذلك كراهية له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلقون الأذى والأنتان والأقذار على عتبة بابه لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله عز وجل لأجل أن يتبين فضله، لا يقول شيئًا، يخرج ويقول: «**أي جوار هذا يا بني عبد مناف من قبل قريش**». فصبر، ﷺ، وهذا امتحـان من الله عز وجل ليتبين عظم صبره، حتى فتح الله عليه، وأنذر أمَّ القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانة وأقواهم على الاتباع الصحابة رضي الله عنهم، وأدّوها إلى الأمة نقيَّة سليمة، ولله الحمد.

ونحبُّ الرسول ﷺ لله وفي الله، وليس حبّنا له حبًّا مستقلاً، فحبُّ الرسول، ﷺ، من حبِّ الله، ونقدِّمه على أنفسنا، وأهلنا، وأولادنا، والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول الله ﷺ.

ونحقق شهـادة أنَّ محمـدًا رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا ونعترف به بألسنتنا، ونطبِّق ذلك في متابعته، ﷺ، بجوارحنا، فنعمل به، ولا نعمل له.

وحقُّ الرسول، ﷺ، علينا ما يلي:

١ ـ نؤمن بأنَّه رسول الله ﷺ.

٢ ـ نحبه لحبنا لله عز وجل.

٣ ـ نحقق شهادة أنَّ محمدًا رسول الله.

أمَّا ما ينقض تحقيق هذه الشهادة فهو:

. . . .

---

١ ـ فعـل المعـاصي، فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة، لأنَّك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

٢ ـ الابتداع في الدين ما ليس منه، نقصٌ في تحقيق هذه الشهادة لأنَّك تقـرَّبت إلى الله بما لم يشرعـه الله، ولا رسوله، ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء بالله، لأنَّك تقرَّبت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرُّب إلى الله بهذا العمل.

قيل له: أنت أخطأت الطريق فتعذر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتدعون قد نقول: إنَّهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نُخطِّئهم فيما ذهبوا إليه، أمَّا أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردّوه، ليبقوا جاههم ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبي، ﷺ، بالرد إبقـاءً على رئاستهم وجاههم.

أمَّا بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة فينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئًا، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنُّوا أنَّ ما هم عليه هو الحق فهؤلاء معذورون.

القسم الثـاني: من علموا الحق، ولكنهم ردّوه تعصُّبًا لأئمتهم فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنَّا على آثارهم مهتدون**﴾[1].

قوله: ﴿**وأنَّ عيسى عبدالله ورسوله**﴾.

الكـلام فيهـا كالكـلام في شهـادة محمد، ﷺ، إلا أننا نؤمن برسالة

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

. . . .

عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا، فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا فنحن متبعون لشريعتنا، ولهذا الشرع الذي قيل لنا فيه: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[1].

الثالثة: أن تكون مسكوتاً عنها في شريعتنا، وفي هذه الحالة اختلف علماء الأصول هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[2].

٢ - قوله تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾[3].

وقد تطرَّف في عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذَّبوا، فقالوا: بأنَّه ولد زِنا، وأنَّ أُمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعًا، أي: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعي لقوله تعالى عنهم: ﴿**إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم**﴾[4]. وأمَّا بالنسبة لحكم الله القدري فقد كذبوا، وما قتلوه يقينًا، بل رفعه الله إليه، ولكن شبه لهم، فقتلوا المشبه لهم، وصلبوه.

الثانية: النصارى قالوا: إنَّه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلـهًا مع الله، وكذبوا فيما قالوا.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

. . . .

أما عقيدتنا: فنشهد أنه عبدالله، ورسوله، وأن أمه صديقة، كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنَّها عذراء ولكن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

وفي قوله: ﴿**عبدالله**﴾ رد على النصارى.

وفي قوله: ﴿**ورسوله**﴾ رد على اليهود.

قوله: ﴿**وكلمته ألقاها إلى مريم**﴾.

أطلق الله عليه كلمة، لأنَّه خلق بالكلمة، عليه السلام، فالحديث ليس على ظاهره، إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة، لأنَّه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوَّط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية قال الله تعالى: ﴿**إنَّ مَثَل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كنْ فيكون**﴾[1].

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله، إذ إنَّ كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أمَّا عيسى فهو ذات بائنة عن الله سبحانه، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام.

قوله: ﴿**ألقاها إلى مريم**﴾.

أي: وجهها إليها بقوله: ﴿**كن فيكون**﴾ كما قال تعالى: ﴿**إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾[2].

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام، ولكن كما قال الرسول، ﷺ، كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم[3]، فهارون أخو مريم، ليس

---

(1)(2) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(3) من حديث المغيرة بن شعبة، رواه مسلم، كتاب الأدب/ باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وما يستحب من الأسماء ٣/ ١٦٨٥.

. . . .

هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى.

قوله: ﴿وروح منه﴾.

أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله، أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه للتشريف والتكريم.

وعيسى عليه السلام ليس روحًا، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾**[1].

فبالنفخ صار جسدًا، وبالروح صار جسدًا وروحًا.

قوله: ﴿منه﴾.

هذه هي التي أضلَّت النصارى، فضلُّوا، وأضلّوا كثيرًا، ولكننا نقول: إنَّ الله قد أعمى بصائركم، فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، فمن المعلوم أنَّ عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضًا أنَّ اليهود يقولون: إنهم صلبوه وهل يمكن لمن كان جزءًا من الرب أن ينفصل عن الرب، ويأكل، ويشرب، ويُدَّعى أنه قُتِل وصُلِب؟

وعلى هذا تكون «من» للابتداء، وليست للتبعيض، فهي كقوله تعالى: **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه﴾**[2] فلا يمكن أن نقول: إنَّ الشمس والقمر، والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

. . . .

فقوله: ﴿**منه**﴾ أي: روح صادرة من الله عز وجل، وليست جزءًا من الله كما تزعم النصارى.

واعلم أنَّ ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق كقوله تعالى: ﴿**وسخرَّ لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**إنَّ أرضي واسعة**﴾[2].

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفيته كقوله تعالى: ﴿**وطهِّر بيتي للطَّائفين**﴾[3]. وكقوله تعالى: ﴿**ناقة الله وسقياها**﴾[4]. وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئًا مضافًا إلى عين مخلوقة يقوم بها مثاله قوله تعالى: ﴿**وروح منه**﴾[5] فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفًا، فهي روح من الأرواح التي خلقها الله، وليست جزءًا أو روحًا من الله، إذ إنَّ هذه الروح حلّت في عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله. وهذا القسم مخلوق أيضًا.

الثالث: أن يكون وصفًا غير مضاف إلى عين يقوم بها.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**إنِّي اصطفيتك على النَّاس برسالاتي وبكلامي**﴾[6].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة الشمس، الآية: ١٣.

(٥) سبق تخريجه ص (٥٧).

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.

. . . .

فالرِّسالة، والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة فهذه الصفة غير مخلوقة وبهذا يتبينَّ أن هذه الأقسام الثلاثة: قسمان منها مخلوقان وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها، والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة. والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق، لأنَّه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان في قوله: ﴿**كلمته، وروح منه**﴾.[1] فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا فتكون كلمته صفة من صفات الله.

وروح منه: هذه أضيفت إلى عين، لأنَّ الروح حلّت في عيسى فهي مخلوقة.

قوله: «**أدخله الله الجنة**».

إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتمّ العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل.

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاءالله عذَّبه بقدر عمله وإن شاء لم يعذِّبه، قال الله تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[2].

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٧).

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

ولهما[1] في حديث عِتْبَانَ: «**فإنَّ الله حرَّمَ على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجْهَ الله**».

قوله: «**عتبان**» هو عتبان بن مالك أحد الأنصار رضي الله عنهم كان يصلي مع النبي، ﷺ، فضعف بصره، وشقَّ عليه المجيء إلى النبي، ﷺ، فطلب من النبي، ﷺ، أن يخرج إليه، وأن يُصلي في مكان من بيته، ليتخذه مصلًى، فخرج إليه النبي، ﷺ، ومعه طائفة من أصحابه فلما دخل البيت قال: أين تريد أن أصلي؟ قال: صل ههنا. فصلَّى بهم النبي، ﷺ، ركعتين بعد أن صفّوا وراءه، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدخشم، فقال بعضهم: هو منافق، فقال رسول الله، ﷺ: «**لا تقل هكذا، أليس يشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله؟**». فقالوا: نعم، قال: «**فإن الله حرَّم على النار . . . الحديث**».

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنَّهم لا يدرون عمَّا في قلبه، لأنَّه يشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمـدًا رسـول الله، وهنـا الرسول قال هكذا، ولم يبرىء الرجل، إنَّما أتى بعبارة عامة بأنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلـك وجـه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا في عباد الله الذين ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراءٍ، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، لأننا لو أخذنا بما نظنّ فسدت الدنيا والآخرة، فكثير من الناس نظنُّ بهم سوءًا، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك، وظاهرهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: «**فإن الله حرَّم على النار**» أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

---

(١) من حديث عتبـان بن مالـك، رواه البخاري، كتاب الصلاة/ باب المساجد في البيوت ١/ ١٥٤، ومسلم، كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ١/ ٤٥٥.

. . . .

قوله: «**من قال لا إلـه إلا الله**» أي: يشترط الإخلاص، بدليل قوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**» أي: يطلب وجه الله، ومن طلب وجهًا فلا بد أنْ يعمل كل ما في وُسعه الوصول إليه، لأنَّ مبتغي الشيء يسعى في الوصول إليه، وعليه فلا نحتاج إلى قول الزهريّ، رحمه الله، بعد أن ساق الحديث كما في صحيح مسلم[1]، حيث قال: «ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحُرِّمت أمور، فلا يغترّ مغترٌّ بهذا». فالحديث واضح الدلالة على شرطية العمل لمن قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، ولذا قال بعض السلف عند قول النبي ﷺ: «**مفتاح الجنة لا إلـه إلا الله**، لكن من أتى بمفتاح لا أسنان له لا يفتح له».

قال شيخ الإسلام: إنَّ المبتغي لابد أن يُكمِّل وسائل البُغية وإذا أكملها حُرِّمت عليه النار تحريمًا مطلقًا، فإذا أتى بالحسنات على الوجه الأكمل فإنَّ النار تحرم عليه تحريمًا مطلقًا، وإن أتى بشيء ناقص، فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكذا من زنا، أو شرب الخمر، أو سرق، فإذا فعل شيئًا من ذلك ثم قال حين فعله: أشهد أن لا إلـه إلا الله ابتغى بذلك وجه الله، فهو كاذب في زعمه لأنَّ النبي، ﷺ، قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2] فضلاً عن أن يكون مبتغيًا وجه الله.

وفي الحديث رد على المرجئة، والخوارج، والمعتزلة.

فالمرجئة يقولون: يكفي قول: لا إلـه إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

---

(١) في كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ١/٤٥٦.

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب المظالم/ باب النهي بغير إذن صاحبه ٢/٢٠١، ومسلم كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان بالمعاصي ١/٧٦.

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: ياربِّ عَلِّمني شيئًا أذكرُكَ وأدعُوكَ به، قال: قُلْ ياموسى: لا إله إلا الله، قال: يارب كلُّ عِبادِكَ يقولون هذا؟

وفيه رد على الخوارج والمعتزلة؛ لأنَّ ظاهر الحديث أنَّ مَنْ فعل هذه المحرَّمات لا يُخلَّد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار.

قوله: «**أذكرك وأدعوك به**».

صفة لشيء أي: كي أذكرك، وأدعوك به، وليست جواب الدعاء، فموسى عليه السلام طلب أمرين:

١ - ذكر الله.

٢ - دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: ﴿**قل لا إله إلا الله**﴾ وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأنَّ الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذًا فهو ذكر متضمِّن للدعاء.

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

يعني: عطاؤك.

واستشهد ابن عباس على أنَّ الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنى عليك العبد يومًا كفاه من تعرضه الثناء

قوله: «**كل عبادك يقولون هذا**».

ليس المعنى أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها؛ لأنَّ موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئًا يختصُّ به؛ لأنَّ تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له، ورفعة، فبيَّن الله لموسى أنَّه مهما أعطي فلن يعطى

قال: يامـوسى، لو أنَّ السَّمٰوَاتِ السبعَ وعامرَهُنَّ غيري والأرضين السبع في كِفَّةٍ، ولا إلـه إلا الله في كِفَّةٍ، مالتْ بهنَّ لا إله إلا الله» رواه ابن حِبَّانَ والحاكم وصححهُ[1].

أفضل من هذه الكلمة، وأنَّ لا إلـه إلا الله أعظم من السموات والأرض، وما فيهن، لأنَّها تميل بهن وترجح، فدلَّ ذلك على فضل لا إلـه إلا الله، وعظمها، لكن لابد من الإتيان بشروطها، أمَّا مجرَّد أن يقولها القائل بلسانه، فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئًا لأنَّه لم يقلها على الوجه الذي تمت به الشروط، وانتفت به الموانع.

قوله: «**والأرضين السبع**». في بعض النسخ بالرَّفع، وهذا لا يصلح، لأنه إذا عطف على اسم أنَّ قبل استكمال الخبر وجب الرفع.

قوله: «**مالت**». أي: رجحت حتى يملن.

قولـه: «**عامرهن**». أي: ساكنهن، فالعامر للشيء هو الذي عُمر به الشيء.

قوله: «**غيري**» استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأنَّ قول لا إلـه إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء، فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجًا إليها بل إنَّ السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى، فلا يظن ظانٌّ أنَّ السَّماء تقل الله أو تظلّه، أو تحيط به، وعليه فالسموات باعتبار الملائكة أمكنة

---

(١) رواه ابن حبان برقم (٢٣٢٤) والحاكم ١/٥٢٨ وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (١٠٢) وعزاه الهيثمي في المجمع ١٠/٨٢ لأبي يعلى وقال: «رجاله وثقـوا على ضعف فيهم». وفيه دراج بن سمعان أبو السمح وهو ضعيف، انظر تقريب التهذيب ١/٢٣٥.

وللترْمذيِّ ـ وحسَّنهُ ـ عن أنسٍ : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : يا ابنَ آدم، لو أتيتني بقُرابِ الأرض خطايا، ثم لقِيتني لا تُشركُ بي شيئًا، لأتَيْتُكَ بقُرابها مغفرةً»(١)

مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظلٌّ لهم، أما بالنسبة لله فهي جهة؛ لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه لا يقله شيء من خلقه.

قوله: «بقراب الأرض». أي: ما يقاربها إمّا ملئًا، أو ثقلاً، أو حجمًا.

قولـه: «خـطايا». جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة لقوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾(٢).

قوله: «لا تشرك بي شيئًا». جملة «لا تشرك» في موضع نصب على الحال من التاء أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئًا.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق النفي تفيد العموم أي لا شركًا أصغر ولا أكبر.

وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري، فحبّ المال مثلاً بحيث يلهي عن طاعة الله من الإشراك قال النبي، ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة... الحديث»(٣).

فسمّى النبي، ﷺ، من كان همّه الدينار سمّاه عبدًا له.

قولـه: «لأتيتك بقرابها مغفرة» أي: أنَّ حسنة التوحيد عظيمة تُكفِّر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئًا.

---

(١) رواه الترمذي، الدعوات/ باب غفران الذنوب ٩/١٩٤، وقال: «حسن غريب» وقد حسنه ابن حجر والسخاوي انظر الفتوحات الربانية ٧/٢٨٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.

(٣) سبق تخريجه ص (٣١).

(فيه مسائل) الأولى: سعة فضل الله. **الثانية**: كثرة ثواب التوحيد عند الله. **الثالثة**: تكفيره مع ذلك للذنوب **الرابعة**: تفسير الآية التي في سورة الأنعام. **الخامسة**: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

مناسبة الحديث للترجمة:

في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب، فهو مطابق لقوله في الترجمة: «وما يكفر من الذنوب».

قوله: «**فيه مسائل**».

الأولى: «سعة فضل الله».

لقوله: «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**».

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

لقوله: «**مالت بهن لا إلـه إلا الله**».

الثالثة: تكفيره مع ذلك الذنوب:

لقوله: «**لأتيتك بقرابها مغفرة**» فالإنسان قد تغلبه نفسه أحيانًا، فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته، وطاعته فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام:

وهي قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾. فالظلم هنا الشِّرك لقوله ﷺ: «**ألم تسمعوا قول الرجل الصالح ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾**»[1].

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة:

١ - ٢ - الشهادتان.

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٦).

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: «**لا إلـه إلا الله**» وتبين لك خطأ المغرورين. **السابعة**: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان. **الثامنة**: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل **لا إله إلا الله**. **التاسعة**: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه.

---

٣ ـ أنَّ عيسى عبدالله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فما ذُكر في موضوع واحد، يعتبره المؤلف واحدًا.

٤ ـ أنَّ الجنة حق.

٥ ـ أنَّ النار حق.

السادسة: أنَّك إذا جمعت بينه، وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس تبيَّن لك معنى قول: لا إلـه إلا الله، وتبيَّن خطأ المغرورين.

لأنَّه لابدّ أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك، فلابدَّ أن تحمل المرء على العمل الصالح.

السابعة: التنبيه للشرط في حديث عتبان:

وهو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرَّد القول؛ لأنَّ المنافقين كانوا يقولونها، ولم تنفعهم.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إلـه إلا الله، فغيرهم من باب أولي.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيرًا ممن يقولها يخفّ ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسمٰوات.
الحادية عشرة: أن لهن عمارًا.

فالبلاء من القائل لا من القول، لأنَّه قد يكون اختلَّ شرطٌ من الشروط، أو وُجد مانع من الموانع، فإنَّها تخفّ بحسب ما عنده، أمَّا القول نفسه فيرجح بجميع المخلوقات.

العاشرة: النص على أنَّ الأرضين سبع كالسموات:

لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحًا أن السموات سبع بقوله تعالى: ﴿**قل من رب السموات السبع**﴾[1] لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾[2]. فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن، فبقيت المثلية في العدد.

أمَّا السنَّة فهي صريحة جدًّا، بأنها سبع مثل قوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[3].

وقد اختلف في قوله ﷺ: «**من سبع أرضين**» كيف تكون سبعًا؟

فقيل: المراد القارات السبع، وهذا ليس بصحيح، لأنَّ هذا يمتنع بالنسبة لقوله: «**طوقه من سبع أرضين**» وقيل المراد: المجموعة الشمسية، فظاهر هذا الحديث أنها طباق كالسموات، وليس لنا أن نقول إلا ما جاء في الكتاب والسنَّة عن هذه الأرضين لأننا لا نعرفها.

الحادية عشرة: أنَّ لهن عُمَّارًا. أي: السموات.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٣) من حديث سعيد بن زيد رواه مسلم، كتاب المساقاة/ باب تحريم الظلم وغصب الأرض ٣/ ١٢٣٠.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية. **الثالثة عشرة**: أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: «**فإن الله حرَّم على النار من قال لا إلهٰ إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**». أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان. **الرابعة عشرة**: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية.

وفي بعض النُّسخ خلافًا للمعطلة، وهذه أحسن، لأنَّها أعمّ، ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**»، وإثبات الكلام بقوله: «**وكلمته ألقاها**» والقول في قوله: «**قل لا إلـه إلا الله**».

الثالثة عشرة: إنَّك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أنَّ قوله في حديث عتبان: «**فإنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» أنه ترك الشرك.

وفي بعض النُّسخ: إذا ترك الشرك.

أي أنَّ قوله: «**حرَّم على النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك يعني ترك الشرك**»، وليس مجرد قولها باللسان، لأنَّ من ابتغى وجه الله في هذا القول لا يمكن أن يُشرك أبدًا.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون كل من عيسى، ومحمد عبديِّ الله ورسوله:

عبديّ: منصوب على أنه خبر كون، لأنَّ كون مصدر.

وعيسى ومحمد: اسم كون.

وتأمل الجمع من وجهين:

الأول: أنَّه جمع لكل منهما بين العبودية، والرسالة.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله. **السادسة عشرة**: معرفة كونه روحًا منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار. **الثامنة عشرة**: معرفة قوله «**على ما كان من العمل**».

الثاني: أنه جمع بين الرجلين فتبينَّ أن عيسى مثل محمد وأنَّه عبد، ورسول، وليس ربًّا، ولا ابنًا للرب سبحانه.

وقول المؤلف: «تأمل» لأنَّ هذا يحتاج إلى تأمُّل.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله:

أي: أنَّ عيسى انفرد عن محمد في أصل الخِلْقة، فقد كان بكلمة، أمَّا محمد، ﷺ، فقد خُلِقَ من ماء أبيه.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه:

أي: أنَّ عيسى روح من الله، و«من» هنا بيانية، أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي روح جاءت من قبل الله وليست بعضًا من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنَّة والنار:

لقوله في حديث عبادة: «**وأنَّ الجنة حق، والنار حق**» والفضل بأنه دخول الجنة.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «**على ما كان من العمل**»:

أي: على ما كان من العمل الصالح، ولو قلّ، أو على ما كان من العمل السيء ولو كَثُر، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد، ويوجب الخلود في النار لكن لابد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج. ولم تُذكر

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان. **العشرون**: معرفة ذكر الوجه.

أركان الإسلام هنا، لأنَّ منها ما يكفر، ومنها ما لا يُكفِّر أيّ: منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر. فإنَّ الصحيح أنَّه لا يكفر إلا بترك الشهادتين، والصلاة. وإن كان روي عن الإمام أحمد أنَّ جميع أركان الإسلام يكفر بتركها، لكن الصحيح خلاف ذلك.

التاسعة عشرة: معرفة أنَّ الميزان له كفَّتان:

أخذها المؤلف من قوله: «**لو أن السموات... إلخ، وضعت في كفَّة ولا إلـه إلا الله في كفَّة**».

والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل يعني أنَّ قول: لا إلـه إلا الله أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أنَّ هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهني، فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

العشرون: معرفة ذكر الوجه:

وجه الله تعالى صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، لأنَّ من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض، وأجزاء، ولا نقول بالنسبة لله تعالى أبعاض لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله تعالى.



بـــاب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

هذا البـاب كالمتمم للباب الذي قبله، لأنَّ الذي قبله: «باب فضل التوحيد، وما يُكفِّر من الذنوب» فمن فضله هذا الفضل العظيم الذي يسعى إليه كل عاقل، ولاسيما إذا كان بغير حساب، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قولـه: «من» شرطية، وفعل الشرط: «حقق» وجوابه: «دخل» قوله: «بلا حساب» أي: لا يُحاسب لا على المعاصي، ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشِّرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم فلا يمكن أن تحقق شيئًا قبل أن تعلمه، فلابد من تصوّره بعلمه قال الله تعالى: ﴿**فاعلم أنَّه لا إلـه إلا الله**﴾[1].

الثاني: الاعتقاد: فإذا علمت، ولم تعتقد، واستكبرت لم تحقّق التوحيد. قال الله تعـالى عن الكـافـرين: ﴿**أجعـل الآلهة إلـهًا واحدًا إنَّ هذا لشيء عُجاب**﴾[2]. فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد: فإذا علمت واعتقدت، ولم تنقد لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿**إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلـه إلا الله يستكبرون. ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾[3].

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد، فإنَّ الجنَّة مضمونة له بغير حساب، ولا نقول إن شاءالله، لأنَّ هذا حكم ثابت شرعًا، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

وقول الله تعالى: ﴿إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً قانِتًا لله حنيفًا ولم يكُ من المشركين﴾[1].

بذلك في الترجمة دون أن يقول: إن شاءالله.

أمَّا بالنسبة للرجل المعيّن فإننا نقول: إن شاء الله.

قوله: ﴿أمة﴾ أي إمامًا، وقد سبق[2] أنَّ أمة تأتي في القرآن على أربعة أوجه: إمام، ودهر، وجماعة، ودين[3].

وقوله: ﴿إنَّ إبراهيم كان أمَّة﴾:

هذا ثناء من الله سبحانه وتعالى على إبراهيم بأنَّه إمام متبوع؛ لأنَّه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنَّه، ﷺ، قدوة في أعماله، وأفعاله، وجهاده، فإنَّه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٢) وقال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٢٠): «وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له، فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله... فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت إلى أوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على المعاصي فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص مايدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهر وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصود بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله».

(٣) سبق ص (٢١).

ثم ابتلاه الله سبحانه وتعالى بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي، أي شب، وترعرع، فليس كبيرًا قد طابت النفس منه، ولا صغيرًا لم تتعلق به النفس كثيرًا، فصار على منتهى تعلّق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال تعالى عنه: ﴿**قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾[1]. لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من برّه بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، انظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله في قوله: ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾.

فالسين في قوله: ﴿**ستجدني**﴾ تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله في قوله: ﴿**إن شاءالله**﴾.

وامتثلا جميعًا وأسلما، وانقادا لله عز وجل، وتلَّه للجبين أي: على جبين أي جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه فجاء الفرج من الله تعالى: ﴿**وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾[2]، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديدًا.

فهو إمام في الصبر على أمر الله عز وجل.

قوله: ﴿**قانتًا**﴾. القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال، فهو مطيع لله ثابت على طاعته، مديم لها في كل حال.

كما أنَّ ابنه محمدًا، ﷺ، يذكر الله على كل أحيانه[3]، إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام وإن أكل، وإن قضى حاجته ذكر الله، فهو قانت آناء الليل والنهار.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٠٤، ١٠٥.

(٣) من حديث عائشة رواه مسلم، كتاب الحيض/ باب ذكر الله تعالى حال الجنابة ١/ ٢٨٢.

. . . .

قوله: ﴿حنيفًا﴾ أي: مائلاً عن الشرك، مجانبًا لكل ما يخالف الطاعة، فوصف بالإثبات، والنفي أي: بالوصفين الإيجابي والسلبي.

قوله: ﴿ولم يك من المشركين﴾ تأكيد، أي لم يكن مشركًا طول حياته، فقد كان عليه الصلاة والسلام معصومًا عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناع الشرك استمرارًا في قوله: ﴿حنيفًا﴾ وابتداءً في قوله: ﴿ولم يكُ من المشركين﴾. والدليل على ذلك: أنَّ الله جعله إمامًا، ولا يجعل الله للناس إمامًا من لم يحقق التوحيد أبدًا.

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفي غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنَّه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب. فمن عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا؛ لأنَّ النفس لا تدع شيئًا إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئًا إلا ما تيقنت فائدته. لأنَّ ما عندها فيه شك لا تسعى لأجله.

ويجب أن نعلم أنَّ ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

الأول: محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرًا، كما أنَّ من أثنى الله عليه شرًّا فإننا نبغضه، ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّه كان إمامًا حنيفًا قانتًا لله، ولم يكن من المشركين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا، لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله، وأعداء لنا، ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله أيضًا.

الثاني: أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه لأنَّها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: ﴿لقد كان في

قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[1] وقال تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾[2]. وقال تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾[3].

وهذه مسألة مهمة، لأنَّ الإنسان أحيانًا يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرًا، ولكن هذا ينبغي أن لا يغيب؛ لأنَّ الحب في الله، والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

فائـدة: أبوإبراهيم مات على الكفر، والصواب الذي نعتقده أن اسمه آزر كما قال الله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصنامًا آلهة﴾[4] وقال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إيَّاه﴾[5] لأنَّه قال: ﴿سأستغفر لك ربي إنَّه كان بي حفيًّا﴾[6]. ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾[7]. وفي سورة إبراهيم قال: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[8]. ولكن فيما بعد تبرأ منه.

أما نوح فقال: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات﴾[9] وهذا يدل على أن أبوي نوح كانا مُؤمنيْن. قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي والملاحم والتفسير، فهذه الغالب فيها أنها تذكر بدون إسناد، ولهذا فإن المفسرين يذكرون قصة آدم ﴿فلما آتاهما صالحًا﴾[10]

---

(1) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(2) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(3) سورة الممتحنة، الآية: ٦.
(4) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.
(5) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(6) سورة مريم، الآية: ٤٧.
(7) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(8) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(9) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(10) سورة الأعراف، الآية: ١٩٠.

وقال: ﴿والَّذِينَ هم بِربِّهِمْ لا يُشركون﴾[1].

وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك.[2] فالقاعدة إذاً: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئاً إلا من طريق الوحي، قال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾[3].

قوله: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾. هذه الآية سبق لها طرف وهو قوله: ﴿إنَّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾[4].

لكن المؤلف ذكر الشاهد. و﴿من خشية ربهم﴾ أي: من خوفهم منه. و﴿مشفقون﴾ أي: خائفون من عذابه إن خالفوه.

فالمعــاصي بالمعنى الأعمّ - كما سبق -[5] شرك لأنَّها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه﴾[6].

أما بالنسبة للمعنى الأخص، فيقسمها العلماء قسمين:

١ - شرك.

٢ - فسوق.

وقوله: ﴿لا يشركون﴾ يُراد به الشرك بالمعنى الأعم، إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلّا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي، لأنَّ كل ابن آدم خطَّاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا، فإنَّهم

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٩.

(٢) انظر الجزء الثالث باب قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما...﴾.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.

(٥) انظر ص٤٤.

(٦) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

وعن حُصين بن عبدالرحمن قال: «كنتُ عند سعيد بن جُبيْرٍ فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلتُ: أمَا إنِّي لم أكنْ في صلاةٍ.

يتوبون، ولا يستمرون عليها كما قال تعالى: ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾[1].

لكن هل هذه النقطة الصغيرة تبقى وتكبر، أو تزول؟ فالذي لا يشرك تزول، لأنَّه يرى أن هذه المعصية على نفسه أثقل من الجبل أما الفاسق المستهين فيرى المعصية كما ورد في الحديث كالذباب وقع على أنفه يقول به هكذا[2] ولا يهمه، لكنَّ الإنسان الذي قلبه حيّ لا يكاد يذكر هذا الذنب إلا أحدث له توبة.

قوله: «**عن حصين بن عبدالرحمن قال كنت عند سعيد بن جبير**»:

وهما رجلان من التابعين.

قوله: «**انقضَّ البارحة**» أي: سقط، والبارحة: قال بعض أهل اللغة: ما بعد الزوال تقول البارحة، وقبل الزوال تقول الليلة.

وهذه المسألة تحتاج إلى تحقيق، وأنا لم أحققها هل هذا عند جميع علماء اللغة؟

وأمَّا في عرفنا فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول البارحة، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول الليلة.

بل بعضهم يتوسع متى قام من الليل قال: البارحة، وإن كان الأمر كذلك، فإن هذا الجلوس كان بعد الظهر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٢) موقوفًا على ابن مسعود رواه البخاري، كتاب الدعوات/ باب التوبة ٤/ ١٥٤.

ولكنِّي لُدِغْتُ، قال: فما صنعت؟ قلتُ: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلـك؟ قلت: حديث حدثناهُ الشعبيّ، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيْبِ أنه قال: لا رُقْية إلا من عَينْ أو حُمةٍ،

قوله: «فقلت أنا» أي: حصين.

قوله: «أما إني لم أكن في صلاة» أما: أداة استفتاح، وقيل: إنَّها بمعنى حقًّا، وعلى هذا فتفتح همزة «إن» فيقال: أما أني لم أكن في صلاة أي حقًّا لم أكن في صلاة.

وقـال هذا رحمه الله لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل وهذا خلاف ما عليه بعضهم يفرح أنَّ الناس يتوهمون أنَّه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رحمه الله ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الـطاعـات خوفًـا من الـرياء؛ لأنَّ الشيطان قد يلعب على الإنسان، ويُزيِّن له ترك الطاعة خشية الرياء، بل افعل الطاعة، ولكن لا يكن في قلبك أنَّك ترائي الناس.

قوله: «لدغت» أي: لدغته عقرب، أو غيرها، والظاهر أنها شديدة لأنَّه لم ينم منها.

قولـه: «ارتقيت» أي: استرقيت، لأنَّ افتعل مثل استفعل وفي رواية مسلم: «ارتقيت» أي: طلب الرقية.

قوله: «فما حملك على ذلك» أي: قال سعيد: ما السبب أنَّك استرقيت.

قولـه: «حديث حدثناه الشعبي» وهذا يدل على أن السلف رضي الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة.

فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه، ويعرف مستنده.

قال قد أحْسن من انتهى إلى ما سمع .

قوله: «**لا رقية**» أي: لا قراءة على مريض، أو مصاب.

قوله: «**من عين**» ويسميها العامة الآن «النحاتّة» وبعضهم يسميها الحسد.

قولـه: «**حُمَة**» أي: سم، لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن سن انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس. . . إلخ.

إذن فحصين استند على حديث: «**لا رقية إلا من عين أو حُمَةٍ**»، وهذا يدل على أنَّ الرقية من العين، أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع فإنَّ الرقى تنفع بإذن الله من العين، ومن الحمة أيضًا، وكثير من الناس يقرأون على الملدوغ، فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبي ﷺ، في سرية فاستضافوا قومًا فلم يضيِّفوهم، فلدغ سيدهم لدغته حيَّة فقالوا: من يرقي؟ فقالوا: لعل هؤلاء الـركب عنـدهم راق فجاؤوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راق؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقي لكم إلا بشيء من الغنم، فقالوا: نعطيكم، فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثاً، أو سبعاً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: «**وما يدريك أنها رقية**» يعني الفاتحة[1]. وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمـل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال وهي أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

---

(١) من حديث أبي سعيد رواه البخاري، كتاب الإجارة/ باب ما يعطى في الرقية ٢/١٣٦. ومسلم، كتاب السلام/ باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن ٤/١٧٢٧.

ولكن حدثنا ابن عبّاس عن النبي ﷺ أنه قال: **«عُرِضتْ عليّ الأمَمُ، فرأيتُ النبي ومعـه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ.**

وهنـاك طريقـة أخرى، ولا مانع منها أيضًا، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره أي: ما يلي جسمه من الثياب كالثوب، والطاقية والسروال وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب، أو يشربه. وهو مُجرَّب.

وأما العائن، فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يُبرّك عليه لقول النبي، ﷺ، لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: «**هلا برَّكت عليه**»[1] أي قلت: بارك الله عليك.

ويقولون أيضًا لأجل تبطل العين: أنَّك تصلي على العائن صلاة الميت.

قوله: «**ولكن حدثنا**» القائل: سعيد بن جبير.

قوله: «**عرضت علي الأمم**» العارض لها الله سبحانه وتعالى، وهذا في المنام، والأمم جمع أمة، وهي أمم الرسل.

قوله: «**الرهط**» من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان**». الظاهر: أنَّ الواو بمعنى أو، أي: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنَّه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنى: والنبي ومعه الرجل، والنبي الثاني ومعه الرجلان.

قوله: «**والنبي وليس معه أحد**» أي: يبعث، ولا يكون معه أحد، لكن

---

(١) من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه، رواه مالك في الموطأ، كتاب العين/ باب الوضوء من العين ٢/٩٣٨، ورجاله ثقات، انظر حاشية زاد المعاد ٤/١٦٣.

إذ رُفع لي سوادٌ عظيمٌ، فظننت أنهمْ أُمَّتي.
فقيل لي: هذا موسى وقومُه، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أُمَّتُك. ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ».
ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناسُ في أولئك، فقال بعضُهم: فلعلهم الذين صَحِبوا رسول الله ﷺ.

يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

قوله: «**إذ رفع لي**» هذا على تقدير محذوف أي: بينما أنا كذلك إذ رفع لي.

قوله: «**سواد عظيم**» المراد بالسواد هنا، الظاهر: أنَّه الأشخاص، ولهذا يقول: ما رأيت سواده أي شخصه، أي: أشخاصًا عظيمة كانوا من كثرتهم سوادًا لأنَّ السواد يطلق على الشخص.

قوله: «**فظننت أنَّهم أمتي**» لأنَّ الأنبياء عرضوا عليه بأممهم فظنَّ هذا السواد أمته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «**فقيل لي هذا موسى وقومه**» وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: «**فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك**» وهذا أعظم من السواد الأول، لأنَّ أمة النبي، ﷺ، أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

قوله: «**بغير حساب ولا عذاب**» أي: لا يُعذَّبون ولا يُحاسبون كرامة لهم، وظاهره أي: لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

قوله: «**فخاض الناس في أولئك**» هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظريًّا، وعمليًّا حتى يكونوا منهم.

وقال بعضُهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام فلم يُشركوا بالله شيئًا. وذكـرُوا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروهُ. فقال: «هُمُ الذين لا يَسْترْقُون

قولـه: «**الـذين صحبـوا رسول الله**» يحتمل أنَّ المراد الصحبة المطلقة ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمـل أنَّ المـراد الذين صحبوه في هجرته، ويؤيده أنَّه لو كان المراد الصحبة المطلقة لقالوا: نحن؛ لأنَّ المتكلم هم الصحابة ويدل على هذا قول الرسول، ﷺ، لخالد بن الوليد: «**لا تسبوا أصحابي**»[1] فإنَّ المراد بهم الذين صحبوه في هجرته، لكن يمنع منه أنَّ المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفًا.

ويمنع الاحتمال الأول: أنَّ الصحابة أكثر من سبعين ألفًا. ويحتمل أنَّ المراد من كان مع الرسول، ﷺ، إلى فتح مكة، لأنَّه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا.

وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر.

قولـه: «**الذين ولدوا في الإسلام**» أي: من ولد بعد البعثة، وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفًا.

قوله: «**فخرج عليهم رسول الله**» أي: أخبروه بما قالوا، وما جرى بينهم.

قوله: «**لا يسترقون**» في بعض روايات مسلم[2] «**لا يرقون**» ولكن هذه

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، ﷺ، / باب قول النبي، ﷺ: «لـو كنت متخذًا خليلًا» ٨/٣، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة/ باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٦٧١٩/٤.

(٢) في كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ٢٠٠/١.

. . . .

الرواية خطأ كما قال شيخ الإسلام، لأنَّ الرسول، ﷺ، كان يرقي[1] ورقاه جبريل[2] وعائشة[3] وكذلك الصحابة كانوا يرقون[4][5].

واستفعل بمعنى طلب الفعل مثل: استغفر أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى: أي: طلب الرقية أي: لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لما يلي:

١ ـ لقوة اعتمادهم على الله.

٢ ـ لعزَّة نفوسهم عن التذلل لغير الله.

٣ ـ ولما في ذلك من التعلُّق بغير الله.

---

(١) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب الطب/ باب رقية النبي، ﷺ، ٤/٤٤. ومسلم كتاب السلام/ باب استحباب الرقية من العين ٤/١٧٢٤.

(٢) من حديث عائشة رواه مسلم، كتاب السلام/ باب الطب والمرض والرقى ٤/١٧١٨.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن / باب فضل المعوذات ٣/٣٤٤، ومسلم كتاب السلام / باب رقية المريض ٤/١٧٢٣.

(٤) كما في قصة صاحب السرية.

(٥) فعند شيخ الإسلام: أن الرقية إذا فعلها الإنسان بنفسه أو بغيره فإنها لا تنافي التوكل، وأن الذي ينافي تمام التوكل هو طلب الرقية من الناس.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/١٨٢: «... فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون: أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم، والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك، وقد روي فيه: «ولا يرقون» وهو غلط فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبي - ﷺ - يرقي نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي فإن رقية نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره، وهذا مأمور به، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم».

ولا يكْتوُون ولا يتطيّرُون.

قولـه: «**ولا يكتوون**» لأنَّ النبي، ﷺ، كوى سعد بن معاذ في أكحله[1][2].

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: «**ولا يسترقون**».

أما بالنسبة لمن أُعد للكي من قبل الحكومة، فطلب الكي منه ليس فيه ذلّ، لأنَّه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر على ذلك من الحكومة، ولأنَّ هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنَّه محتاج إلى الكي، وليس سؤال تذلل.

أمّا بالنسبة للاعتماد على الله ففيه نوع من ضعف الاعتماد على الله، على أنَّ في نفسي شيئًا من هذا الأمر، إذا كان الإنسان معدًّا لهذا الأمر، فإنَّ غاية ما يقول: إنني مريض، وأُريد أن تكويني وهذا خبر وليس فيه طلب.

قوله: «**ولا يتطيرون**» مأخوذ من الطير، والمصدر منه طيرة والتطيُّر هو اسم المصدر، والفعل تطيَّر.

وأصله التشاؤم بالطير، ولكنه أعمُّ من ذلك فهو: التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتَّطيُّر حتى لو أراد الإنسان منهم خيرًا ثم رأى الطير سنحت يمينًا، أو شمالاً حسب ما كان معروفًا عندهم تجده يتأَّخر عن هذا الذي أراده.

ومنهم من إذا سمع صوتًا، أو رأى شخصًا تشاءم، ومنهم من يتشاءم في

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب السلام/ باب لكل داء دواء ٤/١٧٣١.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ٤/٦٥: «فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى، فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو النوع الذي لا احتياج إليه بل يفعل خوفاً من حدوث الداء».

وعلى ربهم يتوكَّلُون».

شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: **«عقد عليَّ رسول الله، ﷺ، في شوال، وبنى بي في شوال، فأيكنَّ كان أحظى عنده»**[1].

ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر، وهذا كله مما أبطله الشرع لضرره على الإنسان عقلاً، وتفكيراً، وسلوكًا، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور هذا هو التوكّل على الله ولهذا ختم المسألة بقوله: **«وعلى ربهم يتوكلون»**. فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكُّلهم.

هل هذه الأشياء تدل على أنَّ من لم يتَّصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أنَّ الكمال فاته إلاّ بالنسبة للتّطيُّر فإنَّه لا يجوز؛ لأنَّه ضرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج، فالظاهر أنه مثله؛ لأنَّه عام، وقد يقال: إنَّه لولا قوله: **«ولا يسترقون»** لقلت: إنَّه لا يدخل، لأنَّ الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى لكن كلمة **«يسترقون»** مشكلة، فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقول الدواء مثلها لأنَّ الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضًا، لأنَّ الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً ما تؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال لنفسه فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل: الكسر، وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة، وغيرها.

ولو قال قائل: بالاقتصار على ما في هذا الحديث، وهو أنَّهم لا يسترقون

---

(1) رواه مسلم، كتاب النكاح/ باب استحباب التزوج والتزويج في شوال ٢/ ١٠٣٩.

. . . .

ولا يكتـوون، ولا يتطيرون، وأنَّ ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حسـاب، ولا عذاب، للنصـوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية، كالعسل[1] والحبة السوداء[2] لكان له وجه[3].

---

(١) كحديث ابن عباس مرفوعًا: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي» رواه البخاري، كتاب الطب/ باب الشفاء في ثلاث ٤/٣٢.

(٢) لحديث عائشة مرفوعًا: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السام قلت: وما السام؟ قال: الموت». رواه البخاري، كتاب الطب/ باب الحبة السوداء ٤/٣٤، ومسلم، كتاب السلام/ باب التداوي بالحبة السوداء ٤/١٧٣٥.

(٣) قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد ص (١١٠): «واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيمي، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ أي كافية، إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله كالاسترقاء والاكتواء، فتركهم لها ليس لكونه سبباً، لكن لكونه سبباً مكروهاً، لا سيما والمريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت.

أما مباشرة الأسباب نفسها، والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في التوكل فلا يكون تركـه مشروعـاً كما في الصحيحيـن عن أبي هريـرة مرفوعاً: «**ما أنزل الله من داء إلا أنزل لـه شفاء**»، وعن أسامة بن شريك أن النبي ـ ﷺ ـ: «**ياعباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضـع داء إلا وضـع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ماهو؟ قال: الهرم**» أخرجه أحمد. وقال ابـن القيم في: زاد المعـاد ٤/١٤: فقـد تضمنت هذه الأحـاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً وأن تعطيلها يقدح في مباشرته في التوكل نفسه، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ماينفع العبد في دينه، =

فقام عُكَّاشةُ بن مِحْصن فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم،

وإذا طَلبَ منك إنسان أن يرقيك فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك لأنَّ النبي، ﷺ، لم يمنع عائشة أن ترقيه[1]، وهو أكمل الخلق توكّلاً على الله وثقة به، ولأنَّ هذا الحديث «**لا يسترقون**» إلخ إنَّما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

قوله: «**فقال أنت منهم**» وقول الرسول، ﷺ، هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهاميّ، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري بمعنى أن الرسول يقولها فإذا أقرَّه الله عليه صارت وحيًا إقراريًّا.

لكن رواية البخاري: «**اللهم اجعله منهم**» تدل على أن الجملة «**أنت منهم**» خبر بمعنى الدعاء.

= ولابد مع هذا من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل عجزه توكلاً، ولا توكله عجزاً».

مسألة: واختلف العلماء في التداوي هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟ فالمشهور عن الإمام أحمد الأول، والمشهور عند الشافعي الثاني، ومذهب أبي حنيفة: مؤكد حتى يداني به الوجوب، ومالك: يستوي فعله وتركه.

وقال شيخنا كما في الشرح الممتع ـ أول كتاب الجنائز:

والصحيح:

١ ـ أن ماعلم أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعدمه فهو واجب.

٢ ـ ماغلب على الظن نفعه، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه فهو أفضل.

٣ ـ ماتساوى فيه الأمران فتركه أفضل

(١) سبق تخريجه ص (٩٧).

ثم قام رجـلٌ آخـرُ فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: سَبَقك بها عُكاشةُ»[1].

قوله: «**ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عُكاشة**» لم يرد النبي، ﷺ، أن يقول له: لا، ولكن قال: سبقك بها أي: بهذه المنقبة والفضيلة أو بهذه المسألة عُكاشة بن مُحصن.

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول، ﷺ، هذا الكلام؟

فقيل: إنه كان منافقًا فأراد الرسول، ﷺ، ألّا يجابهه بما يكره تأليفًا.

وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم، فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب يدخل الجنة سبعون ألفًا ٤/١٩٩، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ١/١٩٩.

فيه مسائل : الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد. **الثانية**: ما معنى تحقيقه. **الثالثة**: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين. **الرابعة**: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

قوله: «**فيه مسائل**» أي: في هذا الباب مسائل:

المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

وهذه مأخوذة من قوله: «**يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**» ثم قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون**»[1].

الثانية: ما معنى تحقيقه:

أي: تحقيق التوحيد، وسبق لنا في أول الباب: أنَّ تحقيقه: تخليصه من الشرك.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين: وهو ظاهر في الآية الكريمة: ﴿**إنَّ إبراهيم كان أُمَّة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين**﴾[2] فإنَّ هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه دل ذلك على أنَّ كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله سبحانه وتعالى.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك: لقوله تعالى: ﴿**والذين هم بربِّهم لا يشركون**﴾ وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: ﴿**إنَّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنَّهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**﴾[3].

---

(١) سبق تخريجه ص (٩٩).

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧ ـ ٦١.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد. **السادسة**: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل. **السابعة**: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل. **الثامنة**: حرصهم على الخير. **التاسعة**: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها أي: أولياء السادات وليس يريد رحمة الله الأسياد أو السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذين هم سادات الخلق.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد:

لقوله: «**الذين لا يسترقون ولا يكتوون**» فالمراد بقول المؤلف: «الرقية والكي» الاسترقاء والاكتواء.

السادسة: كون الجامع لتلك الخِصال هو التوكّل: الجامع لتلك الخصال هو ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء وترك التطيُّر يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله عز وجل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفة أنَّهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل: أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفًا هذا الثواب إلا بعمل. ووجهه: أنَّ الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

الثامنة: حرصهم على الخير: وجهه: خوضهم في هذا الشيء لأنَّهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميَّة والكيفيَّة: أما الكميَّة: فلأن النبي ، ﷺ رأى سوادًا عظيمًا أعظم من السواد الذي كان مع موسى، وأما الكيفيَّة: فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكّلون.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى. **الحادية عشرة**: عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ **الثانية عشرة**: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها. **الثالثة عشرة**: قلة من استجاب للأنبياء.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى: وهو مأخوذ من قوله: «**إذ رفع لي سواد عظيم**» ولكن قد يقال: إنَّ التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث لأنَّ الحديث يقول: «**سواد عظيم فظننت أنَّهم أمتي**» وهذا يدل على الكثرة.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام: وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول، عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام ويقول: ﴿**ما كنت بدعًا من الرسل**﴾.

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام، وشرفه حيث كان أكثرهم أتباعًا وأفضلهم، فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان.

الثانية عشرة: أنَّ كل أمة تحشر وحدها مع نبيها:

لقوله: «**رأيت النبي، ومعه الرجل والرجلان**» ولولا أنَّ كل نبي متميز عن النبي الآخر لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها**﴾[1] فإنه يدل على أنَّ كل أمة تكون وحدها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء: وهو واضح من قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد**».

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

الـرابعـة عشرة: أن من لم يجبه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة. **السادسة عشرة**: الرخصة في الرقيةِ من العينِ والحمةِ.

الرابعة عشرة: أنَّ من لم يجبه أحد يأتي وحده: لقوله: «**والنبي وليس معه أحد**».

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم وعدم الاغترار بالكثرة، فإنَّ الكثرة قد تكون ضلالاً قال الله تعالى: ﴿**وإنْ تُطع أكثر من في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله**﴾[1]. وأيضًا الكثرة من جهة أخرى إذا اغترَّ الإنسان بكثرته وظنَّ أنه لن يغلب أو أنه منصور فهذا أيضًا سبب للخذلان فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضلّال لا تغتر بهم، فلا تقل: إنَّ الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟

كذلك أيضًا لا تغترّ بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق فكلام المؤلف له وجهان:

الوجه الأول: أن لا نغترّ بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الـوجه الثاني: أن لا نغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس، وعدم الزهد في القلة: أي: أن لا نزهد بالقلة فقد تكون القلة خيرًا من الكثرة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحُمة. مأخوذة من قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حُمة**».

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

السابعة عشرة: عمقُ علم السلفِ لقوله (**قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمـع ولكن كذا وكـذا**) فعلَم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني. **الثامنة عشرة**: بُعد السلفِ عن مدحِ الإنسان بما ليس فيه. **التاسعة عشرة**: قوله: (**أنت منهم**) علم من أعلام النبوة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: «**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا**» **فعلم أنَّ الحديث الأول لا يخالف الثاني**.

لأنَّ قوله: لا رقية إلا من عين أو حُمة لا يخالف الثاني؛ لأنَّ الثاني إنَّما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية، فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه فإنه لا ينافي قوله: «**ولا يسترقون**» لأن هناك ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال لأنَّه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه وهذا خلاف السنة فإن النبي، ﷺ، لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحدًا أن يرقيهم[1] لأنَّ هذا لا يُؤثر في التوكّل.

الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه: يؤخذ من قوله: «**أما أني لم أكن في صلاة ولكني لدغت**» لأنَّه إذا كان رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظانًا، واليقظان: إما أن يُصلي، وإمّا أن يكون له شغل آخر، وإما يكون لديه مانع من النوم.

التاسعة عشرة: قوله: «**أنت منهم**» علم من أعلام النبوة: يعني دليلاً على نبوة الرسول، ﷺ، وكيف ذلك؟ لأنَّ عُكَّاشة بن محصن، رضي الله عنه، بقي محروسًا من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون في هذا علم، يعني

العشرون: فضيلة عكاشة. **الحادية والعشرون**: استعمال المعاريض.
الثانية والعشرون: حسنُ خلقهِ ﷺ.

دليلاً من دلائل نبوة الرسول، ﷺ، هذا إذا قلنا إنَّ الجملة خبرية ليست جملة دعائية، فإن قلنا إنها جملة دعائية فقد نقول أيضًا: فيه علم من أعلام النبوة وهو أن الله استجاب دعوة الرسول، ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء فقد تجاب دعوة من ليس بنبي وحينئذٍ لا يمكن أن تكون علمًا من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

العشرون: فضيلة عُكَّاشة: بكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم؛ لأنَّ الرسول، ﷺ، شهد له بها.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض: وفي المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لقول الرسول، ﷺ: **«سبقك بها عُكاشة»** فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح إما أن يكون هذا الرجل منافقًا فلم يُرد النبي، ﷺ، أن يجعله مع الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، وإمّا خوفًا من انفتاح الباب فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ: وذلك لأنه ردَّ هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.

بـاب
الخوف من الشرك[1]

وقولِ الله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفرُ أن يُشرك به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاءُ﴾[2] . .

مناسبة الباب للبابين قبله:

في الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله، تحقيق التوحيد، وفي الباب الثاني ذكر أنَّ من حقَّق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلَّث بهذا الباب رحمه الله تعالى؛ لأنَّ الإنسان يرى أنَّه قد حقَّق التوحيد، وهو لم يحقِّقه، ولهذا

---

(١) الشرك قسمان:

الأول: الشرك الأكبر: وهو أن يجعل الإنسان لله نداً في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته.

انظر: معارج القبول ٢/٤٨٣، وفتاوى اللجنة الدائمة ١/٥١٦.

وقال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٢٤): «هو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه، أو يرجوه، أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعاً من أنواع العبادة».

الثاني: الشرك الأصغر: وهو ما أتى في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

انظر: باب من تبرك بشجر أو حجر، المجموع الثمين ٢/٢٧.

وقال السعدي في القول السديد ص (٢٤): «فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي يبلغ رتبة العبادة كالحلف بالله، ويسير الرياء، ونحو ذلك». وقال ص (٤٥): «هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات، والأقوال، والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة».

وفي فتاوى اللجنة الدائمة ١/٥١٧: «كل مانهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الأكبر، ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركا».

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

. . . .

قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، وذلك أن النفس متعلِّقة بالدنيا تريد حظوظها من مال، أو جاه، أو رئاسة، قد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص في الإخلاص، وقلَّ من يكون غرضه الآخرة في كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف، رحمه الله، ما سبق من البابين بهذا الباب وهو الخوف من الشرك.

قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾: لا: نافية. أن يشرك به: فعل مضارع مقرون بأن المصدريَّة، فيحول إلى مصدر تقديره: إن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكًا به، فالشرك لا يغفره الله أبدًا، لأنَّه جناية على حقّ الله الخاصّ، وهو التوحيد.

[أما] المعاصي: كالزِّنا والسرقة، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أمَّا الشرك فهو اعتداء على حق الله تعالى، وليس للإنسان فيه حظ نفسٍ، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده منها، ولكنها ظلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾[1].

وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟

قال بعض العلماء: مطلق يشمل كلَّ شرك، ولو أصغر كالحلف بغير الله فإنَّ الله لا يغفره، أمَّا بالنسبة لكبائر الذنوب كالسرقة، والخمر، فإنَّها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقِّق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة فمرَّة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر[2]، وعلى كل حال فيجب

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٢) قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في جامع الرسائل ٢/٢٥٤: «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به، وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، والشرك منه جليل ودقيق، وخفي وجلي». =

وقال الخليل عليه السلام: ﴿واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أن نعبُدَ الأصنام﴾[1].

الحذر من الشرك مطلقًا، لأنَّ العموم يحتمل أن يكون داخلاً فيه الأصغر، لأنَّ قوله: ﴿أن يشرك به﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكًا به، فهو نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ المراد بالدون هنا ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

قوله: ﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام﴾.

قيل المراد: إسماعيل وإسحاق، وقيل المراد: ذريته وما توالد من صلبه وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلَّت على دعوته للناس من ذريته، ولكن حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم كما أن الرسول، ﷺ، دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم[2] فلم يجب الله دعاءه.

وأيضًا يمنع من الأوّل أنَّ الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق، وإسماعيل.

ومعنى اجنبني: أي: اجعلني في جانب، والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبنيّ من عبادة الأصنام، لأنَّه إذا كان في جانب عنها كان أبعد.

= وقال في الرد على البكري ص (١٤٦): «وقد يقال: الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضى القرآن، وإن كان صاحب الشرك ـ أي الأصغر ـ يموت مسلماً، لكن شركه لا يغفر له، بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة».

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/٩٨: «فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة، فالمغلظة الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، والمخففة الشرك الأصغر كيسير الرياء».

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥. (٢) يأتي تخريجه ص (٤٨٥).

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء فما بالك بنا نحن إذن، فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النِّفاق إذ لا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولهذا قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي، ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه»[1].

وعمر رضي الله عنه أمسك حذيفة وقال: «أنشدك الله هل سمَّاني لك رسول الله، ﷺ، مع من سمَّى من المنافقين»؟

وانظر إلى هذا الإيمان الراسخ القوي مع أنَّ الرَّسول، ﷺ، بشَّره بالجنة[2] ولكن خاف أن يكون الرسول، ﷺ، بشَّره بالجنة بناء على ما رأى من أفعاله في حياته، وأنَّه لا يدري ما حصل له بعد موته. ولهذا قال الرسول ﷺ: «**أقول أصحابي**» يعني عند ورودهم الحوض يوم القيامة فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك[3].

ولا يُقال: إنَّ قول عمر هذا لحثِّ الناس على الخوف من النفاق، وهو أنَّه إذا كان عمر يقول هذا، وهو ممن شُهِدَ له بالجنة فغيره من باب أولى؛ لأنَّ هذا لا يصلح، لأنَّ الأصل أنَّ الكلام يبقى على حقيقته، وبعض العلماء يسلك هذا المسلك في هذا وفي غيره حتى فيما يفعله الرسول، ﷺ، أحيانًا في بعض الأشياء يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبيِّن لغيره كما قيل: إن الرسول، ﷺ، لم يقل رب اغفر لي لأنَّ له ذنوبًا، ولكن لأجل أن يعلِّم الناس الاستغفار، وهذا خلاف الأصل.

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان/ باب خوف المؤمن أن يحبط عمله ١/ ٣٢.

(٢) لحديث أبي موسى، رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي/ باب قول النبي، ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا» ٣/ ١٢، ومسلم كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل عمر ٤/ ١٨٦٨.

(٣) من حديث أنس، رواه البخاري رقم (٦٥٨٢) ومسلم رقم (٢٣٠٤).

وفي الحديث: «**أخْوف ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغر، فسُئل عنه؟ فقال: الرِّياءُ**»[1].

قوله: ﴿**أن نعبد الأصنام**﴾ نعبد: مفعول ثاني لاجنبني.

والأصنام: جمع صنم، وهو: ما جعل على صورة إنسان أو غيره يعبد من دون الله.

أما الوثن فهو ما عبد من دون الله على أي شكل كان وفي الحديث: «**لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»[2] فالوثن أعمُّ من الصنم.

ولا شكَّ أنَّ إبراهيم سأل ربّه الثبات على التوحيد، لأنَّه إذا جنّبه عبادة الأصنام صار باقيًا على التوحيد.

الشاهد من هذه الآية:

أنَّ إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رسول الله ﷺ.

قوله: «**وفي الحديث**» الحديث: ما أضيف إلى الرسول ﷺ. والخبر: ما أضيف إليه وإلى غيره.

والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول، ﷺ، إلى الصحابي فمن بعده إلا إذا قُيّد فقيل: وفي الأثر عن رسول الله، ﷺ، فيكون على ما قُيّد به.

قولـه: «**أخوف ما أخاف عليكم**»: الخطاب للمسلمين إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس.

---

(١) من حديث محمود بن لبيد، رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٤٢٨، قال ابن حجر في بلوغ المرام ص (٣٠٢): «أخرجه أحمد بإسناد حسن» وقال المنذري في الترغيب ١/٦٩: «إسناده جيد» وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٢٢: «رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن شبيب بن خالد وهو ثقة».

(٢) يأتي ص (٤٢٩).

. . . .

قوله: «**الرياء**»: مشتقٌّ من الرؤية مصدر راءى يرائي والمصدر رياءً، كقاتل يقاتل قتالاً.

والرِّياء: أن يعمل ليراه الناس، لا لله، والظاهر: أنَّ هذا على سبيل التمثيل، وإلّا فقد يكون رياءً، وقد يكون سماعًا أي: يقصد بعمله أن يسمعه الناس، فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب، فالرياء،: أن يعمل العبادة يريد من الناس أن يمدحوه عليها.

أمَّا إن أراد أن يقتدوا به فيها فليس رياءً بل هذا من الدعوة إلى الله عز وجل، والرسول، ﷺ، يقول: «**فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي**»[1].

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة أي: ما قام يتعبد إلّا للرياء، فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في الصحيح مرفوعًا قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[2].

الثاني: أن يكون الرّياء طارئًا على العبادة، أي أصل العبادة لله لكن طرأ عليها الرياء فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه فهذا لا يضرّه.

مثاله: رجل صلى ركعة ثم جاء أناس في الركعة الثانية فحصل في قلبه شيء، بأن أطال الركوع، أو السجود، أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه فإنه لا يضره، لأنه قام بالجهاد.

---

(١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رواه البخاري، كتاب الجمعة/ باب الخطبة على المنبر ١/ ٢٩٠، ومسلم كتاب المساجد/ باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة ١/ ٣٨٦.

(٢) سبق تخريجه ص (٤٤).

. . . .

وإن استرسل معه فكل عمل ينشأ عن الرياء فهو باطل كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأول: أن يكون آخر العبادة مبنيًّا على أولها بحيث لا يصحّ أولها مع فساد آخرها فهي كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة: فالصلاة مثلاً لا يمكن أن يفسد آخرها، ولا يفسد أولها إذن تبطل الصلاة.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها بحيث يصحّ أولها دون آخرها، فما سبق الرياء فهو صحيح، وما كان بعده فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال فتصدق بخمسين لله بنية، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء، فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة، لأنَّ آخرها منفك عن أولها.

وأما بالنسبة للوضوء فهل نقول يبطل الوضوء؟ أو نقول يبطل ما حصل فيه الرياء، فإذا غسل يديه ومسح رأسه، نقول: أعد مسح يديك، وغسل رأسك؟

الوضوء ينبني بعضه على بعض، فليس كل من الأعضاء مستقلاً، وهذه المسألة عند التأمّل تجد أنَّها ليست كالصدقة من كل وجه، وليست كالصلاة من كل وجه، وهي طرأت عليَّ الآن، وتحتاج إلى تأمل فيها، هل نقول بطل غسل العضو الذي حصل فيه الرياء، وتعيد غسله، لأنَّه في الحقيقة لم تتغير الهيئة أم لا؟!

وعلى كل حال هذه لا أبتُّ فيها برأي الآن.

مثلاً: لو أنه بعدما غسل يديه رجع وغسل وجهه هل يبطل وضوؤه؟ لا، ولو أنه بعدما سجد رجع وركع تبطل صلاته؟ والترتيب موجود في

وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله، ﷺ، قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار**». رواه البخاري[1].

هذا، وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضًا، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءًا لأنَّه غير شرعي، وربما يكون بالأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه ثم قال الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتّب أي سيغسل يديه ثم وجهه فوضوؤه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرَّات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوتُّ على نفسي فضيلةً سأرجع لأجل أن أسبح ثلاث مرَّات فتبطل صلاته، فالمهمُّ أن هناك فرقًا بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبتُّ فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالى.

قوله: «**من**» هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى.

قوله: «**يدعو من دون الله ندًّا**» أي: يتخذ لله ندًّا سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة لأنَّ الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان، أو صام فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة كما أنَّها تتضمَّن الدعاء بلسان المقال.

ويدلّ لهذا القسم قوله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾[2] فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كلّه شرك

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا﴾ ١٩٦/٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤١.

. . . .

فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فقد كَفر كُفرًا مُخرجًا له عن المِلَّة، فلو ركع لإنسان، أو سجد لشيء يعظِّمه كتعظيم الله في هذا الركوع، أو السجود لكان مشركًا، ولهذا منع النبي، ﷺ، من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن ينحني له؟ قال: لا(٢).

خلافًا لما يفعله بعض الجهَّال إذا سلَّم عليك انحنى لك. فيجب على كلّ مؤمن بالله أن ينكره، لأنَّه عظَّمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة: فهذا ليس كُلّه شركًا بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادرًا على ذلك فليس بشرك كقولك: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال، ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»(٣). وقال تعالى: ﴿**وإذا حضر القسمة أولو القربىٰ واليتامى والمساكين فارزقوهم منه**﴾(٤).

فإذا مدَّ الفقير يده، وقال: ارزقني: أي: أعطني فهو جائز كما قال تعالى: ﴿**فارزقوهم منه**﴾ وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلاّ الله، فإن دعوته شرك مخرج عن المِلَّة.

مثال ذلك: أن تدعو إنسانًا أن يُنزِّل الغيث معتقدًا أنَّه قادر على ذلك.

والمراد بقول الرسول ﷺ: «**من مات وهو يدعو. . .**» المراد النّد في

---

(١) من حديث أنس، رواه الترمذي، كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في المصافحة ٧/٣٥٦، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه كتاب الأدب/ باب في المصافحة ٢/١٢٢٠، وأحمد في المسند ٣/١٩٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٦٨، وأبوداود (٣/١٧)، والنسائي ٥/٢٨، والحاكم ١/٤١٢، والبيهقي ٤/٩٩، وصححه الحاكم، والحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات ٥/٢٥٠.

(٣) سورة النساء، الآيةِ: ٨.

. . . .

العبادة، أما النّد في المسألة ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف، ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلانًا المقبور الذي بقي جثّة، أو أكلته الأرض ينفع، أو يضرّ، أو يأتي بالنّسل لمن لا يولد لها، وهذا والعياذ بالله شرك أكبر مُخرج من الملّة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر، والزّنا، واللواط، لأنّه إقرار على كفر، وليس إقرارًا على فسوق فقط.

قوله: «**دخل النار**» أي: خالدًا مع أن اللفظ لا يدلّ عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدلّ على الإطلاق.

وأيضًا قال الله تعالى: ﴿**إنّه من يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النـار وما للظالمين من أنصار**﴾[1]. وإذا حُرِّمت الجنّة لزم أن يكون خالدًا في النار أبدًا، فيجب أن نخاف من الشِّرك ما دامت هذه عقوبته، فالمُشرك خَسِرَ الآخرة لأنّه في النار خالدٌ، وخَسِرَ الدنيا أيضًا لأنّه لم يستفد منها شيئًا، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر، والعياذ بالله ما استفاد شيئًا من الدنيا قال تعالى: ﴿**أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير**﴾[2] ولهذا قال الله عز وجل: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصـابتـه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. يدعو من دون الله مالا ينفعـه ومالا يضره ذلك هو الضلال البعيد. يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة**﴾[4].

فخسر نفسه، لأنّه لم يستفد منها شيئًا، وخسر أهله لأنّهم إن كانوا من

---

(1) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(2) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(3) سورة الحج، الآية: ١١، ١٢، ١٣.
(4) سورة الزمر، الآية: ١٥.

ولمسلم عن جابر، أن رسول الله، ﷺ، قال: **«من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيَهُ يشرك به شيئًا دخل النار»**[1].

المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك، لأنَّه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جدًّا فقد يكون في الإنسان، وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص».

فالشرك أمره صعب جدًّا ليس بالهيِّن، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعل الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس، أو ذمَّهم، أو ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبدًا، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلاّ عمله، قال ﷺ: **«يخرج مع الميت أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله»**[2].

وكذلك أيضًا من المهم أنَّ الإنسان لا يفرحه أن يقبل الناس قوله، لأنَّه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق، لأنَّه الحق، لا أنَّه قوله، وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله، لأنَّه قوله، لأنه حينئذٍ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنَّه الحق، وبهذا يتحقَّق الإخلاص.

فالإخلاص صعب جدًّا إلاّ أنَّ الإنسان إذا كان متجهًا إلى الله اتجاهًا صادقًا سليمًا على صراط مستقيم، فإنَّ الله يعينه عليه، وييسِّره له.

قولـه: «من» للعموم: قوله: **«دخل الجنة»** وهذا الدخول لا ينافي أن يُعذَّب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب لدلالة نصوص الوعيد على ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له، لأنَّه داخل تحت المشيئة. و«دخل» جواب «من».

---

(١) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب سكرات الموت ٤/١٩٣، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٣.

(٢) كتاب الإيمان/ باب من مات وهو لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ١/٩٤.

. . . .

قوله: «لا يشرك» في محل نصب على الحال.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق الشرط فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول، ﷺ، دخل النار فكيف بمن يجعل الرسول، ﷺ، أعظم من الله؟ فيلجأ إليه عند الشدائد، ولا يلجأ إلى الله بل ربما يلجأ إلى ما دون الرسول ﷺ.

وهناك من لا يُبالي بالحلف بالله صادقًا أم كاذبًا، ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقًا، ولهذا أُختلف فيمن لا يُبالي بالحلف بالله، ولكنه لا يحلف بملَّته أو مما يعظمه إلا صادقًا هل يحلف بالله أو يحلف بهذا؟

فقيل: يحلف بالله، ولو كذب، ولا يُعان على الشرك، وهو الصحيح.

وقيل: يحلف بغير الله؛ لأنَّ المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة وهو إذا كان كاذبًا لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقًا حلف وحصل الشرك.

مسألة:

هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر فإنَّه لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإن كان أكبر فإنَّه يلزم منه الخلود في النار.

لو أننا حملنا الحديث على الشرك الأكبر في الموضعين في قوله: «**من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة**»[1] وفي قوله: «**ومن لقي الله يُشرك به شيئًا دخل النار**»[2] قلنا: من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة. وإن عُذّب قبل

---

(١) سبق تخريجه ص (١١٧).

(٢) سبق تخريجه ص (١١٩).

. . . .

الدخول، في النار بما يستحق فيكون مآله إلى الجنة. ولا حاجة إلى أن نقول ولننظر إلى النصوص الأخرى الدالة على أنه يُعذّب، لأنَّه دخلها دخولاً مطلقًا مخلّدًا، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار، ولا حاجة أن نُقَسِّم، ونقول: دخولاً مطلقًا، أو مطلق دخول.

أمّا إذا قسَّمنا الشرك إلى قسمين: أصغر، وأكبر، فإننا أيضًا نُقسّم الدخول إلى قسمين: دخول مطلق، ومطلق الدخول.

فيه مسائل : الأولى: الخوف من الشرك. **الثانية**: أن الرياءَ من الشركِ. **الثالثة**: أنه من الشرك الأصغر. **الرابعة**: أنه أخوف ما يخاف منهُ على الصالحين.

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك: لقوله: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾ ولقوله: ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾.

الثانية: أن الرياء من الشرك: لحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه فقال: «الرياء». وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر: لأنَّ النبي، ﷺ، لما سئل عنه قال: الرياء، فسماه شركًا أصغر.

وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟ ظاهر الحديث لا يمكن؛ لأنَّه قال: «الشرك الأصغر» فسئلَ عنه؟ فقال: «الرياء».

لكن في عبارات ابن القيم، رحمه الله، أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء، فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكميَّة فنعم؛ لأنَّه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركًا شركًا أكبر، لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية فظاهر الحديث أنَّه أصغر مطلقًا.

الرابعة: أنَّه أخوف ما يخاف منه على الصالحين: وتؤخذ من قوله: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» ولأنَّه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه، وتطلّع النفس إليه، فإنَّ كثيرًا من النفوس تحبّ أن تمدح بالتعبد لله.

الخامسة: قربُ الجنةِ والنارِ. **السادسة**: الجمعُ بينَ قربهما في حديثٍ واحدٍ. **السابعة**: أنه من لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان من أعبدِ الناسِ. **الثامنة**: المسألة العظيمةُ سؤالُ الخليل له ولبنيه وقايةَ عبادةِ الأصنامِ. **التاسعة**: اعتبارُه بحالِ الأكثر لقوله: ﴿**رب إنهنَّ أضللن كثيرًا من الناسِ**﴾[1].

الخامسة: قرب الجنة والنار: لقوله: «**من لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**».

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد: «**من لقي الله لا يُشرك به شيئًا...**» الحديث.

السابعة: أنَّ من لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار، ولو كان من أعبد الناس، تؤخذ من العموم في قوله: «**من لقي الله**» لأنَّ «من» للعموم لكن إن كان شركه أكبر لم يدخل الجنة بعد لقوله تعالى: ﴿**إنَّه من يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار**﴾.[2] وإن كان أصغر عُذِّب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له، ولبنيه وقاية عبادة الأصنام: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام**﴾.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿**رب إنهن أضللن كثيراً من الناس**﴾ وفيه إشكال إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: ﴿**كثيراً من**

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

العاشرة: فيه تفسيرُ (**لا إلهٰ إلا الله**) كما ذكره البخاري. **الحادية عشرة**: فضيلة من سلمَ من الشركِ.

الناس﴾ وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: **﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**.[1] فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق، فالآدميون فُضِّلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرَّمهم.

العاشرة: فيه تفسير لا إلـه إلا الله كما ذكره البخاري.

الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إلـه إلا الله فيها نفي وإثبات.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك. لقوله: **﴿ويغفر ما دون ذلك﴾**. وقوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

بـــاب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقـــول الله تعـــالى: ﴿قـــل هذه سبيـــلي أدْعـــو إلى الله على بصيرةٍ﴾[1]. الآية.

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون؛ لأنَّه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر أنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد. قال تعالى: **﴿والعصر إنَّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر﴾**[2].

فلابدّ مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلاّ كان ناقصًا، ولا ريب أنَّ هذا الذي سلك هذا السبيل لم يسلكه إلاّ وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقًا في اعتقاده، فلابدّ أن يكون داعيًا إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به.

قوله: **﴿قل هذه سبيلي﴾** المشار إليه ما جاء به النبي، ﷺ، من الشرع عبادة ودعوة إلى الله.

وسبيلي: طريقي.

قوله: **﴿أدعو﴾** حال من الياء في قوله: **﴿سبيلي﴾** أو يحتمل أن تكون استئنافًا لبيان تلك السبيل.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة العصر.

. . . .

وقوله: ﴿أدعو إلى الله﴾ لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

١ - داع إلى الله.

٢ - داع إلى غيره.

فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الذي يُريد أن يُوصل الناس إلى الله تعالى.

والداعي إلى غيره قد يكون داعيًا إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يُعظَّم بين الناس ويُحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهيًا أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه.

وقد يكون داعيًا إلى رئيسه كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل يدعون إلى رؤسائهم.

من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة بل ليس فيها دلالة فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارين منه، فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول، ﷺ، قال لعلي: «**انفذ على رسلك، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[1]. رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله فليكن غضبه من أجل أنَّ الحق لم يُتّبع، لا لأنَّه لم يجب، فإذا كان يغضب لهذا معناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد كفى، وإذا لم يستجب أحد يكفي أيضًا، وفي الحديث: «**والنبي وليس معه أحد**»[2] ثم أنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس

---

(١) يأتي ص (١٣١). ١٣٤

(٢) سبق تخريجه ص (٩٤).

. . . .

أنَّ هذا حق، وهذا باطل؛ لأنَّ الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأُقرَّ الباطل مع طول الزمن ينقلب هذا الحق باطلاً، والباطل حقًا.

قوله: ﴿على بصيرة﴾ أي: علم، فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم، لأنَّ أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود هنا بالعلم في قوله: ﴿على بصيرة﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي، ﷺ، لمعاذ: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب**»[1].

وهذه ليست كلها من العلم بالشرع؛ لأنَّ علمي أنَّ هذا الرجل قابل للدعوة باللّين، وهذا قابل للدعوة بالشدَّة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا، والتشجيع كقوله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[2].

أو بالتأليف فالنبي، ﷺ، أعطى المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلى مائة بعير[3]، فهذا كله من الحكمة، فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محمودًا،

---

(١) يأتي تخريجه ص (١٣١).

(٢) من حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ: قال: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب قول الله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم...﴾ ٣/ ١٥٤، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب استحقاق القاتل سلب القتيل ٣/ ١٣٧٠.

(٣) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الخمس/ باب ما كان النبي، ﷺ، يعطي المؤلفة رقم (٣١٤٧)، ومسلم، كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة رقم (١٠٥٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله، ﷺ، لما بعث مُعاذًا إلى اليمن قال له:

إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكُن أولَ ما تدعوهم إليه

وليست طريقته طريقة الرسول، ﷺ، لأنَّ الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله: ﴿**أنا ومن اتَّبعني**﴾ ذكروا فيها رأيين:

الأول: «أنا» مبتدأ، وخبرها «على بصيرة» «ومن اتبعني» معطوفة على «أنا» أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة أي في عبادتي، ودعوتي.

الثاني: «أنا» توكيد للواو في قوله: «أدعو» أي أدعو أنا إلى الله ومن اتبعني يدعو أيضًا، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، ويدعو من اتَّبعني، وكلانا على بصيرة.

قوله: ﴿**وسبحانَ الله**﴾ أي: وسبحان الله أن أكون أدعو على غير بصيرة.

وإعراب «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾ محلها مما قبلها في المعنى توكيد؛ لأنَّ التوحيد معناه نفي الشرك.

قوله: «**بعث**» أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلّم، والحاكم، والداعي وبعثه في ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى الأشعري، رضي الله عنهما، بعث معاذًا إلى صنعاء، وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها وأمرهما: أن اجتمعا وتطاوعا، ولا تفترقا، ويسِّرا ولا تُعسِّرا، وذكِّرا ولا تنفِّرا[1].

قوله: «**لما**» إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ٣/ ١٦٠.

و«لو» حرف امتناع لامتناع .

و«لولا» حرف امتناع لوجود .

قوله : **«إنَّك تأتي قومًا من أهل كتاب»** .

قال ذلك مرشدًا له ، وهذا دليل على معرفته ، ﷺ ، بأحوال الناس ، وما يعلمه من أحوالهم ، فله طريقان :

١ ـ الوحي .

٢ ـ العلم والتجربة .

قولـه : **«من»** بيانية ، والمـراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، فيكون المراد اليهود والنصارى ، وهـم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت ، وإن كان في اليمن مشركون ، لكن الأكثر اليهود والنصارى ، ولهذا اعتمد الأكثر .

وأخبره النبي ، ﷺ ، بذلك لأمرين :

الأول : أن يكون بصيرًا بأحوال من يدعو .

الثاني : أن يكون مستعدًّا لهم ؛ لأنهم أهل كتاب ، وعندهم علم .

قوله : **«فليكن»** الفاء للاستئناف ، أو عاطفة ، واللام للأمر ، و«أول» : اسم يكن ، وخبرها شهادة ، وقيل : العكس ، يعني «أول» : خبر و«شهادة» : اسم يكن .

والظاهر أنه يريد أن يبيِّن أنَّ أول ما يكون الشهادة ، وإذا كان كذلك يكون «أول» مرفوعًا على أنه اسم يكن ، أي : أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله .

قوله : **«شهادة»** الشهادة هنا من الحضور ، أو من العلم؟ .

من العلم قال تعالى : **﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾**[1] فالشهادة

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٨٦ .

ـ وفي رواية ـ إلى أن يوحِّدوا الله ـ فإن هم أطاعوك لذلك فأَعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأَعلمهم أن الله افترض عليهم صدقَةً تؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوك لذلك، فإيَّاك وكرائمَ أموالِهم، واتَّق دعوةَ المظلوم. فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه[1].

هنا العلم والنطق باللسان؛ لأنَّ الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم، وإخبار، وقبول، وإقرار، وإذعان أي: انقياد.

فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه أشهد أن لا إلـه إلا الله، فقد قال شيخ الإسـلام: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى يقول؛ لأنَّ كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلا بد من النطق، فالنية فقط لا تجزىء، ولا تنفعه عند الله حتى ينطق، والنبي ﷺ، قال لعمه أبي طالب: «قل»[2] ولم يقل اعتقد أن لا إلـه إلا الله.

قوله: «إلـه» بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول أي: معبود، وعند المتكلمين: إلـه آله فهو اسم فاعل أي قادر على الاختراع وهذا باطل[3]؛ لأنَّ هذا هو الذي عليه المشركون الذين قالوا: ﴿أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا﴾[4]، ولو قيل بهذا لكان المشركون يقرون به، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ٣/ ١٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين ١/ ٥٠، ورواية «فليوحدوا» رواها البخاري، كتاب التوحيد/ باب ما جاء في دعاء النبي، ﷺ، أمته ٤/ ٣٧٨.

(٢) يأتي ص (٣٥١).

(٣) انظر ص (٦٠).

(٤) سورة ص، الآية: ٥.

ولهما عن سهل بن سعد (رضي الله عنه): أن رسولَ الله ﷺ قال يومَ خَيبرَ: «**لأعطِينَّ الراية غدًا رجلًا يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، يفتح الله علي يديه**». فبات الناس يَدُوكُون ليلتهم، أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ،

ليقولنَّ الله﴾[1]. وقال تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾**[2].

فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا الله، والمشركون يعبدون أصنامهم؟ أجيب: بأنَّهم يعبدونها بغير حق فهم وإن سمَّوها آلهة فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق، ولذلك إذا مسهم الضر لجأوا إلى الله تعالى، وأخلصوا له الدين، وعلى هذا لا تستحق أن تُسمى إلـهًا.

فهم يعبدونها، ويعترفون بأنَّهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقرِّبهم إلى الله فقط، فجعلوها وسيلة، وذريعة، وبهذا التقرير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم: **﴿اعبدوا الله مالكم من إلـه غيره﴾**[3] لأنَّ هذه المعبودات لا تستحق أن تُعبد، بل الإلـه المعبود حقًّا هو الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله: «**لا إلـه إلا الله**» نفي الألوهية لغير الله، وإثباتها لله، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

قوله: «**لأعطينَّ**» هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطينَّ.

قوله: «**الراية**» العَلَمْ، وسُمِّي راية لأنَّه يُرى، وهو ما يأخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

. . . .

واللواء قيل: إنه الراية، وقيل: ما لوي أعلاه، أو لوي كلّه، فيكون الفرق بينهما: أن الرَّاية مفلولة لا تُطوى، واللواء يُطوى إما أعلاه، أو كله، والمقصود منهما المعرفة، ولهذا يُسمى عَلَمًا.

قوله: «**غدًا**» يُراد به ما بعد اليوم.

والأمس يراد به ما قبله.

والأصل: أنه يراد بالغد: ما يلي يومك، ويُراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يُراد بالغد ما وراء ذلك قال تعالى: ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾[1] أي: يوم القيامة.

وكذلك بالأمس قد يُراد به ما وراء ذلك، أي: ما وراء اليوم الذي يليه يومك.

قوله: «**يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**».

أثبت المحبـة من الجـانبـين، ومحبـة الله تعالى ثابتة، وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب، فقد يبغض الله إنسانا في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

قوله: «**على يديه**» أي: يفتح الله خيبر على يديه، وفي ذلك بشارة بالنصر.

قوله: «**يدوكون**» أي: يخوضون، وجملة يدوكون خبر بات.

قوله: «**غدوا على رسول الله**» أي: ذهبوا إليه في الغدوة مبكرين كلهم يرجو أن يُعطاها لينال محبة الله ورسوله.

قوله: «**فقال أين علي**»؟ القائل الرسول ﷺ.

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «**أين عليُّ بن أبي طالب؟**» فقيل: هو يَشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأُتيَ به، فبصق في عينيه ودعا له فبرىء، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الرايةَ، فقال: «**انْفُذْ على رِسْلِك حتى تنزلَ بساحتهم.**

قوله: «**يشتكي عينيه**» أي: يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلى الله لأنَّ عينيه مريضة.

وقوله: «**فأرسلوا إليه**» بأمر الرسول ﷺ.

قوله: «**فأتي به**» كأنه، رضي الله عنه، قد عمم على عينيه، لأنَّ قوله: «**أتي به**» أي: يقاد.

وقوله: «**كأن لم يكن به وجع**» أي: ليس بهما أثر حمرة، ولاغيرها.

قوله: «**فبرأ**» هذا من آيات الله الدالة على قدرته، وصدق رسوله، ﷺ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله لتخصيص النبي، ﷺ، له ذلك من بين سائر الصحابة.

قولـه: «**انفذ على رسلك**» أي: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة أي: حليبها يحلب شيئًا فشيئًا، والمعنى: امش هوينًا هوينًا لأنَّ المقام خطير، لأنَّه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: «**حتى تنزل بساحتهم**» أي: ما يقرب منهم، وما حولهم، والنبي، ﷺ يقول: «**إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[1].

---

(١) من حديث انس، رواه البخاري، كتاب الصلاة/ باب ما يذكر في الفخذ ١/ ١٣٩، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة خيبر ٣/ ١٣٩.

ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يَهديَ الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَمْ»[1].

يَدُوكُون: أي يخوضون.

وهذا إذا كنَّا على الوصف الذي عليه الرسول، ﷺ، وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا في أحضانهم فمن الممكن أن يقوموا، ونكون في الأسفل.

قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**» أي: أهل خيبر.

قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم**» أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به، ويلتزموا.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها وإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن وأنهم لا يسلمون عن اقتناع فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيهم.

وظاهر الحديث: أنَّك تدعو أولاً إلى الإسلام، ثم تخبره بما يجب عليه.

وقيل: تخبره أولاً بما يجب عليه من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، لأجل أن يدخل عن اقتناع؛ لأنَّه إذا دخل في الإسلام ثم لم يلتزم وجب قتله.

ويحتمل أن يقال: أن تترك هذه المسألة للواقع، وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا، أو هذا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر ٣/١٣٤، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل علي ٤/١٨٧٢.

. . . .

قوله: «**خير لك**» «**أن**» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ، و«خير» خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾[1].

قوله: «**حمر النعم**» بتسكين الميم جمع أحمر، وبالضم جمع حمار والمراد الأول.

وحمر النعم هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنَّها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن، وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: «**لأن يهدي الله بك**» ولم يقل: لأن تهدي، لأن الذي يهدي هو الله.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أم يعم كل هداية؟ نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقول إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأنَّ من اهتدى على يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين يحصل له هذا الثواب؟ نقول: الله أعلم أنَّه لا يحصل هذا الثواب بقرينة المقام، لأنَّ علياً موجه إلى قوم كفَّار يدعوهم إلى الإسلام، والظاهر أن القرينة محكمة هنا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

فيه مسائل : الأولى : أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعَه ﷺ .
الثانية : التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه . **الثالثة** : أن البصيرة من الفرائض . **الرابعة** : من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً الله تعالى عن المسبة .

فيه مسائل :

الأولى : أنَّ الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ .

وتؤخذ من قوله تعالى : ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ .

والأشمل من ذلك ، والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال : إن الدعوة إلى الله طريق الرسل .

الثانية : التنبيه على الإخلاص .

وتؤخذ من قوله : «**أدعو إلى الله**» ولهذا قال : لأنَّ كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه ، فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلاّ أن يقوم دين الله ، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول حقًّا كان أم باطلاً .

الثالثة : أن البصيرة من الفرائض :

وتؤخذ من قوله تعالى : ﴿**أدعو إلى الله على بصيرة**﴾ ووجه كون البصيرة من الفرائض ، لأنَّه لابد للداعية من العلم بما يدعو إليه والدعوة فريضة ، فيكون العلم بذلك فريضة .

الرابعة : من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيه لله عن المسبة .

وتؤخذ من قوله تعالى : ﴿**سبحان الله وما أنا من المشركين**﴾ . فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله .

الخامسة: أن من قبحِ الشرك كونه مسبة لله. **السادسة**: وهي من أهمها: إبعادُ المسلمِ عن المشركينَ لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.
السابعة: كونُ التوحيدِ أول واجبٍ. **الثامنة**: أنه يبدأ به قبل كل شيءٍ حتى الصلاة.

ومعنى عن المسبّة أي: وعن مماثلة الخالـق للمخلوق، إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

قال الشاعر:

ألم تر أن السـيف ينـقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبّة لله:

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾. بعد قوله: ﴿**وسبحان الله**﴾.

السادسة: وهي أهمها إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك. لقوله تعالى: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾. ولم يقل: «وما أنا مشرك». لأنَّه إذا كان بينهم، ولـو لم يكن مشركًـا، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿**اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس**﴾[1] توجّه الخطاب له ولهم.

السابعة: كون التوحيد أول واجب:

تؤخذ من قوله ﷺ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله**». وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**».

وقـال بعض العلماء: أول واجب النـظر، لكن الصـواب أنـه واجب التوحيد، لأنَّ معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

الثامنة: أن يُبدأ به قبل كل شيء:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

التاسعة: أن معنى: «**أن يوحدُوا الله**» معنى شهادة أن لا إلـه إلا الله.
العـاشرة: أن الإنسان قد يكونُ من أهلِ الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها. **الحادية عشرة**: التنبيه على التعليم بالتدريج.
الثانية عشرة: البداءةُ بالأهم فالأهم. **الثالثة عشرة**: مصرف الزكاة.

تؤخذ من قوله ﷺ: «**ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

التاسعة: أنَّ معنى أن يوحِّدوا الله معنى شهادة أن لا إلـه إلا الله: تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبَّر برواية بقوله: «شهادة أن لا إلـه إلا الله» وفي رواية عبَّر بقوله: «أن يوحدوا الله».

العاشرة: أنَّ الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها.

ومراده بقوله: «لا يعرفها، أو يعرفها» شهادة أن لا إلـه إلا الله. وتؤخذ من قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله**» إذ لو كانوا يعرفون: لا إلـه إلا الله ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج:

تؤخـذ من قولـه، ﷺ، لمعـاذ: «**ادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطـاعـوك لذلـك، فاعلمهم أن الله افـترض عليهم...**». الحـديث، فاعلمهم.. فاعلمهم... إلخ.

الثانية عشرة: البدء بالأهم، فالأهم:

تؤخذ من أمره، ﷺ، معاذاً بالتوحيد ليدعو إليه أولاً ثم الصلاة، ثم الزكاة.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة:

الـرابعـة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم. **الخامسة عشرة**: النهي عن كرائم الأمـوال. **السـادسـة عشرة**: اتقـاءُ دعوة المظلوم. **السابعة عشرة**: الإخبار بأنها لا تحجب.

تؤخذ من قوله: «**فترد على فقرائهم**».

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم:

المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل.

تؤخذ من قوله: «**إنَّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

فبيَّن أنَّ هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأنَّ مصرفها الفقراء.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال:

تؤخذ من قوله: «**فإياك وكرائم أموالهم**» إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي، وإياك تحذير.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم:

تؤخذ من قوله: «**واتق دعوة المظلوم**».

السابعة عشرة: الإخبار بأنَّها لا تُحجب:

تؤخذ من قوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»: فقرن الترغيب، أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا، لقوله: «**اتق دعوة المظلوم**» فالنفس قد لا تتقي لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء. **التاسعة عشرة**: قوله: «**لأعطينَّ الراية**» إلخ. علمٌ من أعلام النبوة. **العشـــرون**: تفله في عينيه علمٌ من أعلامها أيضًا. **الحادية والعشرون**: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثامنة عشرة: ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء:

الظاهر: أن المؤلف، رحمه الله، يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها في عهد النبي، ﷺ، جوع عظيم حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم[1]، وأمَّا الوباء فهو ما وقع في عهد علي رضي الله عنه، وأما المشقة فظاهرة.

وكون ذلك من أدلة التوحيد: أنَّ الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله ولذلك صبر على البلاء.

التاسعة عشرة: قوله: «**لأعطين الراية**» علم من أعلام النبوة: لأنَّ هذا حصل، فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا: لأنَّه بصق في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع.

الحـادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وهذا ظاهر لأنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

---

(١) أكل لحوم الحمر من حديث سلمة بن الأكوع، رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر ١٣٥/٣، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة خيبر ١٤٢٧/٣.
وأكل الثوم رواه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٣٨/٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح. **الثالثة والعشرون**: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى. **الرابعة والعشرون**: الأدب في قوله: «على رسلك». **الخامسة والعشرون**: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال. **السادسة والعشرون**: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا. **السابعة والعشرون**: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح: لأنَّهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى: لأنَّ الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يعطوها، وعلي بن أبي طالب مريض ولم يسع لها ومع ذلك أعطي الراية.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «**على رسلك**».

ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال:

لقوله: «**انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام**».

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة:

تؤخذ من قوله: «**أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**»، لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام لأنَّه قد يطبِّق هذا الإسلام الذي أمرته به، وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام. التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجلٌ واحدٌ. الثلاثون: الحلف على الفُتْيَا.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام:

تؤخذ من قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد:

لقوله: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**». أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

الثلاثون: الحلف على الفتيا:

لقوله: «**فوالله لأن يهدي الله... إلخ**» فأقسم النبي، ﷺ، وهو لم يُستقسم، والفائدة: هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلّا لمصلحة وفائدة، لأنّه قد يفهم السامع أنّ المفتي لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد، رحمه الله، أحيانًا في إجابته: إي والله. وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن: في قوله تعالى: ﴿**ويستنبئونك أحق هو؟ قل: إي وربي إنَّه لحق**﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثنَّ**﴾[2]. وفي قوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم**﴾[3] فإذا كان هناك في القَسَم مصلحة ابتداءً، أو جوابًا لسؤال جاز وربما يكون مطلوبًا.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٣.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٣) سورة التغابن، الآية: ٧.

باب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿أُولئك الذين يَدْعون يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ أيُّهم أقرب﴾[1]. الآية.

التفسير معناه: الكشف والإيضاح مأخوذ من قولهم: فسرت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فسرت ثوبي فاتضح ما وراءه. ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد: هل هو جعل الشيء واحدًا، أو اعتقاد الشيء واحدًا[2]؟

بالنسبة هنا اعتقاد، لأننا لسنا الذين جعلنا الله واحدًا.

وقوله: «**وشهادة أن لا إله إلا الله**» معطوف على التوحيد، أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله.

والعطف هنا من باب عطف المترادفين، لأنَّ التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذا الباب مهم لأنَّه لما سبق الكلام على التوحيد، وفضله، والدعوة إليه كأن النفس الآن اشرأبت إلى بيان ما هو هذا التوحيد، الذي بوب له هذه الأبواب؟ وجوبه، وفضله، والدعوة إليه.

فيُجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد.

قوله: ﴿**أولئك**﴾ أولاء مبتدأ، ﴿**الذين**﴾ بدل منه، ﴿**يدعون**﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿**يبتغون**﴾ خبر المبتدأ، أي: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

(٢) انظر تعريفه ص (٥).

. . . .

أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فكيف تدعونهم، وهم محتاجون مفتقرون؟ فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق على كل من دعي، وهو داع كعيسى ابن مريم، والملائكة.

وأمّا الشجر والحجر فلا يدخل في الآية.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله، لا يملكون كشف الضر، ولا تحويله من مكان إلى مكان، لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب، وقد قال تعالى مبينًا حال هؤلاء المدعوين: **﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثلُ خبير﴾**(1).

قوله: **﴿يدعون﴾** أي: يعبدون، وقد تكون دعاء مسألة كمن يدعو عليًا عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي ﷺ:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة كمن يتذلل لهم بالتقرُّب، والنذر، والركوع، والسجود.

قوله: **﴿يبتغون﴾** يطلبون.

قوله: **﴿الوسيلة﴾** أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله، يعني يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله سبحانه وتعالى أيهم أقرب إلى الله، وكذلك أيضًا: يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

وجه مناسبة الآية للباب:

لأن المؤلف يقول: باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله،

---

(1) سورة فاطر، الآيتان: (13، 14).

وقولِه: ﴿وإذْ قال إبراهيمُ لأبيه وقومِه إنني بَرَاءٌ مما تعبدون إلّا الذي فطَرَني﴾[1] الآية.

دعا غير الله، ولو مع الله فليس بموحد، لأن الموحِّد من وحَّد الشيء أي اتَّخذه واحدًا.

ومناسبة الآية للباب فيها شيء من الخفاء، إذ الآية الكريمة التي جاء بها لتفسير التوحيد لا تعطي تمامًا، ولكننا ربما نقول أن وجه ذلك أنَّ هؤلاء الذين هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة ما وحدوا الله عز وجل فدعوا من لا ينفعهم.

قوله: ﴿براء﴾ على وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التَّخلي أي أنَّني متخلٍّ غاية التَّخلي عمَّا تعبدون إلّا الذي فطرني. وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قوي في ذات الله، فقال ذلك معلناً به لأبيه وقومه وأبوه هو آزر[2].

قوله: ﴿تعبدون﴾ العبادة هنا: التذلُّل والخضوع؛ لأنَّ في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشَّمس والقمر، والكواكب.

قوله: ﴿إلّا الذي فطرني﴾ جمع بين النفي، والإثبات، فالنَّفي ﴿براء مما تعبدون﴾ والإثبات ﴿إلّا الذي فطرني﴾ فدل على أنَّ التوحيد لا يتم إلّا بالكفر بما سوى الله، والإيمان بالله وحده، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وهؤلاء هل يعبدون الله أو لا يعبدون الله؟ يعبدون الله، ويعبدون غيره، لأنَّه قال: ﴿إلّا الذي فطرني﴾ والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٦.

(٢) انظر ص (٨٧).

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أحبارَهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾[1]. الآية.

وكذا يوجد في بعض البلدان الإسلامية منْ يصلي، ويزكِّي، ويصوم، ويحج، ومع ذلك يذهبون إلى القبور يسجدون لها، ويركعون فهم كفَّار غير موحِّدين، ولا يقبل منهم أي عمل، وهذا من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية؛ لأنَّ الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشيء، وهذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم؛ لأنَّ العامي لا يأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ عالم دولة، لا عالم ملة.

وفي قول إبراهيم ﷺ: ﴿إلا الذي فطرني﴾ ولم يقل إلاّ الله فائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة؛ لأنَّه كما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام؛ لأنَّها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم، عليه السلام.

يستفاد من الآية: أنَّ التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره بل لابد من إخلاصها لله، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسم يعبد الله وحده.

وقسم يعبد غيره فقط.

وقسم يعبد الله، وغيره، والأوّل هو الموحّد.

قوله: ﴿أحبارهم﴾ والمعطوف عليها المفعول الأول لاتخذوا، والثاني: «أربابًا» أي: هؤلاء اليهود والنصارى صيروا أحبارهم، ورهبانهم أربابًا.

---

(1) التوبة، الآية: ٣١.

. . . .

والأحبار: جمع حَبْر سمّي بذلك لضمه العلم، وهو العالم، ويقال للعالم أيضًا بحر لكثرة علمه.

والحَبر: بفتح الحاء، وكسرها، يقال: حَبر، وحِبر.

قوله: ﴿ورهبانهم﴾ أي: عبادهم.

قوله: ﴿أربابًا﴾ جمع ربّ أي: يجعلونهم أربابًا من دون الله، فجعلوا الأحبار أربابًا؛ لأنهم يأتمرون بأمرهم، في مخالفة أمر الله، فيطيعونهم في معصية الله.

وجعلوا الرهبان أربابًا باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله.

قوله: ﴿من دون الله﴾ أي: من غير الله.

قوله: ﴿والمسيح ابن مريم﴾ معطوف على أحبارهم، أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضًا ربًّا حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿إلا ليعبدوا﴾ أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار، والرهبان والسماوات، والأرض.

قوله: ﴿لا إلـه إلا هو﴾ أي: لا معبود حق إلا الله.

قوله: ﴿سبحانه﴾ تنزيه الله عما يشركون.

وجه كون هذه الآية تفسيرًا للتوحيد، وشهادة أن لا إلـه إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار، والرهبان أربابًا من دون الله، وهذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف، رحمه الله، فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم سواء وافق أمر الله أم لا.

إذًا فتفسير التوحيد أيضًا بلا إلـه إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله

وقوله: ﴿ومن الناسِ مَن يتخذُ من دونِ الله أَندادًا يحبونهم كحبِّ الله﴾[1]. الآية.

فهؤلاء الذين يدعون غير الله ليسوا بموحدين، فمن وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[2].

قوله: ﴿من﴾ أي: الذي يتخذ، وقال هنا: ﴿من﴾ مراعاة للفظ ثم قال: يحبونهم: مراعاة للمعنى.

قوله: ﴿من الناس﴾ من: للتبعيض، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، وعلامتها أنه يصح أن يحل محلها بعض.

قوله: ﴿يتخذ﴾ يجعل، ومفعولها الأول: أندادًا، والثاني: من دون الله.

قوله: ﴿أندادًا﴾ جمع ند، وهو الشبيه، والنظير، ولهذا قال النبي، ﷺ، لمن قال له ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»[3].

قوله: ﴿يحبونهم كحب الله﴾ هذا وجه المشابهة، أي: النّديّة في المحبة، يحبونهم كحب الله.

وحُب: مصدر مضاف إلى المفعول أي: جعلوهم مساوين لله.

واختلف المفسِّرون في قوله: ﴿كحبِّ الله﴾.

فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبَّة لله، ومحبَّة للأصنام، ويجعلون محبَّة الأصنام كمحبَّة الله فيكون المصدر مضافًا إلى مفعوله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام كمحبة المؤمنين لله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) من حديث علي، رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب سرية عبدالله بن حذافة السهمي ٣/ ١٦٠، ومسلم كتاب الإمارة/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ٣/ ١٤٦٩.

(٣) سبق ص (٥٣).

. . . .

وسياق الآية يؤيِّد الرأي الأول.

قوله: ﴿**والذين آمنوا أشدّ حُبًّا لله**﴾.

على الرأي الأول يكون معناها، والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله من هؤلاء لله، لأنَّ محبَّة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين الله وبين أصنامهم.

وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لأصنامهم؛ لأنَّ محبة المؤمنين ثابتة في السَّرَّاء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين فإنَّ محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسَّهم الضر.

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟ وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟ فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم، فإنَّهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: احلف بالله حلف صادقًا أو كاذبًا، أمَّا الوليّ فلا يحلف به إلا صادقًا.

وتجد كثيرًا منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أنَّ زيارة قبر الرسول، ﷺ أعظم من زيارة البيت لأنَّهم يجدون في نفوسهم حبًّا لرسول الله، ﷺ، كحبِّ الله أو أعظم، وهذا شرك؛ لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله، ﷺ، إلا لحب الله، ولأنَّه رسول الله، ما أحببناه لأنَّه محمد بن عبدالله، لكننا أحببناه لأنَّه رسول الله، ﷺ، فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول، ﷺ، إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله في المحبة، فيه أناس أيضًا أشركوا بالله في محبة غيره لا على وجه العبادة الشرعية لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث[1]، وهي

---

(١) سبق ص (٣٠).

. . . .

محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا. وحتى هذا الذي جاء يصلي هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خُلِق؟ خلق لعبادة الله، وأيضًا خُلِقَ لدار أخرى ليست هذه الدار، فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خُلِقَ لها والتي يجب أن يُعتنى بالعمل لها، يا ليت شعري متى يومًا من الأيام فكَّر الإنسان ماذا عملت؟ وكم بقي لي في هذه الدنيا؟ وماذا كسبت؟ الأيام تمضي ولا أدري هل ازددت قربًا من الله أو بعدًا من الله؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟.

فلابدّ لكل إنسان عاقل من غاية؟ فما هي غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرّب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا، فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد في أنفسنا قصورًا كثيراً وتقصيراً، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعوا عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة ولذلك فإن على طالب العلم، ضريبة ليست هيِّنة، عليه أكثر من زكاة المال، فيجب أن يعمل ويتحرَّك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلَّا انحرفت عن شرع الله.

قال ابن القيم رحمه الله: كل الأمور تسير بالمحبة، فأنت مثلًا لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه؛ حتى اللقمة من الطعام، لا تأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إنَّ جميع الحركات مبناها على المحبة، فالمحبة أساس العمل، فالإشراك بالمحبة إشراك بالله.

. . . .

والمحبة أنواع:

الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء، لأنَّ الله يحبه سواء كان شخصًا، أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلى:

أمـر على الـديـار ديـار ليـلى أقبِّـل ذا الجـدار وذا الجـدارا

ومـا حب الـديـار شغـفـن قلبي ولكن حبّ من سكن الـديـارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله، فهذه لا تنافي محبة الله كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي، ﷺ، من أحبّ الناس إليك؟ قال: عائشة، قيل: فمن الرجال؟ قال: أبوها[1].

ومن ذلك محبة الطعام، واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله، وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله، أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله، ومحبة غيره، قدّم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة ندًّا لله يقدمها على محبة الله، أو يساويها بها[2].

---

(١) من حديث عمرو بن العاص، رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة/ باب قول النبي، ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا» ٩/٣، ومسلم كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر ١٨٥٦/٤.

(٢) انظر باب: قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إلـه إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمُه. وحسابُه على الله عز وجل**»[1].

وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

الشاهد من هذه الآية: أنَّ الله جعل هؤلاء الذين ساووا محبة الله بمحبة غيره، مشركين جاعلين لله أندادًا.

قولـه: «**إلا الله**» بدل من الضمير المستتر في الخبر، ومن يرى أن «**لا**» تعمل في المعرفة يقولون: «**الله**» خبر مثل «**إنما الله إلـه واحد**».

قولـه: «**وكفر بما يعبد من دون الله**» هذا دليل على أنَّه لا يكفي مجرَّد التلفظ بلا إلـه إلا الله، بل لابد أن تكفر بعبادة من يُعبد من دون الله، بل وتكفر أيضًا بكل كفر، فمن يقول لا إلـه إلا الله، ويرى أن النصارى واليهود اليوم على دين صحيح فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكارًا يختار منها ما يريد فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مرسومة من قبل الله عز وجل، يتمشى الناس عليها، ولهذا ينكر على بعض الناس في تعبيره بقولـه: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامي، أو العقيدة الإسلامية، ولا بأس بقول المفكِّر الإسلامي؛ لأنَّه وصف للشخص نفسه، لا للدين الذي هو عليه.

قوله: «**وشرح هذه الترجمة**» المراد بالشرح هنا: التفصيل.

والـترجمـة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرى، ولكنَّها تطلق باصطلاح

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله ١/ ٥٣.

فيه أكبر المسائل وأهمها.

وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة. وبيَّنها بأمور واضحة.

المؤلفين على العناوين، والأبواب، فيقال: ترجم على كذا أي بوَّب له.

قوله: «**فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد**» فتفسير التوحيد لابد فيه من أمرين:

الأول: البراءة مما سوى الله عز وجل، والكفر بغيره.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده، فلابد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد، لأن التوحيد جعل الشيء واحدًا بالعقيدة، والعمل، وهذا لابد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم أثبت له القيام، ولم توحده به، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد، أثبت له القيام ووحدته به.

وأيضًا إذا قلت: الله إلـه أثبت له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره، فالتوحيد لم يتم.

قوله: «**وتفسير الشهادة**» الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه، فقول: أشهد أن لا إلـه إلا الله: أي: أنطق بلساني معبرًا عما يكنه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إلـه إلا الله.

قوله: «**منها آية الإسراء**» وهي قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعون**﴾[1] الآية، فبيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبيّن أن هذا هو الشرك الأكبر لأن الدعاء من العبادة قال تعالى: ﴿**ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾[2] فدلّ على أنَّ الدعاء عبادة، وإلا لكان أول

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤١.

منها آية الإسراء. بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها آية براءة بيَّن أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

الكلام مناقضًا لآخره، مع أنَّ آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحدًا غير الله حيًّا أو ميّتًا، فهو مشرك شركًا أكبر.

والدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقًا بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة، فهذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة قال ﷺ: «**وإذا دعاك فأجبه**»[1].

الثاني: أن تدعو مخلوقًا مطلقًا سواء كان حيًّا، أو ميّتًا فيما لا يقدر عليه إلّا الله، فهذا شرك أكبر مثل: يا فلان اجعل ما في بطن امرأتي ذكرًا.

الثالث: أن تدعو مخلوقًا ميّتًا لا يجيب بالوسائل الحسيّة المعلومة فهذا شرك أكبر أيضًا.

قوله: «**ومنها آية براءة بيّن فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله**:»

وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأنَّ الحكم شرعيًّا كان أو كونيًّا إلى الله تعالى فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿**وما**

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه مسلم، كتاب السلام/ باب من حق المسلم للمسلم رد السلام ١٧٠٤/٤.

وبيَّن بأنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلـهًا واحدًا مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاءهم إياهم.

ومنها قول الخليل، عليه السلام، للكفار ﴿**إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني**﴾.[1] فاستثنى من المعبودين ربَّه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إلـه إلا الله فقال: ﴿**وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون**﴾[2].

اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**له الحكم وإليه ترجعون**﴾[4].

والشيخ، رحمه الله، جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل وسيأتي، إن شاء الله، في باب من أطاع الأمراء، والعلماء في تحليل ما حرَّم الله، أو بالعكس.

قوله: «**ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ فاستثنى من المعبودين ربه**» فدل هذا على أن التوحيد لابد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحده.

وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة، وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إلـه إلا الله فقال: ﴿**وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون**﴾ وهي لا إلـه إلا الله، فكان معنى قوله: ﴿**إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني**﴾ هو معنى قول: لا إلـه إلا الله.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٠.

ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: **﴿وما هم بخارجين من النار﴾**[1]. ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون ا لله حبًّا عظيمًا، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحبَّ الندَّ أكبر من حب الله؟، وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!

قوله: «**ومنها آية البقرة**» في الكفار الذين قال الله فيهم: **﴿وما هم بخارجين من النار﴾**.

فجعل الله المحبة شركًا إذا أحبَّ شيئًا سوى الله كمحبته لله، فيكون مشركًا مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول، ﷺ، فلولا أنَّه رسول ما وجبت طاعته، ولا محبته إلاّ كما نحب أي مؤمن، ولا يُمنع الإنسان من المحبة، بل له أن يحب كل شيء كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك كمحبة الله.

والمحبة لها أسباب، ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه، وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب؛ هذا ليس كفرحه بذكر الله ونحوه.

حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده، ويحب ولده وفرق بينهما، ويحب الله، ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة في المحبة، والفرح، والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتي، إن شاء الله، لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

ومنها قوله، ﷺ: «من قال لا إلـه إلا الله وكفر بما يعبدُ من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله».

وهـذا من أعظم ما يبين معنى «لا إلـه إلا الله» فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله،

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا﴾.

قوله: «ومنها قول النبي ﷺ: من قال لا إلـه إلا الله». . إلخ إذًا فلابدّ من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[1].

قولـه: «وكفر بما يعبد من دون الله». أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقًا، فلا يكفي أن يقول: لا إلـه إلا الله، ولا أعبد صنمًا، بل لابدّ أن يقول: الأصنام التي تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فاللات مثلًا لا يكفي أن يقول: لا إلـه إلا الله، ولا أعبد اللات ولكن لابدّ أن يكفر بها، ويقول: إنَّ عبادتها ليست بحق، وإلّا كان مقرًّا بالكفر.

فمن رضي دين النصارى دينًا يدينون الله به فهو كافر؛ لأنَّه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام فقد كذَّب قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه﴾[2].

وبهذا يكون كافرًا، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذي أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارى، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحًا ومساءً،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها؟! ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع؟!

والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينـون لهؤلاء ﴿**ودوا لو تدهن فيـدهنون**﴾[1] وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وآل بهم إلى هذا الذل الذي صاروا إليه الآن.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٩.

بـــاب

من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

قوله: «**من الشرك**» من: هنا للتبعيض، أي: هذا من الشرك، وليس كل الشرك، والشرك اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر، وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها وكان لبس هذه الأشياء من الشرك: لأنَّ كل من أثبت لله سببًا لم يجعله الله سببًا شرعيًا، ولا قدريًّا فقد أشرك بالله.

مثلاً: قراءة الفاتحة: سبب للشفاء شرعي.

وأكل المسهل: سبب لانطلاق البطن، وهو قدريّ، لأنَّه يُعلم بالتجارب[1].

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله كالجبرية والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببًا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية، ونحوهم.

---

(١) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٣٤): ولابد من معرفة ثلاثة أمور في الأسباب:

الأول: ألا يجعل منها سبباً إلا ماثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

الثاني: ألا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

الثالث: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، ولا خروج لها عنه».

. . . .

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله سببًا شرعيًا أو كونيًا[1].

---

(١) انظر بسط هذه المسألة في مجموع الفتاوى ٨/٥٢٦ ـ ٥٣٩، و ٨/٧٢ ـ ٧٣، ومدارج السالكين ٣/٤٩٥.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين ٣/٤٩٥: «وبالجملة فليس إسقاط الأسباب من التوحيد، بل القيام بها واعتبارها، وإنزالها منازلها التي أنزلها الله فيها: هو محض التوحيد والعبودية.

والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان في الجبر فإنه كان غالياً فيه، وعندهم أن الله لم يخلق شيئاً بسبب ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر، فليس في النار قوة الإحراق، ولا في السمّ قوة الإهلاك، ولا في الماء والخبز قوة الري والتغذي به، ولا في العين قوة الإبصار، ولا في الأذن والأنف قوة السمع والشم، بل الله سبحانه يحدث هذه الآثار عند ملاقاة الأجسام لا بها فليس الشبع بالأكل، ولا الري بالشرب. . . ولا الطاعات والتوحيد سبباً لدخول الجنة، ولا الشرك والكفر والمعاصي سبباً لدخول النار، بل يدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة. . وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا، بل ولسائر أديان الرسل، ولهذا لما طرده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطلوها، ولم يمكنهم ذلك فإنهم أن يأكلوا ويشربوا، ويباشروا من الأسباب مايدفع عنهم الحر والبر.

وقال ص (٤٩٩):

«وقد قال بعض أهل العلم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد. ومحو الأسباب ـ أن تكون أسبابا ـ تغيير في وجه العقل. والإعراض عن الأسباب بالكلية: قدح في الشرع. والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد. فالالتفات إلى الأسباب ضربان:

أحدهما: شرك. والآخر: عبودية وتوحيد. فالشرك: أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود. فهو معرض عن المسبِّب لها. ويجعل نظره والتفاته مقصوراً =

= عليها. وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها: فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبِب. وأما محوها أن تكون أسباباً: فقدح في العقل والحس والفطرة. فإن أعرض عنها بالكلية: كان ذلك قدحاً في الشرع، وإبطالاً له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده. فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها. وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل: لا يلتفت إلى الأسباب، بمعنى أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها. ولا يلتفت إليها ـ بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها ـ بل يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها، ناظراً إلى مسببها سبحانه ومجريها. فلا يصح التوكل ـ شرعا وعقلا ـ إلا عليه سبحانه وحده. فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده. فهو الذي سبب الأسباب. وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سبباً يقتضي وحده أثره: بل لابد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسبابا تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه. فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر. ولا في الأسباب الحادثة مايبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته. فيشاء الأمر ثم يشاء مايضاده ويمنع حصوله. والجميع بمشيئته واختياره. فلا يصح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أعرف الخلق به، ﷺ، «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**» وقال: «**لا منجي ولا ملجأ منك إلا إليك**».

فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب: استقام قلبك على السير إلى الله. ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع رسل الله أنبيائه وأتباعهم. وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق. وما سبق به علم الله وحكمه حق وهو لا ينافي إثبات الأسباب. ولا يقتضي إسقاطها. فإنه سبحانه قد علم وحكم: أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه. فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه. فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب: لم يكن نظره وشهوده =

. . . .

ولا شك أنَّ هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيمانًا حقيقيًّا، وآمنوا بحكمته حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها وهذا من تمام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنَّها مؤثرة بنفسها دون الله فهو مشرك شركًا أكبر في توحيد الربوبية؛ لأنَّه اعتقد أنَّ مع الله خالقًا غيره.

وإن اعتقد أنَّها سبب، ولكنه ليس مؤثرًا بنفسه، فهو مشرك شركًا أصغر، لأنَّه اعتقد أنَّ ما ليس بسبب سببًا، فقد شارك الله تعالى في الحكم لهذا =

= مطابقاً للحق، بل كان شهوده غَيبةً، ونظره عمىً. فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها. فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ماهي عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره؟

والعلل التي تتقى في الأسباب نوعان. أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغلظ. وبين ذلك.

الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب. وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً. وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ماأمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله. سبق به علمه وحكمه. وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية. ولا يصرف عنه ماسبق به الحكم والعلم. فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحَصِّلُ له فلاحاً، ولا توصله إلى المقصود عليها. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويُفَرِّغُ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، تجريداً للتوكل، واعتماداً على الله وحده. وقد جمع النبي، ﷺ، بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح. حيث يقول «احرص على ماينفعك، واستعن بالله. وَلاَ تَعْجِزْ» فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها. فالدين كله ـ ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه ـ تحت هذه الكلمات النبوية. والله أعلم».

. . . .

الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سببًا.

وطريق العلم بأنَّ الشيء سبب: إمَّا عن طريق الشرع، وذلك كالعسل فيه شفاء للناس من القرآن، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس.

وإما عن طريق القدر: كما إذا جرّبنا هذا الشيء فوجدناه نافعًا في هذا الألم، أو المرض، ولكن لابدّ أن يكون أثره ظاهرًا مباشرًا كما لو اكتوى بالنار فبرىء بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بيّن، وإنَّما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا جرّبت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشرًا كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنَّها نافعة، فينتفع لأنَّ للانفعال النفسي للشيء أثرًا بيّنًا، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له، ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلق، ويربطون الخيوط قد يحسون بخفتها بناء على اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي والشعور النفسي ليس طريقًا شرعيًا لإثبات الأسباب كما أن الإلهام ليس سببًا للشرع، وما ذكره شيخ الإسلام في بعض كلام له في الفتاوى أنه طريق شرعي لإثبات الأحكام، هذا بالنسبة للإنسان نفسه، لا بالنسبة للأمة، وذكر في الفتاوى ما يدل على أن الإلهام طريق من طرق الشرع، ولكنه في الحقيقة ليس طريقًا للتشريع، فقد يرتاح الإنسان لهذا الشيء، ويرى أنه هو الصواب، ولكن لا يكون حجة على غيره، وإن ألهم.

قوله: «**لبس الحلقة والخيط**».

الحلقة: من حديد، أو ذهب، أو فضة، أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.

قوله: «**ونحوهما**» كالمرصَّعات لرفع البلاء، أو دفعه، وكمن يصنع شكلاً

وقولِ الله تعالى: ﴿قُلْ أفرأَيتم ما تدعون من دون الله إن أرادَنيَ الله بضُرٍّ هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّه﴾[1] الآية.

معينًا من نحاس، أو غيره لدفع البلاء، أو يعلِّق على نفسه شيئًا من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يُعلِّقون القرب البالية لدفع العين حتى إذا رآه الشخص نفرت نفسه فلا يعين[2].

قوله: «لرفع البلاء، أو دفعه» والفرق بينهما: أن الرفع: بعد نزول البلاء. والدفع: قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنَّما يُنكر السبب غير الصحيح.

قوله: «أرأيتم» أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم، لأنَّ من رأى أخبر، وإلاّ فهي استفهام عن رؤية قال تعالى: ﴿أرأيت الذي يُكذِّب بالدين﴾[3] أي: أخبرني ما حال من كذَّب بالدين؟ وهي تنصب مفعولين: الأول: مفرد، والثاني: جملة استفهامية.

قوله: «ما» المفعول الأول لرأيتم، والمفعول الثاني جملة: «إن أرادني الله بضر».

قوله: ﴿تدعون﴾ المراد بالدعاء دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فهم

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٢) قال الشيخ عبدالعزيز بن باز في فتاويه ٢/٣٨٤: «عن التمائم إذا كانت من أسماء الشياطين، أو العظام، أو الخرز، أو المسامير، أو الطلاسم وهي الحروف المقطعة وأشباه ذلك من الشرك الأصغر، وقد تكون شركاً أكبر إذا اعتقد معلق التميمة أنها تحفظه أو تكشف عنه المرض أو تدفع عنه الضرر دون إذن الله تعالى ومشيئته».

(٣) سورة الماعون، الآية: ١.

. . . .

يدعـون هذه الأصنـام دعاء عبادة، فيتعبَّدون لها بالنذر، والذبح، والرُّكوع والسجود، ودعاء مسألة أيضًا.

فالله سبحانه إذا أراد بعبده ضرًّا لا تستطيع أن تكشفه، وإن أراده برحمة لاتستـطيع أن تكشف الرحمة عنه، فهي لاتكشف الضر، ولاتمنع النفع فلماذا تعبد؟!

والعرب كانوا إذا نزلوا بأرض طلبوا أربعة أحجار ثلاثة للقدر، والرابع ربًّا يعبدوه.

ومنهم من يصنـع ربه من التمر، فإذا جاع قال أطعمني، فلم يطعمه أكله!!

قوله: ﴿**كاشفات**﴾ يشمل الدفع، والرد، فهي لا تكشف الضر بدفعه، وإبعاده، ولا تكشفه برفعه، وإزالته.

قولـه: ﴿**قل حسبي الله**﴾ أي: كافيني، والحسب الكفاية، ومنه قوله تعـالى: ﴿**جـزاء من ربـك عطاءً حسـابًـا**﴾[1] من الحسب، وهو الكفاية.

وحسبي: مبتدأ، والله: خبر، وهذا أبلغ.

وقيل: العكس، والراجح الأوّل من وجهين:

الأول: أنَّ الأصل عدم التقديم والتأخير.

الثاني: أن قولك: حسبي الله فيه حصر فهو كقولك: لا حسب لي إلا الله بخلاف قولك الله حسبي، فليس فيه حصر فهو كقولك: الله حسبي أنا فقط.

قوله: ﴿**عليه يتوكل المتوكلون**﴾. قدّم الجار والمجرور لإفادة الحصر، لأنَّ تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنى: أنَّ المتوكل حقيقة هو المتوكل على الله، أمّا الذي يتوكل على الأصنام، والأولياء، والأضرحة، فليس بمتوكل.

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٦.

عن عِمران بن حُصَين رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقـةٌ من صُفْر، فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة، فقال: **انْزعْها فإنها لا تزيدك إلا وَهْنًا، فإنك لو مُتَّ وهي عليك ما أفْلَحْت أبدًا**». رواه أحمد بسند لا بأس به[1].

وهذا لا ينافي أن يوكّل الإنسان إنسانًا في شيء، ويعتمد عليه، لأنَّ هناك فرقًا بين التوكل على الإنسان الذي يفعل لك شيئًا بأمرك، وبين توكلك على الله، لأنَّ توكلك على الله اعتقادك أنَّ بيده النفع والضر، وأنك متذلِّل معتمد عليه، مفتقر إليه.

الشاهد من هذه الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع، ولا بدفع ضر، فليست أسبابًا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري، فيعتبر اتخاذه سببًا إشراكًا بالله.

وهذا يدل على حذق المؤلف، رحمه الله، وقوّة استنباطه، وإلاّ فالآية بلا شكّ في الشرك الأكبر، الذي تعبد فيه الأصنام، ولكن القياس واضح جدًّا، لأنَّ هذه الأصنام ليست أسبابًا تنفع فيقاس عليها كل ما ليس بسبب، فيعتبر إشراكًا بالله.

هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة لأنه هذا الرجل لبس حلقة من صفر لدفع البلاء أو لرفعه.

---

(١) رواه أحمد ٤/٤٤٥ واللفظ له، وابن ماجه كتاب الطب/ باب تعليق التمائم ٢/١١٦٧ وليس فيه: «فإنك لو مت. . .» إلخ، وفي الزوائد: «إسناده حسن، لأن مبارك هذا هو ابن فضالة»، ورواه ابن حبان أيضًا برقم (١٤١٠) بلفظ: «إنك إن تمت وهي عليك وكلت إليها».

ومن طريق أبي عامر الخراز عن الحسن عن عمران بنحوه رواه ابن حبان برقم (١٤١١) والحاكم ٤/٢١٦، وصححه ووافقه الذهبي.

. . . .

والظاهر: أنه لرفعه لقوله: «**لا تزيدك إلا وهناً**» والزيادة تكون مبنية على أصل.

ففي هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

١ - أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولاً عن الحال لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكرًا، ودليله أن الرسول ﷺ قال: «**ما هذه**».

والاستفهام هنا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار وقول الرجل (من الواهنة) من للسببية أي: لبستها بسبب الواهنة وهي مرض يوهن الإنسان ويضعفه قد يكون في الجسم كله، وقد يكون في بعض الأعضاء.

٢ - وجوب إزالة المنكر لقوله: «**انزعها**» فأمره بنزعها لأن لبسها منكر وأيد ذلك بقوله: «**إنها لا تزيدك إلا وهنًا**». أي: وهنًا في النفس لا في الجسم وربما تزيده وهنا في الجسم، أما وهن النفس فلأن الإنسان إذ تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله - عز وجل - والانفعال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسان فأحيانًا يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض وأحيانًا يتناسى الإنسان المرض وهو مريض فيصبح صحيحًا فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة.

فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة، لا تزيده إلا وهنًا، لأنه سوف يعتقد أنها مادامت عليه فهو سالم فإذا نزعها عاد عليه الوهن وهذا بلا شك ضعف في النفس.

وله عن عُقْبة بن عامر مرفوعًا: «**مَن تعلَّق تَميمَةً فلا أتمَّ الله له، ومن تَعلقَ ودَعةً فلا وَدَعَ الله له**»[1].

---

٣ ـ أن الأسباب التي لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.

٤ ـ أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك لقوله: «**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران.

ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر.

سبق لنا عند الترجمة أنه يختلفت بحسب اعتقاد صاحبه.

٥ ـ أن الأعمال بالخواتيم لقوله: «**لو مت وهي عليك**» فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره، لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له.

قوله: «**فلا أتم الله له**» الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وهي دعاء مقبول على كل تقدير لصدوره من النبي، ﷺ.

وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرَّمة سواء نفى الرسول، ﷺ، أن يتم الله له، أو دعا بأن لا يتم الله له، فإن كان الرسول، ﷺ، أراد به الخبر، فإننا نخبر بما أخبر به النبي، ﷺ، وإلاّ فإننا ندعو بما دعا به الرسول ﷺ.

ومثل ذلك قوله ﷺ: «**ومن تعلَّق ودعةً فلا ودعَ الله له**».

قوله: «**ودعة**» واحدة الودع، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلّقونها لدفع

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤/١٥٤، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/٣٢٥، والحاكم ٤/٢١٦، وصححه ووافقه الذهبي، وفيه: خالد بن عبيد المعافري لم يوثقه غير ابن حبان كما في التعجيل ص (١١٤)، وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٠٦: «إسناده جيد»، وقال الهيثمي في المجمع ٥/١٠٣: «رجاله ثقات»، وقال الحافظ في التعجيل ص (١١٤): «ورجاله موثقون».

وفي رواية: «**مَن تعلَّق تَميمةً فقد أشرك**»[1] .

ولابن أبي حاتم عن حُذيفـة أنـه رأىٰ رجلًا في يده خَيطٌ من الحُمَّى، فقطعه وتلا قولَه: ﴿**وما يؤمن أكثرُهم بالله إلاَّ وهم مُشركونَ**﴾[2] .

العين، ويزعمون أنَّ الإنسان إذا علّق هذه الودعة لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قوله: «**لا ودع الله له**» أي: لا تركه الله في دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقيل: لا ترك الله له خيرًا حتى يعامل بنقيض قصده.

قوله: «**من الحُمَّى**»: من هنا أي للسببية أي: خيط لبسه من أجل الحُمّى.

قوله «**فقطعه**»: أي: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليد، وهذا يدل على غيرة السلف الصالح، وقوتهم في تغيير المنكر باليد وغيرها.

وقوله وتلا قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ دليل على أن الإنسان يجتمع في حقه إيمان وشرك، ولكن ليس شركاً أكبر؛ لأن الشرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان ولكن المراد الشرك الأصغر وهذا أمرٌ معلوم.

---

(١) رواه أحمد ٤/١٥٦، والحاكم ٤/٢١٩، كتاب الطب، وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٠٧، والهيثمي في المجمع ٥/١٠٣: «ورواة أحمد ثقات».

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦، وفي النهج السديد ص (٥٧): «ضعيف رواه ابن أبي حاتم، وقد أورد سنده في تيسير العزيز الحميد من طريق عروة بن الزبير عن حذيفة، ولا يعرف لعروة سماع من حذيفة».

فيه مسائل : الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك. **الثانية**: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهدٌ لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر. **الثالثة**: أنه لم يعذر بالجهالة.

قوله **(فيه مسائل)**:

أي في هذا الباب **مسائل**

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

لقوله ﷺ: «**انزعها ـ لا تزيدك إلا وهنًا ـ لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» وهذا تغليظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح.

هذه وهو صحابي، فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح.

قال المؤلف: «فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر».

قوله (لكلام) أي لقول، وهو كذلك فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا»[1] وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة، لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر بخلاف الكبائر فإنها تحت المشيئة.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

هذا فيه نظر لأن قوله ﷺ لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم.

بل ظاهره «لو مت وهي عليك **ما** أفلحت أبدًا» أي: بعد أن علمت وأمرت بنزعها.

---

(١) يأتي تخريجه ص (٢٠٧).

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلا وهنـًا».

وهذه المسألة فيها شيء من النظر فنقول الجهل نوعان:

جهـل يعـذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه مما كان ناشئًا عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم فإنه لا يعذر فيه سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئًا عن خلاف ذلك أي: أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام فإنه يعذر فيه، فإن كان منتسباً إلى الإسلام لم يضره، وإن كان منتسبًا إلى الكفر فهو كافر في الدنيا لكن في الآخرة أمره إلى الله وعلى القول الراجح يمتحن فإن أطاع دخل الجنة وإن عصى دخل النار.

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيدة ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب فهذا يعذر وله أمثلة:

رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم ولـم يسمع عن العلم شيئًا ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات، إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة فبقي بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابة فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم ولا تصلي.

وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل لكن عنده تهاون وغفلة فهذا لا يعذر لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفى عليه ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة فهو مفرط فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: لا تزيدك إلا وهنًا.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه. **السابعة**: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك. **التاسعة**: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

والمؤلف استنبط المسألة وأتى بوجه استنباطها.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك. أي ينبغي أن ينكر إنكارًا مغلظًا على من فعل مثل هذا ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف وأيضًا قوله: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**».

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه: تؤخذ من قوله: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**» إذا جعلنا الجملة خبرية وأن من تعلق تميمة فإن الله لا يتم له فيكون موكولاً إلى هذه التميمة ومن وكل إلى مخلوق فقد خُذلَ، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»[1].

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك: وهو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك:

يؤخذ من حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

---

(١) يأتي تخريجه ص (١٧٩).

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك. **الحادية عشرة**: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له، أي ترك الله له.

أي: أن قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة في الشرك الأكبر على الأصغر، لأن الأصغر شرك في الحقيقة، وإن كان لا يخرج من الملة ولهذا نقول الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله: كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

وهي قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله...**﴾[1] الآية فجعل المحبة التي تكون كمحبة الله من كإتخاذ الند لله ـ عز وجل ـ.

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك:

الودع: أحجار تخرج من البحر يعلقونها عن العين يقول (إنها من ذلك) أي: من تعليق التمائم الشركية لأنه لا أثر لها.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له أي: ترك الله له.

تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمائم وودعًا وليس هذا بغريب أن نؤمر الدعاء على من خالف وعصى فقد قال النبي ﷺ: «**إذا سمعتم من ينشد الضالة في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك**»[2] «**وإذا سمعتم من**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد/ باب النهي عن نشد الضالة في المسجد ١/٣٩٧.

. . . .

يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك»[1].

فهذا أيضا تقول له لا أتم الله لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول، ﷺ، على سبيل العموم فلا نخاطب هذا بالتصريح ونقول لشخص رأينا عليه تميمة لا أتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالصريح والتعيين سوف يكون سبباً لنفوره ولكن نقول دع التمائم أو الودع، فإن النبي، ﷺ، يقول: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله ومن تعلق ودعة فلا ودع الله**».

---

(1) أخرجه الترمذي في البيوع/ باب النهي عن البيع في المسجد ٢/٢٧٤، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٧٦) والدارمي (١٤٠٨)، وابن حبان (٣١٣) موارد، والحاكم ٢/٥٦، والبيهقي ٢/٤٤٧.

وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

بـــاب
ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بَشيرٍ الأنصاري، رضي الله عنه: **«أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يَبقيَنَّ في رقبةِ بعيرٍ قلادةٌ من وَتَرٍ، أو قلادة إلا قُطِعَتْ»**[1].

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك، لأنَّ الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء، أما هذا الباب فلم يذكر أنَّها شرك، لأنَّ من الرقى ما ليس بشرك. ولهذا قال: باب ما جاء في الرقى والتمائم.

قوله: **«الرقى»** جمع رقية، وهي القراءة فيقال: رقى عليه من القراءة، ورقي عليه من الصعود.

قوله: **«التمائم»** جمع تميمة، وسمّيت تميمة، لأنَّهم يرون أنَّه يتم بها دفع العين.

قوله: **«في الصحيح»** يحتمل أنَّه أراد في الصحيح الحديث الصحيح، وهو أعمُّ من أن يكون في البخاري أو مسلم، أو غيرهما، ويحتمل أنه أراد في صحيح البخاري، أو صحيح مسلم، وبعد الاطلاع تبيّن أنه في الصحيحين وغيرهما، وعلى هذا فمعنى قوله: **«في الصحيح»** أي في الحديث الصحيح.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد/ باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل ٢/٣٥٩، ومسلم كتاب اللباس/ باب كراهة الكلب والجرس في السفر ٣/١٦٧٢.

. . . .

قوله: «**أسفاره**» السَفَر: مفارقة محل الإقامة، وسُمّي سَفرًا لأمرين:

الأول: حسيّ، وهو أنَّه يسفر، ويظهر كالغريب.

الثاني: معنوي وهو أنه يسفر عن أخلاق الرجال، أي يكشف عنها وكثير من الناس لا تعرف أخلاقهم، وعاداتهم، وطبائعهم إلا بالأسفار.

قوله: «**قلادة من وتر، أو قلادة**» شكّ من الراوي، والأولى أرجح، لأنَّ القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير وهذا اعتقاد فاسد، لأنَّه تعلّق بما ليس بسبب، وقد سبق أنَّ من تعلّق بما ليس بسبب شرعي أو حسي، فإنه شرك؛ لأنَّه بتعلقه أثبت للأشياء سببًا لم يثبته الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ، أن تقطع هذه القلائد.

أمَّا إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنّما تستعمل للقيادة كالزمام فهذا لا بأس به، لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف، أو غيره.

قوله: «**في رقبة بعير**» ذَكَرَ البعير لأنَّ هذا هو الذي كان منتشرًا حينذاك، فهذا القيد بناء على الواقع عندهم، فيكون كالتمثيل.

يستفاد من الحديث:

١ - أنّه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعيًا لأحوالهم فيتفقدهم وينظر في أحوالهم.

٢ - أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة، فإذا فعلوا محرمًا منعهم منه، وإن تهاونوا في واجب حثَّهم عليه.

٣ - أنه لا يجوز أن تعلّق في أعناق الإبل أشياء تجعل سبباً في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليست كذلك لا شرعًا ولا قدرًا، لأنَّه شرك، ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة بل لو جُعلت في اليد أو الرجل، فلها حكم

وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله، ﷺ يقول: «**إن الرُّقى والتَّمائمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ**». رواه أحمد وأبوداود[1]

الرقبة، لأنَّ العلّة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها، فالمكان لا يؤثّر.

٤ ـ أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيّره بيده.

قوله: «**إنَّ الرقى**» الرقى: جمع رقية، وهذه ليست على عمومها بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقى بغير ما ورد به الشرع، أمّا ما ورد به الشرع، فليست من الشرك، قال ﷺ في الفاتحة: «**وما يدريك أنّها رقية**»[2].

وهل المراد بالرقى مالم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان فيه شرك؟ لأنَّ كلام النبي، ﷺ، لا يناقض بعضه بعضًا، فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة.

وكذا الرقى المباحة: التي يُرقى بها الإنسان المريض كدعاء من عنده ليس فيه شرك، جائزة.

قوله: «**التمائم**» فسّرها المؤلف بقوله: «شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين»، وهي من الشرك، لأنَّ الشارع لم يجعلها سببًا تُتّقى به العين[3].

---

(١) رواه أحمد ١/٣٨١، وأبو داود، كتاب الطب/ باب في تعليق التمائم ٥/٢١٢، وابن ماجه، كتاب الطب/ باب تعليق التمائم ٢/١١٦٦، والحاكم في الرقى والتمائم ٤/٤١٨ وقال: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين» وأقره الذهبي، وابن حبان برقم (١٤١٢)، والطبراني في الكبير برقم (١٠٥٠٣).

(٢) سبق ص (٩٣).

(٣) وقال الشيخ الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٤٩٢): «ولا تزال هذه الضلالة ـ أي التمائم ـ فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين، ومثلها الخرزات التي يضعها بعض السائقين أمامهم في السيارة يعلقونها على المرآة، وبعضهم يعلق نعلاً في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها، وغيرهم يعلقون نعل فرس في واجهة الدار والدكان كل ذلك لدفع العين كما زعموا، وغير ذلك مما عمّ وطمّ بسبب الجهل بالتوحيد، ومايناقيه من الشركيات والوثنيات».

. . . .

وإذا كان الإنسان يلبس أبناءه ملابس رثّة، وبالية خوفًا من العين فهل هذا جائز؟

الظاهر: أنه لا بأس به، لأنّه لم يفعل شيئًا، وإنّما ترك شيئًا، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد أنَّ عثمان رأى صبيًّا مليحًا فقال: دسّموا نونته، والنونة هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقرة، ومعنى دسّموا: أي سوّدوا.

وأمّا الخط: وهي أوراق من القرآن تجمع وتوضع في جلد، ويلبسها الطفل على يده، أو رقبته ففيها خلاف بين العلماء إذا كانت من القرآن.

وظاهر الحديث: أنّها ممنوعة، ولا تجوز.

ومن ذلك أنَّ بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلّقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث، فهو إهانة للقرآن الكريم، لأنَّ هذا الصبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوّث بالنجاسة، ويدخل به الحمام، والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

لكن مع الأسف أنَّ الناس اتخذوا من هذه العبادات نوعًا من التبرّك فقط مثل ما يشاهد من أنَّ بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل، وصدره، وهذا معناه أنَّهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل وقد قال عمر في الحجر: «إنّي أعلم أنَّك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت رسول الله، ﷺ، يقبِّلك ما قبلتك»(١).

قوله: «**التولة**» شيء يعلّقونه على الزوج يزعمون أنَّه يُقرِّب الزوجة إلى

---

(١) يأتي ص (١٨٧).

وعن عبدالله بن عُكَيْمٍ مرفوعًا: «**مَن تعلَّق شيئًا وُكِلَ إليهِ**». رواه أحمد والتِّرمذي[1].

التَّمائمُ: شيءٌ يُعَلَّقُ على الأولاد يتَّقون به العَيْنَ،

زوجها، والزوج إلى امرأته، وهذا شرك لأنّه ليس بسبب شرعي، ولا قدري للمحبة.

هل نقول: الدبلة منها:

والدبلة: خاتم يُشترى عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج قالت المرأة: إنه لا يحبها، فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنّه ما دام في يد الـزوج فإنَّه يعني أنَّ العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية فإنّه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية - وهي بعيدة ألَّا تصحبها - ففيه تشبّه بالنصارى، فإنّها مأخوذة منهم.

وإن كانت من الذهب فهي بالنسبة للرجل فيها محظور ثالث وهو لبس الذهب.

قوله: «**شرك**» وهل هي شرك أصغر، أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يُريد الإنسان منها:

إن اتّخذها معتقدًا أنَّ المسبب هو الله فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنَّها تفعل بنفسها فهي شرك أكبر.

قوله: «**من تعلّق شيئًا**» أي اعتمد عليه، وجعله أكبر همه ومبلغ علمه، وصار يُعلِّق رجاءه به، وزوال خوفه به.

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٣١٠ والترمذي أبواب الطب/ باب ما جاء في كراهة التعليق ٦/ ٢٦٣ قال: «حديث عبدالله بن عكيم إنما نعرفه من حديث ابن أبي ليلى»، والحاكم في كتاب الطب ٤/ ٢١٦ وسكت عنه هو والذهبي، وقال ابن البنا في الفتح الرباني ١٧/ ١٨٨: «قلت هذا الحديث لا تقل درجته عن الحسن لا سيما وله شواهد تؤيده».

. . . .

وشيئًا: نكرة في سياق الشرط، فتعم جميع الأشياء، فمن تعلّق بالله سبحانه وتعالى وجعل رغبته، ورجاءه فيه، وخوفه منه، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾[1] أي كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» قالها إبراهيم حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾[2].

قوله: «**وكل إليه**» أي أُسند إليه، وفوّض.

أقسام التعلق بغير الله:

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلّق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتمادًا كاملاً معرضًا عن الله مثل تعلّق عُبّاد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مسَّتهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان أنقذنا، فهذا لا شك أنَّه شرك أكبر مخرج عن الملة.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد: أن يعتمد على سبب شرعي صحيح مع الإعراض عن المسبب، وهو الله عز وجل، وعدم صرف قلبه إليه، فهذا نوع من الشرك ولا نقول شرك أكبر، لأنَّ هذا السبب جعله الله سببًا.

الثالث: أن يتعلّق بالسبب تعلّقًا مجردًا لكونه سببًا فقط مع اعتماده الأصلي على الله، فيعتقد أن هذا السبب من الله وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنّه لا أثر لسبب في مشيئة الله عز وجل، فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالاً، ولا أصلاً.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس، كتاب التفسير/ باب ﴿الذين قال لهم الناس...﴾ ٣/٢١١.

ولكن إذا كان المُعَلَّقُ من القرآن فرخّص فيه بعضُ السَّلَف، وبعضهم لم يرخِّص فيه، ويجعلُه من المنهيِّ عنه. منهم ابن مسعود، رضي الله عنه.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يُعلّق نفسه بالسبب بل يعلّقها بالله.

فالموظف الذي يتعلّق قلبه بمرتبه تعلقًا كاملاً مع الإعراض عن الاعتقاد في المسبب وهو الله، نوع من الشرك، أما إذا اعتقد أن المرتب سبب، والمسبب هو الله سبحانه وتعالى، وجعل الاعتماد على المسبب، وهو يشعر أن المرتب سبب فهذا لا ينافي التوكل.

والرسول، ﷺ، كان يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب وهو الله عز وجل.

أمّا إذا تعلّق بسبب لا تأثير له، كالذي يتعلّق بميت في حصول رزق، أو تسهيل أمر، أو دفع ضر، فهذا شرك أكبر.

وجاء في الحديث: «من تعلّق» ولم يقل: من علَّق، لأنَّ المتعلِّق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به.

قوله: «**وإذا كان المُعلّق من القرآن...**» إلخ.

إذا كان المُعلَّق من القرآن، أو الأدعية المباحة، والأذكار الواردة فهذه المسألة اختلف فيها السلف رحمهم الله، فمنهم من رخَّص في ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾[1] ولم يذكر الوسيلة التي نتوصل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن، فدلَّ على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواءً حسيًّا[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) وقد ورد أن عبدالله بن عمرو بن العاص «يعلق على أولاده الذين لم يبلغوا دعاء الفزع، =

. . . .

وقـال بعض العلماء: لا يجوز تعليق القـرآن للاستشفـاء به؛ لأنَّ الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنَّك تقرأ على المريض به، فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد، فمعنى ذلك أنَّنا أدخلنا سببًا ليس مشروعًا(1).

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القرآن سبب للشفاء لكان انتفاء السببية على هذه الصـورة أمـرًا ظاهرًا، فإنَّ التعليق ليس له علاقة بالمرض بخلاف النفث على مكان الألم، فإنّه يتأثر بذلك.

ولهذا الأقرب أن يقال: إنّه لا ينبغي أن تعلّق هذه الآيات للاستشفاء بها، لا سيما وأن هذا المعلِّق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن كالغيبة مثلاً، ودخول بيت الخلاء، وأيضًا إذا علَّق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشروعة مثلاً: علّق آية الكرسي على صدره، وقال: ما دام أنّ آية الكرسي على صدري فلن أقرأها، فيستغني بغير المشروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن على صدره(2).

= وهو: بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

أخرجه أحمد ٢/ ١٨١، وأبوداود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، وحسنه، والحاكم ١/ ٥٤٨.

لكن في إسناده محمد بن إسحاق، وقد عنعنه.

(1) انظر أقوال العلماء في هذه المسألة.

مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٣٧٤، وسنن البيهقي ٩/ ٢١٦، والمستدرك ٤/ ٢١٦، وتيسير العـزيز الحميد ١٦٨، وفتح المجيد ١٣٢، والقـول السـديد ص٣٨، ومعـارج القبول ١/ ٣٨٢، وفتاوى ابن باز ١/ ٢٠، والمجموع الثمين للعثيمين ١/ ٥٨.

(2) وقال الشيخ عبدالعزيز كما في فتاويه ١/ ٢٠: «والصواب أنها محرمة....».

و «الـرُّقى»: هي التي تسمى العزائم، وخَصَّ منها الدليل ما خَلَا من الشِّرْكِ، فقد رخَّصَ فيه رسول الله ﷺ من العَيْنِ والحُمةِ[1].

و«التِّـوَلـةُ»: هي شيءُ يصنعـونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

وإن كان صبيًّا فربما بال، ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلَّق، وأيضًا لم يرد عن النبي، ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم فيه.

فالأقرب أن يُقال: إنّه لا يفعل، أمّا أن يصل إلى درجة التحريم فأنا أتوقف فيه، لكن إذا تضمّن محظورًا، فإنّه يكون محرَّمًا بسبب ذلك المحظور.

قوله: «**التي تُسمّى العزائم**» أي في عرف الناس.

وعزم عليه: أي قرأ عليه، وهذه عزيمة أي قراءة.

قوله: «**وخصّ منها الدليل ما خلا من الشرك**». أي الأشياء الخالية من الشرك فهي جائزة سواءً كان مما ورد بلفظه مثل: «**اللهم رب الناس أذهب الباس اشف أنت الشافي..**»[2]. أو لم يرد بلفظه مثل: «**اللهم عافه، اللهم اشفه**»[3]. وإن كان فيها شرك، فإنّها غير جائزة مثل: «يا جني أنقذه، ويا فلان الميت اشفه» ونحو ذلك.

قولـه: «**من العـين والحُمة**»: العين: معروفة، وهي التي تسمّى عند العامة (النحاته). والحُمة: اللدغة من العقرب، أو الحيَّة، وما أشبه ذلك.

---

(١) سبق ص (٩٣).

(٢) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب المرض/ باب دعاء العائد للمريض ٤/٣١، ومسلم كتاب السلام/ باب استحباب رقية المريض ٤/١٧٢١.

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات ٣/٣٤٤، وأصله عند مسلم كتاب السلام/ باب رقية المريض بالمعوذات والنفث ٤/١٧٢٣.

وروى أحمد عن رُوَيْفِعٍ ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا رُوَيفعُ، لعل الحياة ستطول بك، فأخبرِ الناسَ أن مَن عَقَدَ لِحْيته، أو تقلَّد وَتَرًا، أو استنجى برجيعِ دابَّةٍ أو عَظْمٍ، فإن محمدًا بريءٌ منه»**[1].

وظاهر كلام المؤلف: أنَّ الدليل لم يُرخّص بجواز القراءة إلاّ في هذين الأمرين: **«العين، والحمة»** لكن ورد بغيرهما، فقد كان النبي ﷺ، ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات ويمسح بهما ما استطاع من جسده[2] وهذا من الرقية، وليس عينًا، ولا حُمة.

ولهذا يرى بعض أهل العلم الترخيص في الرقية من القرآن للعين والحمة وغيرهما عامة، ويقول: إنَّ معنى قول النبي ﷺ: **«لا رقية إلاّ من عين أو حُمة»**[3] أي لا يطلب الاسترقاء إلا من العين، والحمة، فالمصيب بالعين «العائن» يطلب منه أن يقرأ على المعيون.

وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه؛ لأنَّه مفيد كما في حديث أبي سعيد في قصة السريَّة[4].

شروط جواز القراءة للرقى:

الأول: أن لا يعتقد أنَّها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنّها تنفع بذاتها من دون الله فهو محرَّم؛ لأنَّه شرك، بل يعتقد أنَّها سبب لا تنفع إلاّ بإذن الله.

---

(١) رواه أحمد ٤/١٠٨، ١٠٩، وأبو داود كتاب الطهارة/ باب ما يُنهى عنه أن يستنجى به ١/٣٤، وسكت عنه، والنسائي، كتاب الزينة/ باب عقد اللحية ٨/١٣٥، والطبراني في الكبير برقم (٤٤٩١)، وإسناده صحيح كما في النهج السديد ص (٦٢).

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات ٣/٣٤٤، وأصله عند مسلم كتاب السلام/ باب رقية المريض بالمعوذات والنفث ٤/١٧٢٣.

(٣) سبق ص (١٠٢). (٤) سبق ص (٩٣).

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك، فإنه مُحرَّم.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة فإنها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم، فإن كانت من أمر محرم، أو اعتقد أنَّها نافعة بذاتها، أو كانت بكتابة لا تفهم فإنَّها لا تجوز بكل حال.

أمّا إذا تمَّت فيها الشروط الثلاثة السابقة، فإنَّ أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق[1].

قوله: «من عقد لحيته» اللحية: عند العرب كانت لا تقص، ولا تحلق كما أن ذلك هو السنَّة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

الأول: افتخارًا، وعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه.

الثاني: خوفًا من العين؛ لأنَّها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة فمن فعل ذلك، فإنَّ الرسول، ﷺ، بريء منه.

وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئًا منه يرمونه في الأرض، دفعًا للعين وهذا اعتقاد فاسد، ومخالف لقول النبي ﷺ: «**إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها**»[2].

قوله: «**أو تقلَّد وترًا**» الوتر: نوع من الخيوط العصبيّة تؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وترًا، ويستعملونها في أعناق إبلهم، أو خيلهم، أو في أعناقهم

(1) انظر ص (١٨١).

(2) رواه مسلم من حديث أنس، كتاب الأشربة/ باب استحباب لعق الأيادي والقصعة ١٦٠٧/٣.

وعن سعيد بن جُبَير قال: «مَن قَطَعَ تَمِيمَةً من إنسان كان كَعَدْل رَقَبَةٍ». رواه وَكيع.

يزعمون أنه يبعد العين، وهذا من الشرك.

قوله: «أو استنجى برجيع دابة» الاستنجاء: مأخوذ من النجو، وهو: إزالة أثر الخارج من السبيلين، لأنَّ الإنسان الذي يتمسَّح بعد الخلاء يزيل أثره.

ورجيع الدابة: هو روثها فمن استنجى به، فإنَّ محمدًا بريء منه؛ لأنه، ﷺ نهى عنه لكونه علفًا لبهائم الجن.

قوله: «أو عظم» فمن استنجى بعظم، فإنَّ محمدًا بريء منه، لأنَّه طعام الجن يجدونه أوفر ما يكون لحمًا.

قوله: «فإنَّ محمدًا بريء منه» كل ذنب قرن بالبراءة من فاعله فهو من كبائر الذنوب كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «من تقلَّد وترًا».

قوله: وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة...» الحديث.

وجه المشابهة بين قطع التميمة، وعتق الرقبة أنَّه إذا قطع التميمة من إنسان فكأنه أعتقه من الشرك ففكَّه من النار ولكن يقطعها بالتي هي أحسن، لأنَّ العنف يؤدِّي إلى المشاحنة والشقاق إلاّ إن كان ذا شأن كالأمير، والقاضي، ونحوه ممن له سلطة، فله أن يقطعها مباشرة.

وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التَّمائم كلَّها من القرآن وغير القرآن».

قوله: **«كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن، وغير القرآن»**: وقد سبق أنَّ هذا رأي ابن مسعود رضي الله عنه، فأصحابه يرون ما يراه.

قوله: **«وله عن إبراهيم»** هو إبراهيم النخعي.

قوله: **«كانوا»** الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود، لأنَّهم هم قرناء إبراهيم النخعي.

قوله: **«التمائم»** هي ما يعلّق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن، أو غيره، للاستشفاء، أو لاتقاء العين، أو ما يعلَّق على الحيوانات.

وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن، لا للاستشفاء، بل لمجرد التبرك، والزينة كالقلائد الذهبية، أو الحلي التي يكتب عليها لفظ الجلالة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملاً، فهذا كله من البدع.

فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنَّما يُستشفى به على ما جاء به الشرع.

ومن البدع أيضًا ما يفعله بعض الجهلة من التمسح بالكعبة، أو الركن اليماني، أو الحجر الأسود طلبًا للبركة فهذه لا يتبرك بها قال عمر، رضي الله عنه، للحجر الأسود: «إنني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله، ﷺ، يقبِّلك ما قبَّلتك»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج/ باب تقبيل الحجر ١/٤٩٥، ومسلم كتاب الحج/ باب استحباب تقبيل الحجر ١/٩٢٥.

فيه مسائل : الأولى: تفسير الرقى والتمائم. **الثانية :** تفسير التولة. **الثالثة :** أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء. **الرابعة :** أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك. **الخامسة :** أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟

قوله الأولى: «**تفسير الرقى والتمائم**» وقد سبق ذلك.

الثانية: «**تفسير التولة**» وقد سبق ذلك.

وعندي أن منها ما يُسمَّى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة: «**أنَّ هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء**» ظاهر كلامه حتى الرقى وهذا فيه نظر لأن الرقى ثبت عن النبي، ﷺ، أنه يَرقي ويُرقى[1] ولكنه لا يسترقي أي: لا يطلب الرقية، فإطلاقها بالنسبة للرقى فيه نظر. وبالنسبة للتمائم فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضًا.

وعلى رأي ابن مسعود فصحيح، وبالنسبة للتولة فهي شرك وليس فيها نظر.

الرابعة: «**أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحُمة ليس من ذلك**»: قوله: «**الكلام الحق**» ضده الباطل، وكذا المجهول الذي لا يعلم أنه حق أو باطل.

والمؤلف، رحمه الله تعالى، خصَّص العين أو الحمة فقط استنادًا لقول الرسول ﷺ: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[2] ولكن الصحيح أنَّه يشمل غيرهما كالسحر.

الخامسة: «**أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟**»:

---

(١) ص (٩٧). (٢) ص (١٠٢).

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.
السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وترًا.

قوله: «**ذلك**» المشار إليه التمائم.

وقد سبق بيان هذا الخلاف[1] والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأنَّ الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة.

السادسة: «**أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك**»: أي من الشرك.

فمن اعتقد في شيء أنه سبب ولم يكن سببًا شرعيًّا ولا عاديًّا فإنَّه مشرك حيث اعتقد سببًا لم يجعله الله سببًا.

فالشرعي: ما عُلم بطريق الشرع كالقرآن.

والعادي: ما عُلم بالتجربة.

ظهر في الأسواق منذ سنتين حلقة من النحاس يقولون: إنَّها تنفع من الروماتيزم، ولها اسم لا أذكره، يزعمون أنَّ الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح؛ لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا دليل حسي يدل على ذلك؛ وهي لا تؤثّر على الجسم، فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة وينتفع بها، فالأصل أنَّها ممنوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أنَّ لها اتصالاً مباشرًا بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

السابعة: «**الوعيد الشديد على من علَّق وترًا**»: وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلّق وترًا، بل ظاهره: أنَّه كفر مُخرج من الملّة قال تعالى: ﴿**وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسولُه**﴾[2]

---

(١) انظر ص (١٨٢).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان. **التاسعة**: أن كلام إبـراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف لأن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود.

لكن قال أهل العلم: أنَّ البراءة هنا براءة من هذا الفعل كقوله ﷺ: «**من غشَّنا فليس منَّا**»(١).

الثامنة: «**فضل من قطع تميمة من إنسان**»: لقول سعيد بن جبير: «كان كعدل رقبة» ولكن هل قوله حجة أو لا؟

إن قيل ليس بحجة، فكيف يقول المؤلف: فضل من قطع تميمة من إنسان؟ فيقال: إنه إنَّما كان كذلك لأنَّه إنقاذ له من رق الشرك، فهو كمن أعتقه بل أبلغ.

ولا يجزم بهذا بل هو من باب القياس، فمن أنقذ نفسًا من الشرك فهو كمن أنقذها من الرق؛ لأنَّه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

فائــدة:

إذا قال التابعي من السنة كذا فهل يعتبر موقوفًا متَّصلاً، ويكون المراد من السنة أي سنة الصحابة، أو يكون مرفوعًا مرسلاً؟

اختلف أهل العلم في هذا فبعضهم قال: إنه يكون موقوفًا.

وبعضهم قال: يكون مرفوعًا مرسلاً.

وتقدم لنا أنَّه ينبغي أن يفصِّل في هذا وأنَّ التابعي إذا قاله محتجًّا به فإنَّه يكون مرفوعًا مرسلاً، أما إذا قاله في سياق غير الاحتجاج فهذا قد يُقال: إنَّه من باب الموقوف الذي ينسب إلى الصحابي.

التاسعة: «**أن كلام إبراهيم النخعي لا يخالف ما تقدم من الاختلاف**»: لأنَّ مراده أصحـاب عبـدالله بن مسعود، وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عموماً.

(١) أخرجه مسلم (١٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

باب
من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

هذا باب مهم؛ لأنه يدل على أنَّه لا يتعلّق بشيء من الأشياء إلا ثبت بالشرع أنه متعلّق.

قوله: «تبرّك». تفعّل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من: البِركة بالكسر، والبِركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

١ ـ الكثرة. ٢ ـ الثبوت.

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١ ـ أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم، مثل القرآن قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مباركٌ﴾[1].

فمن بركته أنَّ من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أممًا كثيرة من الشرك.

ومن بركته أنَّ الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفّر للإنسان الوقت والجهد، وغير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢ ـ أن يكون بأمر حسي معلوم مثل: العلم والدعاء ونحوه، فهذا الرجل يتبرك بعلمه، ودعوته إلى الخير. فيكون هذا بركة؛ لأنَّنا نلنا منه خيراً كثيراً[2].

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) والتبرك المشروع له أنواع منها:

١ ـ التبرك بالأقوال والأفعال والهيئات.

فهناك أقوال وأفعال وهيئات إذا جاء بها المسلم ملتمساً للخير والبركة حصل له ماأراد إذا اتبع في ذلك السنة، ولم يكن في ذلك مانع فمن هذه الأقوال: ذكر الله وتلاوة كتابه، فمن=

= بركات الذكر مارواه أبوهريرة أن رسول الله ، ﷺ ، قال : «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر** . . . وفيه أن الله يقول : **فأشهدكم أني غفرت لهم ، قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم**» أخرجه البخاري .

ومن بركات القرآن أن الحرف الواحد بعشر حسنات ، ومن ذلك أيضاً مارواه أبو أمامة الباهلي أن رسول الله ، ﷺ ، قال : «**اقرؤا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرؤا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرؤا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة**» . أخرجه مسلم .

ومن بركات القرآن أنه شفاء للناس وهدى ورحمة .

ومن الأفعال التي تكون سبب للبركة : طلب العلم وتعلمه ، فمن بركاته الرفعة في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك أداء الصلاة جماعة مع المسلمين فمن بركة ذلك مضاعفة الحسنات وتكفير السيئات ، وكذا بقية أركان الإسلام ففيها بركات عظيمة ، وكذا الجهاد في سبيل الله ، فمن بركاته نيل الشهادة .

ومن الهيئات المباركة : الاجتماع على الطعام ، والأكل من جوانب القصعة ، ولعق الأصابع ، وكيل الطعام ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «**اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه**» . أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجه ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ٢ / ٧١٧ ، وقال ﷺ : «**البركة تنزل في وسط الطعام فكلوا من حافتيه ، ولا تأكلوا من وسطه**» .

أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجه ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٢ / ٧١٩ ، وأمر ، ﷺ ، بلعق الأصابع ، وقال : «**فإنه لا يدري في أيتهن البركة**» أخرجه أحمد وقال ﷺ : «**كيلوا الطعام يبارك لكم فيه**» . أخرجه البخاري .

فكل قول أو فعل أمر الله به أو رسوله قام به العبد مع الإخلاص والمتابعة ، فإنه سبب للبركة .

٢ ـ التبرك بالأمكنة .

هناك أمكنة معينة جعل الله فيها البركة إذا تحقق في العمل الإخلاص والمتابعة . =

. . . .

= فمن هذه الأماكن المساجد والتماس البركة فيها إنما يكون بأداء الصلاة فيها، والاعتكاف، وحضور مجالس العلم وغير ذلك مما هو مشروع، ولا يكون بالتمسح بجدرانها أو ترابها مما هو ممنوع.

ومن المساجد مايكون لها مزية وزيادة في البركة كالمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، فصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف، وفي المسجد النبوي بألف صلاة، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة، وقال ﷺ: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء وصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**» أخرجه أحمد، والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/٢٣٨.

ومن الأمكنة المباركة: مكة والمدينة والشام، فإن النبي ﷺ قال: «**إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي مادعا إبراهيم لأهل مكة**». أخرجه مسلم، وقال ﷺ: «**من أراد أهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء**» أخرجه مسلم، وقال ﷺ: «**طوبى للشام، فقلنا: لأي شيء ذاك؟ فقال: لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه**» أخرجه أحمد والحاكم وصححه على شرطها فمن سكن مكة أو المدينة أو الشام طلباً لما فيها من البركة التي أخبر عنها النبي، ﷺ، فقد وفق إلى خير كثير، بخلاف مالو طلب التبرك بالتمسح بترابها وجدرانها وأشجارها وغير ذلك مما لم يرد به الشرع فإنه بدعة وكذا المشاعر المقدسة كعرفة ومزدلفة ومنى فهي أماكن مباركة لما في الاقتداء بالرسول، ﷺ، بالحصول فيها في الأوقات المشروعة من غفران الذنوب وحصول الأجر الكبير.

٣ ـ التبرك بالأزمنة.

هناك أزمنة خصها الشرع بزيادة فضل وبركة مثل شهر رمضان لما في صيامه من غفران الذنوب وزيادة رزق المؤمن، وغير ذلك.

ومن ذلك ليلة القدر، والعشر الأول من شهر ذي الحجة، ويوم الجمعة، والثلث الأخير من الليل وغير ذلك من الأزمنة التي خصها الشرع بمزية، ويكون فيها من الخير والفضل والبركة الشيء الكثير، والتماس البركة في هذه الأزمنة يكون باتباع ماأرشد إليه النبي ﷺ.

ومن الأطعمة التي تلتمس فيها البركة زيت الزيتون فإن النبي، قال: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة**» أخرجه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، ومن ذلك اللبن لحديث =

. . . .

ومن ذلك الفأل، فقد كان النبي ، ﷺ، يعجبه الفأل[1] قال أسيد بن حضير: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر»[2]. فإنَّ الله يجري على بعض الناس من أمور الخير، ما لا يجريه على يد الآخر.

وهناك بركات موهومة باطلة مثل ما يزعمه الدّجّالون: أنَّ فلانًا الميت الذي يزعمون أنَّه وليّ أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك، فهذه بركة باطلة، لا أثر لها وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنها لا تعدو أن تكون آثارًا حسيّة بحيث أنَّ الشيطان يخدم هذا الشيخ، فيكون في ذلك فتنة[3].

= عائشة «**كان رسول الله إذا أتي بلبن قال: كم في البيت بركة أو بركتين**» أخرجه أحمد، ومن ذلك الحبة السوداء فهي شفاء من كل داء إلا السام كما أخبر النبي، ﷺ، ومن ذلك أيضاً ماء زمزم فإنها مباركة إنها طعام طعم.

ومن ذلك الخيل فقد قال النبي ﷺ: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**» أخرجه البخاري.

ومن ذلـك أيضاً النخل فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم**» أخرجه البخاري.

فهذه الأشياء تلتمس منها البركة حسب ماجاء عن الشارع ولا يتعدى بها الوجه المشروع والمباح.

انظر: التبرك المشروع للعلياني ص (٣٣ ـ ٥٠).

(١) من حديث أنس رواه البخاري كتاب الطب/ باب الطيرة ٤/٤٦، ومسلم كتاب السلام/ باب الطيرة والفأل ٤/١٧٤٦.

(٢) من حديث عائشة رواه البخاري، كتاب التيمم ١/١٢٥، ومسلم كتاب الحيض/ باب التيمم ١/٢٨٩.

(٣) ومن التبرك الباطل:

١ ـ التبرك بالأمكنة المباركة على غير ماورد في الشرع، كتقبيل أبواب المساجد، والتمسح =

. . . .

= بأعتابها، والاستشفاء بتربتها، ومثل ذلك: التمسح بجدران الكعبة، أو مقام إبراهيم وغير ذلك.

٢ ـ ومن ذلك أيضاً الذهاب إلى القبور لا لقصد الزيارة، وإنما لقصد الدعاء عندها لأجل بركتها واعتقاد أن الدعاء عندها أفضل.

قال شيخ الإسلام كما في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٤): «فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء، أو بعض الصالحين تبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله. . »

٣ ـ قال شيخ الإسلام كما في الاقتضاء ص (٤٢٤ ـ ٤٢٦): «. . مثل من يذهب إلى حراء ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غار ثور ليصلي فيه ويدعو، أو يذهب إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غير هذه الأمكنة من الجبال وغير الجبال التي يقال فيها مقامات الأنبياء. . ولا شرع لأمته زيارة موضع المولد، ولا زيارة موضع بيعة العقبة. . . ومعلوم أنه لو كان هذا مستحباً يثيب الله عليه لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك وأسرعهم إليه، ولكان علم أصحابه بذلك وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثة».

وقد رد الشيخ عبدالعزيز بن باز في فتاويه ٣/٣٣٤: على من طالب بإحياء الآثار النبوية كطريقة الهجرة ومكان خيمة أم عبد، ونحو ذلك، وبين أن ذلك يجر إلى تعظيمها أو الدعاء عندها أو الصلاة ونحو ذلك، وهذه من الوسائل المفضية إلى الشرك».

٤ ـ وكذا الأمكنة التي صلى فيها الرسول، ﷺ، اتفاقا كأن يكون في سفر ونحو ذلك، ولم يقصد تخصيصها بالصلاة فيها فإنه لا يشرع تتبعها والتقرب إلى الله بالصلاة فيها، لأنها لم تكن مقصودة لذاتها.

ومن باب أولى الأماكن التي ارتبطت بحوادث نبوية معينة كغار حراء، وغار ثور، وموقعة بدر، ومكان شجرة بيعة الرضوان وغير ذلك وروى ابن سعد في الطبقات ٢/١٠٠ عن نافع قال: «كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بقطعها».

٥ ـ وكذا الأزمنة المباركة كشهر رمضان وليلة القدر، ويوم الجمعة وغير ذلك إنما تلتمس بركتها بالقيام بالمشروع فيها من العبادات، ولو التمست بركة تلك الأزمنة بأعمال غير =

. . . .

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة، أو الصحيحة؟ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة، فإنَّ الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره[1].

من ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته.

أما إن كان مخالفًا للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل فإنَّ بركته موهومة وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده، ويضحي مع أهل بلده.

= مشروعة لأنكر عليه، لأن التماس البركة في زمان معين أو مكان معين عبادة يقتصر فيها على المشروع.

٦ - ومن ذلك تخصيص أزمنة معينة بنوع من التعظيم والاحتفالات والعبادات، كيوم مولد الرسول، ﷺ، ويوم الإسراء والمعراج، ويوم الهجرة، ويوم بدر، وفتح مكة وغير ذلك، فالتبرك بالأزمنة على هذا النحو من البدع.

٧ - ومن التبرك الباطل: التبرك بذوات الصالحين وآثارهم فلم يؤثر عن أحد من الناس أنه تبرك بوضوء أبي بكر أو عرقه، أو ثيابه أو ريقه أو غير ذلك، ولا عمر ولا عثمان ولا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وإنما كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بوضوء النبي، ﷺ، وجسمه وعرقه، وريقه، وشعره، وملابسه، وهذا خاص بالنبي، ﷺ، لا يجوز أن يقاس عليه أحد من الصالحين، ولو كانوا الخلفاء الراشدين، أو العشرة المبشرين فضلاً عن غيرهم، لان التبرك عبادة مبناها على التوقيف والاتباع.

انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٩)، الاعتصام للشاطبي ص (٨)، رسالة التبرك المشروع والتبرك الممنوع للعلياني ص (٨١).

(١) قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى ١ /٨٣: «ولهذا قال الأئمة إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي».

وقول الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾[1] الآيات.

قال شيخ الإسلام: إنَّ الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات منها: عدم إتمام الحج، وكذا قال شيخ الإسلام: إنهم يمرّون بالميقات، ولا يُحرمون منه[2].

قوله: «**شجر**» اسم جنس، أي: شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه لمّا رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: «**أو حجر**» اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس، فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنّما يتعبد لله بمسحه، وتقبيله اتّباعًا للرسول، ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «إنّي لأعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله، ﷺ، يُقبّلك ما قبلتك»[3].

فتقبيله عبادة محضة خلافًا للعامة يظنون أنَّ به بركة حسيّة، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبرُّكًا بذلك.

قوله: «**ونحوهما**» أي: من البيوت، والقباب، والحجر، حتى حجرة قبر النبي، ﷺ، فلا يتمسح بها تبركًا، لكن لو مسح الحديد، لينظر هل هو أملس أو لا؟ فلا بأس إلّا إن خشي أن يُقتدى به فلا يمسحه.

قوله: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى**﴾. لما ذكر الله عز وجل المعراج بقوله: ﴿**والنجم إذا هوى ما ضلَّ صاحبكم وما غوى**﴾[4].. إلى أن قال: ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾[5].

---

(1) سورة النجم، الآية: ١٩.
(2) مجموع الفتاوى ١/٨٣.
(3) سبق ص (١٨٧).
(4) سورة النجم، الآيتان: ١، ٢.
(5) سورة النجم، الآية: ١٨.

. . . .

بعض المعربين يقول: لقد رأى الكبرى من آيات الله.

وبعض المعربين يقول: لقد رأى من آيات الله الكبرى.

وعلى الرأي الأول: يكون ما رآه الرسول أكبر شيء.

وعلى الرأي الثاني: يكون من أكبر الأشياء، وهذا هو الصحيح، أن الكبرى صفة لآيات، وليست مفعولاً لرأى إذ إن ما رآه ليس أكبر آيات الله.

وبعد أن ذكر الله ما رأى النبي، ﷺ، من هذه الآيات قال: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى**﴾ أي: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة، فليست بشيء.

والاستفهام: للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام.

قوله: ﴿**اللات**﴾ تقرأ بتشديد التاء، وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباس، فعلى قراءة التشديد تكون اسم فاعل من اللت، وكان هذا الصنم أصله رجل يلت السويق للحجاج، أي يجعل فيه السمن، ويطعمه الحجاج، فلما مات عكفوا على قبره، وجعلوه صنمًا.

وأما على قراءة التخفيف، فإن اللات مشتقة من الله، أو من الإلـه فهم اشتقُّوا من أسماء الله اسمًا لهذا الصنم، وسموه باللات، وهي معبودة عند قريش.

قوله: ﴿**ومناة**﴾ قيل: مشتقة من المنان، وقيل: من منى لكثرة ما يمنى عنده من الدماء بمعنى يُراق، ومنه سميت منى لكثرة ما يراق فيها من الدماء.

وكان هذا الصنم يقصده المشركون، يذبحون عنده.

قوله: ﴿**الثالثة الأخرى**﴾ إشارة إلى أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثر إراقة الدماء حولها أنَّها أخرى بمعنى متأخرة أي: ذميمة حقيرة، من فلان أخر أي ذميم حقير: أي: متأخر.

. . . .

فهذه الأصنام الثلاثة المعبودة عند العرب ما حالها بالنسبة لما رأى النبي ، ﷺ؟ لا شيء.

قوله: ﴿**الآيات**﴾ معنى هذا أنه يريد منَّا أن نستمر في شرح الآيات.

قوله: ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى**﴾ هذا أيضًا استفهام إنكاري على المشركين الذين يجعلون لله البنات، ولهم البنين، فإذا ولد لهم الولد الذكر فرحوا، واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسودًّا، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون الملائكة بنات الله فيجعلون البنات لله، والعياذ بالله.

قوله: ﴿**تلك إذًا قسمة ضيزى**﴾. ضيزى: جائرة، لأنَّه على الأقل إذا أردتم القسمة فاجعلوا لكم من البنات نصيبًا! واجعلوا لله من البنين نصيبًا، أمَّا أن تجعلواما تختارونه لأنفسكم وهم البنون، وتجعلون ما تكرهون لله فهذه قسمة جائرة.

قوله: ﴿**إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾: الضمير في «هي» يعود إلى الأصنام أي هذه الأصنام التي سميتموها اللات، والعزى، ومناة اتخذتموها آلهة تعبدونها هي أسماء سميتموها، ولكن ما أنزل الله بها من سلطان، أي: من حجة ودليل.

بل أبطلها الله سبحانه قال تعالى: ﴿**ذلك بأنَّ الله هو الحق، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل، وأنَّ الله هو العلي الكبير**﴾[1].

و«سلطان» هنا بمعنى حجة.

وأصل السلطان في اللغة العربية ما به سلطة، فإن كان في مقام العلم فهو العلم، وإن كان في مقام القدرة فهو القدرة، وإن كان في مقام الأمر والنهي

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

. . . .

فهو من له الأمر والنهي . فمثلاً قوله تعالى : ﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾[١] أي بقدرة وقوة ومثل قوله تعالى : ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾[٢] أي : من حجة وبرهان .

ومثل قول الرسول ﷺ : «السلطان وليُّ من لا وليَّ له»[٣] .

قولـه : ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ «إن» هنا بمعنى ما ، وعلامة إن التي بمعنى ما أن تأتي بعدها إلاّ قال تعالى : ﴿إن هذا إلاّ ملك كريم﴾[٤] يعني ما هذا إلا ملك كريم ، وقال تعالى : ﴿إنْ هذا إلاّ قول البشر﴾[٥] أي : ما هذا إلا قول البشر ، وقال تعالى : ﴿إنْ يتَّبعون إلاّ الظنّ﴾[٦] أي : ما يتبعون إلا الظن .

والظن الذي يتبعونه هو أنَّها آلهة ، وأنَّ لله البنات ، ولهم البنون ، والظن لا يغني من الحق شيئًا كما قال تعالى في الآية .

قولـه : ﴿وما تهوى الأنفس﴾ كذلك أيضًا يتَّبعون ما تهوى الأنفس ، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى فالإنسان الذي يعبد الله بالهوى ، فإنَّه لا يعبد الله حقًّا ، إنَّما يعبد عقله وهواه قال تعالى : ﴿أفرأيت من اتَّخذ إلـهه هواه ، وأضلَّه الله على علم﴾[٧] لكن الذي يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق .

---

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٣٣ .

(٢) سورة النجم ، الآية : ٢٣ .

(٣) من حديث عائشة رواه أبو داود ، كتاب النكاح/ باب في الولي ٢/٥٦٨ ، وسكت عنه ، والترمذي النكاح/ باب لا نكاح إلا بولي رقم ١١٠٢ وقال : «حديث حسن» وابن ماجه كتاب النكاح/ باب لا نكاح إلا بولي ١/٦٠٥ ، وأحمد ١/٤٧ ، ٦٦ ، ١٦٦ ، ٢٦٠ .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ٣١ .

(٥) سورة المدثر ، الآية : ٢٥ .

(٦) سورة النجم ، الآية : ٢٣ .

(٧) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

وعن أبي واقِـدِ اللَّيْثيِّ قال: «خـرجنـا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن،

قوله: ﴿**ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾ أي: على يد النبي، ﷺ، فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

مناسبة الآية للترجمة:

لأنَّهم يعتقـدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها يدعونها، ويذبحون لها، ويتقرَّبون إليها، وقد يبتلي الله المرء، فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر، أو جلب نفع بهذا الشرك ابتلاء من الله وامتحانًا، وهذا قد تقدَّم لنا له نظائر أنَّ الله يبتلي المرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم من يخافه بالغيب.

قوله: «**خرجنا مع النبي** ﷺ» أي: بعد غزوة الفتح، لأنَّ النبي، ﷺ، لما فتح مكة تجمعت له ثقيف، وهوازن بجمع عظيم كثير جدًّا.

فقصدهم ﷺ، ومعه اثنا عشر ألفًا، ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة قالوا لن نغلب اليوم من قلة فأعجبوا بكثرتهم، ولكن بيَّن الله أن النصر من عند الله وليس بالكثرة قال تعالى: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت**﴾[1].

ثم لما انحدروا من وادي حنين، وجدوا أنَّ المشركين قد كمنوا لهم في الوادي، فحصل ما حصل، وتفرَّق المسلمون عن رسول الله، ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مائة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي، ﷺ، والحمد لله.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

ونحن حُدثَاءُ عهدٍ بكفرٍ، وللمشركين سِدْرة يعكُفون عندها ويَنُوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذاتُ أنواطٍ، فمررنا بسِدْرةٍ، فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنْواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**الله أكبرُ، إنها السنَن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهة، قال إنَّكم قَوْمٌ تجهلون﴾[1]. «لَتَرْكَبُنَّ سُنن من كان قبلَكم**». رواه الترمذيُّ وصحَّحَه[2].

قوله: «**حدثاء**» جمع حديث أي أننا قريب عهد بكفر، وإنَّما ذكر ذلك رضي الله عنه للاعتذار لطلبهم، وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

قولـه: «**يعكفـون عنـدهـا**»: أي: يقيمون عليها، والعكوف ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿**وأنتم عاكفون في المساجد**﴾[3].

قوله: «**ينوطون**» أي: يعلِّقون بها أسلحتهم تبركًا.

قوله: «**يقال: لها ذات أنواط**» أي: أنَّها تلقَّب بهذا اللقب لأنَّه تناط فيها الأسلحـة، وتعلَّق عليهـا رجـاء بـركتها، فالصحابة، رضي الله عنهم، قالوا للنبي ﷺ: «اجعـل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» أي: سدرة نعلّق

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٢) رواه أحمد في المسند ٥/٢١٨، والترمذي أبواب الفتن/ باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ٦/٣٤٣ وقال: «حسن صحيح»، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٧٦)، وابن حبان برقم (١٨٣٥)، والطبراني في الكبير برقم (٣٢٩٠)، والبيهقي في المعرفة ١/١٠٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

. . . .

أسلحتنا عليها تبركًا بها، فقال النبي، ﷺ: «**الله أكبر**» كبَّر تعظيمًا لهذا الطلب، أي: استعظامًا له، وتعجبًا لا فرحًا به، كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إلـه إلا الله؟

لكن: «**إنها السنن**» أي: الطرق التي يسلكها العباد «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهة**» أي: أنَّ الرسول، ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قالوا: اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهة. فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده**» المراد أنَّ نفسه بيد الله لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضًا، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها سبحانه وتعالى.

قوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**» أي لتفعلنَّ مثل فعلهم، ولتقولنَّ مثل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار وإنّما يراد بها التحذير؛ لأنَّه من المعلوم أنَّ سنن من كان قبلنا مما جرى تشبيهه سنن ضالّة حيث طلبوا آلهة مع الله فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحذِّر أمَّته أن تركب سنن من كان قبلها من الضلال والغي.

والشاهد من هذا الحديث قولهم: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» فأنكر عليهم النبي ﷺ[1].

---

(١) انظر ص (٢٠٤) (٢٠٥).

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية النجم . **الثانية** : معرفة صورة الأمر الذي طلبوا . **الثالثة** : كونهم لم يفعلوا . **الرابعة** : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه .

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل .

ثم ذكر المؤلف، رحمه الله، المسائل التي فيه، فقال: فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم: أي: قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذًا قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾ وقد مرَّ علينا تفسيرها، وأن الله تعالى أنكر على هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى، وأتى بصيغة الاستفهام الدالّة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا: وهو أنهم طلبوا من النبي، ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أنَّ للمشركين ذات أنواط، وهم إنَّما أرادوا أن يتبرَّكوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها، فدلَّ ذلك على أنَّ التبرك بالأشجار ممنوع، وأنَّ هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا: أي لم يعلّقوا أنواطًا على الشجرة، ويطلبوا من الرسول، ﷺ، أن يقرَّهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول، ﷺ، أن يجعل لهم ذلك.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرُّب إلى الله بذلك لظنِّهم أنه يحبه.

بذلك: أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول، ﷺ ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا معنى العبادة.

الخامسة: أنَّهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل؛ لأنَّ الصحابة لا شكَّ أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أنَّ التبرك بهذا نوع من

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي، ﷺ، لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله: «**الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم**». فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى اجعل لنا إلهًا.

اتخاذها إلـهًا فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف رحمه الله بهذا أن لا نغتر بعمل الناس؛ لأنَّ عمل الناس قد يكون عن جهل، فالعبرة بما دلَّ عليه الشرع لا بعمل الناس.

السادسة: أنَّ لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم: وهذا معلوم من الآيات: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلًا وعد الله الحسنى**﴾[1]. فالصحابة رضي الله عنهم لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة، وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي، ﷺ، بهذا الطلب.

السابعة: أنَّ النبي، ﷺ، لم يعذرهم بل ردَّ عليهم بقوله: «**الله أكبر إنَّها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم**» فغلّظ الأمر بهذه الثلاث:

ما هي الثلاث؟ الله أكبر، إنّها السنن، لتركبنَّ سنن من كان قبلكم، فغلّظ الأمر بهذا لأنَّ التكبير استعظامًا للأمر الذي طلبوه، وإنَّها السنن أيضا تحذير، ولتركبنَّ سنن من كان قبلكم كذلك أيضًا تحذير.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنَّه أخبر أنَّ طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: اجعل لنا إلـها كما لهم آلهة. فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها كما يتبرَّك المشركون بها وأولئك طلبوا إلـهًا كما لهم آلهة، فيكون في كلا الطلبين منافاة

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى «لا إلٰه إلا الله» مع دقته وخفائه على أولئك. **العاشرة**: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أصغر وأكبر، لأنهم لم يرتدوا بهذا.

للتوحيد، لأنَّ التبرُّك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذ إله شرك واضح.

التاسعة: أنَّ نفي هذا من معنى لا إلـه إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك:

أي: أنَّ نفي التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إلـه إلا الله، فإنَّ لا إلـه إلا الله تنفي كل إلـه سوى الله، وتنفي الألوهية عما سوى الله عز وجل، فكذلك البركة لا تكون من غير الله سبحانه وتعالى.

العاشرة: أنَّه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة:

أي: النبي، ﷺ، حلف على الفتيا في قولـه: «**قلتم، والـذي نفسي بيده**». والنبي، ﷺ، لا يحلف إلاّ لمصحلة، أو دفع مضرَّة ومفسدة، فليس ممن يحلف على أي سبب يكون، كما هي عادة بعض الناس.

الحـادية عشرة: أنَّ الشرك فيه أصغر وأكبر لأنَّهم لم يرتدوا بهذا: نعم الشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفيٌّ وجليٌّ.

فالشرك الأكبر: ما يُخرج الإنسان من الملّة.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة ما دون ذلك ليست ميزانًا واضحًا، ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر.

القول الأول: إنَّ الشرك الأصغر كل شيء أُطلق الشارع عليه أنَّه شرك ودلت النصـوص على أنَّـه ليس من الأكـبر مثـل: «**من حلف بغـير الله فقد**

. . . .

أشرك»[1]. نقول: الشرك هنا أصغر لأنَّه دلَّت النصوص على أنَّه مجرَّد الحلف بغير الله لا يُخرج من الملة.

القول الثاني: أن الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كاعتماده على الله لكنه لم يتخذه إلـهًا فهنا نقول: هذا شرك أصغر[2] لأنَّ هذا الاعتماد الذي يكون كاعتماده على الله يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول، لأنَّ الأول يمنع أن تطلق على شيء أنَّه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثاني يجعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف أنَّ المعاصي كلها شرك أصغر لأنَّ الحامل عليها الهوى وقد قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه وأضله الله على علم﴾**[3]. ولهذا أطلق النبي ﷺ الشرك على تارك الصلاة مع أنَّه لم يشرك فقال: **«بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»**[4].

---

(١) من حديث ابن عمر رواه أبو داود كتاب الأيمان/ باب في كراهية الحلف بالآباء ٣/ ٥٧٠ وسكت عنه، والترمذي، النذور/ باب كراهية الحلف بغير الله تعالى رقم ١٥٣٥ وحسنه، والطيالسي رقم (١٨٩٦)، وابن حبان رقم (١١٧٧)، والحاكم ١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧ وصححه على شرطهما وأقره الذهبي، وأحمد في المسند ٢/ ٣٤، ٦٩.

(٢) بشرط أن يكون الاعتماد صحيحًا، فإن كان غير صحيح كاعتماد على الموتى ونحوهم فهو شرك أكبر.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٢٣.

(٤) رواه الترمذي، أبواب الإيمان/ باب ما جاء في ترك الصلاة ٩/ ٢٦١٣ وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي، كتاب الصلاة/ باب الحكم في تارك الصلاة ١/ ٢٣١، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة/ باب ما جاء فيمن ترك الصلاة رقم (١٠٧٩) وابن حبان كما في الموارد رقم (٢٥٥)، والحاكم ١/ ٧ وصححه وأقره الذهبي، وأحمد ٥/ ٣٤٦.

. . . .

فالحاصل: أنَّ المؤلف، رحمه الله، يقول: إنَّ هذا الشرك فيه أكبر وأصغر لأنَّهم لم يرتدوا بهذا لأنَّهم طلبوا ذات أنواط.

والجليّ والخفيّ: بعضهم قال: إنَّ الجليّ والخفيّ هو الأكبر والأصغر. وبعضهم قال: الجليّ ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر.

والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر.

وهذا هو المطابق للفظ: أن الجلي: ما انجلى أمره.

والخفي: ما خفي أمره، فقد يكون الحلف بغير الله إذا أعلنه الإنسان من باب الجلي لأنّه أظهر وأعلن، والرياء من باب الخفي لأنه لا يطلع عليه أحد.

وأيهما الذي لا يغفر؟

قال شيخ الإسلام: إنَّ الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر؛ لعموم قوله: ﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به**﴾[1] و«أن يُشرك به» مؤول بمصدر تقديره: شركًا به، وهو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم[2].

وقال بعض العلماء: إنَّ الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وأنَّ المراد بقوله: ﴿**أن يُشرك به**﴾ الشرك الأكبر الذي لا يغفر، وأمَّا الشرك الأصغر فإنه يغفر لأنَّه لا يُخرج من الملة، وكل ذنب لا يخرج من الملة فإنَّه تحت المشيئة. وعلى كل حال فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأنَّ أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغيره صادقًا»[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) انظر: الرد على البكري ص (١٤٦).

(٣) رواه عبدالرزاق في المصنف ٨/٤٦٩، والطبراني في الكبير برقم (٨٩٠٢)، قال المنذري في الترغيب ٣/٦٠٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/١٧٧: «رواته رواة الصحيح».

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر» فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك. **الثالثة عشرة**: التكبير عند التعجب خلافًا لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الثانية عشرة: قوله: **«ونحن حدثاء عهد بكفر»**... معناه: أنه يعتذر عمّا طلبوا حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط فهم يعتذرون لجهلهم بكونه حدثاء عهد بكفر.

وعلى هذا فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدّم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يُعرّض نفسه إلى القول بما ليس فيه، ومعلوم حديث صفية حين شيعها الرسول، ﷺ، وهو معتكف فمرَّ رجلان من الأنصار، فقال: إنها صفية بنت حيي[1].

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب... إلخ.

تؤخذ من قوله: **«الله أكبر إنها السنن»** أي: الله أكبر، وأعظم من أن يشرك به، وفي رواية الترمذي أنه قال: **«سبحان الله»**[2] أي: تنزيهُ لله عما لا يليق به.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله، وطرقه.

والذرائع نوعان:

أ ـ ذرائع إلى أمور مطلوبة، فهذه لا تسدّ، بل تفتح، وتطلب.

ب ـ ذرائع إلى أمور مذمومة، فهذه تسدّ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف/ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ٦٧/٢.

(٢) سبق ص (٢٠١).

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم. **السابعة عشرة:** القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

وذات أنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم، وتبرَّكوا بها، يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها، وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة، فلهذا سدّ النبي، ﷺ، الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية:

تؤخذ من قوله: «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل**» فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختصّ بمن كان قبل زمن النبي، ﷺ، بل كل من جهل الحق، وعمل عمل الجاهلين، فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم:

والحديث ليس بصريح في ذلك.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «**إنها السنن**».

أي: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لا يعني الحِلَّ، ولكنه للتحذير، والرسول، ﷺ، قال: «**ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»[1]. ومثله قوله: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير**»[2]. الحديث. وقوله: «**إنَّ الظعينة تذهب من كذا إلى كذا لا تخشى إلا الله**»[3]، وما أشبه ذلك من الأمور التي يحرّمها الشرع لكن القدر يأتي بها.

---

(١) سبق ص (٣٩).

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب الأشربة/ باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ٤/ ١٣.

(٣) من حديث عدي بن حاتم، رواه البخاري، كتاب المناقب/ باب علامات النبوة ٢/ ٥٢٧.

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

الثامنة عشرة: أنَّ هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر:

فإن قال قائـل: إنَّ النبي، ﷺ، قد خطب الناس بعرفة وقال: «**إنَّ الشيطان قد أيس أن يُعبد في جزيرة العرب**»[1].

الجواب: أنَّ يأسه لا يدلّ على عدم الوقوع، بل إنَّ الأمر يقع على خلاف ما توقعـه الشيطان؛ لأنَّ الشيطان لما حصلت الفتـوحات، وقوي الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا يئس أن يعبد سوى الله في هذه الجزيرة، ولكن حكمة الله تأبى إلاّ أن يكون ذلك، وهذا نقوله ولابد، لئلا يقال: إنَّ جميع الأفعال التي تقع في الجزيرة العربية لا يمكن أن تكون شركًا، ومعلوم أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله جدد التوحيد في الجزيرة العربية، وأنَّ الناس كانوا في ذلك الوقت فيهم المشرك وغير المشرك.

فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع، وهذا الرسول، ﷺ، يقول: «**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم**»، وهو يخاطب الصحابة، وهم في جزيرة العرب.

التاسعة عشرة: أنَّ ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنَّه لنا:

هذا ليس على إطـلاقـه وظـاهره، بل يحمل قوله: «لنا» أي لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم**﴾[2]. والرسل كانوا من الإنس فقط.

فقوله: «إنه لنا» أي: قد يكون من بعضنا.

---

(١) من حديث جابر رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين/ باب تحريش الشيطان ٤/٢١٦٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

العشــرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما «مَنْ ربك» فواضح وأما «مَنْ نبيك» فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما «ما دينك» فمن قولهم «اجعل لنا» إلى آخره.

فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى، فإنَّ الذم الذي يكون لهم يكون لنا، وما من أحد من الناس إلّا وفيه شبه باليهود أو النصـارى فالذي يعصي الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذي يعبد الله على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذي يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، و«هَلُمَّ جَرًّا».

وإن كان يقصد رحمه الله، أنَّه لابدّ أن يكون في الأمة خصلة فهذا على إطلاقه وظاهره، لأنَّه قلّ من يسلم.

وإن أراد أنّ كلّ ما ذُمَّ به اليهود والنصارى فهو لهذه الأمة على سبيل العموم، فلا.

العشرون: أنَّه متقرر عندهم أنَّ العبادات مبناها على الأمر... إلخ وهذا واضح فالعبادات مبناها على الأمر فما لم يثبت فيه أمر الشارع فهو بدعة قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»[1]. وقال: «**إيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[2].

---

(١) من حديث عائشة، رواه مسلم، كتاب الأقضية/ باب نقض الأحكام الباطلة ٣/١٣٤٣. وأخرجه البخاري معلقاً (٢٦٩٧).

(٢) من حديث العرباض بن سارية، رواه أبو داود، كتاب السنة/ باب لزوم السنة ٥/١٣، والترمذي العلم/ باب الأخذ بالسنة رقم (٢٦٧٨)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة/ باب اتباع سنة الخلفاء رقم (٤٢).

فمن تعبّـد بعبـادة طولب بالـدليل، ومن رمى صيدًا فأكله لا يطالب بالـدليل إلا إذا وُجـد دليل على أنّه محرّم، لأنَّ الأصل في العبادات الحظر. والمنع، إلا إذا قام الدليل على مشروعيتها.

وأمّا الأكل والمعاملات، والآداب واللباس وغيرها فالأصل فيها الإباحة إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وقـوله: «**مسائل القبر التي يسأل فيها الإنسان في قبره من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟**».

ففي هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أنَّ فيها دليلاً على أنَّ الإنسان يسأل في قبره أي: دليل على إثبات الربوبية، والنبوة، والعبادة.

أمَّا من ربك فواضح.

وأما من نبيك فمن إخباره بالغيب قال، ﷺ: «**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذَّة**»[1] فوقع كما أخبر.

أمَّا ما دينك فمن قولهم: «اجعل لنا إلـهًا» أي: مألوهًا معبودًا، والعبادة هي الدين.

والمؤلف، رحمـه الله، محمـد بن عبـدالـوهـاب فهمه دقيق جدًّا لمعاني النصوص، فأحيانًا يصعب على الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الكتاب.

الحادية والعشرون: أنَّ سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين تؤخذ من قوله: «**كما قالت بنو إسرائيل لموسى**».

---

(١) سبق ص (٢٠١).

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقوله «ونحن حدثاء عهد بكفر».

الثانية والعشرون: أنَّ المنتقل من الباطل الذي اعتاد قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة.

وهذا صحيح، فالإنسان المنتقل من شيء سواء باطلاً، أو لا، لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه، وهذه البقية لا تزول إلا بعد مدة لقوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر» فكأنه يقول ما سألناه إلا لأنّ عندنا بقية من بقايا الجاهلية ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة؛ لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي له أن يبتعد عن مواطن الكفر، والشك، والفسوق حتى لا يقع في قلبه شيء منها.

باب
ما جاء في الذبح لغير الله

قوله: «في الذبح» أي: ذبح البهائم.

قوله: «لغير الله» اللام للتعليل، والقصد أي: قاصدًا بذبحه غير الله.

والذبح لغير الله ينقسم إلى قسمين:

١ ـ أن يذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

٢ ـ أن يذبح لغير الله فرحًا وإكرامًا فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحيانًا وغير مطلوبة أحيانًا، فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

لو قدم السلطان إلى بلد فذبحنا له، فإن كان تقربًا وتعظيمًا فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها.

أما لو ذبحناها له إكرامًا وضيافة، وطبخت، وأكلت فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك.

قوله: «غير الله» يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم، فكل من ذبح لغير الله تقربًا، وتعظيمًا، فإنه داخل في هذه الكلمة بأي شيء كان.

وقوله في الترجمة: «باب ما جاء في الذبح لغير الله» مثل هذه الترجمة يترجم بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأمّا الأمور التي يجزمون بها فإنهم يقولون: «باب تحريم الذبح لغير الله» وهكذا.

والمؤلف، رحمه الله تعالى، لا شك أنَّه يرى تحريم الذبح لغير الله على سبيل التقرب والتعظيم، وأنَّه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرّن الطالب على أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلميّة أنَّ المعلم أو المؤلف يدع

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي، ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لله رَبِّ العالمينَ لا شَريكَ لَه﴾(١). الآية(١).

الحكم مفتوحًا ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب فيحكم به على حسب ما سبق له من هذه الأدلة.

قوله: ﴿قل﴾ الخطاب للنبي، ﷺ، أي: قل: لهؤلاء المشركين معلنًا لهم قيامك بالتوحيد الخالص، إذ هذه السورة مكيَّة.

قوله: ﴿إنَّ صلاتي﴾ الصلاة في اللغة: الدعاء.

وفي الشرع: عبادة لله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿ونسكي﴾ النسك لغة: العبادة.

وفي الشرع: ذبح القربان.

فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي أو على المعنى الشرعي؟

تقدم لنا: أنَّ ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، كما أنَّ ما جاء في لسان العرف فهو محمول على الحقيقة العرفية.

فعندما أقول لشخص عندك شاة؟ يفهم الأنثى من الضأن، لكن في اللغة العربية الشاة تطلق على الواحدة من المعز ذكرًا كان أو أنثى.

وقيل: تحمل على المعنى اللغوي، لأنَّه أعم، فالصلاة الدعاء، والنسك العبادة كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله وهذا عام للدعاء، والتعبد.

وإذا حملت على المعنى الشرعي صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي الصلاة، والنسك، ويكون هذا كمثال فإنَّ الصلاة أعلى العبادات

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

. . . .

البدنية، والذبح أعلى العبادات المالية؛ لأنَّه على سبيل التعظيم فلا يقع إلا قربة، هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة.

ويحتاج إلى مناقشة في مسألة أنَّ القربان أعلى أنواع العبادات المالية، فإنَّ الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية.

وهناك رأي ثالث يقول: إنَّ الصلاة هي الصلاة المعروفة شرعًا، والنسك: العبادة مطلقًا، ويكون ذكر الصلاة بخصوصها مع دخولها في مطلق العبادة من عطف العام على الخاص.

حتى ولو حُملت على الحقيقة الشرعية، وأنَّها خاصة بالصلاة والذبح، فإنَّ غيرها مثلها، ويكون هذا من باب التنبيه بالمثال.

قوله: ﴿**محياي ومماتي**﴾ أي حياتي وموتي.

أي التصرف فيّ، وتدبير أموري حيًّا وميتًا لله.

وفي قوله: ﴿**صلاتي ونسكي**﴾ إثبات توحيد العبادة.

وفي قوله «محياي ومماتي» إثبات توحيد الربوبية.

قوله: ﴿**لله**﴾ خبر إنَّ.

والله: علم على الذات الإلـٰهية، وأصله الإلـٰه فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال تخفيفًا.

وهو بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول، مثل غراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش.

قوله: ﴿**رب العالمين**﴾ المراد بالعالمين: ما سوى الله، وسُمّي بذلك، لأنَّه علم على خالقه.

قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يعصى الإله؟ أم كيف يجحده الجاحد

. . . .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهي تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين في وقت معين مثل قوله تعالى: ﴿**وأني فضلتكم على العالمين**﴾[1].

والربّ هنا: المالك المتصرّف، وهذه ربوبيّة مطلقة.

قوله: ﴿**لا شريك له**﴾ الجملة حاليّة من قوله: «لله» أي حال كونه لا شريك له، والله سبحانه لا شريك له في عبادته، ولا في ربوبيته، ولا أسمائه، وصفاته، ولهذا قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[2].

وقد ضلّ من زعم أنَّ لله شركاء كمن عبد الأصنام، أو عيسى بن مريم، عليه السلام، وكذلك بعض غلاة الشعراء الذين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق كقول بعضهم يخاطب ممدوحًا له:

فكن كمن شئت يا من لا شبيه له وكيف شئت فما خلق يدانيك

وكقول البوصيري في قصيدته في مدح الرسول ﷺ:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن يوم المعاد آخذاً بيدي فضلًا وإلّا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا من أعظم الشرك، لأنَّه جعل الدنيا والآخرة من الرسول، ومقتضاه أن الله جل ذكره ليس له فيهما شيء.

وقال: إنَّ «من علومك علم اللوح والقلم» من علومه، وليس كل العلوم فما بقي لله علم، ولا تدبير، والعياذ بالله.

قوله: ﴿**بذلك**﴾ الجار والمجرور متعلق بأمرت فيكون دالًّا على الحصر

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

. . . .

والتخصيص، وإنّما خصَّ بذلك، لأنَّه أعظم المأمورات وهو الإخلاص لله تعالى. ونفى الشرك، فكأنّه ما أمر إلّا بهذا، ومعلوم أنَّ من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله سبحانه وتعالى. في جميع الأمور.

قوله: ﴿أمرت﴾ إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا فمن المعلوم أنَّ الآمر هو الله تعالى.

قوله: ﴿وأنا أول المسلمين﴾ يحتمل أنَّ المراد الأوليّة الزمنيّة فيتعين أن يكون المراد أنا أول المسلمين من هذه الأمة؛ لأنَّه سبقه في الزمن من أسلموا.

ويحتمل أنَّ المراد الأوليّة المعنويّة فإنَّ أعظم الناس إسلامًا وأتمهم انقيادًا هو الرسول، ﷺ، فتكون الأوليّة أوليّة مطلقة.

ومثل هذا التعبير يقع كثيرًا أن تقع الأولية أوليّة معنوية مثل أن تقول: أنا أول من يُصدِّق بهذا الشيء، وإن كان غيرك قد صدّق قبلك، لكن تريد أن لا يكون عندك إنكار أبدًا، ومثل قوله ﷺ: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم حينما قال: «ربّ أرني كيف تحيي الموتى»**»[1] فليس معناه أنَّ إبراهيم شاك، لكن إن قدَّر أن يحصل شك فنحن أولى بالشك منه، وإلّا فلسنا نحن شاكين، وكذلك إبراهيم ليس شاكًا.

قوله: ﴿المسلمين﴾ الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، لأنَّ المراد به الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا، ويدل قوله تعالى: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾[2] وهذا إسلام الباطن.

لأنَّ «وهو محسن» هذا العمل للظاهر، قوله: ﴿**أسلم وجهه**﴾ هذا

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن/ باب قول الله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ ٣/ ٢٣٠، ومسلم كتاب الإيمان/ باب زيادة طمأنينة القلب ١/ ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

وقوله: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحَرْ**﴾[1].

للباطن، وكذا قوله تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه**﴾[2].
وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام، قال تعالى: ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾[3].

ومتى وجد الإيمان حقًّا لزم من وجوده الإسلام.

وأمّا إذا قرنا جميعًا صار الإسلام في الظاهر، والإيمان في الباطن، مثل حديث جبريل، وفيه: أخبرني عن الإسلام، فأخبره عن أعمال ظاهرة، وأخبرني عن الإيمان، فأخبره عن أعمال باطنة[4].

وكذا قوله تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾[5].

الشاهد من هذه الآية التي ذكرها المؤلف: أنَّ الذبح لابد أن يكون خالصًا لله.

قوله: ﴿**فصلِّ**﴾. الفاء للسببيّة عاطفة على قوله: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾[6]. أي بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكرًا لله تعالى على هذه النعمة.

والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعًا.

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٤) من حديث عمر، رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٦) سورة الكوثر، الآية: ١.

. . . .

وقولـه: ﴿**وانحـر**﴾ المراد بالنحر: الذبح أي اجعل نحرك لله كما أنَّ صلاتك له فأفادت هذه الآية الكريمة أنَّ النحر من العبادة، ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة.

وقوله: ﴿**وانحر**﴾ مطلق فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته للنحر وهي ثلاثة أشياء: الأضاحي، والهدايا، والعقائق، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها.

أمّـا الهـدايا فمنها واجب، ومنها مستحب، فالواجب كما في التمتع: ﴿**فمن تمتـع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي**﴾[1]، وكما في المحصر: ﴿**فـإن أحصرتم فما استيسر من الهدي**﴾[2] وكما في حلق الرأس ﴿**ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾[3]. هذا إن صحّ أن نقول إنَّها هدي، ولكن الأولى أن نسميها كما سمَّاها الله عز وجل، لأنَّها بمنزلة الكفارة.

وأما الأضاحي فاختلف العلماء فيها: فمنهم من قال: إنَّها واجبة.

ومنهم من قال: إنَّها مستحبَّة.

وأكثر أهل العلم على أنها مستحبة، وأنه يكره للقادر تركها.

ومذهب أبي حنيفة رحمه الله أنَّها واجبة على القادر، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية.

والأضحية ليست عن الأموات كما يفهمه العوام بل هي للأحياء، وأمَّا الأموات فليس من المشروع أن يُضحَّى لهم استقلالاً، إلا إن أوصوا به فعلى ما أوصوا به، لأنَّ ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله ﷺ بأربعِ كلماتٍ: لَعَنَ الله مَن ذبحَ لغير الله، لَعَنَ الله مَن لَعَنَ والِدَيْه، لَعَنَ الله مَن آوى مُحْدِثًا، لَعَنَ الله مَن غيَّرَ مَنارَ الأرض». رواه مسلم[1].

وأمـا العقيقة: وهي التي تذبح عن المولود في يوم سابعه إن كان ذكرًا فاثنتان، وإن كان أنثى فواحدة، وتجزىء الواحدة مع الإعسار في الذكور.

وهي سنة عند أكثر أهل العلم، وقال بعض أهل العلم: إنَّها واجبة لأنَّ النبي، ﷺ، قال: «**كل غلام مرتهن بعقيقته**»[2].

قوله: «كلمات» جمع كلمة، والكلمة في اصطلاح النحويين: القول المفرد.

أمَّا باعتبار اللغة: فهي لكل ما أفاد، قال الرسول ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»**»[3]. وقال تعالى: ﴿**كلَّا إنها كلمة هو قائلها**﴾، وهي قوله: ﴿**رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت**﴾[4].

قال شيخ الإسلام: لا تطلق الكلمة في اللغة العربية إلا على الجملة المفيدة، وهنا بأربع كلمات كل كلمة جملة مفيدة.

قوله: «**لعن الله**» اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا قيل:

---

(١) في كتاب الأضاحي/ باب تحريم الذبح لغير الله ٣/١٥٦٧.

(٢) من حديث سمرة بن جندب رواه أحمد في المسند ٥/٧، ٨، ١٢، ١٧، ٢٢، وأبو داود، كتاب الأضاحي/ باب في العقيقة ٣/٢٥٩ والترمذي، الأضحية/ باب في العقيقة ٥/٢٣٧ وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي، كتاب العقيقة/ باب متى يعق؟ رقم ٤٢٢٥، وابن ماجه، كتاب الذبائح/ باب في العقيقة ٢/١٠٥٧، والدارمي، كتاب الأضاحي/ باب السنة في العقيقة ٢/٨١.

(٣) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ٤/١٨٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآيات: ٩٩ ـ ١٠٠.

. . . .

لعنه الله فالمعنى : طرده وأبعده عن رحمته ، وإذا قيل : اللهم العن فلانًا فالمعنى أبعده عن رحمتك ، واطرده عنها .

قولـه : «**من ذبـح لغـير الله**» عام يشمـل من ذبح بعيرًا ، أو بقرة ، أو دجاجة ، أو غيرها .

قوله : «**لغير الله**» يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي ، أو ملك ، أو جنيّ ، أو غيرهم .

وقوله : «**لعن**» يحتمل أن تكون الجملة خبرية ، وأنَّ الرسول ، ﷺ ، يخبر أنَّ الله لعن من ذبح لغير الله .

ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر ، أي : اللهم العن من ذبح لغير الله ، والخبر أبلغ ، لأنَّ الدعاء قد يُستجاب ، وقد لا يستجاب .

قوله : «**والديه**» يشمل الأب والأم ، ومن فوقهما ، لأنَّ الجد أب كما أنَّ أولاد الابن ، والبنت أبناء .

والمسألة هنا ليست مالية ، بل هي من الحقوق ، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى ، لأنَّه أولى بالبر .

قولـه : «**من لعن والـديه**» أي : سبّهما وشتمهما ، فاللعن من الإنسان السب والشتم ، فإذا سببت إنسانًا ، أو شتمته فهذا لعنه ؛ لأنَّ النبي ، ﷺ ، قيل له : كيف يلعن الرجل والديه قال : «**يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه**»[1] .

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة وهي : أنَّ السبب بمنزلة المباشرة .

والفرق بين هذا والذي قبله : أنَّ حق الوالدين بعد حق الله كما قال تعالى :

---

(١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رواه البخاري ، كتاب الأدب/ باب لا يسب الرجل والديه ٤/٨٦ ، ومسلم ، كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر ١/٩٢ .

. . . .

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾[1] . وقوله تعالى: **﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا﴾**[2] فلهذا لما ذكر النبي، ﷺ، تضييع حق الله والكفر به ذكر تضييع حق الوالدين لأنَّ حقهما بعد حق الله.

قوله: «**من آوى محدثًا**» المحدث: يشمل الإحداث في الدين كالبدع وغيرها، كالجهميَّة، والمعتزلة، وغيرهم.

ويشمل الإحداث في الأمر أي في شؤون الأمة كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثًا فهو ملعون، وكذا من ناصرهم؛ لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه فمن ناصره فهو أشد وأعظم.

والمحدث أشد منه لأنَّه إذا كان إيواؤه سبباً للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم.

ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: «**إيَّاكم ومحدثات الأمور فإنَّ كل بدعة ضلالة**»[3] . وظاهر الحديث: ولو كان أمرًا يسيرًا.

قوله: «**منار الأرض**» أي علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران فمن غيّرها ظلمًا فهو ملعون، وما أكثر الذين يغيِّرون منار الأرض لا سيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أنَّ الرسول، ﷺ، يقول: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلمًا طوقه من سبع أراضين**»[4] ، فالأمر عظيم مع أنَّ هذا الذي يقتطع من الأرض، ويغيّر المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يُسلّط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

فالحاصل: أنَّ هذا دليل على أنَّ تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه الله تعالى بالشرك، وبالعقوق، وبالإحداث مما يدل على أنَّ أمره

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سبق ص (٢١١).

(٤) سبق ص (٨٠).

وعن طارق بن شِهـابٍ أن رسول الله ﷺ قال: «**دخلَ الجنة رجُلٌ في ذُبابٍ**»، قالوا: وكيفَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**مَرَّ رجُلان على قومٍ لهم صنمٌ لا يَجُوزُهُ أحدٌ حتى يُقَرِّبَ له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيءٌ أُقَرِّبه، قالوا له: قرِّب ولو ذُبابًا، فقرب ذبابا فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كُنْتُ لأُقرِّبَ لأحدٍ شيئًا دون الله عزّ وجلّ، فضربوا عنقه، فدخل الجنة**».
رواه أحمد(1).

عظيم، وأنَّه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله سبحانه وتعالى حتى لا يقع فيه.

قوله: «عن طارق بن شهاب» في الحديث علتان:

الأولى: أنّ طارق بن شهاب اتفق على أنه لم يسمع من النبي، ﷺ، واختلفوا في قصته فمنهم من أقرَّها، ومنهم من نفاها.

وإذا قلنا: إنَّه صحابي فلا يضر عدم سماعه من النبي، ﷺ، لأنَّ مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي فإنَّه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش وهو من المدلسين، وهذه آفة في الحديث، فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين.

قوله: «**في ذباب**» في: للسببية، وليست للظرفية أي بسبب ذباب.

قولـه: «**فـدخل النار**» أي: وإن ذبح شيئًا لا يؤكل، لكن لما نوى به التقرّب به إلى هذا الصنم صار مشركًا فدخل النار.

---

(1) رواه الإمـام أحمد في الزهد ص (١٥، ١٦) وأبو نعيم في الحلية ٢٠٣/١ عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفًا بسند صحيح، انظر النهج السديد ص (٦٨).

فيه مسائل : الأولى: تفسير ﴿**قل إن صلاتي ونسكي**﴾. **الثانية**: تفسير ﴿**فصل لربك وانحر**﴾. **الثالثة**: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله. **الرابعة**: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك. **الخامسة**: لعن من آوى محدثًا وهو الرجل يحدث شيئًا يجب فيه حق الله فيلتجيء إلى من يجيره من ذلك.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿**قل إن صلاتي ونسكي**﴾. وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: تفسير ﴿**فصلِّ لربك وانحر**﴾ وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

بدأ به، لأنَّه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد، قال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانًا**﴾[2] وينبغي أن يبدأ بالمناهي وبالعقوبات بالشرك، وعقوبته.

الرابعة: لعن من لعن والديه.

ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبّه وشتمه، لأن الرسول، ﷺ، فسَّره بقوله: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[3].

الخامسة: لعن من آوى محدثًا.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سبق ص (٢٢٣).

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك من الأرض فتغيرها بتقديم أو تأخير. **السابعة**: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم. **الثامنة**: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب.

وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين، والجرائم، فمن آوى محدثًا ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثًا بجريمة فهو داخل في ذلك.

السادسة: لعن من غيّر منار الأرض...

وسواء كانت بينك وبين جارك، أو بينك وبين السوق مثلاً، لأنَّ الحديث عام.

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم: فإذا رأيت من آوى محدثًا فلا تقل لعنك الله، بل قل لعن الله من آوى محدثًا على سبيل العموم، والدليل على ذلك أنَّ النبي، ﷺ، لما صار يلعن أناسًا من المشركين من أهل الجاهلية بقوله: «اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا» نُهي عن ذلك بقوله تعالى: **﴿ليس لك من الأمر شيء، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم فإنَّهم ظالمون﴾**[1]. فالمعينَّ ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب الله عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكأن المؤلف رحمه الله قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن فجاء هذا الحديث لاعنًا للعموم فيبقى الخصوص على أصله لأنَّ المسلم ليس بالطَّعَّان ولا باللعَّان، والرسول، ﷺ، ليس طعّانًا ولا لعّانًا، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلاّ فالحديث لا تفريق فيه.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب:

كأن المؤلف، رحمه الله، يصحح الحديث، ولهذا بنى عليه حكمًا،

---

(١) انظر ص (٢٩٤).

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصًا من شرهم.

والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصًا من شرِّهم:

هذه المسألة ليست مسلّمة، فإن قولهم قرّب ولو ذبابًا يقتضي أنّه فعله قاصدًا التقرّب، أما لو فعله تخلصًا من شرهم فإنّه لا يكفر لعدم قصد التقرّب، ولهذا قال الفقهاء: لو أُكره على طلاق امرأته فطلّق تبعًا لقوله: أي: طلّق ناويًا الطلاق فإنَّ الطلاق يقع، وإن طلّق دفعًا للإكراه لم يقع، وهذا حق لقوله، ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات**»[1].

وظاهر القصة أنَّ الرجل ذبح بنية التقرّب؛ لأنَّ الأصل أن فعلاً بني على طلب أن يكون موافقًا لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف، رحمه الله، أي: أنَّه لو فعله بقصد التخلّص ولم ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر لعموم قوله تعالى: ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا**﴾[2].

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلّصًا مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضًا: أنّه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرّق ويقول: إذا أُكره على القول لم يكفر، وإذا أُكره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث حجيتها،

---

(١) من حديث عمر، رواه البخاري، كتاب بدء الوحي / باب كيف كان بدء الوحي ١/ ١٣، ومسلم، كتاب الإمارة/ باب قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» ٣/ ١٥١٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

وفيها نظر من حيث الدلالة لما سبق أنَّ الفعل المبني على طلب يحال على هذا الطلب.

ولـو فرض أن الرجل تقرَّب بالذباب تخلصًا من شرّهم فإنَّ لدينا نصًّا محكمًا في الموضوع وهو قوله تعالى: ﴿**من كفر بالله**﴾[1] الآية. ولم يقل بالقول، فما دام عندنا نصّ قرآني صريح فإنّه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه فإنّها تحمل على النصّ المحكم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين. . . إلخ.

مسألة: هل الأولى للإنسان أن يصبر إذا أكره على الكفر، ويقتل؟ أو يوافق ظاهرًا ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا يجوز لأنَّه ردة.

ثانيًا: أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، ولكن يقصد التخلص من الإكراه فهذا جائز.

ثالثًا: أن لا يوافق لا ظاهرًا ولا باطنًا ويقتل، وهذا جائز وهو من الصبر.

لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهرًا؟

فيه تفصيل:

إذا كان الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة فإنّ الأولى أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، لا سيّما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس مثل: صاحب المال، أو العلم، وما أشبه ذلك حتى وإن لم يكن فيه مصلحة ففي بقائه على الإسلام

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦

الحادية عشرة: إن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافرًا لم يقل «دخل النار في ذباب».

زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رُخّص له أن يكفر ظاهرًا عند الإكراه، فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهرًا لا باطنًا.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام فإنه يصبر، وقد يجب الصبر، لأنَّه من باب الصبر على الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبي، ﷺ، ما يجدونه من مضايقة المشركين قصّ عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأنّ الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده، بأمشاط الحديد[1] ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبروا على الأذى.

ولو حصل من الصحابة، رضي الله عنهم، في ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمام أحمد، رحمه الله، في المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهرًا لحصل في ذلك مضرّة على الإسلام.

الحادية عشرة: أنَّ الذي دخل النار مسلم؛ لأنَّه لو كان كافرًا لم يقل دخل النار في ذباب.

وهذا صحيح أي: أنَّه كان مسلمًا ثم كفر بتقريبه للصنم، فكان هو السبب في دخوله النار.

و«في» للسببية ونظيره قوله ﷺ: **«دخلت النار امرأة في هرَّة حبستها»**[2].

---

(١) من حديث خباب بن الأرت، رواه البخاري، كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام ٢ / ٥٢٠.

(٢) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الرقاق/ باب الجنة أقرب إلى أحدكم ٤ / ١٨٩.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»[1]. الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأصنام.

ولو كان كافرًا قبل أن يُقرِّب الذباب، لكان دخوله النار لكفره الأول، لا بتقريبه الذباب.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»**.

والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا عُلم أنَّ الجنَّة أقرب إليه من شراك النعل، فإنَّه ينشط على السعي فيقول ليست بعيدة كقوله، ﷺ، لما سئل عما يدخل الجنة، ويباعد عن النار فقال: **«لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه»**[2] والنار إذا قيل له إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشيه لئلا يزلّ فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى عليين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفلِ سافلين.

الثالثة عشرة: معرفة أنَّ عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان:

والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض؛ لأنَّه في هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر فقال: تخلصًا من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل

---

(١) من حديث ابن عمر، رواه البخاري، كتاب بدء الخلق/ باب إذا وقع الذباب ٢/٤٤٨، ومسلم، كتاب السلام/ باب تحريم قتل الهرَّة ٤/١٧٦٠.

(٢) من حديث معاذ، أخرجه الإمام أحمد ٥/٢٣١، رواه الترمذي، الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة ٧/٢٨٠، وقال: «حسن صحيح» والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٨/٣٩٩، وابن ماجه، كتاب الفتن/ باب كف اللسان في الفتنة رقم ٣٩٧٣.

. . . .

بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله، حق بالنسبة إلى أنَّ المدار على القلب.

والحقيقة أنَّ العمل مركب على القلب، والناس يختلفون في أعمال القلوب أكثر من اختلافهم في أعمال الأبدان، والفرقان بينهم قصدًا وذلًّا، أعظم من الفرقان بين أعمالهم البدنية؛ لأنَّ من الناس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذلّ معه، ولا يذعن لكل حق.

وبعضهم يكون عنده ذلّ للحق لكن عنده نقص في القصد فتجد عنده نوعًا من الرياء مثلًا.

فأعمال القلب، وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلى الإنسان أن يخلصها لله.

وأقوال القلب هي: اعتقاداته كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه.

وأعماله هي: تحركاته كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكّل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلى سيرة الرسول، ﷺ، بمعرفة أحواله، وأقواله، وجهاده، ودعوته، هذا مما يعين على جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا.

بـــاب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى ﴿لا تَقُمْ فيه أبدًا﴾. الآية[1].

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون، ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير الله فنفس الفعل لغير الله.

وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنَّه في مكان يذبح فيه لغيره كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه؛ لأنَّه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أن الشيطان أدخل في قلبك نيَّة سيئة فيكون اعتقادك أنَّ الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر[2].

قوله: ﴿لا تقم فيه﴾ ضمير الغيبة يعود إلى مسجد بني على نيَّة فاسدة قال تعالى: **﴿والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله﴾**.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

(٢) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٤٦): «ماأحسن اتباع هذا الباب بالذي قبله، فالذي قبله من المقاصد، وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقرباً إليها وشركاً بالله صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبح المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم، ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم، وهيئاتهم، ولباسهم، وجميع مايختص بهم، إبعاداً للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفاً من التشبه المحذور».

. . . .

فالغرض من اتخاذ هذا المسجد ما يلي:

١ - مضارة مسجد قباء، ولهذا يُسمى مسجد الضرار.

٢ - كفرًا بالله لأنَّه يقرر فيه الكفر، والعياذ بالله، لأنَّ الذين اتخذوه هم المنافقون.

٣ - التفريق بين المؤمنين، فبدلاً من أن يصلي في مسجد قباء صف، أو صفان، يصلي فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في اجتماع المؤمنين.

٤ - إرصادًا لمن حارب الله ورسوله، فيقال إنَّ فيه رجلاً ذهب إلى الشام، وهو فاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول، ﷺ، وأصحابه، قال الله تعالى: ﴿**وليحلفنَّ إن أردنا إلا الحسنى**﴾. فهذه سنة المنافقين الأيمان الكاذبة.

إنْ: نافية بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أي: ما أردنا إلّا الحسنى، والجواب عن هذا اليمين الكاذب: ﴿**والله يشهد إنَّهم لكاذبون**﴾.

ذكر الله الشهادة على كذبهم، لأنَّ ما يسرونه في قلوبهم، ولا يعلم ما في القلوب إلا علّام الغيوب، فكأنَّ هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلى الله أمر مشهود يُرى بالعين كما قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿**والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون**﴾[1].

وقوله: ﴿**لا تقم فيه أبدًا**﴾ لا: ناهية، وتقم: مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه السكون، لكن حذفت الواو، لأنَّه مما سكن آخره، والواو ساكنة.

قوله: ﴿**أبدًا**﴾ إشارة إلى أنَّ هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

(١) سورة المنافقون، الآية: ١.

. . . .

قوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾.

اللام: للابتداء، ومسجد مبتدأ، وخبره أحق أن تقوم فيه، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد، بدليل قوله: ﴿أسس على التقوى﴾[1] أي جعلت التقوى أساسًا له فقام عليه.

وهذه الأحقيّة ليست على بابها، وهو أنَّ اسم التفضيل يدلّ على مفضل، ومفضل عليه اشتراكًا في أصل الوصف؛ لأنَّه هنا لا حق لمسجد الضرار للقيام فيه، وهذا أعني كون الطرف المفضَّل عليه ليس فيه شيء من الأصل الذي وقع فيه التفضيل موجود في القرآن كثيرًا كقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقرًّا وأحسن مقيلاً﴾[2].

قوله: ﴿فيه﴾ أي: في هذا المسجد.

قوله: ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ بخلاف من كان في مسجد الضرار فإنَّهم رجس كما قال الله تعالى: ﴿يحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم إنَّهم رجس﴾[3].

قوله: ﴿يتطهروا﴾ يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل، وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقذار والنجاسات.

قوله: ﴿والله يحب المطّهرين﴾ هذه محبة حقيقية ثابتة لله عز وجل، تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين. وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته، فيفسرونها إمّا بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

وقوله: ﴿المطهرين﴾ أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفيّة معروفة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٥.

وعن ثابت بن الضَّحَّاكِ، رضي الله عنه، قال: «نَذَر رجلٌ أن يَنْحَـرَ إبلاً ببُوانَةَ، فسأل النبي ﷺ، فقال: **«هل كان فيها وَثَنٌ من أوثانِ الجاهليَّة يُعْبَد؟»** قالوا: لا، قال: **«فهل كان فيها عيدٌ**

وجه المناسبة من الآية: أنَّه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضراراً وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين نهى الله رسوله أن يقوم فيه، فدلّ على أنَّ كلَّ مكان يُعصى الله فيه أنَّه لا يقام فيه، فهذا المسجد متَّخذ للصلاة لكنَّه محل معصية فلا تُقام فيه الصلاة.

وكذا لو أراد إنسان أن يذبح فيما يذبح فيه لغير الله كان حرامًا، لأنَّه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأنَّهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس، فهذا باعتبار الزمن والوقت، والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان.

قوله: **«نذر»** النذر في اللغة: الإلزام، والعهد.

واصطلاحًا: إلزام المكلف نفسه لله شيئًا غير واجب.

وقال بعضهم: لا نحتاج أن نقيد بغير واجب، وأنَّه إذا نذر الواجب صار واجبًا من وجهين، من جهة النذر، ومن جهة الشرع.

والنذر في الأصل: أنه مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه، لأنَّ النبي، ﷺ، نهى عنه وقال: **«لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»**[1]. ولأنه إلزام لنفس الإنسان مما جعله الله في حلّ منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان/ باب الوفاء بالنذر ٤/ ٢٧٧، ومسلم كتاب النذر/ باب النهي عن النذر ٣/ ١٢٦٠.

. . . .

ولأنَّ الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيَّما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجده ينذر كأنه يقول إنَّ الله لا ينعم عليه بجلب خير، أو دفع الضرر إلاّ بهذا النذر.

قوله: «**إبلاً**» اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قولـه: «**ببوانة**» الباء بمعنى في وهي للظرفية، والمعنى بمكان يسمى بوانة.

قوله: «**هل كان فيها وثن**» الوثن: كل ما عبد من دون الله من شجر، أو حجر سواء نحت أو لم يُنحت.

والصنم: يختص بما صنعه الآدميّ.

قوله: «**الجاهلية**» نسبة إلى ما كان قبل الرسالة، وسمِّيت بذلك لأنهم كانوا على جهل عظيم.

قوله: «**يعبد**» صفة لقوله: «**وثن**» وهو بيان للواقع، لأنَّ الأوثان هي التي تعبد من دون الله.

قولـه: «**لا**» السائل واحد، لكنَّه لما كان محضوراً، وعنده ناس أجابوا النبي، ﷺ، ولا مانع أن يكون المجيب غير السائل.

قوله: «**عيد**» العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنى الرجوع، أي هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيدًا، وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا. فسأل النبي، ﷺ، عن أمرين: عن الشرك، ووسائله.

فالشرك: هل كان فيها وثن؟

ووسائله: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

من أعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: **«أَوْفِ بِنذرك، فإنه لا وَفاءَ لِنذْرٍ في معصيةِ الله، ولا فيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدم»**. رواه أبو داود، وإسنادُه على شرطِهما[1].

قوله: **«أوف بنذرك»** فعل أمر مبني على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقي، أو المراد به الإباحة؟

الجواب: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يُراد به المعنى الحقيقي فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي.

وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة، لأنَّه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان، إذ إنَّه لا يتعين أي مكان في الأرض، إلا ما تميز بفضل، والمتميز بفضل المساجد الثلاثة، فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر واجب.

وبالنسبة للمكان، فالأمر للإباحة بدليل أنَّه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم لقال: لا توف، فإذا كان المقام يحتمل النهي والترخيص، فالأمر للإباحة.

وقوله: **«أوف بنذرك»** علَّل، ﷺ، فقال: **«فإنَّه لا وفاء لنذر في معصية الله»**.

قوله: **«لا وفاء»** لا نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها.

قوله: **«في معصية الله»** صفة لنذر، أي: لا يمكن أن توفي بنذر بمعصية الله، لأنَّه لا يتقرَّب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأيمان النذور/ باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر ٣/٦٠٧، وسكت عنه، والبيهقي في السنن ١٠/٨٣، والطبراني في الكبير برقم (١٣٤١)، وصححه ابن حجر في التلخيص ٤/١٨٠.

أقسام النذر:

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة لقوله ﷺ: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**[1].

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية لقوله ﷺ: **«ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**[2]. وقوله: **«فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»**.

الثالث: ما يجري مجرى اليمين، وهو نذر المباح مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفّر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسُمِّي بهذا الاسم؛ لأنَّ اللجاج والغضب يحملان عليه غالبًا، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحثّ، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: وإن كان حاصلاً فعلي لله نذر أن أصوم سنة، فالغرض من هذا النذر التكذيب فإذا تبين أنه حاصل: فالناذر مخيَّر بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفِّر كفَّارة يمين، لأنَّه إن صام فقد وفَّى بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفّر كفَّارة يمين.

الخامس: المكروه[3].

مسألة: هل ينعقد نذر المعصية؟

الجواب: نعم ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: **«من نذر أن يعصي الله**

---

(١) (٢) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور/ باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ٤/٢٢٩.

(٣) وذلك كأن ينذر طلاق زوجته، أو يأكل ثوماً أو بصلاً. انظر حاشية ابن قاسم على الروض ٧/٤٩٩.

. . . .

فلا يعصه». ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له لكان لا ينعقد ففي قوله: «فلا يعصه» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

وإذا انعقد هل تلزمه كفَّارة أو لا؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنَّه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله»(١).

وبقوله ﷺ: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» ولم يذكر النبي، ﷺ، كفَّارة، ولو كانت واجبة لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة وهو المشهور من المذهب: لأنَّ الرسول ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارته كفَّارة يمين، وكون الأمر لا يذكر في حديث لا يقتضي عدمه، فعدم الذكر ليس ذكرًا للعدم، نعم لو قال الرسول لا كفارة صار في الحديثين تعارض، وحينئذ نطلب الترجيح، لكن الرسول لم ينف بل سكت، والسكوت لا ينافي المنطوق، فالسكوت وعدم الذكر يكون اعتمادًا على ما تقدم، فإن كان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل فاعتماد عليه لم يقله، لأنَّه ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عند كل عموم، فلو كان يلزم هذا لكانت تطول السنة لكن الرسول، ﷺ، إذا ذكر

---

(١) سبق ص (٢٣٩).

(٢) سبق ص (٢٣٨).

(٣) من حديث عائشة، رواه أحمد ٦/٢٤٧، وأبو داود برقم (٣٢٩٠)، والترمذي برقم (١٥٢٤)، والنسائي برقم (٣٨٣٤) وابن ماجه برقم (٢١٢٥)، والبيهقي ١٠/٦٩، وصححه الطحاوي وابن السكن كما في تلخيص الحبير ٤/١٧٦.

. . . .

حديثًا عامًّا وله ما يخصصه حمل عليه، وإذا سكت عن شيء وقد نطق به في مكان آخر حمل عليه.

وأيضًا من حيث القياس لو أن الإنسان أقسم ليفعلنَّ محرَّمًا وقال: والله لأفعلن هذا الشيء وهو محرم فلا يفعله، ويكفِّر كفَّارة يمين مع أنَّه أقسم على فعل محرَّم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا فكفَّارته كفارة يمين، وهذا القول أصح.

يستفاد من الحديث:

أنَّه لا يُذبح بمكان يذبح فيه لغير الله، وهو ما ساقه المؤلف من أجله والحكمة من ذلك ما يلي:

الأول: أنَّه يؤدي إلى التشبه بالكفار.

الثاني: أنَّه يؤدي إلى الاغترار بهذا الفعل؛ لأنَّ من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظنَّ أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أنَّ هؤلاء المشركين سوف يقوون على فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة قال الله تعالى: ﴿**ولا يطؤون موطئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح**﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

فيه مسائل : الأولى: تفسير قوله : ﴿**لا تقم فيه أبدًا**﴾ . **الثانية**: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة. **الثالثة**: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿**لا تقم فيه أبدًا**﴾.

وقد سبق ذلك، في أول الباب.

الثانية: أنَّ المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة:

أي: لما كانت هذه الأرض مكان شرك حُرّم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة، فإنَّ الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، فلا يكون الإنسان متشبهًا بهذا العمل، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك، لأنَّه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض، ولهذا فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال:

فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل لكنَّ الرسول، ﷺ، بيَّن ذلك بالاستفصال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك:

لأنَّ النبي، ﷺ، استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الخـامسـة: أن تخصيص البقعـة بالنـذر لا بأس به إذا خلا من الموانع. **السادسة**: المنع منه إذا كان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله. **السابعة**: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الجواب: لا يجب إلّا إذا وجد الاحتمال؛ لأنّنا لو استفصلنا في كل مسألة لطال الأمر.

فمثلاً لو حصل سؤال عن مسألة في البيع ثم استفصلنا عن الثمن هل هو معلوم، وعن المثمن هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلّقًا أو غير معلّق؟ لطال الأمر.

أمّا إذا وجد الاحتمال فيجب الاستفصال مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت، وأخ، وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ هل هو شقيق أو لأم؟ فإن كان لأم سقط، وأخذ الباقي العم، وإلّا سقط العم وأخذ الباقي الأخ.

الخامسة: أنَّ تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع:

لقوله: «**أوف بنذرك**» وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة فالواقعة: أن يكون فيها وثن، أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه، فإذا خُشي كان ممنوعًا مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز لكن لو خُشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزيّة كان ممنوعًا.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله:

لقوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟**».

لأن «كان» فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باق، لأنَّه ربما يعاد.

السـابعـة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله:

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بها نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية. **التاسعة**: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده. **العاشرة**: لا نذر في معصية. **الحادية عشرة**: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

لقوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**».

الثامنة: أنَّه لا يجوز الوفاء بها نذر في تلك البقعة، لأنَّه نذر معصية: لقوله: «**فإنَّه لا وفاء لنذر في معصية الله**».

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده: وقد نصَّ شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد فإنَّه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشدّ إثمًا، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية الله: الحديث يقول: «**لا وفاء لنذر**» وبينها فرق:

فإذا كانت العبارة لا نذر في معصية، فالمعنى أن النذر لا ينعقد، وإذا كان لا وفاء فالمعنى أن النذر ينعقد لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا، وبهذا.

لكن: «لا نذر» يحمل على أنَّ المراد لا وفاء لنذر لقوله، ﷺ، في الحديث المتفق عليه: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[1].

فقوله: «**من نذر أن يعصي الله**» دليل على أنَّ النذر ينعقد لكن لا يوفّيه.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك:

مثل: لا نذر في معصية، لقوله: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**».

والمعنى: لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعًا، وما لا يملكه قدرًا.

---

(١) سبق ص (٢٣٩).

باب
من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾(١).

النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان عليّ نذر، أو لهذا القبر عليَّ نذر، أو لجبريل عليَّ نذر، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه، وبين نذر المعصية أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية لله، ولكنه على معصية من معاصيه مثل أن يقول: لله عليَّ نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله، فيكون النذر لله والمنذور معصية، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرَّم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي لأفعلنَّ كذا وكذا، نظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرَّم مثل: والله لأسرقنَّ نظير نذر المعصية، وحكم النذر لغير الله شرك؛ لأنَّه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة فقد صرفها لغير الله فيكون مشركًا(٢).

وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقا، ولا تجب فيه كفارة، بل شرك تجب التوبة منه كالحلف بغير الله، فلا ينعقد وليس فيه كفَّارة.

وأمَّا نذر المعصية فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفَّارة يمين كالحلف بالله على المحرَّم ينعقد وفيه كفارة.

قوله: ﴿يوفون بالنذر﴾.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٧.

(٢) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٥٠): «فإن النذر عبادة مدح الله الموفين، وأمر النبي، ﷺ، بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع، أو أثنى على من قام به أو أمر به فهو عبادة، فإن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة، والنذر من ذلك».

وقوله: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُم مِّنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾.(١)

هذه الآية سيقت لمدح الأبرار ﴿إنَّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا﴾.

ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة، لأنَّ الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة.

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وليوفوا نذورهم﴾(٢) لكان أوضح، لأنَّ قوله: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة، لأنَّ العبادة ما أمر به شرعًا.

وجه استدلال المؤلف بالآية على أنَّ النذر لغير الله من الشرك: أنَّ الله تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سببًا يدخلون به الجنة إلّا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك.

قوله: «**وما أنفقتم**» ما: شرطية، وأنفقتم: فعل الشرط، وجوابه: فإن الله يعلمه.

قوله: «**من نفقة**» بيان «لما» في قوله: «ما أنفقتم». والنفقة: بذل المال، وقد يكون في الخير، وقد يكون في غيره.

قوله: «**أو نذرتم**» معطوف على قوله: «**وما أنفقتم**».

قوله: «**فإنَّ الله يعلمه**» تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء، إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلّا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدلّ على أنَّه من العبادة التي يُجازى الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٠.

وفي الصحيح عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن نَذرَ أن يُطِيعَ الله فليُطعْهُ، ومَنْ نَذرَ أن يَعصيَ الله فَلا يَعْصِه**»[1].

قوله: «**وفي الصحيح**»

تنبيه: المؤلف ليس له اصطلاح معيّن.

فقد يراد به صحيح البخاري، وقد يراد به صحيح مسلم، وقد يراد به الحديث الصحيح سواء في البخاري أو مسلم، أو غيرهما. وهذا يرجع إلى تتبع الحديث أين يوجد؟

قولـه: «**مَنْ نذر**» شرطية تعم الكافر، فالكافر إن وفّى نذره حال كفره برأت ذمته، وإلا وجب عليه أداؤه بعد إسلامه فهذا عمر بن الخطاب نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام وهو في الجاهلية[2].

وهل يشمل الصغير والكبير؟

قال بعض العلماء: يشمله فينعقد النذر منه.

وقيل: لا يشمله لأنَّ الصغير ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام، وبناء على هذا يكون خروج الصغير من هذا العموم لأنَّه ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام.

قوله: «**أن يطيع الله**».

الطاعة: هي موافقة الأمر، أي: أن توافق الله فيما يريد منك إن أمرك، فالـطاعـة فعل الأمر، وإن نهاك فالطاعة ترك النهي، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة.

أمَّـا إذا قيل: طاعة ومعصية، فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهي.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور/ باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ٤/٢٢٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف/ باب الاعتكاف ليلاً ٢/٦٦، ومسلم، كتاب الأيمان/ باب نذر الكافر ٣/١٢٧٧.

. . . .

قوله: «**فليطعه**».

الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأنَّ الجملة إنشائيّة طلبيَّة، واللام لام الأمر.

وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لا يجب الوفاء بالنذر إلّا إذا كان جنس الطاعة واجبًا، وعموم الحديثِ يرد عليهم.

وظاهر الحديث أيضًا يشمل من نذر نذرًا مطلقًا ليس له سبب، مثل: «لله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام».

ومن نذر نذرًا معلّقًا مثل: إن نجحت فلله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام.

وظاهر الحديث يعم هذا، وهذا، ومن فرّق بينهما فليس بجيد؛ لأنَّ الحديث عام.

واعلم أنَّ النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنَّما يستخرج به من البخيل، ولهذا ينهى عنه، وبعض العلماء يحرِّمه.

وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية أن عقد النذر حرام، لأنَّك تلزم نفسك بأمر أنت في عافية منه، وكم من إنسان نذر، وأخيرًا ندم، وربما لم يفعل.

ويدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنَّ**﴾[1] فهذا قسم ملتزم للنذر لأنَّه مؤكَّد بالقسم قال الله تعالى: ﴿**قل لا تقسموا طاعة معروفة**﴾[2] أي: بدون يمين، والإنسان الذي

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٣. (٢) سورة النور، الآية: ٥٣.

. . . .

لا يفعل الطاعة إلاّ بنذر، وحلف على نفسه، معناه: أنَّ الطاعة ثقيلة عليه.

والنذر المعلّق مثل قوله تعالى: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنَّ ولنكوننَّ من الصالحين**﴾ هذا نذر معلّق على عطاء الله ﴿**فلما آتاهم من فضله بخلوا به، وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون**﴾[1] وهذا أمر عظيم.

ومما يدل على القول بالتحريم أيضًا خصوصًا النذر المعلّق: أن الناذر كأنَّه غير واثق بالله عز وجل فكأنَّه يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلاّ إذا أعطى مقابله، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفي هذا سوء ظن بالله عز وجل.

والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: إننا لا نقول: إنَّ الوفاء هو المحرَّم حتى يقال: إننا هدمنا النص، إنَّما نقول: المحرَّم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه، فالعقد ابتدائي، والوفاء في ثاني الحال تنفيذ لما فعلت.

قوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**».

لا: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حرامًا، فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة فالوفاء بالنذر مكروه؛ لأنَّ المعصية الوقوع فيما نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٥.

فيه مسائل : الأولى : وجوب الوفاء بالنذر. **الثانية** : إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك. **الثالثة** : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

فيه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر:

وهذا ليس على إطلاقه، بل في نذر الطاعة فقط لقوله: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[1] واستدلال المؤلف على وجوب الوفاء بالنذر مطلقا بقوله ﷺ : «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**» ليس بسديد؛ لأنَّك ذكرت حكمًا مطلقًا أو عامًّا، ثم استدللت له بدليل خاص، وذكر الحكم عامًّا والاستدلال عليه بدليل خاص ليس بسليم عند أهل العلم، لكن لو ذكرت خاصًّا واستدللت له بنص أعم فهذا سديد؛ لأنَّ الخاص يدخل في العموم، لكن العموم لا يؤخذ من التخصيص، ولهذا دائمًا في باب المناظرات والمناقشات بين أهل العلم يقولون في رد حجة الغير الدليل أخصّ من الدعوى، أو أخص من المدعى، فهم يقصدون أن الإنسان يذكر مسألة عامة ويستدل بدليل خاص.

وكلام المؤلف، رحمه الله، من العام المعتمد على دليل خاص، وهذا ليس بسديد، ولهذا قلنا: يجب أن يقيّد فيقال: وجوب الوفاء بنذر الطاعة، ولعل هذا مراده لقوله في الثالثة: إنَّ نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة فصرفه إلى غير الله شرك:

وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأيّ فعل كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

الثالثة : أنَّ نذر المعصية لا يجوز الوفاء به:

لقوله ﷺ : «**من نذر أن يعصي الله فلا يعصه**».

---

(١) سبق ص (٢٣٨).

باب
من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كان رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[1].

قوله: «**من الشرك**» من: للتبعيض.

وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنَّه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه فإنَّه جائز كالاستعانة.

قوله: «**وأنَّه كان رجال من الإنس**».

الواو: حرف عطف، و«أن» فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله: ﴿**أنه استمع نفر من الجن**﴾.

قال ابن مالك:

وهمز إنَّ افتح لسد مصدر مسدها، وفي سوى ذاك اكسر

فيؤولُ بمصدر أي: قل أوحى إلي استماع نفر.

قوله: «**من الإنس**» صفة لرجال، لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها.

قوله: «**يعوذون**» الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فأعاذ مما يُخاف، ولاذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه، ولا يصلح إلا لله:

يا من ألوذ به فيما أأمله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

قوله: «**يعوذون برجال من الجن**» أي: يلتجئون إليهم مما يحاذرونه،

---

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

وعن خَوْلَةَ بنتِ حكيم قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فقال: أعوذ بكلمات الله

يظنون أنَّهم يعيذونهم، ولكن زادوهم رهقًا، أي: خوفًا وذعرًا، وكانت العرب في الجاهليّة إذا نزلوا في وادٍ نادوا بأعلى أصواتهم: أعوذ بسيّد هذا الوادي من سُفهاء قومه.

قوله: «رهقًا» أشد من مجرد الذعر والخوف، فكأنَّهم مع ذعرهم وخوفهم، أرهقهم وأضعفهم شيء، فصار الذعر والرهق يصل إلى الأبدان.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ الاستعاذة بالجنّ حرام؛ لأنهم يريدون الأمن، لكن زادوهم خوفًا وذعرًا فعوقبوا بنقيض قصدهم.

وقيل: العكس: إنَّ الإنس زادوا الجن رهقًا أي استكبارًا، وعتوًّا، ولكن الصحيح أنَّ الفاعل الجن كما سبق.

قوله: «**برجال من الجن**» يستفاد منه أنَّ للجن رجالاً، ولهم إناث، وربما يجامع الرجل من الجن الأنثى من بني آدم، وكذلك العكس الرجل من بني آدم قد يجامع الأنثى من الجن.

والفقهاء يقولون في باب الغسل: لو قالت: إنَّ بها جنيًّا يجامعها كالرجل وجب عليها الغسل، وأمَّا أنَّ الرجل يجامع الأنثى من الجن، فقد قيل ذلك لكن لم أره في كلام أهل العلم، وإنما أساطير تقال، والله أعلم.

إنما يكفينا أن نصدّق بوجودهم وأنَّهم مكلّفون، وبأنَّ منهم الصالحين، ومنهم دون ذلك، وبأنَّ منهم المسلمين والقاسطين وبأنَّ منهم رجالاً ونساءً.

وجه الاستشهاد بالآية: ذم المستعيذين بغير الله، والمستعيذ بالشيء لا شكّ أنَّه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهذا نوع من الشرك.

قوله: «**كلمات**» من جموع القلة، لأنَّه جمع مؤنث، وجموع القلة من واحد

إلى عشرة، والكثرة: ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلى ما لا نهاية له، فيكون جمع القلة والكثرة يتفقان في الابتداء، ويختلفان في الانتهاء.

قال ابن مالك:

أفـعـلَةٌ أفْـعُـلُ ثم فِعْـلَهْ ثُمَّـت أفـعـالٌ جُموعُ قِلَّهْ

وبَعضُ ذي بِكَثْـرةٍ وضْعًا يفي كَأَرْجُلٍ والعكس جاءَ كالصُّغي

والراجح: أن جموع القلة تدلّ على الكثرة بالقليل.

و«كلمات» جمع قلة دلّ على الكثرة لوجود القرينة، قال تعالى: **﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددًا﴾**[1].

وأبلغ من هذا قوله تعالى: **﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾**[2].

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونيّة والشرعية.

وقوله: «**من نزل منزلاً**» يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: «**أعوذ**» بمعنى التجيء وأعتصم.

قوله: «**التامات**» تمام الكلام بأمرين:

١ ـ الصدق بالأخبار.

٢ ـ العدل في الأحكام.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

لم يَضُرَّهُ شيءٌ حتى يَرْحَلَ من منزله ذلك». رواه مسلم[1].

قال الله تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربك صدقًا وعدلاً﴾[2].

قوله: «من شر ما خلق» أي: من شر الذي خلق؛ لأنَّ الله خلق كلَّ شيء الخير والشر، ولكن الشرَّ لا ينسب إليه، لأنَّه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيرًا، فكان خيرا.

وعلى هذا نقول: الشرّ ليس في فعل الله، بل في مفعولاته أي: مخلوقاته.

وعلى هذا تكون «ما» موصولة لا غير، أي من شر الذي خلق، لأنَّك لو أولتها إلى المصدرية وقلت: من شرّ خلقك لكان الخلق هنا مصدرًا يجوز أن يُراد به الفعل، ويجوز أيضًا المفعول، لكن لو جعلتها اسمًا موصولاً تعيّن أن يكون المراد بها المفعول وهو المخلوق.

وليس كل ما خلق الله فيه شر لكن من شره إن كان فيه شر؛ لأنَّ مخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

١ - شر محض كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهم الله من أجلها فهي خير.

٢ - خير محض كالجنة والرسل.

٣ - فيه شر وخير كعامة المخلوقات.

وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر.

قوله: «لم يضره شيء» نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم لا من شياطين الإنس ولا من الجن، لا من الظاهر ولا من الخفي، حتى يرتحل من منزله.

لأنَّ هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره، لأنَّه حق وصدق، لكن إن

---

(١) في كتاب الذكر والدعاء/ باب في التعوذ من سوء القضاء ٤/ ٢٠٨٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

. . . .

تخلف هذا المخبر فهو لوجود مانع يمنع من حصول أثر ذلك الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي، ﷺ، من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب، فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء[1]، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصورًا في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه التسمية عند الجماع، فإنَّها تمنع ضرر الشيطان للولد[2]، فقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب.

قال القرطبي: وقد جرّبت ذلك حتى إني نسيت ذات يوم فدخلت منزلي، ولم أقل ذلك فلدغتني عقرب.

الشاهد من الحديث قوله: «**أعوذ بكلمات الله**».

والمؤلف يقول في الترجمة الاستعاذة بغير الله، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله فلماذا؟

أجيب: أنَّ كلمات الله من صفاته، ولهذا استدلّ العلماء بهذا الحديث على أنَّ كلام الله من صفاته غير مخلوق، لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي، ﷺ، إلى الاستعاذة بها.

ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله أي: أو صفة من صفاته.

---

(١) سبق ص (٩٣).

(٢) من حديث ابن عباس رواه البخاري، كتاب النكاح/ باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله ٣/٣٧٨، ومسلم، كتاب النكاح/ باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع ٢/١٠٥٨.

. . . .

وفي الحديث: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»[1] وهنا استعاذ بعزة الله، ولم يستعذ بالله، والعزَّة من صفات الله، وهي ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم بالله، وبصفاته، لأنَّها غير مخلوقة.

أمَّا القسم بالآيات، فإنْ أراد الآيات الشرعية فجائز، وإن أراد الآيات الكونيَّة فغير جائز.

بقينا في الاستعاذة بالمخلوق:

ففيها تفصيل: فإن كان المخلوق لا يقدر عليه فهي من الشرك، كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة وهذا ليس على إطلاقه بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلّا الله، لأنَّه لا يعصمك من الشرّ الذي لا يقدر عليه إلّا الله، إلا الله.

ومن ذلك أيضًا الاستعاذة بأصحاب القبور فإنَّهم لا ينفعون ولا يضرّون.

أمّا الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»، وهو مقتضى الأحاديث الواردة في صحيح مسلم لما ذكر النبي، ﷺ، الفتن قال: «**فمن وجد من ذلك ملجأً، فليعذ به**»[2].

وكذلك قصة الرجل الذي عاذ بأم سلمة[3]، والمرأة التي عاذت بالنبي،

---

(١) من حديث عثمان بن أبي العاص، رواه مسلم، كتاب السلام/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم ٤/١٧٢٨.

(٢) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب المناقب/ باب علامات النبوة ٢/٥٢٠. ومسلم، كتاب الفتن/ باب نزول الفتن ٤/٢٢١٢.

(٣) من حديث جابر رواه مسلم، كتاب الحدود/ باب حد السرقة ٣/١٦٨٩.

. . . .

= ﷺ وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة[1]، وما أشبه ذلك.

وهـذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطّاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم فلا شيء فيه.

لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شكّ أنَّه من الشرِّك، فإذا علّقت قلبك، ورجاءك، وخوفك، وجميع أمورك بشخص معينّ، وجعلته ملجأً فهذا شرك، لأنَّ هذا لا يكون إلاّ لله.

وعـلى هذا فكـلام الشيخ، رحمه الله، في قوله: إنَّ الأئمة لا يجوِّزون الاستعـاذة بمخلوق مقيَّد بما لا يقدر عليه إلاّ الله، ولولا أنَّ النصوص وردت به لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقًا.

---

(١) من حديث أم سلمة، رواه مسلم، كتاب الفتن/ باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت ٤/٢٢٠٨.

فيه مسائل : الأولى: تفسير آية الجن. **الثانية**: كونه من الشرك. **الثالثة**: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. **الرابعة**: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره. **الخامسة**: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك.

فيه المسائل :

الأولى: تفسير آية الجن، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: كونه من الشرك: أي الاستعاذة بغير الله.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأنَّ العلماء يستدلّون به على أنَّ كلمات الله غير مخلوقة، لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق شرك.

وجه الاستشهاد: أنَّ الاستعاذة بكلمات الله لا تخرج عن كونها استعاذة بالله، لأنَّها صفة من صفاته.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره: أي: فائدته، وهي أنَّه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المنزل.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كفّ شرّ أو جلب نفع لا يدل على أنَّه ليس من الشرك.

ومعنى كلامه: أنَّه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة، فلا يلزم من حصول النفع أن ينتفي الشرك، فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن، فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أنَّ فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً، وقصورًا، وهذا شرك مع أنَّ فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم، لأجل العطاء،

. . . .

فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين.

قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة وهي: أن الشّرع لا يبطل أمرًا من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه، ففي الجاهليّة كانوا يستعيذون بالجنّ، فأبدل بهذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق.

وهذه الطريقة هي الطريقة السليمة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية أنّه إذا سدّ عن الناس باب الشرّ وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول حرام ويسكت، بل يقول هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة في القرآن، والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا، وقولوا انظرنا**﴾[1].

ومن السنة قوله، ﷺ، لمن نهاه عن بيع الصّاع من التمر الطيّب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: «**بع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيبًا**»[2].

فلما منعه من المحذور فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

(٢) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، رواه البخاري، كتاب البيوع / باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه ٢/١١٣، ومسلم، كتاب المساقاة/ باب بيع الطعام مثلاً بمثل ٣/١٢١٥.



بــاب
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

قوله: «**من الشرك**» من للتبعيض، فيدلّ على أنَّ الشرك ليس مختصًا بهذا الأمر.

والاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدّة، ومنه قول العامّة: عن الاستغاثة استغياثة، فيأتون بياء أيضًا.

وكلام المؤلف، رحمه الله، ليس على إطلاقه، لأنَّ طلب الاستغاثة ممن يقدر على إزالة الشدة ليس من الشرك قال الله تعالى: ﴿**فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه**﴾[1].

ولكن إذا كان لا يقدر عليه إلاّ الله فهو شرك.

وإذا طلبت من أحد الغوث، وهو قادر عليه فإنّه يجب عليك تصحيحًا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرّد سبب، وأنّه لا تأثير له مباشر في إزالة الغوث؛ لأنَّك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد.

قوله: «**أو يدعو غيره**» الدعاء من العبادة قال الله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾[2] عبادتي أي: دعائي.

وقال، ﷺ: «**إنَّ الدعاء هو العبادة**»[3].

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥. (٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) رواه أحمد في المسند ٤/٢٦٧، والترمذي، الدعوات/ باب الدعاء مخ العبادة ٩/٩٢ وقال: «حديث حسن صحيح» وأبو داود، كتاب الصلاة/ باب الدعاء ٢/١٦١، وابن ماجه، كتاب الدعاء/ باب فضل الدعاء ٢/١٢٥٨، والحاكم ١/٤٩٠ وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في الصغير ٢/٩٧، وقال ابن حجر في الفتح ١/٤٩: «إسناده جيد».

. . . .

والدعاء ينقسم إلى قسمين:

١ - ما يقع عبادة، وهذا صرفه لغير الله شرك، وهو المقرون بالرّهبة والرغبة والحب، والتضرّع.

٢ - ما لا يقع عبادة فهذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق قال النبي ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»(١). وقال: «**إذا دعاك فأجبه**»(٢).

قوله: «**أن يستغيث**» أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ، وخبرها من الشرك، والتقدير: من الشرك الاستغاثة بغير الله.

والمبتدأ يكون صريحًا، ومؤولاً.

فالمبتدأ الصريح مثل: زيد قائم، والمؤول مثل: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾(٣).

وقوله: «**باب من الشرك أن يستغيث بغير الله**» هذا ليس على إطلاقه ولكن يجب أن يقيّد فيما لا يقدر عليه المستغاث به إمّا لكونه ميّتًا، أو لكونه غائبًا، أو لكون الأمر مما لا يقدر عليه إلا الله، فأنت إذا استغثت بحي لإنزال المطر فهو شرك، وإن استغثت بميّت ليدافع عنك فهو شرك.

قوله: «**أو يدعو غيره**» أي من الشرك أيضًا أن يدعو غير الله؛ لأنَّ الدعاء عبادة لا يكون إلا مع محبة وتعظيم وافتقار وتذلّل، واعتقاد أن المدعو قادر ولهذا جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «**إنَّ الدعاء هو العبادة**»(٤). وفي القرآن قال الله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنَّ الذين يستكبرون عن**

---

(١) ص (١١٧).
(٢) سبق ص (١٥٤).
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.
(٤) سبق ص (٢٦١).

وقول الله تعالى: ﴿ولا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُكَ ولا يَضُرُّك فإنْ فَعَلْتَ فإنَّك إذًا مِن الظَّالمين﴾[1].

عبادتي﴾[2] ولم يقل يستكبرون عن دعائي، بل قال عن عبادتي، وهذا دليل على أن الدعاء عبادة.

وقوله: «أو يدعو» هذا من باب عطف العام على الخاص، لأنَّ الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط، والدعاء عام فقد تدعو بجلب منفعةٍ، أو بدفع مضرة.

وقوله: «أو يدعو غيره» هل نقول في الدعاء كما قلنا في الاستغاثة أو لا؟.

الجواب: لا نقول ذلك، لأنَّ الدعاء كله عبادة، فالدعاء معنى خاص في الهيئة والكيفية، ويكون معه حب المدعو وتعظيمه، والرغبة إليه، وإظاهر الافتقار، واعتقاد قدرته، وإجابته على الإعطاء بخلاف المستغيث، فقد تستغيث بإنسان بدون أن يكون بقلبك محبة له، وتعظيم.

فإن قيل: هل يجوز أن تقول لشخص أعطني نقوداً أستعين بها على سفري؟

أجيب: بأنه جائز، وهذا من باب الاستعانة، وأنت لا تدعوه راغبًا، وراهبًا كما تدعو الله.

وأما قوله ﷺ: «وإذا دعاك فأجبه»[1] فهذا الدعاء ليس المراد هنا، بل المراد إذا دعاك لوليمة أو نحو ذلك أي طلب حضورك فأجبه، ففرَّق بين الدعاء الذي يقع عبادة، وبين مثل هذه الأمور التي يُقصد بها الاستعانة، ومجرَّد حضور المدعو، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿ولا تدع من دون الله﴾ ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول،

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠. (٣) سبق ص (١٥٤).

. . . .

ﷺ، وسواء كان خاصًّا به، أو عامًّا له ولغيره، فإنَّ بعض العلماء قال: لا يصح أن يكون للرسول ﷺ لأنَّ الرسول، ﷺ، يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جدًّا، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنَّه إمّا خاص بالرسول، ﷺ، والحكم له ولغيره، وإمّا كل من يصح خطابه، ويدخل فيه الرسول ﷺ.

وكونه يوجّه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكنًا منه، قال تعالى: ﴿**ولقد أوحي إليك، وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عملك، ولتكوننَّ من الخاسرين**﴾[1]. فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله لا باعتبار كونه إنسانًا وبشرًا.

إذًا فالحكمة من النَّهي أن يكون غيره متأسّيًا به، فإذا كان النَّهي موجَّهًا إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله، فهو إلى من يمكن منه من باب أولى.

وقوله: ﴿**ولا تدع من دون الله**﴾ الدعاء طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، وهو نوعان كما قال أهل العلم:

الأول: دعاء عبادة وهو أن يكون قائمًا بأمر الله، لأنَّ القائم بأمر الله كالمصلي، والصائم، والمزكّي، يريد بذلك الثواب والنجاة من العقاب، إذًا ففعله متضمِّن للدعاء بلسان الحال، وقد يصحب فعله هذا دعاء بلسان المقال.

الثاني: دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضره.

وكلاهما لا يجوز صرفه لغير الله.

قوله: ﴿**من دون الله**﴾ أي سوى الله.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

. . . .

قوله: ﴿ما لا ينفعك ولا يضرك﴾.

ما لا ينفعك: أي ما لا يجلب لك النفع لو عبدته.

ولا يضرك: قيل: لا يدفع عنك الضرّ، وقيل: لو تركت عبادته لا يضرّك؛ لأنَّه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقوله: ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك﴾ أي لأنَّه لا ينفعك ولا يضرّك، وهذا القيد ليس شرطًا بحيث يكون له مفهوم، فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرّك؛ لأنَّ هذا ليس بموجود قال الله تعالى: ﴿ومن أضلّ ممَّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[1].

ومن القيد الذي ليس بشرط قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾[2].

فإن قوله: ﴿الذين من قبلكم﴾ قيل: لبيان الواقع، إذ ليس هناك ربّ ثان لم يخلقنا والذين من قبلنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وربائبكم اللائي في حجوركم﴾[3] فهذا بيان للواقع الأغلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[4]. فهذا بيان للواقع، إذ دعاء الرسول، ﷺ، إيّانا كله لما يحيينا.

---

(١) سورة الأحقاف، الآيتان: ٥ ـ ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

. . . .

وكل قيد يُراد به بيان الواقع فإنَّه كالتَّعليل للحكم فمثلاً قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾[1] أي لأنَّه خلقكم.

وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ أي لأنَّه لا يدعوكم إلا لما يحييكم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك**﴾ أي لأنَّـه لا ينفعك ولا يضرك، فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطًا، وهذه يسمّيها بعض الناس صفة كاشفة.

بحيث لا يكون له مفهوم بأن تدعو من ينفعك، ومن يضرّك، لأنَّ هذا أمر ليس بموجود.

قوله: ﴿**فإن فعلت فإنَّك إذاً من الظالمين**﴾ أي: إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك.

والخطاب للرسول ﷺ.

و«إن» شرطية، وجواب الشرط جملة «فإنَّك إذًا».

و«إذًا» أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد؛ لأنَّ «إذًا» للظرف الحاضر أي فإنَّك حال فعله من الظالمين لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم، فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالمًا، قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2] فنفى الإيمان عنه حال الفعل.

ونوع الظلم هنا ظلم شرك، قال الله تعالى: ﴿**إنَّ الشرك لظلم**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سبق ص (٧٤).

عظيم﴾[1]. وعبّر الله بقوله من الظالمين، ولم يقل من المشركين لأجل أن يبيِّن أنَّ الشرك ظلم؛ لأنَّ كون الداعي لغير الله مشركًا أمر بيِّن، لكن كونه ظالمًا قد لا يكون بيِّنًا من الآية.

قوله: ﴿يمسسك﴾ أي: يصيبك بضرٍّ كالمرض، والفقر ونحوه.

قوله: ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ «لا»: نافية للجنس.

واسمها: «كاشف». وخبرها: «له» و«إلا هو» بدل، وإن قلنا: بجواز كون خبرها معرفة صار «هو» الخبر.

أي ما أحد يكشفه أبدًا إذا مسَّك الله بضرٍّ إلّا الله، وهذا كقول النبي، ﷺ: «**واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله لك**»[2].

قوله: ﴿وإن يُردك بخير﴾ هنا قال: «يردك» وفي الضرّ قال: «يمسسك» فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله، بل تنسب إلى فعله قال تعالى: ﴿**وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا**﴾[3].

فالمس من فعل الله، والضرّ من مفعولاته، فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريده لغيره لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة وفي

(1) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(2) من حديث ابن عباس رواه أحمد في المسند ١/ ٢٩٣، ٣٠٧، والترمذي أبواب صفة القيامة، باب وليكن يا حنظلة ساعة وساعة ٧/ ٢٠٣، وقال: «حديث حسن صحيح».

(3) سورة الجن، الآية: ١٠.

. . . .

الحديث القدسي: «**إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى**»[1].

أمّا الخير فهو مراد لله لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما في سورة الجن: ﴿**وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا**﴾.

فإذا أصيب الإنسان بمرض فالله لم يرد به الضرر، بل أراد المرض وهو يضره، لكن لم يرد ضرره، بل أراد خيرًا من وراء ذلك، وقد تكون الحكمة ظاهرة في نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة في غيره كما قال تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أنّ الله شديد العقاب**﴾[2].

فالمهمّ أنّه ليس لنا أن نتحجّر حكمة الله، لأنَّها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أنَّ الله لا يريد الضرر لأنَّه ضرر، فالضرر عند الله ليس مراداً لذاته، بل لغيره، ولا يترتَّب عليه إلّا الخير، أمَّا الخير فهو مراد لذاته، ومفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه لكن هذا الذي يتبينَّ لي.

قوله: ﴿**فلا رادَّ لفضله**﴾ أي لا يستطيع أحد أن يرد فضل الله أبدًا، ولو اجتمعت الأمّـة على ذلـك، وفي الحديث: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت**»[3].

وعليه فنعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أنَّ الأمَّة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله، فإنَّها لا تستطيع.

قولـه: ﴿**يصيب به من يشـاء**﴾ الضمـير إمّا أن يعود إلى الفضل لأنَّه

(١) من حديث أنس رواه الطبراني.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٣) من حديث المغيرة بن شعبة، كتاب الأذان/ باب الذكر بعد الصلاة ١/ ٢٧٠، ومسلم، كتاب المساجد/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/ ٤١٤.

أقرب، أو إلى الخير لأنَّه هو الذي يتحدّث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: ﴿من يشاء﴾ كل فعل مقيّد بالمشيئة، فإنَّه مقيد بالحكمة؛ لأنَّ مشيئة الله ليست مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط؛ لأنَّ من صفات الله الحكمة، ومن أسمائه الحكيم قال الله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلاَّ أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا﴾[2].

قوله: ﴿من عباده﴾ العبودية هنا عامّة، لأنَّ قوله: «بخير» يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفَّار.

قوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي ذو المغفرة، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يُتَّقى به السِّهام، والمغفر فيه ستر، ووقاية.

والرحيم: أي ذو الرحمة، وهي صفة تليق بالله عز وجل، تقتضي الإحسان والإنعام.

الشاهد قوله: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك﴾ فقد نبه الله نبيه أن من يدعو من دون الله، أي من سواه، لا ينفعه ولا يضرّه.

قوله: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾.

لو أتى المؤلف بأول الآية: ﴿إنَّ الذين تعبدون من دون الله﴾.

قوله في أول الآية: ﴿لا يملكون لكم رزقًا﴾ فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقًا أبدًا، لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبَّة برٍّ، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقر، فإذا كانت لا

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

(2) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

. . . .

تملك الرزق فالذي يملكه هو الله، ولهذا قال: **﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾** أي اطلبوا عند الله الرزق لأنَّه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده **﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾**[1].

قوله: **﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾** عند الله: حال من الرزق، وقدَّم الحال مع أنَّ موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر إذ إنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر، أي فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قوله: **﴿واعبدوه﴾** أي تذلَّلوا له بالطَّاعة، لأنَّ العبادة مأخوذة من التعبيد وهو التذليل، ومنه قولهم: طريق معبَّد أي مذلَّل للسالكين، قد أزيل عنه الأحجار والأشجار المؤذية، لأنَّكم إذا تذلَّلتم له بالطاعة فهو من أسباب الرزق.

قال تعالى: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾**[2] فأمر أن نطلب الرزق عنده ثم أعقبه بقوله: **﴿واعبدوه﴾** إشارة إلى أنَّ تحقيق العبادة من طلب الرزق؛ لأنَّ العابد مادام يؤمن أن من يتقي الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب فعبادته تتضمَّن الطلب بلسان الحال بالرِّزق.

قوله: **﴿واشكروا له﴾** إذا أضاف الله الشكر له، فإنَّه يتعدَّى باللام، والحكمة أنَّ الشكر لم يتعدّ بنفسه إشارة إلى الإخلاص أي واشكروا نعمة الله لله، فشكر النعمة أن يكون مخلصًا بذلك الشكر لله عز وجل، فاللام هنا لإفادة الإخلاص، لأنَّ الشاكر قد يشكر لله عز وجل، ولكن لبقاء النعمة، وهذا لا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

. . . .

بأس به، ولكن كونه يشكر لله، ويأتي إرادة بقاء النعمة تبعًا هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسَّروه بأنَّه: طاعة المنعم، وقالوا: إنَّه يكون في ثلاثة مواضع:

١ ـ في القلب: وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله فيرى لله فضلاً عليه بها قال تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾[١]. وأعظم نعمة هي نعمة الإسلام. قال تعالى: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان**﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿**لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته**﴾[٣].

٢ ـ اللسان: وهو أن يتحدَّث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف، وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفّع على عباد الله، فيتحدَّث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما في قصة الأعمى من بني إسرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله قال: «نعم كنت أعمى فردَّ الله عليَّ بصري، وكنت فقيرًا فأعطاني الله المال»[٤] فهذا من باب التحدُّث بنعمة الله.

والنبي، ﷺ، تحدَّث بنعمة الله عليه بالسِّيادة المطلقة فقال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»[٣].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٤) **يأتي في باب ماجاء في قول الله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا...﴾**.

(٥) من حديث أبي هريرة، رواه مسلم، كتاب الفضائل/ باب تفضيل النبي، ﷺ، على جميع الخلائق ٤/١٧٨٢.

وقوله ﴿ ومنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِن دون الله من لا يَسْتجيبُ لَهُ إلى يوْمِ القِيامَة ﴾[1]. الآية.

---

٣ - الجوارح: وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختصّ بهذه النعمة.

فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلّمه الناس.

وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله وتنفع الناس منه.

وشكـر الله على نعمـة الطعام: أن تستعمله فيما خلق له، وهو تغذية البدن، فلا تبني من العجين قصرًا مثلاً، فهو لم يخلق لهذا الشيء.

قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ الجار والمجرور متعلّق بترجعون، وتقديمه يدلّ على الحصر، أي أنَّ رجوعنا إلى الله سبحانه، وهو الذي سيحاسبنا على ما حمّلنا إيَّاه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشُّكر، وطلب الرزق منه.

الشاهد من هذه الآية: ﴿إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقـًا فابتغوا عند الله الـرِّزق﴾[2] فالفقير يستغيث بالله لكي ينجيه من هذا الفقر، والله هو الذي يتسحقّ الشُّكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق فكيف تستغيث بها؟!

قولـه: ﴿ومن أضـل﴾ من: اسم استفهـام مبتـدأ، وأضـلّ خبره، والاستفهام يُراد به هنا النَّفي أي لا أحد أضلّ.

وأضلّ: اسم تفضيل أي لا أحد أضلّ من هذا.

والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.

وإذا كان الاستفهام مرادًا به النَّفي كان أبلغ من النَّفي المجرَّد لأنَّه يحوِّله

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

. . . .

من نفي إلى تحدٍّ، أي بيِّن لي عن أحـد أضـلّ ممن يدعو من دون الله؟ فهو متضمِّن للتحدّي، وهو أبلغ من قوله: «لا أضل ممن يدعو» لأنَّ هذا نفي مجرّد، وذاك نفي مشرب معنى التحدّي.

قولـه: ﴿ممن يدعو﴾ متعلّق بأضل، ويُراد بالدعاء هنا دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

قوله: ﴿من دون الله﴾ أي سواه.

قوله: ﴿من لا يستجيب له﴾ من: مفعول يدعو أي لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له قال الله تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾[1]. والخبر هنا عن الله تعالى قال تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[2] يعني نفسه سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿من لا يستجيب﴾ أتى «بمن» وهي للعاقل مع أنَّهم يعبدون الأصنام، والأحجار، والأشجار، وهي غير عاقلة لكنَّهم لما عبدوها نزلوها منزلة العاقل فخوطبوا بمقتضى ما يدعون، لأنَّه أبلغ في إقامة الحجة عليهم في أنَّهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن لأنَّه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليهم، إذ لو قيل: ما لا يستجيب له لقالوا لنا عذر في عدم الاستجابة لأنَّهم غير عقلاء.

قولـه: ﴿وهم عن دعائهم﴾ الضمير في قوله: «هم» يعود على «من» باعتبار المعنى، لأنَّهم جماعة، وضمير يستجيب يعود على «من» باعتبار اللفظ، لأنَّه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ من، وجمعه باعتبار المعنى، لأنَّ من تعود

(١) (٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

. . . .

على الأصنام وهي جماعة، و«من» قد يُراعى لفظها ومعناها في كلام واحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿**ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا قد أحسن الله له رزقًا**﴾[1]. فهنا راعى اللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

قوله: ﴿**عن دعائهم**﴾ الضمير في دعائهم يعود إلى المدعوين، وهل المعنى: «وهم» أي: الأصنام «عن دعائهم» أي دعاء الدَّاعين إيَّاهم فيكون من باب إضافة المصدر إلى مفعوله؟

أو المعنى: «وهم» عن «دعاء» العابدين لهم، فيكون مفعول «دعاء» محذوفًا ويكون «دعاء» مضافًا إلى فاعله، وكلا المعنيين جائز.

والأول أبلغ أي عن دعاء العابدين إيّاهم، أبلغ من دعاء العابدين على سبيل الإطلاق؛ لأنَّ قوله: «عن دعائهم» لابدّ أن نُقدّر المدعو محذوفًا، فإذا قلت: «عن دعائهم» أي عن دعاء العابدين إيَّاهم، وجعلت الضمير هنا يعود على المدعو، صار المعنى أنَّ هذه الأصنام غافلة عن دعوة هؤلاء إيَّاهم، ويكون هذا أبلغ في أنَّ هذه الأصنام لا تفيدهم شيئًا في الدنيا وفي الآخرة إن كانوا من الكفار المغلو فيهم فهم غافلون في عذاب، وإلّا فهم غافلون في نعيم.

قوله: ﴿**وإذا حشر الناس**﴾ أي يوم القيامة.

قوله: ﴿**كانوا لهم أعداء**﴾ هل المعنى كان العابدون للمعبودين أعداء؟

أو كان المعبودون للعابدين أعداء؟ الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن، سبحان الله العظيم.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١١.

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[1].

حتى الملائكة يقولون: ﴿سبحانك ما كان ينبغي أن نتخذ من دونك من أولياء﴾[2].

الشاهد: قوله: ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟ فبطل تعلّق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم.

فالذي يأتي للبدوي أو للدسوقي، في مصر، فيقول المدد، المدد، أو أغثني لا يغني عنه شيئًا، بل قد يبتلى فيصاب بالقدر عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين من يأتي بالشيء، ومن يأتي عند الشيء.

مثال ذلك: امرأة دعت البدوي أن تحمل، فلما جامعها زوجها في الليل حملت، وكانت بالأول لا تحمل فنقول هنا: إنَّ الحمل لم يحصل بالدعاء وإنَّما حصل عنده لقوله تعالى: ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾.

أو يأتي للجيلاني في العراق، أو ابن عربي في سوريا فهي لا تنفع ولو بقي الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد.

والعجب أنَّهم في العراق يقولون: عندنا الحسين، وفي مصر يقولون ذلك، وفي سوريا يقولون ذلك، فسبحان من جزأ الواحد إلى ثلاثة، وهذا سفه في العقول، وسفه في الدين، والعامة قد لا يُلامون في الواقع لكن الذي يُلام من عنده علم من العلماء، ومن غير العلماء وأيضًا من عنده فطرة سليمة؛ لأنَّ هذا لا يحتاج إلى دراسة.

قوله: ﴿أمن﴾ أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتَّصلة ما يلي:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١٨.　　(٢) سورة النمل، الآية: ٦٢.

. . . .

---

١ ـ المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.
٢ ـ المتصلة لابد فيها من ذكر المعادل، والمنقطعة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾[1] متصلة، وقوله تعالى: ﴿**أمن يجيب المضطر**﴾ منقطعة لأنَّه لم يذكر لها معادلاً فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿**المضطر**﴾ أصلها: المضتر أي الذي أصابه الضرر قال تعالى: ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أنّي مسني الضرّ وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له**﴾ فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيّده بقوله: ﴿**إذا دعاه**﴾ أمّا إذا لم يدعه فقد يكشف الله ضرّه، وقد لا يكشفه.

قوله: ﴿**ويكشف السّوء**﴾ أي يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة لأنَّ الإنسان قد يُساء بها لا يضرّه لكن كل ضرورة سوء.

هل هي متعلّقة بما قبلها في المعنى، وأنَّه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلّة يجيب المضطر إذا دعاه ثمَّ أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعمّ لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، وعلى التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنَّه كلما كان المعنى أعمّ كان أولى، ويؤيّد العموم قوله: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾.

قوله: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾ الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذِّكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم**

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

روَى الطبرانيُّ بإسناده[1]: أنه كان في زمنِ النبي ﷺ منافقٌ يُؤذِي المؤمنين، فقال بعضُهم: قوموا بنا نسْتغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافق،

وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا﴾[2].

قوله: ﴿أءله مع الله﴾؟ الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي وهما متقاربان أي هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!

الجواب: لا، وإذا كان كذلك فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، فالواجب على العبد أن يوجّه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل سوءه وهو لا يستطيع.

إشكال وجوابه:

وهو أنَّ الإنسان المضطر يسأل غير الله، ويُستجاب له، كمن اضطرّ إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه، فهل يجوز أم لا؟

الجواب: أنَّ هذا جائز لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرَّد سبب لا أنَّه مستقل، فالله جعل لكل شيء سببًا، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يُيسِّره الله ويُعطيك.

قوله: «بإسناده» يشير إلى أنَّ هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو

---

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد ١٠/١٥٩ عن عبادة بن الصامت، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث». ورواه أحمد في المسند ٥/٣١٧، وابن سعد في الطبقات ١/٣٨٧ عن عبادة بلفظ: «إنه لا يقام لي بل يقام لله تبارك وتعالى» وفيه ابن لهيعة، ورجل لم يسم، انظر المجمع ٨/٤٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

فقال النبيُّ ﷺ : «إنه لا يُستغاثُ بي، وإنما يُسْتغاثُ بالله».

المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه فيجب أن يُراجع هذا الإسناد، فليس كل إسناد محدّث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: «أن رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلّط في آخر عمره لاحتراق كتبه». ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت، رضي الله عنه.

قوله: «في زمن النبي» كان الكافر أولاً يعلن كفره ولا يُبالي، ولما قوي المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفَّار فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: «منافق» المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

لم يسم ويحتمل أنه عبدالله بن أبيّ؛ لأنَّه مشهور بإيذاء المسلمين، ويُحتمل غيره.

واعلم أن أذيَّة المسلمين ليست بالضَّرب أو القتل؛ لأنَّهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا في قصة الإفك.

قوله: «فقال بعضهم» أي الصَّحابة.

قوله: «نستغيث» أي نطلب الغوث وهو إزالة الشدّة.

قوله: «من هذا المنافق» إمَّا بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام.

وفي الحديث إيجاز حذف دلّ عليه السياق، أي فقاموا إلى رسول الله فقالوا: يا رسول الله: إنَّا نستغيث بك من هذا المنافق.

قوله: «إنَّه لا يُستغاث بي» ظاهر هذه الجملة النفي مطلقًا، ويحتمل أنَّه لا يُستغاث بي في هذه القصة المعيّنة.

فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب التأدُّب في اللفظ، وليس من

. . . .

باب الممنوع معنى ؛ لأن نفي الاستغاثة بالرسول، ﷺ، ليس على إطلاقه، بل تجوز فيما يقدر عليه.

أمَّا إذا قلنا: إنَّ النفي عائد على القضيّة المعيّنة التي استغاثوا بالنبي، ﷺ، منها فإنَّه يكون على الحقيقة، أي على نفي المعنى، أي لا يُستغاث بي في مثل هذه الصورة، لأنَّ النبي، ﷺ، كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقامًا ظاهرًا، إذ إن المنافقين يستترون.

ولكن المعنى الأول أظهر في اللفظ، فيكون النبي، ﷺ، علمهم اللجوء إلى الله تعالى في الأمور لما يلي:

١ - لعموم النفي في قوله: «**لا يُستغاث بي**» وهذا عام في هذه القضيّة وغيرها.

٢ - أن قوله: «**إنَّما يُستغاث بالله**» ظاهره أنَّ المراد العموم.

وعليه فيكون من باب التأدُّب في الألفاظ على أنه أيضًا لا يُستغاث بالنسبة للتخلّص من المنافق إلّا بالله، لأنَّ الحاكم لا يستطيع أن يحكم بخلاف ظاهر حاله، فيلجأ إلى الله في هذا الأمر الخفيّ.

والمؤلف ساقه لبيان أنَّه لا يُستغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه المستَغَاث به، وإنَّما يُستغاث بالله.

فقوله تعالى عن موسى: ﴿**فاستغاثه الذي من شيعته**﴾[1] تحمل على ما يقدر عليه موسى، وهذا لا ينافي التوحيد.

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥.

فيه مسائل : **الأولى**: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص. **الثانية**: تفسير قوله: ﴿**ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك**﴾. **الثالثة**: أن هذا هو الشرك الأكبر.

فيه مسائل :

الأولى: أنَّ عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص :

حيث قال في الترجمة: باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

إذ الاستغاثة نوع من الدعاء، والدعاء أعمّ فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ في اللغة العربية، فهو كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم**﴾[1].

الثانية: تفسير قوله: ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك**﴾.

الخطاب في هذه الآية للنبي، ﷺ، خاصة، بدليل الآيات التي قبلها قال تعالى: ﴿**وأن أقم وجهك للدين حنيفًا ولا تكونن من المشركين**﴾[2].

فإن قيل: كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعًا؟

أجيب: أنَّ الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعًا.

الثالثة: أنَّ هذا هو الشرك الأكبر:

يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿**فإن فعلت فإنَّك إذًا من الظالمين**﴾ مضافًا إلى قوله تعالى: ﴿**إنَّ الشرك لظلم عظيم**﴾[3].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٣.

الـرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين. **الخامسة**: تفسير الآية التي بعدها. **السادسة**: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا. **السابعة**: تفسير الآية الثالثة. **الثامنة**: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين:

تؤخذ من عموم الآيات، والخطاب للرسول، ﷺ، وهو أصلح الناس، فمن فعـل ذلك إرضاءً لغيره صار من الظالمين حتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك فدعا صاحب قبر إرضاءً لذلك المشرك فإنه يكون مشركًا، إذ لا تجوز المحاباة في دين الله.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها:

وهي قوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو**﴾[1] الآية، فإذا كان لا يكشف الضرّ إلاّ الله وجب أن تكون الاستغاثة بالله عز وجل.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو**﴾ فلم ينتفع من دعائه هذا.

السابعة: تفسير الآية الثالثة:

وهي قوله تعالى: ﴿**فابتغوا عند الله الرزق**﴾.

وقوله: ﴿**عند الله**﴾ حال من الرزق، وعليه يكون الرزق عند الله وحده.

الثـامنة: أنَّ طلب الرزق لا ينبغي إلاَّ من الله كما أنَّ الجنة لا تطلب إلاَّ منه:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٧.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة. **العاشرة**: أنه لا أضل ممن دعا غير الله. **الحادية عشرة**: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه. **الثانية عشرة**: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له. **الثالثة عشرة**: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون**﴾ لأنَّ العبادة سبب لدخول الجنة، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿**إليه ترجعون**﴾.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة:

وهي قوله تعالى: ﴿**ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾

العاشرة: أنَّه لا أضلّ ممن دعا غير الله:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾ لأنَّ الاستفهام هنا بمعنى النفي.

الحادية عشرة: أنَّه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه:

لقوله تعالى: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون**﴾.

وهم: أي المدعوون، عن دعائهم: أي دعاء الداعين.

أو عن دعاء الداعين إيَّاهم، فالاحتمال في الضمير الثاني وهو قوله: ﴿**عن دعائهم**﴾، أمَّا الضمير الأول فإنَّه يعود إلى المدعوين لا ريب.

الثانية عشرة: أنَّ تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة. **الخامسة عشرة**: هي سبب كونه أضل الناس. **السادسة عشرة**: تفسير الآية الخامسة. **السابعة عشرة**: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة:

معنى كفر المدعو: ردّه وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس:

وذلك لأمور هي:

١ ـ أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.

٢ ـ أنَّ المدعوين غافلون عن دعائهم.

٣ ـ أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة:

وهي قوله تعالى: **﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السُّوء﴾ وقد سبق ذلك.**

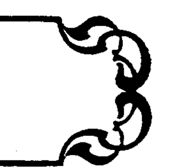
السابعة عشرة: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنَّه لا يجيب المضطر إلاّ الله:

وهو كما قال، رحمه الله: وهذا موجود الآن فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيمًا، فإذا وقعوا في الشدّة دعوا الله مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجؤوا للأصنام لو كانت عبادتها حقًّا، إلاّ أن من المشركين اليوم من هو أشدّ شركًا من المشركين السابقين فإذا وقعوا في الشدة دعوا أولياءهم كعليّ والحسين، وإذا كان الأمر بسيطًا دعوا الله، وإذا حلفوا حلفًا لا

يحنثون به حلفوا بعليّ أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفًا يحنثون به حلفوا بالله.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى حمى التوحيد، والتأدب مع الله:

اختـار المؤلف: أنَّ قولـه: «**يستغـاث بي**» من باب التأدّب بالألفاظ، والبعد عن التعلّق بغير الله، وأن يكون تعلّق الإنسان دائمًا بالله وحده، فهو يُعلِّم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت في الشّدائد، ولا تستغيث إلاّ به وحده.



بـــاب
قول الله تعالى

﴿أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شيئًا وَهُمْ يُخْلَقُون، ولا يستطيعون لهم نصرًا﴾[1]. الآية.

مناسبة الباب لما قبله:

لما ذكر، رحمه الله، الاستعاذة والاستغاثة بغير الله عز وجل، ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل[2].

قوله: ﴿أيشركون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

أي يشركونه بالله.

قوله: ﴿ما لا يخلق﴾ هنا عبَّر بـ «ما» دون «من» وفي قوله: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾[3] عبَّر بـ «من».

والمناسبة ظاهرة لأنَّ الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أمَّا هنا.

فالمدعو: جماد؛ لأنَّ الذي لا يخلق شيئًا ولا يصنعه هذا جماد.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

قوله: ﴿وهم يخلقون﴾.

الربّ المعبود: لا يمكن أن يكون مخلوقًا بل هو الخالق، فلا يجوز عليه الحدوث، ولا الفناء.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩١، وصدر آية ١٩٢.

(٢) في القول السديد ص (٥٣): «هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ماليس لغيره».

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

. . . .

والمخلوق: حادث والحادث يجوز عليه العدم، لأنَّ ما جاز انعدامه أولاً جاز انعدامه آخرًا.

فكيف يعبد هؤلاء من دون الله؟ إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلى خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن، فهو ناقص في افتقاره وفي وجوده.

إشكال وجوابه:

قوله: ﴿**ما لا يخلق**﴾ الضمير بالإفراد، وقوله: ﴿**وهم يخلقون**﴾ الضمير بالجمع:

أجيب: أن قوله: ﴿**ما لا يخلق**﴾ عاد الضمير على «ما» باعتبار اللفظ لأنَّ «ما» اسم موصول، لفظها مفرد لكن معناها الجمع، فهي صالحة بلفظها للمفرد، وبمعناها للجمع، كقوله: ﴿**من لا يستجيب له**﴾.

وقوله: ﴿**وهم يخلقون**﴾ عاد الضمير على «ما» باعتبار المعنى كقوله: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون**﴾.

قوله: ﴿**ولا يستطيعون لهم نصرًا**﴾ أي لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو، لأنَّ هؤلاء المعبودين قاصرون.

والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قوله: ﴿**ولا أنفسهم ينصرون**﴾ بنصب أنفسهم على أنَّه مفعول مقدَّم، وليس من باب الاشتغال، لأنَّ العامل لم يشتغل بضمير.

أي زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم، فبيَّن الله عجز هذه الأصنام، وأنَّها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه هي:

١ ـ أنَّها لا تخلق ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

٢ ـ أنَّهم مخلوقون من العدم فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودوامًا.

٣ ـ أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿**لا يستطيعون**﴾ أبلغ من

وقوله: ﴿والذين تَدْعون مِن دُونِهِ مايملِكون من قِطْمير﴾[1].

قولـه: «لا ينصرونهم» لأنَّـه إذا قال: «لا ينصرونهم» فقد يقول قائل: لكنهم يستـطيعون، لكن لما قال: «لا يستطيعون لهم نصرًا» كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤ ـ أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

قوله: ﴿والذين تدعون من دونه﴾ يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

ومن دون الله: أي سوى الله.

قوله: ﴿ما يملكون من قطمير﴾.

ما: نافية، من: حرف جر زائد لفظًا، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يُقال: مِن: حرف صلة، وهذا فيه نظر لأنَّ الحروف الزائدة لها معنى وهو التوكيد، وإنَّما يقال: زائد من حيث الإعراب.

وجملة «ما يملكون» خبر المبتدأ الذي هو «الذين».

وقوله: ﴿من قطمير﴾ القطمير: سلب نواة التمرة.

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن:

القطمير: اللفافة الرقيقة التي عليها.

الفتيل: سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: هي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أُجيب: أنَّه يملكه ولكنه ملك ناقص ليس حقيقيًا فلا يتصرّف فيه إلاّ على حسب ما جاء به الشَّرع، فلا يملك مثلاً إحراقه للنَّهي عن إضاعة المال.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٣.

. . . .

قوله: ﴿**إن تدعوهم**﴾ جملة شرطية.

تدعوا: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وأصلها: تدعونهم.

قوله: ﴿**لا يسمعوا دعاءكم**﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل.

قوله: ﴿**ولو سمعوا ما استجابوا لكم**﴾ أي: أنَّ هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فُرض أنَّها سمعت ما استجابت؛ لأنَّها لا تقدر على ذلك ولهذا قال إبراهيم، عليه السلام، لأبيه: ﴿**يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يُغني عنك شيئًا**﴾[1].

فإذا كانت كذلك فأي شيء يدعو إلى أن تدعى من دون الله؟!! بل هذا سفه قال تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملَّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه**﴾[2].

قوله: ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾[3].

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيرًا والمسيح.

وإن كانوا أحجارًا وأشجارًا ونحوها، فيحتمل أن نأخذ بظاهر الآية وهو أنَّ الله يُنْطِق هذه الأشياء فتكفر بشرك من يُشرك، ويدلّ له ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «**أنَّه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل**

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٦.

. . . .

أمة ما كانت تعبد من دون الله»[1]، فالحجر يكون إمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم.

قوله: **﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾**[2] هذا مثال يُضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكًّا عند من خاطبه به فيقول: ولا ينبئك مثل خبير.

ومعناه: أنَّه لا يُخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله؛ لأنَّه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلَّا الله، وهو خبر صدق لأنَّ الله تعالى يقول: **﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾**[3].

والخبير: العالم ببواطن الأمور.

مسألة: هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلَّم عليهم؟

اختلف في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول الزائر للمقبرة: السلام عليكم دعاء لا يقصد به المخاطبة ثم على فرض أنَّهم يسمعون كما جاء في الحديث الذي صححه ابن عبد البر: «**بأن الإنسان إذا سلَّم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فردَّ السلام**»[4] على تقدير صحة هذا الحديث فإذا كانوا يسمعون السلام، فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنَّهم يسمعون غير السلام فإن الله صرَّح بأنَّهم لا يسمعون دعاء من يدعوهم، ولا

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب الأذان/ باب فضل السجود ١/ ٢٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية ١/ ١٦٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(٤) الاستذكار لابن عبدالبر الجزء الأول/ باب جامع الوضوء.

وفي الصحيح عن أنس قال: «شُجَّ النبيُّ ﷺ يوم أُحُدٍ، وكُسِرتْ رباعِيَتُه.

يمكن أن نقول إنَّهم يسمعون دعاء من يدعوهم لأنَّ هذا كفر بالقرآن فتبينَّ بهذا أنَّه لا يمكن أن يُعارض قوله ﷺ: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»(1) بوجه من الوجوه هذه الآية.

وأمَّا قوله: ﴿**ولو سمعوا**﴾ فمعناه لو سمعوا فرضًا ما استجابوا لكم، وآخر الآية لا يُبطل أوّلها.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون.

واستدلوا على ذلك: بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في الصحيح من أنَّ المشيِّعين إذا انصرفوا سمع المشيَّع قرع نعالهم(2).

والجواب عن هذين الدليلين: أمَّا الأول فإنَّه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلِّمون على النبي، ﷺ، في حياته في التشهد(3)، وهو لا يسمعهم قطعًا.

وأمَّا الثاني: فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدَّفن.

قوله: «**وفي الصحيح**» أي: في البخاري تعليقًا، ووصله مسلم، والنسائي، والترمذي، وأحمد.

---

(1) من حديث عائشة، رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب ما يُقال عند دخول القبور ٢/ ٦٦٩.

(2) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب الميت يسمع خفق النعال ١/ ٤١٠.

(3) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الاستئذان/ باب السلام اسم من أسماء الله تعالى ٤/ ١٣٦، ومسلم، كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة ١/ ٣٠١.

فقال: كيف يُفلحُ قومٌ شَجُّوا نبيهم؟ فنزلت: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾[1][2].

قوله: «**أُحد**» جبل معروف في الشمال من المدينة، ولا يُقال المنوَّرة، لأنَّ ذلك لم يكن معروفًا عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هُزِمَ فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبي، ﷺ، كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿**حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون**﴾[3]. وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكروهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين، لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا على هذه الحال، إلّا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعًا.

قوله: «**شج**» الشَّجَّة الجرح في الرأس والوجه خاصة.

قوله: «**وكسرت رباعيته**» السنّان المتوسطان يسمَّيان ثنايا، وما وراءهما يُسمَّى رباعية.

قوله: «**فقال: كيف يُفلح قوم شجُّوا نبيهم؟**».

وذلك لما كسروا رباعيته، ﷺ.

والاستفهام يُراد به الاستبعاد، أي بعيد أن يُفلح قوم شجُّوا نبيهم، ﷺ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب المغازي/ باب «ليس لك من الأمر شيء...» ١٠٨/٣، ومسلم موصولاً، كتاب الجهاد/ باب غزوة أحد ١٤١٧/٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

. . . .

قوله: «**يُفلح**» من الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

قوله: «**فنزلت ليس لك من الأمر شيء**».

أي نزلت هذه الآية، والخطاب للرسول ﷺ.

وشيء: نكرة في سياق النفي فتعم.

قولـه: «**الأمـر**» أي: الشـأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم حتى النبي، ﷺ، ليس له فيهم شيء.

ففي الآية خطاب للرسول، ﷺ، وقد شُجَّ وجهه، وكُسِرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله سبحانه في كلمة واحدة: «**كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم؟**» فإذا كان الأمر كذلك فما بالك بمن سِواه؟ فليس لهم من الأمر شيء، كالأصنام والأوثان والأنبياء، فالأمر كله لله سبحانه وتعالى كما أنَّه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه؛ لأنَّ المخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فكيف يملك لغيره؟!

ونستفيد من هذا الحديث أنَّه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلا نستبعد رحمة الله منه فإنَّ الله تعالى قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجُّوا نبيهم لما استبعد النبي، ﷺ، فلاحهم قيل له: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾.

والرجل المطيع الذي يمرُّ بالعاصي من بني إسرائيل ويقول: «والله لا يغفر الله لفلان قال الله له: **(من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك)**»[1] فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأنَّ زلَّته

---

(١) من حديث جندب، رواه مسلم، كتاب البر والصلة/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله ٤/٢٠٢٣.

وفيه عن ابن عمرَ، رضي الله عنهما: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللهم العَنْ فلانًا وفلانًا.

عظيمة، ثم يا أخي ألست تشاهد أو تسمع قومًا كانوا من أكفر عبادالله، وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله؟ فإذا كان كذلك فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عُتاة.

وما دام الإنسان لم يمت فكل شيء ممكن، كما أنَّ المسلم، نسأل الله الحماية، قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة.

فالمهم أنَّ هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر، في أنَّك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصيًا.

قوله: «**فنزلت**» الفاء للسببية، وعليه فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: «**كيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم؟**».

قوله: «**وفيه**» أي الصحيح.

هنا قيد الصلاة، وقيَّد مكان هذا الدعاء من الركعات، ومكانه من الركعة.

قوله: «**إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر**» مكان الدعاء من الصلوات الفجر، ومكانه من الركعات الأخيرة، ومكانه من الركعة بعد الرفع من الركوع.

قوله: «**يقول: اللهم العن فلانًا وفلانًا**».

اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، أي أبعدهم عن رحمتك، واطردهم منها.

وفلانًا وفلانًا: بيَّنه في الرواية الثانية.

بعدما يقول: سمع الله لمن حمده ربَّنا ولك الحمدُ». فأنْزَل الله: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾[1].

وفي رواية «يَدْعُو على صفوانَ بن أُميَّة وسُهيْل بن عَمرو والحارِث بن هِشام، فنزلت: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾[2].

قوله: «**بعدما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» أي يقول ذلك إذا رفع رأسه وقال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد.

قوله: «**فأنزل الله ليس لك من الأمر شيء**» هنا قال: «فأنزل» وفي الرواية السابقة قال: «فنزلت» وكلها بالفاء، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي، ﷺ، على هؤلاء، ولا مانع أن يكون للآية سببا نزول، فقد يتعدد السبب.

وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحَسُنَ إسلامهم، رضي الله عنهم، فتأمَّل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية، لأنَّ القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، ولو أنَّ الأمر كان على ظنّ النبي، ﷺ، لبقي هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة لم يبق إلّا العذاب.

ولكنَّ النبي، ﷺ، ليس له من الأمر شيء، فالأمر كله لله، ولهذا هدى الله هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله الذابّين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله القائمين ضدّه، والله سبحانه يمنُّ على من يشاء من عباده.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي/ باب ليس لك من الأمر شيء ٣/١٠٨.

(٢) رواها البخاري كتاب المغازي/ باب ليس لك من الأمر شيء ٣/١٠٨، وهي مرسلة عن سالم بن عبدالله، وقد وصلها أحمد كما في المسند ٢/٩٣، والترمذي رقم (٣٠٠٤)، وابن جرير في تفسيره ٤/٥٨، من طريق عمر بن حمزة عن سالم عن ابن عمر، وعمر ضعيف كما في التقريب ٢/٥٣.

وفيه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿وأنذرْ عشِيرتَكَ الأقْرَبينَ﴾. فقال: «**يا مَعْشرَ قُرَيش، أو كلمة نحوها، اشتروا أَنفُسَكُم، لا أُغْني عنكم من الله شيئًا**،

وليس بعيدًا من ذلك قصة أصيرم بن عبدالأشهل[1] الأنصاري حيث كان معروفًا بالعداوة لما جاء به الرسول، ﷺ، فلما جاءت وقعة أحد ألقى الله الإسلام في قلبه دون أن يعلم به النبي، ﷺ، أو أحد من قومه، وخرج للجهاد وقتل شهيدًا، فلما انتهت المعركة جعل الناس يتفقدون قتلاهم فإذا هو في آخر رمق فقالوا: ما جاء بك يا غلام؟ أحدب على قومك؟ أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وإني أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، فأخبروا عني رسول الله، ﷺ، فأخبروه، فقال: هو من أهل الجنة، فهذا الرجل لم يصل لله ركعة واحدة، ومع هذا جعله الله من أهل الجنَّة، فالله حكيم يهدي من يشاء لحكمة، ويضل من يشاء لحكمة فالمهمّ أنّنا لا نستبعد رحمة الله عز وجل، من أي إنسان.

قوله: «**قام**» أي خطيبًا.

قوله: «**أنزل عليه**» أي أنزل عليه بواسطة جبريل ﴿**وأنذر عشيرتك**﴾[2].

قوله: «**أنذر**» أي حذِّر وخوِّف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: «**عشيرتك**» العشيرة قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: «**الأقربين**» أي الأقرب فالأقرب، فأول من يدخل فيهم أولاده ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه وهكذا.

---

(١) رواه ابن هشام ٢/٩٠، وأحمد في المسند ٥/٤٢٨، ٤٢٩، وفي حاشية زاد المعاد ٣/٢٠١ «وسنده قوي».

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

. . . .

ويؤخذ من هذا أنَّ الأقرب فالأقرب أولى بالإنذار؛ لأنَّ الحكم المعلّق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أنَّ الوصف الموجب للحكم كلَّما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين.

قوله: «**لما أنزل عليه**» لم يتأخر، ﷺ، بل قام فقال: يا معشر قريش، أي يا جماعة قريش.

وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك أحد أجداد الرسول ﷺ.

قوله: «**أو كلمة نحوها**» أي أو قال: كلمة نحوها أي شبهها، وهذا من احتراز الرواة أنهم إذا شكُّوا أدنى شك قالوا: أو كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك، وعليه (أو) للشك والتَّردد.

قوله: «**اشتروا أنفسكم**» أي أنقذوها لأنَّ المُشتري نفسه كأنَّه أنقذها من هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبَّر بالاشتراء كأنَّه يقول: اشتروا أنفسكم راغبين.

وفي قوله: «**اشتروا أنفسكم**» من الحض على هذا الأمر ما هو ظاهر لأنَّ المشتري يكون راغبًا.

قوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**» هذا هو الشاهد أي: لا أدفع، أو لا أنفع، أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أراده الله لكم، لأنَّ الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك فقال: ﴿**قل إنّي لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا. قل إنّي لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدًا**﴾[1].

قوله: «**شيئًا**» نكرة في سياق النفي فتعم أي شيء.

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢١، ٢٢.

يا عبـاسُ بن عبـدالمطَّلِب لا أُغني عنك من الله شيئًا، ياصفِيَّةُ عَمَّة رسـول الله ﷺ لا أُغني عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمةُ بنت محمدٍ، سليني من مالي ماشئتِ، لا أُغني عنكِ من الله شيئًا»[1].

قوله: «**يا عباس بن عبدالمطلب**» هو عم النبي، ﷺ، وعبدالمطلب جد النبي، ﷺ، وعبـاس: بالضم لأن المنادى إذا كان معرفة يبنى على الضم، ونعته إذا كان مضافًا ينصب، وهنا ابن عبد المطلب مضاف ولهذا نصب.

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ: عبدالمطلب مع أنَّه لا يجوز أن يُضاف عبد إلّا إلى الله عز وجل؟

فالجواب: أنَّ هذا ليس إنشاءً، بل هو خبر، فاسمه عبدالمطلب ولم يسمِّه النبي، ﷺ، لكن اشتهر بعبدالمطلب، ولهذا انتمى إليه الرسول، ﷺ، فقال:

أنـا الـنبـي لا كـذب   أنـا ابـن عبـدالمـطلـب[2]

فلو فرض لك أب يُسمى عبدالمطلب، أو عبدالعزى فإنَّك تنتسب إليه، ولا يعد هذا إقرارًا، ولكنه خبر عن أمر واقع كما لو قلت: كفر فلان، ونافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه.

قوله: «**لا أغني عنك من الله شيئًا**» أي لا أنفعك بشيء دون الله ولا أمنعك من شيء أراده الله لك، فالنبي، ﷺ، لا يُغني عن أحد شيئًا حتى أبيه فقد أخبر أنَّه في النار.

قوله: «**يا صفية عمة رسول الله**» يقال فيها كما قيل في العباس.

---

(١) رواه البخاري، كتـاب التفسير/ باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ٣/ ٢٧٢، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ١/ ١٩٢.

(٢) من حديث البراء بن عازب رواه البخاري، كتاب الجهاد/ باب من صف أصحابه عند الهزيمة ٢/ ٣٤٠، ومسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة حنين ٣/ ١٤٠٠.

. . . .

قوله: «**يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت**» أي اطلبيني من مالي ما شئت فلن أمنعك لأنَّه، ﷺ، مالك لماله ولكن بالنسبة لحق الله فإنَّه يقول: «لا أغني عنك من الله شيئًا» فهذا كلام النبي، ﷺ، لأقاربه الأقربين عمه وعمته وابنته فما بالك بمن هم أبعد؟ فعدم إغنائه عنهم شيئًا من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلّقون بالرسول، ﷺ، ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزّمن وقبله، قد غرَّهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق، لأنَّهم تعلَّقوا بما ليس بمتعلّق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول، ﷺ، هو الإيمان به واتباعه.

أمَّا دعوته والتعلّق به ورجاؤه فيما يُؤمل، ويخشى مما يخاف منه، فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول، ﷺ، وعن النجاة من عذاب الله.

ففي الحديث امتثال النبي، ﷺ، لقوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[1] فإنَّه قام بهذا الأمر أتمَّ القيام فدعا وعمَّ وخصَّص وبيَّن أنه لا ينجي أحدًا من عذاب الله بأي وسيلة بل الذي ينجي هو الإيمان به واتّباع ما جاء به.

وإذا كان القُرب من النبي، ﷺ، لا يُغني عن القريب شيئًا، دلَّ ذلك على منع التوسل بجاه النبي، ﷺ، لأنَّ جاه النبي، ﷺ، لا ينتفع به إلاّ النبي، ﷺ، ولهذا كان أصحّ قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي ﷺ.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

فيه مسائل: الأولى: تفسير الآيتين. **الثانية**: قصة أحدٍ. **الثالثة**: قنوتُ سيدِ المرسلينَ وخلفه ساداتُ الأولياءِ يؤمِّنونَ في الصلاة. **الرابعة**: أنَّ المدعوَّ عليهم كفارٌ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين: سبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيها للتوبيخ والإنكار.

الثانية: قصة أحد: حيث شُجَّ النبي ﷺ... الحديث.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين... إلخ.

أراد المؤلف بهذه المسألة أنَّ النبي، ﷺ، سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء ما أنقذوا أنفسهم فكيف ينقذون غيرهم؟! وليس مراده رحمه الله مجرَّد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيِّد وسادات، فلا أحد أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجؤون إلى الله سبحانه في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله فكيف يمكن أن يُلجأ إليه في كشف الكربات، فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفَّار:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**أو يتوب عليهم**﴾ فهذا دليل على أنَّهم الآن ليسوا على حالة مرضية، ثم أنَّه معروف أن صفوان بن أميَّة، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفارًا.

وهذه المسألة أنَّ المدعو عليهم كفَّار ترمي إلى أن الرسول، ﷺ، وإن كان يرى أنَّه دعاء عليهم بحق، ومع ذلك قطع الله سبحانه وتعالى أن يكون له من الأمر شيء، لأنَّه قد يقول قائل: إذا كانوا كفارًا أليس يملك الرسول، ﷺ، أن يدعو عليهم؟

الخامسة: أنَّهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار منها شجُّهُم نبيَّهم وحرصهم على قتله، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.
السادسة: أنزل الله عليه في ذلك ﴿**ليس لك من الأمر شيءٌ**﴾.
السابعة: قوله: ﴿**أو يتوب عليهم أو يعذبهم**﴾. فتاب عليهم فآمنوا.

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئًا، هذا وجه قول المؤلف أنَّ المدعو عليهم كفار.

أما مجرد أن يعلمنا المؤلف أن المدعو عليهم كفار هذه مسألة أظنّ أنَّها لا تستحق أن يعنون لها، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفارًا لم يملك النبي، ﷺ، شيئًا بالنسبة إليهم.

الخامسة: أنَّهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار...

أي: أنَّهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقِّهم: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ وإلا فهم شجُّوا النبي، ﷺ، ومثَّلوا بالقتلى مثل حمزة بن عبدالمطلب، وكذلك أيضًا حرصوا على قتل النبي، ﷺ، مع أنَّ كل هؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾:

أي مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي، ﷺ، حق بأن يدعو عليهم أنزل، الله ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول، ﷺ، قد قطع عنه هذا الشيء فغيره من باب أولى.

السابعة: قوله: ﴿**أو يتوب عليهم**﴾ فتاب عليهم فآمنوا: وهذا دليل على كمال سلطان الله وكمال قدرته، فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا، لأنَّ الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذي يذلّ من يشاء ويعزُّ من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر، رضي الله عنه، قبل إسلامه، وما جرى

منهم بعد إسلامه، فرسول الله، ﷺ، ومَنْ دونه لا يستطيعون أن يغيِّروا شيئًا من أمر الله.

الثامنة: القنوت في النوازل:

وهذه هي المسألة الفقهيَّة، فإذا نزل بالمسلمين نازلة فإنَّه ينبغي أن يُدعى لهم حتى تنكشف.

وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، الذي رواه أحمد وغيره[1] إلّا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون وقالوا لا يُقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر[2]، رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنَّه شهادة فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

والظاهر: أنَّ القنوت في النوازل التي تكون من غير الله مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أمَّا ما كان من فعل الله فإنَّه يشرع له ما جاءت به السنة مثل: الكسوف فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس، رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات. والجدب يُشرع له الاستسقاء وهكذا.

وما علمت لساعتي هذه أنَّ القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يُدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضُيِّق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك فإنَّه يقنت اتِّباعًا للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت الإمام الأعظم أو إمام كل مسجد، أو كل مصلٍّ؟

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/٣٠١، وأبو داود، كتاب الصلاة/ باب القنوت في الصلاة رقم (١٤٤٣) وسكت عنه، والحاكم ١/٢٥٥، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب/ باب ما يذكر في الطاعون ٤/٤١، ومسلم، كتاب السلام/ باب الطاعون والطيرة رقم (٢٢١٨).

المذهب: أنَّ الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح لعموم قول النبي ﷺ: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»**[1] وهذا يتناول قنوته، ﷺ، عند الزوال.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم: وهم صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فسمَّاهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز، لكن في مسألة اللعن نهي عنه الرسول ﷺ.

فلو دعا إنسان لأناس في الصلاة جاز، لأنَّه لا يُعدُّ من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: **«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النَّاس»**[2].

مسألة: هل الذي نهي عنه الرسول، ﷺ، الدعاء، أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهي عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عمومًا فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنَّه كان يقنت ويلعن الكفرة عمومًا، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم أرح المسلمين منه، واكفهم شرَّه واجعل شرَّه في نحره.

أما الدعاء بالهلاك فإنه محل نظر، ولهذا النبي، ﷺ، لم يدع على قريش

(١) من حديث مالك بن الحويرث، رواه البخاري، كتاب الأذان/ باب الأذان للمسافرين ٢١٢/١.

(٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمي، رواه مسلم، كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ١/٣٨١، ٣٨٢.

بالهلاك بل قال: «**اللهم عليك بهم اللهم، اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف**»[1] وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: «اللهم أحصهم عددًا ولا تبقي منهم أحدًا»[2]، لأنَّه وقع في عهد الرسول ﷺ.

وأيضًا الأمر وقع كما دعا فإنَّه ما بقي منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلك ولا أنكره النبي، ﷺ، بل إنَّ إجابة الله دعاءه يدلّ على رضاه به وإقراره عليه.

فهذا قد يُستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن يُنظر في القصة فقد يكون لها أسباب خاصة لا تأتي في كل شيء.

ثم إن خبيبًا دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار.

وفيه أيضًا: إن صحّ الحديث، دعاؤه على عتبة بن أبي لهب «اللهم سلّط عليه كلبًا من كلابك»[3]، فيه دليل على الدعاء بالهلاك.

العاشرة: لعن المعيّن في القنوت:

هذا غريب، فإن أراد المؤلف رحمه الله، أنَّ هذا أمر وقع، ثم النهي عنه

(١) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب سورة الدخان، ٣/ ٢٨٩، ومسلم، كتاب صفات المنافقين/ باب الدخان ٤/ ٢١٥٥.

(٢) من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب المغازي ٣/ ٨٩.

(٣) رواه ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب، وفيه عنعنة ابن إسحاق، ورواه الحاكم في المستدرك من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه، كتاب التفسير/ تفسير سورة أبي لهب ٢/ ٥٣٩ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في فتح الباري ٤/ ٣٩.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾.

الثانية عشرة: جده ﷺ في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون وكذا لو فعله مسلمٌ الآن.

فلا إشكال، وإن أراد أنه يُستفاد من هذا جواز لعن المعينّ في القنوت أبدًا فهذا فيه نظر، لأنَّ النبي، ﷺ، نهي عن ذلك.

الحادية عشرة: قصته، ﷺ، لما أنزل عليه: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ وهي أنَّه لما نزلت عليه الآية نادى قريشًا فعمّ ثم خصَّص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

الثانية عشرة: جده ﷺ بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون:

أي اجتهاده ﷺ في هذا الأمر بحيث قالوا: إنَّ محمدًا جنّ، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء.

وقوله: «**وكذلك لو يفعله مسلم الآن**»: أي: لو أنَّ إنسانًا جمع الناس ثم قام يحذِّرهم لقالوا مجنون إلاّ إذا كان معتادًا عند الناس، قال تعالى: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**يقلب الله الليل والنهار**﴾ فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم إنَّه يجب على الإنسان أن يبذل جهده واجتهاده في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبي، ﷺ، قام بهذا الأمر ولم يُبال بما رُمِيَ به من الجنون.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب «**لا أغني عنك من الله شيئًا**»، حتى قال: «**يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا**». فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين وآمن الإنسان بأنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبينَ لهُ تركُ التوحيد وغربةُ الدينِ.

الثالثة عشرة: قوله: للأبعد والأقرب: «**لا أغني عنك من الله شيئًا**» إلخ صدق رحمه الله فيما قال، فإنَّه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أنَّ الرسول، ﷺ، لا يقول إلاّ الحق، وأنَّه لا يغني عن ابنته شيئًا تبينَّ لنا الآن أن ما يفعله خواصّ الناس ترك للتوحيد، لأنَّه يوجد أُناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلاً للتقليد، يدعون الرسول، ﷺ، لكشف الضرّ وجلب النفع دعوة صريحة ويرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وغير ذلك من الشرك، وإذا أنكر عليهم ذلك ردّوا على المنكِر بأنَّه لا يعرف حق الرسول، ﷺ، ومقامه عند الله، وأنَّه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنَّه خلق من نور العرش، ويُلبِّسون بذلك على العامة، فيصدِّقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له؛ لأنَّ سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك**﴾[1]. ثم إنَّ المؤمن عاطفته وميله للرسول، ﷺ، أمر لا يُنكر، وهذا يجذب العوام، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكِّم العاطفة، بل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

. . . .

يجب عليه أن يتبع العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات.

ولهـذا نعى الله سبحانه على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنّهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق فإنَّ من تأمَّل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبينَّ له ترك التوحيد وغربة الدين.

بـــاب
قوله تعالى

﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قُلُوبِهِم قالوا ماذا قال ربُّكُمْ قالوا الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ﴾[1].

مناسبة الترجمة:

أنَّ هذا من البراهين الدالّة على أنَّه لا يستحق أحد أن يكون شريكًا مع الله؛ لأنَّ الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله عز وجل، ما عدا خواصّ بني آدم، يحصل منهم عند كلام الله سبحانه الفزع.

قوله: **﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم﴾**.

قال: ذلك ولم يقل: «فزعت قلوبهم» إذ عن تفيد المجاوزة. والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم أي أزيل الفزع عن قلوبهم.

والفزع: الخوف المفاجيء؛ لأنَّ الخوف المستمر لا يُسمَّى فزعًا.

وأصله: النُّهوض من الخوف.

وقـوله: **﴿عن قلوبهم﴾** أي قلوب الملائكة، لأنَّ الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أعلى من تفسير النبي، ﷺ، للقرآن.

قوله: **﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾** جواب الشرط (إذا).

والمعنى قال بعضهم لبعض، وإنَّما قلنا ذلك لأجل قائل ومقول له؛ لأنَّنا لو جعلنا الضمير في قالوا عائدًا على الجميع، فأين المقول له؟ والمعنى: أي شيء قال ربكم؟

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

. . . .

وإعراب ماذا على أوجه:

١ ـ ما اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر.

٢ ـ ماذا اسم استفهام.

٣ ـ ما اسم استفهام، وذا زائدة. قال ابن مالك:

ومثـل ماذا بعـدمـا استفهـام   أو من إذا شرط لم تلغ في الكلام

قوله: ﴿قالوا الحق﴾ أي قال المسؤولون.

والحق: مفعول لفعل محذوف تقديره: قالوا: قال الحق.

والمعنى: أنَّ الله سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلّا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلّا الحق.

والحق: هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وتمَّت كلمة ربك صدقًا وعدلاً﴾[1].

ولا يُفهم من قولـه: ﴿قـالـوا الحق﴾ أنه قد يكون باطلاً بل هو بيان للواقـع. فإن قيل: ما دام بيانًا للواقع ومعروفًا عند الملائكة أنَّه لا يقول إلّا الحق، فلماذا الاستفهام؟

أجيب: أنَّ هذا من باب الثناء على الله بما قال، وأنَّه سبحانه لا يقول إلّا الحق.

قولـه: ﴿وهـو العلي الكبير﴾ أي العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء وهي العظمة التي لا يُدانيها شيء، أي العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للباب: أنه إذا كان منفردًا في العظمة والكبرياء فيجب أن يكون منفردًا في العبادة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥.

. . . .

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من يَنتسب للإسلام حتى الجهميَّة.

الثاني: علوّ الذات، وقد أنكره كثير من المنتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم، فإنَّ المحققين منهم أثبتوا علوّ الذات.

وعلوه لا ينافي كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم لأنَّه ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وفي الآية فوائد:

١ ـ أن الملائكة يخافون الله كما قال تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾[1].

٢ ـ إثبات القلوب للملائكة لقوله: ﴿**حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم**﴾.

٣ ـ إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحًا مجرَّدة من الجسميَّة، وهو أمر معلوم بالضرورة قال تعالى: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة**﴾[2]. وقد رأى النبي، ﷺ، جبريل له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق[3]، فالقول بأنَّهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنَّما أكلهم وشربهم التسبيح بدليل قوله تعالى: ﴿**يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون**﴾[4] ففي هذا دليل على أنَّ ليلهم

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١.

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب بدء الخلق / باب إذا قال أحدكم آمين ٢ /٤٢٧، ومسلم، كتاب الإيمان / باب معنى قول الله عز وجل: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ ١ /١٥٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

. . . .

ونهارهم مستوعب لذلك، ولهذا جاء: ﴿يسبحون الليل﴾ولم يقل: يسبحون في الليل أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

٤ ـ أنَّ لهم عقولاً، إذ إنَّ القلوب هي محلّ العقول خلافًا لمن قال: إنَّهم لا يعقلون، ولأنَّهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

٥ ـ إثبات القول لله سبحانه وتعالى وأنَّه متعلّق بمشيئته؛ لأنَّه جاء بالشرط ﴿إذا فُزِّع﴾ وإذا الشرطية تدلّ على حدوث الشرط والمشروط خلافًا للأشاعرة الذين يقولون: إنَّ الله لا يتكلَّم بمشيئة، وإنما كلامه هو المعنى القائم بنفسه، فهو قائم بالله أزلي أبدي كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب: أنَّ هذا باطل وأن حقيقته إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: إنَّ الله يتكلَّم بكلام نفسي أزلي أبدي، كما يقولون هذا الكلام الذي سمعه موسى، وسمعه النبي، ﷺ، ونزل به جبريل على الرسول، ﷺ، شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا في الحقيقة قول الجهميَّة كما قال بعض المحققين من الأشاعرة ليس بيننا وبين الجهميَّة فرق، فإننا اتَّفقنا على أن هذا الذي بين دفتي المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

فالجهميَّة خير منهم في أنَّهم يقولون هذا كلام الله، لكنهم شرّ منهم في كونهم يصرِّحون أنَّ كلام الله مخلوق.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعَانًا لقولِهِ، كأنَّه سِلْسِلَةٌ على صَفْوَانٍ، ينفذهُم ذلك، ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ﴾**،

---

٦ - إثبات أن الله يقول الحق، وهذا جاء في القرآن: **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾**[١]. وقال: **﴿فالحقُّ والحقّ أقول﴾**[٢]. فالله تعالى لا يقول إلّا حقًّا؛ لأنَّه هو الحقّ ولا يصدر عن الحقّ إلا الحقّ.

قوله: «**صفوان**» هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا، لأنَّ الله **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون هذه السلسلة على صفوان.

قوله: «**ينفذهم ذلك**». النفوذ: هو الدخول في الشيء ومنه: نفذ السهم الرمية أي دخل فيها، والمعنى: أن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

قوله: «**حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم**» أي: أُزيل عنها الفزع.

قوله: «**قالوا**» أي قال بعضهم لبعض.

قوله: «**ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق**» أي قالوا: قال الحق، أي: قال القول الحق، فالحقّ صفة لمصدر محذوف مع عامله تقديره: قال القول الحق، وهذا القول الذي يقولونه هل هم يقولونه لأنهم سمعوا ما قال وعلموا أنَّه حق، أو أنَّهم كانوا يعلمون أنَّه لا يقول إلّا الحق؟

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٤.

. . . .

يحتمل أن يكونوا قد علموا ما قال، وقالوا إنه الحق فيكون هذا عائدًا إلى الوحي الذي تكلَّم الله به.

ويُحتمل أنَّهم قالوا ذلك لعلمهم أن الله سبحانه لا يقول إلّا الحق فلذلك قالوا هذا لأنَّ ذلك صفته سبحانه وتعالى.

قوله: «**وهو العلي الكبير**» مطابق للآية تمامًا، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يقبل لأي قائل أن يُفسرها بغيره، لأنَّ تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنَّة فإنَّه نصٌّ لا يمكن لأحد أن يتجاوزه.

وأمّا تفسير الصحابي فإنَّه حجة عند أكثر المفسرين، وأمّا التابعي فإن أكثر العلماء يقول: إنه ليس بحجة إلّا من اختصّ منهم بشيء كمجاهد، فإنَّه عرض المصحف على ابن عباس أكثر من عشرين مرة يقف عند كل آية ويسأله عن معناها، وأمَّا من بعد التابعين فليس تفسيره حجَّة على غيره لكن إن أيَّده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن.

فلا يقبل أن يقال: إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامة بل نقول: الرسول، ﷺ، فسَّر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبيًّا وجاء به النَّص فالواجب علينا قبوله، ولهذا نقول في مسألة ما يعذر فيه بالاجتهاد وما لا يعذر أنَّه ليس عائدًا على أنَّ هذا من الأصول وهذا من الفروع، كما قال بعض العلماء: الأصول لا مجال للاجتهاد فيها ويُخطىء المخالف مطلقًا بخلاف الفروع.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية أنكر تقسيم الدين إلى أصول وفروع، ويدلّ على بطلان هذا التقسيم: أنَّ الصلاة عند الذين يقسّمون فرع مع أنَّها أصل الأصول.

فيسمَعُها مُسْتَرِقُ السَّمع، ومُسْتَرِقُ السَّمع هكذا بعضُهُ فَوق بعضٍ، وصفـهُ سُفيـانُ بكَفِّـهِ، فحـرَّفها وبَدَّد بين أصابعه، فيسْمَعُ الكلمة فَيُلقيها إلى من تحتهُ،

والصواب: أنَّ مدار التخطئة وعدمها في الاجتهاد على ما للاجتهاد مجال فيه، وما لا مجال للاجتهاد فيه. فالأمور الغيبية يُخطيء المخالف فيها ولا يُعذر، سواء كانت تتعلّق بصفات الله أو اليوم الآخر أو غير ذلك لعدم علمه بذلك، والإنكار عليه واجب، بل علينا أن نسلم وننقاد.

واجب، بل علينا أن نسلم وننقاد.

أما الأمور الاجتهادية فهي التي فيها للرأي مجال، ولا يُضلّل المخطىء فيها ولا يُنكر عليه، إلا إذا خالف نصاً صريحاً، إذ لا مجال للاجتهاد وإن كان يصحّ تضليله بهذا الأمر، كقول ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت، وذكر له قسمة أبي موسى فقال: «قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين»[1].

قوله: «**فيسمعها مسترق السَّمع**» أي هذه الكلمة التي تكلَّمت بها الملائكة.

ومسترق: مفرد مضاف فيعم.

والمعنى: أي الذين يسترقون السمع، وقد أشار الله تعالى إليهم بقوله: ﴿**إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب**﴾[2].

وتأمَّل كلمة: «يسترق» ففيها دليل على أنه يُبادر فكأنَّه يختلسها اختلاسًا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض/ باب ميراث ابنة ابن مع ابنة ٤/ ٢٣٨.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠.

ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحِر أو الكاهن، فرُبما

قوله: «**ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**» يُحتمل أن يكون هذا من كلامه، ﷺ، أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: «**وصفه سفيان بكفه**» أي أنَّها واحد فوق الثاني أي الأصابع فالجنّ يتراكبون واحدًا فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿**وأنَّا كنَّا نقعد منها مقاعد للسَّمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا**﴾[1].

قوله: «**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته**».

أي يسمع أعلى المسترقين الكلمة فيلقيها إلى من تحته أي يخبره بها، و«مَنْ» اسم موصول، وقوله: «تحته» شبه جملة صلة الموصول لأنه ظرف.

قوله: «**ثم يلقيها إلى من تحته**» أي يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض إلى لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقى وتعوّذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس على بعض طلبة العلم، فظنّوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضى فهو كاهن، لكن ما مضى مما يقع في الأرض ليس غيبًا بل هو غيبي نسبي مثل ما يقع في المسجد يعد غيبًا بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيبًا بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتّصل الإنسان بجني فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيدًا، فيستخدم الجن لكن ليس على وجه محرَّم فلا يُسمَّى كاهنًا، لأنَّ الكاهن من

---

(١) سورة الجن، الآية: ٩.

يُخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يُخبر عمَّا في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع إذا لم يستند إلى فراسة ثاقبة، أمَّا إذا كان يُخبر عمَّا في الضمير استنادًا إلى فراسة فإنَّه ليس من الكهانة في شيء، لأنَّ بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتمادًا على أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه على وجه التفصيل، لكن يعلمه على سبيل الإجمال.

فمن يُخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهَّان، ولكن ينظر في حاله فإذا كان غير موثوق في دينه فإننا لا نصدِّقه، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا**﴾[1].

وإن كان موثوقًا في دينه ونعلم أنَّه لا يتلبَّس بمحرم من شرك أو غيره للوصول إلى غرضه، فإننا لا ندخله في الكهَّان الذين يحرم الرجوع إلى قولهم. ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجودًا فيه، فلا يُسمى كاهنًا لأنَّه يمكن أن يكون عنده جني يخبره بغير المحرم، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم إمّا محبَّة لله عز وجل، أو لعلم يحصّله منه، أو لغير ذلك.

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السَّمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلاّ إلى السماء الدنيا لقوله تعالى: ﴿**وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا**﴾ فلا يمكن نفوذه إلى السماء.

قوله: «**فربما أدركه الشهاب**» إلخ.

الشهاب: جزء منفصل من النجوم ثاقب قوي ينفذ.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

معها مائة كِذْبةٍ، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصَدَّقُ بتلك الكلمة التي سُمِعَتْ من السماء»[1].

قال العلماء في تفسير قوله تعالى: **﴿ولقد زيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين﴾**[2]. أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها، فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل.

فالشُّهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدُّعًا فيها.

أما النجم فلو وصل إلى الأرض لأحرقها.

واختلف العلماء، هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول، ﷺ، إلى الأبد، أو انقطعوا في وقته فقط؟ والثاني هو الأقرب أنَّهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

قوله: «**فيكذب معها مائة كذبة**» هل هذا على سبيل التحديد، أو المعنى أنَّه يكذب معها كذبات كثيرة؟ الثاني: هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص، لأنَّ الكهنة لهم شياطين، فقد يكون لبعض الناس مبرِّر لعمل الكاهن، أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟

والناس في هذه الأمور الغريبة هم على حسب ما أخبر به المُخبر يأخذون كل ما يقوله صدقًا فإذا أخبر بشيء وقع ثم أخبر بشيء قالوا: إذن لابد أن يصدُق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿إلا من استرق السمع﴾ ٣/٢٤٧.

(٢) سورة الملك، الآية: ٥.

. . . .

فوائد الحديث:

١ ـ إثبات القول لله عز وجل.

٢ ـ عظمة الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ إثبات الأجنحة للملائكة.

٤ ـ خوف الملائكة من الله عز وجل وخضوعهم له.

٥ ـ أن الملائكة يتكلَّمون ويعقلون.

٦ ـ أنَّه لا يصدر عن الله إلاّ الحق.

٧ ـ أنَّ الله سبحانه يمكِّن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس، وإلاّ فالله قادر على أن لا يُمكِّنهم من ذلك، وهي ما يلقونه على الكهَّان فيحصل بذلك فتنة والله عز وجل حكيم.

فقد يُوجد الله أشياء تكون ضلالاً لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدى امتحانًا وابتلاءً.

٨ ـ كثرة الجن، لأنَّهم يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جدًّا، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيرانًا.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم، أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكانس التي تكنس بها البيوت، ويقول: أنا أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة، فيفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسيئون حتى من الناحية العملية، لأنهم يمرون الميقات ولا يحرمون منه.

٩ ـ أنَّ الكهَّان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلى ما سمعوا كذبات

وعن النــواس بن سمعــان (رضي الله عنــه) قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله تعالى أن يُوحي بالأمر، تكلَّم بالوحي أخذت**

كثيرة يضللون بها النـاس، ويتـوصَّلون بها إلى باطلهم تارة بالـترهيب وتارة بالتَّرغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجري عليك من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.

١٠ ـ أنَّ الساحر يصوّر للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس، وأنَّهم إن صدقوا في شيء فيجب الحذر منه.

قوله: «وعن النواس....».

هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علَّة وهي أنَّ في سنده الوليد بن مسلم وهو مدلِّس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة فيكون في الحديث ضعف، إلاّ أنَّه قد روى مسلم[1] وأحمد من حديث ابن عباس حديثًا قد يكون شاهدًا له، حيث أخبر أن الله إذا تكلَّم بالوحي سمعه حملة العرش فسبحوا ثم سمعه أهل كل سماء فيسبحون كما سبَّح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود، لكن يدلّ على أنَّ له أصلاً.

قوله: **«إذا أراد أن يُوحي بالأمر»** أي الشأن.

قوله: **«تكلم بالوحي»** جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط، فالإِرادة سابقة والكلام لاحق، فيكون فيه ردّ على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلَّم بإرادة، وأنَّ كلامـه أزلي كالسمع والبصر، ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا إنَّه يتكلم بما شاء كيف شاء متى شاء،

---

(١) في كتاب السلام/ باب تحريم الكهانة ٤/ ١٧٥٠.

السمٰوات منه رجفةٌ، أو قال: رعْدة شديدة، خوفًا من الله عزّ وجلّ، فإذا سمع ذلك أهلُ السمٰوات صُعِقوا وخرُّوا لله سُجَّدًا، فيكونُ أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم

بل هو صفة كمال، لكن النقص أن يُقال: إنَّه لا يتكلم بحرف وصوت، إنَّما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله: «**أخذت السماوات منه رجفة**».

السماوات: مفعول به جمع مؤنث سالم، أو ملحق به فيكون منصوبًا بالكسرة.

ورجفة: فاعل.

قوله: «**أو قال رعدة شديدة**» لأنَّه سبحانه عظيم يخافه كل شيء حتى السماوات التي ليس فيها روح.

قوله: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخرّوا لله سُجدًا**».

كيف يكون صعقوا وخرّوا سجدًا؟

الصعق هنا: ـ والله أعلم ـ يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله: «**فيكون أوّل من يرفع رأسه جبريل**».

أوّل: بالنصب على أنها خبر يكون مقدمًا، وجبريل بالرفع على أنَّها اسم يكون مؤخَّرًا.

قوله: «**بما أراد**» أي بما شاء؛ لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

قوله: «**ثم يمرّ جبريل على الملائكة**» لأنَّه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

قوله: «**قال الحق وهو العلي الكبير**» سبق في تفسير ذلك: أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعيَّنة، أو قال الحق لأنَّ من عادته سبحانه ألا يقول إلّا

يَمُرُّ جبريل على الملائكة، كُلَّما مرَّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا ياجبريل؟ فيقول: قال الحقَّ، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مِثل ماقال جبريلُ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيثُ أمَرَهُ الله عز وجل»[1]

الحق، وأيًّا كان فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحى الله إليه بل يقول: قال الحق مبهمًا، ولهذا سمّي عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذي لا يخون السرّ لغير من ائتمنه.

قوله: «**وهو العلي الكبير**» تقدم الكلام عليه.

قوله: «**فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل**» أي قال الحق وهو العلي الكبير.

قوله: «**فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمر الله عز وجل**» أي يصل بالوحي إلى حيث أمر الله من الأنبياء والرُّسل.

من فوائد الحديث:

١ ـ إثبات الإرادة لقوله: «**إذا أراد الله**» وهي قسمان: شرعية، وكونية.

والفرق بينهما أولاً: من حيث المتعلق، فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله عز وجل، سواء وقع أم لم يقع، وأمّا الكونيّة فتتعلّق فيما يقع سواء كان مما يحبّه الله أو مما لا يحبه.

ثانيا: الفرق بينهما من حيث الحكم، أي حصول المراد، فالشرعية لا

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٥١٥) والطبري في تفسيره ٢٢/٦٣، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٣/٥٣٧، وابن خزيمة في التوحيد ص (١٤٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٢٠٢)، والبغوي في تفسيره ٥/٢٩٠، والحديث في إسناده نعيم بن حماد ضعيف، تهذيب التهـذيب ١٠/٤٥٨، والوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه، انظر تقريب التهذيب ٢/٣٣٦.

. . . .

يلزم منها وقوع المراد، أما الكونيَّة فيلزم منها وقوع المراد.

فقوله تعالى: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾[1] هذه إرادة شرعية، لأنَّها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضًا متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾[2] هذه كونيَّة، لأنَّ الله لا يريد الإغواء شرعًا، أما كونًا وقدرًا فقد يريد الإغواء.

وقوله: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾[3] هذه كونيَّة لكنها في الأصل شرعيَّة لأنه قال: ﴿ويتوب عليكم﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[5] هذه شرعيَّة لأن قوله: ﴿ولا يريد بكم العسر﴾ لا يمكن أن تكون الإرادة كونيَّة إذ إن العسر يقع، ولو كان الله لا يُريده قدرًا وكونًا لم يقع.

٢ ـ أن المخلوقات وإن كانت جمادًا تحسّ بعظمة الخالق، قال تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلّا يُسبح بحمده﴾[6].

٣ ـ إثبات أن الملائكة يتكلَّمون ويفهمون ويعقلون لأنَّهم يسألون ﴿ماذا قال ربكم﴾؟ ويجابون: قال: ﴿الحق﴾، خلافًا لمن قال: إنَّهم لا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٣٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

. . . .

يوصفون بذلك فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤ ـ إثبات تعدّد السماوات لقوله: «**كلّما مرَّ بسماء**».

٥ ـ أن لكل سماء ملائكة مخصَّصين لقوله: «**سأله ملائكتها**».

٦ ـ فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة بن نوفل: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»[١] والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السرّ.

٧ ـ أمانة جبريل، عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل فيكون فيه ردّ على الرافضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحى إلى محمد، ﷺ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب لأنَّه كان يقول في غزوة خيبر:

أنا الذي سمَّتني أمي حيدرة[٢].

وفي هذا تناقض منهم لأنَّ وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة.

٨ ـ إثبات العزَّة والجلال لله عز وجل لقوله: «**عز وجل**» والعزَّة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزَّة ثلاث معانٍ:

١ ـ عزيز: بمعنى ممتنع لا يناله أحد بسوء.

٢ ـ عزيز: بمعنى القوة.

٣ ـ عزيز: بمعنى غالب.

---

(١) من حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب بدء الوحي / باب حدثنا يحيى بن بكير ١ / ١٤، ومسلم كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي ١ / ١٣٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد/ باب غزوة ذي قرد ٣/ ١٤٤١.

فيه مسائل : الأولى : تفسير الآية. **الثانية :** ما فيها من الحجة على إبطال الشرك خصوصًا من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل إنها تقطع عروق شجرة الشركِ من القلبِ.

قال ابن القيّم :

وهو العزيز فلن يرام جنابه   أنى يُرام جناب ذو السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم   يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه   فالعز حينئذٍ ثلاث معان

وأمّا جلّ : فالجلال بمعنى العظمة التي ليس فوقها عظمة .

المسائل:

الأولى : تفسير الآية :

أي قوله تعالى : ﴿**حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم**﴾ الآية وقد سبق تفسيرها .

الثانية : ما فيه من الحجة على إبطال الشرك :

وذلك أنَّ الملائكة وهم من هم في القوة والعظمة يصعقون ويفزع عن قلوبهم ، فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله ، وهي أقل منهم بكثير فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل : إنَّ هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب، لأنَّ الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي ، فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئًا مخلوقًا ربما يصنعه بيده، حتى كان جهَّال العرب يصنعون آلهة من التَّمر إذا جاع أحدهم أكلها!!

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار ثلاثة يجعلها تحت القدر، والرابع وهو أحسنها يجعله إلـهًا له!!!

الثالثة: تفسير قوله: ﴿**قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ**﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك. **الخامسة**: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله «قال كذا وكذا». **السادسة**: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل. **السابعة**: أنه يقول لأهل السموٰات كلهم لأنهم يسألونه. **الثامنة**: أنَّ الغشي يعم أهل السموٰات كلهم. **التاسعة**: ارتجاف السموٰات لكلام الله.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿**وهو العلي الكبير**﴾.

العلي: ذو العلو، وهو علو ذات، وعلو صفات.

الكبير: ذو العظمة والكبرياء.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك:

فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدّة خوفهم منه وفزعهم خوفًا من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا، أي: يقول قال الحق.

السادسة: ذكر أن أوَّل من يرفع رأسه جبريل:

لحديث النواس بن سمعان وفيه فضيلة جبريل.

السابعة: أنَّه يقول لأهل السماوات كلهم لأنَّهم يسألونه:

وفي هذا دليل على عظمته بينهم.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

تؤخذ من قوله: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخرّوا لله سجدًا**».

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله:

العـاشرة: أنَّ جبريل هو الـذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.
الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.
الثـانيـة عشرة: صفـة ركوب بعضهم بعضًا. **الثالثة عشرة:** إرسال الشهب. **الرابعة عشرة:** أنه تارةً يدركه الشهاب قبل أن يلقيها وتارةً يلقيها في أذنِ وليه من الإنس قبل أن يدركه. **الخامسة عشرة:** كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

لقوله: «**أخذت السماوات منه رجفة**» أي لأجله تعظيمًا لله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره:

أي لا أحد يتولّى إيصال الوحي بعد جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به؛ لأنه الأمين على الوحي.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين:

أي الذين يسترقون ما يسمع في السماوات فيلقونه على الكهّان فيزيد فيه الكهّان وينقصون.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا:

وصفها سفيان، رحمه الله، بأن حرف يده وبدَّد بين أصابعه.

الثالثة عشرة: إرسال الشُّهب:

قال تعالى: ﴿**إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين**﴾[1].

الرابعة عشرة: أنَّه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان:

---

(١) سورة الحجر، الآية: ١٨.

السادسة عشرة: كونه يكذبُ معها مائة كذبةٍ. **السابعة عشرة**: أنَّه لم يصدَّق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء. **الثامنة عشرة**: قبول النفوس الباطل كيف يتعلقون بواحدةٍ ولا يعتبرون بمائة.

لأنه يأتي بما سمع من السَّماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السَّماء صار صادقًا.

اعتراض وجوابه:

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟

والجواب: أن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي ﷺ.

أما الأمور القدرية التي يتكلَّم الله بها فليست خاصة بجبريل، بل ربَّما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة:

أي يكذب مع الكلمة التي تلقَّاها من المسترِق.

وقوله: «**مائة كذبة**» على سبيل المبالغة ليس على سبيل التَّحديد.

السابعة عشرة: أنَّه لم يصدق إلاّ بتلك الكلمة التي سمعت من السَّماء:

وأما ما قاله من عنده فهو تخرّص، فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب على الناس فيموِّه بها عليهم.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلَّقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة؟!!

وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسّفه، فهم يتعلّقون بالكاهن من أجل مرة واحدة، وأما مائة كذبة فلا

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها. **العشـــرون**: إثبات الصفاتِ خلافًا للأشعرية المعطلةِ.

يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السُّفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغترّ به أهل العقل والإيمان، ولهذا لما قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾[1].

تركها كثير من الصحابة اختيارًا بدون أمر للموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يُرجِّح جانب المفسدة، فهو وإن لم ينزل الشرع يعرف ويُميِّز بين المضار والمنافع.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقَّى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها.. إلخ.

الكلمة: هي الصدق لأنَّها هي التي تروّج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذبًا ما راجت بين الناس.

العشرون: إثبات الصِّفات خلافًا للأشعريَّة المعطّلة:

فإنَّهم يعطّلون أكثر الصفات، ولا يعطّلون جميعها بخلاف المعتزلة، فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامَّتهم، وإلّا فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأمّا الأشاعرة فهم معطّلة اعتبارًا بالأكثر، لأنَّهم لا يثبتون من الصِّفات إلا سبعًا، وصفاته تعالى لا تُحصى، وإثباتهم لهذه السَّبع ليس كإثبات السَّلف فمثلاً: الكلام عند أهل السنَّة: أن الله يتكلَّم بمشيئته بصوت وحرف.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

. . . .

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم، وأنَّه لا يتكلَّم بمشيئة وأن هذا الذي يسمع عبارة عن كلامِ الله خلقه الله تعالى، فحقيقة الأمر أنَّهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنَّه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله، لأنَّنا أجمعنا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجَّتهم في إثبات الصفات السَّبع: أن العقل دلّ عليها.

وشبهتهم في إنكار البقية: زعموا أنَّ العقل لا يدلّ عليها.

والردّ عليهم بما يلي:

١ ـ أنَّ كون العقل يدلّ على الصِّفات السَّبع لا يدلّ على انتفاء ما سواها فإن انتفاء الدليل المعيَّن لا يستلزم انتفاء المدلول، فهب أن العقل لا يدلّ على بقية الصفات لكن السمع دل عليها، فنثبتها بالدليل السمعي.

٢ ـ أنَّها ثابتة بالدليل العقلي نظير ما أثبتم هذه السبع فمثلاً: الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص حيث إنَّ الله جعل الشمس شمسًا، والقمر قمرًا، والسماء سماءً، والأرض أرضًا، وكونه يميِّز بين ذلك معناه: أنَّه سبحانه وتعالى يريد، إذ لولا الإرادة لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأنَّ العقل دلَّ عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضي لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من الله فهذه النعم العظيمة من الله تدلّ على رحمته لخلقه أدلّ من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العُصاة يدلّ على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم، أدلّ من التخصيص على الإرادة وعلى هذا فقس، فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات

الحادية والعشرون: التصريح بأنَّ تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عزَّ وجلَّ. **الثانية والعشرون**: أنَّهم يخرُّون لله سجدًا.

على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطّلة على سبيل الإطلاق، وإلا فالحقيقة أنهم ليسوا معطلّة على سبيل الإطلاق.

الحادية والعشرون: التصريح بأنَّ تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عز وجل:

فيدلّ على عظمة الخالق، جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

الثانية والعشرون: أنَّهم يخرّون لله سجدًا.

أي: تعظيمًا لله واتقاءً لما يخشونه، فتفيد تعظيم الله عز وجل كالتي قبلها.

بـاب
الشـفاعـة

ذكر المؤلف، رحمه الله، الشفاعة في كتاب التوحيد؛ لأنَّ المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنُّون أنَّهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له، لأنَّه عليم بكل شيء وله الحكم التَّام المطلق والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء.

ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله فيقربونا إلى الله، فهو عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذلك فإنَّه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لقصور قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم فيتجرَّأ عليهم الشفعاء فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله عز وجل كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يُراد بها معونة الله سبحانه في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام[1]، ولكن يُقصد بها أمران هما:

١ ـ إكرام الشافع.

٢ ـ نفع المشفوع له.

والشفاعة:

لغة: اسم من شفع يشفع إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر.

(١) انظر ص (٣٤١).

وقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وأَنْذِرْ به الذين يخافُون أن يُحْشَرُوا إلى ربِّهم ليس لهم من دُونِهِ وليٌّ ولا شفيعٌ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿والشَّفع والوتر﴾[2].

واصطلاحًا: التوسُّط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرَّة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي، ﷺ، لأهل الجنَّة بدخولها[3].

مثال دفع المضرَّة: شفاعة النبي، ﷺ، لمن استحق النار أن لا يدخلها.

قوله: ﴿وأنذر به﴾. الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أمَّا مجرد الخبر فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

والضمير في «به» يعود للقرآن كما قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾[4] وقال تعالى: ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾[5].

وقوله: ﴿يخافون أن يحشروا﴾ أي يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر.

والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء، يحشرون أي يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾.

ولي: أي ناصر ينصرهم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٣.

(٣) يأتي ص (٣٣٣).

(٤) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢.

وقوله: ﴿ قُل لله الشَّفاعَةُ جميعًا ﴾[1].

ولا شفيع: أي شافع يتوسَّط لهم، وهذا محل الشاهد، ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله، أي من دون إذنه، ومفهومها: أنها ثابتة بإذنه وهذا هو المقصود، فالشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة.

أما عند الملوك فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم، فيمكن لمن كان قريبًا من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

ويفيد قوله: ﴿من دونه﴾ أنه لهم بإذنه ولي وشفيع كما قال تعالى: ﴿إنَّما وليكم الله ورسوله﴾[2].

قولـه: ﴿لله الشفاعة﴾ مبتدأ وخبر، وقُدِّم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته، فأفادت الآية في قوله: ﴿جميعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة.

وقد قسَّم أهل العلم، رحمهم الله، الشفاعة إلى قسمين رئيسيين هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصَّة بالرسول، ﷺ، وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله، فإنَّ الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغمِّ والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم أبي البشر فيذكرون من أوصافه التي ميَّزه الله بها أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، فيقولون: اشفع لنا عند ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه! فيعتذر لأنَّه عصى الله بأكله من الشجرة. ومعلوم أنَّ الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه فإنَّه لا يشفع لخجله

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

. . . .

من ذلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه قال تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[1].

ثم يذهبون إلى نوح، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلى الأرض، فيعتذر بأنَّه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: ﴿رب إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[2].

ثم يذهبون إلى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من صفاته ثم يعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات لكنها حق حسب مراده.

ثم يذهبون إلى موسى، ﷺ، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، لكنه يعتذر بقتل نفس لم يؤمر بقتلها، وهي نفس القبطي حين استغاثه الإسرائيلي فوكز موسى القبطي فقتله فقضى عليه.

ثم يذهبون إلى عيسى، عليه الصلاة السلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع فيعتذر إلّا أنه لا يقدم ما يكون عذرًا، فيقول: اذهبوا إلى محمد، عبد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، فيحيلهم إلى محمد، ﷺ، دون أن يذكر عذرًا يحول بينه وبين الشفاعة[3].

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها[4] لأنَّهم إذا عبروا الصراط =

---

(1) سورة طه، الآية: ١٢٢.

(2) سورة هود، الآية: ٤٥.

(3) حديث الشفاعة من حديث أبي هريرة، رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا﴾ ٣/ ٢٥٠، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة ١/ ١٨٤.

(4) ورد التصريح بهذه الشفاعة في حديث الصور، رواه الطبراني في المطولات ٢٥/ ٦٦ رقم (٣٦) وابن جرير في الجامع ٢/ ٣٣٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٩ ونسبه إلى

. . . .

ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم فيشفع النبي، ﷺ، إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: **﴿حتى إذا جاءُوها وفتحت أبـوابهـا﴾**[1] فقال: «وفتحت» فهناك شيء محذوف، أي وحصل ما حصل من الشفاعة، وفتحت الأبواب، أمَّا النار فقال فيها: **﴿حتى إذا جاءُوها فتحت أبوابها﴾**.

الثالث: شفاعته، ﷺ، في عمه أبي طالب أن يُخفَّف عنه العذاب[2]، وهذه مستثناة من قوله تعالى: **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾**[4]، وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي، ﷺ، ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار لكن خفف عنه، حتى صار ـ والعياذ بالله ـ في ضحضاح من نار وعليه نعلان منها يغلي منهما دماغه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول، ﷺ، لا أحد يشفع في كافر أبدًا إلا النبي، ﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة وإنما تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له، ﷺ، ولجميع المؤمنين:

وهي أنواع:

النـوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد

= أبي يعلى وابن المنذر وغيرهم، وضعفه ابن كثير في تفسيره ٢/١٤٦، وفي صحيح مسلم من حديث أنس «أنا أول شفيع في الجنة» رقم (١٩٦).

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) من حديث العباس بن عبدالمطلب، رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة/ باب قصة أبي طالب ٣/٦٢، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ١/١٩٤.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

(٤) سورة طه، الآية: ١٠٩.

. . . .

يستـدلّ عليها بقول الرسول ﷺ: **«ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلّا شفعهم الله فيه»**[1] فإنَّ هذه شفاعة قبل أن يدخل النار فيشفعهم الله في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث، وأجمعت عليها الصحابة، واتّفق عليها أهل الملل ما عدا طائفتين وهما: المعتزلة والخوارج، فإنَّهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصي مطلقًا، لأنَّهم يرون أنَّ فاعل الكبيرة مخلَّد في النار، ومن استحق الخلود فلا تنفع فيه الشفاعة، فهم ينكرون أن النبي، ﷺ، أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخلوها أن يخرجوا منها، لكن قولهم هذا باطل بالنص والإجماع.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال، ﷺ، في أبي سلمة: **«اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره ونوِّر له فيه واخلفه في عقبه»**[2].

والدعاء شفاعة كما قال ﷺ: **«ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يُشركون بالله شيئًا إلا شفَّعهم الله فيه»**.

إشكال وجوابه:

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلّا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: أنَّ الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذنٌ وزيادة.

---

(١) من حديث ابن عباس رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب من صلى عليه أربعون ٢/٦٥٥.

(٢) من حديث أم سلمة، رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب في إغماض الميت ٢/٦٣٤.

وقوله: ﴿من ذا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ﴾[1].

وأمَّا الشفاعة الموهومة التي يظنّها عبَّاد الأصنام من معبوديهم، فهي شفاعة باطلة؛ لأنَّ الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلاّ من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.

إذاً قوله: ﴿لله الشفاعة جميعًا﴾ تفيد أنَّ الشفاعة متعددة كما سبق[2].

قوله: ﴿من ذا الذي﴾.

من: اسم استفهام بمعنى النفي، أي لا يشفع أحد عند الله إلاّ بإذنه.

ذا: هل تجعل «ذا» اسمًا موصولاً كما قال ابن مالك في الألفيّة، أو لا تصح أن تكون اسمًا موصولاً هنا لوجود الاسم الموصول (الذي)؟ الثاني: هو الأقرب وإن كان بعض المعربين قال: يجوز أن تكون (الذي) توكيدًا لها.

والصحيح أن «ذا» هنا إما مركبة مع (من) أو زائدة للتوكيد، وأيًّا كان الإعراب فالمعنى: أنَّه لا أحد يشفع عند الله إلاّ بإذن الله.

وسبق أنَّ النفي إذا جاء في سياق الاستفهام فإنَّه يكون مضمنًا معنى التحدي، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به.

قوله: ﴿عنده﴾ ظرف زمان، وهو سبحانه في العلو.

فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقرَّبًا كالملائكة المقرَّبين إلاّ بإذنه الكوني، والإذن لا يكون إلاّ بعد الرضا.

وأفادت الآية: أنَّه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمال سلطانه جل وعلا، فإنه كلَّما كمل سلطان الملك فإنَّه لا أحد يتكلَّم عنده ولو كان بخير إلاّ بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانة له ودليلاً على أنَّه ليس كبيرًا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سبق ص (٣٣٢).

وقوله: **﴿وكم من مَلَكٍ في السمٰوات لا تُغْني شفاعتهم شيئًا إلَّا من بعد أن يأْذَنَ الله لمن يشاء ويرضى﴾**[1].

في نفوس من عنده، كان الصحابة مع الرسول، ﷺ، كأنَّما على رؤوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلّا إذا فتح الكلام فإنَّهم يتكلَّمون.

قوله: **﴿وكم من مَلَك﴾** كم: خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئًا إلّا بعد إذن الله ورضاه.

قوله: **﴿إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾**.

فللشفاعة شرطان هما:

١ ـ الإذن من الله لقوله: **﴿أن يأذن الله﴾**.

٢ ـ رضاه عن المشفوع له لقوله: **﴿ويرضى﴾** وكما قال تعالى: **﴿ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى﴾**[2] فلابد من إذنه تعالى ورضاه عن المشفوع له؛ إلّا في التخفيف عن أبي طالب وقد سبق ذلك[3].

وهذه الآية في سياق بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي، ﷺ، فيه: **﴿لقد رأى من ءايٰت ربه الكبرى﴾**[4] أي العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟ فهو أكبر وأعظم.

ثم قال: **﴿أفرأيتم اللّات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى﴾**[5]، وهذا استفهام للتحقير فبعد أن ذكر لهم هذه العظمة قال: أخبروني عن هذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهذا غاية في التحقير، ثم قال: **﴿ألكم الذكر وله الأنثى**

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٣) ص (٣٣٢).

(٤)(٥) سورة النجم، الآيات: ١٨ ـ ٢٦.

وقـوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الذين زعَمْتُمْ من دُون الله لا يَمْلِكُون مِثْقال ذَرَّةٍ في السمٰوات ولا في الأرضِ ﴾ الآيتين[1].

تلك إذًا قسمة ضيزى إن هي إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنَّى فلله الآخرة والأولى وكم من ملك﴾ الآية[2].

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلّا بعد إذنه ورضاه، فكيف باللّات والعزى وهي في الأرض؟!

ولهذا جاء بقوله: ﴿وكم من ملك في السموات﴾ مع أنَّ الملائكة تكون في السماوات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة التي في السماوات العلى، وهي عند الله سبحانه، فحتى الملائكة المقرَّبون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

قولـه: ﴿قل ادعوا﴾ الأمر هنا للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿ادعوا﴾ يحتمل معنيين هما:

١ - احضروهم.

٢ - ادعوهم دعاء مسألة.

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم كما قال تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾[3].

يكفـرون: يتبرؤون، ومع هذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٢.

(٢) سورة النجم، الآيات: ١٨ - ٢٦.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٤.

. . . .

يشرك بالله ويستنجد بغير الله، وكذلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم.

قوله: ﴿**لا يملكون مثقال ذرة**﴾ واحدة الذر وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلَّة.

قوله: ﴿**مثقال ذرَّة**﴾ وكذلك ما دون الذرَّة لا يملكونه، والمقصود بذكر الذرَّة المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلَّة أو كثرة فلا مفهوم له، فالمراد الحكم العام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿**إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾[1] أي: مهما بالغت في الاستغفار.

ولا يرد على هذا أن الله أثبت ملكًا للإنسان، لأنَّ ملك الإنسان قاصر وغير شامل ومتجدد وزائل، وليس كملك الله.

قوله: ﴿**ما لهم فيهما من شرك**﴾ أي ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله.

فيهما: أي في السماوات والأرض.

من شرك : أي لا يملكونه انفرادًا ولا مشاركة.

والضمير في «فيهما» يعود إلى السماوات والأرض.

وقوله: ﴿**من شرك**﴾ مبتدأ مؤخَّر دخلت عليه «من» الزائدة لفظًا لكنها للتوكيد معنى.

قاعدة: كل زيادة لفظية في القرآن فهي زيادة في المعنى.

أي لا يملكون أي مشاركة بوجه من الوجوه، فانتفى الانفراد وانتفت المشاركة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٠.

. . . .

وأتت «من» للمبالغة في النفي، وأنَّه ليس هناك شرك لا قليل ولا كثير.

قوله: ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾ الضمير في «ما له» يعود إلى الله تعالى وفي «منهم» يعود إلى الأصنام.

و«من» حرف جر زائد، و«ظهير» مبتدأ مؤخر بمعنى: مُعين كما قال تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾[1] أي معينًا، وقال تعالى: ﴿**والملائكة بعد ذلك ظهير**﴾[2] أي معين.

أي ليس لله معين يعينه في أفعاله فينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلَّق به العابدون، فهم لا يملكون شيئًا على سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة، لأنَّ من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منَّة عليك فربما تحابيه في إعطائه ما يُريد.

فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لم يبق إلاّ الشفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلاّ لمن أذن له**﴾[3] فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء، لأنَّ هذه الأصنام لا يأذن الله لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهذا من أكبر الآيات الدالة على بطلان عبادة الأصنام، لأنَّها لا تنفع عابديها لا استقلالاً ولا مشاركة ولا مساعدة ولا شفاعة، فتكون عبادتها باطلة، قال تعالى: ﴿**ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾[4] حتى ولو كان المدعو عاقلاً لقوله: «من» ولم يقل: «ما» ثم قال

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

قال أبو العباس: نفى الله عمَّا سواهُ كل مايتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره مُلْكٌ أو قِسْطٌ منهُ، أو يكون عونًا لله،

تعالى: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾[1] وكل هذه الآيات تدل على أنه يجب على الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبادة وخوفًا ورجاءً واستعانة ومحبة وتعظيمًا حتى يكون عبدًا لله حقيقة؛ يكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته لله وفي الله؛ لأنَّه مخلوق للعبادة فقط، قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾[2] أي لا نأمركم ولا ننهاكم، إذ لو خلقناكم فقط للأكل والشرب والنكاح لكان ذلك عين العبث، ولكن هناك شيء وراء ذلك وهو عبادة الله سبحانه في هذه الدنيا.

وقوله: ﴿**إلينا لا ترجعون**﴾ فنجازيكم، وإذا كان هذا هو حسبانكم فهو حسبان باطل.

قولـه: «**قـال أبـو العبـاس**» هو شيخ الإسـلام تقي الـدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية رحمه الله يُكنى بذلك، ولم يتزوَّج لأنَّه كان مشغولاً بالعلم والجهاد وليس زهدًا في السنة مات سنة (٧٢٨)هـ وله (٦٧) سنة و(١٠) أشهر.

قوله: «**لغيره ملك**» أي لغير الله في قوله: ﴿**لا يملكون مثقال ذرة**﴾.

قوله: «**أو قسط منه**» في قوله: «**وما له فيهما من شرك**».

قوله: «**أو يكون عونًا لله**» في قوله تعالى: ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾. بدون استثناء.

قوله: «**ولم يبق إلاّ الشفاعة**» فبيَّن أنها لا تنفع إلاّ من أذن له الرب، كما

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٦. (٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

ولم يَبْق إلا الشَّفاعَةُ، فَبيَّنَ أَنَّها لا تَنْفَعُ إلا لمن أَذن له الرَّبُّ، كما قال: ﴿ ولا يَشْفَعُونَ إلا لمن ارْتَضَى ﴾[1].

فهذه الشفاعةُ التي يَظُنُّها المشركون هي مُنْتَفِيةٌ يوم القيامة، كما

قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى﴾ وقال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه﴾[2] ونعلم من آيات أخرى أنَّه لا يأذن إلا لمن ارتضى، ومعلوم أنَّه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذٍ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أنَّ شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فإنَّ هؤلاء يقدِّسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنَّهم لا يملكون، هم بشر مثلكم خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السماوات، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، إذًا فكيف تتعلَّقون بهم؟ حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين؟

والواجب: علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله وليست استقلالاً، أمَّا عبادتهم كعبادة الله فهذه جاهليَّة وكفر.

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، فالله سبحانه وتعالى نفى أن تنفعهم أصنامهم بل قال: ﴿إنَّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾[3] حتى الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها فكيف تكون شافعة؟ بل هي في النار وعابدوها.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

نفاها القرآن، وأخْبر النبي ﷺ: «**أنه يأتي فيسجد لربه ويحَمَدُهُ - لا يبدأ بالشفاعة أوَّلاً - ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسْمَعْ، وسلْ تُعْط، واشْفَع تُشَفَّعْ**»[1].

وقال أبو هريرة له ﷺ: **من أسْعدُ الناس بشفاعتك؟**

قوله: «**وأخبر النبي، ﷺ، أنَّه يأتي فيسجد لربه**» أي: وكما أخبر، أو نجعل الواو استئنافية.

فإذا كان الرسول، ﷺ، وهو أعظم الناس جاهًا عند الله لا يشفع إلّا بعد أن يحمد الله ويُثني عليه، فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبل، ويطول سجوده فكيف بهذه الأصنام؛ هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: «**ارفع رأسك**» أي من السجود.

قوله: «**وقل يسمع**» السامع هو الله، و«يسمع» جواب الأمر مجزوم.

قوله: «**وسَلْ تُعْطَ**» أي سل ما بدالك تعطى إيَّاه، وتعطَ: مجزوم بحذف حرف العلة جوابًا لسل.

قوله: «**واشْفَع تُشفَّع**» وحينئذٍ يشفع النبي، ﷺ، في الخلائق أن يقضي بينهم.

قوله: «**وقال أبو هريرة له ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك**»؟ هذا السؤال من أبي هريرة للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**لقد كنت أظن أن لا يسألني أحد غيرك عنه لما أرى من حرصك على العلم**». وفي هذا دليل على أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

---

(١) سبق ص (٣٣٣).

قال: «من قال لا إله إلا الله خالصًا مِن قلبه»[1].

قوله: «**من قال لا إلـه إلا الله خالصًا من قلبه**» وعليه فالمشركون ليس لهم حظٌّ من الشفاعة لأنَّهم لا يقولون: لا إلـه إلا الله، قال تعالى: ﴿**إنَّهم كانوا إذا قيـل لهم لا إلـه إلا الله يستكـبرون. ويقـولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾[2] وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿**أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب**﴾[3].

والحقيقــة: أن صنيعهم هو العجــاب، قال تعــالى: ﴿**بـل عجبت ويسخرون**﴾[4]. وقال تعالى: ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم أءِذا كنَّا ترابًا أئنَّا لفي خلق جديد**﴾[5].

وقوله: «**خالصًا من قلبه**» خرج بذلك من قالها نفاقًا، فإنَّه لا حظّ له في الشفاعة فإنَّ المنافق يقول: لا إلـه إلا الله ويقول: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله، لكن الله عز وجل قابل شهادتهم هذه بشهادته على كذبهم قال تعالى: ﴿**والله يعلم إنَّك لرسوله والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون**﴾[6] أي في شهادتهم، في قولهم: إنَّك لرسول الله فهم كاذبون في شهادتهم وفي قولهم: لا إلـه إلا الله لأنَّهم لو شهدوا ذلك ما نافقوا، ولا أبطنوا الكفر.

قوله: «**خالصًا**» أي سالمًا من كل شوب، فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

---

(١) من حديث أبي هريرة رواه البخاري، كتاب العلم/ باب الحرص على الحديث ١/٥٢.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٣٦.

(٣) سورة ص، الآية: ٥.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٢.

(٥) سورة الرعد، الآية: ٥.

(٦) سورة المنافقون، الآية: ١.

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكونُ لمن أَشْرَك بالله.

وحقيقتُه أنَّ الله سبحانه هو الذي يَتَفَضَّلُ على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسِطةِ دعاء من أذِن له أن يَشْفع لِيُكْرِمَهُ،

قوله: «**من قلبه**» لأنَّ المدار على القلب وهو ليس معنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس قال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه**»[1].

وبهذا يبطل قول من قال: إنَّ العقل في الدماغ، ولا يُنكر أنَّ للدماغ تأثيرًا في الفهم والعقل، لكن العقل في القلب ولهذا قال أحمد: «العقل في القلب وله اتصال في الدماغ».

ومن قال كلمة الإخلاص خالصًا من قلبه، فلابد أن يطلب هذا المعبود باتباع الأوامر واجتناب النواهي.

قولـه: «**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص**» لأنَّ من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾.

قوله: «**وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع**».

وحقيقته: أي أنَّ الفائدة منها أنَّ الله عز وجل أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة.

والحكمة من هذه الواسطة: بيَّنها بقوله: «**ليكرمه وينال المقام المحمود**» ولو شاء الله لغفر لهم بلا شفاعة، ولكنه أراد بيان فضل هذا الشافع وإكرامه أمام الناس، ومن المعلوم أنَّ من قبل الله شفاعته فهو عنده بمنزلة عالية فيكون

---

(١) من حديث النعمان بن بشير، رواه البخاري، كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٣٤، ومسلم، كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال، وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩.

وينالَ المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ماكان فيها شِرْكٌ، ولهذا أَثْبَت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بيَّن النبي ﷺ أنَّها لا تكونُ إلا لأهل الإخلاص والتوحيد» انتهى كلامه.

في هذا إكرام للشافع من وجهين:

الأول: ظهور فضله على المشفوع له.

الثاني: ظهور جاهه عند الله تعالى.

قوله: «**المقام المحمود**» يعني بذلك الرسول ﷺ أي أنَّ الله وعد رسوله أن ينال المقام المحمود، ومن المقام المحمود: أن الله يقبل شفاعته بعد أن يتراجع الأنبياء أولو العزم عنها.

ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة فهذا مقام يحمد عليه فهو فضل من الله، ويحمد على قدر شفاعته.

قوله: «**فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك**» هذا كلام لشيخ الإسلام.

ما: اسم موصول أي التي كان فيها شرك.

قوله: «**وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع**» ومن ذلك قوله تعالى: **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه﴾**[1] وقوله: **﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له﴾**[2] وقوله: **﴿وكم من ملك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾**[3] وقد بين الرسول، ﷺ، هذه المواضع،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٦.

. . . .

بل القرآن بين أنَّها لا تكون إلّا لأهل الإخلاص والتوحيد.

قولــه: «**وقـد بينَّ النبي، ﷺ، أنَّها لا تكـون إلّا لأهـل الإخـلاص والتـوحيـد**» أمَّا أهل الشرك فإنَّ الشفاعة لا تكون لهم، لأنَّ شفعاءهم هم الأصنام، وهي باطلة.

وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد: أنَّ الشفاعة الشركيَّة تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

فيه مسائل : الأولى: تفسيرُ الآياتِ. **الثانية**: صفةُ الشفاعةِ المنفيَّةِ. **الثالثة**: صفةُ الشفاعةِ المثبتة. **الرابعة**: ذكرُ الشفاعةِ الكبرى وهي المقامُ المحمودُ. **الخامسة**: صفةُ ما يفعلهُ ﷺ أنَّه لا يبدأُ بالشفاعةِ بل يسجدُ فإذا أُذنَ له شفعَ. **السادسة**: من أسعدُ الناس بها؟

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات: وهي خمس، وسبق تفسيرها في أول الباب.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية: وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك فإنَّها منفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة: وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذنه ورضاه عن المشفوع له.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود: وهي ما أشار إليه الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(1).

الخامسة: صفة ما يفعله، ﷺ، وأنَّه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد فإذا أذن له شفع: كما قال شيخ الإسلام رحمه الله وهو ظاهر وهذا يدل على عظمة الرب، وكمال أدب النبي ﷺ.

السادسة: مَنْ أسعد الناس بها؟: هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إلـه إلا الله هذا هو التوحيد، خالصًا من قلبه.

ولا إلـه إلا الله: معناه: لا معبود بحق إلاّ الله، وليس المعنى: لا معبود إلاّ الله لأنَّه لو كان كذلك لكان الواقع يكذِّب هذا، إذ إنَّ هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمَّى آلهة.

---

(1) ص (٣٤١).

السابعة: أنَّها لا تكونُ لمن أشركَ بالله. **الثامنة**: بيانُ حقيقتها.

وعلمنا: «أنَّ لا إلـه إلا الله» تتضمن نفيًا وإثباتًا، هذا هو التوحيد لأنَّ الإثبات المجرَّد لا يمنع المشاركة، والنفي المجرَّد تعطيل محض، فلو قلت: لا إلـه معناه عطَّلت كل إلـه، ولـو قلت: الله إلـه ما وحَّدت، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وإلـهكم إلـه واحد**﴾[1] لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله: لقوله تعالى: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾[2] وغير ذلك مما نفى الله من الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «**خالصًا من قلبه**».

الثـامنـة: بيان حقيقتهـا: وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

ما الحكمة في أنَّ الله أذِنَ له أن يشفع لعمه أبي طالب مع أنَّه كافر؟

الجواب: لأنه دافع عن الدين وعن الرسول، ﷺ، ومع ذلك لم ينج من النَّار.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

باب

قول الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ الآية

مناسبة هذا الباب لما قبله:

هذا الباب نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحدًا بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحدًا حتى يقوم بما أمر الله به.

قولـه: ﴿إنَّك لا تهدي من أحببت﴾[1] الخطاب للنبي، ﷺ، المُتَّخذ خليلاً، والمحاوَل هدايته عمّه أبو طالب، أو من هو أعم.

فأنت يا محمد المخاطب بكاف الخطاب، وله المنزلة الرفيعة عند الله، لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنَّه إذا أحب هدايته فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكّن من هذا الأمر، لأنَّ الأمر كله بيد الله قال تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذِّبهم﴾[2] وقال تعالى: ﴿ولله غيب السمٰوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾[3] فأتى بـ «أل» الدالة على الاستغراق لأنَّ «أل» في قوله: «الأمر» للاستغراق، فهي نائبة مناب كل، أي وإليه يرجع كل الأمر ثم جاءت مؤكّدة بكل، وذلك توكيدان.

والهداية التي نفاها الله عن رسوله، ﷺ، هداية التوفيق، والتي أثبتها هداية الدلالة والإرشاد، ولهذا أتت مطلقة لبيان الذي بيده هو هداية الدلالة فقط، لا أن يجعله مهتديًا قال تعالى: ﴿وإنَّك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[4].

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

وفي الصحيح عن ابن المسيَّب عن أبيه، قال: لَمَّا حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة،

فلم يخصص سبحانه فلانًا وفلانًا ليبينِّ أن المراد: تدل، فأنت الآن تفتح الطريق أمام الناس فقط وتبينِّ لهم وترشدهم، وأمَّا إدخال الناس في الهداية، فهذا أمر ليس إلى الرسول، ﷺ، إنَّما هو مما تفرَّد الله به سبحانه، فنحن علينا أن نبينِّ وندعو ونبلِّغ، وأمَّا هداية التوفيق أي: أن الإنسان يهتدي فهذا إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الجمع بين الآيتين.

قوله: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت**﴾ فيه إشارة إلى أنَّ النبي، ﷺ، يحب أبا طالب.

والجواب: إمَّا أن يُقال:

إنَّه على تقدير أنَّ المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو.

أو يُقال: إنَّه أحب عمّه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافرًا.

أو يُقال: إنَّ ذلك قبل النَّهي عن محبَّة المشركين.

والأول أقرب، أي من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافي هذا المحبَّة الشرعية، وقد أُحبَّ أن يهتدي هذا الإنسان ليس لأنه فلان، وإن كنت أبغضه شخصيًا لكفره، ولكن لأنّي أحب أن النَّاس يسلكون دين الله.

قوله: «**في الصحيح**» أي: في الصحيحين.

قوله: «**أبا**» بالألف مفعول به منصوب بالألف؛ لأنَّه من الأسماء الخمسة. والوفاة: يعني الموت.

جاءهُ رسول الله ﷺ وعنده عبدالله بن أبي أُمية وأبو جهلٍ ، فقال له : «**ياعمِّ، قل لا إله إلا الله، كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله**»، فقالا له : أترغَبُ عن مِلَّة عبدالمطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ ،

قوله : «**فقال يا عم، قل لا إلـه إلا الله**» أتى ﷺ بهذا الوصف الدال على العطف لأنَّ العم صنو الأب أي كالغصن معه.

والصنو: الغصن الذي أصله واحد فكأنه معه كالغصن.

قوله : «**يا عم**» فيها وجهان :

يا عمِ : على تقدير أنها مضافة إلى الياء.

ويا عمُ : على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله : «**قل لا إلـه إلا الله**» يجوز أنَّه قاله على سبيل الأمر والإلزام لأنَّه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول لا إلـه إلاّ الله.

ويجوز أنه قاله على سبيل الإرشاد والتوجيه.

ويجوز أنَّه قاله على سبيل الترجِّي والتلطُّف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها ولهذا بادر بالإنكار.

قوله : «**كلمة**» منصوبة لأنَّها بدل لا إلـه إلاّ الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنَّصب أن تكون بالرَّفع أي : هي كلمة، ولكن النَّصب أوضح.

قوله : «**أُحاجُّ**» بضم الجيم وفتحها فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح مجزومة جوابًا للأمر: «قل» أي : إن تقل أحاج.

قال بعض المعربين: إنَّها جواب لشرط مُقدَّر أي : إن تقل أحاج.
وبعضهم يرى أنها جواب للأمر مباشرة، وهذا أسهل لأنَّ الأصل عدم التقدير.

والمعنى : أذكرها حجة لك عند الله، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال: إنَّ معناها أجادل الله بها، ولكن الذي

فأعادا فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إلـه إلا الله، فقال النبي ﷺ: «**لأستَغْفِرَنَّ لك، ما لم أُنْه عنك**»،

يظهر لي: أنَّ المعنى: أحاج لك بها عند الله، أي أذكرها حجة لك، كما جاء في بعض الروايات: «**أشهد لك بها عند الله**»[1].

قوله: «**فقالا له: أترغب عن ملَّة عبدالمطَّلب؟**».

القائل هما: عبدالله بن أبي أميَّة، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه، لأنَّهم عرفوا أنَّه إذا قالها ـ كلمة الإخلاص ـ وحَّد، وملة عبدالمطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبدالمطلب حتى لا يخرج عن ملَّة آبائهم.

وقـد مات أبـو جهـل على ملَّة عبدالمطلب، أمَّا عبدالله بن أبي أميَّة، والمسيب فأسلما، فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي الله عنهما.

قوله: «**ملَّة عبدالمطلب**» أي دين عبدالمطلب.

قوله: «**فأعاد عليه النبي ﷺ**» أي قوله قل لا إلـه إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

قوله: «**فأعادا عليه**» أي أترغب عن ملَّة عبدالمطلب؟

قوله: «**فقال النبي، ﷺ، لأستغفرنَّ لك**» إلخ.

جملة: «**لأستغفرنَّ لك**» مؤكَّدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكأنَّ النبي، ﷺ، في نفسه شيء من القلق حيث قال: «**ما لم أُنْهَ عنك**» فوقع الأمر كما توقَّع.

قوله: «**ما لم أُنْهَ عنك**» فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو الله.

---

(١) رواها مسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ١/ ٥٤.

فأنـزل الله عزَّ وجـل: ﴿مـاكـان للنَّبِيِّ والـذين آمنوا أن يستغفِرُوا للمشركين﴾.

قوله: «ما كان» ما: نافية، وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿أن يستغفروا﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿للنبي﴾ خبرٌ مقدَّم، أي: ما كان استغفاره.

واعلم: أنَّ ما كان، أو ما ينبغي، أو لا ينبغي ونحوها، إذا جاءت في القرآن فالمراد أنَّ ذلك ممتنع غاية الامتناع كقوله تعالى: ﴿ما كان لله أن يتَّخذ من ولد﴾[1] وقوله: ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتَّخذ ولدًا﴾[2] وقوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر﴾[3]. وقوله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام»[4].

وقوله: ﴿أن يستغفروا﴾ أي يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ أي حتَّى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبي، ﷺ، ومرَّ بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وبكى من حوله من الصحابة[5]

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٤) من حديث أبي موسى، رواه مسلم، كتاب الإيمان/ باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» ١/ ١٦٠.

(٥) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي، ﷺ، ربه عز وجل زيارة أمه ٢/ ٦٧١.

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿**إنَّك لا تَهْدِي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاءُ**﴾[1][2].

فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين، لأنَّ هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة، لأنَّك إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق فهو اعتداء في الدعاء.

قوله: «**وأنزل الله في أبي طالب**» أي في شأنه.

قوله: ﴿**إنَّك لا تهدي من أحببت**﴾ الخطاب للرسول ﷺ.

قوله: ﴿**يهدي من يشاء**﴾ كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى مقرون بالحكمة، أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنَّه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضلّه أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره، فالذين يلجأون به، ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنَّه ﷺ لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنَّه قد قام معه قيامًا عظيمًا، ناصره وآزره في دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

الإشكالات الواردة في الحديث:

١ - الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذلك[3].

٢ - قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: ﴿**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنِّي تبت الآن**﴾[4] وظاهر الحديث قبول توبته.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ ٣/٢٧٣، ومسلم، كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ١/٥٤.

(٣) ص (٣٥١).

(٤) سورة النساء، الآية: ١٨.

. . . .

والجواب على ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يُقال لما حضرت أبا طالب الوفاة أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أنَّ هذا خاص بأبي طالب مع النبي، ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أ ـ أنَّـه قال: «كلمة أحاج لك بها عند الله» ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب ـ أنَّه سبحانه أذن للنبي، ﷺ، بالشفاعة لعمه، وهذا لا يصح ولا يستقيم إلاّ له، والشفاعة له ليخرجه من النار، أو ليخفف عنه العذاب.

ويدفعون قول من قالوا: حضرته الوفاة كانت عليه علامات الموت: بأنَّ حضرته الوفاة مطابقة تمامًا لقوله تعالى: ﴿**حتى إذا حضر أحدهم الموت**﴾ وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب الاختصاص، وهذا خاص بالنبي، ﷺ، في أبي طالب نفسه.

٣ ـ أنَّ قولـه تعـالى: ﴿مـا كان للنبي والـذين آمنـوا أن يستغفـروا للمشركين﴾[1] هذه الآية من سورة التوبة وهي متأخرة مدنيَّة، وقصة أبي طالب مكيَّة وهـذا يدلّ على تأخّر النَّهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن، ﷺ للاستغفار لأمّه[2] وهو ذاهب للعمرة، وعلى فرض أنها مكيَّة هل يستأذن لأمه؟

الجـواب: لا يمكن، فدل على تأخر الآية وأن المعنى: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، وليس المعنى أنَّها نزلت في ذلك الوقت.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) سبق ص (٣٥٥).

. . . .

وقيل: إنَّ سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

٤ ـ أنَّ أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إلـه إلا الله، لكن بدون قول قل، لأنَّه ربما مع الضجر يقول: لا؛ لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: قل.

والجواب: أنَّ هذا كافر فإذا قيل له: قل وأبى فهو على حاله لم يضرَّه التلقـين بهذا، فإمَّـا أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه، وإمَّا أن يهديه الله، بخلاف المسلم فهو على خطر لأنَّه ربما يضرّه.

فيه مسائل: **الأولى**: تفسير قوله: ﴿**إنكَ لا تهدي من أحببتَ**﴾ الآية.
الثانية: تفسير قوله: ﴿**ما كان للنبي**﴾. الآية.
الثالثة: وهي المسألة الكبيرة تفسيرُ قوله «**قل لا إلـه إلا الله**» بخلافِ ما عليهِ من يدَّعي العلم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿**إنَّك لا تهدي من أحببت**﴾ أي من أحببت هدايته.

وسبق تفسيرها، وبيَّنا أنَّ الرسول، ﷺ، إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحدًا وهو حي، فكيف يستطيع أن يهدي أحدًا وهو ميِّت؟ وأنَّه كما قال الله تعالى في حقِّه: ﴿**قل إنّي لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا**﴾[1].

الثانية: تفسير قوله: ﴿**ما كان للنبي**﴾ الآية.

وقد سبق تفسيرها، وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربى.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: المرحوم، فإنَّـه حرام لأنَّ هذا مضـادة لله سبحـانه وتعالى، وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره، لأنَّ المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كلّه لله.

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة:

أي الكبيرة من هذا الباب، وقوله: أي قول النبي، ﷺ، لعمه قل: لا إلـه إلا الله، وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إلـه سوى الله، ولهذا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

---

(١) سورة الجن، الآية: ٢١.

الرابعة: أنَّ أبا جهلٍ ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا دخل قالَ للرجلِ «قل لا إلـه إلا الله» فقبَّحَ الله أبا جهل! مَنْ أعلم منهُ بأصل الإسلام.

وقوله: «**بخلاف ما عليه من يدعي العلم**» كأنَّه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إلـه إلا الله حيث يقولون: إنَّ الإلـه هو القادر على الاختراع، وأنَّه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلّا الله وهذا تفسير باطل.

نعم هو حق لا قادر على الاختراع إلّا الله، لكن ليس هذا معنى لا إلـه إلّا الله، ولكن المعنى: لا معبود بحق إلا الله، لأننا لو قلنا: إن معنى لا إلـه إلا الله لا قادر على الاختراع إلا الله، صار المشركون الذين قاتلهم الرسول، ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم، مسلمين، فالظاهر من كلامه، رحمه الله، أنَّهم أهل الكلام الذين يفسِّرون لا إلـه إلا الله بتوحيد الربوبيَّة، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إلـه إلا الله.

الرابعة: أنَّ أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ:

أبو جهل ومن معه يعرفون مُراد النبي، ﷺ، بقول: لا إلـه إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: أترغب عن ملة عبدالمطَّلب؟ وهو أيضًا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف مراد النبي، ﷺ، بهذه الكلمة قال تعالى: ﴿**إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلـه إلا الله يستكبرون. ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾[1].

فالحاصل: أنَّ الذين يدَّعون أنَّ معنى لا إلـه إلا الله أي لا قادر على الاختراع إلّا هو، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل.

واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنَّهم أسلموا، وبذلك

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٦.

الخامسة: جِدّه، ﷺ، ومبالغته في إسلام عمه. **السادسة**: الردُّ على من زعم إسلام عبدالمطلب وأسلافه.

صاروا أعلم ممن بعدهم؛ خاصة من بعدهم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف.

الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه:

حرصه، ﷺ، وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث لسببين هما:

١ ـ القرابة.

٢ ـ لما أسدى للرسول والإسلام من المعروف، فهو على هذا مشكور وإن كان على كفره مأزور وفي النار، ومن مناصرة أبي طالب أنَّه هجر قومه من أجل معارضة النبي، ﷺ، ومناصرته وكان يعلن على الملأ صدقه ويقول قصائد في ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقلِّب القلوب كما في الحديث: «**إنَّ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**» ثم قال، ﷺ، في نفس الحديث: «**اللهم يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[1].

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبدالمطلب:

بدليل قولهما: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فدل على أنَّ ملة عبدالمطلب الكفر والشرك.

وفي الحديث رد على من قال: بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة قبَّحهم الله.

---

(١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، رواه مسلم، كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى للقلوب كيف يشاء ٤/ ٢٠٤٥.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.
الثامنة: مضرةُ أصحاب السوءِ.

السابعة: كونه، ﷺ، استغفر له فلم يُغفر له:

الرسول، ﷺ، أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يُجيب دعاءه لعمه أبي طالب، لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: **﴿قل إنَّ الأمر كله لله﴾**(1). وقال تعالى: **﴿وإليه يرجع الأمر كلّه﴾**(2) ليس لأحد تصرّف في هذا الكون إلّا ربّ الكون.

وكذا أمُّه، ﷺ، لم يؤذن له في الاستغفار لها، فدلّ على أنَّ أهل الكفر ليس أهلاً للمغفرة بأي حال، ولا يُجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنَّما يُدعى لهم بالهداية وهم أحياء.

الثامنة: مضرَّة أصحاب السوء على الإنسان:

أي ـ والله أعلم ـ لولا هذان الرجلان لربما وفّق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي، ﷺ، لكن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ ذكَّراه نعرة الجاهليَّة، ومضرَّة رفقـاء السوء ليس خاصًا بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبَّه النبي، ﷺ، جليس السوء بنافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة(3)، وقال ﷺ: «**فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه**»(4) وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي، ﷺ، بسند لا بأس به:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(2) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(3) من حديث أبي موسى، رواه البخاري، كتاب الذبائح/ باب المسك ٤٦٣/٣، ومسلم كتاب البر/ باب استحباب مجالسة الصالحين ٢٠٢٦/٤.

(4) سبق ص (٥٩).

«**المرء على دينِ خليله فلينظر أحدكم من يُخالل**»[1] فالمهمّ أنَّه يجب على الإنسان العاقل أن يُفكِّر في أصحابه هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم؛ لأنهم أشد عداءً من الجرب، أو هل هم أصحاب خير يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ويفتحون له أبواب الخير فعليه بهم.

التاسعة: مضرَّة تعظيم الأسلاف والأكابر:

لأنَّ أبا طالب اختار أن يكون على ملَّة عبدالمطلب حين ذكَّروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك فلا يضرّ، بل هو خير فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شكَّ أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابرلما هم عليه من العلم والسِّن فليس فيه مضرَّة.

وإن عظَّمناهم لما هم عليه من الباطل فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً من يُعظِّم أبا جهل لأنَّه سيد أهل مكة، وكذلك عبدالمطَّلب وغيره، فهو ضرر عليه ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر، لأنَّهم أعداء الله عز وجل، وكذلك لا يُعظِّم الرؤساء من الكفَّار في زمانه، فإنَّ فيه مضرَّة؛ لأنَّه قد يُورث ما يُضادّ الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلَّة من الكتاب والسنة.

---

(١) من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد ٢/٣٠٣، ٣٣٤، رواه أبو داود، كتاب الأدب/ باب من يؤمر أن يجالس ٥/١٦٨، والترمذي، الزهد/ باب الرجل على دين خليله رقم ٢٣٧٩، وقال: «حسن غريب».

العـاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك.

الحادية عشرة: الشاهدُ لكون الأعمال بالخواتيم لأنه لو قالها لنفعته.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك:

شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف، هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: «أترغب عن ملَّة عبدالمطلب؟» وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنَّا على آثارهم مقتدون**﴾[1].

فالمبطلون يقولون في شبهتهم إنَّ أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم ويقولون كيف نسفِّه أحلامهم؟ ونضلل ما هم عليه؟

وهذا يُوجد في المتعصِّبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم حيث لا يقبلون قرآنا ولا سُنَّة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إنَّ بعضهم يجعلهم معصومين كالرَّافضة والتيجانيَّة والقاديانيَّة وغيرهم. فهم يرون أنَّ إمامهم لا يخطىء، والكتاب والسنة يمكن أن يخطيئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعًا لما جاء به الرسول، ﷺ، ومن خالفه من الكُبراء والأئمة فإنَّهم لا يُحتجّ بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنَّة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعُتذر لهم بما ذكره أهل العلم ومن أحسن ما أُلِّف كتاب شيخ الإسلام: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالينَ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها مع مبالغته ﷺ وتكريره فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

وهذا مبنيّ على القول بأنَّ معنى حضرته الوفاة أي ظهرت عليه علاماتها ولم تحضره الوفاة.

الثانية عشرة: التأمُّل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين.. إلخ وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.



باب

ماجاء أن سبب كفر بني ادم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قوله: «سبب كفر بني آدم».

السبب في اللغة: ما يتوصَّل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾[1] أي بشيء يوصله إلى السماء.

ومنه أيضًا سمّي الحبل سببًا؛ لأنَّه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

وأما في الاصطلاح عند أهل الأصول: هو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

أي إذا وجد السبب وجد المسبِّب، وإذا عُدِمَ السبب عُدم المسبِّب إلاّ أن يكون هناك سبب آخر.

قوله: «بني آدم» يشمل الرجال والنساء، لأنَّه إذا قيل: بنو فلان وهم قبيلة شمل ذكورهم وإناثهم، أمَّا إذا قيل: بنو فلان أي رجل معينٍ فالمراد بهم: الذكور.

قوله: «وتركهم» يعني وسبب تركهم.

قوله: «دينهم»: مفعول ترك، لأنَّ ترك مصدر مضاف إلى فاعله، و«دينهم» يكون مفعولاً به.

قوله: «هو الغلو» هذا الضمير يُسمى ضمير الفصل وهو من أدوات التوكيد. والغلو: خبر لأن ضمير الفصل على القول الراجح ليس له محل من الإعراب.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٥.

وقول الله عز وجل: ﴿يأأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾[1].

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحًا أو قدحًا.

والقدح: يُسمى ثناء، ومنه الجنازة التي مرَّت فأثنوا عليها شرًّا[2].

والغلو هنا: مجاوزة الحدّ في الثناء مدحًا.

قوله: «**الصالحين**» الصالح: هو الذي قام بحق الله وحق العباد. وفي هذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بدون أن يُنسب إلى الله بقوله: «**أنَّ سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**» وهذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحًا، وذلك إذا كان السبب قد أثبت من قبل الشرع، أو الحس، أو الواقع.

وقد قال الرسول، ﷺ: «**لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[3] يعني عمّه أبا طالب.

قوله: «**وقول الله عز وجل**» يعني وباب قول الله عز وجل.

قوله: ﴿**يا أهل الكتاب**﴾ نداء، وهم اليهود والنصارى، والكتاب: هو التوراة والإنجيل.

قولـه: ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ أي لا تتجـاوزوا الحدّ مدحًا أو قدحًا. والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عمومًا، فإنَّهم في عيسى بن مريم عليه السلام غلوا مدحًا وقدحًا حيث قال النصارى: إنَّه ابن الله وجعلوه ثالث ثلاثة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) من حديث أنس، رواه البخـاري، كتـاب الجنائز/ باب ثناء الناس على الميت ١/ ٤٢٠ ومسلم، كتاب الجنائز/ باب فيمن يثنى عليه خير أو شر ٢/ ٦٥٤.

(٣) من حديث العباس بن عبدالمطلب، رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار/ باب منقبة أبي طالب ٣/ ٦٢، ومسلم كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي، ﷺ، لأبي طالب ١/ ١٩٤.

. . . .

واليهود غلوا فيه قدحًا وقالوا: إنَّ أمّه زانية، وإنَّه ولد زنا، قاتلهم الله فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط أو تفريط.

قوله: ﴿**ولا تقولوا على الله إلّا الحق**﴾ وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه إلـه واحد أحد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

قولـه: ﴿**إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله**﴾ هذه صيغة حصر، وطريقه «إنما» فيكون المعنى: ما المسيح عيسى بن مريم إلّا رسول الله، وأضافه إلى أمّه ليقطع قول النصارى الذين يضيفونه إلى الله.

وفي قولـه: ﴿**رسـول الله**﴾ إبـطال لقـول اليهود: إنَّه كذَّاب، ولقول النصارى: إنَّه إلـه.

وفي قوله: ﴿**وكلمته**﴾ إبطال لقول اليهود: إنَّه ابن زنا.

وكلمته التي ألقاها إلى مريم: أنْ قال له كُنْ فكان.

قولـه: ﴿**وروح منـه**﴾ أي أنـه عز وجل جعل عيسى، عليه الصلاة والسـلام، كغـيره من بني آدم من جسـد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفًا وتكريمًا كما في قوله تعالى في آدم: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾[1] فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ الخطاب لأهل الكتاب ومن رسله محمد، ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿**ولا تقولوا ثلاثة**﴾ أي إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿**انتهوا خيرًا لكم**﴾ خيرًا: خبر ليكن المحذوفة أي انتهوا يكن خيرًا لكم.

---

(١) سورة ص، الآية: ٧٢.

. . . .

قوله: ﴿**إنَّما الله إلـه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السمـٰوات وما في الأرض**﴾ أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنَّه مالك لما في السمـٰوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿**وكان الله غنيًّا حميدًا**﴾ غنيًّا: لا يحتاج إلى ولد يعقبه في خلقه وحميدًا: أي محمودًا، لكمال صفاته وعدم مماثلة الخلق له، أو مماثلته لهم.

الشاهد من هذه الآية قوله: ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ فنهى عن الغلوّ لأنَّه يتضمَّن مفاسد كثيرة منها:

١ ـ أنَّه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحًا، وتحته إن كان قدحًا.

٢ ـ أنَّه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣ ـ أنَّـه يصـدّ عن تعـظيم الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ النَّفس إمَّا أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه تعلَّقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

٤ ـ أنَّ المغلو فيه إن كان موجودًا فإنَّه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها وهذه مفسـدة تفسـد المغلو إن كانت مدحًا، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحًا.

قوله: ﴿**في دينكم**﴾ الدين تقدم أنَّه يُطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل.

والمعنى: لا تجعلوا عبادتكم غلوًّا في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم يدخل الغلو في العبادات مثل: أن يرهق الإنسان نفسه

وفي الصحيح عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قول الله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم، ولا تذرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوق ونَسْرًا﴾[1].

بالعبادة ويتعبها فإنَّ النبي، ﷺ، نهى عن ذلك[2]، ومثل: أن يزيد عن المشروع كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات أو غير هذا، فالنهي عن الغلو في الدين يعمّ الغلو من كل وجه.

قوله: «**وفي الصحيح**» أي في صحيح البخاري، وهذا الأثر اختصره المصنِّف.

قوله: ﴿**وقالوا**﴾ أي قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿**لا تذرن**﴾ أي لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بالنون.

قوله: ﴿**آلهتكم**﴾ هل المراد لا تذروا عبادتها، أو لا تذروا عبادتها وتمكنوا أحدًا من إهانتها؟

الجواب: المعنيان:

أي: انتصروا لآلهتكم ولا تمكِّنوا أحدًا من إهانتها ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضًا، بل احرصوا عليها، وهذا من التَّواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

قوله: ﴿**ولا تذرن**﴾ لا: زائدة للتوكيد مثلها في قوله تعالى: ﴿**ولا الضالين**﴾[3] وليست نافية استقلالاً؛ لأنَّها معطوفة على النفي وكذلك ما بعدها.

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٣.

(٢) كما في حديث عائشة، رواه البخاري، كتاب التهجد/ باب ما يكره من التشديد في العبادة ١/ ٣٥٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين/ باب أمر من نعس في صلاته... ١/ ٥٤٢.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

قوله: ﴿ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا﴾ هذه الخمسة كان لها مزيَّة على غيرها لأنَّ قوله: ﴿آلهتكم﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنَّها كبار آلهتهم.

والآلهة: جمع إلـه وهو كل ما عُبِدَ سواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان بحق فهو الله، وإن كان بباطل فهو غير الله.

والمعنى: تواصوا بهذه الخمسة، وهذا تخصيص بعد تعميم، وكأنَّ هذه الخمسة كبار آلهتهم والعياذ بالله.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في هذه الآية: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح».

وفي هذا التفسير إشكال حيث قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، وظاهر القرآن: أنَّها قبل نوح قال تعالى: ﴿قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خسارًا. ومكروا مكرًا كُبَّارًا. وقالوا لا تذرن آلهتكم﴾[1]. فظاهر الآية الكريمة: أنَّ قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبوا وقالوا: ﴿لا تذرن آلهتكم﴾.

ويحتمل، وهو بعيد، أن هذا في أول رسالة نوح وأنَّه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوها، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم تفسير الآية أن يُقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين.

قوله: «أوحى الشيطان» أي وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

(١) سورة نوح، الآيات: ٢١ ـ ٢٣.

إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعْبَدْ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِي العلمُ، عُبِدَتْ»[1].

قولـه: **«أن انصبـوا إلى مجالسهم»** الأنصاب: جمع نصب وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: **«وسموهم بأسمائهم»** أي ضعوا أنصابًا في مجالسهم وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر، لأجل إذا رأيتموهم تتـذكـروا عبـادتهم فتنشـطوا عليهـا، هكذا زيَّن لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم: **﴿هل أدلُّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾**[2]؟

وإلاّ إذا كنَّا لا نتذكر عبادة الله إلاّ برؤية أشباه هؤلاء فليست هذه عبادة.

قوله: **«ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت من دون الله»**.

ذكر ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مائة سنة أي: ألف سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرّق، فبعث الله النبيين كما قال تعالى: **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾**[3] الآية.

هذا هو تفسير ابن عباس، رضي الله عنهما، للآية، وهل تفسيره حجَّة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولاً إلى القرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث﴾ ٣/٣١٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

قال ابن القيِّم : «قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: لما ماتُوا عكفوا على قبورهم،

ثم صَوَّرُوا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم».

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُوني كما أطرتِ

مثل قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما هيه﴾ تفسيرها: ﴿نار حامية﴾[1]. فإن لم نجد في القرآن فإلى سنة الرسول، ﷺ، فإن لم نجد فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجَّة بلا شك، لأنَّهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك أنَّه حجَّة على من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل على ما ذكره ابن عباس، إلّا أنَّ ظاهر السياق أنَّ هؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نوح ﷺ.

قوله: «الأمد» الزمن.

وهذا كتفسير ابن عباس، إلّا أنَّ ابن عباس يقول: «إنهم جعلوا الأنصاب في مجالسهم»، وهنا يقول: «جعلوها على قبورهم» ولا يبعد أنَّهم جعلوا هذا وهذا، أو أنَّهم قبروا في مجالسهم فتكون هي محل القبور.

والشاهد: قوله: «ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» فسبب العبادة إذًا الغلو في هؤلاء الصالحين حتى عبدوهم.

قوله: «لا تطروني» الإطراء: المبالغة في المدح.

وهذا النهي يحتمل أنَّه منصب على هذا التشبيه وهو قوله: «كما أطرت

---

(١) سورة القارعة، الآيتان: ١٠، ١١.

النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عَبْدُ الله ورسوله». أخرجاه[1].

النصارى ابن مريم» حيث جعلوه إلـهًا، أو ابنًا لله، وبهذا يوحي قول البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت فيه واحتكم

أي دع ما قاله النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ابن الله، أو ثالث ثلاثة، والباقي املأ فمك في مدحه ولو بما لا يرضيه.

ويحتمل أنَّ النهي عام فيشمل ما يشابه غلو النصارى في عيسى بن مريم وما دونه، ويكون قوله: **«كما أطرت»** أي كما بالغت للتعليل، لأنَّ اطراء النصارى عيسى بن مريم سببه الغلو في هذا الرسول الكريم، ﷺ، حيث جعلوه ابنًا لله وثالث ثلاثة، والدليل على أنَّ المراد هذا قوله: **«إنَّما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله»**.

قوله: **«إنَّما أنا عبد»** أي ليس لي حق من الربوبيَّة، ولا مما يختص به الله عز وجل شيء أبدًا.

قوله: **«فقولوا عبدالله ورسوله»** هذان الوصفان أصدق وصف في الرسول، ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله قال تعالى: **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا﴾**[2] وقال تعالى: **﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾**[3] فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادًا لله عز وجل أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر في محبوبته:

---

(١) سبق ص (٦٥).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.   (٣) سورة الصافات، الآية: ١٧١.

. . . .

لا تدعـــني إلاّ بيا عبــدهــا فإنــه أشرف أســمائــي

أي أنت إذا أردت أن تكلمني قل: يا عبد فلانة، لأنَّه أشرف أسمائي وأبلغ في الذل.

فهو عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلِّم عليه ونشهـد له بالـرسالة: «وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله»[1] فهذا أفضل وصف اختاره النبي، عليه الصلاة والسلام، لنفسه.

واعلم أنَّ الحقوق ثلاثة أقسام وهي:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: حق خاص للرسل، وهو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك وهو: الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة في الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿**لتؤمنوا بالله ورسوله**﴾ فهذا حق مشترك ﴿**وتعــزروه وتــوقــروه**﴾ هذا خاص بالـرسـول، ﷺ، ﴿**وتسبحـوه بكـرة وأصيلاً**﴾[2] هذا خاص بالله سبحانه وتعالى.

والــذين يغلون في الـرسـول، ﷺ، يجعلون حق الله له فيقـولـون: «وتسبحوه» أي الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون الله، ولا شك أنَّه شرك، لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به بخلاف الإيمان فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله.

---

(١) من حديث ابن مسعود رواه البخاري، كتاب الاستئذان/ باب السلام اسم من أسماء الله تعالى ٤/١٣٦، ومسلم، كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة ١/٣٠١.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٩.

وقال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكُمْ والغلوَّ، فإنما أَهْلَكَ من كان قبلكم الغُلُوُّ**»(١).

ونهى عن الاطراء في قوله عليه الصلاة والسلام: «**كما أطرت النصارى عيسى بن مريم**»(٢) لأنَّ الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو الواقع الآن، فيوجد عند قبره في المدينة من يسأله فيقول: يا رسول الله المدد المدد، يا رسول الله: أغثنا، يا رسول الله: بلادنا يابسة وهكذا، ورأيت بعيني رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة موليًا ظهره البيت مستقبلاً المدينة؛ لأنَّ استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله.

ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجرة، فأمَّا والنبي، ﷺ، فيها فلا والله ولا الكعبة ولا العرش وحملته ولا الجنة.

فهو يريد أن يفضِّل الحجرة على الكعبة، وعلى العرش، وحملته، وعلى الجنة وهذه مبالغة لا يرضاها النبي، ﷺ، لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده، ﷺ، أفضل ولكن كونه يقول: إنَّ الحجرة أفضل من الكعبة والعرش والجنة لأنَّ الرسول ﷺ فيها، هذا خطأ عظيم، نسأل الله السلامة من ذلك.

قوله: «**إيَّاكم**» للتحذير.

---

(١) من حديث ابن عباس رواه أحمد في المسند ١/٢١٥، ٣٤٧، والنسائي في الصغرى، كتاب مناسك الحج/ باب التقاط الحصى ٥/٢٦٨، وابن ماجه كتاب المناسك/ باب قدر الحصى ٢/١٠٠٨، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٩٨)، وابن حبان برقم (١٠١١)، والطبراني في الكبير برقم (١٢٧٤٧)، والحاكم ١/٤٦٦ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/١٢٧، وقال النووي في المجموع ٨/١٣٧: «إسناده صحيح على شرط مسلم» وكذا قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (١٠٦).

(٢) سبق ص (٦٥).

. . . .

قوله: «والغلو» معطوف على إياكم، وقيل: معطوف على تقدير عامل أي إياكم احذروا وجانبوا الغلو، إذ لا يستقيم المعنى أن يقال: إيَّاكم احذروا واحذروا الغلو إذ إنَّ الغلو لا يحذر منه، وإنما يحذَّر منه.

والصواب الثاني: فيكون المعنى إياكم احذروا وجانبوا الغلو.

والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحدّ مدحًا أو ذمًّا، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك أيضًا فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأنَّ هذا الحديث ورد في رمي الجمرات، حيث روى ابن عباس قال: قال رسول الله، ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «**القط لي حصىً فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا وإيَّاكم والغلو في الدين فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» هذا لفظ ابن ماجه.

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: «**من كان قبلكم**» مفعول مقدَّم.

قوله: «**وإنما**» أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: «**أهلك**» يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعًا مباشرة من الغلو؛ لأن مجرَّد الغلو هلاك.

الثاني: أنَّه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سببًا للهلاك، أي إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر في قوله: «**فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو**» حقيقي أو مجازي؟

الجواب: إن قيل: إنَّه حقيقي حصل إشكال وهو أنَّه هناك أحاديث

أضاف النبي، ﷺ، إليها غير الغلو.

مثل قوله، ﷺ: **«إنما أهلك من كان قبلكم أنَّهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ»**(1) فهنا حصران متقابلان فإذا قلنا: إنَّه حقيقي بمعنى أنَّه لا هلاك إلاّ بهذا حقيقة، صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافي أي باعتبار الواقع والحقيقة أي: باعتبار عمل معيَّن فإنَّه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لا تعارض الحديث الآخر لئلاّ يكون في حديثه، ﷺ، تناقض، وحينئذ يكون الحصر إضافيًّا، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار التعبّد في الحديث الأول، وفي الآخر يُقال: أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث تحذير من الرسول، ﷺ، أمته من الغلو، ويبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنَّه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة، فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره، ﷺ، والتحذير نهي وزيادة.

الوجه الثاني: أنَّه سبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنا.

أقسام الناس في العبادة:

والنَّاس في العبادة طرفان ووسط فمنهم المُفْرِط، ومنهم المُفَرِّط، ومنهم المتوسط.

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكون الإنسان معتدلاً لا يميل إلى هذا، ولا إلى هذا، هذا هو الواجب، فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا

(1) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٦/٥١٣، ومسلم في الحدود ٣/١٣١٥.

. . . .

التهاون وعدم المبالاة بل كن وسطًا بين هذا وهذا.

والغلو له أقسام كثيرة: منها: الغلو في العقيدة، ومنها: الغلو في العبادة، ومنها: الغلو في المعاملة، ومنها الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أمَّا الغلو في العقيدة فمثل ما تشدَّق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإنَّ أهل الكلام تشدَّقوا وتعمَّقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعًا، حتى أدَّى بهم هذا التعمُّق إلى واحد من أمرين:

إما التمثيل، أو التعطيل، كغلو أهل البدع في الصفات.

إمَّا أنَّهم مثلوا الله بخلقه فقالوا هذا معنى الصفات، أو عطّلوه وقالوا: يجب تنـزيهه عن كل مشابهة للمخلوق، وزعموا أنَّ إثبات الصِّفات تشبيه، فعطلوه عن صفاته.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه، فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا ليس لنا أن نزيد على ذلك فلم يهلكوا بل كانـوا على الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم في الدين، صاروا يتعمَّقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبدًا حتَّى ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإرادات التي أوردها المتأخِّرون من هذه الأمَّة على النصوص، لم يوردها الصحابة، فلم توردها الأمَّة الوسط.

أما الغلو في العبادات:

فهو التشدد فيها بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا إنَّ من فعل كبيرة من الكبائر فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة حيث قالوا من فعل كبيرة فهو بمنزلة بين المنزلتين، الإيمان والكفر،

فهذا تشدّد أدّى إلى الهلاك. وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة فقالوا: إن القتل والزّنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر لا تخرج من الإيمان، ولا تنقص من الإيمان شيئًا، وأنه يكفي في الإيمان الإقرار وأنَّ إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ، لأنَّه لا يختلف الناس في الإيمان.

حتى يقولون: إنَّ إبليس مؤمن لأنَّه مقر، وإذا قيل: إنَّ الله كفَّره؟ قالوا: إذن إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب، وإلّا لو استكبر عن أمر الله فهو مؤمن.

وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من النَّاس في هذا الزمان، ولا شك أن هذا تطرّف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته.

وأما الغلو في المعاملات:

فهو التشدّد في الأمور بتحريم كل شيء حتى ولو كان وسيلة، وأنَّه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفيَّة حيث قالوا من اشتغل بالدّنيا فهو غير مريد للآخرة، وقالوا لا يجوز أن تشتري ما زاد على حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدّد تساهل من قال: بحِلّ كل شيء ينمّي المال ويقوّي الاقتصاد حتى الرِّبا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء والعياذ بالله متطرِّفون بالتساهل، فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها، وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلسًا أو فلسين، وهذا لا شك أنَّه تطرُّف.

والتوسط أن يُقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص **﴿وأحلّ الله البيع وحرَّم الرِّبا﴾**[1] فليس كل شيء حرامًا، فالنبي ﷺ باع واشترى،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

ولمسلم عن ابن مسعودٍ، أن رسول الله ﷺ قال: «**هلك المُتنطِّعون**». قالها ثلاثًا[1].

والصحابة رضي الله عنهم يبيعون ويشترون، والنبي، ﷺ، يقرّهم.

وأما الغلو في العادات:

فإذا كانت هذه العادة يُخشى أن الإنسان إذا تحوَّل عنها انتقل من التحول في العادة إلى التحول في العبادة، فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسَّك بها، ولا يتحول إلى عادة جديدة، أمَّا إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحوّل إلى عادة جديدة مفيدة أفيد من الأولى، فهذا من الغلو المنهي عنه، فلو أن أحدًا تمسَّك بعادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها، نقول هذا في الحقيقة غال ومفرط في هذه العادة.

وأمَّا إن كانت العادات متساوية المصالح لكنه يُخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسّع في العبادة فلا بأس بها، وعدم التحوّل إلى العادة الجديدة.

قوله: «**المتنطعون**».

المُتَنَطِّع: هو المتعمق المتقعِّر المتشدِّق سواء كان في الكلام أو في الأفعال، فهو هالك حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة، فبعض الناس يكون بهذه الحالة حتى إنَّه ربما يقترن بتعمُّقه وتنطُّعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن بالكبر، فتجده إذا تكلَّم يتكلَّم بأنفه، فتسلّم عليه تسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال.

والتنطّع بالأفعال كذلك أيضًا قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكِبر، ولهذا قال: «**هَلَكَ المتنطِّعون**».

---

(١) في كتاب العلم/ باب هلك المتنطعون ٤/ ٢٠٥٥.

فيه مسائل : الأولى : أنَّ من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجبَ.

والتنطّع أيضًا في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها فهو أيضًا من أسباب الهلاك.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلّها تدلّ على تحريم الغلو، وأنَّه سبب للهلاك، وأنَّ الواجب أنّ يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض بالدين الوسط، فكما أنَّ هذه الأمَّة هي الوسط، ودينها هو الوسط، فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط.

فيـه مسائل :

الأولى : أنَّ من فهم هذا الباب ـ أي : بما مرَّ من تفسير الآية الكريمة : **﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم﴾** ـ وبابين بعده تبيّن له غربة الإسلام :

وهذا حق فإنَّ الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلا تجد بلدًا مسلمًا إلّا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون أيضًا ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهمًا، مثل قبر الحسين الآن، تأتي إلى العراق الآن فيقولون هو عندنا، وتأتي الشام يقولون عندنا، وتأتي مصر يقولون عندنا، وبعضهم يقول هو في المغرب، فصار الحسين إمّا أنه أربعة رجال، أو مُقطّع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح، فالمهم أنَّـه مثـل ما قال شيخ الإسـلام محمد: أنَّه تبين لك غربة الإسلام في المسلمين، وليس الإسلام هو العمل المتضمّن للشرك.

وكـذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فيها قبور وقباب تُعبد من دون الله ويُحج إليها وتُقصد، ولكن بتوفيق الله سبحانه وتعـالى أنه أعان هذا الرجل حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله

الثانية: معرفة أول شركٍ حدث في الأرض كان بشبهة الصالحين.
الثالثة: معرفة أول شيءٍ غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم. الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

الحمد على التوحيد الخالص.

الثانية: معرفة أوّل شرك حدث في الأرض:

وجه ذلك: أنَّ هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقوامًا صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوهم من دون الله، ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غُيّر به دين الأنبياء، وما سبّب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم:

أول شيء غُيّر به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين.

وقوله: «**مع معرفة أن الله أرسلهم**» قال الله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشِّرين ومنذِرين**﴾[1] أي كانوا أمة واحدة على التوحيد فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فهذا أوَّل ما حدث من الشرك في بني آدم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها:

قولـه: «**قبول البدع**» أي أنَّ النفوس تقبلها لا لأنَّها مشروعة، بل إن الشرائع تردّها، وكذلك الفطر تردّها لأنَّ الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾[2] فالفطر السليمة لا تقبل تشريعًا إلا ممن يملك ذلك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل.

فالأول: محبة الصالحين.

والثاني: فعل أناسٍ من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا فظنَّ من بعدهم أنَّهم أرادوا به غيره.

الخامسة: أنَّ سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل:

أراد المؤلف، رحمه الله، أن يبيّن أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبَّة لهم، ورغبة فيهم.

الثاني: أنَّ أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيرًا وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا شرًّا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أنَّ مَن أراد تقوية دينه ببدعة فإن ضرر ذلك أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول، ﷺ، ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيرًا، لكن أرادوا خيرًا بهذه البدعة فصار ضرها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطي الإنسان نشاطًا غير مشروع في وقت معينٍّ، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام.

ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون في هذه البدع في الأمور المشروعة الواضحة فاترون ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا ممَّا يدلّ على تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زيَّنها أصحابها فلا تزيد الإنسان إلا ضلالاً، لأنَّ النبي، ﷺ، يقول: «**كل بدعة ضلالة**»[1].

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده أصلاً من السنة وهو أن النبي، ﷺ، سئل عن صوم يوم الإثنين فقال: «**ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل**

---

(١) من حديث جابر، رواه مسلم، كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/٥٩٢.

. . . .

عليَّ فيه»[1]. وكان، ﷺ، يصومه مع الخميس ويقول: «**إنَّهما يومان تُعرض فيهما الأعمال على الله فأحبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم**»[2].

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصَّوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنَّما هو صوم وإمساك أمَّا هؤلاء الذين يجعلون له الموالد فاحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أنَّ هذا اليوم إذا صامه الإنسان فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أنَّنا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنَّه على فرض أن يكون هذا أصلاً فإنَّه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأنَّ العبادات توقيفية، ولو كان الاحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعًا لبيَّنه النبي، ﷺ، إمَّا بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أنَّ هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي، ﷺ، لا يقيِّدونه بيوم الاثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول مع أنَّ ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقَّق بعض الفلكيين المتأخِّرين في ذلك فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أنَّ الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنَّه لم

---

(1) من حديث أبي قتادة، رواه مسلم، كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ٢/٨١٩.

(2) من حديث أبي هريرة، رواه الترمذي، كتاب الصوم/ باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس ٣/٩٤، وقال: «حديث حسن غريب» ورواه مسلم ٤/١٩٨٧ دون ذكر الصيام ولفظه: «تعرض الأعمال في كل خميس واثنين فيغفر الله عز وجل لكل امرىء لا يُشرك بالله شيئًا...» الحديث، وأخرج أيضًا أبو داود برقم (٢٤٣٦) والنسائي برقم (٢٣٦٠)، وابن ماجه برقم (١٧٣٨) من حديث أسامة بن زيد نحوه وحسنه المنذري مختصر المنذري.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح. السابعة: جِبِلَّة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

يكن معـروفًا على عهد النبي، ﷺ، وأصحابه، مع قيام المقتضي له، وعدم المانع منه.

مسألة حكم الاحتفال بعيد الميلاد للأطفال:

فائـدة: كل شيء يتّخذ عيدًا يتكرَّر كل أسبوع، أو كل عام فهو من البدع، والدليل على ذلك: أنَّ الشارع جعل للمولود العقيقة ولم يجعلٍ شيئًا بعد ذلك، واتّخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنَّهم شبهوه بالأعياد الإسلامية، وهذا حرام ولا يجوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلّا الأعياد الشرعية الثلاثة.

وليس هذا من باب العـادات لأنَّه يتكرَّر، ولهذا لما قدم النبي، ﷺ، فوجـد للأنصـار عيدين يحتفلون بهما قال: «**إنَّ الله أبـدلكـما بخير منهما عيد الأضحى وعيد الفطر**»[1] مع أنَّ هذا من الأمور العادية عندهم.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح:

وقـد سبق ذلـك وبيان أنَّهم يتـواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الـذين يتـواصون بما هم عليه سواء كانوا رؤساء سياسيين، أو رؤساء دينيين ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمِّي هذا الأمر الذي هو عليه.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد:

---

(١) من حديث أنس، أخرجه أحمد في المسند ٣/١٠٣، رواه أبو داود، كتاب الصلاة/ باب صلاة العيدين، والنسائي في العيدين ٣/١٧٩، والحاكم ١/٢٩٤، والبيهقي ٣/٢٧٧، وإسناده صحيح كما في تخريج أحاديث العيدين ص (٥٢).

هذه العبارة تقيد من حيث كونه آدميًّا بقطع النَّظَر على من يمنُّ الله عليه من تزكية النفس، فإنَّ الله يقول: ﴿**قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها**﴾[1].

قوله: «**جبلة**» على وزن فعلة وهو ما يجبل المرء عليه أي يخلق عليه ويُطبع ويبدع، بمعنى الطبيعة التي عليها الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكَّى نفسه أو دسَّاها.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين فقال تعالى: ﴿**إنَّ الإنسان لظلوم كفَّار**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**وحملها الإنسان إنَّه كان ظلومًا جهولاً**﴾[3].

أمَّا من حيث ما يمنُّ الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح فإنَّه يرتقي عن هذا قال تعالى: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين. إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون**﴾[4]. ولهذا الإنسان الذي يمنُّ الله عليه بالهدى فإنَّ الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكليَّة، كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم.

وكذلك أهل العلم كأبي الحسن الأشعري كان معتزليًّا، ثم كلابيًّا، ثم سنيًّا، وابن القيم كان صوفيًّا ثم منَّ الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية فهداه الله على يده حتى كان ربانيًّا.

الثامنة: فيه شاهد لما نُقل عن السلف أنَّ البدع سبب الكفر:

قال أهل العلم: إنَّ الكفر له أسباب متعدِّدة ولا مانع أن يكون للشيء

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٤) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.

. . . .

الواحد أسباب متعدِّدة، ومن ذلك الكفر ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إنَّ البدعة لا تزال في القلب يظلم منها شيئًا فشيئًا حتَّى يصل إلى الكفر، واستدلُّوا بقوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النَّار**»[1].

وقالوا أيضًا: «**إنَّ المعاصي بريد الكفر، وبريد الشيء ما يوصل إلى الغاية**».

والمعاصي كما أخبر، ﷺ، تتراكم على القلب فتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب صقل قلبه وابيض[2]، وإلاّ فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلمًا.

وكـذلك حذَّر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضًا فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود فجمعوها فأضرموا نارًا كبيرة وهكذا المعاصي[3]، فالمعاصي لها تأثير قوي على القلب، وأشـدّها تأثيرًا الشهوة فهي أشدّ من الشبهة؛ لأنَّ الشبهة يسير زوالها على من يسَّر الله عليه إذ إن مصدرها الجهل وهو يزول بالتَّعلُّم.

أما الشهوة وهي إرادة الإنسان الباطل، فهي البلاء الذي يقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارى، لأنَّ معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا

---

(١) أخرجه النسائي ١٨٨/٣.

(٢) من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد ٢٩٧/٢، رواه الترمذي، كتاب التفسير/ باب ويل للمطففين ٦٩/٩ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد/ باب ذكر الذنوب ١٤١٨/٢.

(٣) من حديث سهل بن سعد، رواه أحمد في المسند ٣٣١/٥، وفي حاشية محب الدين على البخاري ١٨٩/٤: «بسند حسن».

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

البدع غالبها شبهة ولكن كثيراً منها سببه الشهوة ولهذا يبين الحق لأهل الشهوة من أهل البدع فيصرُّون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظنّ في نفسه ويملي عليه الشيطان أنَّه لو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلِّب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك فأبو الحسن الأشعري مَضْرِبَ المثل في هذا الباب، فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إمامًا، ولما رجع إلى مذهب أهل السنَّة صار إمامًا، فكل من رجع إلى الحق ازدادت منزلته عند الله سبحانه، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أنَّ البدعة سبب للكفر، ولا يردّ على هذا قول بعض أهل العلم إنَّ المعاصي بريد الكفر، لأنَّه لا مانع من تعدّد الأسباب.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل:

لأن الشيطان هو الذي سوَّل لهؤلاء المشركين أن يصوِّروا هذه التماثيل والتصاوير؛ لأنَّه يعرف أن هذه البدعة تؤول إلى الشرك.

وقوله: «**ولو حسن قصد الفاعل**» أي أنَّ البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالمًا أنَّها بدعة ولو حسن قصده، لأنَّه أقدم على المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدَّعي أنَّه مصلحة، أمَّا لو كان جهلاً فإنَّه لا يأثم لأنَّ جميع المعاصي لا يأثم بها إلاَّ مع العلم، وقد يُثاب على حسن قصده، وقد نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم، فيثاب على نيَّته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضي لكن لحسن نيَّته مع الجهل يكون له أجر، ولهذا قال، ﷺ، للرجل الذي صلى وأعاد

. . . .

الوضوء بعدما وجد الماء وصلَّى ثانية: «**لك الأجر مرتين**»(١) لحسن قصده ولأنَّ عمله عمل صالح في الأصل.

فإن قال: إني أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك:

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن في رسالة الرسول، ﷺ، لأنَّه اتهام له بالتَّقصير أو القصور، أي مقصرٌ عن الإخبار أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم؛ ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون أمَّا إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أنَّ هذا بدعة، فإنَّه يُثاب على نيَّته ولا يُثاب على عمله، لأنَّ عمله شرّ حابط «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»(٢).

لكن لو جاء إنسان وقال: سأعمل هذا العمل قلنا: ليس لك الأجر لأنَّ ذلك خلاف السنة، فإنَّ الرسول، ﷺ، قال للذي لم يعد: «**أصبت السنَّة**»(٣).

وأما العامة الذين لا يعلمون وقد لبّس عليهم هذه البدعة وغيرها نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علموا به فإثمهم على من أفتاهم، ومن أضلَّهم.

ولهذا الآن في مجاهل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئًا فلو ماتوا لا نقول إنَّهم مسلمون ونصلي عليهم ونترحَّم عليهم مع أنَّهم لم تقم عليهم الحجَّة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أمَّا في الآخرة فأمرهم إلى الله.

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري، رواه أبو داود برقم (٣٣٨) والنسائي برقم (٤٣٣)، والدارمي كتاب الطهار/ باب التيمم ١/٥٥، والدارقطني ١/١٨٨، والحاكم ١/١٧٩، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وانظر تلخيص الحبير ١/١٥٥.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في البيوع ١/١٠٠، ومسلم في الأقضية ٣/١٣٤٣.

(٣) الحديث السابق رقم (١).

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه. **الحادية عشرة**: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالحٍ. **الثـانية عشرة**: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها. **الثالثة عشرة**: معرفة عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

العاشرة: معرفة القاعدة الكليَّة، وهي النَّهي عن الغلو:

هذا ما حذَّر منه النبي، ﷺ، لأنَّ الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرها. قال تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾[1] وقال: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾[2]، وقد سبق بيان ذلك

الحادية عشرة: مضرَّة العكوف على القبر من أجل عمل صالح:

المضرَّة الحاصلة: هي ما يوصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قُرىء القرآن عند قبر رجل صالح، أو تُصدِّق عند هذا القبر، يعتقدُ أنَّ لذلك مزيَّة على غيره، فإن هذا من البدع وهذه البدعة قد تؤدِّي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر فيحرم عليه.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل:

التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر.

والغالب أنَّها تُطلق على ما فعل معبودًا من دون الله.

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة.

أي: قصة هؤلاء الذين غلوا في الصالحين وغير الصالحين لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرَّج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله، فتجب معرفة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

الرابعة عشرة: وهي ـ أعجب العجب ـ قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

هذه القصة، وأنَّ أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة، فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة، والنَّاس لو تدبَّرت أحوالهم، وسبرت قلوبهم وجدت أنَّهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب قراءتهم إيَّاها في التفسير والحديث:

قوله: «**وأعجب**» أي أكثر عجبًا، وأشدّ، والعجب نوعان:

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلّق بمحمود كقول عائشة في الحديث: «**كان النبي، ﷺ، يعجبه التيامن في تنعُّله وترجُّله وطهوره، وفي شأنه كلّه**»[1].

الثاني: بمعنى الإنكار وذلك فيما إذا تعلّق بمذموم قال تعالى: ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنَّا ترابًا أئنَّا لفي خلق جديد**﴾[2].

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عمَّا كان في زمنه حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح من العبادات، وهذا من أضرّ ما يكون على المرء أن يعتقد السيىء حسنًا، قال

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء/ باب التيمن ١/ ٧٥، ومسلم كتاب الطهارة/ باب التيمن في الطهور وغيره ١/ ٢٢٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٥.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة. السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك. السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم». فصلوات الله وسلامه عليه بلغ البلاغ المبين.

تعالى: ﴿**أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا فإنَّ الله يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يَحسبون أنَّهم يُحسنون صنعًا**﴾[2].

قوله: «**فاعتقدوا أنَّ ما نهى الله ورسوله عنه هو الكفر المبيح للدّم والمال**».

أي من اعتقد أنَّ الشرك والكفر من أفضل العبادات وأنَّه مقرِّب إلى الله فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلِّف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه.

الخامسة عشرة: التَّصريح بأنَّهم لم يريدوا إلّا الشفاعة.

أي: ما أرادوا إلّا الشفاعة ومع ذلك وقعوا في الشرك.

السادسة عشرة: ظنُّهم أنَّ العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك: أي أرادوا أن تشفع لهم بل ظنُّوا أنَّها تنشطهم على العبادة وهذا ظنٌّ فاسد كما سبق[3].

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «**لا تطروني...**» الحديث.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٣.

(٣) انظر ص (٣٨٥).

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين. **التاسعة عشرة**: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده. **العشرون**: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذي نهى عنه، ﷺ، وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشدّ، حتى جعلوا النبي، ﷺ، المرجع في كل شيء، وهذا أعظم من قول النصارى المسيح ابن الله وثالث ثلاثة.

ومعنى: «بلّغ» أي أوصل وبيِّن.

الثامنة عشرة: نصيحته إيَّانا بهلاك المتنطِّعين:

وذلك بقوله ﷺ: **«هلك المتنطِّعون»** فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التَّحذير.

التاسعة عشرة: التصريح بأنَّها لم تُعبد حتى نسي العلم:

أي لم تُعبد هذه التماثيل إلاّ بعد أن نُسي العلم واضمحلَّ، ففيه دليل على معرفة قدر وجوده، وأن وجوده أمر ضروري للأمَّة لأنَّه إذا فُقِدَ العلم حلَّ الجهل محلّه، وإذا حلَّ الجهل فلا تسأل عن حال الناس فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقرَّبون إليه.

العشرون: أنَّ سبب فقد العلم موت العلماء:

فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء لم يبقَ إلاّ جُهَّال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضًا: الغفلة، والإعراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.

ثم إنَّ العلم قد يكون موجودًا وهو معدوم، وذلك فيما إذا كَثُرَ القُرَّاء

. . . .

الـذين يقـرأون العلم ولا يعملون به وقلَّ الفقهاء الذين يعملون به، فبهذا يُصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إنَّ في وجوده ضررًا على الأمة، لأنَّ العامَّة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتًا غير عامل بما عَلِمَ، ظنُّوا أنَّ ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشدّ من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل فإنَّ الناس قد يطلبون العلم، ويتلمَّسونه.

الخلاصة للباب:

بيان أنَّ الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.

وأنَّ خطر الغلو عظيم ونتـائجـه وخيمـة، فالـواجب تنزيل الصالحين منازلهم، فلا يستوي الصالح والفاسد، بل ينزَّل كل منزلته، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه، فدين الله وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س ١ : ما الفرق بين التنطع عن الغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو: مجاوزة الحد.

والتنطُّع: معناه التشدُّق بالشيء والتعمُّق فيه وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد: فإنَّه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلَّا إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة فقد تؤدِّي إلى الغلو، فلو أنَّ الإنسان مثلاً أراد أن يقـوم الليل ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يُفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلّها، فلا يتزوَّج ولا يأكل اللحم، ولا الفاكهة وما أشبه ذلك، فإنَّ هذا من الغلو، وإن كان الحـامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ.

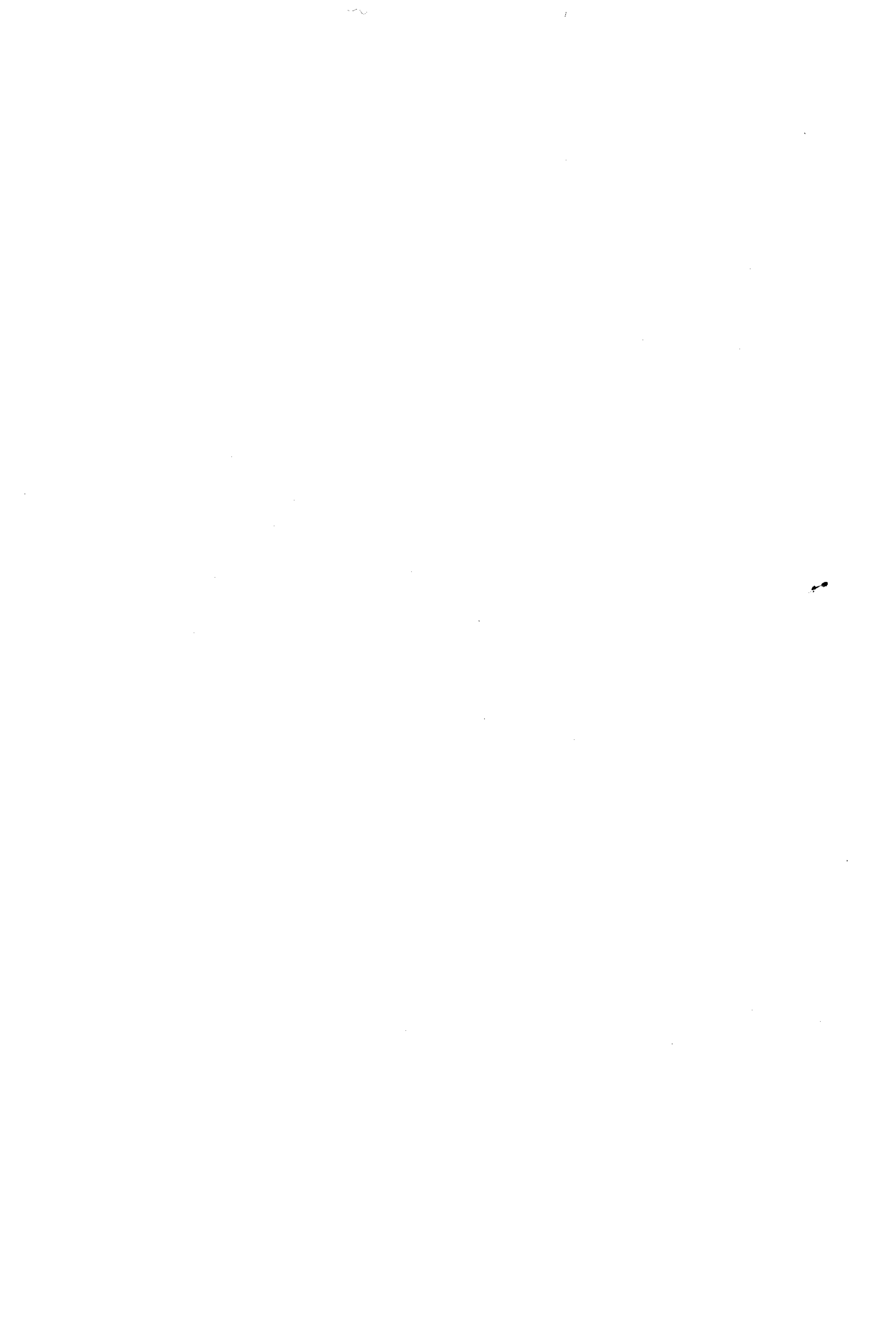
. . . .

س ٢ : ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع وسواء قلنا يصل أو لا يصل، فكونك تتَّخذ القراءة عند القبر خاصَّة هذا من البدع.

وإنَّما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصحيح أيضًا: أنَّه ليس بسنَّة، والسنَّة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت.



بـــاب

ماجاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

في الصحيح عن عائشـة أن أمّ سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ

قوله: «التَّغليظ» التَّشديد.

قوله: «من عبد الله عند قبر رجل صالح».

أي: هذا أمر محرَّم مغلَّظ فيه.

قوله: «فكيف إذا عبده»؟ أي: يكون أشدّ وأعظم، وذلك لأنَّ المقابر والقبور للصالحين أو من دونهم من المسلمين أهلها بحاجة إلى الدعاء، فهم يُزارون لينتفعـوا لا لينتفع بهم، إلّا في اتّباع السنة في زيارة المقابر، والثواب الحاصل بذلك لكن هذا ليس انتفاعًا بأشخاصهم، بل انتفاع بعمل الإنسان نفسه بما أتى به من السنَّة.

فالزيارة التي يُقصد منها الانتفاع بالأموات زيارة بدعيَّة.

والزيارة التي يُقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعيَّة[1].

---

(١) قال السعدي في القول السديد ص (٧٠): «وذلك أن مايفعل عندها نوعان مشروع وممنوع.

أما المشروع: فهو ماشرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل يزورها المسلم متبعاً للسنة فيدعو لأهلها ولأقاربه عموماً ومعارفه خصوصاً فيكون محسناً إليهم بالدعاء لهم... ومحسناً لنفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرم ووسيلة للشرك كالتمسح بها، والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها،

كنيسةً بأرض الحبشة، وما فيها من الصُّوَرِ، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبدُ الصالح، بَنَوْا على قبره مسجدًا، وصَوَّرُوا فيه تلك الصُّوَرَ، أولئك شِرَارُ الخلقِ عند الله»[1].

قوله: «**في الصَّحيح**» أي: الصحيحين.

قوله: «**أم سلمة**» كانت ممَّن هاجر مع زوجها إلى أرض الحبشة، ولما توفي زوجها أبو سلمة تزوَّجها النبي، ﷺ، وأخبرته بما رأت وهو في مرض موته ـ كما في الصحيح ـ من الصور.

والظاهر: أنَّ هذه الصور صور مجسَّمة، وتماثيل منصوبة.

قوله: «**أولئك**» المشار إليهم نصارى الحبشة.

وقوله: «**أولئك**» يجوز في الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة، والفتح إذا كان الخطاب باعتبار الجنس.

وقد ذكر العلماء أنَّ في كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون مطابقًا للمخاطب.

الوجه الثاني: الفتح مطلقًا.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنَّث مطلقًا، والفتح للمذكَّر مطلقًا.

وأشهرها: أن يكون مطابقًا للمخاطب، ثم الفتح مطلقًا، ثم الفتح للمذكر، والكسر للمؤنث.

= وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثاني: شرك أكبر، كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج، وهو عين مايفعله عباد الأصنام مع أصنامهم».

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة/ باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ١/١٥٥. ومسلم، كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/٣٧٥.

فهؤلاء جَمَعُوا بين الفتنتين[1]: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها، قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طفِقَ يطرح خميصَةً له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ بها كشفَها، فقال، وهو كذلك: «لَعْنَةُ الله على

قوله: «**الرجل الصالح أو العبد الصالح**» أو: شك من الراوي.

قوله: «**بنوا على قبره**» أي قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: «**صوَّروا فيه تلك الصِّور**» أي: التي رأت، والأقرب: أنَّها صورة ذلك الرجل الصالح، وربما أنَّهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

قوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**» لأنَّ عملهم هذا وسيلة إلى الكفر والشرك به، وهذا أعظم الظلم وأشدّه، فما كان وسيلة إليه فإنَّ صاحبه جدير بأن يكون من شِرار الخلق عند الله سبحانه وتعالى.

قوله: «**فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل**» هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قوله: «**فتنة القبور**» لأنَّهم بنوا المساجد عليها.

قوله: «**فتنة التماثيل**» لأنَّهم صوَّروا فجمعوا بين فتنتين، وإنَّما سمَّي ذلك فتنة لأنَّها سبب لصدّ الناس عن دينهم، وكل ما كان كذلك فإنَّه من الفتنة قال تعالى: ﴿**الم أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾[3] أي صدُّوهم، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين الله.

---

(١) نسخة: «فتنتين».

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة البروج، الآية: ١٠.

اليهود والنصارى، اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»، يُحَذِّرُ ما صنعوا، ولولا ذلك أُبْرِزَ قَبرُه، غير أنه خشيَ أن يُتَّخذَ مسجدًا. أخرجاه[1].

قوله: «**ولهما عنها**» الضمير يعود على البخاري ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكرٌ لكنه لما كان ذلك مصطلحًا معروفًا صحَّ أن يعود الضمير عليهما، وهما لم يُذكرا.

وقوله: «**عنها**» أي عن عائشة.

قالت: «**لمَّا نزل برسول الله**» أي نزل به ملك الموت لقبض روحه.

قولـه: «**طفق**» من أفعـال الشروع، وهذه ذكرها ابن مالك في أفعال المقاربة، واسمها مستتر، وجملة «يطرح» خبرها.

قوله: «**خميصة**» هي كِساء مُربَّع له أعلام كان يطرحه النبي، ﷺ، على وجهه.

قوله: «**فإذا اغتمَّ بها**» أي أصابه الغم بسببها، وقد احتضر ﷺ.

قوله: «**وهو كذلك**» أي وهو في هذه الحالة عند الاحتضار.

قوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»: يقول هذا في سياق الموت. و«لعنة الله» أي طرده وإبعاده، وهذه الجملة يُحتمل أنَّه يُراد بها ظاهر اللفظ، أي أنَّ النبي، ﷺ، يُخبر بأنَّ الله لعنهم.

ويُحتمل أن يُراد بها الدعاء فتكون خبريَّة لفظًا إنشائيَّة معنىً، والمعنى على هذا الاحتمال أنَّ النبي، ﷺ، دعا عليهم وهو في سياق الموت بسبب هذا الفعل.

قوله: «**اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» الجملة هذه تعليل لقوله: «**لعنة**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ١/٤٠٨، ومسلم، كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/٣٧٦.

. . . .

الله على اليهود والنصارى» كأنَّ قائلًا يقول: لماذا اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد؟ والمعنى: جعلوها مساجد يصلُّون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنَّها مبنيَّة على القبور.

قوله: «يُحذِّر ما صنعوا» أي أنَّه، ﷺ، قال ذلك في سياق الموت تحذيرًا لأمَّته ممَّا صنع هؤلاء، لأنَّه عَلِمَ أنَّه سيموت وأنَّه ربَّما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد.

قوله: «**ولولا ذلك أبرز قبره**» أبرز: أي أخرج من بيته، لأنَّ البروز معناه الظهور، أي لولا التحذير وخوفه أن يُتَّخذ مسجدًا لأخرج ودُفِنَ في البقيع مثلًا لكنَّه في بيته أصوَن له، وأبعد عن اتِّخاذه مسجدًا، فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره، ﷺ.

ومن أسباب ذلك: إخباره، ﷺ، أنَّه ما قبض نبي إلاّ دُفِنَ حيث قُبِض[1]. ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أنَّ السبب الواحد قد يترتَّب عليه حكمان، كغروب الشمس يترتَّب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قوله: «**غير أنَّه خشي أنْ يُتَّخذ مسجدًا**» خشي فيها روايتان: خُشِيَ، وخَشِيَ[2].

فعلى رواية «خُشِيَ» يكون الذين وقعت منهم الخشية الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) من حديث أبي بكر الصديق، أخرجه أحمد في المسند ١/٢٧، رواه الترمذي، كتاب الجنائز/ باب حدثنا أبو كريب ٣/٣٩٤، وضعفه، وابن ماجه نحوه، كتاب الجنائز/ باب ما ذكر في وفاته ودفنه ﷺ، ١/٥٢١، وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٢٦٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز/ باب ما جاء في قبر النبي، ﷺ، ١/٤٢٧.

. . . .

وعلى رواية «خَشِيَ» يكون الذي وقعت منه الخشية النبي ﷺ .

والحقيقة: أنَّ الأمر كلّه حاصل، فالرسول، ﷺ، أخبر بأنَّه ما قُبِض نبي إلّا دُفِنَ حيث قُبِض، ولعن اليهود والنصارى لأنَّهم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفًا من اتخاذ قبره مسجدًا، والصحابة، رضي الله عنهم، اتفقوا على أن يُدفن، ﷺ في بيته بعد تشاورهم لأنَّهم خشوا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يُدفن في بيته وليس في ذهنه إلّا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يُدفن في بيته وعنده علم بأنَّه، ﷺ، قال: «**ما قُبِضَ نبي إلّا دُفِنَ حيث قُبِض**» وخوفًا من اتِّخاذه مسجدًا.

في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء وغيرهم مساجد، وهم أفضل الصالحين، لأنَّ مرتبة النبيين هي المرتبة الأولى من المراتب الأربع التي قال الله تعالى عنها: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا**﴾[1].

اعتراض وجوابه:

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول، ﷺ، الآن، فإنّه في وسط المسجد فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أنَّ المسجد لم يبن على القبر بل بُني المسجد في حياة النبي، ﷺ.

الوجه الثاني: أنَّ النبى، ﷺ، لم يدفن في المسجد حتى يُقال إنَّ هذا من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

ولمسلم عن جندب بن عبدالله، قال: «سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ، وهو يقول:
إنِّي أَبْرَأُ إلى الله أنْ يكون لي منكم خليلٌ، فإنَّ الله قد اتَّخَذَني خليلاً،

دفن الصالحين في المسجد وأنَّه حلال، بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أنَّ إدخال بيوت الرسول، ﷺ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلَّا القليل وذلك عام ٩٤هـ تقريبًا، فليس ممَّا أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه مع أنَّ بعضهم خالف في ذلك، وممَّن خالف أيضًا سعيد بن المسيب، فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أنَّ القبر ليس في المسجد حتى بعد إدخاله لأنَّه في حجرة مستقلَّة عن المسجد فليس المسجد مبنيًّا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظًا ومحوطًا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة أي مثلث والركن في الزاوية الشماليَّة بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلَّى لأنَّه منحرف.

فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور علينا، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه فنقول: إنَّ الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين وليس محل إجماع مع هذه الفروق التي ذكرناها.

قوله: «**بخمس**» أي خمس ليال، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي.

قوله: «**أبرأ**» البراءة هي: التخلي أي أتخلى أن يكون لي منكم خليل.

قوله: «**خليل**» هو الذي يبلغ في الحب غايته لأنَّ حبه يكون قد تخلل الجسم كله، قال الشاعر يخاطب محبوبته:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمِّيَ الخليل خليلاً

كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً، ولو كنتُ مُتَّخِذًا من أمَّتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً،
ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجدَ، فإني أنهاكُم عن ذلك»(١).

والخلّة أعظم أنواع المحبة وأعلاها ولم يثبتها الله عز وجل فيما نعلم إلاّ لاثنين من خلقه وهما إبراهيم في قوله تعالى: ﴿**واتَّخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾(٢). ومحمد لقوله ﷺ: «**إنَّ الله اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً**» ولهذا نعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إنَّ إبراهيم خليل الله، ومحمدًا حبيب الله، وهذا تنقّص في حق الرسول، ﷺ، لأنَّهم إذا جعلوه حبيب الله لم يفرِّقوا بينه وبين غيره من الناس، فإنَّ الله يحب المحسنين والصابرين، وغيرهم ممن علَّق الله بهم المحبة. فعلى رأيهم لا فرق بين الرسول، ﷺ، وغيره، لكنَّ الخلَّة ما ذكرها الله إلاّ لإبراهيم، والنبي، ﷺ، أخبر أنَّ الله اتَّخذه خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً.

فالمهمّ: أنَّ العامة مشكل أمرهم، دائمًا يضعون الرسول، ﷺ، بأنَّه حبيب الله، فنقول: أخطأتم وتنقَّصتم نبيكم، فالرسول خليل، لأنَّكم إذا وصفتموه بالمحبَّة أنزلتموه عن بلوغ غايتها.

قوله: «**فإنَّ الله قد اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً**» هذا تعليل لقوله: «**إنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**» فالنبي، ﷺ، ليس في قلبه خلَّة لأحد إلاّ لله عز وجل.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد ١/٣٧٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ مَن

قوله: «**ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتَّخذت أبا بكر خليلاً**» وهذا نص صريح على أنَّ أبا بكر أفضل من علي، رضي الله عنهما، وفي هذا ردّ على الرافضة الذين يزعمون أنَّ عليًّا أفضل من أبي بكر.

وقـولـه: «**لو**» حرف امتناع لامتناع، فيمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلى هذا امتنع، ﷺ، من اتِّخاذ أبي بكر خليلاً لأنَّه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلاً.

قوله: «**ألا**» للتنبيه، وهذه الجملة من الحديث الأول لكنه ابتدأها بالتَّنبيه لأهميَّة المقام.

قوله: «**ألا فلا تتخذوا**» هذا تنبيه آخر للنَّهي عن اتِّخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وغيره.

قوله: «**فإنّي أنهاكم عن ذلك**» هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدًا لهذا الأمر، كما هو الحال في المتقدم، وهذا النَّهي تأكيد لأهميَّة المقام.

من فوائد الحديث:

١ ـ أنَّ النبي، ﷺ، تبرأ من أن يتخـذ أحدًا خليلاً؛ لأنَّ قلبه مملوء بمحبة الله تعالى.

٢ ـ أنَّ الله تعـالى اتَّخذه خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً، ففيه فضيلة لرسول الله ﷺ.

٣ ـ فضيلة إبراهيم، ﷺ، باتِّخاذه خليلاً.

٤ ـ فضيلة أبي بكـر وأنَّـه أفضل الصحابة لأنَّ الحديث يدلّ على أنَّه أحبّ الصحابة إلى الرسول ﷺ.

٥ ـ التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**». وقوله: «**فإنِّي أنهاكم عن ذلك**».

. . . .

٦ ـ أنَّ من دفن شخصًا في مسجد وجب نبشه.

٧ ـ حرص النبي، ﷺ، على أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه. لأنَّ هذا من وسائل الشرك وذرائعه الشرك ولهذا حرص النبي، ﷺ، على تحذير أمته منه، وهذا من كمال بلاغته ورحمته بالأمة.

٨ ـ أنَّ من بنى مسجدًا على قبر وجب عليه هدمه.

قوله: «**فقد نهى عنه في آخر حياته . . .**».

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله: «**فقد نهى عنه في آخر حياته**» الضمير يعود إلى النبي، ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: «**ثمَّ إنَّه لعن وهو في السياق من فعله**» فالنبي، ﷺ، وهو عند فراق الدنيا لعن من اتَّخذ القبور مساجد.

قوله: «**والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد**».

عندها: أي القبور، وقوله: «**من ذلك**» أي من اتخاذها مساجد، وعلى هذا فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهى النبي، ﷺ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أن يُصلَّى إلى القبور فقال: «**لا تصلُّوا إلى القبور**»[1].

قوله: «**وهو معنى قولها خُشي أن يتخذ مسجدًا**» هذا من كلام عائشة، رضي الله عنها: «يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز قبره غير أنّه خشي أن يُتخذ مسجدًا».

قوله: «**فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**»:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب النهي عن الجلوس على القبر ٢/٦٦٨.

فعله. والصلاةُ عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجدٌ، وهو معنى قوله «خُشِي أن يُتَّخَـذَ مسجدًا». فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبرِهِ

قد يُقال: «خَشِي أن يُتَّخذ مسجدًا» معناه: خَشِيَ أَنْ يُبنى عليه مسجد لكنـه استدلَّ على أنَّ المُراد ما هو أعمّ، وأنَّه شامل لبناء المساجد على القبور والصلاة عندها.

أي: كون الرسول، ﷺ، يخشى أن يتَّخذ مسجدًا هذا لا يمكن أن يُراد به بنـاء المسجـد، لأنَّ الصحـابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجدًا؛ لأنَّ مسجده مجاور لبيته فكيف يبنون مسجدًا آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة، فيكون معنى قولها: **«خَشيَ أن يُتخذ مسجدًا»** أي مكانًا يُصلى فيه وإن لم يُبنَ المسجد.

ولا ريب أنَّ أصل تحريم بناء القبور على المساجد؛ لأنَّ المساجد مكان الصلاة والناس سيأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في مسجد بني على قبر فكأنَّهم صلّوا عند القبر، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد يوجد فيها إذا اتخذ هذا المكان للصلاة، وإن لم يبن مسجد.

فتبيَّن بهذا أنَّ اتخاذ القبور مساجد له صورتان:

الأولى: أن تبنى عليها مساجد.

الثانية: أن تُتَّخذ مكانًا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر، ويصلون عنده ويتخذونه مصلًّى، فإنَّ هذا بمعنى بناء المساجد عليها وهو أيضًا من اتخاذها مساجد.

قوله: **«فكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدًا»** وهذا يشهد له العـرف، فإنَّ النـاس الـذين لهم مسـاجـد في مكـان أعمالهم كالوزارات والإدارات لو سألت واحدًا منهم أين المسجد؟ لأشار إلى المكان الذي اتَّخذوه

مسجدًا، وكل موضع قُصِدَت الصلاةُ فيه فقد اتُّخِذَ مسجدًا، بل كل موضع يُصَلَّى فيه يسمى مسجدًا، كما قال ﷺ: **«جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجدًا وطَهُورًا»**[1].

مسجدًا يصلون فيه، مع أنَّه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه صار يُسمَّى مسجدًا.

قوله: **«بل كل موضع يُصلى. . .»**.

فقـوله: **«مسجدًا»** أي مكانًا للسجود، وهذا معنى ثالث على المعنيين الأولين، وهو أن يُقال: كل شيء تصلي فيه فإنَّه مسجد ما دمت تصلي فيه، كما يُقال للسّجادة التي تُصلي عليها مسجد أو مُصلًّى وإن كان الغالب عليها اسم مُصلًّى.

---

(١) من حديث جابر بن عبدالله رواه البخاري، كتاب التيمم/ باب حدثنا عبدالله بن يوسف ١٢٦/١، ومسلم، كتاب المساجد ١/ ٣٧٠.

ولأحمد بسند جيِّدٍ عن ابن مسعود (رضي الله عنه) مرفوعًا: **«إنَّ من شِرَار النَّاسِ من تُدْرِكُهُمُ الساعةُ وهم أحياءٌ، والذين يَتَّخذونَ القبورَ مساجدَ»**. ورواه أبو حاتم في صحيحه[1].

الخلاصة:

أنَّه لا يجوز بناء المساجد على القبور؛ لأنَّها وسيلة إلى الشرك، وهو عبادة صاحب القبر.

ولا يجوز أيضًا أن تُقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأنَّ العلَّة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فُرِضَ أنَّ رجلًا يذهب إلى المقبرة ويصلي عند قبر ولي من الأولياء على زعمه، قلنا: إنَّك اتَّخذت هذا القبر مسجدًا، وأنَّك مستحقٌّ لما استحقَّه اليهود والنصارى من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية دليل على صحة تسمية كل شيء يصلَّى فيه مسجدًا بالمعنى العام[2].

قوله: **«مرفوعًا»** المرفوع: ما أُسند إلى النبي ﷺ.

قوله: **«إنَّ من شرار النَّاس»** من: للتبعيض، وشرار: جمع شرّ، مثل

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ١/٤٣٥، وابن أبي شيبة في المصنف ٣/٣٤٥، وابن خزيمة برقم (٧٨٩)، وابن حبان برقم (٣٤٠)، والطبراني في الكبير برقم (١٠٤١٣)، وقال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٠): «إسناده جيد»، وقال الهيثمي في المجمع بعد عزوه للطبراني ٢/٢٧: «إسناده حسن».

(٢) قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٣٦): «فمما يدخل في ذلك قصد القبور للدعاء عندها أولها، فإن الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلى نوعين: أحدهما: أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها كمن يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمرَّ بالقبور أو من يزورها فيسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة، فهذا ونحوه لا بأس به. =

. . . .

الثاني: أن يتحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب معه في غيره، فهذا النوع منهي عنه إما نهي تحريم أو تنزيه وهو إلى التحريم أقرب.
فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب، أو كان يدعو في بقعة، وكان هناك بقعة فيها صليب وهو عنه ذاهل، أو دخل إلى كنيسة ليبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل لم يكن بهذا بأس.
ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة لكان هذا من العظائم، بل لو قصد بيتاً أو حانوتاً في السوق أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة لكان هذا من المنكرات المحرمة، إذ ليس للدعاء عندها فضل، فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب بل هو أشد من بعضه، لأن النبي، ﷺ، نهى عن اتخاذها مساجد، وعن اتخاذها عيداً، وعن الصلاة عندها، بخلاف كثير من هذه المواضع».
وقال ص (٣٧٨): «وتمام ذلك بذكر سائر العبادات، فالقول فيها جميعاً كالقول في الدعاء، فليس في ذكر الله هناك أو القراءة عند القبر أو الصيام عنده، أو الذبح عنده فضل على غيره من البقاع، ولا قصد ذلك عند القبور مستحبا.
وماعلمت أحداً من علماء المسلمين يقول: إن الذكر هناك أو الصيام، والقراءة أفضل منه في غير تلك البقعة.
وقال ص (٣٨١): «فأما ذكر الله هناك فلا يكره، لكن قصد البقعة للذكر هناك بدعة مكروهة، فإنه نوع من اتخاذها عيداً، وكذلك من قصدها للصيام عندها».
وقال أيضاً: «وأما الذبح هناك فنهي عنه مطلقا ذكره أصحابنا وغيرهم لما روى أنس عن النبي، ﷺ، قال: «**لا عقر في الإسلام**» رواه أحمد وأبوداود، وزاد قال عبدالرزاق: «كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة» قال أحمد في رواية المروزي: قال النبي، ﷺ: «**لا عقر في الإسلام**»: كانوا إذا مات لهم ميت نحروا جزوراً على قبره، فنهى النبي، ﷺ، عن ذلك، كره أبو عبد أكل لحمه.
قال أصحابنا: وفي معنى هذا مايفعله كثير من أهل زماننا في التصدق عند القبر بخبز ونحوه».

. . . .

صحاب جمع صَحْب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أنَّ الناس يتفاوتون في الشر وأنَّ بعضهم أشدّ من بعض.

قوله: «**من تدركهم الساعة**» من: اسم موصول اسم إن، والساعة: أي يوم القيامة وسمِّيت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمى ساعة كما يُقال هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: «**وهم أحياء**» الجملة حال من الهاء في «تدركهم».

وفي قوله: «**تدركهم الساعة وهم أحياء**» إشكال، وهو أنَّه ثبت عن النبي ﷺ: «**أنَّه لا تزال طائفة من أمَّتي على الحق ظاهرين لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله**»[1]. وفي رواية: «**حتى تقوم الساعة**»[2] فكيف نوفّق بين الحديثين؟ لأنَّ ظاهر الحديث الذي ساقه المؤلف أنَّ كل من تدركهم الساعة وهم أحياء فهم من شرار الخلق.

والجمع بينهما: أن يُقال: إنَّ المُراد بقوله: «**حتى تقوم الساعة**» أي إلى قُرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل؛ لأنَّها لا تقوم إلّا على شرار الخلق، فالله يُرسل ريحًا تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلّا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

قوله: «**الذين يتخذون القبور مساجد**» فهم من شرار الخلق وإن لم يشركوا، لأنَّهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام فإن كانت وسيلة

---

(١) من حديث المغيرة بن شعبة، رواه البخاري بنحوه، كتاب المناقب/ باب حدثنا محمد بن المثنى ٢/٥٣٨، ومسلم، كتاب الإمارة/ باب قوله، ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي» ٣/١٥٢٣.

(٢) صحيح مسلم في الكتاب والباب السابقين ٣/١٥٢٤، ١٥٢٥.

. . . .

لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرَّم فهي محرَّمة.

فجعل الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتَّخذون القبور مساجد.

وفي قوله ﷺ: «**إنَّ من شرار الناس**» دليل على أنَّ الناس يتفاوتون في الشر، لأنَّ بعضهم أشدّ من بعضهم فيه كما أنَّهم يتفاوتون في الخير أيضًا لقوله تعالى: ﴿**هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون**﴾[1] وذلك من حيث الكميَّة: مثل من صلَّى ركعتين فليس كمن صلَّى أربعًا.

والكيفيَّة: مثل من صلَّى وهو قانت خاشع حاضر القلب فليس كمن صلَّى وهو غافل.

والنوعية: مثل الفرض أفضل من النَّفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة، لأنَّ الصلاة أفضل الأعمال البدنية.

وهذا الذي تدلّ عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل في الأعمال، حتى في الإيمان الذي هو في القلب يتفاضل الناس فيه، بل إنَّ الإنسان يحسّ في نفسه أنَّه في بعض الأحيان يجد في قلبه من الإيمان ما لا يجده في بعض الأحيان، فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر.

وخلاصة الباب:

أنَّه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلّظ على من عبدالله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف، رحمه الله في قوله: «**عبد الله**» يشمل الصلاة وغيرها،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.

. . . .

والأحاديث التي ساقها في الصلاة لكنه، رحمه الله، كأنَّه قاس غيرها عليها، فمن زعم أنَّ الصـدقـة عند هذا القبر أفضل من غيره فهو شبيه بمن اتخذه مسجدًا، لأنه يرى أنَّ لهذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به على غيره، فالشيخ عمَّم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدلّ بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: أنَّ الشيخ أراد بذلك أنَّ العلَّة هي تعظيم هذا المكان لكونه قبرًا، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات، فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النَّص له لفظًا.

فيه مسائل : الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ولو صحت نية الفاعل.

فيـه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول، ﷺ، فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيَّة الفاعل:

تؤخذ من لعن النبي، ﷺ، الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: «**ولو صحَّت نيَّة الفاعل**» لأنَّ الحكم عُلّق على مجرَّد صورته فهذا العمل لا يحتاج إلى نيَّة لأنَّه مُعلّق بمجرد الفعل.

فالنيَّة تؤثـر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثِّر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطى أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما عُلّق على مجرد فعله فلا حاجة فيه إلى النية.

أي: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرُّب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتبارًا بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتَّب على ذلك، وهذه النقطة نتدرَّج منها إلى نقطة أخرى، وهي التحذير من مشابهة المشركين، وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس حيث يظنّ أنَّ التشبه إنَّما يحرم إذا قصد التشبيه، والشرع إنَّما علق الحكم بالتشبه أي: بأن يفعل ما يشبه فعلهم سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء في مسألة التشبه وإن لم ينو ذلك.

فإن قيل: قاعدة «**إنَّما الأعمال بالنيات**» هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لا تعارضه، لأنَّ ما عُلّق بالعمل ثبت له حكمه، وإن لم ينو الفعل، كالأشياء المحرَّمة كالظهار والزِّنا وما أشبهها.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك. **الثالثة**: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلّظ الأمر في ذلك:

تؤخذ من قوله: «**وصوروا فيه تلك الصور**» ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظّمة عادة لا شرعًا، كالرؤساء والزعماء والأب والأخ والعم.

أو شرعًا: مثل: الأولياء والصالحين والأنبياء، وما أشبه ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته، ﷺ، في ذلك، كيف بيّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدَّم؟

وهذا ممَّا يدلّ على حرص النبي، ﷺ، على حماية جانب التوحيد، لأنَّ التوحيد أعظم الأمور، فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»[١]. لأنَّ الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذبًا معصية وهي أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جدًّا ونحن نحذّر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خُلِقُوا له، واشتغلوا بما خُلِقَ لهم، فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا ليس في أفكارهم إلاّ الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا في الحقيقة نوع من الشرك لأنَّه يوجب الغفلة عن الله عز وجل، ولهذا سمّى النبي، ﷺ، من فعل ذلك عبدًا لما تعبَّد له فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة**»[٢]. ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قُدّر له

---

(١) ص (٢٠٧).　　(٢) ص (٣٠).

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر. **الخامسة**: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك. **السابعة**: أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

من الدنيا، فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لا تدري مقامك فيها؛ وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؟ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

فالحاصل: أنَّ النبي، ﷺ، بُعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصًا على سدّ كلّ الأبواب التي تؤدي إلى الشرك فالرسول، ﷺ، حذَّر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات: الأولى: في سائر حياته، والثانية: قبل موته بخمس، والثالثة: وهو في السياق.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر:

تؤخذ من قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**» فإنَّ قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.

الخامسة: أنَّه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم:

تؤخذ من قوله ﷺ: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» وبئس رجل جعل إمامه اليهود والنصارى.

السادسة: لعنه إيَّاهم على ذلك:

تؤخذ من قوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**».

السابعة: أنَّ مراده تحذيره إيَّانا عن قبره:

تؤخذ من قول عائشة: «يُحذِّر ما صنعوا» أي ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره. **التاسعة**: في معنى اتخاذها مسجدًا. **العاشرة**: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا وبين من تقوم عليهم الساعة فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الثامنة: العلَّة في عدم إبراز قبره:

تؤخـذ من قول عائشة: «ولولا ذلك أبرز قبره غير أنَّه خشي أن يتخذ مسجدًا» وسبق لنا أن هناك علة أخرى وهي: إخباره بأنَّه ما من نبي يموت إلا دفن حيث يموت[1]، ولا يمتنع أن يكون للحكم علَّتان، كما لا يمتنع أن يكون للعلَّة حكمان.

التاسعة: في معنى اتِّخاذها مسجدًا:

سبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

١ ـ بناء المساجد عليها.

٢ ـ اتخاذها مكانًا للصلاة تقصد فيصلَّى عندها، بل إنَّ من صلَّى عندها ولم يتخذها للصلاة فقد اتخذها مسجدًا بالمعنى العام.

العاشرة: أنَّه قرن بين من اتَّخذها مسجدًا وبين من تقوم عليه الساعة فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته:

ومعنى هذا أنَّ الرسول، ﷺ، ذكر التحذير من الشرك قبل أن يموت.

وقوله: «**وذكر خاتمته**» وهي: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء كفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

قوله: «**ذكره في خطبته**» أي: الرسول ﷺ.

---

(١) سبق ص (٤٠٣).

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الردّ على الطائفتين اللتين هما أشرُّ أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة وهم الرافضة والجهمية وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور وهم أول من بنى عليها المساجد.

وقوله: «**قبل موته بخمس**» أي: بخمس ليال، والعرب يعبِّرون بالليالي عن الأيام، وبالأيام عن الليالي.

وقوله: «**أشرّ**» يقال: شر، ويقال: أشر كما يقال: خير وأخير، لكن الأكثر شر بحذف الهمزة لكثرة استعمالها.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الردّ على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع:

وإنما تكلم المؤلف، رحمه الله، عن حال الرافضة والجهميَّة وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على الاطلاع عليهما، لأنَّ الإنسان إذا ذكر الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه، صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلَّم عن حالهما وحكمهما.

وحالهما: أنَّها أشر أهل البدع.

وحكمهما: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنَّهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدي، فرفضوه وتركوه وكانوا في السابق معه، لكن لما رأوا الحق نفروا منه والعياذ بالله فسمُّوا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودي تلبَّس بالإسلام ليفسده

. . . .

مثل ما أفسد بولص دين النصارى عندما تلبَّس بالنصرانية.

وأوّل ما أظهر ابن سبأ بدعته الغلو في علي بن أبي طالب، حتى إنَّه جاءه وقال: أنت الله حقًّا، والعياذ بالله، فأمر علي بالأخدود فحُفر، وأمر بالحطب فجُمع، وبالنار فأوقدت وأحرقهم، إلاّ أنَّه يُقال إنَّ عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته فالله أعلم، فالمهم أنَّه رأى أمرًا لم يحتمله حيث ادعوا فيه الألوهيَّة فأحرقهم بالنار إحراقًا، ثم بدأت هذه الفرقة الخبيثة تتكاثر لأنَّ شعارها في الحقيقة النفاق، ولهذا كانت هي أخطر ما يكون على الإسلام؛ لأنَّها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في الباطن، فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنَّهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأنَّهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإسلام، ولذلك يقول عنهم شيخ الإسلام في كثير من كتبه قولاً إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: «إنَّهم أشد الناس ضررًا على الإسلام، وأنَّهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد»، فهم يقولون لا نُصلي جماعة إلاّ خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أوّل من بنى المشاهد على القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإطلاق وهم أبو بكر وعمر بالنفاق، وأنَّهما ماتا على ذلك كأبيّ بن سلول وأشباهه والعياذ بالله، فهؤلاء كيف نقول إنَّهم من المسلمين؟!!

وأما الجهميَّة: فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنَّه أنكر صفات الله وقال: إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلِّم موسى تكليمًا، فأنكر المحبة والكلام ثم بدأت هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية كالمعتزلة، ومتأخري الرافضة، لأنَّ الرافضة كانوا بالأول مشبِّهة، ولهذا قال أهل العلم: أوّل من عُرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضي، ثم تحوَّل

. . . .

من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبـان بن سمعـان، وأبان أخذها عن طالوت الذي أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي، ﷺ، فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إنَّ الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خراسان، وفيها كثير من الصابئة وعُبَّـاد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضًا بدعته، فصارت هذه البدعة مركَّبة من اليهوديَّة والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهميَّة معطلة في الصفـات ينكـرون الصفـات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته، فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع في غيره، والبصير كذلك وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكون الله متَّصفًا بالإثبات أو العدم فقالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو ننفي عنه صفة حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنَّه موجود ولا إنَّه معدوم، لأنَّنا إن قلنا: بأنه موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا: بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات. فنقول: لا موجود ولا معدوم فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن، لأنَّ تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لابد أن يوجد أحدهما، فمذهبهم في الصفات: التعطيل المحض.

ومـذهبهم في القضـاء والقدر: الجبر، فيقولون: إنَّ الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره إن صلَّى فهو مجبر، وإن قتل فهو مجبر وهكذا، فعطّلوا بذلك حكمة الله، لأنَّه إذا كان كل عامل مجبرًا على عمله لم يكن هناك حكمة

. . . .

في الثواب والعقاب، بل بمجرَّد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطّلوا أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنسانًا أو تذمّه، لأنَّ العاصي مجبر، والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنَّكم إذا قلتم ذلك أثبتم أنَّ الله أظلم الظالمين، لأنَّه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لا يستحق، ومنع من يستحق، وهذا ظلم!!

فقالوا: هذا ليس بظلم، لأنَّ الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما شاء.

وأجيب: بأنَّه باطل، لأنَّ المالك إذا كان متَّصفًا بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالى: **﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا﴾**(1) فلو أخلف هذا الوعد لكان نقصًا في حقه وظلمًا لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين: الإرجاء فيقولون: إنَّ الإيمان مجرَّد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأنَّ الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إنَّ أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا: إنَّ فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر لأنَّه ادّعى الربوبية لنفسه فقط فصار بذلك كافرًا.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

(1) سورة طه، الآية: ١١٢.

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم نقل أخبثها، لكن أخبث منه مذهب الرافضة حتى قال شيخ الإسلام: «إنَّ جميع البدع أصلها من الرافضة»، فهم أصل البليَّة في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أنَّ الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين أي أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول، ﷺ، وأصحابه، لأنَّ المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبي، ﷺ، وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله: «إنَّهم شر طوائف أهل البدع».

وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيَّار لأنَّه أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: «**وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أوّل من بنى عليها المساجد**» ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أنَّ البدع دركات بعضها أسفل من بعض، فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعًا لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع:

تؤخذ من قولها: «طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغْتمَّ بها كشفها» وفي هذا دليل على شدّة نزعه، وهكذا كان الرسول، ﷺ، يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان من الناس وهذا من حكمة الله عز وجل فهو، ﷺ، شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذي إيذاءً عظيمًا، وكذلك أيضًا فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك: لأجل أن ينال أعلى درجات الصبر، لأنَّ الإنسان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

الثالثة عشرة: ما أُكْرِمَ به من الخلة. **الرابعة عشرة**: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

والصبر درجة عالية لا تُنال إلّا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلَّة:

ويدل عليها قوله، ﷺ: **«إنَّ الله اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً»** ولا شك أنَّ هذه الكرامة عظيمة، لأننا لا نعلم أحدًا نال هذه المرتبة إلا رسول الله، ﷺ، وإبراهيم، ﷺ، وبهذا يتبينَّ خطأ من يقول إبراهيم الخليل، ومحمد الحبيب، فإنَّ هذا تنقّص في حق الرسول، ﷺ، وليس من باب التكميل، بل من باب التنقيص، لأنَّ الخلة أعلى من المحبة، فإذا قالوا: إبراهيم الخليل ومحمد الحبيب جعلوا مرتبة إبراهيم أعلى من مرتبة النبي، ﷺ، وهذا أمر لا يتفطَّن له هؤلاء الجهلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنَّها أعلى من المحبة:

ودليل ذلك: أنَّه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحبَّ الناس إليه فأثبت له المحبة ونفى عنه الخلّة، فدلّ هذا على أنَّها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره، فقد ورد من حديث آخر أنَّه صرَّح: **«بأنَّ أبا بكر أحب الرجال إليه»**[1] ثم قال هنا: **«لو كنت متخذًا أحدًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»** دلّ على أنَّ الخلَّة أعلى من المحبة.

---

(١) من حديث عمرو بن العاص، رواه البخاري، كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر رقم (٣٦٦٢)، ومسلم، كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر ٤/١٨٥٦.

الخـامسة عشرة: التصريح بأن الصدِّيق أفضل الصحابة. السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

الخامسة عشرة: التصريح بأنَّ الصدِّيق أفضل الصحابة:

تؤخذ من قوله ﷺ: «**ولو كنت متَّخذًا من أمتي خليلاً لاتَّخذت أبا بكر خليلاً**» فلو كان غيره أفضل منه عند النبي، ﷺ، لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضًا:

أنَّ الأفضليَّة في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب، لأنَّنا لو راعينا الأفضلية بالنسب لكان علي بن أبي طالب وحمزة بن عبدالمطلب، رضي الله عنهما، أحقّ من أبي بكر في ذلك، ومن ثمَّ قُدّم أبو بكر رضي الله عنه على علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي ﷺ.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته:

لم يقل التصريح وإنَّما قال: الإشارة لأنَّ النبي، ﷺ، لم يقل: إنَّ أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لَّما قال: «**لو كنت متَّخذًا من أمتي خليلاً لاتَّخذت أبا بكر خليلاً**» عُلِمَ أنَّه، رضي الله عنه، أولى الناس برسول الله، ﷺ، فيكون أحقّ الناس بخلافته.

باب

ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانا تعبد من دون الله

هذا الباب له صلة بما قبله وهو أنَّ الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانًا تُعبد من دون الله.

أي: يؤول الأمر بالغالين إلى أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها.

والغلو: مجاوزة الحد مدحًا أو ذمًّا، والمراد هنا مدحًا.

والقبور لها حق علينا من وجهين:

١ ـ أن لا نفرّط فيما يجب لها من الاحترام بالإهانة والجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

٢ ـ أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد.

وفي صحيح مسلم قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، ﷺ، أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سوَّيته»[1].

والقبر المشرف: هو الذي يتبينَّ عن سائر القبور، فلا بد أن يسوّى ليساويها لئلّا يظنّ أنَّ لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن، إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه.

قوله: «**الصالحين**» يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

قوله: «**أوثانًا**» جمع وثن وهو كل ما نُصب للعبادة، وقد يقال له: صنم.

والصنم: تمثال ممثل، فيكون أعم.

(١) في كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر ٢/٦٦٦.

روى مالكٌ في المُوَطَّأ: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وَثَنًا**

ولكن ظاهر كلام المؤلف: أنَّ كل ما يعبد من دون الله يُسمَّى وثنًا، وإن لم يكن على تمثال نصب، لأنَّ القبور قد لا يكون لها تمثال يُنصب على القبر فيعبد.

قوله: «**تعبد من دون الله**» أي من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها، أو عبدت مع الله، لأنَّ الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإذا قُرِنَ بها غيره صارت عبادة لله، وقد ثبت في الحديث القدسي أنَّ الله تعالى يقول: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**)[1].

قوله: «**في الموطأ**» كتاب مشهور، من أصح الكتب، لأنَّه رحمه الله تحرَّى فيه صحَّة السند، وسنده أعلى من سند البخاري لقربه من الرسول، ﷺ، وكلَّما كان السند أعلى كان إلى الصحة أقرب، وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضًا كلام وبحث للإمام مالك نفسه.

وقد شرحه كثير من أهل العلم[2]، ومن أوسع شروحه وأحسنها من الرواية والدراية: التمهيد لابن عبدالبر، وهذا ـ أعني التمهيد ـ فيه علم كثير.

قوله: «**اللهم**» أصلها يا الله فحذفت ياء النداء لأجل البداءة باسم الله، وعوّض عنها الميم الدالّة على الجمع، فكأنَّ الداعي جمع قلبه على الله، وكانت

---

(١) من حديث أبي هريرة رواه مسلم، كتاب الزهد / باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩.

(٢) ومنها: المنتقى لأبي الوليد الباجي، وشرح موطأ مالك للزرقاني، وأوجز المسالك إلى موطأ مالك للكندهلوي، وتنوير الحوالك للسيوطي.

يُعْبَدُ، اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله.

قوله: **«لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»** لا: للدعاء لأنَّها طلب من الله، وتجعل: تصير.

والمفعول الأول لها: «قبري» والثاني: «وثنًا».

وقوله: **«يُعبد»** صفة لوثن وهي صفة كاشفة؛ لأنَّ الوثن هو الذي يُعبد من دون الله.

وإنَّما نهى النبي، ﷺ، عن ذلك لأنَّ ممن كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحيهم، فسأل النبي، ﷺ، ربَّه أن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد لأنَّ دعوته كلَّها بالتوحيد ومحاربة الشرك.

قوله: **«اشتدّ»** أي عَظُمَ.

قوله: **«غضب الله»** صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل لا تماثل غضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وقال أهل التأويل: غضب الله هو الانتقام ممّن عصاه.

وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممَّن عصاه.

وهذا تحريف للكلام عن مواضعه لأنَّ النبي، ﷺ، لم يقل انتقم الله، وإنَّما قال: اشتدّ غضب الله، وهو ﷺ يعرف كيف يُعبِّر، ويعرف الفرق بين

---

(١) رواه مالك في الموطأ ١/١٧٢، وابن سعد في الطبقات ٢/٢٤٠، عن عطاء بن يسار مرسلاً، وعبدالرزاق ١/١٠٦، وابن أبي شيبة ٣/٣٤٥، عن زيد بن أسلم مرسلاً، ووصله أحمد ٢/٢٤٦، والحميدي برقيم (١٠٢٥)، وأبو نعيم في الحلية ٦/٢٨٣، ٧/٣١٧، عن أبي هريرة. صححه البزار وابن عبدالبر كما في تنوير الحوالك ١/١٨٦، وشرح الزرقاني ١/٣٥١.

. . . .

غضب الله وبين الانتقام، وهو أنصح الخلق وأعلم الخلق بربِّه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه، لأنَّه لو أتى بذلك لكان ملبّسًا وحاشاه أن يكون كذلك، فالغضب غير الانتقام وغير إرادة الانتقام، فالغضب صفة حقيقة ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق منها:

١ - غضب المخلوق حقيقته هو: غليان دم القلب، وجمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى يفور، أما غضب الخالق فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

٢ - أن غضب الآدمي يؤثر آثارًا غير محمودة، فالآدمي إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمد فيقتل المغضوب عليه، وربما يُطلّق زوجته، أو يكسر الإناء ونحو ذلك، أمَّا غضب الله فلا يترتَّب عليه إلاّ آثارًا حميدة لأنَّه حكيم، فلا يمكن أن يترتَّب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محلِّه.

فغضب الله ليس كغضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الآثار، وإذا قلنا ذلك فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدلّ على القوّة وتمام السلطان، لأنَّ الغضب يدلّ على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام السلطان، فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدلّ على بطلان تأويل الغضب بالانتقام: قوله تعالى: ﴿فلما ءاسفونا انتقمنا منهم﴾[2].

فإنَّ معنى: «ءاسفونا»: أغضبونا، فجعل الانتقام غير الغضب بل أثرًا منه، فدلّ هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام، وهو أمر قد بيَّنّاه لكم في

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿أَفَرَأَيْتُم اللَّاتَ والعُزَّى﴾[1].

شرح السفارينية، وهو: أنَّ كل من حرَّف نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله، فلابد أن يقع في زلَّة ومهلكة، وأن الواجب علينا أن نسلّم لما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله تعالى.

قوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»:

أي جعلوها مساجد إمَّا بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

وهنا نسأل هل استجاب الله دعوة نبيه، ﷺ، بأن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد؟ أم اقتضت حكمته غير ذلك؟

الجواب: يقول ابن القيم: استجاب له فلم يُذكر أنَّ قبره، ﷺ، جُعل وثنًا بل إنَّه حميَ بثلاثة جدران فلا أحد يصل إليه حتى يجعله وثنًا يُعبد من دون الله، ولم يسمع في التاريخ أنَّه جُعل وثنًا.

صحيح أنَّه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثنًا، ولكن قد يعبدون الرسول، ﷺ، ولو في مكان بعيد فإن حصل من يتوجَّه له، ﷺ بدعائه عند قبره فيكون قد اتَّخذه وثنًا لكن القبر نفسه لم يجعل وثنًا.

قوله: «**ولابن جرير**» هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام المشهور في التفسير، توفي سنة (٣١٠هـ).

وتفسيره: هو أصل التفسير بالأثر، ومرجع لجميع المفسِّرين بالأثر، ولا يخلو من بعض الآثار الضعيفة، وكأنَّه يريد أن يجمع ما روي عن السلف من الآثار في تفسير القرآن، ويدع للقارىء الحكم عليها بالصحة أو الضعف

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٩.

قال: «كان يَلُتُّ لهم السَّويقَ، فمات، فعكفُوا على قبره».

بحسب تتبع رجال السند وهي طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر.

فجيدة من جهة أنَّها تجمع الآثار الواردة حتى لا تضيع، وربما تكون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها لبعض.

وليست جيدة من جهة أنَّ القاصر بالعلم ربَّما يخلط الغث بالسمين ويأخذ بهذا وهذا لكن من عرف طريقة السند عرف، وراجع رجال السند ونظر إلى أحوالهم وكلام العلماء فيهم.

وقد أضاف إلى تفسيره بالأثر: التفسير بالنَّظر ولا سيما ما يعود إلى اللغة العربية ولهذا دائمًا يُرجِّح الرأي ويستدلّ له بالشواهد الواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية فالطبري مجتهد، لكنَّه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع، فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف في ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليه؛ لأنَّ الإجماع لابد أن يكون من جميع أهل العلم المعتبرين في الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أنّي رأيت بعض المتأخِّرين يحذّر من تفسيره؛ لأنَّه مملوء على زعمهم بالإسرائيليات، فيحذّرون الطلبة من ذلك، ويقولون عليكم بتفسير الكشّاف للزمخشري وما أشبه ذلك، وهؤلاء خطيرون لأنَّهم هم لجهلهم بفضل التفسير بالآثار عن السلف، واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا الرأي.

. . . .

قولـه: «**عن سفيان**» إمّا سفيان الثوري، أو ابن عيينة، وهذا مبهم، والمبهم يمكن معرفته بمعرفة شيوخه وتلاميذه، وفي الشرح يقول: الظاهر: أنّه الثوري.

قوله: «**عن مجاهد**» هو مجاهد بن جبر المكي إمام المفسرين من التابعين، ذكر عنه أنَّه قال: «عرضت المصحف على عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما، من فاتحته إلى خاتمته فما تجاوزت آية إلا وقفت عندها أسأله عن تفسيرها».

قولـه: «**أفـرأيتم**» الهمـزة: للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزَّى.. إلخ.

لَّما ذكـر الله تعالى قصة المعراج؛ لأنَّ قصة الإسراء والمعراج ذكرت في القرآن، الإسراء في أول سورة سبحان، والمعراج في أول سورة النجم، لما ذكر الله ما حصل في هذا المعراج من الآيات العظيمة قال: ﴿**لقد رأى من ءايـٰت ربـه الكـبرى. أفرأيتم اللات والعزَّى**﴾ أي ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي، ﷺ، ليلة المعراج.

قوله: «**اللات**» «كان يلتّ لهم...» إلخ.

على قراءة التشديد من لتَّ يلتّ فهو لاتّ.

أما على قراءة التخفيف فوجهها أنَّها خففت لتسهيل الكلام أي حذف منها التضعيف تخفيفًا.

وقد سبق أنَّهم قالوا: إنَّ اللات من الإلـٰه.

فعليه يكون هذا أصله: رجل يلتّ السويق للحُجّاج، فلما مات عظّموه وعكفـوا على قبره ثم جعلوه إلـهًـا، وجعلوا التسمية الأولى مقـترنة بالتسمية الأخيرة، فيكون أصله من لتَّ السويق، ثم جعلوه من الإلـٰه، وهذا على قراءة

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: «كان يَلتُّ السَّويقَ للحاجِّ»[1].

التخفيف أظهر من التشديد، فالتخفيف يرجّح أنَّه من الإلـه، والتشديد يرجّح أن أصله رجل يلتّ السويق.

وغلوا في قبره وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلتّ السويق للحجاج ويطعمهم إيَّاه، ثم بعد ذلك عبدوه فصار الغلو في القبور يصيّرها أوثانًا تعبد من دون الله.

وفي هذا التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نُهي عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تُعبد من دون الله، ولهذا كان الرسول، ﷺ، يأمر إذا بعث بعثًا: بأن لا يدعو قبرًا مشرفًا إلاّ سووه[2] لعلمـه أنَّه مع طول الزمان سيقال: لولا أنَّ له مزيَّة ما اختلف عن القبور، فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قوله: **«السويق»** هو عبارة عن الشعير يحمّص، ثم يُطحن، ثم يُخلط بتمر أو شبهه ثم يُؤكل.

وقوله: **«كان يلتّ لهم السويق فمات فعكفوا على قبره»** يعني ثم عبدوه وجعلوه إلـهًا مع الله.

قولـه: **«وكـذا قال أبـو الجـوزاء عن ابن عبـاس كان يلتّ السـويق للحاج»**: والغريب: أنَّ الناس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله ويلتون لهم السويق، وكان العباس أيضًا يسقي لهم من زمزم وربما يجعل في زمزم نبيذًا يحليه زبيبا أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ ٣/٣٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في اللباس ٣/١٦٦٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«لَعَنَ رسول الله ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، والمتَّخِذِينَ عليها المساجدَ والسُّرُجَ»**. رواه أهل السنن[1].

غاية الاستغلال، والعياذ بالله، حتى يبيعوا عليهم ما يساوي ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيسَّر لهم، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم، لأنَّ الله تعالى يقول: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾**[2] فكيف بمن يفعل الإلحاد؟!

قوله: **«لعن»** اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى لعن رسول الله ﷺ، أي: دعا عليهم باللعنة.

قوله: **«زائرات القبور»** زائرات: جمع زائرة، والزيارة: معناه: الخروج إلى المقابر، وهي أنواعٍ:

منها ما هو سنة.

ومنها ما هو بدعة.

ومنها ما هو شرك.

وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرَّة الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: **«لعن**

---

(١) رواه الطيالسي برقم (٢٧٣٣)، وأحمد ١/٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧، وابن بي شيبة ٣/٣٤٤، وأبو داود، كتاب الجنائز/ باب في زيارة النساء القبور ٣/٥٥٨، والنسائي، كتاب الجنائز/ باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور ٤/٩٥، والترمذي، الصلاة/ باب كراهة أن يتخذ على القبر مسجدًا رقم (٣٢٠)، وقال: «حديث حسن» وابن ماجه مختصرًا، كتاب الجنائز/ باب النهي عن زيارة القبور رقم (١٥٧٥)، وابن حبان رقم (٧٨٨)، والطبراني في الكبير (١٢٧٢٥)، والحاكم ١/٣٧٤، والبيهقي ٤/٢٧٨، وقال ابن حجر في التلخيص ٢/١٣٧: «والجمهور على أن أبا صالح هو مولى أم هانىء وهو ضعيف».

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٥.

. . . .

رسول الله، ﷺ، زوّارات القبور»[1] بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة أي كثرة الزيارة.

قوله: «**والمتخذين عليها المساجد**» هذا الشاهد من الحديث، أي الذين يضعون عليها المساجد والسرج، وقد سبق أنَّ اتخاذ المساجد له صورتان:

١ ـ أن يتخذها مصلًّى يُصلَّى عندها.

٢ ـ بناء المساجد عليها.

قوله: «**والسرج**» جمع سراج. توقد عليها السرج ليلاً ونهارًا تعظيمًا وغلوًّا فيها.

وهذا الحديث يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، بل على أنَّه من كبائر الذنوب، لأنَّ اللعن لا يكون إلاّ على كبيرة، ويدلّ على تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب لِلَعْنِ فاعله.

المناسبة للباب:

إنَّ اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها فيؤدي بعد ذلك إلى عبادتها.

مسألة: ما هي الصلة بين الجملة الأولى: «زائرات القبور» والجملة الثانية: «المتَّخذين عليها المساجد والسرج»؟

الصلة بينهما ظاهرة: هي أنَّ المرأة لرقة عاطفتها وقلّة تمييزها، وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبور تعطّفًا على صاحب القبر، فلهذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج.

وفي قوله: «**المتخذين عليها المساجد والسرج**» هل يدخل في اتِّخاذ السرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

---

(١) رواه الإمام أحمد ٢/٣٣٧، ٣٥٦، والترمذي، الجنائز/ باب ما جاء في كراهة زيارة القبور للنساء ٤/١٢ وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه في الكتاب والباب السابقين رقم (١٥٧٦)، وابن حبان رقم (٧٨٩)، والبيهقي ٤/٧٨.

. . . .

الجواب: أمَّا في المواطن التي لا يحتاج الناس إليها كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى الناس من الدفن فيه، فلا حاجة إلى إسراجه، أمَّا الموضع الذي يقبر فيه فيسرج ما حولها فقد يُقال: بجوازه لأنَّها لا تسرج إلا بالليل فليس في ذلك ما يدل على تعظيم القبر بل اتخذت للحاجة.

ولكن الذي نرى أنَّه ينبغي المنع مطلقًا للأسباب الآتية:

١ ـ أنَّه ليس هناك ضرورة.

٢ ـ أنَّ الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها ويتبينَّ لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجًا معهم.

٣ ـ أنَّه إذا فتح هذا الباب فإنَّ الشرّ سيتَّسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنَّهم جعلوا المصباح بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت فمن الذي يتولَّى قفل هذه الإضاءة؟ الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنَّه متَّخذ عليها السرج، فالذي نرى: أنَّه يمنع نهائيًّا.

أمَّا إذا كان في المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه، فلا بأس بإضاءتها لأنَّها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلة لا تُشاهد فهذا نرجو أن لا يكون به بأس.

والمهم: أنَّ وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يبتعد عنها ابتعادًا عظيمًا، ولا يقدر للزمن الذي هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة فالمسألة ليست هيِّنة.

وفي الحديث ما يدلّ على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنَّها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب لهذا الحديث.

. . . .

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عند أصحابه لحديث أم عطية: نهينا عن اتِّباع الجنائز، ولم يعزم علينا(1).

القول الثالث: أنَّها تجوز زيارة النساء للقبور لحديث المرأة(2).

ورأيت قولاً رابعًا، لكن شيخ الإسلام يقول: ليس عليه أحد من الأئمة: أنَّه يستحب للنساء زيارتها، كما يُستحب للرجال، لأنَّ هذا ليس معروفًا في عهد النبي، ﷺ، أنَّ النساء يخرجن للمقابر كما يخرج الرجال.

حجَّة القول الأول:

حديث ابن عباس: **«لعن رسول الله، ﷺ، زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»**(3).

ودليل القول الثاني: حديث أم عطية: **«نُهينا عن اتِّباع الجنائز ولم يعزم علينا»**.

أدلة القول الثالث:

١ - أنَّه ﷺ، مرَّ بامرأة وهي تبكي عند قبر فقال لها: **«اتقي الله واصبري**، فقالت له: إليك عني، فإنَّك لم تصب بمثل مصيبتي فانصرف الرسول، ﷺ، عنها فقيل لها: هذا رسول الله، ﷺ، فجاءت إليه تعتذر، فلم

---

(1) رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب اتباع النساء للجنائز ١/٣٩٤، ومسلم كتاب الجنائز/ باب نهي النساء عن اتباع الجنائز ٢/٦٤٦.

(2) يأتي ص (٤٣٩).

(3) سبق ص (٤٣٥).

. . . .

يقبل عذرها وقال: **«إنَّما الصبر عند الصدمة الأولى»**[1]. فالنبي، ﷺ، شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنَّما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

٢ ـ ما ثبت في صحيح مسلم[2] من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي، ﷺ، خرج إلى أهل البقيع في الليل واستغفر لهم ودعا لهم، وأنَّ جبريل أتاه في الليل وأمره فخرج ﷺ، مختفيًا عن عائشة، وزار ودعا ورجع ثم أخبرها الخبر فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله قال قولي: **السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين. . إلخ**

قالوا: فعلَّمها النبي، ﷺ، دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ودليل القول الرابع:

١ ـ قوله ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكِّركم الآخرة»**[3].

٢ ـ أنَّ عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها فقال لها عبدالله بن أبي مليكة: أليس النبي، ﷺ، قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنَّه أمر بها بعد ذلك[4].

---

(١) من حديث أنس، رواه البخاري، كتاب الجنائز/ باب زيارة القبور ١/٣٩٥، ومسلم، كتاب الجنائز/ باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ٢/٦٣٧.

(٢) في كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند دخول القبور ٢/٦٦٩.

(٣) من حديث بريدة رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي، ﷺ، ربه عز وجل في زيارة قبر أمه ٢/٦٧٢.

(٤) رواه الحاكم ١/٣٧٦، والبيهقي ٤/٧٨، وصححه الذهبي، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٤١٨: «رواه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد».

. . . .

وهذا دليل على أنَّه منسوخ.

هذا حاصل أدلة القائلين بالجواز وهذه الأدلة صحيحة، لكن ليست صريحة في الموضوع.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى:

أولاً: دعوى النسخ غير صحيحة لأنَّها لا تقبل إلا بشرطين:

١ ـ تعذر الجمع بين النصين وإمكان الجمع هنا بين النصين سهل وليس بمتعذِّر لأنَّه يمكن أن يُقال: إنَّ الخطاب في قوله: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»[1] للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم هل يدخل فيه النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول وهو الصحيح فإنَّ دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلى هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول: قد خصَّ النبي، ﷺ، النساء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجل فقط، لأنَّ النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم، وأيضًا مما يبطل النسخ قوله: «**لعن رسول الله، ﷺ، زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**»[2] ومن المعلوم أن قوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**» لا أحد يدعي أنَّه منسوخ والحديث واحد فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر هذا غير مستقيم وعلى هذا يكون الحديث باقيًا.

٢ ـ العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم بالتأريخ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور، بل قال: كنت نهيتكم، والنَّهي دون اللعن.

---

(١) سبق ص (٤٣٩).

(٢) سبق ص (٤٣٥).

. . . .

وأيضًا: فإنَّ قولـه: «**كنت نهيتكم**» خطاب للرجال، ولعن زائـرات القبور خطاب للنسـاء، فلا يمكن حمل خطاب الـرجـال على خطاب النساء، إذًا فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ.

وثـانياً: وأما الجواب عن حديث المرأة، وحديث عائشة فإن المرأة لم تخرج للزيارة قطعًا، لكنها أصيبت ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي على القبر ممَّا يدلّ على أن في قلبها شيئًا عظيمًا لم تتحمَّله حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عند قبره، ولهذا أمرها، ﷺ، أن تصبر لأنَّه علم أنَّها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمُّل هذه الصدمة الكبيرة، فالحديث ليس صريحًا بأنها خرجت للزيارة وإذا لم يكن صريحًا فلا يمكن أن يُعارض الشيء الصريح بشيء غير صريح.

وأما حديث عائشة: فإنَّها قالت للرسول ﷺ: «**ماذا أقول فقال قولي: السلام عليكم**» فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرَّت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمـل فليس فيه تصريح بأنَّها تزور، فيقـال فيه كما يقـال في حديث المـرأة المصابة، وإذا كان ليس صريحًا فلا يُعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها، رضي الله عنهما، فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبدالله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنَّما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبـور؛ لأنَّه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور لكنا ننظر بماذا سيجيبها؟

فهي استدلت عليه بالنهى عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عامًّا، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنَّه قد أمر بذلك، ونحن وإن كنَّا نقول إن عائشة، رضي الله عنها، استدلت بلفظ العموم فهي كغيرها من العلماء لا يُعارض بقولها قول الرسول، ﷺ، على أنها روي عنها أنها قالت:

. . . .

«لو شهدتك ما زرتك»[1] وهذا دليل على أنها، رضي الله عنها، خرجت لتدعو له لأنَّها لم تشهد جنازته لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء وقال: إنَّها لا تصح عن عائشة، رضي الله عنها، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة إذ ليس فيها دليل على أنَّ الرسول، ﷺ، نسخه، وإذا فهمت هي فلا يُعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

إشكال وجوابه:

في قوله: «**زوَّارات القبور**» ألا يمكن أن يحمل النهي على تكرار الزيارة لأن «زوارات» صيغة مبالغة؟

الجواب: هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك فإننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات».

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل «فزوَّارات» يعني النساء إذا كنَّ مائة كان فعلهن كثيراً، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية قال تعالى: ﴿**جنات عدن مفتَّحة لهم الأبواب**﴾[2] فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف إذ الباب لا يُفتح إلا مرة واحدة، وأيضًا قراءة ﴿**حتى إذا جاءوها وفتحت**﴾[3] فهي مثلها.

فالرَّاجح: تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنَّها من كبائر الذنوب.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة ٣/٣٤٣، والترمذي، الجنائز/ باب زيارة النساء القبور ٤/١١، وفيه عنعنة ابن جريج وهو مدلس، كما في الجنائز للألباني ص (١٨٢)، وذكر ابن القيم في تهذيب السنن ٤/٣٥٠: «أنه هو المحفوظ».

(٢) سورة ص، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

فيه مسائل الأولى: تفسير الأوثان. **الثانية**: تفسير العبادة. **الثالثة**: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. **الرابعة**: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد. **الخامسة**: ذكر شدة الغضب من الله.

فيـه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان:

وهي: كل ما عُبد من دون الله سواء كان صنمًا أو قبرًا أو غيره.

الثانية: تفسير العبادة:

وهي: التذلّل والخضوع للمعبود خوفًا ورجاء ومحبة وتعظيمًا لقوله: «**لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**».

الثالثة: أنَّه، ﷺ، لم يستعذْ إلّا ممَّا يُخاف من وقوعه:

وذلك في قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**».

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد:

وذلك في قوله: «**اشتدَّ غضب الله على قوم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

الخامسة: ذكر شدَّة الغضب من الله:

تؤخذ من قوله: «**اشتد غضب الله**».

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنَّه يتفاوت، كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: «**إنَّ ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله قبله ولا بعده**»[1].

---

(١) سبق ص (٣٣٣).

السادسة: وهي من أهمها معرفة صفة عبادة اللاَّت التي هي من أكبر الأوثـان. **السـابعـة**: معرفة أنه قبر رجل صالح. **الثامنة**: أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية. **التاسعة**: لعنه زوارات القبور. **العاشرة**: لعنه من أسرجها.

السادسة: وهي من أهمها معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان:

وذلك في قوله: «**فمات فعكفوا على قبره**».

السابعة: معرفة أنه قبر رجلٍ صالح:

تؤخـذ من قولـه: «**كان يلتّ لهم السويق**» أي للحجاج، لأنه معظَّم عندهم، والغالب لا يكون معظَّمًا إلا صاحب دين.

الثامنة: أنَّه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية:

وهو أنَّه كان يلتّ السويق.

التاسعة: لعنه زوَّارات القبور:

أي النبي، ﷺ، ويصح: لعنة، وذكر رحمه الله لفظ: «**زوارات القبور**» مراعاة للفظ الآخر.

العاشرة: لعنه من أسرجها:

وذلك في قوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**».

وهنا مسألة مهمة لم تذكر وهي: أنَّ الغلو في قبور الصالحين يُصيرها أوثانًا كما في قبر اللات، وهذه من أهم المسائل، ولم يذكرها المؤلف، رحمه الله، ولعلَّه اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات فإذا قيل بذلك فله وجه.

والمرأة إذا ذهبت للروضة في المسجد النبوي لتصلي فيها فالقبر قريب منها فتقف وتسلِّم، ولا مانع فيه.

. . . .

والأحسن البعد عن الزِّحام، ومخالطة الرجال، ولئلا يظنّ من يشاهدها أنَّ المرأة يجوز لها قصد الزيارة فيقع الإنسان في محذور.

والحمد لله تسليم المرء على النبي، ﷺ، يبلغه حيث كان.



باب

ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قوله: «**المصطفى**».

أصلها: المصتفى من الصفوة وهو خيار الشيء، فالنبي، ﷺ، أفضل المصطفين، لأنَّه أفضل أولي العزم من الرّسل، والرسل هم المصطفون، والمراد به: محمد ﷺ.

قوله: «**حماية**».

أي يجعل للشيء حمى أي حرامًا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها ونحو ذلك.

قوله: «**جناب**».

بمعنى جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبيَّة، والألوهيَّة، والأسماء والصفات.

قوله: «**وسده كل طريق**».

أي مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سدَّ كل طريق يوصل إلى الشرك، لأنَّ الشرك أعظم من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود: «لأنَّ أحلف بالله كاذبًا أحبّ إليَّ من أحلف بغيره صادقًا»[1]. وقال

---

(١) سبق ص (٢٠٧).

وقول الله تعالى: **﴿لقد جَاءَكُمْ رسولٌ من أَنْفُسِكُمْ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم﴾**[1]. الآية.

تعالى: **﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**[2] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشرك الأصغر لا يغفره الله لعموم قوله: **﴿أن يُشرك به﴾** وعلى هذا فجميع الذنوب دونه لقوله: **﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها، فالشرك ليس بالأمر الهيِّن الذي يُتهاون به، وإذ الشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل، إذ العمل مبناه على القصد قال تعالى: **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾**[3]. ولقوله ﷺ: **«إنَّما الأعمال بالنيَّات»**[4].

إذًا: الرسول، ﷺ، حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسدَّ كل طريق يُوصل إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأنَّ من سار على الدرب وصل، والشيطان يزيِّن للإنسان أعمال السوء شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الغاية.

قولــه: **﴿لقـد جاءكم رسـول من أنفسكم﴾** الجملة مؤكـدة بثـلاث مؤكدات: القسم، واللام، وقد، وهي مؤكدة لجميع مدخولها بأنَّه رسول، وأنَّه من أنفسهم، وأنَّه عزيز عليه، ما يشقّ علينا في هذا الرسول، ﷺ، أنَّه بالمؤمنين رؤوف رحيم فالقسم منصب على كل هذه الأوصاف الأربعة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي رقم (١)، ومسلم في الإمارة ٣/١٥١٥.

. . . .

والخطاب في قوله: ﴿جاءكم﴾ قيل: للعرب لقوله: ﴿من أنفسكم﴾ فالرسول، ﷺ، من العرب، قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾[1].

ويُحتمل أن يكون عامًّا للأمة كلها، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس أي ليس من الجن ولا الملائكة بل هو من جنسكم كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾[2].

وعلى الاحتمال الأول فيه إشكال، لأنَّ النبي، ﷺ، بُعث إلى جميع الناس من العرب والعجم.

ولكن يُقال في الجواب: أنَّه خوطب العرب بهذا لأنَّ منَّة الله عليهم به أعظم من غيرهم حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمال الثاني أولى للعموم، ولقوله: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾[3] ولما كان المراد العرب قال: ﴿منهم﴾ لا «من أنفسهم» قال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ وعلى هذا فإذا جاءت «من أنفسهم» فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت «منهم» فالمراد: العرب، فعلى الاحتمال الثاني لا إشكال في الآية.

قوله: ﴿رسول﴾ أي من الله كما قال تعالى: ﴿رسول من الله يتلو صحفًا مطهَّرة﴾ وفعول هنا: بمعنى مُفْعَل: أي مرسل.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

. . . .

و﴿من أنفسكم﴾ أي من جنسكم على سبيل العموم وفيه قراءة شاذة ﴿من أنفسكم﴾ وهي قراءة شاذة يحرم القراءة بها.

قوله: ﴿عزيز﴾ أي صلب لأنَّ هذه المادة العين والزاي في اللغة العربية تدلّ على الصلابة ومنه: «أرض عزاز» أي صلبة قوية، والمعنى: أنَّه يصعب عليه ما يشقّ عليكم، ولهذا بعث بالحنيفيَّة السمحة، وما خيّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا وهذا من التيسير الذي أُعطي للرسول، ﷺ، إلى أمته.

قوله: ﴿ما عنتم﴾ ما: مصدرية، وليست موصولة أي عنتكم أي مشقتكم لأنَّ العنت بمعنى المشقة قال تعالى: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾[1] أي المشقة، فعنتكم: أي ما يشق عليكم.

والفعل بعد «ما» يؤول إلى مصدر مرفوع، لكن بماذا هو مرفوع؟

يختلف باختلاف «عزيز» إذا قلنا: بأن «عزيز» صفة لرسول صار المصدر المؤول فاعلاً به، أي عزيز عليه عنتكم، وإن قلنا: عزيز خبر مقدَّم صار عنتكم مبتدأ، والجملة حينئذٍ تكون كلها صفة لرسول، أو يُقال: عزيز مبتدأ، وعنتكم فاعل سد مسد الخبر على رأي الكوفيين الذي أشار إليه ابن مالك في قوله:

وقد يجوز فائز أولو الرشد.

قوله: ﴿حريص عليكم﴾ الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: بذل غاية جهده في مصلحتكم فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ وحصول المحبوب الذي أفاده قوله: ﴿حريص عليكم﴾ فكان النبي، ﷺ، جامعًا بين هذين الوصفين، وهذا من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٥.

. . . .

نعمة الله علينا وعلى الرسول، ﷺ، أن يكون على هذا الخُلُق العظيم الممثل لقوله تعالى: ﴿**وإنَّك لعلى خلق عظيم**﴾[1].

قولـه: ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ بالمؤمنين: جار ومجرور خبر مقدَّم، ورؤوف مبتدأ مؤخر، ورحيم: مبتدأ ثانٍ، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

والرأفة: أشد الرحمة وأرقّها.

والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقَّة في القلب هذا باعتبار المخلوق، أمَّا بالنسبة لله تعالى فلا نفسِّرها بهذا التفسير، لأنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها، فقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه قال: «**إنَّ لله مائة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منذ خلقوا إلى يوم القيامة حتى أنَّ الدَّابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[2].

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدّرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلاّ الله عز وجل الذي خلقها.

فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟ الجواب: أبدًا لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنَّها صفة تقتضي

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) من حديث أبي هريرة، انظر البخاري، كتاب الأدب/ باب جعل الله الرحمة في مائة جزء ٤/٩١، ومسلم، كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله رقم (٢٧٥٢)، (٢٧٥٣)، ٤/٢١٠٨.

. . . .

الإحسان إلى المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة لأنَّها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة لأنَّها من صفاته، فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق لأنَّنا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق وهذا أمر لا يمكن، لأنَّ صفات الخالق يتَّصف بها وحده، وصفات المخلوق يتَّصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها.

وقوله: **﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** أي: أنَّ النبي، ﷺ، في غير المؤمنين ليس رؤوفًا ولا رحيمًا، بل هو شديد عليهم كما وصفه الله هو وأصحابه بذلك في قوله: **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾**[1].

قوله: **﴿فإن تولوا﴾** أي أعرضوا مع هذا البيان الواضح بوصف الرسول ﷺ.

وهذا التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأنَّ التولي مع هذا البيان مكروه، ولهذا لم يخاطبوا به فلم يقل: فإن توليتم.

والبلاغيون يسمّونه التفاتًا، ولو قيل: إنَّه انتقال لكان أحسن.

قوله: **﴿فقل حسبيَ الله﴾** الخطاب للنبي، ﷺ، أي قل ذلك معتمدًا على الله متوكِّلًا عليه معتصمًا به حسبي الله، وارتباط الجواب بالشرط واضح أي فإن أعرضوا فلا يهمنَّك إعراضهم، بل قل بلسانك وقلبك: حسبي الله و«حسبي» خبر مقدَّم و«الله» مبتدأ مؤخَّر، ويجوز العكس بأن نجعل: «حسبي» مبتدأ و«الله» خبر لكن لما كانت حسب نكرة لا تتعرَّف بالإضافة كان الأولى أن نجعلها هي الخبر.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

. . . .

قوله: ﴿لا إلـه إلاّ هو﴾ أي لا معبود حق حقيق بالعبادة سوى الله عز وجل.

قوله: ﴿عليه توكَّلت﴾ عليه جار ومجرور متعلّق بتوكلت، وقُدّم للحصر.

والتوكل هو: الاعتماد على الله بجلب المنافع، ودفع المضار مع الثقة به.

وقوله: ﴿عليه توكَّلت﴾ مع قوله: ﴿لا إلـه إلا هو﴾ فيها جمع بين توحيد الربوبية والعبودية، والله تعالى دائمًا يجمع بين هذين الأمرين ﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين﴾[1] وقوله: ﴿فاعبده وتوكَّل عليه﴾[2].

قوله: ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الضمير يعود على الله سبحانه.

ورب العرش أي خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش وإن كانت ربوبية الله عامة لأجل الاختصاص والفضل.

ومناسبة التوكّلِ لقوله: ﴿رب العرش العظيم﴾ لأنَّ من كان فوق كل شيء ولا شيء فوقه فإنَّه لا أحد يغلبه، فهو جدير بأن يُتَوكَّل عليه وحده.

وقوله: ﴿العرش﴾ فسَّره بعض الناس بالكرسي، ثمَّ فسَّروا الكرسي بالعلم، وحينئذٍ لا يكون هناك كرسي ولا عرش، وهذا التفسير باطل والصحيح: أنَّ العرش غير الكرسي، وأنَّ الكرسي غير العلم، ولا يصحّ تفسيره بالعلم، بل الكرسي من مخلوقات الله العظيمة التي وسع السمٰوات والأرض، والعرش أعظم وأعظم، ولهذا وصفه بأنَّه عظيم بقوله تعالى: ﴿وهو ربّ العرش

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

. . . .

العظيم﴾[1] وبأنَّه مجيد بقوله: **﴿ذو العرش المجيد﴾**[2] وبأنه كريم في قوله: **﴿لا إلـه إلا هو رب العـرش الكـريم﴾**[3] لأنَّه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها، وأعلاها لأنَّ الله استوى عليه.

وفيه دليل على أن كلمــة العـظيم يوصف بها المخلوق؛ لأنَّ العـرش مخلوق، وكذلك الرحيم، والرؤوف، والحكيم.

ولا يلزم من اتفاق الاسمين اتفاق المسميين، فإذا كان الإنسان رؤوفًا لا يلزم أن يكون مثل الخالق، فلا تقل إذا كان الإنسان سميعًا بصيرًا رؤوفًا لزم أن يكون مثل الخالق؛ لأنَّ الله سميع بصير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كذوات الخلق، فإن أسماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلق، وهناك فرق عظيم بين هذا وهذا.

وقوله: **﴿فقل حسبي الله﴾** قلنا: إنَّه باللسان وبالقلب، وهكذا يجب أن يعلن المؤمن اعتماده على ربه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي يتخلَّى الناس عنه لأنَّه قال: **﴿فإن تولوا﴾**.

وهذه الكلمة؛ كلمة الحَسْب تُقال في الشدائد، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، والنبي، ﷺ، وأصحابه، حين قيل لهم: **﴿إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

(٢) سورة البروج، الآية: ١٥.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلُوا بيــوتكم قُبـورًا، ولا تجعلوا قبري عيـدًا، وصلُّوا عَلَيَّ، فإنَّ صلاتكم تبلُغني حيث كُنتم**».

قوله: «**لا تجعلوا**» الجملة هنا نهي، فلا ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

قوله: «**بيوتكم**» جمع بيت وهو: مقرُّ الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة وما أشبه ذلك، وغالب ما يُراد به الطين والحجارة.

قولـه: «**قبـورًا**» مفعول ثان لتجعلوا، وهذه الجملة اختلف في معناها فمنهم من قال: لا تجعلوها قبورًا أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنَّه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي، ﷺ، في بيته.

وأجيب عنه بأنَّه من خصائصه، ﷺ، فالنبي، ﷺ، دفن في بيته لسببين:

١ - ما روي عن أبي بكر أنَّه سمع النبي، ﷺ، يقول: «**ما من نبي يموت إلاّ دفن حيث قُبِض**»[1] وهذا ضعَّفه بعض العلماء.

٢ - ما روته عائشة رضي الله عنها: «**أنه خشي أن يُتخذ مسجدًا**»[2].

وقال بعض العلماء: المراد بـ «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**» أي لا تجعلوها مثل القبور أي المقبرة لا تصلّون فيها، وذلك لأنَّه من المتقرر عندهم: أنَّ المقابر لا يُصلّى فيها، وأيَّدوا هذا التفسير بأنَّه سبقها جملة في بعض الطرق «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبورًا**» وهذا يدلّ على أنَّ المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

---

(١) سبق ص (٤٠٣).

(٢) سبق ص (٤٠٢).

. . . .

وكلا المعنيين صحيح ؛ فلا يجوز أن يُدفن الإنسان في بيته ، بل يُدفن مع المسلمين لأنَّ هذه هي العادة المتَّبعة منذ عهد النبي ، ﷺ ، إلى اليوم ، ولأنَّه إذا دُفن في بيته فإنَّه ربما يكون وسيلة إلى الشرك فربما يعظَّم هذا المكان ويُحترم ، ويحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، وإذا انهدم هذا البيت يبنون عليه وهكذا ، ولأنَّه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه ، وربما يستوحشون منه ، وإذا باعوه لا يُساوي إلا شيئًا قليلاً ، ولأنَّه قد يحدث عنده من الصَّخب واللعب واللغو والأفعال المحرَّمة ما يتنافى مع مقصود الشارع ، فإنَّ الرسول ، ﷺ ، يقول: «**زوروا القبور فإنَّها تذكركم الآخرة**»[1] .

وأمَّا أنَّ المعنى : لا تجعلوها قبورًا أي مثل القبور في عدم الصلاة فيها فهو دليل على أنَّه ينبغي إن لم نقل: يجب أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة .

وفيه أيضًا : أنَّه من المتقرر عندهم أنَّ المقبرة لا يُصلَّى فيها .

إذًا فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في البيوت لئلَّا تشبه المقابر فيكون فيه دليل واضح على أنَّ المقابر ليست محلًّا للصلاة ، وهذا هو الشاهد من الجملة للباب لاتخاذ المقابر مساجد لا شك أنَّه سبب قريب جدًّا للشرك .

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين :

الأولى : أن يبني عليها مسجدًا .

الثانية : أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلِّي عندها .

والحديث يدل على أنَّ الأفضل : أنَّ المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك

---

(١) سبق ص (٤٣٩).

. . . .

جميع النوافل لقوله، ﷺ: «**أفضل صلاة المرء في بيته إلاّ المكتوبة**»[1]، إلاّ ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، حتى ولـو كنت في مسجد النبي، ﷺ، لأنَّ النبي، ﷺ، قال ذلك وهو في مسجده، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض، والنوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله: «**عيدًا**» العيد اسم لما يُعتاد فعله، أوالتردد إليه فإذا اعتاد الإنسان أن يعمل عملاً كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعامًا ودعا الناس، فهذا يسمَّى عيدًا لأنَّه جعله يعود ويتكرَّر[2].

وكـذلك من العيد: أن تعتاد شيئًا فتترد إليه مثل: ما يفعل بعض له الجهلة في شهر رجب وهو ما يسمى بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون من مكة

---

(١) من حديث زيد بن ثابت، رواه البخـاري، كتاب الأذان/ باب صلاة الليل ١/ ٢٣٩، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين/ باب استحباب صلاة النافلة في بيته ١/ ٥٣٩.

(٢) قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص (١٨٩):

«يوضـح ذلك أن العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد. عائد إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، أو نحو ذلك.

فالعيد يجمع أموراً:

منها يوم عائد كيوم الفطر، ويوم الجمعة.

ومنها اجتماع فيه.

ومنها أعمال تجمع ذلك من العبادات أو العادات.

وقد يختص بمكان بعينه، وقد يكون مطلقا، وكل هذه الأمور تسمى عيدا.

فالزمـان: كقولـه، ﷺ ليـوم الجمعـة: «**إن هـذا اليـوم جعلـه الله للمسلميـن عيـدا**»

والأعمال: كقول ابن عباس: «شهدت العيد مع رسول الله، ﷺ.

والمكان: كقوله، ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيدا**».

وقـد يكون لفـظ العيد اسما لمجمـوع اليوم والعمل فيه كقول النبي ﷺ: «**دعهما ياأبابكـر فـإن لكل قوم عيدا، وإن هذا عيدنا**».

. . . .

إلى المدينة ويزورن كما زعموا قبر النبي ، ﷺ ، وإذا أقبلوا على المدينة تسمع لهم صياحًا، وكانوا بالأول يذهبون من مكة إلى المدينة على الحمير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون على السيارات، لكن بعض المتعصبين يذهبون على الحمير إلى الآن.

وأيهما المراد من كلام النبي ﷺ؟ الأول، أي العمل الذي تكرر بتكرر العام، أو التردد إلى المكان؟

الظاهر الثاني: أي لا ترددوا على قبري وتعتادوا ذلك سواء قيَّدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع فإنَّه، ﷺ، نهى عن ذلك، وإنَّما يُزار لسبب، كما يقدم الإنسان من سفر فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكَّر الآخرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبي ، ﷺ من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر، يظنُّون أنَّ هذا مثل زيارته في حياته فهذا من الجهل، وما علموا أنَّهم إذا سلَّموا عليه في أي مكان فإنَّ تسليمهم يبلغه.

قوله: «**وصلُّوا عليَّ**» هذا أمر، أي قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسليمًا**﴾[1].

وفضل الصلاة على النبي، ﷺ، معروف، ومنه أنَّ من صلَّى عليه مرةً واحدة صلى الله عليه بها عشرًا.

والصلاة من الله على رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إنَّ الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدميين الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إنَّ صلاة الله على المرء ثناؤه عليه في الملأ الأعلى

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

. . . .

كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحقِّقون من أهل العلم.

ويدلّ على بطلان القول الأول قوله تعالى: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾[1] فعطف الرحمة على الصلوات، والأصل في العطف المغايرة.

فمن صلَّى على محمد أثنى الله عليه في الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة.

قوله: «**فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» حيث: ظرف مبني على الضم في محل نصب، ويُقال فيها: حيث، وحوث، وحاث لكنها قليلة.

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب فالواجب أن يُقال: الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبي، ﷺ، «**أنَّ لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلّغون النبي، ﷺ، سلام أمَّته عليه**»[2] فإن صحَّ فهذه هي الكيفية، وقد يقال: إن صلاتهم عليه تبلغه حيث كان، وما يجده، ﷺ، من قبول الله تعالى لهذه الصلاة، فإنَّه زيادة في حسناته أي يعلم بها زيادة حسناته فيها، فربما يُقال أيضًا هذا من الكيفية التي تبلغه، وهي مجهولة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٢) رواه النسائي، كتاب السهو/ باب السلام على النبي، ﷺ، ٣/٤٣، وقال ابن القيم في جلاء الأفهام ص (٢٢): «وهذا إسناد صحيح».

رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقاتٌ[1].

قوله: «رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات»:

هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، هل هناك تناقض بين قوله: «حسن» وبين قوله: «رواته ثقات»؟

ظاهر اللفظ أن بينهما اختلافًا، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوي خفيف الضبط فمعناه أنَّ فيه نوعًا من الثقة فيجمع بين كلام المؤلف، رحمه الله، وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن: أنَّ المراد بالثقة ليس غاية الثقة لأنَّه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحًا؛ لأنَّ ثقة الراوي تعود على تحقق الوصفين فيه وهما: العدالة والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضًا تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أنَّ المراد: مطلق الثقة، ولكنه لا شك فيها أرى أنَّه إذا أعقب قوله: «حسن» بقوله: «رواته ثقات» أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ: «حسن».

ومثل هذا: ما يُعبِّر به ابن حجر في تقريب التهذيب بقوله: «صدوق يهم» وأحيانًا يقول: صدوق، وصدوق أقوى فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذي يوصف بأنَّه يهم.

لا يقول قائل: إنَّ كلمة يهم لا تزيده ضعفًا لأنَّه ما من إنسان إلّا ويهم؟

---

(١) رواه أحمد ٢/٣٦٧، وأبو داود، كتاب المناسك/ باب زيارة القبور ٢/٥٣٤، وسكت عنه، وصححه النووي في الأذكار ص (٩٣)، وقال شيخ الإسلام في الاقتضاء ص (٣٢١): «إسناده حسن ورواته ثقات مشاهير، لكن عبدالله بن نافع الصائغ الفقيه صاحب مالك فيه لين لا يقدح في حديثه»، وحسنه ابن حجر في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربانية ٣/٣١٣.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه: أنه رأى رجُلاً يجيء إلى فرجةٍ كانت عندَ قبرِ النَّبي ﷺ فَيدخُلُ فيها فيدعو، فنهاه. وقال: ألا أُحَدِّثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ

فنقول: هذا لا يصح، لأنَّ قولهم: بهم لا يعنون به الوهم الذي لا يخلو منه أحد، ولولا أن هناك غلبة في أوهامه ما وصفوه بها.

قوله: «**وعن علي بن الحسين**»:

هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يُسمى بزين العابدين من أفضل أهل البيت علمًا وزهدًا وفقهًا.

والحسين: معروف، ابن فاطمة، رضي الله عنها، وأبوه: علي رضي الله عنه.

قوله: «**يجيء إلى فرجة**».

هذا الرجل لا شك أنَّه ما لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلّا لاعتقاده أنَّ فيها فضلاً ومزيَّة، وكونه يظنّ أن الدعاء عند القبر له مزيَّة هذا فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر فلا يجوز أن يعتقد أنَّ لها مزيَّة سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أنَّ القراءة عند القبر أفضل.

قوله: «**ألا أحدثكم حديثًا**»:

قال: أحدثكم والرجل واحد لأنَّ الظاهر: أنَّه كان عند أصحابه يحدثهم فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.

و«ألا» أداة عرض أي ألا أعرض عليكم.

وفائدتها: تنبيه المخاطب إلى ما يريد أن يحدثه به.

قوله: «**عن أبي عن جدي**» أبوه: الحسين، وجده: علي بن أبي طالب.

قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ، فإنَّ تسليمكم يبلُغُني حيث كنتم**». رواه في المختارة[1].

قوله: «**عن رسول الله ﷺ**» السند متصل، وفيه عنعنة لكنها لا تضر؛ لأنَّها من غير مدلس فتحمل على السماع.

قوله: «**لا تتخذوا قبري عيدًا**» كما في الحديث السابق أنَّه نهى أن يُتخذ قبره عيدًا يُعتاد ويتكرَّر إليه؛ لأنَّه وسيلة إلى الشرك.

قوله: «**ولا بيوتكم قبورًا**» كاللفظ الأول، وفيه احتمالان:

الأول: أن لا تدفنوا فيها.

الثاني: أن لا تدعوا الصلاة فيها.

قوله: «**وصلوا عليَّ فإنَّ تسليمكم يبلغني حيث كنتم**»:

اللفظ هكذا، وأشك في صحته لأنَّ قوله: «**صلوا عليَّ**» يقتضي أن يُقال: فإن صلاتكم تبلغني إلَّا أن يُقال هذا من باب الطي والنشر.

والمعنى: صلوا عليَّ وسلموا فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني وكأنَّه ذكر الفعلين والعلَّتين لكن حذف من الأولى ما دلَّت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلَّت عليه الأولى.

وقوله: «**وصلُّوا عليَّ**» كقوله فيما سبق صلوا علي.

المراد: صلوا عليَّ في أي مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلِّموا علي وتصلوا عنده.

قوله: «**يبلغني**» تقدم كيف يبلغه ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢/١٨٦، وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد ٤/٣، وقال الهيثمي: «وفيه جعفر بن إبراهيم الجعفري ذكره أبو حاتم ولم يذكر فيه جرحًا وبقية رجاله ثقات»، وفيه أيضًا علي بن عمر بن الحسين مستور كما في التقريب ٢/٤١، ورواه أيضًا الضياء في المختارة كما في اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٢٢).

. . . .

قوله: «**رواه في المختارة**» الفاعل مؤلف المختارة، والمختارة: اسم للكتاب أي الأحاديث المختارة.

والمؤلف هو: عبدالغني المقدسي من الحنابلة.

وما أقل الحديث في الحنابلة، يعني المحدثين، وهذا من أغرب ما يكون، يعني أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثًا بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم الله الفقه مع الحديث، فصاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم الله بشر فإذا أخذ من هذا العلم صار ذلك زحامًا للعلم الآخر. أما الأحناف فإنَّهم أخذوا بالفقه لكن قلَّت بضاعتهم في الحديث، ولهذا يُسمَّون أصحاب الرأي يعني العقل والقياس لقلة الحديث عندهم. الشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكيَّة كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلّهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتبًا في الحديث.

فيه مسائل: الأولى: تفسير آية براءة. **الثانية**: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد. **الثالثة**: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته. **الرابعة**: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال. **الخامسة**: نهيه عن الإكثار من الزيارة. **السادسة**: حثه على النافلة في البيت.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة:

وسبق ذلك في أول الباب.

الثانية: إبعاده، ﷺ، أمته عن هذا الحمى غاية البعد:

تؤخذ من قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيدًا**».

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته:

وهذا مذكور في آية براءة.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص:

تؤخذ من قوله: «**ولا تجعلوا قبري عيدًا**» فقوله: «**عيدًا**» هذا هو الوجه المخصوص.

وزيارة قبر النبي، ﷺ، من أفضل الأعمال من جنسها، فزيارته فيه سلام عليه، وحقه، ﷺ، أعظم حق من غيره.

وأما من حيث التذكير بالآخرة فلا فرق بين قبره وقبر غيره.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة:

تؤخذ من قوله: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**» لكنه لا يلزم منه الإكثار لأنَّه قد لا يأتي إلّا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيدًا، فإنَّ فيه نوعًا من الإكثار.

السادسة: حثه على النافلة في البيت:

تؤخذ من قوله «**ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا**» وسبق أنَّ فيها معنيين:

السابعة: أنه مقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة. **الثامنة**: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب. **التاسعة**: كونه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

المعنى الأول: أن لا يقبر في البيت، وهو ظاهر الجملة.

والثاني: الذي هو من لازم المعنى أن لا تترك الصلاة فيها.

السابعة: أنَّه متقرر عندهم أنَّه لا يُصلى في المقبرة:

تؤخذ من قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**» لأنَّ المعنى: لا تجعلوها قبورًا، أي لا تتركوا الصلاة فيها على أحد الوجهين، فكأنَّه من المتقرر عندهم أنَّ المقابر لا يُصلَّى فيها.

الثامنة: تعليل ذلك بأنَّ صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بَعُد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القُرب. أي كونه نهى، ﷺ، أن يجعل قبره عيدًا، العلَّة في ذلك: أنَّ الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان، فلا حاجة إلى أن يأتي إلى قبره، ولهذا نحن نسلِّم ونصلِّي عليه في أي مكان فيبلغه السلام والصلاة.

ولهذا قال علي بن الحسين: «ما أنت ومن في الأندلس إلَّا سواء».

التاسعة: كونه، ﷺ، في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه:

أي: فقط فكل من صلى عليه أو سلَّم عرضت عليه أعمال أمته، يؤخذ من قوله: «**فإنَّ تسليمكم يبلُغني أينما كنتم**».



باب

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إنَّ الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك، لأنَّ هذه الأمة معصومة منه لقوله ﷺ: **«إنَّ الشيطان أيس أن يُعبد في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»**[1].

والجواب:

أن نقول: إنَّ يأس الشيطان أخبر به النبي، ﷺ، لما رأى الشيطان الفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، ولكن الواقع لا يلزم أن يكون موافقًا لما ظنّه الشيطان، بل إنَّ الأمر وقع بخلافه.

فالنبي، ﷺ، أخبر عمّا وقع في نفس الشيطان، وأن الناس بعد أن دخلوا في الدين لا يمكن أن يوقع الشيطان فيهم الشرك، فلا يلزم من هذا أن يكون الأمر كما ظنَّ الشيطان وكما أخبر النبي، ﷺ، عنه.

وقوله: **«يُعبد»** هذا مطلق حتى لو واحدًا من الناس، ولكن الأمر وقع بخلاف ما ظن فلو قال: أن يعبده الناس مثلاً لكان يمكن أن ينزل على العموم، أي: أنَّ الشيطان أيس أن الناس يعبدونه جميعًا لكان لما قال: «يعبد» فهو مطلق.

قوله: **«أنَّ بعض هذه الأمة»**:

أي لا كلها، لأنَّ في هذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام

---

(١) سبق ص (٢١٠).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيبًا من الكتابِ يُؤْمِنُون بالجِبتِ والطَّاغُوتِ﴾[1].

الساعة لكنه سيأتي في آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم فلا يبقى إلّا شرار الناس.

وقوله: «تُعبد» وفي بعض النسخ: «يُعبد».

فعلى قراءة «يُعبد» لا إشكال فيها لأنَّ «بعض» مذكَّر.

وعلى قراءة «تعبد» فإنَّه داخل في قول ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولاً   تأنيثًا أنْ كان لحذف مهملا

ومثَّلوا لذلك بقولهم: قطعت بعض أصابعه، فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض.

فإذا صحَّت النسخة «تعبد» فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه.

قوله: «**الأوثان**»:

جمع وثن وهو: كل ما عُبِدَ من دون الله.

قوله: ﴿**ألم تر**﴾ الاستفهام هنا للتقرير والتعجب، والرؤية بصرية بدليل أنَّها عُدّيت بإلى، وإذا عُدّيت بإلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إمَّا للنبي، ﷺ، أو لكل من يصحّ توجيه الخطاب إليه، أي ألم تر أيها المخاطب؟

قوله: ﴿**إلى الذين أوتوا**﴾ أي أعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب لأنَّهم حرموا بسبب معصيتهم.

قوله: ﴿**نصيبًا من الكتاب**﴾ المنزّل، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

. . . .

وقد ذكروا لذلك مثلاً وهو كعب بن الأشرف حين جاء إلى مكة فاجتمع إليه المشركون وقالوا: ما تقول في هذا الرجل أي النبي ﷺ الذي سفَّه أحلامنا ورأى أنَّه خير منَّا؟ فقال لهم: أنتم خير من محمد، ولهذا جاء في آخر الآية: ﴿**ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**﴾[1].

وقوله: ﴿**نصيبًا من الكتاب**﴾ ولم يقل: «أوتوا الكتاب» لأنَّهم أوتوا نصيبًا منه فليس عندهم العلم الكامل بما في هذا الكتاب.

قوله: ﴿**يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ أي يصدِّقون به ويقررونه ولا ينكرونه، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان قلنا: إنَّه موصوف بالطاغوت.

والجبت: قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنَّه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة، أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مُطاع.

فالمعبود: كالأصنام، والمتبوع كعلماء أهل الضلال، والمطاع: كالأمراء، فطاعتهم في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرَّم الله تعد من عبادتهم.

والمراد من كان راضيًا بذلك، أو يُقال: هو طاغوت باعتبار عابديه، وتابعيه ومطيعيه؛ لأنَّه تجاوز به حده حيث نزله فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحدَّ بذلك.

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان فكل شيء يتعدَّى به الإنسان حدَّه يعتبر طاغوتًا.

وجه المناسبة في الآية للباب لا يأتي إلاّ بعد ذكر الحديث وهو: «**لتركبنَّ**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هل أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذلك مَثُوبةً عند الله؟ من لعنهُ الله وغضبَ عليهِ وجعلَ منهم القِرَدَة والخنازير وعبَدَ الطاغُوتِ﴾[1].

سُنن من كان قبلكم» فإذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبله، يلزم من هذا أنَّ في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت، فتكون الآية مطابقة للترجمة تمامًا.

قوله: ﴿قل هل أ نبئكم﴾ الخطاب للنبي، ﷺ، ردًّا على هؤلاء اليهود الذين اتَّخذوا دين الإسلام هزوًا ولعبًا.

وقوله: ﴿أنبئكم﴾ أي أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق أي سأقرر عليكم هذا الخبر.

قوله: ﴿بشر من ذلك﴾ شر: هنا اسم تفضيل، وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خير مخفَّفة من أخير، والناس مخفَّفة من الأناس، وكذا كلمة الله مخفَّفة من الإله.

وقوله: ﴿ذلك﴾ المشار إليه ما كان عليه الرسول، ﷺ، وأصحابه، فإنَّ اليهود يزعمون أنَّهم هم الذين على الحق، وأنَّ الرسول، ﷺ، وأصحابه ليسوا على الحق، فقال الله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم﴾.

قوله: ﴿مثوبة عند الله﴾ مثوبة: تمييز لشر لأنَّ شر اسم تفضيل وما جاء بعد أفعل التفضيل يكون منصوبًا على التمييز فما بعده مما يبينه يعتبرا تمييزًا.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

. . . .

قال ابن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكرة ينصب تمييزًا بما قد فسره

إلى أن قال:

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا مفضلاً كأنت أعلى منزلا

والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع ويُطلق على الجزاء أي بشر من ذلك جزاء عند الله.

قوله: ﴿عند الله﴾ أي في علمه وجزائه عقوبة أو ثوابًا.

قوله: ﴿من لعنه الله﴾ من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله؛ لأنَّ الاستفهام انتهى عند قوله: ﴿مثوبة عند الله﴾ وجواب الاستفهام: ﴿من لعنه الله﴾.

ولعنه: أي طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وغضب عليه﴾ أي أحلّ عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصحّ تحريفه إلى معنى الانتقام وقد سبق الكلام عليه مرارًا.

والقاعدة العامة عند أهل السنة: في أن آيات الصفات وأحاديثها تبقى على ظاهرها اللائق بالله عز وجل، فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفى عن الله، فلا نغلو في الإثبات، ولا في النفي.

قوله: ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾.

القردة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهًا بالإنسان.

والخنازير: جمع خنزير وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه الله بأنَّه رجس.

والإشارة هنا إلى اليهود، فإنَّهم لُعِنُوا كما قال تعالى: ﴿لُعن الذين كفروا

. . . .

من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾[1] الآية.

وجعلوا قردة بقوله تعالى: **﴿كونوا قردة خاسئين﴾**[2] وغضب الله عليهم بقوله: **﴿غير المغضوب عليهم﴾**[3].

قوله: **﴿وعبد الطاغوت﴾** فيها قراءتان في «عبد» وفي «الطاغوت».

الأولى: بضم الباء «عبُد».

الثانية: بفتح الباء «عبَد» على أنَّه فعل ماض معطوف على قوله: «لعنه الله» صلة الموصول أي ومن عبد الطاغوت، ولم يعد «من» مع طول الفصل لأنَّ هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت من لأوهم أنَّهم جماعة آخرون، وهم جماعة واحدة فعلى هذه القراءة يكون «عبَد» فعلاً ماضيًا، والفاعل ضمير مستتر جوازًا تقديره هو يعود على الضمير في قوله: «لعن».

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه، لأنَّ الفاعل في صلة الموصول «الله»، والفاعل في هذا المعطوف يعود على المفعول «الهاء» لا على الفاعل.

وعلى القراءة بالضم للباء «عَبُد» بفتح العين وضم الباء يكون الطاغوت مضافًا إليه فهو مجرور بالإضافة.

وقيل: إنَّها جمع لعبد، وقيل: إنَّها مفرد.

وعلى كل حال فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

وقوله تعالى: ﴿قال الذين غلبُوا على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مسْجدًا﴾[1].

والطاغوت على قراءة الفعل في «عبد» تكون مفتوحة «عبَد الطاغوتَ» وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة «عَبُد الطاغوتِ».

وذكر في تركيب «عبد» مع «الطاغوت» أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذَّة غير القراءتين السبعيتين «عَبَد» «عَبُد».

قوله: ﴿قال الذين غَلبوا على أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجدًا﴾. هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة كما قال الله تعالى: ﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا﴾[2] وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك فخرجوا منها إلى الله عز وجل، فيسَّر الله لهم غارًا فدخلوا فيه وناموا نومة طويلة بلغت (٣٠٩) سنة ﴿ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا﴾[3] وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أنَّ الله يقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يترسَّب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعامًا فلمَّا قدَّم النقود إذا هي قد تغيَّرت واختلفت، آخر الأمر أنَّ أهل المدينة اطَّلعوا على أمرهم، وقالوا: لا بد أن نبني على قبورهم مسجدًا.

وقوله: ﴿قال الذين غَلبوا على أمرهم﴾ المراد بهم: الحكَّام في ذلك الوقت قالوا: سنتخذ عليهم مسجدًا، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٥.

. . . .

فوائد الآيات السابقة:

من فوائد الآية الأولى مايلي :

١ ـ أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيباً من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.

٢ ـ أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية ؛ لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دونه من المعاصي.

٣ ـ وجوب إنكار الجبت والطاغوت ؛ لأن الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم ، فلا يجوز الإقرار بالجبت.

٤ ـ ماساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»[1] فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضاً من يؤمن بالجبت والطاغوت.

ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:

١ ـ تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره بمعنى أنَّك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره، فإنَّ اليهود يعرفون بأنَّ فيهم قومًا غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرّون بذلك وهم يستهزئون بالمسلمين، فنقول لهم أين محل الاستهزاء؟ الذين حلَّت عليهم هذه العقوبات أم الذين سَلِمُوا منها؟

والجواب: الذين حلَّت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

---

(١) سبق ص (٢٠١).

. . . .

٢ - اختلاف الناس بالمنزلة عند الله لقوله: ﴿**بشر من ذلك مثوبة عند الله**﴾ ولا شك أنَّ الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

٣ - سوء حال اليهود الذين حلَّت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٤ - إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنَّه سبحانه يفعل ما يشاء لقوله: ﴿**لعنه الله**﴾ فإنَّ اللعن من صفات الأفعال.

٥ - إثبات الغضب لله لقوله: ﴿**وغضب عليه**﴾.

٦ - إثبات القدرة لله لقوله: ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾.

وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة؟

والجواب: لا. لما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ، أنَّه قال: «**إنَّ كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل**»[1] وعلى هذا فليس هذا الموجود من القردة والخنازير، هو بقية أولئك الممسوخين.

٧ - أنَّ العقوبات من جنس العمل؛ لأنَّ هؤلاء الذين مسخوا قردة والقرد أشبه ما يكون شبهًا بالإنسان، فعلوا فعلًا ظاهره الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنَّه حرَّم عليهم الصيد ويوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلأ البحر بالحيتان وظهرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكًا فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت فإذا أتى يوم الأحد أخذوها،

---

(١) من حديث ابن مسعود، رواه مسلم، كتاب القدر/ باب بيان أن الأرزاق والآجال. . . لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر ٤/ ٢٠٥١.

. . . .

حيلة ظاهرها الحل، ولكن حقيقتها معناه الوقوع في الإثم تمامًا، ولهذا مُسخوا إلى حيوان يشبه الإنسان وليس بإنسان وهو القرد، قال تعالى: ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾[1] وهو يفيد أنَّ الجزاء من جنس العمل، ويدلّ عليه صراحة قوله تعالى: ﴿**فكلًّا أخذنا بذنبه**﴾.

٨ ـ أنَّ هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت لقوله: ﴿**وعبد الطاغوت**﴾ ولا شك أنَّهم حتى الآن يعبدونه، لأنهم عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

وفي الآية نكتة نحوية في قوله «**عليه**» و«**منهم**» في قوله تعالى: ﴿**من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ فالضمير في «لعنه» الهاء، و«غضب عليه» مفرد، و«منهم» جمع، مع أن المرجع واحد وهو: «من».

والجواب: أنّه روعي في الإفراد اللفظ، وفي الجمع المعنى، وذلك أنَّ «من» اسم موصول صالحة للمفرد وغيره، قال ابن مالك:

ومن وما وأل تساوي ما ذكر

لما ذكر الأسماء الموصولة من المفرد والمثنَّى والجمع من مذكر ومؤنَّث قال: ومن وما . . . إلخ.

وقال: ﴿**من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة**﴾ ولم يقل وجعلهم قردة، لأنَّ اللعن والغضب عام، والعقوبة بمسخهم إلى قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملًا لبني إسرائيل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

عن أبي سعيد (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**لَتتبعنَّ سُنن من كان قبلكم، حذْو القذَّةِ بالقُذَّةِ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ**

ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:

١ ـ ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدَّالة على كمال قدرة الله وحكمته.

٢ ـ أنَّ من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور، لأنَّ الـذين غلبـوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد لأنَّهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

٣ ـ أنَّ الغلو في القبور وإن قلّ قد يؤدّي إلى ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي، ﷺ، لعلي حين بعثه: «**ألا تدع قبراً مشرفًا إلاّ سوَّيته**»[1].

قولـه: «**لتتبعنَّ**» اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد، فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون. والتقدير: والله لتتبعنَّ.

قوله: «**سنن من كان قبلكم**» فيها روايتان: «سَنن» و«سُنن» أما «سُنن» بضم السين جمع سُنَّة وهي الطريقة.

وأما «سَنن» بالفتح فهي مفرد بمعنى الطريق.

وفَعَل تأتي مفردة مثل: فنن جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب.

وقوله: «**من كان قبلكم**» أي من الأمم.

قوله: «**لتتبعُنَّ**» بضم العين، والخطاب فيها للجمع، ولو قال: «**لتتبعَنَّ**» بفتح العين صار للمفرد، وهذا هو الفرق.

وقـولـه: «**ولتتبعنَّ سنن من كان قبلكم**» ليس على ظاهره بل هو عام مخصـوص، لأنَّنا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر ٦٦٦/٢.

لدخلتُموهُ»، قالوا: يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».
أخرجاه[1].

قبلها، لكننا نقول: إنَّه عامّ مخصوص؛ لأنَّ في هذه الأمة من لا يتبع، وقد يقال: إنَّ الحديث على عمومه وأنَّه لا يلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل منها من يتبعها بشيء وبعض الأمة يتبعها بشيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عمومه، ومن المعلوم أنَّ من طرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملَّة مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملَّة: كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق، ولنستعرض شيئًا من هذه السنن:

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين، فإنَّها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: **﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا﴾**[2]، ومن هذا الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة، ومنها دعاء غير الله، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة ومنها وصف الله بالنقائص والعيوب فقد قال اليهود: **﴿يد الله مغلولة﴾**[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام/ باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ٣/٣٦٧، ومسلم كتاب العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/٢٠٥٤.

(٢) سورة نوح، الآية: ٢٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

. . . .

وقالوا: ﴿إنَّ الله فقير ونحن أغنياء﴾[1]. وقالوا: إنَّ الله تعب من خلق السمٰوات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه، فقد وجد من قال: ليس له يد، ومنهم قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بأنَّه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجًا عنه ولا متَّصلاً به، ولا منفصلاً عنه.

ولا تجوز الإشارة الحسيَّة إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها أكل السحت فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة. ومنها أكل الربا فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة. ومنها التحايل على محارم الله، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة. ومنها إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها تحريف كلام الله عن مواضعه لفظًا ومعنى كاليهود حين قيل لهم: ﴿ادخلوا الباب سُجدًا وقولوا حطَّة﴾[2] فدخلوا على قفاهم وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطَّة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك فحرَّف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء قال تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[3] وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إنَّ اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود النون في (حطَّة) فقالوا: (حنطة).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

(٣) سورة طه، الآية: ٥.

. . . .

نون اليهود ولام جهمي هما	في وحي رب العرش زائدتان
أمر اليهود بأن يقولوا حطَّة	فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى	فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتَّخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله، ووجد في هذه الأمة من يُعارض قول النبي، ﷺ، بقول شيخه.

فإذا تأمَّلت كلام النبي، ﷺ، وجدته مطابقًا للواقع لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم، ولكن يبقى النظر هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟

الجواب: لا شك أنَّه للتحذير وليس للإقرار فلا يقول أحد سأحسد وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق لأنَّ الرسول، ﷺ، قال ذلك، فمن قال ذلك فإننا نقول له: هذا لا شك أنَّه للتحذير ولهذا قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

ثم نقول لهم أيضًا: إنَّ الرسول، ﷺ، أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أنَّ الإنسان يعصي أباه ويدني صديقه[1]، وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين إنَّ هؤلاء لضالون، ووجد في هذه الأمة من يقول هؤلاء لرجعيُّون.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولكن من وفقه الله للهداية اهتدى.

---

(١) من حديث أبي هريرة، رواه الترمذي في الفتن/ باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ٦/٣٦٤، وقال: «وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

. . . .

والحاصل: أنَّك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجد لها أصل في الأمم السابقة.

ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثًا في هذه الأمَّة.

أما مناسبة الحديث للباب:

فلأنَّه لَّما عبدت الأمم السابقة الأصنام والأوثان، فسيكون في هذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.

قوله: «**حذو القذَّة بالقذَّة**».

حذو بمعنى: محاذيًا وهي منصوبة على الحال من فاعل تتبعن أي حال كونكم محاذين لهم حذو القذَّة بالقذَّة.

والقذة: هي ريشة السهم، والسهم له ريش لابد أن تكون متساوية تمامًا، وإلا صار الرمي به مختلًا.

وأنا ليس عندي معرفة تامَّة بالسهام، لأنها غير موجودة الآن.

قوله: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» هذه الجملة تأكيد منه، ﷺ، للمتابعة.

وجحر الضب من أصغر الجحور، فإنَّكم تدخلونه، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله فالنبي، ﷺ، قال ذلك على سبيل المبالغة، كقوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلمًا طوَّقه الله به يوم القيامة من سبع أراضين**»[1] ومن اقتطع ذراعًا فمن باب أولى.

قوله: «**قالوا اليهود والنصارى**» يجوز فيها وجهان:

---

(١) سبق ص (٨٠).

. . . .

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنَّه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟

الثاني: الرفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟ وعلى كل تقدير فالجملة إنشائية لأنَّهم يسألون النبي، ﷺ، فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتباع موسى، عليه الصلاة والسلام، وسمّوا يهودًا نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنَّهم هادوا إلى الله أي رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

والنصارى: هم أتباع عيسى، عليه الصلاة والسلام، وسمّوا بذلك نسبة إلى بلدة تسمَّى الناصرة، وقيل: من النصرة كما قال تعالى: ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾[1].

قوله: «**قال فمن**» من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير أي فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ فالصحابة، رضي الله عنهم، لمَّا حدَّثهم، ﷺ، بهذا الحديث كأنَّه حصل في نفوسهم بعض الغرابة فلما سألوا قرَّر النبي، ﷺ، أنَّهم اليهود والنصارى.

من فوائد الحديث:

١ ـ ما أراده المؤلف بسياقه وهو أنَّ بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنَّه من سنن من قبلنا، وقد أخبر، ﷺ، أننا سنتبعهم.

٢ ـ ويستفاد أيضًا من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله.

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.

. . . .

٣ ـ أنَّه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك ولله الحمد موجود في القرآن والسنة.

٤ ـ استعظام هذا الأمر عند الصحابة لقولهم اليهود والنصارى، فإنَّ الاستفهام للاستعظام، أي استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى مع النبي ﷺ.

٥ ـ أنَّه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة فإنَّه يكون أبعد من الحق، لأنَّه أخبر عن مستقبل ولم يخبر عن الحاضر، ويؤخذ أنَّه من خصال من قبلنا أنَّه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم. قال تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾**[1].

فإذا كان طول الأمد سببًا لقسوة القلب فيمن قبلنا، فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في البخاري من حديث أنس، رضي الله عنه، أنه قال: سمعت النبي، ﷺ، يقول: «**لا يأتي على الناس زمان إلاّ وما بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»[2]. ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك.

لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

وهذه المسألة ينبغي أن نتنبه لها وهي الفرق بين الجملة والأفراد فحديث أنس، رضي الله عنه، حديث صحيح سندًا ومتنًا، فالمتن ليس فيه شذوذ والسند في البخاري، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين، فلا تيأسوا فتقولوا إذًا لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا مثل من سبق،

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٢) في كتاب الفتن/ باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه ٤/٣١٥.

. . . .

لأنَّنا نقول: إنَّ مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتَّضح الأمر فانظروا: إلى جنس الرجال وجنس النساء أيها خير؟

والجواب: جنس الرجال خير قال تعالى: ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾[1] لكن يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال، فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان، فقد تكون أمة في بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم فإنَّهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أمَّا الصحابة فلا أحد يساويهم في مسألة فضل الصحبة، ولهذا مثَّلنا بأتباع التابعين والتابعين، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم مهما بلغ من الفضل لأنَّه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هي الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: «**لتتبعن سنن**» إلخ وأن يكون فيها من كل مساوىء من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين فإنَّ الدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يُعارضها دلّ هذا على أنَّ كل نقص في الأمم السابقة، فإنَّ هذه الشريعة جاءت بتكميله؛ لأنَّ الأشياء لا تتبينَّ إلاّ بضدّها كما قيل: وبضدها تتبينَّ الأشياء.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

ولمسلم[1] عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها**.

قوله: «**زوى لي**» بمعنى جمع وضم، أي جمع له الأرض وضمها.

قوله: «**فرأيت**» أي بعيني فهي رؤية عينية.

قوله: «**مشارقها ومغاربها**» وهذا ليس على الله بعزيز، لأنَّه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي، ﷺ، ما سيبلغ ملك أمَّته.

وهل المراد هنا بالزوي أنَّ الأرض جمعت، أو أنَّ الرسول، ﷺ، قُوِّي نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أنَّ الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي، ﷺ، أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول. ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها، فالله على كل شيء قدير أن يجمع له، ﷺ، الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حمل على الواقع فليس بموافق للواقع، لأنَّه لو حصرت الأرض بحيث تكون مدركة لبصر النبي، ﷺ، المجرد فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بأنَّ هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن تورد عليها كيف؟

---

(١) في كتاب الفتن/ باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٤/ ٢٢١٥.

وإن أُمَّتي سيبلغُ مُلكُها ما زُوِي لي منها،
وأُعطيتُ الكنزين: الأحمر والأبيض،

ولِمَ؟ بل نقول: إنَّ الله على كل شيء قدير. إذ قوة الله سبحانه أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي، ﷺ، أنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[1]، فلا يجوز أن نقول كيف يجري مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

وقوله: «**فرأيت مشارقها ومغاربها**» أي أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: «**وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**» هل المراد أمة الإجابة أو الدعوة؟

المراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول، ﷺ، سيبلغ ملكها ما زوي للرسول، ﷺ، منها، وهذا هو الواقع فإنَّ ملك هذه الأمة اتَّسع من المشرق ومن المغرب اتِّساعًا بالغًا لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط وهذا يحقق رؤيا النبي ﷺ.

قوله: «**وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**» الذي أعطاه هو الله.

والكنزان هما: الذهب والفضة كنوز كسرى وقيصر، فالذهب عند

---

(1) من حديث صفية. رواه البخاري، كتاب الاعتكاف/ باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ٢/٢٦٨، ومسلم، كتاب السلام/ باب يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة... رقم (٢١٧٥).

وإني سألتُ ربِّي لأمتى أن لا يُهلكها بسنةٍ بِعَامَّة، وأن لا يُسَلِّط عليهم عدُوًّا من سِوى أنفسهم، فيستبيح بيضتَهُمْ، وإن

قيصر، والفضة عند كسرى وكل منهما عنده ذهب وفضة لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

وقوله: «**أعطيت**» هل هو ﷺ أعطيها في حياته أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته فهو كالمعطى له، لأنَّ امتداد ملك الأمة، لا لأنَّها أمة عربية كما يقوله هؤلاء الجهّال، بل لأنَّها أمة إسلامية، أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قوله: «**وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**» هكذا في الأصل وفي رواية في بعض النسخ «بسنة عامة».

السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر قال، ﷺ: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[1] وقال تعالى: ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين**﴾[2].

وعامة: أي عمومًا تعمهم، هذه دعوة.

قوله: «**وأنْ لا يسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**» أي لا يُسلط عليهم عدوًا، والعدو: ضد الولي، وهو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار ولهذا قال: «**من سوى أنفسهم**».

ومعنى: «**يستبيح**» يستحلّ، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام.

---

(١) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب التفسير/ باب «يغشى الناس هذا عذاب أليم» ٣/ ٢٨٩، ومسلم، كتاب صفات المنافقين/ باب الدخان ٤/ ٢١٥٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

قوله: **(إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يُردّ)** اعلم أن قضاء الله نوعان:

١ - قضاء شرعي قد يُرد، فقد يريده الله ولا يقبلونه.

٢ - قضاء كوني لا يرد ولابد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: **﴿والله يقضي بالحق﴾**[1].

ومثال القضاء الشرعي قوله تعالى: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيَّاه﴾**[2] لأنَّه لو كان كونيًّا لكان كل الناس لا يعبدون إلّا الله.

ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: **﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرَّتين ولتعلنَّ علوًّا كبيراً﴾**[3]. لأنَّ الله تعالى لا يقضي شرعًا بالفساد لكنه يقضي به كونًا وإن كان يكرهه سبحانه، فإنَّ الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة كما قسم خلقه إلى مؤمن وكافر لما يترتَّب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني، فلا أحد يستطيع ردّه مهما كان من الكفر والفسوق، فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتوًّا واستكبارًا، فقد نفذ على فرعون وأُغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمَّرهم.

وقوله: **(إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يُرد)** وفي هذا من كمال سلطان الله وربوبيَّته ما هو ظاهر لأنَّه ما من ملك سوى الله إلّا يمكن أن يرد ما قضى به.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.   (٣) سورة الإسراء، الآية: ٤.

. . . .

واعلم: أنَّ قضاء الله كمشيئته مقرون بالحكمة فهو لا يقضي قضاء إلَّا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئًا إلا والحكمة تقتضيه ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا﴾[1] فيتبينَّ أنَّه لا يشاء شيئًا إلَّا عن علم وحكمة وليس لمجرّد المشيئة.

خلافًا لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم فقالوا: إنَّه لا يفعل الأشياء إلَّا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرُّفًا من الله، لأنَّ كل عاقل من المخلوقين لا يتصرَّف إلا لحكمة، ولهذا الذي يتصرَّف بسفه يحجر عليه قال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا﴾[2].

فنحن نقول: إنَّ الله جل وعلا لا يفعل شيئًا ولا يحكم بشيء إلَّا لحكمة، ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علمًا؟

الجواب: لا يلزم؛ لأنَّنا أقصر من أن نحيط علمًا بكل حكم الله عز وجل، صحيح أنَّ بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: (**إذا قضيت قضاءً فإنَّه لا يُرد**) بيان أن من الأشياء التي سألها النبي، ﷺ، ما لم يُعطها، لأنَّ الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد ما قضاه الله عز وجل.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب، فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتَّب دخول الجنة عليه، يتوقف على العمل الصالح.

(١) سورة الإنسان، الآية ٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥.

وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ بعامة، وأن لا أُسلِّط عليهم عدوًّا من سِوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضُهُم يُهلكُ بعضًا ويسبي بعضُهم بعضًا».

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله عز وجل منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعي بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله عز وجل، أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يجب فإننا نجزم بأنَّه ادخر له.

وقوله: «**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «**أن لا أسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم ولـو اجتمـع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا**» وهذه الإجابة قيدت بقوله «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**» إذا وقع ذلك منهم فقد يُسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم فكـأن إجـابة الله لرسوله، ﷺ، في الجملة الأولى بدون استثناء وفي الجملة الثانية باستثناء «**حتى يكون بعضهم...**».

وهـذه هي الحكمـة من تقـديم قولـه: «**إذا قضيت قضاءً فإنّه لا يُرد**» فصارت إجابة الله لرسوله، ﷺ، مقيَّدة.

ومن نعمة الله أنَّ هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبدًا، فكل من يدين بدين الرسول، ﷺ، فإنّه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة فإنَّه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا، فإنَّه يُسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، وهـذا قد وقـع، فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونًا في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة. ولمَّا تفرقت وصار بعضهم

ورواهُ البرقاني في صحيحه، وزاد: «**وإنما أخافُ على أُمَّتي الأئمَّة المُضلِّين**»،

يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا، سلَّط الله عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، وأعظم من سُلِّط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطًا لا نظير له فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرًا على نهر دجلة يطأونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن كثير في النهاية: مضى عليَّ حين وأنا أقدِّم رجلاً وأؤخِّر أخرى، هل أذكر هذا التاريخ أو لا أذكره؟ ثم بدا لي أن أذكره حفظًا للتاريخ، وكان يقول: إنَّ المسلمين أصيبوا بذل عظيم، حتى إن الواحد من التتر يدخل الزقاق أي السكة الضيقة الصغيرة ويقول لأهل البيوت اخرجوا ثم يقول: ضعوا حجرًا ثم يقول للواحد: اجعل رأسك على هذا الحجر ثم يقول لأخيه: اضربه بالحجر فيرضّ رأسه بين الحجرين والتتري يتفرَّج، وهذا تسليط لأنَّه كان بعضهم يقتل بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وأنَّه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

قوله: «**إنَّما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» بيَّن الرسول، ﷺ، أنَّه لا يخاف على الأمة إلاّ الأئمَّة المضلين.

والأئمَّة: جمع إمام، والإمام قد يكون إمامًا في الخير أو الشر، قال تعالى

وإذا وقع عليهم السيف لم يرفعْ إلى يوم القيامة،
ولا تقوم الساعةُ حتى يلحق حيٌّ من أُمَّتي بالمشركين،

في أئمة الخير: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾[1].

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون**﴾[2].

والذي في الحديث: «الأئمة المضلين»، وصدق النبي، ﷺ، إنَّ أعظم ما يُخاف على الأمة الأئمة المضلون كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرَّقت الأمة بسببهم.

والمراد بقوله: «**الأئمة المضلين**» الذين يقودون الناس بالشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان، فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، الذين يدّعون أنَّ ما هم عليه شرع الله، وهم أشدّ الناس عداوة له.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لو كان لي دعوة مستجابة لصرفتها للسلطان فإنَّ بصلاحه صلاح الأمة.

قوله: «**وإذا وقع عليهم السيف... إلخ**» هذا من آيات النبي، ﷺ، وهذا حق واقع فإنَّه لما وقع السيف في هذه الأمة لم يُرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتل الخليفة الثالث عثمان، رضي الله عنه، وصارت الأمة يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا.

قوله: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين**».

الحي: بمعنى القبيلة.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٤١.

وحتى تعبُدَ فِئَامٌ من أُمَّتي الأوثـان، وأنه سيكون في أُمتي كذَّابون ثلاثون،

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني بمعنى أنَّه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم؟ أو اللحوق الحكمي؟ أو الأمران معًا؟

الظاهر: أنَّ المُراد الأمران معًا بحيث يصدقان جميعًا، أو أحدهما.

وأمـا الحي: فالظاهر أنَّ المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إنَّ المراد واحد الأحياء فلابد أن يكون لهذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية بحيث يتبينً ويظهر، وربما يكون لهذا الحي إمام يزيغ والعياذ بالله ويفسد فيتبعه كل الحي ويتبينً ويظهر أمره.

قوله: «**وحتى تعبد فئام من أمَّتي الأوثان**» الفئام: أي الجماعات، وهذا وقـع ففي كل جهة من جهات المسلمين يعبدون القبور ويعظِّمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم. وفئام: أي ليسوا أحياء فقد يكون بعضهم من قبيلة. والبعض الآخر من قبيلة فيجتمعون.

قوله: «**وإنَّه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون**» حصرهم النبي، ﷺ، بعدد وكلهم يزعم أنَّه نبي أُوحي إليه وهم كذابون؛ لأن النبي، ﷺ، خاتم النبيين ولا نبي بعده، فمن زعم أنَّه نبي بعد الرسول، ﷺ، فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدَّقه في ذلك فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين، ولا من أمة محمد، ﷺ، ومن زعم أنَّه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة، ومحمد، ﷺ، يتلقى منه بواسطة الملك فهو كاذب كافر حلال الدم والمال.

وقوله: «**كذابون ثلاثون**» هل ظهروا أم لا؟

كلهم يَزْعُم أنه نبيٌّ، وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي، ولا تزال طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِ منصورةً، لا يَضُرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله تبارك وتعالى»[1].

الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم يُنتظر لأن النبي، ﷺ، لم يحصرهم في زمن معيَّن، وما دامت الساعة لم تقم فهم يُنتظرون.

قوله: «**وكلهم يزعم**» هذا يدل على القصد فيخرج المجنون.

قوله: «**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**» المعنى: أنَّهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين.

هذا من نعمة الله، فلما ذكر أنَّ حيًّا من الأحياء يلتحقون بالمشركين، وأنَّ فئامًا يعبدون الأصنام وأنَّ أناسًا يدعون النبوة، فيكون هنا الإخلال بالشهادتين شهادة أن لا إلـه إلا الله بالشرك، وأن محمدًا رسول الله بادعاء النبوة وذلك أصـل التوحيد، بل أصل الإسلام شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فلما بيَّن ذلك لم يجعل الناس ييأسون فقال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**».

والطائفة: الجماعة.

وقوله: «**على الحق**» جار ومجرور خبر تزال.

قوله: «**منصورة**» خبر ثان، ويجوز أن يكون حالاً، والمعنى: لا تزال على الحق وهي كذلك أيضًا منصورة.

---

(١) هذه الزيادة رواها أبو داود في كتاب الفتن/ باب ذكر الفتن ٤/٤٥٢ وسكت عنها، وابن ماجه، كتاب الفتن/ باب ما يكون من الفتن رقم ٣٩٥٢، والحاكم في المستدرك ٤/٤٤٩، وصححه على شرط الشيخين. وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٨٩، وفي الدلائل ص (٤٦٩، وأحمد في المسند ٥/٢٧٨، ٢٨٤، وفي النهج السديد ص (١٢٩): «صحيح على شرط مسلم».

. . . .

قوله: «**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**» خذلهم: أي لا ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنّه سيوجد من يخذلهم لكنه لا يضرهم لأنَّ الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: «**واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك**»[1]. وكذلك لا يضرهم من خالفهم لأنهم منصورون بنصر الله، فالله عز وجل إذا نصر أحدًا فلا يستطيع أحد أن يذلّه.

قوله: «**حتى يأتي أمر الله**» أي الكوني، وذلك عند قيام الساعة، عندما يأتي أمره سبحانه وتعالى بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق، فعليهم تقوم الساعة.

الشاهد من هذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: «**حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان**».

وقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**» هذه لم يحدد مكانها فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق، وغيرهما.

فالمهم: أنَّ هذه الطائفة مهما نأت بهم الديار، فهي طائفة واحدة منصورة على الحق لا يضرهم من خذلهم.

مسألة: تكلّف بعض السلف بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث، هل هذا صحيح؟

الجواب: هذا ليس بصحيح، لكن في الحقيقة ليس هناك حق إلّا باتباع

---

(١) من حديث ابن عباس، رواه الترمذي، صفة القيامة/ باب «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ٢٠٣/٧، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في المسند ٢٩٣/١، ٣٠٧، وعبد بن حميد في المنتخب رقم (٦٣٥).

. . . .

الحديث، إنَّما إذا أريد أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير، وما أشبه ذلك، فهذا ليس بصحيح لأنَّه حتى علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرون البناء على الدليل هم في الحقيقـة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة لأن العلوم الشرعية: تفسير وحديث وفقه . . . إلخ.

فالمقصود: أن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة فهو من أهل الحديث بالمعنى العام.

وأهل الحديث هم: كل من يتحرَّى العمل بسنة الرسول، ﷺ، فيشمل الفقهاء الذين يتحرَّون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحًا.

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً لا يعتبر اصطلاحًا من المحدِّثين، وإلاّ فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد رحمه الله تنازعه طائفتان؛ أهل الفقه قالوا: إنَّه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنَّه محدِّث.

وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولا شك أن أقرب الناس تمسُّكا بالحديث هم الذين يعتنون به.

ويُخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظنّ أنَّهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحًا، فيخرج غيرهم.

فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث سواء انتسبوا إليه اصطلاحًا واعتنوا به أولم يعتنوا، لكنهم أخذوا به، فحينئذٍ يكون صحيحًا.

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية النساء، **الثانية** : تفسير آية المائدة، **الثالثة** : تفسير آية الكهف، **الرابعة** : وهي أهمها ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت هل هو اعتقاد قلب؟ أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

فيه مسائل، أي في هذا الباب، يعني ماجاء من أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ففي هذا الباب وماتضمنه من الآيات والأحاديث والآثار، **مسائل** :

الأولى : تفسير آية النساء وهي قوله تعالى : ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ وقد سبق بيان معناها.

الثانية : تفسير آية المائدة وهي قوله تعالى : ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾ وقد سبق تفسيرها.

والشاهد منها هنا قوله «وعبد الطاغوت».

الثالثة : تفسير آية الكهف يعني قوله تعالى : ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدًا**﴾ وقد سبق بيان معناها.

الرابعة : وهي أهمها مامعنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟

هل هو اعتقاد القلب؟ أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

أما إيمان القلب واعتقاده فهذا لا شك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناء على أنها صحيحة فهذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة فإنه لا يكفر، لكنه ـ لا شك ـ على خطر عظيم يخشى أن يؤدي الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلا من المؤمنين، **السادسة**: وهي المقصود بالترجمة أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد، **السابعة**: تصريحه بوقوعها أعني عبادة الأوثان.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، يعني أن هذا القول كفر وردَّة؛ لأن من زعم أن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين فإنه كافر لتعظيمه الكفر على الإيمان ولا شك في هذا.

السادسة: وهي المقصودة بالترجمة، أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: تصريحه بوقوعها أعني عبادة الأوثان وقد سبق بيانها.

والترجمة التي أشار إليها رحمه الله هي قوله «باب ماجاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان. وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يارسول الله اليهود والنصارى قال: فمن**»» أخرجاه.

وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ماوقع فيه من سبقها.

الثامنة: في علم مسائل الباب العجب العجاب، خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، **وأن** الرسول حق وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين ومع هذا يصدق بهذا

وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة أن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى بل لا تزال عليه طائفة، **العاشرة**: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا

كله مع التَّضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

والمختـار هو ابن أبي عبيدة الثقفي، خرج وغلب على الكـوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين، فتتبعهم وقتل كثيرًا ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولا شك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدعي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفي القرآن أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، فكيف يكون صادقًا؟ وكيف يُصدَّق؟ مع هذا التناقض!!! ولكن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

التاسعة: أن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة يعني من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ هذا من آخر الحديث «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**».

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم وهذه آية عظمى، أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذلك ومع ذلك لا يضرونهم ﴿**وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾.

يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، **الحادية عشرة**: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: مافيه من الآيات العظيمة: منها إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره أنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنين، وإخباره بأنه مُنع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضا، وسبي بعضهم وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد مايكون في العقول.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة وقد سبق.

الثانية عشرة: فيه من الآيات العظيمة أي: مافي هذا الحديث من الآيات العظيمة. والآيات جمع آية وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام من العلامات الدالة على صدقهم.

فمما في هذا الحديث إخباره بأن الله سبحانه وتعالى زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع ثم أخبر في خلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها إخباره أنه ﷺ أعطي الكنزين وهما كنز كسرى وقيصر، ومنها إخباره بإجابة دعوته لأمته بالاثنين. وهما ألا يهلكها بسنة بعامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإخباره بالثالثة.

والثالثة وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها، فإن هذا سوف يكون كما

الثـالثـة عشرة: حصر الخـوف على أمته من الأئمة المضلين،
الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه «أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا دعاءً طويلاً وانصرف إلينا فقال: «**سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنـة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**» أي منعني إياها.

ومن الآيات التي تضمنها هذا الحديث أن السيف إذا وقع في هذه الأمة فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة وقد كان الأمر كذلك فإنه منذ سلت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقي هذا إلى يومنا هذا. إخباره بإهلاك بعضهم بعضا وسبي بعضهم بعضا وهذا أيضًا واقع.

ومنها أي من هذه الآيات خوفه على أمته من الأئمة المضلين والأئمة جمع إمام والإمام هو من يقتدى به إما لعلمه وإما لسلطته وإما لعبادته.

ومن هذه الآيات أيضًا إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وقد ظهر كثير من هؤلاء.

ومنها: أن من هذه الآيات إخباره بالطائفة المنصورة وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: «مع أن كل واحدة منها أبعد مايكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين، ووجه هذا الحصر أن الأئمة متبوعون، فإذا كانوا مضلين ضلل بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان. يعني أن عبادة الأوثان

. . . .

لا تختص بالركوع والسجود لها بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ماحرم الله فيحله الناس ويحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم الجزء الأول ولله الحمد

ويليه الجزء الثاني وأوله

باب ما جاء في السحر

فهـــرس الآيـــات
الجـزء الأول

الفاتحـة

سورة البقرة

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة الزمر

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

فهرس أحاديث الجزء الأول



فهرس الجزء الأول من كتاب القول المفيد

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

القول المفيد على كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

اعتنى به جمعًا وترتيبًا وتصويبًا، وعزا آياته
وخرج أحاديثه، ووضع فهارسه، وأشرف على طبعه

د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل   د. خالد بن علي بن محمد المشيقح

الجزء الثاني

دار العاصمة
للنشر والتوزيع



القول المفيد
على
كتاب التوحيد

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق**﴾[1].

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحر لآخر الليل؛ لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السَّحور لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنه يكون خفياً، فكل شيء خفي سببه يسمى سحراً.

وأما في الشرع فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عُقَد ورُقى، أي قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد لتضر المسحور قال تعالى: ﴿**واتبعوا ماتتلوا الشياطين**﴾ إلى قوله: ﴿**يعلمون الناس السحر**﴾[2].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف.

فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك.

فيؤثر في بدن المسحور: بإضعافه شيئا فشيئا حتى يهلك.

وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وفي عقله فربما يصل إلى الجنون، والعياذ بالله.

(١، ٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

. . . .

فالسحر قسمان :

أ ـ شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين، لأنه في الغالب لا يتهيأ للإنسان إلا بالشرك.

ب ـ عدوان، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة: وهي هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟.

مسألة: كفر الساحر :

اختلف في هذا أهل العلم فمنهم من قال: إنه يكفر.

ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين فإنه يكفر، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها فلا يكفر ولكن يعتبر عاصياً معتديا، ومن هذا ما حصل لموسى عليه الصلاة والسلام من سحرة فرعون، ألقوا الحبال والعصي، فكان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وأنها حيات، وهي في الحقيقة ليست بحيات، ولكنها حبال وعصي، إلا أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم.

فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يقلب الأعيان إلى أعيان أخرى؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وإنما يخيل للمسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى، وما أشبه ذلك كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

إذا قال قائل: ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟.

نقول: **مناسبة الباب لكتاب التوحيد :**

وقوله: «يؤمنون بالجبت والطاغوت»[1] قال عمر: «الجبت السحر والطاغوت الشيطان»[2]

لأن من أقسام السحر ما لا يأتي غالباً إلا بالشرك، فالشياطين لا تخدم الإنسان غالباً إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

قوله: **ولقد علموا لمن اشتراه»**.

معنى اشتراه: أي تعلمه.

قوله: «ما له في الآخرة من خلاق».

أي ماله من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق فمقتضاه أن عمله حابط باطل، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاء كلياً فيكون العمل كفراً، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقاً.

قوله: «**يؤمنون بالجبت والطاغوت**» أي السحر.

واليهود كانوا من أكثر الناس تعلماً للسحر وممارسة له، ولهذا فإن ساحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم اليهودي[3]، وهم الذين تعلموا السحر وادعوا أن سليمان عليه السلام علمهم إياه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

(٢) علقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب التفسير/باب **﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾** ووصله ابن جرير في تفسير ١٣/٣، ٨٣/٥.
وقال ابن حجر في الفتح ٢٥٢/٨: «ووصله عبد بن حميد في تفسيره، ومسدد في مسنده، وعبد الرحمن بن رسته في كتاب الإيمان كلهم من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر مثله وإسناده قوي...» ووصله أيضاً ابن أبي حاتم، وأبو القاسم البغوي كما في تفسير ابن كثير ٣١١/١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب/باب هل يستخرج السحر ٤٨/٤ ومسلم في كتاب السلام/باب السحر ١٧١٩/٤.

وقال جابر: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد»[1].

قوله: «**الطاغوت**» أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

ومعنى «من معبود» أي بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رحمه الله وقد سبق في أول الكتاب[2] التعليق على هذا القول عند قوله: «**واجتنبوا الطاغوت**».

الشاهد:

قوله: «**بالجبت**» حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر.

وأما تفسير الطاغوت بالشيطان فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحياناً بمثال يحتذى عليه مثل قوله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾**[3].

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه الذي لا يصلي إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد الذي يصلي في آخر الوقت، والسابق بالخيرات الذي يصلي في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم في الموضع السابق.
وقال ابن حجر في الفتح ٢٥٢/٨: «وصله ابن أبي حاتم طريق وهب بن منبه»، ووصله أيضاً ابن جرير في تفسيره ١٣/٣.

(٢) سبق ٢٣/١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله،**

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت كما قال تعالى: ﴿**وعبد الطاغوت**﴾[1] والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يُعتبرون طواغيت، لأنهم طغوا وزادوا وفعلوا ما ليس لهم به حق.

قوله: **«الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد»**.

هذا أيضاً من باب التفسير بالمثال حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن: قيل هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء، وكان كل حي من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشياطين، فتسترق له السمع فتأتي بخبر السماء إليه.

وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسوا محصورين في هؤلاء فتفسير جابر رضي الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي الله عنه.

قوله: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**.

النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: «اجتنبوا». وهي أبلغ من قوله: لا تفعلوا؛ لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

. . . .

«واجتنبوا» أي اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل اجتنبه يعني اتركه مع البعد.

وقوله: «**السبع الموبقات**».

هذا لا يقتضي الحصر فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحيانا بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلـك حديث: «**السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»[1] فهناك غيرهم، ومثله: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة**»[2] وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة على الحصر لكونه وقع بـ «أل» المعرفة، فإنه حصرها؛ لأن هذه أعظم الكبائر.

قوله: «قالوا يا رسول الله وما هن»:

الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم، والنبي ﷺ إذا ألقى إليهم الشيء مبهـما طلبـوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك لأجل أن يجتنبوهن. فأخبرهم، إلا ما علموا أن الحكمة في إخفائه وعلى هذه القاعدة [أن الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم].

---

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» أخرجه البخاري في الأذان/باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ١/٢١٩ ومسلم في الزكاة/باب فضل إخفاء الصدقة ٢/٧١٥.

(٢) حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهـم ولهـم عـذاب أليم**، قال: فقرأهـا رسول الله ﷺ ثلاث مـرات قال أبو ذر: خابـوا =

. . . .

حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والتسعين[1]. فهو ليس في الصحيحين، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ، وصدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث قال إن هذا أمر عظيم، ومن أحصاها دخل الجنة فلا يمكن للصحابة أن يفوتوه، فلا يسألوا عن تعيينها، فدل هذا على أنها قد عينت من قبله ﷺ.

وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».
أخرجه مسلم في الإيمان/باب غلظ تحريم إسبال الإزار ١/١٠٢.

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات/باب أسماء الله ٩/١٧٣ وقال: «غريب» وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم ١/١٦، والبيهقي في السنن ١٠/٢٧، وفي الأسماء والصفات ص(٥)، والبغوي في شرح السنة ٥/٣٢،٣٣ قال البيهقي في الأسماء والصفات ص٨: «ويحتمل أن يكون التفسير- أي تفسير الأسماء - وقع من بعض الرواه، وكذلك في حديث الوليد بن مسلم ولهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في الصحيح».
وقال شيخ الإسلام ٢٢/٣٨٢: «وحفاظ أهل الحديث يقولون هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث أضعف من هذا رواه ابن ماجه».
وقال ابن حزم في المحلى ٨/٣١: «وقد جاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين أسماء مضطربة لا يصح منها شيء أصلا، فإنما تؤخذ من نص القرآن ومما صحّ عن النبي ﷺ».
وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٩، وفتح الباري ١١/٢١٥.
وأخرجه أيضاً ابن ماجه بزيادة ونقصان في بعض الأسماء في الدعاء/باب أسماء الله عز وجل ٢/١٢٦٩.
وقال البوصيري في الزوائد: «إسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك الصنعاني».
وأخرجه أيضاً الحاكم ١/١٧، والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٧) وضعفه الذهبي، وكذا البيهقي بعبد العزيز بن الحصين بن الترجمان، وكذا ابن حجر في تلخيص الحبير ٤/١٧٢.

. . . .

لكن يجاب عن ذلك بأنه لا يلزم تعيينها.

ولو كان الأمر كذلك لكانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشمس، ولنقلت في الصحيحين وغيرهما، لأن هذا مما تدعو الحاجة إليه، وتلح بحفظه والعناية به، فكيف لا يأتي إلا عن طرق واهية وعلى صور مختلفة. فالنبي ﷺ لم يبينها لحكمة بالغة، وهي أن يطلبها الناس ويتحروها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبي ﷺ ساعة الجمعة، والعلماء اختلفوا في حديث أبي موسى الذي في مسلم حيث قال فيه: «إنها ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى الصلاة»[1]. فإن بعضهم صححه وبعضهم ضعفه. لكن هو عندي صحيح، لأن علة التضعيف فيه واهية والحال تؤيد صحته، لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صلاة مفروضة، فيكون هذا الوقت في هذا الحال حرياً بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله: «**الموبقات**»:

أي المهلكات قال تعالى: ﴿**وجعلنا بينهم موبقا**﴾[2] أي: مكان هلاك.

قوله: «قالوا يا رسول الله وما هن».

في هذا إجمال أولاً ثم تفصيل، والفائدة من الإجمال أولاً ثم التفصيل ثانياً

---

(١) حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أسمعت أباك يحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: قلت: نعم سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة**».

أخرجه مسلم في الجمعة/باب في الساعة التي في يوم الجمعة ٢/٦٨٤.

وانظر فتح الباري ٢/٤١٧ ـ ٤٢٢، ١١/١٩٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٢.

. . . .

هي تطلع المخاطب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبينا من أول وهلة لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بين.

قوله: **«وما هن»** «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«هن» خبر المبتدأ.

وقيل: بالعكس «ما»: خبر مقدم وجوبا، لأن الاستفهام له الصدارة و«هن» مبتدأ مؤخر.

لأن «هن» ضمير معرفة و«ما» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يخبر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس.

ويمكن أن يقال: إن «هن» ضمير يعود على «ما»، وهي نكرة، والعائد على النكرة نكرة كما قالوا في قوله: رُبَّهُ رجل صالح فأدخلوا «رب» على الضمير مع أنها لا تدخل إلا على نكرة قال ابن مالك:

واخصص بمذ ومنذ وقتا وبرب منكراً . . . .

قوله: **«قال: الشرك بالله»**.

قدمه لأنه أعظم الموبقات، فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك.

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه، أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقاً أو معينا فهو مشرك، أو أن أحداً سوى الله يستحق أن يعبد فهو مشرك، وإن لم يعبده، فإن عبده فهو أعظم، أو أن لله مثيلاً في صفاته فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى فهو مشرك.

قال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**[1] وقال تعالى: **﴿أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

. . . .

وما للظالمين من أنصار»[1] .

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من الجناية والجرم بقوله: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[2] .

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له ندا؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن بما دون ذلك فجعلت له نظيراً، لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً.

قوله: **«والسحر»**:

أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين، أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين فالذي لا يأتى إلا بالإشراك بهم فهو داخل في الشرك بالله.

وإن كان دون ذلك فهو أيضاً جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويقلقه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله عز وجل.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٢) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. . . »الحديث.

أخرجه البخاري في التفسير/باب قوله تعالى: ﴿**فلا تجعلوا لله أندادا**﴾ ٣/ ١٩٠، ومسلم في الإيمان/باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/ ٩٠.

والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[1].

قوله: **«وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»**.

القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار، وما أشبههما.

وقوله: **«التي حرم الله»**

مفعول (حرّم) محذوف تقديره حرم قتلها، ويجوز أن يكون التقدير حرمها الله، وأيا كان فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: **«إلا بالحق»**:

أي بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام فالمراد به العدل، والعدل هو ما أمر الله به ورسوله قال تعالى: **«إن الله يأمر بالعدل»**[2]. ,

والنفس المحرمة أربعة أنفس هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة: الذمي، والمعاهد، والمستأمن: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة أي عهد، على أن يقيم في بلادنا، وأن نحميه مع بذل الجزية.

وأما المعاهد: فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا، وأن لا نحاربه.

وأما المستأمن بكسر الميم طالب الأمان، فهو: الذي ليس بيننا وبينه عهد، لكننا أمناه في وقت محدود كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾**[3] وهناك فرق آخر وهو: أن العهد يجوز من

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٥/٣٩٣ فتح) ومسلم في الإيمان ١/٩٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٦.

جميع الكفـار، والـذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب. والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

هذه الأنفس الأربعـة قتلهـا حرام، لكنهـا ليست على حد سواء في التحريم، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟ أشك في ذلك؛ لأن المستأمن من له عهـد خاص بخلاف المعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأيا كان فالحديث عام.

وقوله: «**إلا بالحق**»:

أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: «**وأكل الربا**»:

الربا في اللغة الزيادة ومنه قوله تعالى: ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾[1] يعني زادت.

وفي الشرع: تفاضل بين أشياء ونسأ بين أشياء.

أي تفاضل بين أشياء حرم الشرع التفاضل فيها، وتأخير في أشياء حرم الشرع التأخير فيها.

والربا: ربا فضل، وربا نسيئة، وهو يجرى في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح**»[2] فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنساً بمثله جرى فيه ربا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة/باب الصرف ٣/١٢١١ من حديث عبادة بن الصامت.

. . . .

الفضل وربا النسيئة، أي: لو زدت واحداً على آخر فهو ربا، أو سويته لكن أخرت القبض فهو ربا، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهبا بذهب متفاضلاً والقبض متأخر، فإذا بعت جنساً بجنسه فلابد من أمرين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة أي: اتفق المقصود فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل، فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير هذا ربا لتأخر القبض.

قال ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**»(1).

وقولنا: اتفقا في الغرض والمقصود احترازاً مما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوي لاختلاف القصد، لأن هذا يقصد به النقد والثمنية، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض فما هو الجواب:

نقول: حقيقة إن هذا الأمر مشكل، إذ مقتضى الحديث أنك إذا بعت ذهبا ببر وجب التقابض لقوله ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**»(2).

ولكننا نجيب عن هذا فنقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمنا، قال ابن عباس قدم النبي ﷺ المدينة: وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين فقال: «**من أسلف في شيء**

(1، 2) سبق من حديث عبادة بن الصامت.

. . . .

فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»[1].

وعلى هذا فحديث: «**فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**» لا عموم لمفهومه فلا يشترط القبض في كل صورة من هذه الصور، وإنما يشترط القبض إذا اتفقا في الغرض كذهب بفضة، أو بر بشعير.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة، فالظاهرية قالوا: لا يجرى الربا إلا في هذه الأصناف الستة؛ لأنهم لا يرون القياس فيقتصر على ما جاء به النص فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض؛ لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة فإنهم: عدوا الحكم إلى غيرها، إلا أن بعضاً منهم لم يعد الحكم إلى غيرها وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من أجلها كان الربا، فلما اضطربوا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه.

والصحيح: أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل أو الأدخار مع الطعم وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلي إذا بيع بعضه ببعض فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة، فإنها بمنزلة الذهب والفضة.

---

(١) أخرجه البخاري في السلم/باب السلم في وزن معلوم ٢/١٢٤، ومسلم في المساقاة/باب السلم ٣/١٢٢٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

. . . .

وأما الملح فقال شيخ الإسلام إنه يصلح به الطعام، فالعلة ليس أنه قوت، وهو من ضرورياته، ولهذا لو طحنت براً ولم يكن فيه ملح لم يبق إلا أياماً يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد، فيقول لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: «**وأكل الربا**»:

ذكر النبي ﷺ الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿**وأخذهم الربا وقد نهوا عنه**﴾[1] ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل، فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «**وأكل مال اليتيم**»:

اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد أي انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص اليتيم لأنه لا أحد يدافع عنه، ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حق في الفيء، وإذا كان أحق أن يرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله.

ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا فليس خاصاً في الأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب وغيرها فهو داخل في ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص ولهذا توعد الله من يأكل أموال اليتامى قال تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى**

(١) سورة النساء، الآية: ١٦١.

. . . .

ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾[1].

قوله: «**والتولي يوم الزحف**»:

التـولي: بمعنى الإدبـار والإعـراض، ويوم الزحف أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف؛ لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذي يمشي زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويداً رويداً.

والتـولي يوم الـزحف من كبـائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية وهي قوله تعالى: **﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾**[2].

فالله سبحانه استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفاً لقتال، أي: متهيئاً له كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيء الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته، فهذا لا يعد متولياً إنما يعد متهيئا.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر، وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش، وتكسره أمام العدو، فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنـا متحقق، وإنقـاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من

(١) سورة النساء، الآية: ١٠. (٢) سورة الأنفال، الآية: ١٦.

. . . .

مثلي المسلمين لقوله تعالى: **﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾**[1] أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هذا الحديث تخصيص السنة بالكتاب وهو عزيز. ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلماً يرد إليهم[2]، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾**[3].

قوله: **«وقذف المحصنات»**:

القذف: بمعنى الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا والمحصنات الحرائر وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات، وهن: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

والمؤمنات احترازاً من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها، فإن ذلك من الموبقات ومع ذلك يقام عليه الحد - ثمانون جلدة - ولا تقبل شهادته

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي/باب غزوة الحديبية ٣/١٣١.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

. . . .

ويكـون فاسقـاً. فجعـل الله عليه ثلاثـة أمور قال تعالى: ﴿**والذين يرمون المحصنـات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون**﴾[1] ثم قال: ﴿**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا**﴾[2].

وهـذا الاستثناء لا يشمل أول الجملة بالاتفاق، ويشمل آخر الجملة بالاتفاق واختلف العلماء في الجملة الثانية وهي قوله: ﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً**﴾ فقيل إنه يعود إليها. وقيل: لا يعود.

وبناء على ذلك إذا تاب هل تقبل شهادته أم لا؟ الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم:

فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبداً ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله: ﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا**﴾[3] وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لم يرتفع عنهم.

وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين فليفعل.

وإلا فالأصـل أنـه إذا زال الفسق وجب قبـول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة،

(١، ٢) سورة النور، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة النور الآية: ٤.

وعن جندب مرفوعاً: «**حد الساحر ضربة بالسيف**» رواه الترمذي وقال: الصحيح: إنه موقوف[1] وفي صحيح البخاري عن

وإنما خصّ بذلك المرأة لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر، إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها فيلحق القذف بهن ضرراً أكثر، فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع.

الشاهد من هذا الحديث قوله: «**السحر**».

قوله: «**وعن جندب**»

ليس جندب بن عبد الله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.

قوله: «**مرفوعاً**» أي إلى النبي ﷺ، فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»

ظاهره: أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود/باب ما جاء في الساحر ٥/١٥٦ وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، وإسماعيل بن مسلم العدي البصري قال وكيع هو ثقة ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف».

والحديث أخرجه أيضاً: الطبراني في الكبير رقم ١٦٦٥، والدارقطني ٣/١١٤، والحاكم ٤/٣٦٠، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ٨/١٣٦.

وأخرجه من طريق إسماعيل عن الحسن مرسلا عبد الرزاق ١٠/١٨٤، وابن حزم في ١١/٣٩٦.

والحديث ضعفه ابن حجر في الفتح ١٠/٢٣٦، ورجح الذهبي في الكبائر وقفه ص(٤٢).

بجالـة بن عبده قال: «كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلنا ثلاث سواحر»(١) وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت(٢) وكذلك صح عن جندب(٣) قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والكافر إذا قتل على ردته فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول على ما سبق، أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله: **«ضربة بالسيف»**

هذا كنـاية عن القتل، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحاً.

قوله: **«وفي صحيح البخاري»**:

ذكر في الشرح(٤) أنه ليس في البخاري، أي: أن هذا اللفظ ليس في البخاري أما أصله ففي البخاري، والذي في البخاري أنه: «أمر بأن يفرق بين كل ذي رحم من المجوس»(٥) لأنهم يجوزون نكاح المحارم ـ والعياذ بالله ـ فأمر

---

(١) أخرجه الشافعي كما في بدائع المنن (١٥٣٢)، وعبد الرزاق ١٠/١٧٩، ١٨٠، وأحمد في المسنـد ١/١٩٠، ١٩١، وأبو داود في الخراج/باب أخذ الجزية من المجوس ٣/٤٣١، والبيهقي ٨/١٣٦، وابن حزم ١١/٣٩٧ وصححه.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ـ كتاب العقول/باب ما جاء في الغيلة والسحر ٢/٨٧١ عن محمد ابن عبدالرحمن بن سعـد بلاغـاً، ووصله عبدالله بن الإمام في مسائل أبيه ص٤٢٧، والبيهقي ٨/١٣٦ بسند صحيح كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بقوله: «وصح عن حفصة. . .».

(٣) أخـرجـه البخـاري في التاريخ الكبير ٢/٢٢٢، والبيهقي ٨/١٣٦. وسنده صحيح كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٤) انظر شرح تيسير العزيز الحميد ص (٣٩١).

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الجزية/باب الجزية والموادعة ٢/٤٠٦.

. . . .

عمر أن يفرق ذوي الرحم ورحمه، لكن ذكر الشارح: أن القطيعي رواه في الجزء الثاني من فوائده وفيه «ثم اقتلوا كل كاهن وساحر» وقال أي الشارح: إسناده حسن.

وهذا الأثر صحّ أن عمر أمر بقتل الساحر.

وهذا القتل هل حد أم قتله لكفره؟. يحتمل هذا وهذا بناء على التفصيل السابق[1] في كفر الساحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصيل نقول: من خرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل ردة، ومن لم يخرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل حد يجب تنفيذه.

والحاصل: أنه يجب أن نقتل السحرة سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يمرضون ويقتلون؛ ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم فإن بعضهم قد يسحر أحداً ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها؛ ولأنهم يسعون في الأرض فساداً كان واجباً على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه حد لضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه متى قبض عليه، وجَب أن ينفذ فيه الحد.

وهل الردة كذلك؟ الجواب: الردة فيها خلاف وقد سبق هل يستتاب أم لا، وقلنا الصحيح: أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام.

قوله: «**قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ**» وهم عمر، وحفصة، وجندب الخير[2] (ويكنى بقاتل الساحر) أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والقول بقتلهَم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض

---

(١) ص (٦).

(٢) سبق ص (٢٤).

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة. **الثانية**: تفسير آية النساء. **الثالثة**: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما. **الرابعة**: أن الطاغوت قد

فساداً، وفسادهم من أعظم الفساد، فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم؛ وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم؛ وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة:

وهي قوله تعالى: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق**﴾[1] أي نصيب ومن لا خلاق له في الآخرة، فإنه كافر إذ كلُّ من له نصيب في الآخرة فإن مآله إلى الجنة.

الثانية: تفسير آية النساء.

وهي قوله تعالى: ﴿**يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾[2] وفسر عمر الجبت بالسحر وبأن الطاغوت الشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما.

وهذا بناء على تفسير عمر رضي الله عنه.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس: تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥١.

يكـون من الجن وقـد يكـون من الإنس. **الخـامسـة: معرفة السبع الموبقـات المخصـوصـات بالنهي. السـادسـة: أن السـاحر يكفر. السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب. الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده؟**

فإن الطاغوت إذا اطلق فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي، وقد سبق بيانها.

السادسة: أن الساحر يكفر.

تؤخـذ من قوله تعالى: ﴿**وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر...**﴾ الآية[1].

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

يؤخذ من قوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»[2] والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر لا يصلى عليه ولا يغسل ولا يدفن في مقابر المسلمين.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر فكيف بعده:

تؤخذ من قوله: «كتب عمر أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» فهذا إذا كان

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سبق ص (٢٣).

. . . .

في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها فكيف بعده من العصور التي بعـدت عن وقت النبي ﷺ وخلفـائـه وأصحابه، فهو أكثر انتشاراً بين المسلمـين، وكلما بعـد النـاس عن زمن الـرسـالـة استولت عليهم الضلالة والجهالة. فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمـد؛ ولهذا نقول من عمل سوءاً بجهالة فهو آثم، ومن عمل سوءاً بجهل فليس بآثم قال تعالى: ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة**﴾[1] والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد وهي السفه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

باب: بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر».

أي بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق[1]. فإن كان باستخدام الشياطين، وما أشبه ذلك فهو كفر.

وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر منها ما هو كفر ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته، وقد يكون الجنس نوعاً باعتبار ما فوقه، وقد يكون النوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد.

«وأنواع» هنا باعتبار الجنس العام.

وسبق أن السحر في اللغة: كل ما كان خفي السبب دقيقاً في إدراكه حتى عد الفخر الرازي من جملة أنواع السحر الساعات، وهي في القديم عبارة عن آلات مركبة، فكيف بالساعات الالكترونية اليوم؟!

---

(١) انظر ص (٦)

العيـافه، والطرق، والطير، من الجبت»[1] قال عوف: العيافة زجر الطير، والطرق الخط بالأرض والجبت[2] قال الحسن: رنة الشيطان، إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه لهم المسند منه.

قوله: «**العيافـة**»

مصدر عاف يعيف عيافة وهي زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل. فالتشاؤم عند العرب، فعند العرب قواعد في هذا الأمر، لأن زجر الطير له أقسام: فتارة يزجرها للصيد، كما قال أهل العلم في باب الصيد إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب.

وتـارة يزجـر الطير للتشاؤم أو التفاؤل. فإذا زجر الطائر وذهب شمالا تشـاءم، وإذا ذهب يمينـا تفاءل، وإن ذهب أماماً فلا أدري أيتوقفون، أو يعيدون الزجر. فهذا من الجبت.

قوله: «**الطرق**»:

فسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، وكأنه من الطريق من طرق الأرض يطرقهـا إذا سار عليهـا، وتخطيطها مثل المشي عليها يكون له أثر في الأرض كأثر السير عليها.

ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به على الرمل على سبيل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ١٠/٤٠٣، وأحمد في مسنده ٣/٤٧٧، ٥/٦٠، وابن سعد في الطبقات ٧/٣٥، وأبو داود في الطب/باب في الخط وزجر الطير ٤/٢٢٨ وسكت عنه، والنسائي في الكبرى كما تحفة الأشراف ٨/٢٧٥، وابن حبان (١٤٢٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/٣١٢، والبيهقي ٨/١٣٩، والبغوي في شرح السنة ١٢/١٧٧.

وقال النووي في رياض الصالحين كما في دليل الفالحين ص٨٠٢: «رواه أبو داود بإسناد حسن» وفي دليل الفالحين ص٨٠٢: «وهو حديث حسن».

(٢) سنن أبي داود الموضع السابق.

. . . .

السحر والكهانة، ويفعله النساء غالباً، والله أعلم بكيفيتها، وتقول حصل كذا أو سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم، وهذا نوع من السحر.

أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك، فليس داخلاً في الحديث.

فإن قيل قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبي من الأنبياء يخط فقال: من وافق خطه فذاك[1].

ويجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يمكن الحصول عليه؛ لأنه قال فمن وافق خطه فذاك.

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعالى كما في حال هذا النبي فلا بأس به؛ لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحي بها بخطوط يعلمه إياها.

أما هذه الخطوط السحرية فهي من الوحي الشيطاني، فإن قيل طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعا خاصة في موضوع الشرك، فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟ فالجواب:

كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط، فلابد أن يجيب عنه الرسول ﷺ.

قوله: **«من الجبت»**:

سبق أن الجبت السحر، وعلى هذا فتكون «من» للتبعيض على الصحيح، وليست للبيان أي: هذان النوعان من الجبت.

قوله: **«والطيرة»**:

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة/باب تحريم الكلام في الصلاة ١/٣٨١ـ٣٨٢، وفي السلام/باب تحريم الكهانة ٤/١٧٤٨ من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

. . . .

أي : من الجبت، على وزن فِعَلَة وهي اسم مصدر تطيرَ، والمصدر منه تطيرُ وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئيا كان أو مسموعاً، زمنا كان أو مكاناً. وهذا أشمل، فيشمل ما لا يرى ولا يسمع كالتطير بالزمان.

وأصل التطير: التشاؤم لكن أضيفت إلى الطير؛ لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به وإلا فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئي أو مسموع.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي ﷺ[1].

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم؛ فإنها تضيق عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى أنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشترِ ـ والعياذ بالله ـ وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكاح، وقد نقضت عائشة رضي الله عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها في شوال، وبنى بها في شوال، فكانت تقول أيكن كان أحظى عنده مني[2]؟ والجواب لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له على بال؛ لأنه ينكد عليه عيشه، فالواجب الاقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفأل[3]. فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة

---

(١) يأتي ص (٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في النكاح/ باب التزوج في شوال ٢/ ١٠٣٩.

(٣) يأتي ص (٨٩).

. . . .

بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه. وهذا خطأ فكل شيء ترى فيه المصلحة فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

قولـه: «**من الجبت**» قال الحسن الجبت: رنة الشيطان. قال صاحب تيسير العزيز الحميد[1]. لم أجد فيه كلاماً.

والظاهر أن رنة الشيطان أي: وحي الشيطان. فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقى أمره من وحي الشيطان أنه أتى نوعاً من الكفر.

وجه كون العيافة من السحر؟:

وجه ذلك: أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له، فماذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً فهذا لا أصل له، ولا سبب له، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك، فقد اعتمد على أمر خفي، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة[2].

وكذلك الطرق من السحر؛ لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه.

والـطيرة كذلك، لأنها مثل العيافة تماماً تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه[3].

قوله: «**إسناده جيد. . .**».

قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع، إلا أن

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٩٨.

(٢) سبق ص (٥).

(٣) يأتي ص (٨٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة

يكـون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقاً للأصول، فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول؛ فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة، هذا مشكل؛ لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخـر حكمنا بأنه جيد، فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح. فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجود، إذ جيد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي منه شيء؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن. وأيها أهم السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغنى عنه، أما السند فلابد منه يقول ابن المبارك: لولا السند لقال كل من شاء ما شاء[1].

قوله: «**من**» شرطية وفعل الشرط «اقتبس» وجوابه «فقد اقتبس».

قوله: «اقتبس» أي: تعلم. لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئا من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قولـه: «**شعبـة**» أي طائفـة ومنـه قولـه تعـالى: ﴿**وجعلنـاكم شعوبا وقبائل**﴾[2] أي طوائف وقبائل.

---

(١) مقدمة صحيح مسلم ١/١٥.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

من النجـوم فقـد اقتبس شعبـة من السحر زاد ما زاد» رواه أبوداود وإسناده صحيح[1].

قوله: «**من النجوم**»: المراد علم النجوم وليس المراد النجوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم. والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية. فيستدل مثلا باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً. وفي هذا النجم الآخر على أنه سيكون شقيا. فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختـلاف الحـوادث الأرضية، والحـوادث الأرضية من الله وليس للنجوم بها علاقة. ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية قال: صلى بنا رسول الله ذات ليلة على أثر سماء من الليل فقال: قال الله تعالى: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمن قال مطرنا بنوء كذا وكذا** - بنوء يعني بنجم والباء للسببية يعني هذا المطر من النجم - **فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**»[2].

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي الرياح به أيضا، ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلاني؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالـرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر، فهي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٢٧، ٣١١، وأبو داود في الطب/باب في النجوم ٤/٢٢٦، وسكت عنـه، وابن ماجـه في الأدب/باب تعلم النجوم ٢/١٢٢٨، والطبراني في الكبير (١١٢٧٨) والبيهقي ٨/١٣٨ من حديث ابن عبـاس، والحـديث صححـه النووي في الرياض كما في دليل الفالحين ص (٨٠٣)، والعراقي في تخريج الإحياء ٤/١١٧ والذهبي كما في فيض القدير ٦/٨٠.

(٢) يأتي ص (١٢٧).

. . . .

ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين :

الأول: علم التأثير وهو ما يستدل به على الحوادث الأرضية، فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»[1] وقوله في حديث زيد بن خالد: «**من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[2] لأنه لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحيانا، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿**وألقينا في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون**﴾[3] فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية فقال تعالى: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾[4]. فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل، ودخل وقت الربيع.

قوله: «**فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»:

المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف؛ لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله: «**زاد ما زاد**»:

---

(١) سبق ص (٣٥).

(٢) يأتي ص (١٢٧).

(٣، ٤) سورة النحل، الآيتان: ١٥، ١٦.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: **«من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه»**[1].

أي كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء فإنه يزداد بزيادته.

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:

أن من أنواع السحر تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية.

وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، لكن من حيث المعنى صحيح، تشهد له النصوص الأخرى.

قوله: **«من عقد عقدة»**:

«من» شرطية، والعقد معروف.

قوله: **«ثم نفث فيها»**: النفث النفخ بريق خفيف، والنفث من أجل السحر.

أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف، فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح فيبعد الرجل عن زوجته فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة فقد وقع في السحر كما قال تعالى: **﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾**[2].

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم/باب الحكم في السحرة ٧/١١٢، والمزي في تهذيب الكمال ٢/٦٥٤ وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٢: «رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه عند الجمهور» وقال الذهبي في الميزان ٢/٣٧٨: «هذا الحديث لا يصلح للين عباد وانقطاعه»، وحسنه ابن مفلح في الآداب ٣/٧٨، ورواه عبد الرزاق عن الحسن مرسلا في المصنف ١١/١٧.

قال في النهج السديد ص (١٣٥: «فثبت أن أصل الحديث مرسل لكن عباداً أخطأ فوصله».

(٢) سورة الفلق، الآية: ٤.

. . . .

قوله: «**ومن سحر فقد أشرك**»: «من» هذه شرطية وفعل الشرط «سحر» وجوابه «فقد أشرك».

وقوله: «**فقد أشرك**».

هذا لا يتناول جميع السحر إنما من سحر بالطرق الشيطانية.

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها، فقد سبق أنه لا يكون مشركاً[1]، لكن الذي يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد، فهذا لا شك أنه مشرك.

قوله: «**ومن تعلق شيئا وكل إليه**».

تعلق شيئا: أي استمسك به واعتمد عليه.

وكل إليه: أي جعل هذا الشيء الذي تعلق به عماداً له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيُوكل إلى هذا الشيء المحرم.

ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة، وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراءات والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهوحسبه إن الله بالغ أمره**﴾[2] وإذا كان الله حسبك فلابد أن تصل إلى ما تريد.

لكن من تعلق شيئا من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على

---

(١) ص (٦)

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٥.

. . . .

نفسه، وصار معجباً بما يقول ويفعل، فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف، وعجز، وعورة. ولهذا ينبغي أن تكون دائماً متعلقاً بالله في كل أفعالك وأحوالك حتى في أهون الأمور.

ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسبة للناس، فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة لله فلا تستغن عنه، بل كن دائماً معتمداً على ربك حتى تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها، فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضاً من تعلق شيئاً من هذه القبور، وجعلها ملجأه ومغيثه عند طلب الأمور، فإنه يوكل إليه والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة. قال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة...**﴾[1] لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

مناسبة الحديث:

أن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣.

وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟ هي النميمة: القالة بين الناس»**[1].

قوله: «ألا»: أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته.

قوله: **«هل أنبئكم ما العضه»**:

الاستفهام للتشويق كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾**[2].

لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن ينتبه ليعلم وهي تصلح للجميع.

ومعنى أنبئكم: أخبركم وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحدثين. وقال بعض العلماء، من ناحية اللغة لا الاصطلاح: أن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة وغير الهامة.

قوله: **«العضة»** على وزن الحبل والصمت والجعل، والعضه بمعنى القطع، وأما العِضة فإنها التفريق، وأياً كان فإنها تتضمن قطعاً وتفريقاً.

قوله: **«هي النميمة»**.

فعيلة بمعنى مفعولة وهي من نمّ الحديث إلى غيره أي نقله، والنميمة فسرها مرة ثانية بقوله: **«القالة بين الناس»** أي نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك، فهو نم إليه الحديث، ونقله، وسواء كان صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذبا فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقاً فهو نميمة.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب تحريم النميمة ٤/٢٠١٢.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٠.

. . . .

والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس[(١)] فتجد هذين الرجلين صديقين فيأتي هذا النمام فيقول لأحدهما صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلى عداوة، فيحصل التفرق، وهذا يشبه السحر بالتفريق؛ لأن السحر فيه تفريق قال تعالى: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾[(٢)].

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[(٣)] أي نمام وفي حديث ابن عباس المتفق عليه أنه ﷺ «مر بقبرين يعذبان أحدهما كان يمشي بالنميمة»[(٤)].

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب، فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع النمام مهما كانت حاله قال تعالى: ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم**﴾[(٥)] واعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك فاحذره.

وهي أيضا سبب من أسباب فساد المجتمع؛ لأن هذا النمام إذا أراد أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٢٢٧، ٦/٤٥٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٤٩٤، وأورده الهيثمي في المجمع ٨/٩٣: «رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحمد أسانيده رجال الصحيح».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب/باب ما يكره من النميمة ٤/١٠١، ومسلم في الإيمان/باب غلظ تحريم النميمة ١/١٠١، ولفظه: «لا دخل الجنة نمام» من حديث حذيفة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء/باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله ١/٨٩، ومسلم في الطهارة/باب الدليل على نجاسة البول ١/٢٤٠ من حديث ابن عباس.

(٥) سورة ن، الآيتان: ١٠، ١١.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من البيان لسحرا»**(1).

يسلط على كل صديقين متحابين، ويفرق بينهما بنميمته فسد المجتمع؛ لأن المجتمع مكون من أفراد له، فإذا تفرقت صار كما قال الله عز وجل: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**(2) وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعاً، فهو أفراد متناثرة، والأفراد المتناثرة ليس لها قوة ولهذا قال الشاعر:

لا تخاصم بواحدٍ أهل بيت — فضعيفان يغلبان قويا

وقال الآخر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا — فإذا افترقن تكسرت أفرادا

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية لوجدناها تحرم كل ما يكون سببا للتفرق والقطيعة قال ﷺ: **«ولا يبيع بعضكم على بيع بعض»**(3) وقال: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه»(4) وكل هذا لدفع ما يوجب العداوة والبغضاء بين الناس.

قوله: **«إن من البيان»**:

---

(1) أخرجه البخاري في النكاح/باب الخطبة ٣/٣٧٤، من حديث ابن عمر، ومسلم في الجمعة/باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/٥٩٤ من حديث عمار بن يسار.

(2) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(3) أخرجه البخاري في البيوع/باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه ٣/٩٩، ومسلم في البيوع/باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه ٣/١١٥٤ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(4) أخرجه البخاري في النكاح/باب لا يخطب على خطبة أخيه ٣/٣٧٣، ومسلم في النكاح/باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه ٢/١٠٢٩ من حديث أبي هريرة.

. . . .

«إن» حرف توكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، و«من» يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس.

قوله: **«لسحرا»**:

اللام للتوكيد و«سحرا» اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان قال تعالى: **﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾**[1].

والبيان نوعان:

الأول: بيان ما لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس، فكل إنسان إذا جاع قال إني جعت، وإذا عطش قال إني عطشت وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: **«إن من البيان لسحرا»**.

وعلى هذا التقسيم تكون «من» للتبعيض أي بعض البيان ـ وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة ـ سحرا.

أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط صارت «من» لبيان الجنس.

ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل لكن لقوة فصاحته وبيانه، يسحر السامع حقاً، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يحذر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من السحر الذي يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف، فالبيان في الحقيقة بمعنى

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٣، ٤.

. . . .

الفصـاحـة، ولا شك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحور: حديثها السحر الحلال.

والبيان سحر، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد فالبيان من حيث هو بيان، لا يمدح عليه، ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبـات الباطل فهو مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل فهو ممدوح[1]، وإذا كان البيان يستعمل في طاعة الله وفي الدعوة إلى الله فهو خير من العيّ، لكن إذا ابتلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله، فهذا لا خير فيه والعي خير منه، والبيان لا شك أنه نعمة. ولهذا امتن الله به على العبد فقال تعالى: ﴿علمه البيان﴾[2].

وجه مناسبة الحديث للباب:

المؤلف كان حكيماً في تعبيره بالترجمة حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو حرام ومن كبائر الذنوب، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره.

---

(١) فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح ولا يذم.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤.

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. **الثانية** : تفسير العيافة والطرق. **الثالثة** : أن علم النجوم نوع من السحر. **الرابعة** : العقد مع النفث من ذلك. **الخامسة** : أن النميمة من ذلك. **السادسة** : أن من ذلك بعض الفصاحة.

قال: «**فيه مسائل**»: أي في هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والآثار، مسائل.

المسئلة الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

الثانية : تفسير العيافة والطرق وقد بيّنت في الباب أيضاً وشرحت.

الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر لقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**» وسبق الكلام عليها أيضاً.

الرابعة : العقد مع النفْث من ذلك، لحديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر**» وقد تقدم الكلام على ذلك.

الخامسة : أن النميمة من ذلك؛ لحديث ابن مسعود: «**ألا هل أنبئكم ما العضة هي النميمة**» وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة، أي من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبي ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**» والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة، استدلالاً بقوله ﷺ: «**إن من البيان**»؛ لأن من هنا

للتبعيض. ووجه ذلك من السحر أن لسان البريق ذا البيان قد يسرق الهمم وقد يلهب الهمم بما عنده من الفصاحة.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

الكهـان: جمع كاهن والكهنة أيضاً جمع كاهن. وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما جاء في السماء، تسترق السمع من السماء، وتأتي وتخبر الكاهن، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء، اعتقـده الناس عالماً بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم، فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر، فهذا ليس من الكهانة؛ لأنه يدرك بالحساب. وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠ من برج الميزان مثلا في الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب؛ وكما يقولون إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب (هالي)، وهو نجم له ذنب طويل، فهذا ليس من الكهانه في شيء، لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب، فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الأخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟ الجواب: لا لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحاً لأن يمطر، أو لا يمطر. ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**»(١).

السماء، وتجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون إن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبح كما قال السفاريني:

فكل شيء معلوم بحس أو هجاء   إنكاره جهل قبيح بالحجا

فالذي يعلم بالحسن لا يمكن إنكاره ولو أن أحداً أنكره مستنداً بذلك إلى الشرع لكان ذلك طعناً بالشرع.

قوله: «من»: شرطية فهي للعموم:

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة أي من ينتسب إلى العرافة.

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل.

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق، إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادّعى بها المعرفة.

قوله: «**فسأله لم تقبل له**».

---

(١) أخرجه مسلم في السلام/باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ١٧٥١/٤ دون قوله: «فصدقه» وقد أخرج هذه الزيادة الإمام أحمد في مسنده ٦٨/٤، ٣٨٠/٥.

. . . .

ظاهـر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوما، ولكنه ليس على إطلاقه فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسـأله سؤالا مجرداً فهذا حرام؛ لقول النبي ﷺ من أتى عرافاً. . . »[1] فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على مُحرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله، فهذا كفر؛ لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن.

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره، هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد فقال: «**ماذا خبأت لك؟ قال الدخ فقال: اخسـأ فلن تعدو قدرك**»[2] فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره له، فأخبره به لأجل أن يختبره.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور، وهذا قد يكون واجباً أو مطلوبا.

وإبطال قول الكهنة لاشك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبا، فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى.

وقـد أخـبر شيخ الإسـلام عنهم، أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن، ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب

---

(١) سبق ص (٤٨)

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد/باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ٢/٣٧٤ ومسلم في الفتن/باب ذكر ابن صياد ٤/٤٤٢٢ من حديث ابن عمر.

. . . .

ما يضيفون. وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة؛ بل لأنه يحبه في الله ولله، ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس؛ لأنه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضى الله عز وجل؛ إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط! لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما أن الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤن على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم، وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم: «**كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة فهي علف لدوابكم**»[1] وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئي من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها فقالوا: ابحثي لنا عنه، فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة[2].

قوله: «**فصدقَهَ**»:

ليست في صحيح مسلم، بل الذي في مسلم: «فسأله لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» والظاهر: أن المؤلف إما أن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة/باب الجهر بالقراءة في الصبح ١/٣٣٢ من حديث ابن مسعود.

(٢) آكام المرجان في أحكام الجان ص (٣٨).

. . . .

«فصـدقـه»، أو أن المؤلف عزاه إلى مسلم باعتبار أصله، فأخذ من مسلم، «فسأله»، وأخذ من أحمد «فصدقه».

قوله: **«لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**:

نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أولاً[1]؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع، ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفيا للصحة، كما لو قلت من صلى بغير وضوء، لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب، لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي، إما نفي القبول التام أي لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازيا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة. وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطها.

ومثله قوله ﷺ: **«من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**[2].

---

(١) آكام المرجان في أحكام الجان ص (٣٨).

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥، والترمذي في كتاب الأشربة/باب ما جاء في شارب الخمر ٦/ ١٣٩، وقال: «حديث حسن» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرج الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٧٦، ١٨٩، ١٩٧، وابن ماجه في كتاب الأشربة/باب من شرب الخمر لم تقبل له صلاة ٢/ ١١٢٠ نحوه من حديث عبد الله بن عمرو.
وكذا أخرج أبو داود في ا لأشربة/باب النهي عن المسكر ٤/ ٧٦ نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

. . . .

وقوله: «أربعين يوماً»:

هذه لا يمكننا أن نعللها، وأنا لا أعلم علتها؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعرف حكمته. فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك، فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته، وصحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن ما لا نعرف حكمته كون الإنسان ينقاد له، وهو لا يعرف الحكمة دليل على كمال الانقياد، والتعبد لله عز وجل، فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذاً له وقبولاً. فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه. ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾[1].

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله؛ إلا ما استثنى كالقسم الثالث والرابع؛ لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم. وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمدٍ ﷺ»** رواه أبو داود[1].

قوله: **«من أتى كاهن»**.

تقدم معنى الكاهن[2] وأنهم كانوا رجالاً في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قولـه: **«فصدقهُ»** أي نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر بمعنى تثبيته وتحقيقه. فقال هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: **«بما يقول»**:

«ما» عامة في كل ما يقول حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله: **«فقد كفر بما أنزل على محمد»**.

أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على محمد ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل قال تعالى: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين﴾**[3] وقال تعالى: **﴿قل نزله روح القدس من ربك﴾**[4] وبهذا نعرف أن القول الراجح في

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٠٨، ٤٧٦، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/١٦، ١٧ وأبو داود في الطب/باب في الكاهن ٤/٢٢٥، والترمذي في الطهارة/باب في كراهية إتيان الحائض ١/١٦٤ وقال: «لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي هريرة... وضعف محمد هذا الحديث من قبل إسناده».
وأخرجه ابن ماجه في الطهارة/باب النهي عن إتيان الحائض ١/٢٠٩ والدارمي ١/٢٥٩، وابن الجارود (٢٠٧)، والعقيلي ١/٣١٨، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/٤٤، والبيهقي في السنن ٧/١٩٨، والحاكم ١/٨ وصححه على شرط الشيخين.
والحديث صححه الألباني في الإرواء ٧/٦٨.

(٢) (٤٧)

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٢، ١٩٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

. . . .

الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه فمن الرسول ﷺ، لكنه حكاه عن الله؛ لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سنداً من القرآن؛ حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظا لوجب أن تثبت له أحكام القرآن؛ لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسي، فهو لا يتعبد بتلاوته، ولا يقرأ في الصلاة، ولا يعجز لفظه، ولو كان من كلام الله لكان معجزاً؛ لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضا باتفاق أهل العلم - فيما أعلم - أنه لو جاء مشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية، فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله.

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قولان: هذا أحدها، والثاني أنه من قول الله لفظاً.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا، والنبي ﷺ ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى. ومقول القول هو هذا الحديث المسوق؟

قلنا: هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم. قال موسى، قال فرعون، قال إبراهيم... مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم، ولا قولهم؛ لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نقل نقلا عنهم ويدل لهذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى. ومع ذلك ينسبها إليهم كما قال تعالى: **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾**[1] وقال عن موسى:

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

ولللأربعة، والحاكم وقال:

﴿**وقال موسى لقومه استعينوا بالله**﴾[1] وقال عن فرعون: ﴿**قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم**﴾[2].

قوله: «**بما أنزل على محمد**».

ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه منزل أو أنزل من الله، فهي دالة على علو الله سبحانه وتعالى بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله؛ لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: «**كفر بما أنزل على محمد**»:

وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه: ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾[3] وهذا من أقوى طرق الحصر؛ لأن فيه النفي والإثبات فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب، وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً عن الملة وإن كان جاهلا، ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره كفر دون كفر.

قوله: «**وللأربعة والحاكم**».

الأربعة هم أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه. والحاكم ليس من أهل السنن، لكن له كتاب سمي صحيح الحاكم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٣٤.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٥.

صحيح على شرطهما عن أبي هريرة: **«من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**(١) ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثلُهُ موقوفاً(٢).

قوله: **«صحيح على شرطهما»**:

أي شرط البخاري ومسلم، لكن قول على شرطهما هذا على ما يعتقد وإلا فقد يكون الأمر على خلاق ذلك

ومعنى قوله على شرطهما: أي أن رجاله رجال الصحيحين، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحه لم يذكرها البخاري ومسلم؛ لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، فيكون البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢/٤٢٩، والحاكم في المستدرك ١/٨ وصححه على شرطهما، والبيهقي ٨/١٣٥.

وقال الشارح الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد ص (٤٠٩): «قال العراقي في أماليه: حديث صحيح، وقال الذهبي: إسناده قوي، وعلى هذا فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحمد منهم، وأظنه تبع في ذلك الحافظ فإنه عزاه في الفتح إلى أصحاب السنن والحاكم فوهم، ولعله أراد الذي قبله». وانظر فتح الباري ١٠/٢١٧، فيض القدير ٦/٢٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٠٥) والبزار كما في كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/٤٤٣.

قال المنذري في الترغيب ٤/٣٦: «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفا» وقال الهيثمي في المجمع ٥/١١٨: «ورجال الكبير والبزار ثقات»، وقال الحافظ في الفتح ١٠/٢١٧: «إسناده جيد».

. . . .

قوله: «**صحيح**»: يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح، ولهذا قالوا لا عبرة بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزي، ولا بإجماع ابن المنذر.

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة، لأن كلمة لا عبرة أي لا يلتفت إليه، وإنما لا يؤخذ مقبولاً في كل حال، مع أني تدبرت كلام ابن المنذر رحمه الله، ووجدت أنه دائما إذا نقل الإجماع، يقول إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه؛ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ولكننا مع ذلك إذا كان الرجل ذا اطلاع واسع، فقد يكون هذا القول إجماعاً. أما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله فإن قوله هذا لا يكون إجماعاولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله لو قال رجل لم يدرس إلا المذهب الحنبلي؛ في مسألة، وقال هذا إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم. فإن قوله هذا ليس نقلاً للإجماع؛ لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم.

قوله: «**من أتى عرافاً أو كاهنا**»:

«أو» يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون «أو» للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه؛ لأن كثرة الأدلة مما يقوى المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقاً وقوة. ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: «**من أتى عرافاً أو كاهنا**»

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: «**ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**» رواه البزار بإسناد جيد[1] ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى - إلى آخره»[2].

أنه موقوف؛ لأنه قال عن أبي هريرة، ولكنه لما قال في الذي بعده «مثله موقوفاً»، ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

قوله: «**ليس منا**». تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: «**مرفوعاً**». أي إلى النبي ﷺ.

قوله: «**تطير**»:

التطير هو: التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون، أو يتفاءلون بها. وقد سبق ذلك[3].

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله شيء، تركه وتشاءم. فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيراً فغامر فيه، ولا تشاءم؛ لأنك لم توفق فيه لأول مرة. فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة

---

(1) أخرجه البزار كما في الترغيب ٤/٣٣، ومجمع الزوائد للهيثمي ٥/١١٧، وقال المنذري: «إسناده جيد»، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة».

(2) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١١٧: «رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف».
وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٣: «إسناده حسن».

(3) ص (٣١)

. . . .

أو ثالث مرة، ويقال إن الكسائي ـ إمام النحو ـ طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار، وتجاوزته. فقال ـ سبحان الله ـ هذه النملة تكابد هذه النواة، حتى نجحت، إذن أنا سأكابد علم النحو حتى أنجح فكابد فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: «**أو تُطير له**». بالبناء للمفعول أي أمر من يتطير له، مثل: أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك؛ لأنظر هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «**من تطير**» يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: «**أو تكهن أو تكهن له**».

سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل[1]، يقول: سيكون كذا وكذا وربما أن قوله يقع فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم تكهن بأن فلانا سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم، على أمر مباح وهذا لا ينبغي؛ لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور، يظن أن الكهانة كلها مباحة بدليل إطلاق هذا اللفظ على شيء مباح معلوم إباحته.

قوله: «**أو تكهن له**»:

أي طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول: للكاهن ماذا يصيبني غداً، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية. وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: «**أو سَحَر أو سُحِر له**». تقدم تعريف السحر؛ وتقدم بيان أقسامه[2].

---

(١) ص (٤٧). (٢) ص (٦).

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

قوله: «**أو سُحِر له**».

أي طلب من الساحر أن يسحر له؛ ومنه النشرة عن طريق السحر، فهي داخلة فيه؛ وكانوا يستعملونها على وجوه متنوعة. منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبون فيه رصاصاً، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر، أي: تكون صورة الساحر في هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا «صب الرصاص» وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من فاعله[1].

الشاهد من هذا الحديث:

قوله: «**ومن أتى كاهناً.... إلخ**» وقوله: «ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد من حديث ابن عباس... إلخ» فيكون هذا مقوياً للأول.

قوله: «**قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات...**».

العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة.

وهو الذي يدعي معرفة الأشياء، وليس كل من يدعي معرفة يكون عرافاً، لكن من يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوي رحمه الله: أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضي؛ لأن مكان المسروق ماض قد سرق، وكذلك الضالة قد حصل

---

(١) سبق ص (٥٨)

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق. وقال ابن عباس ـ في قوم يكتبون أباجاد وينظرون في النجوم: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»(1).

الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه الله وقيل: هو الكاهن.

والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: «**وقيل هو الذي يخبر عما في الضمير**»:

أي أن تضمر شيئا فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا.

أو المغيبات في المستقبل، تقول ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متى يقدم ولدي وهو لا يدري؟

فهذا من الكهانة.

فالعلماء في تعريف العراف فقيل هو: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها، فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، أو الذي يخبر عما في الضمير.

قوله: «**وقال أبو العباس بن تيمية**»:

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية ولكنه ـ والله أعلم ـ كان مشغولاً بالجهاد

(1) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١١/٢٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٣٩.

. . . .

العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المزورون أن له ولداً مدفون إلى جانبه في دمشق، فهذا غير صحيح.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذه، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ماذكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال فشيخ الإسلام ساق هذا القول، وارتضاه ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمال والمنجم ونحوهم، فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي؛ لأن عندنا عموماً معنوياً، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموما لفظياً، وهو مادل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملاً، ودلالته على النظير يسمى عموماً معنوياً، لاتفاقهما في العلة الشاملة لهذا ولهذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يستخدمهم في طاعة الله، كأن يكون له نائبا في تبليغ الشرع، فمثلا إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعاً فهذا لابأس به، بل إنه قد يكون أمراً محموداً أو مطلوباً، وهو من الدعوة إلى الله عز وجل، والجن حضروا للنبي ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين[1]، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء؛ لأن المنذر لابد أن يكون عالما بما ينذر، عابدا مطيعاً لله سبحانه في الإنذار.

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن...﴾ (سورة الزخرف، الآية ٢٩).

. . . .

الحالة الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل: أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حراماً، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له، أو سجد له، أو ما أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر ففعل، فذهب الجني، ثم رجع، فقال إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يسم إبل الصدقة في المكان الفلاني[1]، فهذا استخدام في أمر مباح.

الحالة الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركا صار شركا، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الأنسي الفاسق، ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثما وعدوانا، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من يسأل الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ورد ذلك عنه ﷺ[2] وهي: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ الآية.

قوله: «**يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم**» الواو هنا ليست عطفاً،

---

(١) سبق ص (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الوكالة (باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل ٤/١٤٩.

. . . .

ولكنها للحال، يعني والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: «**ما أُرى من فعل ذلك**». ويجوز بفتح الهمزة بمعنى أعلم وبالضم بمعنى ما أظن.

وقوله: «**أباجاد**». هي: **أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ**... وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به. وما زال اناس يستعملونها، حتى العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

جد بالرضا واعط المنى   من ساعدوا في ذا البنا
تاريخه حين انتهى   قوله المنيب اغفر لنا
والشهر في شوال يا   رب تقبل سعينا

فقوله: «**اغفر لنا**» لو عددناها صارت **١٣٦٢**هـ.

وقد اعتنى بها العلماء في العصور الوسطى، حتى في القصائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عباس هذا القسم.

الثاني: محرم، وهو كتابة «أباجاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها وينظرون في النجوم، ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث في الأرض، إما على سبيل العموم كالجدب والمرض والحرب، وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص، كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا، وما أشبه ذلك، فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات والنجوم واختلاف الوقائع في الأرض.

وقوله: «**ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**»:

قوله: «**خلاق**» أي: نصيب.

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم؛ لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفى النصيب مطلقا عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله.

ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا قتلوا كفاراً.

وإن حكمنا بعدم كفرهم، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا أنهم لا يكفرون؛ لأن المسألة فيها خلاف، فإنه يجب قتلهم لرفع مفسدتهم ومضرتهم - حتى وإن قلنا بعدم كفرهم؛ لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة قال تعالى: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾[1] فكل من أفسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة، أو خاصة فهو محرم إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور، أو أن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

. . . .

لها شركا فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج عن الملة. ولكن يسمى كفراً، لقول النبي ﷺ - «على إثر سماء كانت من الليل - هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[1].

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله[2].

الثاني: أن يتعلم علم النجوم، ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس، وما أشبهه؛ فهذا من الأمور المباحة؛ لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية، أو فرض عين.

---

(١) يأتي ص (١٢٧).

(٢) ص (٣٦).

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن ، **الثانية** : التصريح بأنه كفر، **الثالثة** : ذكر من تُكهن له . **الرابعة** : ذكر من تطير له ، **الخامسة** : ذكر من سحر له

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن :

يؤخذ من قوله : «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد**» . ووجهه أنه كذَّب بالقرآن وهذا من أعظم الكفر.

الثانية : التصريح بأنه كفر:

تؤخذ من قوله : «فقد كفر بما أنزل على محمد» .

الثالثة : ذكر من تُكهن له :

تؤخذ من حديث عمران بن حصين حيث قال : «**ليس منا**» أي : أنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه .

الرابعة : ذكر من تُطير له : تؤخذ من قوله : «**أو تطير أو تطير له**» .

الخامسة : ذكر من سحر له :

تؤخذ من قوله : «**أو سحر أو سُحر له**» .

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له ، أو سحر له ، أو تطير له ؛ لأنه قد يعارض فيه معارض ، فيقول هذا في الكهان ، وهذا في المتطيرين ، وهذا في السحرة ، فقال : إن من طلب أن يفعل له ذلك فهو مثلهم في العقوبة .

السادسة: ذكر من تعلم أباجاد،

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم؛ إلا على حسب الحالة التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك[1].

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف:

وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن فهما مترادفان، فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور، فهو أعم من الكاهن؛ لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل، فهما متباينان؛ فالظاهر أنها متباينان.

---

(١) ص (٦٤).

باب ما جاء في النُّشرة

تعريف النشرة:

في اللغة: بضم النون فُعْلَة من النشر وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.

لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور، يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

أما حكمها، فهو يتبين مما قاله المؤلف رحمه الله، وهو من أحسن البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه فضل كبير لمن ابتغى به وجه الله، لكن في القسم المباح منها.

لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، حيث لا يأنس إلا بمن استعطف عليه.

وأحيانا يكون أمراضا نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عمن تنفره عنه من الناس وأحيانا يكون أمراضاً عقلية، فالسحر له تأثير إما على البدن، أو العقل، أو النفس.

قوله: «**النشرة**»:

أل للعهد الذهني أي: المعروفة عندهم التي كانوا يستعملونها في الجاهلية، وذلك طريق من طرق حل السحر وهي على نوعين:

الأول: أن تكون بسحر.

الثاني: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك، فهو شرك أو معصية على حسب الحال، وإن كان بسحر،

عن جابر: أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: «**هي من عمل الشيطان**» رواه أحمد بسند جيد وأبو داود[1] وقال: سئل أحمد عنها فقال ابن مسعود يكره هذا كله.

فإن كان بالأدوية والرقي والعقد والنفث، وما أشبه ذلك، فهو محرم ولا يصل إلى الشرك، وإن كان باستخدام الشياطين فهو كالأول.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طست فيه ماء، ويصبون عليه رصاص، ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه في هذا الرصاص، فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة فقال: إن بعض الناس أجازها فقيل له: إنهم يجعلون ماء في طست، وأنه يغوص فيه، وأنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا؟ ما أدري ماهذا؟ فكأنه رحمه الله توقف في الأمر.

فقد يكون من الشياطين، وقد يكون من غير الشياطين، وأجاز بعض أهل العلم هذا النوع، والصحيح: أنه محرم.

قوله: «**رواه أحمد بسند جيد وأبو داود**».

سند أبي داود إلى أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه.

قوله: «**فقال ابن مسعود يكره هذا كله**»:

أجاب رحمه الله بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، وإلا ما استدل به.

والمشار إليه في قوله: «**يكره هذه كله**» كل أنواع النشرة، حتى ولو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/٢٩٤، وأبو داود في الطب/باب في النشرة ٤/٢٠١ وسكت عنه، وحسنه الحافظ في الفتح ١٠/٢٣٣.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١٠٢: «رواه البزار والطبراني في الأوسط إلا أنه قال: «ذكروا أنها من عمل الشيطان» ورجال البزار رجال الصحيح».

وفي البخاري عن قتادة «قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيُحل عنه أو يُنشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه»[1].

كانت ـ على رأي ابن مسعود ـ التمائم المعلقة، وما أشبهها ـ فإنه يكره ذلك[1].

وقوله: «**يكره**».

الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم، وعند المتأخرين خلاف الأولى، فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألَّا تعبدوا إلَّا إياه وبالوالدين إحسانا**﴾[3] إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾[4] ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

وهذا الحديث بين فيه الرسول ﷺ حكم النشرة، وأنها من عمل الشيطان، وهذا يغني عن قوله إنها حرام، بل هذا أشد من قوله إنها حرام؛ لأن ربطها بعمل الشياطين يقتضي تقبيحها، والتنفير عنها، فهي محرمة ودلالة النصوص على التحريم ليس أن تقول هذا حرام فقط؛ بل إذا ذكرت العقوبات، أو قرنت بأمر مكروه عند الله دل ذلك على أنه محرم.

قوله: «**رجل به طب**»:

أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طبا من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليما والكسير جبيرا.

قوله: «**أو يُؤخذ عن امرأته**»:

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الطب/ باب هل يستخرج السحر ٤/٤٨، وانظر فتح الباري ١٠/٢٣٢.

(٢) انظر باب: ما جاء في الرقي والتمائم.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

وروي عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز.

أي يحبس عنها فلا يصل إلى جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

والعجيب أنه مشتهر عند الناس، أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقدة عند العقد، فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم فقال إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد، حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً، والحقيقة أن التشبيك ينبغي أن يكون ربطاً بين الزوجين.

ولكن كثيرا ما يقع حبس الزوج عن زوجه، ويطلبون العلاج.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجع، فينفك السحر.

لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح، فالطلاق هنا جائز؛ لأنه طلاق للاستبقاء فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيءٍ من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئاً.

و«أو» في قوله: «**أويؤخذ**» يحتمل أنها للشك. أي: أو قلت يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع: أي: أني سألته عن أمرين عن المسحور وعن الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: «**أيحل عنه أو ينشر**»:

لا شك أن «أو» هنا للشك لأن الحل هو النشرة.

قوله: «**لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح**»:

. . . .

كأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار ونافع.

فالضار محرم قال تعالى: ﴿**ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**﴾[1]، والنافع لا بأس به، وهذا ظاهر ما روي وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا، ماروي عن ابن المسيب، بأن المراد به مالا يعلم عن حاله هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر فلا يحل، ولا شك أن هذا حمل لكلام ابن المسيب على معنى قد يكون هو المراد، وقد يكون المراد غيره، وأنه يرى رحمه الله الجواز. ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فليس معنى ذلك أن يكون جائزاً في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»[2] ولا عجب أن يخطيء أحد من الصحابة، أو من التابعين في أمر من الأمور، ويكون في ذلك معذوراً.

فعلى رأي هؤلاء يكون حل السحر بالسحر على ثلاثة أقسام، وهو ما ذكره الشيخ سليمان في شرحه.

الأول: أن يكون بالسحر، وهذا حرام.

الثاني: أن يكون بدواء مباح أو قرآن أو أدعية مباحة، وهذا جائز، ويستدل لذلك بعموم قوله تعالى: ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**﴾[3][4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سبق ص (٧٠).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٤) قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ٤/١٢٧: «والقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجيهات والدعوات والأذكار ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه لسانه كان هذا =

. . . .

وإذ اعلمنا أن في هذا العمل منفعة، فإنا نفعله، لأن الأدوية الحسية يعلم أنها دواء إما بطريق الوحي أو بالتجارب.

فالذي بطريق الوحي مثل قول النبي ﷺ: **«الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»**[1] وكذلك العسل كما قال تعالى: **«فيه شفاء للناس»**[2].

= من الأسباب التي تمنع إصابة السحر».

وقال: ص (١٢٤): «والمقصود ذكر هديه في علاج هذا المرض ـ أي ـ السحر ـ وقد روي عنه فيه نوعان:

أحدهما: ـ وهو أبلغهما ـ استخراجه وإبطاله، كما صح عنه، ﷺ، أنه سأل ربه سبحانه في ذلك فدل عليه فاستخرجه من بئر، فكان في مشط ومُشَاطة وجُفّ طَلْعَةِ ذكر، فلما استخرجه ذهب مابه حتى كأنما أُنْشِط من عقال.

والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، فإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، فإذا ظهر أثره في عضو وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جدا، وقد ذكر أبوعبيد في كتاب غريب الحديث بإسناده عن عبدالرحمن بن أبي ليلى أن النبي، ﷺ، «احتجم على رأسه بقرن حين طُبَّ».

= ومن الرقى النافعة في علاج السحر قراءة آيات السِّحر في سورة الأعراف، ويونس، وطه في ماء ثم تصب على رأس المسحور.

وهناك نوع آخر، وهو: أن يدق سبع ورقات من سدر أخضر بين حجرين أو نحوهما، ثم يصب عليها مايكفيه للغسل من الماء، ثم يقرأ فيه: آية الكرسي، وقل ياأيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وآيات السحر في سورة الأعراف، ويونس، وطه، ثم يشرب من هذا الماء، ويغتسل بالباقي، ويذهب عنه مابه إن شاء الله، وقد جرب كثيراً ونفع بإذن الله، وهو جيد لمن حبس عن زوجته.

(١) أخرجه البخاري/باب المن شفاء للعين ٣٨/٤، ومسلم في الأشربة/باب فضل الكمأة ١٦١٩/٣ من حديث سعيد بن زيد.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٩.

. . . .

وأما التي بالتجارب، فكثيرة جداً. فالمستعملة الآن غالبها من التجارب.

الثالث: ما لا يعلم هل هو بالمباح أو بالمحرم؟ وحملوا كلام ابن المسيب على هذا النوع. الذي لا يعلم هل هو من المباح، أو من المحرم؟

فقالوا: مادام أنه نافع، ونحن في شك من دخوله في الحرام، فإنه يرتفع عنه الشك، ويحكم بإباحته؛ لأن القاعدة الشرعية أن ما لم يكن الأمر فيه واضحاً، فإن الحاجة تبيحه.

فالذي اجتنابه من باب الورع، فالحاجة تبيحه لعدم القطع بالتحريم.

ابن القيم رحمه الله يرى أن النشرة نوعان، ويحمل كلام ابن المسيب على الثاني المباح.

فيه مسائل : الأولى : النهي عن النشرة، **الثانية** : الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن النشرة :

تؤخذ من قوله ﷺ : «**هي من عمل الشيطان**» وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي؛ لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله، وقوله : هذا من عمل الشيطان، وتقبيح الشيء، وما أشبه ذلك يدل على النهي.

الثانية : الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه :

تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله، وتفصيله.

إشكال وجوابه :

ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله يجوز حل السحر بالسحر، وبين قولهم يجب قتل الساحر؟

الجواب : عندهم أن الساحر لا يكفر لكن يجب قتله، ولكن على تقدير أن هذا الساحر لم نستطع قتله، أو أن ولاة الأمور أبقوه، أو ما أشبه ذلك.

أو يقال : إن الساحر الذي لا يضر، وإنما ينفع الناس يُبقى إن قلنا بجواز عمله هذا، فلا وجه لكونه يقتل، وهذه المسألة تحتاج إلى تحرير أكثر.

باب ما جاء في التطيُّر

تعريف التطير :

في اللغـة : تفعـل مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر هل يذهب يميناً أو شمالاً ، أو ما أشبه ذلك ، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن أقدم أوفيها التشاؤم أحجم وتركه .

أما في الاصطلاح : التشاؤم بمرئى أو مسموع وهذا من الأمور النادرة ؛ لأن الغـالب أن اللغـة أوسـع من الاصـطلاح ؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفـاظ قيوداً تخصهـا مثل الصلاة لغة الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها .

وإن شئت فقل : التطير هو التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم .

بمرئي مثل : لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً .

أو مسموع مثل : من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر يا خسران ، أو يا خائب فيتشاءم .

أو معلوم : كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات فهذه لا ترى ولا تسمع .

واعلم أن التطير ينافي التوحيد ووجه منافاته له من وجهين :

الأول : أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غيره .

الثاني : أنه تعلق بأمر لا حقيقة له ، فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل لك ، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد ؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة قال

وقول الله تعالى: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾[1].

تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[3] ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن النبي ﷺ تزوجها في شوال وبنى بها في شوال وكانت أحظى نسائه إليه[4] وأحبهن إليه. وكانت العرب يتشاءمون في هذا الشهر، ويقولون إذا تزوج في شوال فإنه لا يفلح وهذا لا حقيقة له.

إذن فالطيرة محرمة وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله عز وجل ولا تسيء الظن بالله عز وجل.

قوله: «**ألا إنما طائرهم عند الله**»:

هذه الآية نزلت في موسى وقومه في قولهم: ﴿**وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه**﴾[5] قال الله تعالى: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾ ومعنى: ﴿**يطيروا بموسى ومن معه**﴾ أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا هذا من موسى وأصحابه فأبطل الله هذه العقيدة بقوله: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.
(٣) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٤) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٢٣).
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

وقوله: ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾[1].

قوله: «ألا إنما طائرهم عند الله»:

«ألا»: أداة استفتاح تفيد التنبيه والتوكيد و«إنما» أداة حصر.

وقوله: «طائر» مبتدأ و«عند الله» خبر والمعنى: أنما يصيبهم من الجدب والقحط ليس من موسى وقومه ولكنه من الله فهو الذي قدره ولا علاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسى وقومه سبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء والعياذ بالله يلبسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

قوله: «ولكن أكثرهم لا يعلمون»:

فهم في جهل فلا يعلمون أن هناك إلهاً مدبراً، وأن ما أصابهم من الله، وليس من موسى وقومه.

قوله: «قالوا طائركم معكم»:

أي قال الـذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية﴾[2] الآيات.

فقالوا ذلك رداً على قولهم: ﴿إنا تطيرنا بكم﴾[3] أي تشاءمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدلوننا على الخير بل على الشر وما فيه هلاكنا.

قوله: «قالوا طائركم معكم»:

أي مصاحب لكم فما يحصل لكم، فإنه منكم ومن أعمالكم، ولا منافاة بين هذه الآية والتي قبلها؛ لأن الأولى تدل على أن المقُدِر لهذا الشيء هو الله، والثانية تبين سببه وهو أنه منهم، فهم في الحقيقة طائرهم معهم (أي الشؤم) إن

---

(١) سورة يس، الآية: ١٩.

(٢) سورة يس، الآية: ١٣. (٣) سورة يس، الآية: ١٨.

. . . .

كان هناك شؤم، فهو معهم مصاحب لكم ملازم لكم؛ لأن أعمالكم توجب ذلـك، كما قال الله تعالى: **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾** [الأعراف]

يستفـاد من الآيتـين: أن التطير كان معروفا من قبل العرب وفي غير العرب؛ لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

ثم أن هؤلاء الـذين تطيروا هل تطيرهم حقيقةً أو للتمويه؟ الجواب: تطيرهم هذا ليس حقيقة، بل هو للتمويه. فهم ليسوا الذين جلبوا لهم الشر، ولكن الـذي جلب لهم الشر هو أعمالهم، فقدر الله عليهم ما يسؤهم جزاء سيئة بمثلها.

قوله: «**أإنْ ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون**»:

ينبغي أن تقف على قوله: «**ذكرتم**» لأنها جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: أإن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا فلا تصلها بما بعدها.

وقوله: «**بل أنتم قوم مسرفون**»:

«**بل**» هنا للإضراب الإبطالي، أي بل أنتم ما أصابكم ليس منهم، بل هو من اسرافكم.

وقوله: «**مسرفون**»: أي متجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا إليه.

قوله: «**لا عدوى**»: لا نافية للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنه نفي للجنس كله، فنفى الرسول ﷺ العدوى.

والعـدوى: انتقـال المـرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية، يكون أيضا في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة[1].

---

(١) أخـرجـه البخـاري في الـذبـائح/ باب المسك (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة/ باب استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨) عن أبي موسى رضي الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»** أخرجاه[1] وزاد مسلم **«ولا نوء ولا غول»**[2].

فقوله: **«لا عدوى»** يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

قوله: **«ولا طيرة»** اسم مصدر تطير؛ لأن المصدر منه تطير مثل الخيرة اسم مصدر اختار قال تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾**[3] أي: الاختيار أو التخيير.

واسم المصدر يوافق المصدر في المعنى، ولذلك نقول كلمته كلاماً بمعنى كلمته تكليماً، وسلمت عليه سلاماً بمعنى سلمت عليه تسليماً.

لكن لما كان يخالف المصدر في البناء سموه اسم مصدر، والطيرة تقدم أنها هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم[4].

قوله: **«ولا هامة»**:

الهامة فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها داء يصيب المريض، وينتقل إلى غيره وعلى هذا التفسير

---

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب لا هامة ٤/٤٧، ومسلم في السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٣.

(٢) في الموضع السابق ٤/١٧٤٤، فقد أخرج حديث أبي هريرة بزيادة «ولا نوء» ومن حديث جابر بن زيادة: «ولا غول».

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٤) ص (٧٧).

. . . .

يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل؛ فإن هذه الهامة تأتي إلى أهله، وتنعق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون بصورة الهامة. وبعض العرب يقولون: الهامة هي الطير لكنهم يتشاءمون بها. فإذا وقعت على بيت أحدهم، ونعقت قالوا: إنها تنعق به ليموت. ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله ـ بلا شك ـ عقيدة باطلة.

وقيل: إن الهامة دودة يزعمون أنها تخلق من روح المقتول، وأنها تطير وتصيح؛ حتى يقاد من القاتل، وكل هذا من أمور الجاهلية لا حقيقة له.

أما إذا كانت الهامة مرضاً في البطن ينتقل إلى الصحيح؛ فقولنا فيها كقولنا في «لا عدوى».

قوله: **«ولا صفر»**:

قيل: إنه شهر صفر كانت العرب يتشاءمون به.

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخر، وعلى هذا فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

وقيل: أنه نهيٌ عن النسيئة، وكانوا في الجاهلية ينسئون؛ فإذا أرادوا في الأشهر الحرم القتال استباحوها وأخروا الحرمة إلى شهر صفر، وهذه النسيئة التي ذكرها الله، بقوله تعالى: **﴿فيحلوا ما حرم الله﴾**[1] وهذا القول ضعيف، ويضعفه أن الحديث في سياق التطير، وليس في سياق التغيير، والأقرب أن صفر يعني الشهر، أي: لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير، ويقدر فيه الشر.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

. . . .

وهـذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفياً للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كان سبباً معلوماً فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه ولسببه.

فقوله: «**لا عدوى**»: العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ: «**لا يورد ممرض على مصح**»[1] أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة؛ لئلا تنتقل العدوى.

وقوله ﷺ: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[2]:

والجـذام مرضٌ خبيثٌ معـدٍ بسرعـة ويتلف صاحبـه حتى قيل: إنـه الطاعون، فالأمر بالفرار؛ لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمر حتمياً بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبي ﷺ بالفرار وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسبـاب بنفسهـا، فالأسبـاب لا تؤثـر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسبـاب التي تكـون سببـا للبـلاء لقـولـه تعـالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكـة**﴾[3] ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى قال رجل: يا رسول الله الإبل تكون صحيحة مثل الظباء فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٣.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الطب/باب الجذام ٤/٣٧، وانظر فتح الباري ١٠/١٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

. . . .

النبي ﷺ فمن أعـدى الأولى؟»[1] يعني أن المـرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عز وجل فكذلك إذا انتقل بالعدوى فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فجرب الأول ليس سببه معلوماً إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم لكن لوشاء الله تعالى لم يجرب، ولهذا أحيانا تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون.

فالإنسان يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل مجذوم؛ فأخذ بيده وقال له: «كل من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ»[2] لقوة توكله ﷺ. فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي.

وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث. وادّعى بعضهم النسخ، فمنهم من قال: إن الناسخ قوله «لا عدوى» والمنسوخ قوله: **«فر من المجذوم»**[3] **«ولا يورد ممرض على مصح»**[4]، وبعضهم عكس، والصحيح أنه لا نسخ؛ لأن من شروط النسخ تعذر الجمع، وإذا أمكن وجب،

---

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب لاصفر ٤/٣٩، ومسلم في السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب/باب في الطيرة ٤/٢٣٩ وسكت عنه، والترمذي في الأطعمة/باب في الآكل مع المجذوم ٦/١١١ وقال: «غريب»، وابن ماجة في الطب/باب الجذام ٢/١١٧٢، وابن جرير في تهذيب الآثار (٨٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/٣٠٩، وابن حبان (١٤٣٣)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٦٥) والحاكم ٤/١٣٦ وصححه ووافقه الذهبي من حديث جابر.

(٣) سبق ص (٨٣).

(٤) سبق ص (٨٣).

الجمع وجب الرجوع إليه؛ لأن في الجمع إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما، وإعمالهما أولى من إبطال أحدهما؛ لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه ليس بمنسوخ.

وقوله: «**ولا صفر**»:

فيه ثلاثة أقوال سبقت، وبيان الراجح منها[1].

والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله عز وجل؛ فهو كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من شيء في صفر أرخ ذلك وقال: انتهى في صفر الخير، فهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان وقولنا: إنه شهر خير فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم رجب المعظم بناءً على أنه من الأشهر الحرم.

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خيراً إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور.

فهذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأمور؛ لأن الإنسان في هذه الأمور لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلك، فيكون حينئذ قد علق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالي، لكن يبقى في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول لكن

---

(١) ص (٨٢).

. . . .

يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأمور التي نفاها الرسول ﷺ مطلقاً، وأن يكون معتمداً على الله عز وجل.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل؛ فإذا نظر ذكر النار تشاءم وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب، فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل على بالك مثل هذه الأمور إطلاقاً، فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سببا بل نفاها، فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية، وقل ربنا عليك توكلنا.

قوله: **«لا نوء»**

واحد الأنواء، والأنواء هي: منازل القمر وهي ثمان وعشرون منزلة؛ كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية؛ وهي: لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية؛ وهي: لأيام الشتاء. وأجرى الله العادة أن المطر في الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء؛ أما أيام الصيف فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها، فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا امطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية جهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيراً

. . . .

ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له فقولنا طلع هذا النجم، كقولنا طلعت الشمس، فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سببا حقيقياً؛ ولكن لا يفتح هذا الأمر للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه قال تعالى: **﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله﴾**[1] وقال تعالى: **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾**.

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه.

فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءتنا المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الترهات التي تصرف الإنسان عن ربه سبحانه وتعالى.

قوله: «**ولا غول**»: جمع غَوْلَة أو غُولة، ونحن نسميها باللغة العامية (الهولة)؛ لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الروع والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع قال تعالى: **﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين**

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

. . . .

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل قال الكلمة الطيبة»[1].

آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾[2].

وهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها فلا تهمكم لأنها خوّفتكم، فلا تلتفتوا إليها، وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقاً بها؛ أما إن كان معتمداً على الله غير مبال بها، فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده.

قوله: «**لا عدوى ولا طيرة**»: تقدم الكلام على ذلك.

قوله: «**ويعجبني الفأل**»: أي يسرني، والفأل بينه بقوله: «**الكلمة الطيبة**».

«فالكلمة الطيبة» تعجبه ﷺ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قدماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة بل هذا مما يشجع الإنسان لأنها لا تؤثر عليه بل تزيده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً.

وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء، لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سبباً لخيرات كثيرة؛ حتى إنها تدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

وهذا الحديث جمع النبي ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما

---

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب الفأل ٤/٤٦، ومسلم في السلام/باب الطيرة والفأل ٤/١٧٤٥ ـ ١٧٤٦ من حديث أنس، وأخرجاه أيضاً من حديث أبي هريرة في المواضع السابقة رضي الله عنهما.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: «**ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك**»[1].

العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل وهذا من حسن تعليم النبي ﷺ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر حوله ما يكون مرغوباً، ولهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين أو بالعكس، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة وهكذا.

قوله: «**عن عقبة بن عامر**».

صوابه عن عروة بن عامر كما ذكره في التيسير وقد اختلف في نسبه وصحبته.

قوله: ﴿**ذكرت الطيرة عند رسول الله**﴾: وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها.

قوله: «**أحسنها الفأل**»:

سبق أن الفأل ليس من الطيرة[2]، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام، فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما يوجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا فبينهما فرق؛ لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به وضعف

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب/باب في الطيرة ٤/٢٣٥، وسكت عنه وابن السني (٢٩٤) والبيهقي ٨/١٣٩.

وقال النووي في الرياض كما في دليل الفالحين ص(٨٠٦): «رواه أبو داود بإسناد صحيح».

وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٥/٣٧٩: «عروة هذا قيل فيه: القرشي، وقيل فيه: الجهني، وقال أبو القاسم الدمشقي: ولا صحبة له تصح، وذكر البخاري وغيره: أنه سمع من ابن عباس فعلى هذا يكون الحديث مرسلا».

(٢) ص (٨٨)

. . . .

توكله على الله ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً، فالشبه بينهما هو التأثير في كل منها.

قوله: «**ولا ترد مسلما**»

يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته فليس بمسلم.

قوله: «**فإذا رأى أحدكم ما يكره**» فحينئذ قد ترد على فلبه الطيرة ويبتعد عن هذا الشيء، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال: فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات... إلخ.

قوله: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت**»

وهذا هو حقيقة التوكل وقوله: «**اللهم**» يعني يا الله، ولهذا بنيت على الضم على أنها منادى علم؛ بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عوض عن الياء المحذوفة، وصارت في آخر الكلمة تبركا بالابتداء باسم الله سبحانه وتعالى، وصارت ميماً؛ لأنها تدل على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله.

قوله: «**لا يأتي بالحسنات إلا أنت**»

أي لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب؛ لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله، صار الموجد حقيقة هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية كالمال والولد ونحوها قال تعالى: ﴿**إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا**

وهم فرحون﴾[1] وقال تعالى في آية آخرى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾[2].

وقوله: «**إلا أنت**»: فاعل يأتي لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «**ولا يدفع السيئات إلا أنت**»:

السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى؛ حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق، دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينافي هذا أن يكون دفعها بأسباب، فمثلاً لو رأى رجلا غريقاً فأنقذه فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه فالسبب من الله.

فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله. وبمقتضى هذه العقيدة فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات قال تعالى: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾[3] وقال تعالى عن أيوب ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾[4] وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضاً.

قوله: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»: فيها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله، والباء تكون بمعنى في، يعني إلا في الله وحده ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة. فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

---

(1) سورة التوبة، الآية: ٥٠.
(2) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(3) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.
(4) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبوداود والترمذي وصححه[1]. وجعل آخره من قول ابن مسعود[2].

الثـاني: أن الحول والقوة مضاف إلى الإنسان والباء هنا للاستعانة أو للسببية، أي لا حول لنا ولا قوة لنا إلا بالله عز وجل، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودها في مواضعها، إذ إننا لا نتحول من حال إلى حال، ولا نقوى على ذلك إلا بالله؛ فيكون في هذه الجملة كمال التفويض، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صحّ الحديث فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت».

وأما هذه الأشياء فلا تأثير لها.

«ولا حول ولا قوة إلا بك» فأنت صاحب الحول والقوة، وكل الأمور لا تكون إلا بك وحدك.

قوله: **«مرفوعاً»** أي إلى النبي ﷺ.

قوله: **«الطيرة شرك الطيرة شرك»**:

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠، وأبوداود في الطب/ باب في الطيرة ٤/ ٢٣٠، وسكت عنه، والترمذي في السير/ باب ماجاء في الطيرة ٥/ ٣٣٦ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في الطب/ باب من كان يعجبه الفأل ٢/ ١١٧٠، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٣١٢، وابن حبان (١٤٢٧)، والحاكم ١/ ١٧، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ٨/ ١٣٩، والبغوي في شرح السنة ١٢/ ١٧٧.

(٢) قوله: «وما منا. . .) إلخ هذه من كلام ابن مسعود رضي الله عنه انظر: الترمذي ٥/ ٣٣٧، =

. . . .

هاتان الجملتان مؤكد بعضهما بعضاً من باب التوكيد اللفظي.

وقوله: «**شرك**»:

أي: أنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله وإلا لقال الطيرة الشرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج عن الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

نقول: هي نوع من أنواع الشرك كقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر**»[1] أي ليس الكفر المخرج عن الملة وإلا لقال «هما بهم الكفر».

لكن في ترك الصلاة قال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[2] فقال الكفر، فيجب أن نعرف الفرق بين (ال) المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر فالمراد أنه لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر فهو المخرج من الملة.

فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه، فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرجه من الملة لكنه أشرك من حيث أنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سبباً، وهذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة وبذلك يعتبر شركاً من هذه الناحية والقاعدة: (أن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً فإنه مشرك).

= والترغيب ٤/٦٤، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/٢٣٤، وموارد الظمآن ص (٣٤٥)، وفتح الباري ١٠/٢١٣.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب ١/٨٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/٨٨ من حديث جابر رضي الله عنه.

. . . .

وهـذا نوع من الإشراك مع الله إمـا في التشريع إن كان هذا السبب شرعيًّا، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونيًّا، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله فهو مشرك شركاً أكبر؛ لأنه جعل لله شريكاً في الخلق والإيجاد.

قوله: «**وما منا**»

منا جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، وهذا المبتدأ إما أن يكون قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلاً، أي: وما منا أحد إلا تطير، أو يكون المبتدأ محذوفاً بعد (إلا) أي وما منا إلا متطير.

والمعنى: ما منا إنسان يسلم من التطير، فالإنسان يسمع شيئاً فيتشاءم، أو يبدأ في فعل فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه، ولكن الله يذهبه بالتوكل.

والتوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله.

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به لأنه سبحانه يقول: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾.

قوله: «**وجعل آخره من قول ابن مسعود**»: وهو قوله: (وما منا إلا . . . الخ).

وعلى هذا يكون موقوفاً وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلاماً في الحديث من عنده بدون بيانه؛ ويكون في الإسناد والمتن ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره وهو الأكثر.

مثال ما كان في أول الحديث: قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**أسبغوا**

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»[1].

الوضوء ويلٌ للأعقاب من النار»[2] فقوله: «**أسبغوا الوضوء**» من كلام أبي هريرة، وقوله: «**ويلٌ للأعقاب من النار**» من كلام الرسول ﷺ.

ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الوحي: «**كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء والتحنث التعبد**»[3]. ومثال ما كان في آخره: هذا الحديث الذي ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة وفيه: «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل**»[4] فهذا من كلام أبي هريرة.

قوله: «**من**» شرطية وجواب الشرط «**فقد أشرك**» واقتران الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة وحينئذ يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف

اسمية طلبية وبجامد وبما ... وقد وبلن وبالتنفيس

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء/ باب غسل الأعقاب ١/٧٤، ومسلم في الطهارة/ باب وجوب غسل الرجلين ١/٢١٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي/ باب حدثنا يحيى بن بكير ١/١٤، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، ﷺ، ١/١٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء/ باب فضل الوضوء ١/٦٥، ومسلم في الطهارة/ باب استحباب إطالة العزة ١/٢٤٦.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٢٠، وابن وهب في الجامع ص (١١٠)، والطبراني كما في المجمع ٥/١٠٥، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٣).
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١٠٥: «وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات».
وقال الشارح في تيسير العزيز الحميد ص (٤٣٩): «وفيه ابن لهيعة».

. . . .

قوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته**» الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية.

قوله: «**فقد أشرك**».

إن اعتقد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه فهو شرك أكبر، وإن اعتقده سبباً فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب وهي: «أن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شرعاً فهو شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سبباً كوناً أو شرعاً فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها.

قوله: «**فما كفارة ذلك**»:

أي ما كفـارة هذا الشرك أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله وقد تطلق على الكفارة منه قبل الفعـل؛ وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر وهو الستر والستر واقٍ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

قوله: «**اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك**».

يعني فأنت الذي بيدك الخير المباشر كالمطر والنبات، وغير المباشر كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سبباً، وإلا فكل الخير من الله عز وجل.

وقوله: «**لا خير إلا خيرك**»: هل الحصر هنا حقيقي أو إضافي؟ الجواب: هذا الحصر حقيقي فالخير كله من الله سواء كان مباشراً أم بواسطة.

وقوله: «**لا طير إلا طيرك**».

. . . .

أي: الـطيور كلهـا ملكـك فهي لا تفعل شيئاً وإنما هي مسخرة قال تعالى: ﴿**أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنـه بكل شيء بصير**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾[2] فالمهم أن الطير مسخـر بإذن الله، فالله تعالى هو الذي يدبره ويصرفه ويسخره يذهب يميناً وشمالاً، ولا علاقة له بالحوادث.

ويحتمـل أن المـراد بالـطير هنـا ما يتشاءم منه الإنسان فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة، فإنه من الله كما أن الخير من الله كما قال تعالى: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾[3].

لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع بل الشر في المفعول لا في الفعل.

فيكون قوله: «**لا طير إلا طيرك**» مقابلاً لقوله: «**ولا خير إلا خيرك**».

قولـه: «**ولا إلـه غيرك**»: «لا» نافية للجنس و«إلـه» بمعنى: مألـوه، كغـراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه هو: المعبود محبة وتعظيماً يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيماً له.

فإن قيل: إن هناك آلهة دون الله كما قال تعالى: ﴿**فما أغنت عنهم آلهتهم**

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

وله من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنه: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»[1].

التي يدعون من دون الله من شيء﴾[2] أجيب: أنها وإن عبدت من دون الله فليست آلهة حقاً؛ لأنها لا تستحق أن تعبد من دون الله فلهذا نقول لا إله إلا الله.

يستفاد من هذا الحديث:

١ - أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالي بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة، فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم؛ وهذا خطأ؛ لأنه مادامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية فلا تهتم بما حدث.

٢ - أن الطيرة نوع من الشرك لقوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**».

٣ - أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: «**وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[3].

٤ - أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

٥ - انفراد الله بالألوهية كما انفرد بالخلق والتدبير.

قوله: (إنما الطيرة): هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصراً أي: ما الطير إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب

---

(١) أخرجه أحمد ١/٢١٣، وقال ابن مفلح في الآداب ٣/٣٧٧: «رواه أحمد من رواية محمد بن عبدالله بن علاثة وهو مختلف فيه، وفيه انقطاع» وقال الشيخ سليمان ص (٤٤٠): «وهكذا رواه أحمد وفي إسناده نظر».

(٢) سورة هود، الآية: ١٠١.

(٣) سبق ص (٩٢).

. . . .

ولم ترده ولم يلتفت لها فإنها لا تضره لكن عليه أن لا يستسلم بل يدافع إذ الأمر كله بيد الله .

قوله : «**ما أمضاك أو ردك**» : أما ما ردك فلا شك أنه من الطيرة ؛ لأن التطير يوجب الترك والتراجع .

وأما ما أمضاك فلا يخلو من أمرين :

الأول : أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال سأزجر هذا الطير فإذا ذهب إلى اليمين فمعنى ذلك اليمن والبركة فيقدم فهذا لا شك أنه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح ؛ لأنه لا وجه له إذ الطير إذا طار فإنه يذهب إلى الذي يرى أنه وجهته ، وهنا اعتمد على سبب لم يجعله الله سبباً وهو حركة الطير.

الثاني : أن يكون سبب المضي كلاماً سمعه أو شيئاً شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له ، فإن هذا فأل وهو الذي يعجب النبي ﷺ ، لكن إن اعتمد عليه دون الله فهذا حكمه حكم الطيرة ، وإن لم يعتمد عليه ولكنه علم أن هذا من الأسباب واعتقد أنه سبب من الأسباب التي يسرها الله سبحانه له فهذا من الفأل .

والحديث في سنده مقال ، لكن على تقدير صحته هذا حكمه .

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله»[1] مع قوله : «طائركم معكم»[2]. **الثانية** : نفي العدوى. **الثالثة** : نفي الطيرة. **الرابعة** : نفي الهامة. **الخامسة** : نفي الصفر. **السادسة** : أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله» مع قوله : «**طائركم معكم**» أي لكي يتنبه الإنسان فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض في ذاتهما إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب وقد سبق بيان الجمع أن قوله : «**ألا إنما طائرهم عند الله**» أن الله هو المقدر ذلك وليس موسى ولا غيره من الرسل وأن قوله : «**طائركم معكم**» من باب السبب أي أنتم سببه.

الثانية : نفي العدوى.

وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعل بعض الأمراض سببا للعدوى وانتقالها.

الثالثة : نفي الطيرة أي : نفي التأثير لا نفي الوجود.

الرابعة : نفي الهامة، وقد سبق تفسيرها وهي كما سبق مرض يعدي، أو طير.

الخامسة : نفي الصفر وهي كما سبق إما شهر صفر، أو داء في البطن.

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب :

تؤخذ من قول النبي ﷺ : «**يعجبني الفأل**»[3] وكل ما أعجب النبي ﷺ

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ١٣١.

(٢) سورة يس، الآية : ١٩.

(٣) سبق ص (٨٩).

السابعة: تفسير الفأل. **الثامنة**: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهتـه لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل. **التاسعة**: ذكر ما يقول من وجده. **العاشرة**: التصريح بأن الطيرة شرك. **الحادية عشرة**: تفسير الطيرة المذمومة.

فهو حسن قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله»[1].

السابعة: تفسير الفأل، فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسـير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل، أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له، فإنه لا يضرك ويذهبه الله بالتوكل لقول ابن مسعود «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[2].

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده: وسبق أنه شيئان:

أن يقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله».

أو يقول: «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك».

العـاشرة: «التصريح بأن الـطيره شرك» وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل فإن اعتقد تأثيرها بنفسها فهو شرك أكبر وإن اعتقد أنها سبب فهو شرك أصغر.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة، أي ما أمضاك أو ردك.

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء/ باب التيمن في الوضوء والغسل ١/ ٧٥، ومسلم في الطهارة/ باب التيمن في الطهور ١/ ٢٢٦.

(٢) سبق ص (٩٢).

باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وكلف ما لا علم له به»[1] انتهى.

التنجيم: تفعيل من النجم، ومعنى نجم أي تعلم علم النجوم أو اعتقاد تأثير النجوم.

وعلم النجوم: ينقسم إلى قسمين:

١ - علم التأثير. ٢ - علم التسيير.

فالأول: علم التأثير:

وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقاً فهو مشرك شركاً أكبر، فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مُسخرا.

ب - أن يجعلها سببا يدعي به علم الغيب فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، فهذا اتخذ تعلم النجوم

---

(١) علقه بصيغة الجزم البخاري في بدء الخلق/ باب في النجوم ٢/ ٤٢٠.

. . . .

وسيلة لادعـاء علم الغيب ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملـة لأن الله يقول: ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾[1] وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والاستثناء، فإذا ادعى علم الغيب فقد كذب القرآن.

جـ ـ أن يعتقدها سببا لحدوث الخير والشر فهذا شرك أصغر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئا إلا بعد وقوعه.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده**»[2] فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

والجواب من وجهين:

الأول: أنـه لا يسلم أن للكسـوف تأثيراً في الحوادث والعقوبات من الجـدب والقحط والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إنهما لا ينكسفان لموت أحـد ولا لحياته**»[3] لا في ما مضى ولا في المستقبل وإنما يخوف الله بها العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب أننا لا نسلم أصلا أن لهما تأثيرا في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه، فالحديث ينص على التخويف.

---

(١) سورة النمل الآية: ٦٥.

(٢، ٣) أخـرجـه البخـاري في الكسـوف/ باب الصـدق في الكسـوف ١/ ٣٢٨، ومسلم في الكسوف/ باب صلاة الكسوف ٢/ ٦١٨.

. . . .

الثاني: علم التسيير :

وهذا ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية فهذا مطلوب ، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبا ، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبله ، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة فهذا فيه فائدة عظيمة .

الثاني : أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية ، فهذا لا بأس به وهو نوعان :

النوع الأول : أن يستدل بها على الجهات كمعرفة أن القطب يقع شمالا ، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالا ، وهكذا فهذا جائز قال تعالى : **﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾**[1] .

النوع الثاني : أن يستدل بها على الفصول ، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر فهذا كرهه بعض السلف ، وأباحه آخرون .

والذين كرهوه قالوا : يخشى إذا قيل طلع النجم الفلاني فهو وقت الشتاء أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح .

والصحيح عدم الكراهة كما سيأتي إن شاء الله[2] .

قوله : «**خلق الله هذه النجوم لثلاث**» :

اللام للتعليل أي : لبيان العلة والحكمة .

قوله : «**لثلاث**» : ويجوز لثلاثة ، لكن الثلاث أحسن أي : لثلاث حكم لهذا حذف تاء التأنيث من العدد .

---

(١) سورة النحل، الآية : ١٦ .

(٢) انظر ص (١٠٨).

. . . .

والثلاث هي:

الأولى: زينة للسماء قال تعالى: **﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾**[1]. لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم ما لا يعلمه إلا الله فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلى الحمرة، وهذه تميل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مرصعة في السماء أو نقول لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء قال تعالى: **﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾**[2] أي يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم أي غطاها، وهي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها في آخر الشهر وعند قرب الفجر غطاها فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر رمضان.

إذن هي أفلاك متفاوته في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: **﴿وزينا السماء الدنيا﴾**؟

قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قصراً وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست

---

(١) سورة الملك، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

. . . .

على جدرانه فالناظر إلى القصر من بُعْدٍ يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجوما للشياطين أي لشياطين الجن وليسوا شياطين الأنس؛ لأن شياطين الأنس لم يصلوها لكن شياطين الجن وصلوها فهم أقدر من شياطين الأنس ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم ﴿**والشياطين كل بناء وغواص**﴾[1] أي لسليمان: ﴿**وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾[3] أي من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: ﴿**وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً**﴾[4].

والرجم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدى بها تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾[5].

فالعلامات: تشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامة كالجبال والأنهار والطرق.

والعلامة الأفقية قوله تعالى: ﴿**وبالنجم هم يهتدون**﴾.

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛

(١، ٢) سورة صّ، الآيتان ٣٧، ٣٨.

(٣) سورة النمل، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الجن، الآية: ٩.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٦.

وكره قتادة تعلم منازل القمر.

لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم على الجهات سواء جهات القبلة أو المكان براً أو بحراً.

وهذا من نعمة الله أن جعل أشياء علوية لا يحجب دونها شيء، وهي النجوم لأنك في الليل لا تشاهد جبالاً ولا أودية ولا رملا، وهذا من تسخير الله قال تعالى: ﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه**﴾(1).

قوله: «**وكره قتادة تعلم منازل القمر**»:

اعلم أن الكراهة في القرآن والسنة وكلام السلف المتقدمين يراد بها التحريم قال تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾(2) ثم ذكر منهيات كثيرة للتحريم ثم قال: ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾(3) وقد تكون فيما هو أكبر من المحرم وهو الشرك كما في قوله: ﴿**وقضى ربك. . . .**﴾ الآية(4).

أما الكراهة عند عامة متأخري الفقهاء، فالمراد: غير المحرم؛ لأن المحرم: ما نهي عنه على سبيل الإلزام بالترك، والكراهة: ما نهى عنه لا على سبيل الإلزام بالترك. فيفرقون بين المحرم والمكروه.

وبناء على هذه القاعدة في كلام السلف يكون المراد بالكراهة في كلام قتادة التحريم.

وقوله: «**تعلم منازل القمر**»: يحتمل أمرين:

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون في الشرطين، ويكون في الأكليل فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم [٢٨] وفي [٢٩] [٣٠] لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المراد به تعلم منازل النجوم أي: يخرج النجم الفلاني في اليوم

---

(1) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(2) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(3) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

(4) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

ولم يُرَخِّص ابن عيينة فيه ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر**

الفلاني وهذه النجوم جعلها أوقاتا للفصول لأنها [٢٨] نجما منها [١٤] يمانية و[١٤] شمالية فإذا حلت الشمس في المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت في الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل وهو من النجوم اليمانية.

قوله: «**ولم يرخص فيه ابن عيينة**»: هو سفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة.

قوله: «**وذكره حرب**»: من أصحاب أحمد روىٰ عنه مسائل كثيرة.

قوله: «**إسحاق**»: هو إسحاق بن راهويه.

والصحيح: أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لا شرك فيها إلا إن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد وأنها هي الجالبة لذلك، فهذا نوع من الشرك أما مجرد معرفة الوقت بها، هل هو الربيع أو الخريف أو الشتاء؟ فهذا لا بأس به.

قوله: «**الجنة**»: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وسميت بذلك لكثرة أشجارها، لأنها تجن من فيها أي تستره.

قوله: «**مدمن خمر**»: هو الذي يشرب الخمر كثيراً. والخمر حده الرسول

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٣٣٩، وابن حبان (١٣٨٠، ١٣٨١) وأبويعلى والطبراني كما في المجمع ٥/٧٤ قال الهيثمي: «رواه أحمد وأبويعلى والهيثمي والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات». وأخرجه الحاكم أيضا ٤/١٤٦ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وقاطع الرحم ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه[1]

ﷺ بقوله: «**كل مسكر خمر**»[1] ومعنى «أسكر» أي غطى العقل وليس كل ما غطى العقل فهو خمر، فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب دهنا فأغمى عليه فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذي يغطي العقل على وجه اللذة والطرب فتجد الشارب يحس أنه في منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسداً ما ينهنها اللقاء

وقال حمزة للنبي ﷺ: «وهل أنتم إلا عبيد أبي»[2] فالذي يغطي العقل على سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله فهو كافر، إلا إن كان ناشئا ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك، فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه.

قوله: «**قاطع رحم**»:

الرحم: هم القرابة قال تعالى: ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض**﴾[3] وليس كما يظنه العامة والد الزوج، وبعضهم يسميه عماً، وبعضهم يسميه خالاً وهذا خطأ؛ لأن هذه تسمية غير شرعية ويترتب عليها حكم شرعي.

ومعنى قاطع الرحم أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**»[4] ومنه الأرحام

---

(1) أخرجه مسلم في الأشربة/ باب بيان أن كل مسكر خمر ٣/١٥٨٧ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري في فرض الخمس/ باب فرض الخمس ٢/٣٨٥، ومسلم في الأشربة/ باب تحريم الخمر ٣/١٥٦٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(3) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(4) سورة الرعد، الآية: ٢١.

. . . .

وما جاء مطلقاً غير مقيد فإنه يتبع فيه العرف كما قيل:

وكل ما أتى ولم يحدد بالشرع كالحرز فبالعرف احدد[1]

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائما، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك.

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد، فأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى، قسم من الأقارب يرى أن لنفسه حقاً لابد من القيام به، ويريد أن تصل دائماً، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلى العرف إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقاً، بأن كنا في أمة تشتتت وتقطعت عرى صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية، فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول لابد من صلة فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة وليست صلة لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله إنما الواصل كما قال الرسول ﷺ: «**من إذا قطعت رحمه وصلها**»[2] هذا هو الذي يريد وجه الله، والدار الآخرة.

---

(١) انظر منظومة الشارح حفظه الله ص (٣).

(٢) أخرجه البخاري في الآدب/ باب ليس الواصل بالمكافيء ٤/ ٩٠ عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

. . . .

وهل الرحم حق لله أو للآدمي؟ الظاهر: أنها حق للآدمي وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: «**ومصدق بالسحر**»:

ساق المؤلف رحمه الله هذا الحديث في باب التنجيم؛ لأنه يرى أن المراد بالسحر هنا نوع من التنجيم، لأنه سبق «أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» [1] فحمل رحمه الله السحر على التنجيم، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم سيحدث كذا وكذا وصدق به فإنه لا يدخل الجنة؛ لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله قال تعالى: ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾ [2].

فإن قيل لماذا لا يجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟.

أجيب: أن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً فلا يلحقه هذا الوعيد إذ لا شك أن للسحر تأثيراً لكن تأثيره تخييل، مثل: ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصي كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة له وقد يسحر الساحر شخصا فيجعله يحب فلاناً ويبغض فلاناً فهو مؤثر قال تعالى: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾ [3] فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهبا فلا شك في دخوله في الوعيد لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وقوله: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة**».

---

(١) سبق ص (٣٤).

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥. (٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

. . . .

هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟ الجواب: لا لأن هناك غيرهم لا يدخلون الجنة، فهذا الحديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار؟ لأن من لا يدخل الجنة كافر؟.

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون هو كافر والمعتزلة يقولون هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار فيجرون هذا الحديث على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان فإنه لابد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان، فلابد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها بل يقال هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت، فمثلا قوله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً**﴾[1] هذه الآية من نصوص الوعيد فنؤمن بها ولا نتعرض لمعناها، ومعارضتها للنصوص الأخرى ونقول هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

. . . .

القول الرابع: أن هذا نفى مطلق، والنفي المطلق يحمل على المقيد، فيقال لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعني لا يسبقه عذاب ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يصدق بعضها بعضاً، ويلائم بعضها بعضاً، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة، فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال أن من كانت هذه حاله حري أن يختم له بسوء الخاتمة فيموت كافراً فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه وحينئذ لا يبقى في المسألة إشكال؛ لأن من مات على الكفر فلن يدخل الجنة وهو مخلد في النار وربما يؤيده قوله ﷺ: «**لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»(١) فيكون هذا قولاً خامساً.

الشاهد من هذا الحديث:

قوله: «**ومصدق بالسحر**» لأننا إن فسرنا السحر بعلم النجوم فالأمر ظاهر، وإن قلنا: عام فعلم النجوم داخل فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٢).

فيه مسائل :

الأولى: الحكمة في خلق النجوم. **الثانية**: الرد على من زعم غير ذلك. **الثالثة**: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. **الرابعة**: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

فيه مسائل :

الأولى: الحكمة في خلق النجوم: وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء.
- ورجوماً للشياطين.
- وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حكم أخرى لا نعلمها، إنما التنجيم الذي يستدلون به على الحوادث الأرضية هذا لا شك أنه كذب.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك:

لقول قتادة: «من تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به».

ومراد قتادة في قوله: «**غير ذلك**» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة فهو أمر محتمل.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل: سبق ذلك والصحيح جوازه[1].

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل: من صدق بشيء من التنجيم أو غيره بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه فإن عليه هذا الوعيد كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل؛ لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به وبتعلمه وبممارسته؟!

---

(١) انظر ص (١٠٨).

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

الاستسقاء: طلب السقيا، كالاستغفار طلب المغفرة، والاستعانة طلب المعونة والاستعاذة طلب العوذ، والاستهداء طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب وقد لا تدل على الطلب بل تدل على المبالغة في الفعل، مثل: استكبر أي بلغ في الكبر غايته وليس المعنى طلب الكبر والاستسقاء بالأنواء: أي أن تطلب منها أن تسقيك.

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا كأن يقول يا نوء كذا أسقنا أو أغثنا وما أشبه ذلك فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر قال تعالى: **﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾**(1) وقال تعالى: **﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾** وقال تعالى: **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾**(2) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو

---

(1) سورة المؤمنون، آية: ١١٧.

(2) سورة يونس، الآية: ١٠٦.

يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً، والله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سببا لم يجعله الله سببا لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركا أصغر.

قوله: «**وتجعلون**»: أي تصيرون وهي تنصب مفعولين الأول (رزق)، والثاني: (أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثاني والتقدير وتجعلون رزقكم كونكم تكذبون.

والمراد بالرزق هنا: ما هو أعم من المطر أي شكره. أي: تجعلون هذا الرزق الذي يستوجب الشكر «أنكم تكذبون» أي تجعلون رزقكم كونكم تكذبون.

قوله: «**رزقكم**»: الرزق هو العطاء وما المراد به هنا؟

يحتمل شيئين:

الأول: سياق الآية يدل على أن المراد به رزق العلم، لأن الله قال: **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾**[2] أي تخافونهم فتداهنونهم وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من الحديث من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر وقد روي في ذلك حديث عن النبي ﷺ

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ ـ ٨٣.

. . . .

لكنه ضعيف[1] إلا أنه صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء[2] وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً.

والقاعدة: في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد، لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر من ينعم عليها، فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك سواء قلنا المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب.

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، فالعاصي حقيقة حاله أنه مكذب لما رتب الله على هذه المعصية من العقوبة ولهذا وعظ عمر بن عبد العزيز الناس يوماً فقال: «**أيها الناس إن كنتم مصدقين فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين فأنتم**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/٨٩، ١٠٨، والترمذي في التفسير/ ومن سورة الواقعة ٩/٣٥: وقال: «حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث إسرائيل، وروى سفيان عن عبدالأعلى هذا الحديث بهذا الإسناد ولم يرفعه».
وأخرجه أيضاً ابن جرير ٢٧/٦٦٢، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/٣٠٠ وأورده في الدر المنثور ٦/١٦٣ وعزاه لابن منيع، وابن المنذر، وابن مردويه وغيرهم، عن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) يأتي ص (١٢٧).

وعن أبي مالـك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة»**.

هلكى» وهذا صحيح فالذي يصدق ولا يعمل أحمق، والمكذب هالك فكل إنسان عاص نقول له الآن: أنت بين أمرين إما أنك مصدق بما رتب على هذه المعصية أو مكذب، فإن كنت مصدقاً فأنت أحمق كيف لا تعمل ولا تخاف، وإن كنت غير مصدق فالبلاء أكبر فأنت هالك كافر.

قوله: **«أربع في أمتي»**:

الفـائـدة من قولـه «أربع» ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنـما يقـول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم ويثبت الحفظ.

قوله: **«من أمر الجاهلية»**: أمر هنا بمعنى شأن أي من شأن الجاهلية، وهو واحد الأمور وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: **«من أمر الجاهلية»**: إضافتها إلى الجاهلية لا شك أن الغرض منهـا التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية فالغرض من الإضافة هنا أمران: ١ ـ التنفير. ٢ ـ وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان إذ ليست أهلا بأن يراعيها الإنسان أو يعتنى بها فالذي يعتنى بها جاهل.

والمـراد بالجـاهلية هنا: ما قبل البعثة، لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يسمون بالأميين والأمي هو

الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم كأن أمه ولدته الآن.

لكن لما بعث فيهم هذا النبي قال تعالى: **﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**[1]. فهذه منة عظيمة أنه فيهم النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١ - يتلو عليهم آيات الله.

٢ - ويزكيهم ويطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.

٣ - ويعلمهم الكتاب.

٤ - والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بين الحال من قبل قال: **﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** و**«إن»** هذه ليست نافية بل مؤكدة فهي مخففة من الثقيلة يعني وأنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة، لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم، وقد سبق لنا أمثلة كثيرة تدل على جهلهم في حقوق الله وحقوق عباد الله.

فجهلهم مشتمل للجهل في حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم ينصبون النصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يعير بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر.

قوله: **«لا يتركوهن»**:

المراد لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع بأن يكون كل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

. . . .

واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيله، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعاً إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شيء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير، لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء قد تقع وليس غرضه أن يُؤخذ بها قال ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم اليهود والنصارى**»[1] أي فاحذروا وأخبر ﷺ «**أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله**»[2] أي بلا محرم وهذا خبر عن أمر واقع وليس معناه أنه حكم بالشرع.

قوله: «**أمتي**»: أي أمة الإجابة.

قوله: «**الفخر بالأحساب**»:

الفخر: التعالى والتعاظم، والباء للسببية أي يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه.

والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف، وسؤدد كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة فيفتخر بذلك وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد

---

(١) سبق ١/٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب/ باب علامات النبوة ٢/٥٣١.

ولفظه: «حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله» وأخرج البخاري من حديث عدي بن حاتم في الموضع السابق ٢/٥٢٧: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله».

. . . .

تواضعاً للحق وللخلق والله لم يمدح من يتعاظم إذا رأى نفسه قال تعالى: ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾[1].

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية فلا يجوز لنا أن نفعله ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾[2] واعلم أن كل ما ينسب إلى الجاهلية فهو مذموم ومنهي عنه.

قوله: «**الطعن بالأنساب**»:

الطعن: العيب، لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سمي العيب طعناً.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور ـ وهو شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**»: أي نسبة المطر إلى النجوم مع اعتقاد أن الفاعل هو الله عز وجل، أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

قوله: «**والنياحة على الميت**»: هذا هو الرابع والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصداً، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النوح كنوح الحمام.

والندب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية ـ ولابد أن تكون في هذه الأمة ـ وإنما كانت من أمر الجاهلية:

* إما من الجهل الذي هو ضد العلم.

---

(١) سورة العلق، الآية: ٦، ٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

وقال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**» رواه مسلم[1].

---

* أو من الجهالة التي هي السفه وهي ضد الحكمة.

وإنما كانت كذلك لأمور هي:

١ - أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢ - أنها تسخط من قضاء الله وقدره، واعتراض عليه.

٣ - أنها تهيج أحزان غيره. وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله وهو من علمائنا الحنابلة أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿**يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نـراك من المحسنين**﴾[2] فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

٤ - أنه مع هذه المفاسد لا يرد القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة.

قوله: «**إذا لم تتب قبل موتها**»

أي: إن تابت قبل الموت تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة وأن الحسنات لا تمحوه؛ لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: «**تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**»:

أي تقام من قبرها.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز/ باب التشديد في النياحة ٢/٦٤٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٨.

والسربال: الثوب السابغ كالدرع والقطران معروف ويسمى «الزفت» وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: **«وعليها درع من جرب»**:

الجـرب: مرض معـروف يكـون في الجلد يؤرق الإنسـان وربما يقتل الحيوان. والمعنى أن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به فكيف ومعه قطران؟

والحكمة أنها لما لم تغط المصيبة بالصبر غطيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب فكانت العقوبة من جنس العمل.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ ثبوت رسالته ﷺ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع.

٢ ـ التنفير من هذه الأشياء الأربعة الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣ ـ أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليه في الآخرة وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة فهو من الكبائر.

٤ ـ أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح لقوله: **«إذا لم تتب»**.

٥ ـ أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت لقوله: **«إذا لم تتب قبل موتها»** ولقوله تعالى: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾**[1].

٦ ـ أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، ومن أهل العلم من قال إنه داخل تحت المشيئة، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة وأنه لابد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٨.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل

أن يعاقب وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾[1] فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر[2] وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك قال ابن مسعود رضي الله عنه «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً»[3].

لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذبا من كبائر الذنوب وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧ ـ ثبوت الجزاء والبعث.

٨ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

قوله: **«صلى لنا»**:

أي إماماً، لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم وعليه إذا دعا بدعاء يخص به نفسه إذا كان مما يؤمن عليه كدعاء القنوت فلا يجوز كأن يقول: «اللهم اهدني فيمن هديت» وهم يقولون آمين لأنه يصلي لهم، وقيل إن اللام بمعنى الباء وهذا قريب وقيل: إن اللام للتعليل. أي صلى لأجلنا.

قوله: **«صلاة الصبح بالحديبية»**

أي صلاة الفجر والحديبية: فيها لغتان التخفيف وهو أكثر، والتشديد وهي اسم بئر سمي بها المكان. وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديبية،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة) ص (١٤٦) وانظر أيضاً جامع الرسائل ٢/٢٥٤.

(٣) أخرجه عبدالرزاق ٨/٤٦٩، والطبراني في الكبير (٨٩٠٢) قال المنذري في الترغيب ٣/٦٠٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/١٧٧: «ورواته رواة الصحيح».

على النـاس فقـال: هل تدرون ماذا قال ربكـم؟

والأكثر على أنها اسم بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الحل وبعضه في الحـرم، نزل به الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمراً فصـده المشركـون عن البيت ومـا كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ويسمى الآن الشميسي.

قوله: «**على إثر سماء كانت من الليل**».

الإثر معناه العقب، والأثر ما ينتج عن السير.

قوله: «**سماء**»: المراد المطر، وهو على رأي المجازيين مجاز مرسل علاقته المحلية فعبر بالمحل عن الحال.

قوله: «**كانت من الليل**»:

«من» لابتـداء الغاية هذا هو الظاهر ـ والله أعلم ـ ويحتمل أن تكون بمعنى في للظرفية.

قوله: «**فلما انصرف**»:

أي من صلاته، وليس من مكانه بدليل قوله: «أقبل على الناس».

قوله: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»:

الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «**هل تدرون**»: أي هل تعلمون.

والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة كما أن عبودية المؤمن له خاصة ولكن الخاصة لا تنافي العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا والخاصة تختص بهذا المؤمن.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا**

قوله: «**قالوا الله ورسوله أعلم**»:

فيه إشكال نحوي لأن «أعلم» خبر عن اثنين وهي مفرد فيقال: إن اسم التفضيل إذا نوى به معنى «من» وكان مجرداً من أل والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكير.

وفيه أيضاً إشكال معنوي وهو أنه جمع بين الله ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: «ما شاء الله وشئت قال أجعلتني لله ندا»[1].

فيقال: إن هذا أمر شرعي وقد نزل على الرسول ﷺ.

وأما إنكاره على من قال: ما شاء الله وشئت، فلأنه أمر كوني والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.

قوله: «**أعلم**»: أي أننا لا نعلم.

قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»:

«مؤمن» صفة لموصوف محذوف أي عبد مؤمن، وعبد كافر.

---

(١) أخرجه أحمد ١/٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٢٤٧، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ٥/٢٦٩، وابن ماجة بنحوه في الكفارات/ باب النهي أن يقال ماشاء الله وشئت ١/٧٦٨٤ وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٧٢)، والطحاوي في المشكل ١/٩٠، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥، ١٣٠٠٦) وأبو نعيم في الحلية ٤/٩٩، والبيهقي ٣/٢١٧. وقال البوصيري في الزوائد: «في إسناده الأجلح بن عبدالله مختلف فيه، ضعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان والعجلي، وباقي الإسناد ثقات».

وقال الشيخ سليمان في التيسير ١/١٢٠: «فقد ثبت أن النبي، ﷺ، لما قال له رجل...» الحديث.

بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[1].

وأصبح: من أخوات كان واسمها «مؤمن»، وخبرها «عبادي» أي أصبح عبد كائن من عبادي.

ويجوز أن يكون «أصبح» فعل ماض ناقص واسمها ضمير الشأن أي أصبح الشأن، فعبادي خبر مقدم، و«مؤمن» مبتدأ مؤخر أي أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر.

قوله: **«فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته»**:

أي قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل العطاء والزيادة.

والرحمة صفة من صفات الله، يكون بها الأنعام والإحسان إلى الخلق.

وقوله: **«مؤمن بي وكافر بالكوكب»**:

لأنه نسب المطر إلى الله ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير تأثيراً في نزوله، بل نزل بفضل الله.

قوله: **«وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»** الباء للسببية، وكافر بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً فتعلقت نفسه بهذا السبب ونسي نعمة الله، وهذا الكفر لا يخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل.

وقال: «مطرنا بنوء كذا» ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا؛ لأنه لو قال كذلك لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطرنا: به وعلى هذا فالباء في قوله بنوء كذا للسببية.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

. . . .

فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله الله ، لكن النوء هو السبب فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة .

والمراد بالكوكب النجم وكانوا ينسبون المطر إليه ويقولون إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت وإنما نسبة سبب. فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢ ـ نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣ ـ نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله مطرنا بنوء كذا أي جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته .

ولهذا قال العلماء : يحرم أن يقول مطرنا بنوء كذا ويجوز مطرنا في نوء كذا ، وفرقوا بينهما أن الباء للسببية وفي للظرفية ومن ثم قال أهل العلم : إنه إذا قال مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى لكن لا وجه له من حيث اللفظ، لأن لفظ الحديث من قال : مطرنا بنوء كذا ، والباء للسببية أظهر منها للظرفية وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى : ﴿**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل**﴾[1] لكن كونها للسببية ، أظهر والعكس بالعكس فـ (في) للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية كما في قوله ﷺ : «**دخلت امرأة النار في هرة**». والحاصل : أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية ، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتي سببية فهذا جائز، ومع ذلك فالأولى أن يقال لهم قولوا : في نوء كذا .

---

(١) سورة الصافات، الآية : ١٣٧ ، ١٣٨ .

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه وفيه: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا فأنزل الله هذه الآيات[1]: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ....

قوله: «ولهما»:

الظاهر: أنه سبق قلم، وإلا فالحديث في مسلم وليس في الصحيحين[2].

ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو أنزل بسببه.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت ـ «وقل أن يخلف نوؤه» أو «هذا نوؤه صادق». وهذا لا يجوز وهو الذي أنكره الله عز وجل على عباده، وهذا شرك أصغر ولو قال بإذن الله فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله.

قوله: «فلا أقسم بمواقع النجوم»:

اختلف في «لا» فقيل: نافية والمنفي محذوف، والتقدير: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.

فأقسِمُ لا علاقة لها بـ «لا» إطلاقاً وهذا له بعض الوجه. وقيل: إن المنفي القسم فهي داخلة على أقسم أي لا أقسم ولن أقسم على أن القرآن قرآن كريم؛ لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم وهذا ضعيف جداً.

وقيل: إن «لا» للتنبيه، والجملة بعدها مثبتة لأن «لا» بمعنى انتبه أقسم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب بيان كفر من قال مطر بالنوء ١/٨٤.

(٢) وأشار إليه الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (٤٦١).

. . . .

بمواقع النجوم. . . وهذا هو الصحيح.

فإن قيل ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به، فلا فائدة منه قال تعالى: ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك**﴾[1] أجيب أن الفائدة من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد قال تعالى عن إبراهيم: ﴿**رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾[2].

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكأنه يقيم في هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويها له بها وتنبيهاً على عظمها.

وقوله: «**فلا أقسم بمواقع النجوم**»:

الله سبحانه يتحدث عن نفسه بضمير المفرد لأنه يدل على الأنفراد فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل على العظمة ولا يدل على التعدد إلا بالقرائن ولا يتحدث عن نفسه بالمثنى لأن المثنى محصور باثنين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

والباء حرف قسم والمواقع جمع موقع .

واختلف في النجوم : فقيل : إنها النجوم المعروفة ، فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها .

وأقسم الله بها لما فيهـا من الـدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع ، وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب ، فإن السماء عند نزول الوحي ملئت حرساً شديداً وشهباً .

وقيل : إن المراد آجال نزول القرآن ومنه قولهم : «نزل القرآن منجما» وقول الفقهاء : يجب أن يكون دين المكاتب مؤجلا بنجمين فأكثر، فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة وهي أنه : إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما وإلا طلب المرجح .

قوله : **«وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»** : «قسم» خبر إن وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويها بالمقسم عليه وتعظيمه .

وقوله : **«لو تعلمون»** مؤكد ثالث كأنه قال ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه فهو أعظم من أن يكون بسيطا ، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه ، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته فانتبهوا .

قوله : **«لقرآن»** : مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل ، وبمعنى اسم المفعول فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع قال تعالى : **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصـدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾**[1] وعلى الثاني يكون بمعنى

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٤٨ .

. . . .

المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

قولـه: «**كريم**»: يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير. ويطلق على الشيء البهي الحسن، ومنه قول النبي ﷺ: «**إياك وكرائم أمـوالهم**»(١) أي البهي منهـا والحسن وهـذا كمال في الذات، وهذان المعنيان موجودان في القرآن فالقرآن لا أحسن منه بذاته قال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾(٢).

والقرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية قال تعـالى: ﴿**فـلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا**﴾(٣) فهو سلاح لمن تمسك به ولكن يحتاج إلى أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة، فلا بد أن يصدق العقيدة العملُ قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(٤) ووصف الله القرآن في آية أخرى بأنه مجيد والمجد صفة العظمة والعزة والقوة والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله: «**في كتاب مكنون**»:

كتـاب فعال بمعنى مفعول مثل فراش بمعنى مفروش، ومثل غراس بمعنى مغروس، وكتاب معنى مكتوب.

والمكنون: المحفوظ قال تعالى: ﴿**كأنهن بيض مكنون**﴾(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١/١٢٦ فتح، ومسلم في المساقاة ٣/١٢١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه ١/٣٤، ومسلم في المساقاة/ باب أخذ الحلال ٣/٢١٩ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٤٩.

. . . .

واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

الثاني: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة[1] قال تعالى: ﴿**كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة...**﴾[2] فقوله: «بأيدي سفرة» يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة لأن قوله: ﴿**لا يمسه إلا المطهرون**﴾ أي الملائكة يوازن قوله: «بأيدي سفرة». وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

قوله: «**لا يمسه إلا المطهرون**»:

الضمير يعود إلى الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شيء وهو بالرفع «لا يمسه» باتفاق القراء وإنما نبهنا على ذلك لدفع قول من يقول إنه خبر بمعنى النهي، والضمير يعود على القرآن أي نهي أن يمس القرآن إلا طاهر والآية ليس فيها ما يدل على ذلك بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقى على ظاهره خبراً لا أمراً ولا نهياً حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون ولهذا قال الله: ﴿**إلا المطهرون**﴾ باسم المفعول ولم يقل: «إلا المطهِرون» ولو كان المراد المطَّهرون لقال ذلك، أو قال إلا المتطهرون كما قال تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾.

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى وهم الملائكة طهروا من الذنوب وأدناسها قال تعالى: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم**﴾[3].

(١) انظر: إعلام الموقعين ١/٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١١ ـ ١٥.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

تنزيل من رب العالمين أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[1].

قال تعالى: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾[2] وقال تعالى: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[3] وفرق بين المطهِر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهَر الذي كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد به الكتب التي في أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهماً عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين فكذلك معاني القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية أن المعاصي سبب لعدم فهم القرآن كما قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[4] وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إذا تتلى عليه آيـٰتنا قال أساطير الأولين﴾[5] فهم لايصلون إلى معانيها وأسرارها؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استفتى أن يقدم بين يدي الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق واستنبطه من قوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً﴾[6].

قوله: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٨١ ـ ٨٢.
(٥) سورة القلم، الآية: ١٥.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

. . . .

خبر ثان لقـولـه: «وإنه» وهو كقوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾[1] وكقوله: ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته﴾[2]. فهو خبر مكرر مع قوله: القرآن.

وتنزيل أي منزل فهي مصدر بمعنى منزل من رب العالمين أنزله الله على قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾.

وقوله: ﴿من رب العالمين﴾: أي خالقهم ويستفاد من الآية ما يلي:

١ ـ أن القرآن نازل لجميع الخلق، ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.

٢ ـ أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك فهو الحكم بينهم.

٣ ـ أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تنـزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته﴾ علم أن القرآن رحمة للعبـاد أيضـا وربوبية الله مبنية على الرحمة قال تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم﴾[3] وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه فهو رحمة بهم.

٤ ـ أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٢.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٢ ـ ٣.

(٣) سورة الفاتحة، الآيتان: ٢ ـ ٣.

. . . .

قلنا: لا لكن كل منزل يكون وصفاً مضافاً إلى الله، فهو غير مخلوق كالكلام وإلا فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾[1] وهو مخلوق وقال تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[2] والأنعام مخلوقة، فإذا كان المنزل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها لزم أن يكون غير مخلوق لأنه من صفات الله.

قوله: «أفبهذا الحديث أنتم مدهنون»:

الاستفهام للإنكار والتوبيخ والحديث: القرآن.

والمدهن: الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله، والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به قال تعالى: ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾[3].

قوله: «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون»

أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف، أي: أتجعلون شكر رزقكم أي: ما أعطاكم الله من أي شيء من المطر ومن إنزال القرآن أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر فإنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس في الآية حذف، والمعنى تجعلون شكركم تكذيبا، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، وإن شكـر في ثانية فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبدا قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها**﴾[1].

قوله: «**أنكم تكذبون**»:

«أن» ومـا دخلت عليه في تأويل مصـدر مفعـول تجعلون الثاني، أي تصيرون شكركم تكذيبا، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت وحياً كذب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاء تنمو به الأجسام نسبه إلى غير الله قال هذا من النوء أو هذا من عملي كما قال قارون: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الواقعة. **الثانية**: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية. **الثالثة**: ذكر الكفر في بعضها. **الرابعة**: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة. **الخامسة**: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الواقعة: وهي قوله تعالى: **﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾** وقد مر تفسيرها.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية: وهي الطعن بالأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها: وهي الاستسقاء بالأنواء.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة:

وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر، وبعضه ليس بكفر، وقد سبق بيان ذلك.

الخامسة: قوله: **«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»** بسبب نزول النعمة:

أي: أن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً. مثال ذلك: رجل غرق في ماء وكان عنده رجل قوي فنزل وأنقذه، فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمراً قدرياً وأمراً شرعياً أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق ويسر الله له فخرج فقال: إن الولي الفلاني أنقذني فهذا

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع. **السابعة**: التفطن للكفر في هذا الموضع. **الثامنة**: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا». **التاسعة**: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم». **العاشرة**: وعيد النائحة.

شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع:

وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع:

وهو نسبة المطر إلى النوء فيقال: هذا بسبب النوء الفلاني، وماأشبه ذلك.

الثامنة: التفطن لقوله: «**لقد صدق نوء كذا وكذا**»:

وهذا قريب من قوله: «مطرنا بنوء كذا»؛ لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «**أتدرون ماذا قال ربكم**»:

وذلك أن يلقى العالم على المتعلم السؤال لأجل أن ينتبه له وإلا فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله؟ لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

العاشرة: وعيد النائحة:

وذلك بقوله: «**إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**» وهذا وعيد عظيم.

باب قول الله تعالى

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾(١).

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا. . . .﴾

جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة باب المحبة(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/٩٥: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة. . . والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه/ وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنها لا تصح له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب؟

قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه. . . فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، ومافيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلابد أن يثير عنده باعثاً.

=

. . . .

وأصل الأعمال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب إما لجلب منفعة أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئاً فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشراً لا روح فيها، فإذا كان الإنسان في قلبه محبة لله وللوصول إلى جنته فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك.

ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة: وهي التذلل والتعظيم وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة فهو مشرك شركا أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله من أشخاص كالأنبياء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن أعمال: كالصلاة والزكاة وأعمال الخير، وما أشبه ذلك. ومن أزمان كرمضان وأيام العشر وغيرها، ومن أمكنة كالمساجد والكعبة وجبل أحد وغيرها.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله.

= وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب، ونحوه. وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو».

. . . .

النـوع الثـاني: محبـة إشفـاق ورحمـة، وذلـك كمحبـة الولد والصغار والضعفاء والمرضى.

النـوع الثـالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة كمحبة الإنسان لوالده ولمعلمه ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام والشراب والملبس والمركب والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول والبقية من قسم المباح، إلا إذا اقترن بها ما يقتضى التعبد صارت عبادة، فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة[1].

---

(١) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٩٥ - ٩٧):

«أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه. . . . ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض مايبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله، فيقدم طاعتهم على طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله: وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة مايحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله، وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك، وهي أصل الشرك وأساسه. =

. . . .

وكذلك المحبة الطبيعية كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة ولهذا «حبب للنبي ﷺ النساء والطيب»[1] من هذه الدنيا فحبب إليه النساء لأن ذلك مقتضى الطبيعة ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحبب إليه الطيب لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر ولأن الطيبات للطيبين والله طيب لا يقبل إلا طيبا.

فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة قال النبي ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى»**[2] وقال العلماء: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وقالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد وهذا أمر متفق عليه.

قوله: **«ومن الناس»**: «من» تبعيضية وهي خبر مقدم «ومن يتخذ» مبتدأ مؤخر.

قوله: **«أنداداً»**: جمع ند وهو الشبيه والنظير.

قوله: **«يحبونهم كحب الله»**: أي في كيفيته ونوعه.

وفي الكيفية أي القوة والشدة حتى إن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر

= وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع مايلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة فإن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى مالايحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات».

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥، والنسائي في عشرة النساء/ باب حب النساء ٦١/٧. وفي تعليق الألباني في المشكاة ١٤٤٨/٣: «إسناده حسن».

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي ١٣/١، ومسلم في الإمارة/ باب قوله، ﷺ: إنما الأعمال بالنيات ١٥١٥/٣.

. . . .

مما يعظم الله ويغار لله، فلو قيل احلف بالله لحلف وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل: احلف بالند لم يحلف وهو كاذب، وهذا شرك أكبر.

وقوله: «**كحب الله**»: للمفسرين فيها قولان:

الأول: أنها على ظاهرها، وأنها مضافة إلى مفعولها أي يحبونهم كحبهم لله، والمعنى يحبون هذه ا لأنداد كمحبة الله فيجعلونها شركاء لله في المحبة، لكن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله، وهذا هو الصواب.

الثاني: أن المعنى كحب الله الصادر من المؤمنين.

أي كحب المؤمنين لله، فيحبون هذه الأنداد كما يحب المؤمنون الله عز وجل. وهذا وإن احتمله اللفظ لكن السياق يأباه، لأنه لو كان المعنى ذلك لكان مناقضاً لقوله تعالى ـ فيما بعد ـ: ﴿**والذين آمنوا أشد حبًّا لله**﴾.

وكانت محبة المؤمنين لله أشد؛ لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك فمحبة المؤمنين أشد من حب هؤلاء لله.

فإن قيل: قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد نظراً لقوله: ﴿**أشد حبًّا لله**﴾ فما الجواب؟

أجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئين وأحدهما خال منه تماماً، ومنه قوله تعالى: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا وأحسن مقيلا**﴾[1] مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالى: ﴿**آلله خير أما يشركون**﴾[2] والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة ولكنها من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٩.

وقوله: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره»(1).

مناسبة الآية لباب المحبة:

منع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة وهذا يوجد في بعض العباد وبعض الخدم، فبعض العباد يعظمون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله قال تعالى: **﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾**(2).

قوله: **«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم»**:

«آباؤكم» اسم كان، وباقي الآية مرفوع معطوف عليه وخبر كان «أحب إليكم من الله ورسوله» والخطاب في قوله: **«قل»** للرسول ﷺ والمخاطب في قوله: **«آباؤكم»** الأمة.

والأمر في قوله: **«فتربصوا»**: يراد به التهديد.

أي: انتظروا عقاب الله، ولهذا قال: **«حتى يأتي الله بأمره»** بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله.

فدلت الآية على: أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العباد إذا فضلت على محبة الله صارت سببا للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده، فهو

---

(1) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(2) سورة الأحزاب، الآيات: ٦٧، ٦٨.

. . . .

يحب أباه أكثر من ربه.

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد في الجوارح، ولذا يروى عن الحسن رحمه الله أنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه» فالجوارح مرآة القلب.

فإن قيل: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها ولهذا يروى عن النبي ﷺ أنـه قال: **«اللهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»**[1] وكيف للإنسان أن يحب شيئا وهو يبغضه وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنا؟.

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس إما لسبب ظاهر أو لإرادة قاهرة، فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك فتكرهه لهذا السبب، أو بالعزيمة القوية فمثلا يحب أمراً كشرب الدخان فصار عنده عزيمة فأبغضه.

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: **«والله يا رسول الله إنك لأحب إليَّ من مالي وولدي وكل شيء إلا نفسي، فقال النبي ﷺ: ومن نفسك قال: الآن**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/١٤٤، وأبوداود في النكاح/ باب في القسم بين النساء ٢/٦٠١، والترمذي في النكاح/ باب في التسوية بين الضرائر ٤/١٠٧، والنسائي في عشرة النساء/ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٧/٦٤، وابن ماجه في النكاح/ باب القسمة بين النساء ١/٦٣٣.

والدارمي ٢/٦٧، وابن حبان وصححه (٤١٩٢) والحاكم ٢/١٨٧ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

ورجح الترمذي إرساله فقال: «رواية حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة مرسلا أصح».

وانـظر تحفـة الأشراف ١١/٤٧١ رقم (١٦٢٩٠)، وجـامـع الأصول ١١/٥١٤، ونيل الأوطار ٦/٣٧٢.

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه[1].

والله إنك أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي»[2] فقد تغيرت محبة عمر رضي الله عنه.

وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير وينتقل.

وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرهه ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب فتعود محبته.

قوله: **«لا يؤمن»**:

هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود «أي نفي الأصل».

والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقاً، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.

قوله: **«من ولده»**: يشمل الذكر والأنثى وبدأ بمحبة الولد؛ لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بمحبة أبيه.

قوله: **«ووالده»**: يشمل أباه وجده وإن علا وأمه وجدته وإن علت.

قوله: **«والناس أجمعين»**: يشمل أخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه ونفسه؛ لأنه من الناس فلا يتم الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب حب الرسول، ﷺ، من الإيمان ١/ ٢٢، ومسلم في الإيمان/ باب وجوب محبة رسول الله، ﷺ، أكثر من الأهل ١/ ٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب كيف كانت يمين النبي، ﷺ، ٤/ ٢١٦ من حديث عمر رضي الله عنه.

. . . .

وحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك.

الخامس: لصبره على الأذى في تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١ - وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة النفس.

٢ - فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.

٣ - أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾(١) أي مبغضك قالوا وكذلك من أبغض شريعته ﷺ فهو مقطوع لا خير فيه.

٤ - جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم لقوله ﷺ: «**أحب إليه من ولده ووالده. . .**» فأثبت أصل المحبة وهذا أمرٌ طبيعي لا ينكره أحد.

٥ - وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس؛ لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدماً على كل أحد حتى على نفسك، فمثلاً أنت تقول شيئا وتهواه وتفعله فيأتي إليك رجل ويقول لك هذا

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٣.

. . . .

يخالف قول الرسول ﷺ. فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك وترد على نفسك بقول الرسول ﷺ، ولهذا قال بعضهم:

تعصي الإلـه وأنت تزعم حبـه — هذا لعمـري في القياس بديع
لو كان حبـك صادقـا لأطعته — إن المـحـب لمن يحب مطيع[1]

إذاً يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة من باب أولى، ومن بعدهم قال الله تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾**[2].

---

(١) قال شيخ الإسلام في جامع الرسائل ٢/٢٥٨: «والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب، «حديث حمار الذي كان يشرب الخمر، وكان النبي، ﷺ، يقيم عليه الحد، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل، فقال النبي، ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**. . » فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات، وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات، والمعاصي تنقص المحبة، وهذا معنى قول الشبلي لما سئل عن المحبة؟ فقال ماغنت به جارية فلان:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه. . . . . إلخ البيتين»

وقال في ص (٢٨٤): «والعبادة تجمع كمال المحبة، وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم، فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كان محبوب لغير الله ومعظم لغير الله ففيه شوب من العبادة كما قال النبي، ﷺ، في الحديث الصحيح: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار**. . . »».

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

. . . .

لكن إذا وجدنا حديثا يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفاً لقول أهل العلم وجمهور الأمة فالواجب التثبت والتأني في الأمر؛ لأن اتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ.

ولهذا إذا رأيت حديثا يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي ـ كالجبال ـ في رسوها فلا ترده، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع في سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين فإنه لا بأس أن يخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة ويمكن أيضا أن يكون الحديث الضعيف مخالفاً لقول جمهور الأمة لكن المهم التثبت في الأمر وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التي ذكرت أخيراً، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله لكانت منقولة باقية معلومة مثلما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد فإنه يعود محرما فإن هذا الحديث[1] وإن كان ظاهر سنده الصحة لكنه ضعيف وشاذ ولهذا لم يذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا فالأمة على خلافه فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولا نقول إنها لا يمكن أن تكون صحيحة.

---

(١) اخرجه أبو داود/ باب الإفاضة في الحج ٣/٥٠٨، وقال المنذري في مختصر السنن ٢/٤٢٨: «في إسناده محمد بن إسحاق، وقد تقدم الكلام عليه»، وانظر تهذيب السنن لابن القيم ٢/٤٢٧.

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[1].

مناسبة هذا الحديث للباب:

مناسبة هذا الحديث ظاهره إذ محبة الرسول ﷺ من محبة الله.

قوله: **«ثلاث من كن فيه»**:

أي ثلاث خصال وكن بمعنى وجدن فيه.

وإعراب «ثلاث» مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد ....[2]

وقوله: **«من كن فيه»**: «من» شرطية و«كن» أصلها كان فتكون فعلا ماضياً ناسخاً والنون اسمها و«فيه» خبرها.

قوله: «وجدبهن»: وجد فعل ماض، في محل جزم جواب الشرط، والجملة من فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: **«وجدبهن حلاوة الإيمان»**:

الباء للسببية، وحلاوة مفعول وجد، وحلاوة الإيمان: ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليست مدركة باللعاب والفم فالمقصود بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب حلاوة الإيمان ١/٢٢، ومسلم في الإيمان/ باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ١/٦٦.

(٢) ألفية ابن مالك ص (١٦).

الخصلة الأولى من الخصال الواردة في الحديث :

قوله : «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» :

الرسول محمد ﷺ وكذا جميع الرسل يجب محبتهم .

قوله : «**أحبَّ إليه**» :

أي أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولد ووالده وزوجه .

فإن قيل لماذا جاء الحديث بالواو «الله ورسوله» وجاء الخبر لهما جميعا «أحب إليه مما سواهما»؟

فالجواب : لأن محبة الرسول ﷺ من محبة الله ، ولهذا جُعل قوله : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ركناً واحداً ؛ لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبي ﷺ .

الخصلة الثانية :

قوله : «**وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**» :

قوله : «**وأن يحب المرء**» : المراد به الرجل ، ويشمل الرجل والمرأة .

قوله : «**لا يحبه إلا لله**» : اللام للتعليل أي : من أجل الله ؛ لأنه قائم بطاعة الله عز وجل .

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة : يحبه للدنيا ، ويحبه للقرابة ، ويحبه للزمالة ، ويحب المرء زوجته للشهوة منها وغيرها ، ويحب من أحسن إليه ، لكن إذا أحببت هذا المرء لله فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان .

الخصلة الثالثة :

قوله : «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**» :

هذه الصورة في كافر أسلم فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله

وفي رواية: «**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى . . .**»[1] إلى آخره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض

منه كما يكره أن يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة لأن الكافر يألف ما كان عليه أولا فربما يرجع إليه بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً.

فمن كره العود في الكفر كما يكره القذف في النار فإن هذا من أسباب حلاوة الإيمان.

قوله: «**وفي رواية لا يجد أحد حلاوة الإيمان**».

أتى المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهـوم وهذه عن طريق المنطوق ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم.

قوله: «**من أحب في الله**».

من شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة «فإنما تنال ولاية الله بذلك».

و«في» يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية.

ويحتمل أن تكون للسببية لأن «في» تأتي أحيانا للسببية كما في قوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة**»[2] أي بسبب هرة.

وقوله: «**في الله**»: أي من أجله إذا قلنا إن في للسببية وأما إذا قلنا إنها للظرفية فالمعنى من أحب في ذات الله أي في دينه وشرعه لا لعرض الدنيا.

قوله: «**وأبغض في الله**»: البغض الكره، أي أبغض في الله أو في ذات الله إذا رأى من يعصى الله كرهه.

---

(١) أخرجها البخاري في الأدب/ باب الحب في الله ٤/ ٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة/ باب في سعة رحمة الله ٤/ ٢١١٠ مـن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في الله، ووالى في الله، وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا» رواه ابن جرير(١).

وفرق بين «في» التي للسببية و«في» التي للظرفية فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو في ذات الله عز وجل فيبغض من أبغضه الله ويحب من أحبه.

قوله: **«ووالى في الله»**:

الموالاة هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.

قوله: **«وعادى في الله»**:

المعاداة ضد الموالاة أي يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.

قوله: **«فإنما تنال ولاية الله بذلك»**: هذا جواب الشرط أي يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها؛ لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله: **«ولاية»**: يجوز في الواو وجهان الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد وقيل بالفتح بمعنى النصرة قال تعالى: **﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾**. وبالكسر بمعنى الولاية على الشيء.

قوله: **«بذلك»**: الباء للسببية والمشار إليه الحب في الله والبغض فيه والموالاة فيه والمعاداة فيه.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) عن ابن عباس موقوفاً، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٣١٢ عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، والطبراني في الكبير (١٣٥٣٧) عن ابن عمر موقوفاً.

ومداره على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف مختلط. تهذيب التهذيب ٨/ ٤٦٧، تقريب التهذيب ٢/ ١٣٨.

وهذا الأثر موقوف لكنه بمعنى المرفوع.

فمعنى الحديث أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلا عن مؤمن أن يوالي أعداء الله فيرى أعداء الله يشركون بربه ويكفرون به ويدعون به النقائص والعيوب ثم يواليهم ويحبهم فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام النهار كله فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءاً بمحبة الله وموالاته وعلى العكس من ذلك يكون مملوءاً ببغض أعداء الله ومعاداتهم وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حباً له ما ذاك في إمكان

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا رأيتُ النصراني أغمض عيني كراهة أن أرى بعيني عدو الله».

هذا الذي يجد طعم الإيمان أما ـ والعياذ بالله ـ الذي يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ فهو خارج عن الإسلام مكذب بقول الله: ﴿**ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[1] وقوله: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[2] وقوله: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[3] ولكثرة اليهود والنصارى والوثنيين صار في هذه المسألة خطر على المجتمع وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر ولايدري أن غير المسلم عدو لله عز وجل بل هو عدو له أيضاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء**﴾[4] فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١.

. . . .

والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1] .

فالآن أصبحنا في محنة، وخطر عظيم؛ لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم وأن يحبوهم ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما**»[2] وقال: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[3] وقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»[4] وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر على الناس.

قوله: «**وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا**».

قوله: «**عامة**» أي أغلبية.

وقوله: «**مؤاخاة الناس**»: أي مودتهم ومصاحبتهم.

أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس وهو بعيد العهد فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه فما بالك بالناس اليوم؟

فقدت صارت مؤاخاة الناس ـ إلا النادر ـ على أمر الدنيا بل صار أعظم من ذلك يبيعون دينهم بدنياهم قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد/ باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ٣/١٣٨٨ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) انظر تلخيص الحبير ٤/١٢٥ رقم (١٩١٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب فداء هل يستشفع إلى أهل الذمة ٢/٣٧٣، ومسلم في الوصية/ باب ترك الوصية ٣/١٢٥٧.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾[1] قال المودة[2].

ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾[3] ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾[4].

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما:

أن لله تعالى أولياء وهو ثابت بنص القرآن قال تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾[5] وقال تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا**﴾[6] فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[7].

قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمناً تقيا كان لله وليًّا»، والولاية سبق: أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والـولاية تنقسم إلى ولاية من الله للعبـد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى قولـه تعـالى: ﴿**الله ولي الـذين آمنـوا**﴾[8] ﴿**والـذين كفروا أولياؤهم**

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٢) أخرجه ابن جرير ٢/٤٣، والحاكم ٢/٢٧٢ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٧) سورة يونس، الآية: ٦٢.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

. . . .

الطاغوت﴾[1] ومن الثاني قوله تعالى: **﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا. . . ﴾**[2].

والولاية التي من الله إلى العبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: **﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾**[3].

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته وهذه خاصة بالمؤمنين قال تعالى: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾**[4] وقال: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**.

قوله: «**وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال المودة**»:

الأسباب جمع سبب، وهو: كل ما يتوصل به إلى شيء.

وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم. فكل ما يوصل إلى شيء فهو سبب قال تعالى: **﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾**[5] ومنه سمي الحبل سببا؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٥) سورة الحج، الآية: ١٥.

. . . .

وقوله: «**قال: المودة**»:

هذا الأثـر ضعيف فإن صح عنـه فإنه أخذها من قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله**﴾[1] لأن الآيتين في سياق واحد فإن الله ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**﴾[2].

فقوله: «**المودة**»: أي مودة المشركين لأصنامهم، وإلا فمودة الله تعالى لا تنقطع بالإنسان أبدا بل هي موصلة له، وكذا مودة المؤمنين بعضهم لبعض ترفعهم في درجات المتحابين في الله قال تعالى: ﴿**الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة. **الثانية**: تفسير آية براءة. **الثالثة**: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال. **الرابعة**: نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة: وهي قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾.

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . . الآية**﴾.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال، وفي نسخة «وتقديمها على النفس والأهل والمال».

ولعل الصواب وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث وأيضاً قوله: «**على النفس**» يدل على أنها قد سقطت كلمه تقديم أو تقديمها. وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . . . أحب إليكم من الله ورسوله**﴾ فذكر الأقارب والأموال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام: سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ﷺ: «والله إنك لأحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي فقال له: ومن نفسك فقال: الآن أنت أحب إليَّ من كل شيء حتى من نفسي»، وقوله: «الآن» يدل على حدوث المحبة وهذا أمر ظاهر وفيه أيضاً أن نفي الإيمان المذكور في قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده. . .**» لايدل على الخروج من الإسلام؛ لقوله في الحديث الآخر: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة**

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها. **السادسة**: أعمال القلب الأربع التي لا تنال وَلاية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

الإيمان». لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله أي أن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود وذلك مثل «لا إيمان لعابد صنم» فإن منع مانع من نفي الوجود فهو نفي للصحة مثل «لا صلاة بغير وضوء» فإن منع مانع من نفي الصحة فهو نفي للكمال مثل «لا صلاة بحضرة طعام» فقوله: «لا يؤمن أحدكم» نفي للكمال الواجب لا المستحب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا ينفى الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع».

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها: تؤخذ من قوله: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**» وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها:

وهي الحب، والبغض، والولاء، والعداء.

لا تنال ولاية الله إلا بها ولو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله لا ينال ولاية الله قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حباً له ما ذاك في إمكان

وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالي من عاداهم.

وقوله: «**ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها**» مأخوذة من قول ابن عباس: «ولن يجد عبد طعم الإيمان.... الخ».

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا. **الثامنة**: تفسير ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾. **التاسعة**: أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديداً. **العاشرة**: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا:

الصحابي يعنى به ابن عباس رضي الله عنهما وقوله: «إن عامة المؤخاة على أمر الدنيا»، هذا في زمنه فكيف بزمننا.

الثامنة: تفسير قوله: «**وتقطعتْ بهم الأسباب**»:

فسرها بالمودة وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعموماتها فإذا جاء فرد من أفراد هذا العموم فإنما يقصد به التمثيل، أي: مثل المودة. لكن حتى الأسباب الأخرى التي يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾ وهم يحبون الأصنام حباً شديداً، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾ فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة، فقد اشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه:

الثمانية هي قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها**﴾.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

والوعيد في قوله: «**فتربصوا**» فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر:

لقوله تعالى: ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾ ثم بين في سياق الآيات أنهم مشركون شركاً أكبر بدليل ماهم من العذاب.

بــــاب

قول الله تعـالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾[1].

مناسبة الباب لما قبله:

المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف لأن العبادة ترتكزعلى شيئين: المحبة، والخوف[2].

فبـالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس فلو سألت من لا يزني لماذا؟ لقال: خوفا من الله.

ولو سألت الذي يصلي لقال: طمعاً في ثواب الله ومحبة له وكل منهما ملازم للآخر فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته.

وهــل الأفضــل للإنسـان أن يغلب جانب الخـوف أو يغلب جانب الرجاء؟. اختلف في ذلك:

فقيل: ينبغي أن يغلب جانب الخـوف؛ ليحمله ذلـك على اجتنـاب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٢) قال شيخ الإسلام كما في الاختيارات ص (٨٥): «وعمل القلب: من التوكل، والخوف، والرجاء، ومايتبع ذلك، والصبر واجب بالاتفاق».

(٣) سبق ص (٨٩).

. . . .

وقيل: في فعل الطاعة يغلب الرجاء فالذي منّ عليه لفعل هذه الطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء فانتظر الإجابة؛ لأن الله يقول: **﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾** [1]. وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شيء ولكن ليس بذاك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: **﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾**[2] أي يخافون أن لا يقبل منهم، لكن يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى كقوله ﷺ في الحديث القدسى عن ربه: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني**»[3].

وقيل: في حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف.

وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً فأيها غلب هلك صاحبه[4]. أي يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط.

وخوف الله تعالى درجات فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد/ باب: ويحذركم الله نفسه ٤/٣٨٤، ومسلم في الذكر والدعاء/ باب الحث على ذكر الله ٤/٢٠٦١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قال شيخ الإسلام كما في الاختيارات ص (٨٥): «وينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيها غلب هلك صاحبه، ونص عليه الإمام أحمد؛ لأن من غلب خوفه وقع في نوع من اليأس، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله».

. . . .

يفرط، ومنهم من يعتدل في خوفه.

والخوف العدل هو الذي يرد عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله، وهذا ما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم.

ومن الناس من يفرط في خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه.

والخوف أقسام:

الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع وهو ما يسمى بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله سبحانه، فمن أشرك مع الله غيره فهو مشرك شركا أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم كما يفعله بعض عباد القبور يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله[1].

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلي، فهو إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم فهو محرم، وإن استلزم شيئاً مباحاً كان مباحاً، فمثلا من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف على ترك الصلاة مع وجوبها فهذا الخوف محرم والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان على فعل محرم فخافه، وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به فهذا خوف محرم لأنه يؤدي إلى فعل محرم بلا عذر، وإن رأى ناراً ثم هرب

---

(١) قال السعدي في القول السديد ص (٩٨): «فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه من الله».

. . . .

منها ونجا بنفسه فهذا خوف مباح، وقد يكون واجبا إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه[1] [2].

وهنـاك ما يسمى بالوهم، وليس بخوف مثل أن يرى ظل شجرة تهتز فيظن أن هذا عدو يتهدده، فهذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك بل يطارد هذه الأوهام لأنه لا حقيقة لها وإذا لم تطاردها فإنها تهلكك.

مناسبة الخوف للتوحيد: أن من أقسام الخوف ما يكون شركاً منافياً للتوحيد.

قوله: «**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**».

«**إنما ذلكم**»: صيغة حصر للمشار إليه من خوف المشركين.

«**ذلكم**»: «ذا» مبتدأ و«الشيطان» يحتمل أن يكون خبر المبتدأ، وجملة «يخوف» حال من الشيطان.

ويحتمل أن يكون «الشيطان» صفة «لذلكم» أو عطف بيان، و«يخوف» خبر المبتدأ والمعنى: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياءه.

و«يخوف» تنصب مفعولين الأول محذوف، وتقديره: يخوفكم، والمفعول الثاني «أولياءه».

ومعنى يخوفكم أي يوقع الخوف في قلوبكم منهم و«أولياءه» أي أنصاره

---

(١) القسم الثالث: أن يترك مايجب عليه من جهاد، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر لغير عذر خوفاً من بعض الناس فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا سبب نزول الآية: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾. حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص (٢٤٤).

(٢) وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة فمن أعلى مراتب الإيمان.

. . . .

الـذين ينصرون الفحشـاء والمنكـر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك فكل من نصر الفحشاء والمنكر فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر في التوحيد وما يتعلق به فيكون عظيماً وقد يكون دون ذلك.

وقوله: «**يخوف أولياءه**»: من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها حيث قالوا: ﴿**إن النـاس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾(١) وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين وهو الجهاد فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمـر بالمعـروف أو ينهى عن المنكر فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان في نفسك الخوف فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذي يدني الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه، وكم من جبان قتل، وانظر إلى خالد ابن الوليد كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، ومادام الإنسان قائماً بأمر الله فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون.

قوله: «**فلا تخافوهم**»: لا ناهية، والهاء ضمير يعود على أولياء الشيطان، وهـذا النهي للتحـريم بلاشك، أي: بل امضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد ولا تخافوا هؤلاء وإذا كان الله مع الإنسان فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتـاج في الحقيقة إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام ولهذا قال تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ وعلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه وهذا ما وقع فيه كثير من الناس وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم، وإلا لو اتكلوا على الله وخافوه قبل كل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

وقـولـه: **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾**(١).

شيء لخافهم الناس ولهذا قيل في المثل: من خاف الله خافه كل شيء، ومن اتقى الله اتقاه كل شيء، ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء».

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك فهو مناف لأصله وإلا فهو مناف لكماله.

قوله: «**إنما**» أداة حصر والمراد بالعمارة العمارة المعنوية والحسية؛ لأن الذي يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر في الحقيقة أنه لم يعمرها لعدم انتفاعه بهذه العمارة، فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام قال تعالى: **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾** وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً، لأنها موضع عبادته.

قوله: **«من آمن بالله»**:

«من» فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور وهي:

* الإيمان بوجوده.
* وربوبيته.
* وألوهيته.
* وأسمائه وصفاته.

واليوم الآخر: هو يوم القيامة وسمى بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٨.

. . . .

النبي ﷺ مما يكون بعد الممات مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه.

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى العمل، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجزاء حمله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟!

قوله: **«وأقام الصلاة»**:

أي أتى بها على وجه قويم لا نقص فيه، والإقامة نوعان: إقامة واجبة وهي التي يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهي التي يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتي بالواجب والمستحب.

قوله: **«وآتى الزكاة»**:

«آتي» تنصب مفعولين الأول هنا الزكاة. والثاني: محذوف تقديره مستحقها.

والزكاة هي: المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل.

قوله: **«ولم يخش إلا الله»**.

في هذه الآية حصر طريقه الإثبات والنفي.

«لم يخش» نفى «إلا الله» إثبات والمعنى أن خشيته انحصرت في الله عز وجل فلا يخشى غيره.

والخشية نوع من الخوف لكنها أخص منه والفرق بينهما:

. . . .

---

١ ـ أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، كقوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[١] والخوف قد يكون من الجاهل.

٢ ـ أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف.

قوله: «**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**».

قال ابن عباس: «عسى من الله واجبه»[٢]. وجاءت بصيغة الترجي لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف، وهذا كقوله تعالى: ﴿**إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً**﴾[٣] فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها فالذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا لا يعذبون.

الشاهد من الآية:

قوله: «**ولم يخش إلا الله**» ولهذا قال تعالى: ﴿**فلا تخشوا الناس واخشون**﴾[٤] ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل.

ومن أراد أن يصحح هذا المسير فليتأمل قول الرسول ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك،**

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي ٩/١٣، وأورده السيوطي في الدر المنثور ١/٥٨٧، وفي الإتقان ص (٢١٤).
وإسناده صحيح. انظر صحيفة علي بن أبي طالب ص (٧٢ ـ ٧٣).

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

وقوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ـ الآية﴾[1].

ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[2].

قوله: «ومن الناس» جار ومجرور خبر مقدم و«من» تبعيضية.

وقوله: «من يقول»: من مبتدأ مؤخر.

والمراد بهؤلاء من لا يصل الإيمان إلى قرارة قلبه فيقول آمنا بالله لكنه إيمان مستطرف كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾[3] على حرف: أي على طرف.

فإذا امتحنه الله بما يُقدرُ عليه من إيذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

قوله: «فإذا أوذي في الله».

«في» للسببية أي بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه.

ويجوز أن تكون «في» للظرفية على تقدير «فإذا أوذى في شرع الله» أي إيذاء في هذا الشرع الذي تمسك به.

قوله: «جعل فتنة الناس»:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١/٢٩٣، ٣٠٧، والترمذي في صفة القيامة/ باب ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ٨/٢٠٣ وقال: «حسن صحيح» وأخرجه أيضاً عبد بن حميد (٦٣٥)، والطبراني في الكبير (١٢٩٨٨)، (١٢٩٨٩)، (١١٢٤٣)، (١١٤١٦)، (١١٥٦٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/٣١٤، وأخبار أصفهان ٢/٢٠٤.

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (١٦١): «وبكل حال فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة» وانظر المشكاة ٣/١٤٥٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ١١.

. . . .

جعل: صير والمراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسمى فتنة؛ لأن الإنسان يفتتن به فَيُصد عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا**﴾[1]. وأضاف الفتنة إلى الناس من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

قوله: «**كعذاب الله**».

معلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله بموافقة أمره، فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلا لهذه الفتنة كالعذاب، فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله ففر منه بموافقة أمرهم فالآية موافقة للترجمة.

وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه وذلك على قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة**﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿**وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾[3].

الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحاناً واختباراً، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر فيكفر ويرتد أحياناً ـ والعياذ بالله ـ وأحياناً يكفر بما خالف فيه أمر الله عز وجل في موقفه في تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصاً عظيماً، فليكن المسلم على

(١) سورة البروج، الآية: ١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٥ ـ ١٥٦.

. . . .

حذر فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان قال تعالى: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم**﴾[1].

قوله: «**الآية**»: أي إلى آخر الآية وهي قوله تعالى: ﴿**ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**﴾.

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها.

وقوله: «**أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**»:

قيل في مثل هذا السياق أن الواو عاطفة على محذوف يقدر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها، أي: وأليس الله.

وقوله: «**أعلم**» مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

فالله أعلم بما في صدور ا لعالمين أي بما في صدور الجميع فالله أعلم بما في نفسك منك وأعلم بما في نفس غيرك لأن علم الله عام.

وكلمة: «**أعلم**» اسم تفضيل. وقال بعض المفسرين ولا سيما المتأخرون منهم: «أعلم» بمعنى عالم وذلك فراراً من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ ففيه فساد المعنى؛ لأنك إذا قلت: أعلم بمعنى عالم فإن كلمة عالم تكون للإنسان وتكون لله، ولا تدل على التفاضل فالله عالم والإنسان عالم.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣١.

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره»[1].

وأما تحريف اللفظ فهو ظاهر حيث حرفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك.

والصواب أن «أعلم» على بابها وأنها اسم تفضيل وإذا كانت اسم تفضيل فهي دالة دلالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق.

وقوله: «**بما في صدور العالمين**»:

المراد بالعالمين كل من سوى الله؛ لأنهم علم على خالقهم، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته.

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك لعموم الآية.

وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه ولهذا لما تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: «إني قد أوتيت جدلاً ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا لخرجت منهم بعذر لكن لا أقول شيئا تعذرني فيه فيفضحني الله فيه»[2].

الشاهد من الآية:

قوله: فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

قوله: «**إن من ضعف اليقين**»:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/١٠٦، ١٠/٤١، والبيهقي في شعب الإيمان ١/١٥١، ١٥٢ وقال: «محمد بن مروان ضعيفة.

وقال الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (٤٩٠): «قلت: ضعيف، ومعناه صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي/ باب حديث كعب بن مالك ٣/١٧٦، ومسلم في التوبة/ باب حديث توبة كعب ٤/٢١٢٠.

. . . .

«من» للتبعيض والضعف ضد القوة ويقال: ضَعفٌ أو ضُعف وكلاهما بمعنى واحد.

قوله: **«أن ترضي الناس بسخط الله»**:

أن ترضي: اسم إن مؤخر، وخبرها مقدم «من ضعف اليقين» والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين(١).

قوله: **«بسخط الله»** الباء للعوض يعني أي تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله فتستبدل هذا بهذا، فهذا من ضعف اليقين.

واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم كما تقول تيقنت هذا الشيء أي علمته يقينا لا يعتريه الشك، فمن ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم فتجد الإنسان يجيء إلى شخص فيمدحه وقد يكون خالياً من هذا المدح ولا يبين ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافاها ويحترز منها ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعاً إذا أمن في ذلك من الغرور.

قوله: **«وأن تحمدهم على رزق الله»**:

---

(١) قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى ١/٥١: «فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وماوعد أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى مافي أيديهم من الدنيا فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين».

. . . .

الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنه يشمل المدح.

و«**رزق الله**» عطاء الله أي إذا أعطوك شيئا حمدتهم ونسيت المسبب وهو الله، والمعنى أن تجعل الحمد كله لهم متناسياً بذلك المسبب وهو الله فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطي هو الله فالقدرة والإرادة على العطاء كلها من الله.

أما إن كان في قلبك أن الله هو الذي منّ عليك بسياق هذا الرزق ثم شكرت الذي أعطاك، فليس هذا داخلاً في الحديث بل هو من الشرع لقوله ﷺ: «**من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»[1].

إذن الحديث ليس على ظاهره من كل وجه، فالمراد بالحمد أن تحمدهم الحمد المطلق ناسياً المسبب وهو الله عز وجل، وهذا من ضعف اليقين كأنك نسيت المنعم الأصلي وهو الله عز وجل الذي له النعمة الأولى وهو سفه أيضاً؛ لأن حقيقة الأمر أن الذي أعطاك هو الله فالبشر الذي أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذي خلق ما بيده وهو الذي عطف قلبه حتى أعطاك أرأيت لو أن إنساناً معه طفل فأعطى طفله ألف درهم وقال له أعطها فلانا فالذي أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لعد هذا سفها؛ لأن

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٦٨، ٩٩، ١٢٧، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦)، وأبو داود في الزكاة/ باب عطية من سأل الله بالله ٢/٣١٠، والنسائي في الزكاة/ باب من سأل بالله ٥/٨٢، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥)، (١٣٤٦٦)، وابن حبان (٢٠٧١)، والحاكم ١/٤١٢ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية ٩/٥٦، والبيهقي ٤/١٩٩.
والحديث صححه الحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربانية ٥/٢٥٠، وحسنه السخاوي في الفتوحات ٧/١٢١.

. . . .

الطفل ليس إلا مرسلاً فقط وعلى هذا فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسياً بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله عز وجل فهو حق وصحيح.

قوله: «**وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله**»:

هذه عكس الأولى فمثلاً لو أن إنساناً جاء إلى شخص يوزع دراهم فلم يعط فسبه وشتمه، فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

لكن من قصر بواجب عليه فيذم لأجل أنه قصر بالواجب لا لأجل أنه لم يعط، فلا يذم من حيث القدر؛ لأن الله لو قدر ذلك لو جدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «**ما لم يؤتك**»: علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثاني محذوف لأنه فضلة والتقدير: ما لم يؤتكه.

قوله: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره**»

هذا تعليل لقوله: «أن تحمدهم وأن تذمهم».

ورزق الله: عطاؤه لكن حرص الحريص من سببه بلاشك، فإذا بحث عن الرزق وفعل الأسباب فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسباباً كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباباً قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي كما لو وجد ركازا في الأرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك.

فهذا الحديث لا يمنع من فعل الأسباب.

وقوله: «**ولا يرده كراهية كاره**»: أي أن رزق الله إذا قدر للعبد فلن يمنعه عنه كراهية كاره، فكم من إنسان حسده الناس لكن الله يعطيه الرزق.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسولَ الله ﷺ قال: **«من التمس رضـا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضـا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»** رواه ابن حبان في صحيحه[1].

قوله: **«من التمس رضـا الله بسخط الناس»**:

التمس: طلب ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر **«التمسوها في العشر»**[2].

وقـولـه: **«رضي الله»**: أي أسبـاب رضاه. وقوله: **«بسخط الله»** الباء للعوض أي أنه طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضـا، وجوب الشرط: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس».

قوله: **«رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»**:

هذا ظاهر فإذا التمس العبد رضـا ربه بنية صادقة رضي الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضـا عنه؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وظاهر الحديث حتى لو كان الناس من أقرب الناس إليك.

قوله: **«ومن التمس رضـا الناس بسخط الله»**:

التمس: طلب أي طلب ما يرضي الناس ولو كان يسخط الله فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده ولهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس».

---

(١) أخـرجـه ابن حبـان بهذا اللفظ (١٥٤٢)، وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (١٩٩) والترمذي في الزهد/ باب من التمس رضا الله بسخط الناس ٧/١٣٢، والبغوي في شرح السنة ١٤/٤١٠، وأبو نعيم في الحلية ٨/١١٨، وابن حبان (١٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر/ باب تحري ليلة القدر ١/٦٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

. . . .

مناسبة الحديث للترجمة :

قوله : «ومن التمس رضا الناس» : أي خوفاً منهم حتى يرضوا عنه .

فيستفاد من الحديث ما يلي :

١ - وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذي ينفع ويضر .

٢ - أنه لا يجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائناً من كان .

٣ - إثبات الرضا والسخط لله ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وأما أهل التعطيل فينكرون ذلك قالوا : لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا لا يليق بالله ، وهذا خطأ ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق فنرد عليهم بأمرين بالمنع ثم النقض :

فالمنع : أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله عز وجل كغضب المخلوقين .

والنقض : فنقول - للأشاعرة - أنتم أثبتم لله عز وجل الإرادة ، وهي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة والرب عز وجل لا يليق به ذلك ، فإذا قالوا : هذه إرادة المخلوق نقول : والغضب الذي ذكرتم هو غضب المخلوق .

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية فهذه الأقيسة باطلة لوجوه :

الأول : أنها تبطل دلالة النصوص ، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق والنصوص باطلة وهذا ممتنع .

الثاني : أنها تقوّلٌ على الله بغير علم ؛ لأن الذي يبطل ظاهر النص يؤوله

. . . .

إلى معنى آخـر فيقال له: ما الذي أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقول على الله في النفي والإثبات نفي الظاهر وأثبت ما لم يدل عليه.

الثـالث: أن فيهـا جنـاية على النصوص حيث اعتقدوا أنها دالة على التشبيه؛ لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفر أو ضلال.

الرابع: أن فيها طعناً بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول هذه المعاني التي صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟

فإن قالـوا: لا يعلمون فقد اتهموهم بالقصور وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها فقد اتهموهم بالتقصير.

فلا تستـوحش من نص دل على صفـة أن تثبتها لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما:

التمثيل ـ والتكييف . فإذا أثبت الله لنفسـه قدمـاً أو هرولـة، فلا تستوحش من إثبات ذلك لأن الذي نقل هذا رسول الله ﷺ وهو:

- أصدق الخلق.
- وأعلمهم بما يقول.
- وأبلغهـم.
- وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة لله وقال هذا تقشعر منه الجلود، فيقال هذا لا يقشعر منه إلا جلد إنسان في قلبه مرض، أما الذين آمنوا فتقشعر منه جلودهم ثم تلين إلى ذكر الله، ونحن لم نكلف إلا بما بلغنا والله يريد لعباده البيان قال تعالى: ﴿يريد

الله ليبين لكم﴾[1] فهو لا يريد أن يعمي عليهم الأمر فيقول إنه يغضب ولا يغضب ويقول: إنه يهرول وهو لا يهرول هذا خلاف البيان.

فالواجب على المؤمن أن يؤمن بما جاء عن الله على مراد الله، لكن جاء عن الله الإثبات والنفي قال تعالى: ﴿**فلا تضربوا لله الأمثال**﴾[2] وقال: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[3] وإذا صرفت هذا المعنى الفاسد عن النصوص فقد أَثْبَتَ النص على ما يليق بالله.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران. **الثانية :** تفسير آية براءة. **الثالثة :** تفسير آية العنكبوت. **الرابعة :** أن اليقين يضعف ويقوى. **الخامسة :** علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث.

فيه مسائل :

الأول : تفسير آية آل عمران :

وهي قوله تعالى : ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾.

الثانية : تفسير آية براءة :

وهي قوله تعالى : ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾ فالخشية يجب أن تكون لله.

الثالثة : تفسير آية العنكبوت :

وهي قوله تعالى : ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله**﴾ وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق.

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوي.

تؤخذ من الحديث : ﴿**إن من ضعف اليقين. . .**﴾ الحديث.

الخامسة : علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث :

وهي أن ترضي الناس بسخط الله
وأن تحمدهم على رزق الله
وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض. **السابعة**: ذكر ثواب من فعله. **الثامنة**: ذكر عقاب من تركه.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض تؤخذ من قوله في الحديث: «**من التمس...**» الحديث.

السابعة: ذكر ثواب من فعله: وهو رضا الله عنه، وأنه يرضي عنه الناس وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

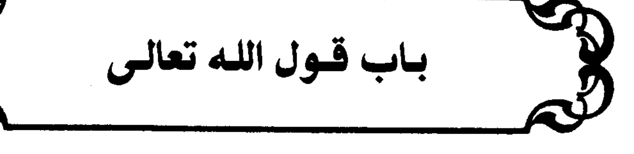
وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس ولا ينال مقصوده.

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه، فالعاقبة له وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله انقلبت عليه الأحوال ولم ينل مقصوده بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/٥١: «والسعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله فترجو الله فيهم، ولا ترجوهم في الله، وتخاف الله فيهم، ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم، كما جاء في الأثر: «أرج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله» أي لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم، لارجاء مدحهم ولا خوفاً منهم، بل ارج الله، ولا تخفهم في الله فيما تأتي وتذر، بل افعل ماأمرت وإن كرهوه».



باب قول الله تعالى

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[1] الآية

مناسبة هذا الباب لما قبله :

هي أن الإنسان إذا أفرد الله سبحانه بالخوف، فإنه يعتمد عليه في حصول مطلوبه وزوال مكروبه ولا يعتمد على غيره .

تعريف التوكل :

التوكل: هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في جلب المطلوب، وزوال المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف ولابد من أمرين :

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً .

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها[2] .

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٢٣ .

(٢) ولفضيلة الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب كلام نفيس حول الأسباب المشروعة والممنوعة وضوابطها جاء فيه : «وكل سبب لم يأذن به الله باطل مضر لمتخذه فلا يتعاطى، وإذا حقق المؤمن أن الله سبحانه رب كل شيء وخالقه ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب، كما جعل المطر سبباً للنبات .
قال تعالى : **﴿وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾** وجعل الشمس والقمر سببين لما يخلقه بهما، والدعاء سببا لما يحصل للمدعو له أو عليه، والدواء سبباً لذهاب الداء، قد نبه على ذلك النبي ﷺ، بقوله : «**لم ينزل الله داء إلا أنزل له شفاء - يعني دواء - علمه من علمه، وجهله من جهله**»، رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أسامة بن شريك وفي لفظ : «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء أو شفاء إلا داء واحداً** قالوا : يارسول الله وماهو؟ قال : الهرم» . وهذا يعم داء القلب والروح والبدن، أرشد

. . . .

فمن جعـل أكثر اعتماده على الأسباب نقص توكله على الله، ويكون قادحـاً في كفاية الله فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

= ﷺ، العرنيين لما شكوا له الوخم ووجع البطن أن يلحقوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها وجعل الجهل داء ودواؤه سؤال العلماء.

قال رسول الله، ﷺ، في قصة صاحب الشجة: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال**». كما أن وجود الداء سبب للألم، روى مسلم في صحيحه من حديث سهل بن حنيف عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**العين حق ولو أن شيئاً سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا**». وكذا السحر قال تعالى: ﴿**ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾. فهو سبب لألم الفؤاد، ويوجب البغضاء والفرقة بين الزوجين، والنار سبب للإحراق، والسكين سبب للقطع، والحبل سبب لإظهار الماء في الدلو، وأكل الطعام سبب لذهاب ألم الجوع، وشرب الماء سبب لذهاب ألم العطش، والكدح بالاجتهاد في تحصيل العلم سبب للفهم، والمتاجرة بالمال سبب لفائدة الربح، وطاعة الله سبب لرضائه ورحمته، ومعصيته سبب لسخطه وانتقامه، فالأسباب المنصوص عليها لا تنكر، ولا يتكل عليها إذ في إنكارها نقص في العقل، وفي الاتكال عليها شرك في الدين، وكل من الإنكار والاتكال منتف شرعاً، لكن قد يتخلف المسبب عنه مع قيام السبب، إذ الضار والنافع والمعطي والمانع هو الله وحده. قال تعالى: ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾. وقال تعالى: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾. وكتخلف إحراق النار عن إبراهيم، عليه السلام، حين وضع فيها، وحدة السكين حين أمرّها الخليل على حلقوم ولده إسماعيل، عليهما السلام، ولا محيص عن الأخذ في الأسباب، فليس المتوكل من فتح للسارق الباب، ولا من قال أنا متوكل أستغني عن الطعام والشراب. قال أفضل الأحباب لمن سأل أيعقل الناقة أم يتكل؟! قال: «**اعقلها وتوكل**». وأفضل المتوكلين أشد عباد الله حرصاً على فعل الأسباب، فقد أمر بإطفاء السراج والتسمية وإغلاق الأبواب، ونفض الفرش وطي الثياب، وحفظ الصبيان أول الليل لانتشار الشياطين، وهذا =

. . . .

ومن جعل أكثر اعتماده على الله ملغياً للأسباب فقد طعن في حكمة الله لأن الله جعل لكل شيء سبباً فمن اعتمد على الله اعتماداً مجرداً كان قادحاً في

الباب لا يحصيه العادون من سنن المرسلين، فالأخذ فيها لا ينافي التوكل لأنه الانقطاع عن جميع الخلق، وتفويض الأمور إلى الملك الحق وحده. وحيئنذ فلابد أن يعرف فيها ثلاثة أمور:

أحداها: أنها لا تستقل بالمطلوب، بل تتعاطى عن غير ركون إليها، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ماشاء كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الخلق.

الثاني: أنه غير جائز اعتقاد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بما يخالف الشريعة كان مبطلاً في إثباته آثماً في اعتقاداته.

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ شيء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً، إما استحباباً أو مأذوناً فإن العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله مالم ينزل به سلطاناً، وأن يقول على الله بلا علم، فيدعو غير الله بما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، وإن ظن ذلك سبب في حصول غرضه لاعتقاده أن ذلك المدعو يشفع له فيما دعاه فيه، لأنه جنس مااعتقده الأولون في آلهتهم، وكذلك لا يجوز أن يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول مايطلبه من أغراض دنياه أو ثواب أخراه على زعم اعتقاده، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، والرسول، ﷺ، إنما بعث لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ومانهى عنه فمفسدته راجحة.

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾

من ذلك: قول المحرمات وقول السخريات ليتوصل بها إلى تحصيل شيء من أمتعته الدنيا أو القرب لدي ملك من ملوكها، قال تعالى: **﴿واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾**. وكل شرك زور ولا عكس وقال تعالى: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾**.

. . . .

حكمة الله لأن الله حكيم يربط الأسباب بمسبباتها كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لايتزوج .

= ومنه : التداوي بالمحرمات فلم يجعل الله الشفاء فيما حرمه ، بل نزعه عنه وأوهنه ، والبدع التي ليست من شريعة الإسلام في شيء بل هي من شعب الشرك الظاهرة ، كأتربة أضرحة القبور لا يحل استعمالها أدوية ، ولا تعاطيها لما في استعمالها من الاعتقادات الباطلة ، والمفاسد في الدين الظاهرة ، فهي أشبه بما فعله المشركون الأولون بآلهتهم من تعظيم الأصنام والتبرك والتمسح بها في كل مشهد خاص وعام .

ومنه : ما اعتنى به بعض الأغبياء الجهال وعوام الضلال دعوتهم بدعاء تمخشياً وتمشيشاً ودعوتهم في الشدائد بأسماء أصحاب الكهف ، وشمبخ وغيرهم ، وبالدعوات المجهولات يزعمون أن هذه من الأسماء العظام والأدعية المستجابات ، وأنه من الإنجيل والتوراة ، فكل هذا من تلبيس إبليس على هؤلاء الجند الذين اختاروه واختارهم ؛ فلسنا ملتزمين في شريعتنا ـ ملة الإسـلام ـ بتلك الأدعية في الصباح والمساء ، ولم يقل أحد من العلماء الأدباء ، بل الأغبياء السفهـاء من القصـاص اختاروها لتعزير العوام وجمع الحطام ، فلم يعاملوا الله بالإخلاص ، قال الله تعالى : ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾ . وأما الأسماء المنهي عنها ، فإن الشيطان يظهر تأثيرات ويوري تلبيسه فيها منافع ظاهرة في أكثر الأحيان وهي حسرات ، بل قد يكون التلفظ بتلك الكلمات كفراً لا يعرف معناها بالعربية . قال تعالى : ﴿**مافرطنا في الكتاب من شيء**﴾ . وكل واسطة أو وسيلة نهى الشارع عنها لا يجوز اتخاذها في جلب نفع أو كشف ضر .

قال سبحانه وتعالى : ﴿**ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك . .**﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو**﴾ . وقال تعالى : ﴿**فلا تدع مع الله أحداً**﴾ .

قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا ، فأمر الله المسلمين أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم ، وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله ، فلا تسجدوا عليها لغيره في كل ماريد إبداءه من خير ينفعه أو ضر يضره . قال تعالى : ﴿**له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا** =

. . . .

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب. فالنبي ﷺ كان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلى أحد ظاهر بين درعيه أي لبس درعين اثنين[1]، ولما خرج مهاجراً أخذ من يدله الطريق[2]، ولم يقل سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله ولن أصطحب معي من يدلني الطريق، وكان ﷺ يتقي الحر، والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضي الله عنه أن قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد فجيء بهم إلى عمر فسألهم فقالوا: نحن المتوكلون على الله: فقال: لستم المتوكلين بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين ولهذا نقول في صلاتنا: **﴿إياك نعبد وإياك**

= **كباسط كفيه إلى الماء ليبلع فاه وماهو ببالغه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال﴾**. وقال تعالى: **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾**. أي لا أحد، فلا يدانيه سبحانه أحد، ولا يستقل سواه تعالى بما أراده، ولا يعطي لما منعه، فهذه الأسباب التي تتخذ وسائط ووسائل في الجلب والدفع الذين لايقدر عليهما إلا الله وحده منفية بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، إلا أسباباً وردت عن الله أو رسوله كالتوحيد والصلاة بحضور قلب وخشوع، وذل وانكسار، والدعاء والاستغفار بعد الإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على ألا يعود إليه، والأعمال الصالحة من صدقة وصلة رحم وطاعة الله وتقواه، فهي الأسباب في جلب الخير، ودفع الشر، كما صرح به القرآن الكريم والسنة.

التوضيح عن توحيد الخلاق للشيخ سليمان ص ١٦٩ ـ ١٧٢

وانظر أيضاً كلام ابن القيم في باب من الشرك لبس الحلقة.

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/٤٤٩، وأبو داود في الجهاد /باب في لبس الأروع ٣/٧١ ولم يجزم سفيان بسماعه هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة/ باب استئجار المشركين ٢ / ١٣٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

. . . .

نستعين﴾[1]، فنطلب من الله العون اعتماداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**عليه توكلت وإليه أنيب**﴾[3]، ولايمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل، لأن الإنسان لو وكل إلى نفسه وكل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة، فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك فيفوتنا ثواب عظيم وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نوفق إلى كمال العبادة كما هو الغالب سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها.

هذا عن منزلة التوكل وأنه من منازل السائرين إلى الله.

وهذا في الحقيقة لا يعتمد الإنسان عليه إلا وهو يعتقد أن هناك سبباً خفياً يوجب جلب المنفعة أو دفع المضرة وهذا هو الشرك الأكبر.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك وهذا من الشرك الأصغر وقال بعضهم: من الشرك الخفي مثل اعتماد كثير من الناس على المالية في الراتب ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب بل جعله فوق السبب.

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨٨.

. . . .

الثالث: أن يتوكل على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه كما لو وكلت شخصاً في بيع شيء أو شرائه وهذا لا شيء فيه؛ لأنه اعتمد عليه وكأنه يشعر أن المنزلة العليا له فوقه؛ لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه[1]، ووكل أبا هريرة على الصدقة[2]، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية[3]، وهذا بخلاف القسم الثاني لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك.

ومما سبق يتبين أن التوكل من أجل المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له في جميع شئونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية**». لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى والإنسان لايعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية لأنهم يقولون إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثم نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق وبه تجتمع جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين.

قوله: ﴿**وعلى الله فتوكلوا**﴾، (على الله) متعلقة بقوله: (توكلوا) وتقديم المعمول يدل على الحصر أي على الله لا على غيره، ﴿**فتوكلوا**﴾ أي اعتمدوا والفاء حرف عطف معطوفة على الجملة التي قبلها وهي: ﴿**قال رجلان من**

---

(١) أخرجه مسلم في الحج باب حجة النبي ﷺ ٢/٨٩٢ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب/ باب حدَّثنا محمد بن المثنى ٢/٥٣٩.

قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾. الآية.

الذين يخافون أنعم الله عليهما. . . . ﴾. الآية.

ويحتمل أن تكون لتحسين اللفظ لأن الفاء قد تأتي زائدة إعراباً لتحسين اللفظ، ويؤيد هذا أن لدينا حرف عطف وهو الواو ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين فتكون لتحسين اللفظ كقوله تعالى: ﴿**بل الله فاعبد**﴾ والتقدير ﴿**بل الله اعبد**﴾.

قوله: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾، ﴿**إن**﴾ شرطية وفعل الشرط ﴿**كنتم**﴾ وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله وتقدير الكلام إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب لايحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق، فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح لأن الأصل عدم الحذف.

وقول أصحاب موسى: في هذه الآية، يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته كما لو قلت: إن كنت كريماً فأكرم الضيف.

فيقتضي أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل إلا إن حصل اعتماد على غير الله وشرك أكبر، فينتفي كله.

وقوله: ﴿**إنما المؤمنون**﴾ ﴿**إنما**﴾: أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنى، ماالمؤمنون إلا هؤلاء.

وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

. . . .

أحدها: قوله: ﴿**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ أي خافت لما فيها من تعظيم الله تعالى مثال ذلك: رجل هم بمعصية فذكر الله وقيل له: اتق الله فإن كان مؤمناً فإنه سيخاف وهذا هو علامة الإيمان.

الوصف الثاني:

قوله: ﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**﴾، وفي هذا دليل على أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه كما أمر الرسول ﷺ عبدالله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال: كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأ عليه من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**﴾[1]، قال: «**حسبك**» فنظرت فإذا عيناه تذرفان[2].

الوصف الثالث:

قوله: ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أي يعتمدون على الله لا على غيره وهم مع ذلك يعملون الأسباب وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع:

قوله: ﴿**الذين يقيمون الصلاة**﴾ أي يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس:

قوله: ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ ﴿**من**﴾ للتبعيض فيكون الله يمدح من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير/ باب فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ٣/٢١٧، ومسلم في صلاة المسافرين/ باب فضل استماع القرآن ١/٥٥١.

أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون للجنس فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب أن من أنفق الكل يدخل في الثناء إذا توكل.

على الله في أن يرزقه وأهله كما فعله أبو بكر[2]، أما إن كان أهله في حاجة، أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله فلا ينبغي أن ينفق ماله كله.

قوله: ﴿ياأيها النبي﴾ المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة، وبوصف الرسالة، فحينما يأمره أن يبلغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة فالغالب أن يناديه بوصف النبوة قال تعالى: ﴿ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾[4]، ﴿والنبي﴾ فعيل بمعنى، مفعَل، ومفعِل أي مُنبىء، ومُنْبَيء، والرسول ﷺ منبيء من قبل الله، ومنبيء لعباد الله قوله: ﴿حسبك الله﴾ أي كافيك. والحسب، الكافي ومنه قوله: أعطى درهماً فحسب وحسب خبر مقدم والله مبتدأ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة/ باب الرخصة في ذلك - أي خروج الرجل من ماله - ٢/٣١٣، والترمذي في المناقب/ باب الصديق ينفق كل ماله ٩/٧٧ والدارمي ١/٣٩١ وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة من طريق آخر ١/٣٦٠.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ١.

. . . .

مؤخر والمعنى ما الله إلا حسبك ويجوز العكس، ويكون المعنى ما حسبك إلا الله.

قولــه: ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ من: اسم موصول مبنية على السكون، وفي عطفها رأيان لأهل العلم، قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين و﴿من﴾ معطوفة على الله، لأنه أقرب ولو كان العطف على الكاف في حسبك لوجب إعادة الجار وهذا كقوله تعالى: **﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾**[1]، فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسباً له هنا كما كان الله حسباً له.

وهذا ضعيف والجواب عنه من وجوه:

أولاً: قولهم عطف عليه لكونه أقرب ما كان ليس بصحيح فقد يكون العطف على شيء سابق حتى إن النحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول.

ثانياً: قولهم لو عطف على الكاف لوجب إعادة الجار والصحيح أنه ليس بلازم قال ابن مالك: إذ قد أتىٰ في النظم والنثر الصحيح مثبتا.

ثالثاً: استدلالهم بقوله تعالى: **﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾**.

فالتأييد لهم غير كونهم حسبه لأن معنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه وبينهما فرق.

رابعاً: أن الله سبحانه حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه قال تعالى: **﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله**

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.

ورسوله﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون**﴾[3]، فكما أن التـوكـل على غير الله لايجوز فكذلك الحسب لايمكن أن يكون غير الله حسباً، فلو كان لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون.

خامساً: أن في قوله: ﴿**ومن اتبعك**﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسباً للرسـول ﷺ وذلـك لأنهم تابعون فكيف يكون التابع حسباً للمتبوع؟ هذا لايستقيم أبداً، فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله: ﴿**حسبك**﴾ أي وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعاً أنت ومن اتبعك.

قوله: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله فإن الله يكفيه مهماته وييسر له أمره فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذية فإن الله يكفيه الأذىٰ فلا يبلغ الغاية، والرسول ﷺ سيد المتوكلين ومع ذلك يصيبه الأذىٰ ولا تحصل له المضرة؛ لأن الله حسبه فالنتيجة لمن اعتمد على الله.

والآية تفيد بمفهـومهـا: أن من توكل على غير الله خذل؛ لأن غير الله لايكون حسباً كما تقدَّم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه وصار موكلاً إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حَسْبنا الله ونعم الوكيلُ» قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً**﴾[1] الآية رواه البخاري، والنسائي[2].

قوله: قالها محمد ﷺ حين قالوا له ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم**﴾ **وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركباً فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة، فقال: بلغوا محمداً وأصحابه أنا راجعون إليهم فقاضون عليهم فجاء الركب إلى المدينة فبلغوهم، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: حسبنا الله ونعم الوكيل، وخرجوا في نحو سبعين راكباً حتى بلغوا حمراء الأسد، فكان أن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين حيث اعتمدوا عليه. قوله:** ﴿**قال لهم الناس**﴾ أي الركب.

قوله: ﴿**إن الناس**﴾ أبو سفيان ومن معه وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذي أريد به الخصوص.

قوله: ﴿**حسبنا**﴾ أي كافينا.

قوله: ﴿**نعم الوكيل**﴾ نعم فعل ماض، (الوكيل) فاعل والمخصوص محذوف تقديره هو أي الله، والوكيل: المعتمد عليه سبحانه، والله سبحانه يطلق عليه اسم وكيل وهو أيضاً موكل، والوكيل في مثل قوله تعالى: ﴿**نعم الوكيل**﴾

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير/ باب تفسير سورة آل عمران ٣/ ٢١١، ولعله في سنن النسائي الكبرى.

فيه مسائل: الأولى: أن التوكل من الفرائض. الثانية: أنه من شروط الإيمان. الثالثة: تفسير آية الأنفال. الرابعة: تفسير الآية في آخرها. الخامسة: تفسير آية الطلاق. السادسة: عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائد.

وقوله تعالى: ﴿**وكفى بالله وكيلا**﴾[1]، وأما الموكل ففي مثل قوله تعالى: ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾[2].

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه، فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون.

واستدلال ابن عباس في الحديث لقصة إبراهيم، فنقول: إنه قال قولاً لا مجال للرأي فيه فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممن يروى عن بني إسرائيل، فيحتمل أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: ﴿**وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾.

الأولى: أن التوكل من الفرائض:

ووجه أن الله علق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: ﴿**وعلى الله فتوكلوا إن**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

. . . .

كنتم مؤمنين﴾، وسبق تفسيرها.

الثانية: أنه من شروط الإيمان:

تؤخذ من قوله تعالى: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾ وسبق تفسيرها.**

الثالثة: تفسير آية الأنفال:

وهي قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. . . ﴾** الآية. والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا فالإنسان يكون مؤمناً وإن لم يتصف بهذه الصفات لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها:

وهي قوله تعالى: **﴿ياأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾**. أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الراجح على ما سبق.

الخامسة: تفسير آية الطلاق:

وهي قوله تعالى: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾** وقد سبق تفسيرها.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه السلام، ومحمد ﷺ في الشدائد وهي: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾

وفي الباب مسائل غير ما ذكر المؤلف منها: زيادة الإيمان لقوله تعالى: **﴿فزادتهم إيماناً﴾**.

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ولكنهم فوضوا الأمر إلى الله، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.



باب قول الله تعالى

﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾(١)

قولـه: ﴿أفأمنوا﴾: الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعـالى: ﴿**أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾(٢).

فقوله: ﴿**وهم نائمون**﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام؛ وقوله: ﴿**ضحى وهم يلعبون**﴾ يدل أيضاً على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى ـ في رابعة النهار ـ يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم غافلون عن ذكر خالقهم، فهم في الليل نوم وفي النهار لعب، فبين الله عز وجل أن هذا مكره بهم ولهذا قال: ﴿**أفأمنوا مكر الله**﴾ ثم ختم الآية بقوله: ﴿**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾ فالذي يمن الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمـك من جوع وآمنك من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٩٧، ٩٨، ٩٩.

. . . .

خوف، وكساك من عري فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله بل أنت خاسر.

قولـه: ﴿إلا القوم الخاسرون﴾ الاستثناء للحصر؛ وذلك لأن ما قبله مفرغ له، فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ دليل على أن لله مكراً، والمكر هو: التـوصـل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر ومنه ما جاء في الحديث: «الحرب خدعة»[1]، فإن قيل كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكـر في محله محمـود يدل على قوة المـاكـر، وأنه غالب على خصمـه، ولذلك لايوصف الله به على الإطلاق فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحاً مثل قوله تعالى: ﴿ويمكرون ويمكـر الله﴾[2]، وقـال تعـالى: ﴿ومكـروا مكـراً ومكـرنـا مكـراً وهم لايشعرون﴾[3]، ومثل قوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾[4]، ولا تنفي عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق بل إنها في المقام التي تكون مدحاً يوصف بها وفي المقام التي لاتكون مدحاً لايوصف بها.

وكذلك لا يسمى الله بها فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة فلا يوصف الله بها مطلقاً؛ لأنها ذم بكل حال إذ إنها مكر في

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب الحرب خدعة ٢/٣٦٦، ومسلم في الجهاد/ جواز الخداع في الحرب ٣/١٣٦٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

وقوله: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[1]:

موضع الائتمان، وهو مذموم قال تعالى: ﴿**وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم**﴾[2]، ولم يقل خانهم.

وأما الخداع فقال تعالى: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾[3]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه.

ويستفاد من هذه الآية:

١ ـ الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد؛ لئلا تكون استدراجاً؛ لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها وهي القيام بطاعة المنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢ ـ تحريم الأمن من مكر الله وذلك لوجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾.

قوله: ﴿**ومن يقنط**﴾ (من) اسم استفهام؛ لأن الفعل بعدها مرفوع، ثم إنها لم يكن لها جواب، والقنوط: أشد اليأس؛ لأن الإنسان يقنط ويبعد الرجاء والأمل بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه.

قوله: ﴿**من رحمة ربه**﴾: هذه رحمة مضافة إلى الفاعل ومفعولها محذوف والتقدير (من رحمة ربه إياه).

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

. . . .

قولـه: ﴿**إلا الضـالون**﴾، إلا: أداة حصر؛ لأن الاستفهام في قوله: ﴿**ومن يقنط**﴾، مراد به النفي، و﴿**الضالون**﴾ فاعل يقنط، والمعنى لايقنط من رحمة الله إلا الضالون. والضال: فاقد الهداية التائه الذي لايدري ما يجب لله سبحانه مع أنه سبحانه قريب الخير، ولهذا جاء في الحديث: «**عجب ربنا من قنـوط عبـاده، وقرب غيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكـــم قريب**»[1]، وأمـا معنى الآية فإن إبـراهيم عليه السـلام لما بشرته الملائكة: بغلام عليم قال لهم: ﴿**أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون، قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قـال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**﴾[2].

فالقنوط من رحمة الله لا يجوز؛ لأنه سوء ظن بالله عز وجل، وذلك من وجهين.

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئاً على قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه؛ لأن من علم أن الله رحيم لايستبعد أن يرحمه الله سبحانه ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً.

ولا ينبغي للإنسـان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه، أو كشف مكروبه، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها فنجاه الله

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١١، ١٢. وابن ماجه في المقدمة ١/٦٤، وقال في الزوائد: ١/٦٤: «وكيع ذكره ابن حبان في الثقات وباقي رجاله بهم مسلم».

(٢) سورة الحجر، الآيات: ٥٤ ـ ٥٦.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: **«الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله»**[1].

سبحانه إما بعمل سابق، مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: **﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾**[2].

وقد ينجو بعمل لاحق وذلك كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر[3]، وليلة الأحزاب[4]، وكذلك أصحاب الغار[5].

وتبيَّن مما سبق أن المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع الإنسان بين الخوف فلا يأمن مكر الله، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته، فالأمن من مكر الله ثلم في جانب الخوف، والقنوط من رحمته ثلم في جانب الرجاء.

قوله: «الكبائر» جمع كبيرة، والمراد بها: كبائر الذنوب، وهذا السؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى: صغائر وكبائر وقد دلَّ على ذلك القرآن قال تعالى:

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٠٦)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ١/٤٨٥، والطبراني كما في المجمع ١/١٠٤، في الدر المنثور/٢/١٤٧، وقال الهيثمي ١/١٠٤: «رواه البذار والطبراني ورجاله موثقون».

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي / باب قصة عروة ٣/٨٣، ومسلم في الجهاد/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣/١٣٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي/ باب غزوة الخندق ٣/١١٨، ومسلم في الجهاد/ باب استحباب الدعاء بالنصر ٣/١٣٦٣.

(٥) أخرجه البخاري في البيوع/ باب إذا اشترى شيئاً لغيره ٢/١١٦، ومسلم في الذكر والدعاء/ باب قصة أصحاب الغار ٤/٢٠٩٩.

....

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[1] وقال تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾[2]، والكبائر ليست على درجة واحدة فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء هل هي معدودة أو محدودة؟ فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «كل ما رتب عقوبة خاصة سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محمود أو بحصول مذموم»، وهذا واسع جدًّا يشمل ذنوباً كثيرة.

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان: قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات كقوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[3]، وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة[4]، والوضوء من تكفير الخطايا[5]، فهذه من الصغائر.

وقسم رتب عليه عقوبة خاصة كاللعن أو الغضب أو التبرئ من فاعله أو الحد في الدنيا أو نفي الإيمان وما أشبه ذلك، فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة/ باب الصلوات الخمس... ١/٢٠٩ من حديث أبي هريرة.
(٤) أخرجه البخاري في العمرة/باب وجوب العمرة وفضلها ١/٥٣٧.
(٥) أخرجه مسلم في الطهارة/ باب الصلوات الخمس ١/٢٠٩ من حديث أبي هريرة.

وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبدالرزاق[1].

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها خلافاً لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط ولذلك نقصت بركة علمهم.

قوله: (الشرك بالله) ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً»[2] وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقاً.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

قوله: (اليأس من روح الله) الروح قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، وهو من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

قوله: ﴿الأمن من مكر الله﴾، بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾[3].

وظاهر هذا الحديث: الحصر وليس كذلك؛ لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله، أو اليأس من روح الله فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره

---

(١) أخرجه عبدالرزاق ١٠/٤٥٩، ٤٦٠، وابن جرير ٥/٢٦، والطبراني في الكبير (٨٧٨٣، ٨٧٨٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٠٤.

(٢) سبق ص (١٢٤). (٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

التعارض يحمل كل واحد منها على الحال المناسبة لئلا يتوهم التعارض بين النصوص الشرعية.

قوله: «**الإشراك بالله**»: هذا أكبر الكبائر؛ لأنه انتهاك لأعظم الحقوق وهو حق الله تعالى الذي أوجدك وأعدك وأمدك، فلا أحد أكبر عليك نعمة من الله تعالى.

قوله: «**الأمن من مكر الله**»، سبق شرحه.

قوله: «**القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله**»، المراد بالقنوط أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيئان يعوقانه عن ربه وهما الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله فتجد الإنسان مقيماً على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فلاشك أن هذا استدراج.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

وهي قوله تعالى: ﴿**أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم**

. . . .

الخاسرون﴾ وقد سبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية الحجر.

وهي قوله تعالى: **﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾** وقد سبق تفسيرها.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

وذلك بأنه من أكبر الكبائر كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

تؤخذ من الآية الثانية والحديثين.



باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقوله تعالى: ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾(١)

الصبـــر:

في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: «قتل صبرا»، أي محبوساً مأسوراً.

وفي الاصطلاح: حبس النفس، وذلك بحبس القلب عن التسخط المحرم، واللسان عن القول المحرم، والجوارح عن الفعل المحرم.

أقسام الصبر ثلاثة:

الأول: الصبر على طاعة الله قال تعالى: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاصبر لحكم ربك**﴾(٣)، وهذا يشمل الصبر على الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القرآن ليبلغه فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة، وقال تعالى: ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾(٤)، وهذا صبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكان لها فيه العزة والقوة والسلطان عليه ومع

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

. . . .

ذلك صبر وقال: ﴿**رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبو إليهن وأكن من الجاهلين**﴾[1]. فهذا صبر على معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله: قال تعالى: ﴿**فاصبر لحكم ربك**﴾[2] فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالى: ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم**﴾[3]، لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذىٰ قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدىٰ بناته: «**مرها فلتصبر ولتحتسب**»[4].

إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهـذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة، إذا فتن الإنسان مثلاً بامرأةٍ جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلي الإنسان مائة صلاة وتكون أهون عليه من هذا.

وقـد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جدًّا، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز/ باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه ١/ ٣٩٥، ومسلم في الجنائز/باب البكاء على الميت ٢/ ٦٣٥.

. . . .

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر، إذ بعض المعاصي الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار الصبر عليها أشد، فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

وكأن الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلي والصوم فتصوم والحج فتحج . . . ففيه إلزام وفعل، وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية؛ لأن فيه كفاً فقط أي إلزاماً للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار فلأن سببه ليس باختيار العبد فليس فعلاً ولا تركاً، وإنما هو من قدر الله المحض.

وخص المؤلف رحمه الله في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: **«على أقدار الله»** جمع قدر وتطلق على المقدور وعلى فعل القادر، أما بالنسبة لفعل القادر فيجب على الإنسان الرضا والصبر، وبالنسبة للمقدور فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به، لأنه من تمام الرضا بالله رباً.

وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة فالصبر واجب، والرضا مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقـدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لايجوز الرضا بها من حيث هي

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت**»[1].

مقدور أما من حيث كونها قدر الله فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال ولهذا قال ابن القيم:

فلذاك نرضاك نرضى بالقضاء ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية فعليه الرضا؛ لأن الله هو الذي قدر هذا وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله فلا يجوز له أن يرضىٰ؛ لأنه معصية وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

قوله: «**ومن يؤمن بالله**»، (مَنْ) اسم شرط جازم وفعل الشرط «يؤمن»، وجوابه «يهد».

قوله: «**يهد قلبه**» هذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب فإذا اهتدىٰ القلب اهتدت الجوارح لقوله ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[2].

قوله: «**قال علقمة**» هو من أكابر التابعين.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ١/ ٨٢.

(٢) سبق.

. . . .

لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر فهو مناف للصبر الواجب.

وهذه الجملة هي الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع.

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على ما قدر الله عليه، وقد يؤدِّي إلى الكفر قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة**﴾[1]، وقد يكون باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح كلطم الخدود وشق الجيوب ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مر مذاقته ... لكن عواقبه أحلىٰ من العسل

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا وهو أعلى من ذلك وهو أن يكون الأمران عنده سواء، لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها فالكل عنده سواء؛ لا لأن قلبه ميت بل لتمام رضاه بربه سبحانه وتعالى يتقلب في تصرفات الرب عز وجل ولكنها عنده سواء إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

. . . .

وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

قوله: «**اثنتان**» مبتدأ، وسوغ الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «**بهم كفر**» الباء يحتمل أن تكون بمعنى «من» أي هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنى «في» أي هما فيهم كفر.

قوله: «**كفر**» أي هاتان الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافراً كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان كالحياء والشجاعة والكرم أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بخلاف قول رسول الله ﷺ بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة»[1] فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة بخلاف مجيء «كفر» نكرة فلا يدل على الخروج عن الإسلام[2].

قوله: «**الطعن في النسب**»، أي العيب فيه، أو نفيه فهذا عمل كفر.

قوله: «**النياحة على الميت**» أي أن يبكي الإنسان على الميت بكاء على صفة نوح الحمام.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/٨٨ عن جابر رضي الله عنه.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٠٨، ٢٠٩.

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[1].

الرابعة: الشكر وهو أعلىٰ المراتب وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة وذلك يكون في عباد الله الشاكرين، فإذا عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك قال ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفّر له بها حتى الشوكة يشاكها**»[2]، كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

قوله: «**مرفوعاً**» إلى النبي ﷺ.

قوله: «**من ضرب الخدود**» العموم يراد به الخصوص.

قوله: «**من شق الجيوب**»، هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس. وذلك عند المصيبة تسخطاً وعدم تحمل لما وقع عليه.

قوله: «**ودعا بدعوى الجاهلية**»: دعوى مضاف والجاهلية مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (دعوى الجاهلية) لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة مثل قولهم: وويلاه، وانقطاع ظاهراه.

ومن الأولى أن يرجح عموم الحديث، والقرينة لا تخصصه فيكون المقصود بالدعوى التي منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة لأنها غالباً ماتكون عند المصائب، وإلا فمثله هدم البيوت وكسر القبور.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٦)، ومسلم ١/ ٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في المرضىٰ/ باب كفارة المرض ٤/ ٢٣، ومسلم في البر والصلة/ باب ثواب المؤمن ٤/ ١٩٩٢م.

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: **«إذ أراد الله بعبده خيراً عجل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»**[1].

وهذه الثلاثة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية، مثل: ضرب الأب لابنه وكذلك شق الجيب لأمر تراه.

قوله: **«إذا أراد الله بعبده الخير»**: الله يريد بعبد الخير والشر، ولكن الشر المـراد به لله تعـالى ليس مراداً لذاتـه بدليل قول النبي ﷺ: **«والشر ليس إليك»**[2]، ولكن الله يريد الشر لحكمة وحينئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: **«عجل له العقوبة في الدنيا»**.

العقـوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه. وسميت بذلك لأنها تعقب الذنب، ولكنه لايقال: إلا في الشر.

وقوله: **«عجل له العقوبة في الدنيا»** كان ذلك خيراً؛ لأنه يزول وينتهي

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء ٧/١٢٣، وقال: «حسن غريب»، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٥٤، والبغوي في شرح السنة ٥/٢٤٥، والحديث له شاهد من حديث عبدالله بن مغفل، وابن عباس وعمار بن ياسر، رضي الله عنهم، فهو صحيح بمجموع طرقه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل ١/٥٣٤.

. . . .

ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**».

وهناك خير أولى وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ قال: «**خيراً**» باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة خير نسبي لا مطلق، قال تعالى: ﴿**إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[1].

والعقوبة لها أنواع كثيرة:

منها ما يتعلق بالدين وهي أشدها، لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان أما هذه فلا يتنبه لها إلا من وفقه الله وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿**فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**﴾[2].

ومنها: العقوبة بالنفس وذلك كالأمراض.

ومنها: العقوبة بالأهل كفقدانهم أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال كنقصه أو تلفه وغير ذلك.

قوله: «**وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه**».

«أمسك» فعل: يوصف الله بالإمساك؛ لأن أفعال الله لا نهاية لها، وكل فعل يفعله الله يوصف به قال تعالى: ﴿**ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٥.

. . . .

قوله: «**حتى يوافى به يوم القيامة**» أي يوافيه الله به يوم القيامة وهو الذي يقوم به الناس من قبورهم لله رب العالمين.

وسمي بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١ - قيام الناس من قبورهم لقوله تعالى: ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾[١].

٢ - قيام الأشهاد، لقوله تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾[٢].

٣ - وقيام العدل، لقوله تعالى: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**﴾[٣].

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع فإن ذلك قد يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لايجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطيء أن يقول: أنا لم أخطيء فهذه تزكية فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة فإن هذه المصيبة لا تلاقي ذنباً تكفره لكنها تلاقي قلباً تمحصه فيبتلي الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر أو لا؟ ولهذا كان أخشىٰ الناس لله عز وجل وأتقاهم محمد ﷺ يوعك كما يوعك رجلان منا[٤]، وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى / باب شدة المرض ٤/٥٤، ومسلم في البر والصلة / باب ثواب =

. . . .

مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبدالرحمن بن أبي بكر وهو يستاك فأمده بصره، يعني ينظر إليه فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضمته وآلانته وعلكته للرسول ﷺ فأعطته إيَّاه فاستن به، قالت عائشة مارأيته استن استنانًا أحسن منه، ثم رفع يده وقال: «**في الرفيق الأعلى**»(١) فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين صبر لله، وصبر في الله حتى نال أعلى الدرجات.

فمن أصيب بمصيبة فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه فإنه يدل على ربه بعمله ويمن عليه فليحذر هذا. ومع ذلك لو فرض ذلك فإنه خير له، لينل بذلك درجات الصابرين.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١ ـ أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيراً لسيئاته، وتعجيلاً للعقوبة في الدنيا وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة.

٢ ـ قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

= المؤمن ١٩٩١/٤ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في المغازي/ باب مرض النبي ﷺ ٨٢/٣/.

وقال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**». حسنه الترمذي(١).

قوله: «**إن عظم الجزاء من عظم البلاء**» أي يتقابل عظم الجزاء مع البلاء فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عدل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله وأنه لا يظلم أحداً.

قوله: «**وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم**» أي اختبرهم بما يقدر عليهم من الأمور الكونية كالأمراض وفقدان الأهل، أو بما يقدر عليهم من الأمور الشرعية قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاصبر لحكم ربك**﴾(٢)، فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذي نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله كما في الحديث: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله**»(٣) فهذا جزاؤه أن الله يظله في

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء ٧/١٢٣، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في الفتن/ باب الصبر على البلاء ٢/١٣٣٨، والبغوي في شرح السنة ٥/٢٤٥.

وإسناده حسن، انظر المشكاة ١/٤٩٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٦).

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٢/١٤٣، ومسلم في الزكاة/ باب إخفاء الصدقة ٢/٧١٥.

. . . .

ظله يوم لا ظل إلا ظله.

قوله: «**فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**» (من) شرطية والجواب «فله الرضا» أي فله الرضا من الله، وإذا رضي الله عن شخص أرضى الناس عنه جميعاً، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله وهذا واجب، بدليل قوله: «**ومن سخط**» فقابل الرضا بالسخط وهوعدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا (فعليه السخط) مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى: ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها**﴾[1].

قال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على كقوله تعالى: ﴿**أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾[2]، أي عليهم اللعنة.

وقال آخرون: إن اللام على ماهي عليه، فتكون للاستحقاق أي صار عليه السخط باستحقاقه له فتكون أبلغ من (على) كقوله تعالى: ﴿**أولئك لهم اللعنة**﴾ أي حقت عليهم باستحقاقهم لها وهذا أصح.

ويستفاد من الحديث:

إثبات المحبة والسخط والرضا لله عز وجل، وهما من الصفات الفعلية لتعلقهما بمشيئة الله تعالى؛ لأن إذا في قوله: «إذا أحب قوماً» للمستقبل فالحب يحدث فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض ولا يحبه أو يبغضه من الأزل، وعلى هذا فقد يكون هذا الشخص في

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية التغابن ، الثانية : أن هذا من الإيمان بالله . الثالثة : الطعن في النسب . الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير. السادسة : إرادة الله به الشر. السابعة : علامة حب الله للعبد . الثامنة : تحريم السخط . التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

يوم من الأيام محبوباً إلى الله وفي آخر مبغضاً إلى الله ؛ لأن الحكم يدور مع علته .

وأما الأعمال فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات فيؤولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا : لأنها تقتضي النقص ومشابهة المخلوقين .

والصواب : ثبوتها لله عزوجل على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران :

١ ـ إثباتها على حقيقتها وظاهرها .

٢ ـ الحذر من التمثيل أو التكييف .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التغابن :

وهي قوله تعالى : ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾[1]، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيراً مناسباً للباب .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

---

(١) سورة التغابن، الآية : ١١ .

. . . .

المشار إليه بقوله (هذا) هو الصبر.

الثالثة: الطعن في النسب:

وهو عيبه وهو من الكفر لكنه لايخرج من الملة.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أوشق الجيوب، أو دعا بدعوىٰ الجاهلية؛ لأن النبي ﷺ تبرأ منه.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير:

وهو أن يعجل له الله العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر:

وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

السابعة: علامة حب الله للعبد:

وهي الابتلاء.

الثامنة: تحريم السخط يعني من البلاء.

لقوله ﷺ: **«ومن سخط فله السخط»**.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء:

لقوله ﷺ: **«من رضي فله الرضا»**.

باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحىٰ إليَّ أنما إلهكم إلهٌ واحد﴾ الآية[1].

المؤلف رحمه الله تعالى، أطلق الترجمة فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه.

تعريف الرياء:

مصدر راء يرائي، أي: عمل عملاً يراه الناس ويقال مراءاة كما يقال: جاهد مجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مسمع وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«من راء راء الله به، ومن سمع سمع الله به»**[2].

والرياء خلق ذميم وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾**[3].

والرياء يُبحث فيه في مقامين:

المقام الأول: في حكمه:

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعمله غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر فقال: «مثل يسير

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق/ باب الرياء والسمع ٤/١٩١، ومسلم في الزهد/ باب تحريم الرياء ٤/٢٢٨٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

. . . .

الرياء» وهذا يدل على أن الرياء كثيره قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثاني: في حكم العبادة إذا خالطها الرياء وهو على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله فهذا شرك والعبادة باطلة مع ما في ذلك من التحريم كما سبق.

الثاني: أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها بمعنىٰ أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة.

فإن كانت العبـادة لا ينبني آخـرها على أولها فأولها صحيح بكل حال والباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين وراء في الخمسين الباقية فالأولى حكمها صحيح والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولها فهي على حالين:

أ ـ أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه بل يعرض عنه ويكرهه فإنه لايؤثر شيئاً لقول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها مالم تعمل أو تتكلم**»[1].

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه فإن ذلك لايضره ولايؤثر على صلاته شيئاً.

ب ـ أن يطمئن إلى هذا الرياء ولايدافعه فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مبني على أولها، ومرتبط به.

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله وفي الركعة الثانية طرأ عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان/ باب إذا حنث ناسياً ٤/ ٢٢٢، ومسلم في الإيمان/ باب تجاوز الله عن حديث النفس ١/ ١١٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه فاطمأن لذلك ونزع إليه فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة فإنه لايؤثر عليها شيئاً اللهم إلا أن يكون فيه عدوان كالمن والأذىٰ بالصدقة فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها لقوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ**﴾(١).

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضاً أن يسر الإنسان بفعل الطاعة في نفسه بل ذلك دليل على إيمانه قال ﷺ: «**من سرته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن**»(٢) وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**»(٣).

قوله: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾: يأمر الله نبيه أن يقول للناس إنما أنا بشر مثلكم، وهو قصر النبي ﷺ على البشرية وأنه ليس رباً ولا ملكاً، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿**مثلكم**﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية.

قوله: ﴿**يوحىٰ إليَّ**﴾.

الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء ومنه قوله تعالى: ﴿**فخرج على قومه من المحراب فأوحىٰ إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً**﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٨، ٢٦، والترمذي في الفتن/ باب ماجاء في لزوم الجماعة ٦/٣٣٣ وقال: «حسن صحيح غريب من حديث عمر رضي الله عنه».

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة/ باب إذا أثنى على الصالح ٤/٢٠٣٤.

(٤) سورة مريم، الآية: ١١.

. . . .

وفي الشرع: إعلام الله بالشرع.

والوحي هو الفرق بيننا وبينه ﷺ فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل.

قوله: ﴿إنما إلـٰهكم إلـٰه واحد﴾.

هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل ﴿يوحى﴾ وفيها حصر طريقه ﴿إنما﴾ فيكون معناها ما إلـٰهكم إلا إلـٰه واحد، وهو الله فإذا ثبت ذلك فإنه لايليق بك أن تشرك معه غيره في العباده، ولذلك قال تعالى بعد هذا: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾.

المراد بالرجاء: الطلب والأمل، أي: من كان يؤمل أن يلقى ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقيا على نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان قال تعالى: ﴿ياأيها الإنسان إنك كادح إلىٰ ربك كدحاً فملاقيه﴾[2]، ولذلك قال مفرعاً علىٰ ذلك: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾[3] ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره . . . ﴾ الآية[4].

الثاني: الخاصة بالمؤمنين وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.

فقوله: ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر هنا للإشارة أي من كان يريد أن يلقىٰ الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه فليعمل عملاً صالحاً.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٧.
(٤) سورة الانشقاق، الآية: ١٠.

. . . .

والعمل الصالح : ما كان صواباً خالصاً .

وهذا وجه الشاهد من الآية :

فالخالص : ما قصد به وجه الله ، والدليل على ذلك قوله ﷺ : «**إنما الأعمال بالنيات**»[1] .

والصواب : ما كان على شريعة الله والدليل على قوله ﷺ : «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2] .

ولهذا قال العلماء : هذان الحديثان ميزان الأعمال فالأول : ميزان الأعمال الباطنة . والثاني : ميزان الأعمال الظاهرة .

قوله : ﴿**ولايشرك**﴾ لا : ناهية والمراد بالنهي الإرشاد .

قوله : ﴿**بعبادة ربه أحداً**﴾ خص العبادة لأنها خالص حق الله ، ولذلك أتىٰ بكلمة «رب» إشارة إلى العلة فكما أن ربك خلقك ولا يشاركه أحدٌ في خلقك فيجب أن تكون العبادة له وحده ولذلك لم يقل : ﴿لا يشرك بعبادة الله﴾ ، فالإضافة إلىٰ الرب من باب التعليل .

وقوله : ﴿**أحدا**﴾ نكره في سياق النهي ، فتكون عامة لكل أحد .

وجه الشاهد من الآية :

أن المرائي أشرك بالعبادة أحداً مع الله .

وفي هذه الآية دليل علىٰ ملاقاة الله تعالى ، وقد استدلَّ بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤية الله ؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة .

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم ١٥١٥/٣ .

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في البيوع/ باب النجش ٢/ ١٠٠ ، ومسلم موصولاً في الأقضية/ باب نقض الأحكام ١٣٤٣/٣ .

وعن أبي هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**. رواه مسلم.[1]

وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لايستحق أن يعبد؛ لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.

قوله: **«قال الله تعالى»** النبي ﷺ يرويه عن ربه ويسمى هذا النوع بالحديث القدسي.

قوله: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»**

قوله: **«أغنى»** اسم تفضيل، وليست فعلاً ماضياً، ولهذا تضاف إلى شركاء.

يعني إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره، فالله أغنى الشركاء عن المشاركة.

فالله لا يقبل عملاً له فيه شرك أبداً، وإنما لايقبل إلا العمل الخالص وحده، فكما أنه الخالق وحده فكيف يكون الخالق لك وحده وبعد ذلك تصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟ فهذا ليس عدلاً ولهذا قال الله عن لقمان: **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**[2]، فالله الذي خلقك وأعدك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئاً من حقه إلى غيره فلا شك أن هذا من أظلم الظلم.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد/ باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

وعن أبي سعيد مرفوعاً: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟** قالوا: بلى. قال: **الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه**». رواه أحمد[1]

قوله: «**عملاً**»: نكرة في سياق الشرط فتعم أي عمل من صلاة أو صيام أو حج أو جهاد أو غيره.

قوله: «**تركته وشركه**»: أي لم أثبه على عمله الذي أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد «بشركه»: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لايتركه كمن أشرك نبياً أو ولياً فإن الله لايترك ذلك النبي والولي.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ - بيان غنى الله تعالى لقوله: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

٢ - بيان عظم حق الله وأنه لايجوز لأحد أن يشرك أحداً مع الله في حقه.

٣ - بطلان العمل الذي صاحبه الرياء، لقوله: «**تركته وشركه**».

٤ - تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب وما أوجب الغضب فهو محرم.

٥ - أن صفات الأفعال لا حصر لها، لأنها متعلقة بفعل الله ولم يزل الله ولا يزال فعالاً.

قوله: «**ألا**»: أداة عرض، والغرض منها تنبيه المخاطب فهو أبلغ من

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٠، وابن ماجه في الزهد/ باب الرياء والسمعة ٢/١٤٠٦، وقال في =

. . . .

عدم الإتيان بها.

قوله: «بما هو» ما اسم موصول بمعنى الذي.

قوله: «**أخوف عليكم عندي**» أي عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص». وقال النبي ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إلـه إلا الله خالصاً من قبله**»[1]، ولا يكفي مجرد اللفظ بها بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله عز وجل.

قوله: «**المسيح الدجال**» وصفه ﷺ بعيبين.

أحدهما: حسي وهو أن الدجال أعور العين اليمنىٰ كما قال النبي ﷺ: «**والله لا يخفى عليكم أنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى**»[2].

والثاني: معنوي وهو الدجال فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملازم له وهو الدجال والكذب والتمويه، فلا أكذب منه وهو رجل من بني آدم ولكن الله سبحانه وتعالىٰ بحكمته يخرجه ليفتن الناس، وفتنته عظيمة إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

= الزوائد: «إسناده حسن، وكثير بن زيد، وربيح بن عبدالرحمن مختلف فيهما»، وأخرجه الحاكم ٤/٣٢٩ وصححه.

(١) أخرجه البخاري في العلم/ باب الحرص على الحديث ١/٥٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء/ باب واذكر في الكتاب مريم ٢/٤٨٨، ومسلم في الفتن/باب ذكر الدجّال ٤/٢٢٤٧ من حديث ابن عمر.

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض ولا يمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون كيف يكون اليوم الواحد عن سنة والشمس لها نظام لاتتعداه؟ وهذا لاشك جهل منهم بالله، فالذي جعل هذا النظام هو الله، وهو القادر على أن يغيره متى شاء، فيوم القيامة تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتكشط السماء كل ذلك بكلمة «كن» ورد هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره قال تعالى: **﴿وما قدرو الله حق قدره﴾**(1).

فالذي نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الله علىٰ كل شيء قدير، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم، ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلىٰ الله بني إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شرعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم، ومثل ما ابتلىٰ الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حرم تناله أيدهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلي الله أفراداً الناس بأشياء يمتحنهم بها قال تعالى: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾**(2).

قوله: «**الشرك الخفي**» الشرك قسمان خفي وجلي.

---

(1) سورة الزمر، الآية: ٦٧.
(2) سورة الحج، الآية: ١١.

. . . .

فالجلي: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت.
أو بالفعل: مثل الانحناء لغير الله تعظيماً.
والخفي: ما كان في القلب مثل الرياء[1] لأنه لايبين إذ لا يعلم ما في

---

(١) وهناك أمور تعنبر من مسالك الرياء الدقيقة منها:
أولاً: ماذكره الغزالي في الإحياء ٣/٣٠٥، ٣٠٦: «وأخفى من ذلك أن يختفي - أي العامل بالطاعة - بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يُسَرُّ بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدأوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد استبعاداً في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، لو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل مايتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون».
وثانياً: أن يجعل الإخلاص لله وسيلة لأحد المطالب الدنيوية لا غاية وقصدا.
قال شيخ الإسلام: «حكي أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصت أربعين يوما، فلم يتفجر شيء فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنما أخلصت للحكمة ولم تخلص لله، ثم قال شيخ الإسلام: وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه أو غير من المطالب قد عرف أن ذلك يحصل بالإخلاص لله وإرادة وجهه، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص وإرادة وجهه كان متناقضاً، لأن من أراد شيئاً لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذاته، والأول يراد لكونه وسيلة إليه، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالماً أو عارفاً أو ذا حكمة، أو صاحب مكاشفات وتصرفات ونحو ذلك، فهو هنا لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى»=

. . . .

القلوب إلا الله ويسمىٰ أيضاً «شرك السرائر» وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿**يوم تبلىٰ السرائر**﴾[1]، لأن الحساب يوم القيامة على السرائر قال تعالى: ﴿**أفلا يعلم إذا بعثر مافي القبور وحصل ما في الصدور**﴾[2]، وفي الحديث الصحيح: «فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهىٰ عن المنكر ويفعله أنه يلقىٰ في النار حتىٰ تندلق أقتاب بطنه فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهي عن المنكر ويفعله»[3].

قوله: «**يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته**»، يتساوىٰ في ذلك الرجل والمرأة والتخصيص هنا يسمىٰ مفهوم اللقب: أي أن الحكم يعلق بما هو أشرف لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: «**فيزين صلاته**»، أي يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

= درء تعارض العقل والنقل ٦/٦٦.

وثالثها: قال ابن رجب رحمه الله في شرح حديث: «**ماذئبان جائعان**»: وههنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح، قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: كفى بالنفس اطراء أنت تذمها على الملأ كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه».

(١) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٢) سورة العاديات، الآيتان: ٩، ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق/ باب صفة النار ٢/٤٣٦، ومسلم في الزهد/ باب عقوبة من يأمر بمعروف ولايفعله ٤/٢٢٩٠.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف ، **الثانية** : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله . **الثالثة** : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى . **الرابعة** : أن من الأسباب : أنه تعالى خير الشركاء . **الخامسة** : خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء . **السادسة** : أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه .

قوله : «**لما يرى من نظر رجل إليه**» : «ما» موصولة ، وحذف العائد أي للذي يراه من نظر رجل وهذه هي العلة لتحسين الصلاة فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل وهذا شرك .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف : وسبق الكلام عليها .

الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا أدخلته شيء لغير الله :

وذلك لقوله : «تركته وشركه» وصار عظيماً لأنه ضاع على العامل خساراً ، وفحوى الحديث تدل على غضب الله عز وجل من ذلك .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى : يعني الموجب للرد هو كمال غنى الله عز وجل عن كل عمل فيه شرك ، وهو غني عن كل عمل لكن العمل الصالح يقبله ويثيبه عليه .

الرابعة : أن من الأسباب : أنه تعالى خير الشركاء : أي من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحداً ، أي : الله خير الشركاء ، فلا ينازع من جعل شريكاً له فيه .

. . . .

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء: وذلك لقوله ﷺ: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال»**. وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى.[1]

---

(١) لما كان الرياء من أسباب حبوط العمل، ومقت الله، وأنه من المهلكات، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته، وهذا شيء من علاج الرياء:

أ ـ معرفة أنواع التوحيد، وتحقيقها، والتعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، فإن معرفة الله بأسمائه وصفاته تنقي القلب من الضعف، فإذا علم العبد أن الله وحده هو الذي ينفع ويضر طرح من قلبه الخوف من الناس حيث زين له الشيطان تزيين عبادته أمامهم خشية ذمهم، وطمعاً في ثنائهم، ومتى علم أن الله سميع بصير يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور طرح مراقبة الناس وأطاع الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

ب ـ أن يعلم المكلف علماً يقيناً بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر تفضل وإحسان إليه لا معاوضة.

ج ـ مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه، وأنه بالله لا بنفسه، فكل خير فهو مجرد فضل الله ومنته.

د ـ مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره في عمله، ومافيه من حظ النفس، ونصيب للشيطان.

هـ ـ خوف مقت الله تعالى.

و ـ الإكثار من العبادات غير المشاهدة، وإخفاؤها كقيام الليل، وصدقة السر، والبكاء من خشية الله.

ز ـ تذكر الموت وسكراته، والقبر وأهواله، واليوم الآخر.

ح ـ معرفة الرياء ومداخله وخفاياه حتى يحترز منه.

ي ـ النظر في عاقبة الرياء في الدنيا والآخرة.

ك ـ دعاء الله بالخلاص من هذا الداء، ومن ذلك حديث أبي موسى مرفوعا رضي الله عنه، =

. . . .

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه: وهذا التفسير ينطبق تماماً على الرياء فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته[1].

= وفيه: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه».
أخرجه الإمام أحمد ٤٠٣/٤، وغيره.
ك ـ مصاحبة أهل الإخلاص والتقوى.

(١) وهناك أمور لا تعد من الرياء منها:
أ ـ تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند كل خروج، وكذلك كل تجمل لأجلهم.
ب ـ كتمان الذنوب وعدم إظهارها.
ج ـ النشاط في العبادة عند رؤية العابدين.
د ـ إذا عمل العمل لأجل الله، ثم ألقى الله الثناء له في قلوب المؤمنين ففرح لم يضره ذلك، ولم يعد ذلك من الرياء.



باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها﴾[1] الآية.

قوله: «**من الشرك**»: من للتبعيض أي بعض الشرك.

قوله: «**الدنيا**» مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضاف إلى فاعل، وإذا أردت أن تعـرف المصدر إن كان مضافاً إلى فاعله أو مفعوله فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإنسان بعمله الدنيا، فالإنسان فاعل وإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنىً واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله، أخص من هذا الباب، وهذا أعم وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعاً مستقلاً عن الباب الذي قبله وهذا هو الظاهر؛ لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العباده فيقال هو عابد، ولايريد النفع المادي.

وفي هذا الباب لايريد أن يمدح بعبادته ولايريد المراءاة، بل يعبد الله

---

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

. . . .

مخلصاً له ولكنه يريد شيئا من الدنيا كالمال والمرتبة والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك فهو يريد بعمله نفعاً في الدنيا غافلاً عن ثواب الآخرة[1].

---

(٢) قال القرافي رحمه الله في الفروق ٢٢/٣ : «الفرق الثاني والعشرون والمائة بين قاعدة الرياء في العبادة، وبين قاعدة التشريك فيها.

اعلم أن الرياء شرك وتشريك مع الله تعالى في طاعته، وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان في تلك العبادة فالرياء: أن يعمل العمل المأمور به المتقرب به إلى الله تعالى ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يعظمه الناس أو يعظمهم فيصل إليه نفعهم أو يندفع به ضررهم.

وأما مطلق التشريك كمن يجاهد لتحصيل طاعة الله بالجهاد وليحصل له المال من الغنيمة فهذا لا يضيره ولا يحرم عليه بالإجماع، لأن الله جعل له هذا في العبادة، ففرق بين جهاده ليقول الناس: هذا شجاع، أو ليعظمه الإمام فيكثر عطاؤه من بيت المال هذا ونحوه رياء وحرام، وبين أن يجاهد لتحصيل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو مع أنه قد أشرك، ولايقال لهذا: رياء بسبب أن الرياء أن يعمل ليراه غير الله من خلقه.

وكذلك من حج وأشرك في حجه غرض المتجر، وكذلك من صام ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض التي ينافيها الصوم، ولا يقدح هذا في صومه، بل أمر به صاحب الشرع في قوله: «**يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» أي قاطع فأمر الرسول، ﷺ، بالصوم لهذا الغرض، ولو كان ذلك قادحاً لم يأمر به، ﷺ، في العبادة.

فهذا الأعراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق، بل هي تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك ولا للتعظيم، ولا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب».

وقال العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام ١١٧/١ : «إن قيل: هل يكون انتظار الإمام المسبوق ليدركه في الركوع شركاً في العبادة أم لا؟ قلت: ظن بعض العلماء ذلك، وليس كما ظن، بل هو جمع بين قربتين لما فيه من الإعانة على إدراك الركوع، وهي قربة أخرى، =

. . . .

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

١- أن يريد المال كمن أذن ليأخذ راتب المؤذن أو حج ليأخذ المال.

٢ - أن يريد المرتبة كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣ - أن يريد دفع الأذىٰ والأمراض والآفات عنه كمن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له، ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤ - أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير وهناك أمثلة كثيرة.

= والإعانة على الطاعات من أفضل الوسائل عند الله . . .».

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٠٩):

«وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها، فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة فهذا ليس له في الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن وإن كان ضعيف الإيمان لابد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمناً فإن ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصاً تاماً لكنه يأخذ على عمله جعلاً معلوماً يستعين به على العمل والدين كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يرتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ماحصل له معيناً على قيام الدين، ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءاً كبيراً لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة».

. . . .

تنبيـه :

هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أوغيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟ والجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً مثل من أذن ليأخذ الراتب ومن حج ليأخذ المال فنقول لهم:

أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمـل في الحقول النـافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات والناس لايستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قد لايجده إلَّا في الكليات، وأما بالنسبة للمرتبة فإنها لاتهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين حسن الدنيا والآخرة فلا شيء في ذلك؛ لأن الله يقول: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب﴾**[1].

فإن قيل من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيـب: أنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم بل قصد أمراً مادياً، فإخلاصه ليس كاملاً؛ لأن فيه شركاً ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بل أراد شيئاً دنيئاً أقل من الرياء.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال ولكن

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢، ٣.

لايصلي من أجل هذا الشيء هذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير في الدنيا بأسبابه الدنيوية كالبيع والزراعة فهذا لاشيء فيه والأصل أن لانجعل في العبادات نصيباً من الدنيا. وقد سبق البحث في حكم العبادة وإذا خالطها الرياء في باب الرياء .

ملاحظة :

بعض الناس عندما يتكملون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية.

فمثلاً يقولون في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفي الصيام فائدة وإزالة الرطوبة وترتيب الوجبات.

والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل؛ لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه بل ذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وعن الصوم أنه سبب للتقوى، فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانوية لكن عندما نتكلم عند عامة الناس فإننا نخاطبهم بالنواحي الدينية، وعندما نتكلم عند من لايقتنع إلا بشيء مادي فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية ولكل مقام مقال.

قوله: ﴿**من كان يريد الحياة**﴾ أي البقاء في الدنيا.

قوله: ﴿**وزينتها**﴾ أي المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المسومة. كما قال الله تعالى: ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا**﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٤).

. . . .

قوله: ﴿نوف إليهم﴾، فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة ـ الياء ـ لأنه جواب الشرط.

والمعنى: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لايسعون إلا للدنيا وزينتها ولذلك عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا كما قال تعالى: **﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾**[1].

ولهذا لما بكىٰ عمر حين رأىٰ النبي ﷺ قد أثر في جنبه الفراش فقال: ما يبكيك؟ قال: يارسول الله كسرىٰ وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت علىٰ هذه الحال فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم**»[2]، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم صار أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

قوله: ﴿**وهم فيها لايبخسون**﴾ البخس النقص أي لاينقصون مما يجازون فيه؛ لأن الله عدل لا يظلم فيعطون ما أرادوا.

قوله: ﴿**أولئك**﴾ المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

قوله: ﴿**ليس لهم في الآخرة إلا النار**﴾ فيه حصر طريقه النفي والإثبات وهذا يعني أنهم لم يدخلوا الجنة لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة. والعياذ بالله.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم/ باب الغرفة والعلية المشرفة ٢/١٩٧ ـ ١٩٩، ومسلم في الطلاق/ باب في الإيلاء واعتزال النساء ٢/١١٠٥ ـ ١١٠٨.

قوله: ﴿**وحبط ما صنعوا فيها**﴾ الحبوط الزوال والترك أي زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

قوله: ﴿**وباطل ما كانوا يعملون**﴾ باطل خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات، والمبتدأ «ما» في قوله ﴿ما كان يعملون﴾ فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالى: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون**﴾. مخصوصة بقوله تعالى: ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً**﴾[1].

فإن قيل لماذا لا نجعل آية الإسراء حاكمة على آية هود، ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب أن هذا المعنى لايستقيم لأمرين:

أولاً: أن القاعدة الشرعية في النصوص أن الأخص مقدم على الأعم وآية هود عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتها وفى إليه العمل وأعطي ما أراد أن يعطىٰ أما آية الإسراء فهي خاصة: ﴿**عجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد**﴾[1]، ولا يمكن أن يحكم بالأعم على الأخص.

الثاني: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء، لأن في فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين فيكون عموم آية هود مخصوصاً بآية

(١) سورة الإسراء، الآية: (١٨).

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع»**(1).

الإسراء، فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

واختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١ - قيل: نزلت في الكفار لأن الكافر لايريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المرتب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا فكل من شاركهم في شيء من ذلك ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

٢ - وقيل نزلت في المرائين لأنهم لا يعملون إلا للدنيا فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣ - وقيل: نزلت فيمن يريد مالاً بعمله الصالح.

والسياق يدل للقول الأول لقوله تعالى: **﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾**(2).

قوله: «**تعس**» بفتح العين أو كسرها أي خاب وهلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب الحراسة في الغزو ٢/٣٢٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١٦.

. . . .

قوله: «**عبدالدينار**» الدينار من الذهب، والدينار الإسلامي زنته مثقال، وسماه عبدالدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال في عبدالدرهم ما قيل في **عبد**الدينار. والدرهم هو النقد من الفضة وزنة الدرهم الإسلامي سبعة أعشار المثقال فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل.

وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يبين أن من الناس من يعبد الدنيا أي يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت ولهذا سمى النبي ﷺ من هذا شأنه عبداً لها، وهذا من يُعنى بجمع المال من الذهب والفضة.

قوله: «**تعس عبد الخميصة تعس عبدالخميلة**» وهذا من يعنى بمظهره وأثاثه؛ لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فرش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر فإذا كان عابداً لهذه الأمور؛ لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئاً من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا فهذا أعظم؟

قوله: «**إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**» يحتمل أن يكون المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدرياً أي إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله كأن يقول: لماذا كنت فقيراً وهذا غنياً؟ وما أشبه ذلك فيكون ساخطاً على قضاء الله وقدره لأن الله منعه.

والله سبحانه وتعالىٰ يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره إن أعطىٰ شكر وإن منع صبر.

. . . .

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الشرعي أي إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان علىٰ أن هذا الرجل لا يرضىٰ إلا للمال ولا يسخط إلا له ولهذا سماه الرسول ﷺ عبداً له.

قوله: «**تعس وانتكس**» تعس أي خاب وهلك، وانتكس: أي انتكست عليه الأمور بحيث لاتتيسر له فكلما أراد شيئاً انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد ولهذا قال:

قوله: «**وإذا شيك فلا انتقش**» أي إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبراً منه ﷺ عن حال هذا الرجل وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذىٰ، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء علىٰ من هذه حاله، لأنه لايهتم إلا للدنيا فدعا عليه أن يهلك وأن لايصيب من الدنيا شيئاً وأن لايتمكن من إزالة مايؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة حتى أصبح لا يرضىٰ إلا للمال ولا يسخط إلا له.

قوله: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**» هذا عكس الأول فهو لايهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله.

و «طوبىٰ» فعلىٰ من الطيب وهي: اسم تفضيل أطيب للمنكر، وطوبىٰ للمؤنث، والمعنى أطيب حال تكون لهذا الرجل.

وقيل: إن طوبىٰ شجرة في الجنة والأول أعم كما قالوا في ويل كلمة وعيد. وقيل: وادٍ في جهنم، والأول أعم.

وقوله: «**آخذ بعنان فرسه**» أي ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

قوله: «**في سبيل الله**» ضابطه أن يقاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً

. . . .

إسلامياً فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل حماية لنفسه أو ماله أو أهله فإن النبي ﷺ قال: «**من قتل دون ذلك فهو شهيد**».

قوله: «**أشعث رأسه مغبرة قدماه**» أي رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله فهو لايهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجاً عن طاعة الله عز وجل، وقدماه مغبرة من السير في سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله. أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفاً فليس له هم فيه.

قوله: «**إن كان في الحراسة فهو في الحراسة وإن كان في الساقة فهو في الساقة**»، الحراسة والساقة ليست من مقدم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون في مؤخرته وللجملتين معنيان:

١ - أنه لايبالي أين وضع إن قيل له احرس حرس، وإن قيل له كن في الساقة كان فيها فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

٢ - إن كان في الحراسة أدى حقها وكذا إن كان في الساقة، والحديث صالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعاً والله أعلم.

قوله: «**إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**» أي هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف حتى إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة فإن شفع لم يشفع، ولكنه شفيع عند الله وله المنزلة العالية؛ لأنه يقاتل في سبيله.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان طلب في الدخول، أو غيره.

والحديث قسم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له هم إلاَّ الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد

فيه مسائل :

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة. **الثانية**: تفسير آية هود. **الثالثة**: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة. =

استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ أن الناس قسمان كما سبق.

٢ ـ أن الذي ليس له هم إلَّا الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة بخلاف الجازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة، ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣ ـ أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألّا تكون همه المراتب بل يكون همه القيام بما يجب عليه إما في الحراسة أو الساقة أو القلب أو الجنب حسب المصلحة.

٤ ـ إن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لايستلزم منه دنو مرتبته عند الله عز وجل فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول ﷺ: «**طوبىٰ له**»، ولم يقل إن سأل لم يعط بل لاتهمه الدنيا حتىٰ يسأل عنها لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة.

فيه مسائل :

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة:

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي: وإن لم يعط سخط. **الخامسة**: قوله: «تعس وانتكس». **السادسة**: قوله «وإذا شيك فلا انتقش». **السابعة**: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

وهذا من الشرك لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا فيطغىٰ على قلبه حب الدنيا حتىٰ يقدمها على الآخرة والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

الثانية: تفسير آية هود: وقد سبق ذلك.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة. وهذه العبودية لا تدخل في الشرك ما لم يصل بها إلىٰ حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله عز وجل ومحبة أعمال الآخرة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط.

هذا تفسير لقوله ﷺ: «**عبدالدينار، عبدالدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**». وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاه وسخطه تابعاً لهذه الأشياء.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «إذا شيك فلا انتقش».

يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبراً أو دعاء، وسبق شرح ذلك.

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

فقوله في الحديث: «**طوبىٰ لعبد. . . .**» يدل على الثناء عليه وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب.



باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ماأحل الله أو تحليل ماحرمه فقد اتخذهم أربابا

وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون قال أبو بكر وعمر»[1]

قوله: **«من أطاع العلماء»**، «من» يحتمل أن تكون شرطية بدليل قوله: «فقد اتخذهم»، لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة أي: «باب الذي أطاع العلماء».

وقوله: **«فقد اتخذهم»** خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم وعلى الأول تقرأ «بابٌ» بالتنوين، وعلى الثاني بدون تنوين، والأول أحسن.

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله.

وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**[2] فجعل الله طاعته مستقلة وطاعة رسوله مستقلة وطاعة أولي الأمر تابعة، ولهذا

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد ١/٣٣٧، والخطيب في الفقيه والمتفقه ١/١٤٥، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٣٩، وابن حزم في حجة الوداع ص (٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

. . . .

ما جيء بالفعل «وأطيعوا» فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأولـو الأمـر هم أولوا الشأن وهم العلماء؛ لأنه يسند إليهم أمر الشرع والعلم به، والأمراء لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمـراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والولاية.

قوله في تحريم ما أحل الله وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، وكلاهما خطأ، ومع ذلك فإن تحليل الحرام أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني على الأصل وهو الحل ورحمة الله سبحانه سبقت غضبه فلا يمكن أن نحرم إلا ما تبـين تحريمـه، ولأنه أضيق وأشد والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما في العبادات فيشدد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع. والأصل في الأشياء حل، والمنع عبادة إلا بإذن الشارع[1].

قوله: «أرباباً» جمع رب وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان تصرف قدري، وتصرف شرعي.

فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله باعتبـار التصرف الشرعي لأنـه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعاً يعمل به.

قوله: «حجارة من السماء» أي من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم؛ ونزول

---

(١) أصول الفقه وقواعده، ص: (٢).

. . . .

الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل بل هو ممكن قال تعالى في أصحاب الفيل: ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل**﴾[1]، وقال تعالى في قوم لوط: ﴿**إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر**﴾[2].

والحاصب: الحجارة تحصبهم من السماء.

قوله: «**وتقولون قال أبو بكر وعمر**»، أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب قال النبي ﷺ: «**إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا**». رواه مسلم[3]، وروي عنه ﷺ أنه قال: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[4] وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**»[5]، ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصاً في رأيه، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإن يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء، فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن

---

(١) سورة الفيل، الآيتان: (٣، ٤.

(٢) سورة القمر، الآية: ٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد/ باب قضاء الصلاة الفائتة ١/٤٧٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في كتاب فضائل الصحابة ١/١٨٦، وفي المسند ٥/٣٩٩ والبخاري في الكنى ص(٥٠)، والترمذي في المناقب/ باب في مناقب أبي بكر وعمر ٩/٢٧٠، وقال: حديث حسن»، وابن ماجة في المقدمة ١/٣٧، وابن سعد ٢/٣٣٤، والحميدي ١/٢١٤، والخطيب في الفقيه والمتفقه ١/١٧٧، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٢٣.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٦، ١٢٧، وأبو داود في السنة/ باب في لزوم السنة ٥/١٣ ـ ١٥، والترمذي في العلم/ باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدعة ٧/٣١٩ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة في المقدمة ١/١٥، والدارمي (١٩٦)، وابن حبان ـ موارد (١٠٢)، وأبونعيم في الضعفاء ص (٤٦) وقال: «حديث جيد صحيح من حديث الشاميين».

وقـال أحمـد بن حنبل: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمـره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾[1]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

هو دون أبي بكر وعمر والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض، فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى، والتعصب المذهبي الذي ليس مبنياً على أساس سليم.

وبعض الناس يرتكب خطأً فاحشاً إذا قيل له قال رسول الله ﷺ قال: لكن في الكتـاب الفـلاني كذا وكذا فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين**﴾[1]، أما صاحب الكتاب فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ ولا يقال إنه معصوم يعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

قوله: «**عجبت**» العجب نوعان:

الأول: عجب استحسان كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله».

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٥.

. . . .

الثاني: عجب إنكار كما في قوله تعالى: ﴿**بل عجبت ويسخرون**﴾[1]، والعجب في كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

قوله: «**الإسناد**»: المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلى راويه، أي عَرَفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله.

قوله: «**يذهبون إلى رأي سفيان**»، أي سفيان الثوري؛ لأنه صاحب المذهب المشهور وله أتباع لكنهم اندثروا.

فهم يذهبون إلى رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به الحديث.

قوله: «**فليحذر**» الفاء عاطفة واللام للأمر ولهذا سكنت وجزم الفعل بها، لكن حرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

قوله: «**عن أمره**» الضمير يعود للرسول ﷺ بدليل أول الآية قال تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره**﴾[2].

فإن قيل: لماذا عدي الفعل (بعن) مع أن (يخالف) يتعدىٰ بنفسه؟

أجيب: أن الفعل ضمن الإعراض أي يعرضون عن أمره زهداً فيه وعدم مبالاة به.

و (أمره): واحد الأوامر وليس واحد الأمور لأن الأمر هو الذي يخالف فيه، وهو مفرد مضاف فيعم جميع الأوامر.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.

وعن عدي بن حاتم: (أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾[1] **الآية**: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟** فقلت: بلى، قال: **فتلك عبادتهم**». رواه أحمد والترمذي وحسنه[2].

قوله: «**اتخذوا**» الضمير يعود للنصارى، لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلها بل ادعو أنه ابن زانية وحاولوا قتله، وادعوا أنهم قتلوه، ويحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارى جميعاً ويختص النصارى باتخاذ المسيح ابن مريم وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها.

قوله: «**أحبارهم ورهبانهم**»، الأحبار جمع حِبر وحَبر؛ وهو العالم الواسع العلم، والرهبان جمع راهب وهو العابد الزاهد.

قوله: «**أرباباً من دون الله**»: أي مشاركين لله عز وجل، في التشريع؛ لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع.

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن/ تفسير سورة التوبة ٨/٢٤٨، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغطيب بن أعين ليس بمعروف في الحديث»، وابن جرير ١٠/٨٠، ٨١، والبهقي ١٠/١١٦، والمزي في تهذيب الكال ٢/١٠٩، وانظر الدر المنثور/ للسيوطي ٣/٢٣٠.
وقد حسنه شيخ الإسلام في الإيمان ص(٦٤).

. . . .

قوله: «**والمسيح ابن مريم**» أي: اتخذوه إلـهاً مع الله بدليل قوله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا إلـهاً واحداً**﴾ والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر واجتناب النواهي[1].

قوله: ﴿**إلـهاً واحداً**﴾ هو الله عز وجل، وإلـه أي مألوه معبود مطاع، وليس بمعنىٰ آلـه أي قادر على الاختراع، فإن هذا معنى فاسد ذهب إليه المتكلمون أو عامتهم فيكون معنى ﴿**لا إلـه إلا الله**﴾ علىٰ هذا القول لا رب إلا الله وهذا ليس بالتوحيد إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ موحدين لأنهم يقولون لا رب إلا الله قال تعالى: ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله**﴾[2]، وهذه إحدىٰ القراءتين وهي سبعيه.

قوله: ﴿**سبحانه عما يشركون**﴾ «سبحان» اسم مصدر وهي معمول أو

---

(١) قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله في معنى هذه الآية في الفتاوى ٧/ ٧٠: «هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ماحرم الله، وتحريم ماأحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركا وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره في خلاف الدين واعتقد ماقاله ذلك دون ماقاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم مايفعله من المعاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في الصحيح عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**».

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

. . . .

مفعول لفعل محذوف وجوباً تقديره يسبح سبحاناً أي تسبيحاً؛ لأن اسم المصدر بمعنى المصدر فسبحان مفعول مطلق عاملها محذوف وجوباً وهي ملازمة للإضافة إما إلى مضمر كما في الآية: ﴿سبحانه﴾ أو إلى مظهر كما في ﴿سبحان الله﴾.

والتسبيح: التنزيه أي تنزيه الله عن كل نقص ولايحتاج أن نقول ومماثلة المخلوقين؛ لأن المماثلة نقص، ولكن إذا قلناها فذلك من باب زيادة الإيضاح حتى لايظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنى تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مماثلة المخلوقين.

وقوله: ﴿عما يشركون﴾ أي مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان فهو منزه عن كل شرك وعن كل مشرك به.

وقوله: ﴿عما يشركون﴾، هذا من البلاغة في القرآن لأنها جاءت محتملة أن تكون «ما» مصدرية فيكون المعنى عن شركهم، أو موصولة ويكون المعنى سبحان الله عن الذين يشركون به وهي صالحة للأمرين فتكون شاملة لهما؛ لأن الصحيح جواز استعمال المشترك في معنييه إذا لم يكن بينهما تعارض. فيكون التنزيه عن الشرك وعن المشرك به.

قوله: «**إنَّا لسنا نعبدهم**» أي لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان، وأما بالنسبة للمسيح ابن مريم فإنهم يعبدونه بدليل قوله: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه».

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبداً؛ لأنه رسول الله فما أحله فقد أحله الله، وما حرمه فقد حرمه الله وقد حاول بعض الناس أن يعل الحديث

. . . .

لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب عن التعليل المذكور بأن قول عدي لسنا نعبدهم يعود على الأحبار والرهبان، أما عيسىٰ ابن مريم فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحرام وكلاهما محرم؛ لقوله تعالى: **﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب. . .﴾**[1].

قوله: «**فتلك عبادتهم**» ووجه كونها عبادة: أن من معنىٰ العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كان في طاعة الله فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله كما لو أمرك بالصلاة فصليت فلا تكون قد عبدت أبوك بطاعتك له، ولكن عبدت الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.

٢ ـ أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله فهي عبادة لله.

٣ ـ أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٦.

. . . .

واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم مقدماً له ساخطاً لحكم الله، فهو كافر، لأنه كره ما أنزل الله فأحبط الله عمله ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضياً في حكم الله وعالماً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد ولكن لهوىً في نفسه اختاره كأن يريد مثلاً وظيفة، فهذا لايكفر ولكنه فاسق.

الثالثة: أن يتابعهم جاهلاً فيظن أن ذلك حكم الله فينقسم إلى قسمين:

أ ـ أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفرط أو مقصر فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب ـ أن لايكون عالماً ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أُمِرَ به وكان معذوراً بذلك ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أن من أُفتي بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه**»[1] ولو قلنا بإثمه بخطأ غيره للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟ أجيب: أننا لو قلنا بكفرهم لزم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢/٣٢١، ٣٦٥، وأبو داود في العلم/ باب التوقي في الفتيا ٤/٦٦، وابن ماجة في المقدمة/ باب اجتناب الرأي ١/٢٠، والدارمي في المقدمة ١/٥٣، والحاكم في العلم ١/١٢٦ وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة»، ووافقه الذهبي.

من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله[1].

---

(١) وقال الشيخ محمد بن إبراهيم في رسالته تحكيم القوانين ص (٥ ـ ٨): «فانظر كيف سجل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق، ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، وماجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيره يدل أن الحاكم بغير ماأنزل الله كافر إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة.

أما الأول: وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع:

أحدهما: أن يجحد الحاكم بغير ماأنزل الله أحقية حكم الله ورسوله.. وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاً مما جاء الرسول، ﷺ، قطعياً فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثاني: ألا يجحد بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول، ﷺ، أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقاً أو بالنسبة لما استجد من الحوادث... وهذا لا ريب أنه كفر.

الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكنه اعتقد أنه مثله فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

الرابع: ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله... لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهذا كالذي قبله لاعتقاده جواز ماعلم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وحكماً وإلزاماً،

. . . .

فائـدة :

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١ ـ قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[١].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[٢].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[٣].

واختلف أهل العلم في ذلك:

فقيل إن هذه الأوصاف لموصوف واحد؛ لأن الكافر ظالم لقوله تعالى:

= ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله، ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي، والقانوني البريطاني وغيرها من القوانين... فأي كفر فوق هذا الكفر، وأيُّ مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله، بعد هذه المناقضة.

السادس: مايحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به.. عند النزاع بقاءاً على أحكام الجاهلية وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله.

وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة، فقد تقدم أن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لقول الله عز وجل في قوله رضي الله عنه: «كفر دون كفر»... وذلك بأن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى، وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة، فإن معصية سماها الله كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفرا».

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

. . . .

﴿والكـافـرون هم الظالمون﴾[1]، وفاسق لقوله تعالى: **﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾**[2]، أي كفروا.

وقيل إنها لموصفين متعددين، وإنها على حسب الحكم:

فيكون كافرا في ثلاثة أحوال:

أ ـ إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: **﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾**[3] فكل ما خالف حكم الله فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لايجوز الحكم بغير ما أنزل الله، فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب ـ إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

جـ ـ إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

بدليل قولـه تعـالى: **﴿ومن أحسن من الله حكـماً لقـوم يوقنـون﴾**[4] فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام بدليل قوله تعالى مقرراً ذلك: **﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾**[5]، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكم الحاكمين فمن ادَّعىٰ أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن الأحكام فهو كافر؛ لأنه مكذب للقرآن.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٥) سورة التين، الآية: ٨.

. . . .

ويكون ظالما :

إذا اعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله أحسن الأحكام وأنه أنفع للعباد والبلاد وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم.

ويكون فاسقا :

إذا كان لهوى في نفسه، مثل: أن يحكم لشخص لرشوة رشي إياها، أو لكونه قريباً، أو صديقاً، أو يطلب من ورائه حاجةً وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق وإن كان أيضاً ظالماً لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم[1]. والراجح: هو القول الثاني أي أن هذه الأوصاف لموصوفين متعددين بحسب الأحوال.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله، وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين فهو كافر؛ لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر فمعنى ذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

---

(١) قال القرطبي في تفسير ٦/١٩١: «إن حكم به ـ أي بغير ماأنزل الله ـ هوى ومعصية، فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين».

وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة ٥/١٣١: «أما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطناً وظاهراً، لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة».

وقال ابن القيم في مدارج السالكين ١/٣٣٦: «إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر».

. . . .

ولكن قد يكون الواضع له معذوراً مثل أن يغرر به كأن يقال إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلىٰ الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون إن مسألة المعاملات لا دخل للإسلام فيها، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضىٰ الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب علىٰ الناس فهذا لاشيء فيه.

وهذا لاشك في خطئه فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لاشك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها فالشرع كامل من جميع الوجوه قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾[1].

وكيف يقال: إن المعاملات ليست من الشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع لفسد الناس.

وأنا لا أقول نأخذ بكل ما قاله الفقهاء لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم وهذا قصور، أو نقص التدبر وهذا تقصير.

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلى الحق فلابد أن يصل إليه حتى في المعاملات قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

. . . .

القرآن﴾[1]، وقال تعالى: **﴿أفلم يدبروا القول﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾**[4]، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه فإن القرآن بينه.

ومن سن قوانين تخالف الشريعة وادَّعىٰ أنها من المصالح المرسلة فهو كاذب في دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق، ومن الشرع، وإن لم يعتبرها فليست مصالح ولا يمكن أن تكون كذلك ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع فهو مصلحة وما نفاه فليس بمصلحة وما سكت عنه فهو عفو.

والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها كعيد ميلاد الرسول فزعموا أن فيه شحذاً للهمم وتنشيطاً للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمداً عبده ورسوله ويصلون عليه والذي لا يحي قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يحي قلبه بساعة يؤتي فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ، فهذه مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار، فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.

(٣) سورة (ص)، الآية: ٢٩.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

. . . .

أولئـك العلماء وتوسع فيها، وعليه فإنها تقاس بالمعيار الصحيح فإن اعتبرها الشرع قبلت وإلا كما قال الإمـام مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم: أنه يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام فلا يتسرع في البت بها خصـوصـاً في التكفـير الـذي صار بعض أهـل الغيرة والعاطفة ويطلقـون بدون تفكـير ولا رويه مع أن الإنسـان إذا كفـر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له عاد ذلك إلىٰ قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة فيكون مباح الدم والمال ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكذا يجب ألا نجبن في تكفـير من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١ ـ ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢ ـ انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مكفر فإن كان جاهلاً فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم وهذا إقامة حد وليس بكفر والتحرز من التكفير أولىٰ وأحرىٰ.

قال تعالى: ﴿**لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون**﴾[3]، ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفر لقوله

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٥.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية النور. **الثانية**: تفسير آية براءة. **الثالثة**: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي. **الرابعة**: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان. **الخامسة**: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

تعالى: ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾[1] ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكه: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[2].

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية النور:

وهي قوله تعالى: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾[3].

الثانية: تفسير آية براءة، وهي قوله تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً**

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات/ باب التوبة ٤/١٥٤، ومسلم في التوبة/ باب في الحصن على التوبة ٤/٢١٠٣ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) سورة النور، الآية: ٦٣.

. . . .

من دون الله﴾[1] الآية وقد سبق ذلك.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادات التي أنكرها عدي، لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود، والنذر وما أشبهه لكن بيَّن ﷺ المراد من عبادتهم هي طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان: أي إذا كان أبو بكر وعمر لايمكن أن يعارض قول النبي ﷺ بقولهما؟ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقولهما؟ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقول من دونهما؟ فهو أشد وأقبح، وكذلك مثّل الإمام أحمد بسفيان الثوري وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالى: **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾** الآية.

الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال... إلخ. يقول المؤلف رحمه الله تعالى: تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال.... وهذا لا شك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر، ثم قال: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين» أي يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لايستحقون أن يكون بمنزلة أبي بكر وعمر.

ثم قال: «وعبد بالمعنىٰ الثاني من هو من الجاهلين»: وهو الطاعة والاتباع، فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحلَّ الله كما يوجد في

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

. . . .

بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئاً فصاروا يعبدون بهذا المعنى، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا في زمان المؤلف فكيف بزماننا؟ وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «**لا يأتي زمان علىٰ الناس إلا وما بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»[1]، وقال النبي ﷺ للصحابة: «**ومن يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيراً**»[2]، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدىٰ من عصر من بعدهم.

والناس لايحسون بالتغير؛ لأن الأمور تأتي رويداً رويداً ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء لوجد التغير الكثير المزعج ـ نسأل الله السلامة ـ فعلينا الحذر وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمىٰ وأن يصان، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحلَّ الله أبداً مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عباد الله عز وجل تذللاً وتعبداً وطاعة.

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن/ باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه ٤/٣١٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق ١/٢١١.

باب قول الله تعالى:

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[1]. الآيات.

هذا الباب له صلة قوية بما قبله؛ لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله.

قوله: **﴿ألم تر﴾** الاستفهام يراد به التقرير والتعجب من حالهم والخطاب للنبي ﷺ.

قوله: **﴿يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾** هذا يعين أن يكون الخطاب للنبي ﷺ هنا، ولم يقل الذين آمنوا؛ لأنهم لم يؤمنوا بل يزعمون ذلك وهم كاذبون.

والـذي أنزل إلى النبي ﷺ الكتاب والحكمة قال تعالى: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾**[2]، قال المفسرون: الحكمة السنة، وهم يزعمون أنهم آمنوا بذلك لكن أفعالهم تكذب أقوالهم حيث يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلىٰ الله ورسوله.

قوله: **﴿إلى الطاغوت﴾** صيغة مبالغة من الطغيان ففيه اعتداء وبغي.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠، وما بعدها من الآيات.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

. . . .

والمراد به هنا كل حكم خالف حكم ورسوله، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله. أما الطاغوت بالمعنى الأعم فقد حده ابن القيم بأنه: «كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع». وقد تقدَّم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد[1].

قوله: ﴿**وقد أمروا أن يكفروا**﴾ أي أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمراً ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه فهذه الإرادة على بصيرة إذ الأمر قد بين لهم.

قوله: ﴿**ويريد الشيطان**﴾ جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿**أن يضلهم ضلالاً بعيداً**﴾ أي يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة ولكن بالتدريج.

فقوله: ﴿**بعيداً**﴾ أي ليس قريباً لكن بالتدريج شيئاً فشيئاً حتى يوقعهم في الضلال البعيد.

قوله: ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول**﴾، أي قال لهم الناس أقبلوا: ﴿إلى ما أنزل الله﴾ من القرآن ﴿وإلى الرسول﴾ نفسه في حياته وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

قوله: ﴿**رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً**﴾.

الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر بدليل قوله: ﴿تعالوا﴾ فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده.

والمعنىٰ كأنما تشاهدهم.

---

(١) ١/٢٢.

. . . .

وقوله: ﴿يصدون عنك صدودا﴾ يعرضون عنك إعراضاً.

وقوله: ﴿رأيت المنافقين﴾ إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولىٰ: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق؛ لأن المؤمن حقاً لابد أن ينقاد لأمر الله ورسوله.

الثالثة: التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه فإذا تغير حصل له انتباه.

وقوله: ﴿رأيت المنافقين﴾ جواب «إذا». وكلمة «صد» تستعمل لازمة، أي توصف للشخص يتعداه إلى غيره، ومصدرها صدود، ومتعدية أي صد غيره، ومصدرها صد.

وقوله: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾.

الاستفهام هنا يراد به التعجب أي كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة.

والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين:

فالدنيوية مثل: الفقر والجدب، وما أشبه ذلك فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم خافوا وقالوا: يارسول الله ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

قوله: ﴿بما قدمت أيديهم﴾ الباء هنا للسببية. و﴿ما﴾ اسم موصول و﴿قدمت﴾ صلته والعائد محذوف تقديره بما قدمته أيديهم، وفي اللغة العربية يطلق هذا التعبير ويراد به نفس الفاعل أي بما قدموه من الأعمال السيئة.

. . . .

وقوله: ﴿إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ ﴿إن﴾ بمعنى: «ما» أي ما أردنا إلا إحساناً بكوننا نسلم من الوضيعة والعار، وتوفيقاً بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان أي نمشي معكم ونمشي مع الكفّار وهذه حال المنافقين، فهم قالوا: أردنا أن نحسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع فالله علاّم الغيوب قال ـ تعالى ـ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾[1]، بل الله أعلم بك بما فيك قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾[2]، وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه، ولهذا قيل لأعرابي: «بم عرفت ربك»؟ قال: «بنقض العزائم وصرف الهمم».

فالإنسان يعزم على الشيء ثم لايدري إلا وعزيمته منتقضة بدون سبب ظاهر.

قوله: ﴿فأعرض عنهم﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.

قوله: ﴿وعظهم﴾ أي ذكرهم وخوفهم لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم وقم بما يجب عليك من الموعظة، لتقوم عليهم الحجة.

قوله: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾.

اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

. . . .

الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ أي قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم أي يبلغ في أنفسهم.

الثاني: أن المعنى انصحهم سراً.

الثالث: أن المعنى قل لهم في أنفسهم أي في شأنهم وحالهم قولاً بليغاً في قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة؛ لأن اللفظ صالح لها جميعاً ولا منافاة بينها. وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبه لها وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض فإنه يؤخذ بجميع المعاني.

وبلاغة القول تكون في أمور:

الأول: هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه على وجه مؤثر.

وكان النبي ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشاً يقول صبحكم ومساكم[1].

الثاني: أن تكون ألفاظه جزلة مترابطة محدودة بالموضوع.

الثالث: أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان بأن يكون كلامه سليم التركيب موافقاً للغة العربية مطابقاً لمقتضى الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن هذه الآيات تنطبق تماماً على أهل التحريف والتأويل في صفات الله لأن هؤلاء يقولون إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول يعرضون ويصدون ويقولون نذهب إلى فلان وفلان وإذا اعترض عليهم قالوا نريد الإحسان والتوفيق وأن

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٢/٢ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع»، ذكره رحمه الله في الفتوى الحموية.

قوله: **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾**:

الأول: إفساد حسي مادي، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي فهي من أكبر الفساد في الأرض قال تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾**، وقال تعالى: **﴿ولو أن أهل القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾**[5].

(١) سورة البقرة، الآية: ١١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥ ـ ٦٦.

. . . .

قوله: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ وهذه دعوى من أبطل الدعاوى حيث قالوا ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح.

قولـه: ﴿ألا إنهم هم المفسـدون﴾، ﴿ألا﴾ أداة استفتـاح، والجملة مؤكدة بأربع مؤكدات وهي: ﴿ألا﴾ و﴿إن﴾ وضمير الفصل ﴿هم﴾ والجملة الإسمية، فالله قابـل حصرهم بأعظم منه فهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ويدعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، وذلك أن الحكم بغير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض.

قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ يشمل الفساد.المادي والمعنوي كما سبق.

قوله: ﴿بعد إصلاحها﴾: من قبل المصلحين ومن ذلك الوقوف ضد دعـوة أهل العلم، والوقوف ضد دعوة السلف، وضد من ينادي بأن يكون الحكم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿بعد إصلاحها﴾: من باب تأكيد اللوم والتوبيخ إذ كيف يفسد الصـالـح؟ وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر ؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب من الجميع هو الإصلاح بعد الفساد.

وقـوله: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ الآية[1] وعن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[2]، قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح[3].

مناسبة الآية للباب:

أن الحكم بما أنزل الله إصلاح والحكم بغير ما أنزل الله إفساد. قوله: ﴿أفحكم الجـاهلية يبغون﴾: الاستفهام للتوبيخ، و﴿حكم﴾ مفعول مقدم «ليبغون» وقدم لإفادة الحصر والمعنى: أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية.

و﴿يبغون﴾ يطلبون، والإضافة في قوله: ﴿حكم الجاهلية﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنىٰ أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة ومنها: البحائر والسوائب، وقتل الأولاد وغيرها.

ثانيها: أن يكون المعنى أفحكم الجهل الذي لا يبنى على العلم يبغون سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم لم تكن وهذا أعم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب في التأريخ ٣٦٩/٤، والبغوي في شرح السنـة ٢١٢/١، وابن الجـوزي في ذم الهوى ص١٨. وانظر كلام ابن رجب على سند الحديث في جامع العلوم والحكم ص (٣٣٨).

(٣) الأربعون النووية حديث رقم (٤١).

. . . .

والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله فهو جهل وجهالة.

فإن كان مع العلم بالشرع فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع فهو جهل. والجهالة هي العمل بالخطأ سفهاً لا جهلاً قال تعالى: ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب**﴾[1]، وأما من يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه لكن عليه أن يتعلم.

قوله: ﴿**ومن أحسن من الله حكماً**﴾ ﴿**من**﴾ اسم استفهام بمعنىٰ النفي أي لا أحد أحسن من الله حكماً، وهذا النفي مشرب معنى التحدي فهو أبلغ من قول: ﴿**لا أحسن من الله حكماً**﴾ لأنه متضمن للنفي وزيادة.

وقوله: ﴿**حكماً**﴾ تمييز؛ لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم فبيَّن هذا المبهم وميزه.

والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها فأين الحسن في ذلك؟

أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنةً، كما يضرب الإنسان ولده تربية له فيعد هذا الضرب فعلاً حسناً، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿**فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين**﴾[2]، وهذا الحسن في حكم الله ليس مبيناً لكل أحد. كما قال تعالى: ﴿**لقوم**

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٦.

. . . .

يوقنون﴾، وكلما ازداد إيماناً ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلاً لحسن أحكام الله، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضاً وعلى هذا فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية والشرعية.

وقوله: **﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾** خبر لا يدخله الكذب إطلاقاً، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص. وقالوا: **﴿كل من عند ربنا﴾**[1].

قوله: **«لا يؤمن أحدكم»** أي إيماناً كاملاً إلا إذا كان لا يهوىٰ ما جاء به النبي ﷺ فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى: **﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾**[2].

قوله: **«حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»** الهوىٰ بالقصر هو الميل، وبالمد وهو الريح، والمراد الأول.

و (حتى) للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ، هو القرآن والسنة.

وإذا كان هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ لزم من ذلك أن يوافق تصديقاً بالأخبار، وامتثالاً للأوامر.

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوىٰ على هوى الضلال لا على هوى الإيمان قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلـٰهه هواه﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿واتبعوا**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة محمد، الآية: ٩.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة، فيتحاكما إليه فنزلت **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾**[1] الآية[2].

أهواءهم﴾[3]، وغيرها من الآيات الدالة، على ذم من اتبع هواه، ولكن إذا كان الهوى تبعاً لما جاء به النبي ﷺ محموداً وهو من كمال الإيمان.

وقد سبق بيان أن من اعتقد أن حكم غير الله مساو لحكم الله، أو أحسن، أو أنه يجوز التحاكم إلى غير الله فهو كافر.

وأما من لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ فإن كان كارهاً فهو كافر، وإن لم يكن كارهاً ولكن آثر محبة الدنيا على ذلك فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان.

قوله: «**قال النووي حديث صحيح**» صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم منهم ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» ولكن معناه صحيح.

قوله: «**وقال الشعبي**» أي في تفسير الآية.

قوله: «**رجل من المنافقين**» هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر وسمي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ٥/٩٧ عن الشعبي مرسلاً.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٤.

. . . .

منافقًا من النافقاء وهي جحر اليربوع، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء ـ أي يحفر إلى الأرض ويحفر إلى أعلى فإذا بقي شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف ـ فإذا حجر عليه من الباب خرج من النافقاء.

قولـه: «**ورجل من اليهود**» اليهود هم المنتسبون إلى دين موسىٰ عليه السلام، وسموا بذلك إما من قوله: ﴿**إنَّا هدنا إليك**﴾ أي رجعنا، أو نسبة إلى أبيهم يهوذا ولكن بعد التعريب صارت بالدال.

قولـه: «**إلىٰ محمـد**» أي النبي ﷺ ولم يذكـره بوصف الرسالة؛ لأنهم لايؤمنون برسالته ويزعمون أن النبي الموعود به سيأتي.

قوله: «**عرف أنه لايأخذ الرشوة**» تعليل لطلب التحاكم إلى النبي ﷺ.

والـرشـوة: مُثَلَّثةُ الراء فيجوز الرِّشوة، الرَّشوة، والرُّشوة، وهي: المال المدفوع للتوصل إلى شيء.

قال أهل العلم: لاتكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلى باطلٍ أو دفع حق، أما من بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها باطلاً عن نفسه فليست حراماً على الباذل أما على آخذها فحرام».

قولـه: «**فـاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة**» كأنه صار بينهما خلاف وأبىٰ المنافق ـ والله أعلم ـ أن يتحاكما إلى النبي ﷺ.

والكاهن: من يدَّعي علم الغيب في المستقبل، وكان للعرب كهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا فربما أصابوا مرة من المـرات، وربـما أخـطأوا، فإذا أصـابـوا ادعوا علم الغيب فكان العرب يتحاكمون إليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون....**﴾ الآية.

وقيل: «نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهم: نترافع إلى النبي ﷺ وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحدهم القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله»[1].

قوله: «**رجلين**» مبهمين فيحتمل أن يكونا من المسلمين المؤمنين، ويحتمل أن يكونا من المسلمين المنافقين، ويحتمل غير ذلك.

قوله: «**إلىٰ كعب بن الأشرف**» وهو رجل من زعماء بني النضير.

قوله: «**أكذلك**» خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: أكذلك الأمر.

قوله: «**فضربه بالسيف**» الضارب عمر.

وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه.

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضي الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ؟

أجيب: أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غيرته فقتله؛ لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام وقد قال النبي ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[2].

---

(١) علقه الواحدي في أسباب النزول ص (١٠٧، ١٠٨)، والبغوي في تفسيره ١/٥٥٢.
وقد أشار الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى ضعفه بقوله: «وقيل...»، وانظر تيسير العزيز ص (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب لايعذب بعذاب الله ٤/٣٦٣ من حديث ابن عباس.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت، **الثانية** : تفسير آية البقرة: ﴿**وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض**﴾ . الآية . **الثالثة** : آية الأعراف : ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾ **الرابعة** : تفسير: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ **الخامسة** : ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى. **السادسة** : تفسير الإيمان الصادق والكاذب. **السابعة** : قصة عمر مع المنافق، **الثامنة** : كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ .

فيه مسائل :

الأولى : «تفسير آية النساء ومافيها من الإعانة على فهم الطاغوت» .

وهي قوله تعالى : ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك**﴾ .

وقوله : «وما فيها من الإعانة على الطاغوت» أي أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك فيشمل كل ماتجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع، فالأصنام والأمراء والحكام الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت.

الثانية : تفسير آية البقرة : ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون**﴾ ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض؛ لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي.

الثالثة : تفسير آية الأعراف : ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**» .

وقد سبق .

. . . .

الرابعة: تفسير: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ وقد سبق ذلك، وقد بينا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع، وأضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه وأنه مبني على الجهل والضلال.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولىٰ، وقد سبق.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب: فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والايمان الكاذب ما سوىٰ ذلك.

السابعة: قصة عمر مع المنافق: حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحاً لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ: وهذا واضح من الحديث.



باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحداً أنكر اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة مثل أن يقول ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه أو ليس له عين فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل وهو أن لايذكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها وهذان نوعان:

الأول: أن يكون للتأويل مسوغ في اللغة العربية فهذا لايوجب الكفر.

الثاني: أن لايكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيباً، مثل أن يقول المراد بقوله تعالى: ﴿**تجري بأعيننا**﴾[1]، تجري بأراضينا، فهذا كافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً فهو مكذب.

ولو قال في قوله تعالى: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾[2]، المراد بيديه السموات والأرض فهو كفر أيضًا لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولاهو مقتضى الحقيقة الشرعية فهو منكر ومكذب، لكن إن قال المراد باليد النعمة أو القوة فلا

(١) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

. . . .

يكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة قال الشاعر:

وكم لظلام الليـل عنـدك من يد تحدث أن المـانـويـة تكـذب

فقوله: (من يد) أي من نعمة؛ لأن المانوية يقولون إن الظلمة لاتخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: **(من الأسماء)** جمع اسم واختلف في اشتقاقه، فقيل: من السمو وهو الارتفاع ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.

وقيل: من السمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما.

والمراد بالأسماء هنا: أسماء الله عز وجل، وبالصفات صفات الله عز وجل، والفرق بين الإسم والصفة أن الإسم ما تسمى به الله والصفة مااتصف به.

البحث في أسماء الله:

المبحث الأول:[1]

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلامًا محضة فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا فالإنسان يسمي ابنه محمداً وعليًّا دون أن يلحظ معنى الصفة فقد يكون اسمه عليًّا وهو من أوضع الناس أو عبدالله وهو من أكفر الناس بخلاف أسماء الله؛ لأنها متضمنة للمعاني فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة وهكذا.

---

(١) انظر باب احترام أسماء الله تعالى.

. . . .

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تضمن وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام وهي دلالته على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾[1]، فعلمنا القدرة من كونه خلق السموات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك؛ لأن الخلق لابد فيه من علم فمن لايعلم لا يخلق وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه.

المبحث الثاني:

أن أسماء الله مترادفة متباينة، المترادف: ما اختلف لفظه واتفق معناها، والمتباين: ما اختلف لفظه ومعناه، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله عز وجل؛ لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها؛ لأن معنى الحكيم غير معنى السميع، وغير معنى البصير، وهكذا.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

. . . . ؛ . . . .

المبحث الثالث:

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: **«اللهم إني عبدك ابن عبدك وابن أمتك ـ إلى أن قال ـ أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**[1]، ومما استأثر الله به في علم الغيب لايمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم ليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»**[2]، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة فقوله: «من أحصاها» تكميل للجملة الأولى، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله، فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة بل معناه أن هذه المائة معدة لهذا الشيء.

---

(١) أخرجه أحمد ١/٣٩١، ٤٥٢، وابن حبان (٢٣٧٢)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، والحاكم ١/٥٠٩ وقال: «صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه»، وأخرجه أيضا البيهقي في الأسماء ص(٦).
والحديث صححه ابن القيم كما في بدائع الفوائد ١/١٦٦، وحسّنه الحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربّانية ٤/١٣.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد/ باب إن لله مائة اسم إلا واحد ٤/٤٨٢، ومسلم في الذكر والدعاء/ باب في أسماء الله تعالى ٤/٢٠٦٣، من حديث أبي هريرة.

. . . .

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق فيجب علينا أن نؤمن به اسماً من الأسماء، ونؤمن بما تضمنه من الصفة، ونؤمن بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم متعدياً، فمثلاً السميع نؤمن بأن من أسمائه السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكماً وأثرًا وهو أنه يسمع به كما قال تعالى: ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**﴾[1]. أما إن كان الاسم غير متعد كالعظيم والحي والجليل، فنثبت الاسم والصفة لأنه لاحكم له يتعدى.

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟

إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى فهو غير الله عز وجل، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ فهو المسمى.

فمثلاً: الذي خلق السموات والأرض هو الله فالاسم هنا هو المسمى فليست «اللام ـ والهاء» هي التي خلقت السموات والأرض، وإذا قيل اكتب بسم الله الرحمن فكتبت الله.

فالمـراد الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيداً فضربت زيداً المكتوب في الورقة لم تكن ممتثلاً؛ لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائم، فالمراد الاسم الذي هو غير المسمى.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١.

البحث في صفات الله :

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية.

والثاني: فعلية.

والثالث: خبرية.

فالصفات الذاتية هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، مثل: السمع والبصر وهي معنوية، لأن هذه الصفات معاني.

والفعلية هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها مثل النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله فلا يقال هكذا، بل يقال صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنىً ولا فعلاً مثل: الوجه والعين والساق واليد.

المبحث الثاني :

الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسماً، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمى بالمتكلم أو المريد.

. . . .

المبحث الثالث:

أن كل ما وصف الله به نفسه فهو حق على حقيقته، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف، والتعبير بالتمثيل أحسن من التعبير بالتشبيه لوجوه ثلاثة:

أحدها: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقاً بخلاف التشبيه فلم يأت القرآن بنفيه.

الثاني: أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح؛ لأن كل موجودين فلابد أن يكونا بينهما قدر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به فـ «الحياة» مثلاً وصف ثابت في الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيهاً فإذا قلنا من غير تشبيه فهم هذا البعض من هذا نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

وكذلك لايجوز أن نكيف صفات الله بل ننزه عن ذلك فمن كيَّف صفة من الصفات فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده لأن المخلوق لايحيط بالخالق قال تعالى: **﴿ولا يحيطون به علماً﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون﴾**. بعد قوله: **﴿قل**

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

وقول الله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن. . .﴾ الآية[1].

إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن. . . . الآية﴾[2] وعاص لأنه قال في الله بغير علم.

وسواء كان التكييف باللسان تعبيراً أو بالجنان تقديراً أو بالبنان تحريراً، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء (الكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية ولكنها ليست معلومة لنا؛ لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود، فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية لكننا لا نعلمها، ففرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب فنقول لها كيفية لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يتصور أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لانعلمها؟ أجيب:

أنه متصور فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لايعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها.

قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾:

﴿وهم﴾: أي كفار قريش، ﴿يكفرون بالرحمن﴾ المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى فهم يقرون به قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

. . . .

السموات والأرض ليقولن الله﴾[١]، وفي حديث سهيل بن عمرو «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب كتاب الصلح في غزوة الحديبية قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال: أما الرحمن الرحيم، فوالله ما أدري ما هما وامتنع أن يكتب الرحمن الرحيم وكتب باسم اللهم»[٢] وهذا من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى.

وقد قال الله تعالى: **﴿قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أيًّامّا تدعو فله الأسماء الحسنى﴾**[٣]، أي بأي اسم من أسمائه تُدعونه فإن له الأسماء الحسنى فكل أسمائه حسنى فادعوا بما شئتم من الأسماء ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسمائه تعالى فإنه يكفر لقوله تعالى: **﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾**[٤]، ولأنه مكذب لله ولرسوله وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

قوله: (لا إلـه إلا هو):

خبر «لا» النافية للجنس محذوف، والتقدير: لا إلـه حق إلا هو، وأما المعبود بالباطل فكثير قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾[٥].

قوله: «**عليه توكلت**»:

أي عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، فإذا قلت مثلاً:

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط / باب الشروط في الجهاد ٢/ ٢٧٩، ٢٨٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

. . . .

«ضربت زيداً» فإنـه يدل على أنك ضربته ولكن لايدل على أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: «زيداً ضربت» دلت على أنك ضربت زيداً ولم تضرب غيره.

قوله: **«وإليه متاب»**:

أي إلى الله، و«متـاب» أصلهـا متابي، فحذفت الياء تخفيفاً، والمتاب بمعنى: التوبة فهو مصدر ميمي أي وإليه توبتي.

والتوبة: هي الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، ولها شروط خمسة:

١ ـ الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد، أو محاباة أو شيء من الدنيا.

٢ ـ أن تكون في وقت قبول التوبة وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.

٣ ـ النـدم على ما مضى من فعله، وذلـك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن.

٤ ـ الإقلاع عن الذنب، وعلى هذا فإذا كانت التوبة مظالم الخلق فلابد من رد المظالم إلى أهلها واستحلالهم منها.

٥ ـ العزم على عدم العودة والتوبة التي لا تكون إلا لله هي توبة العبادة، كما في الآية السابقة، وأما التوبة التي بمعنى الرجوع فإنها تكون غيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبي ﷺ فوجد نمرقة فيها صور فوقف بالباب ولم يدخل وقالت: «أتوب إلى الله ورسوله ماذا أذنبت»[1] فليس المراد بالتوبة هنا العبادة؛ لأن توبة العبادة لاتكون للرسول ﷺ ولا لغيره من الخلق بل

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح/ باب دهان النساء والصبيان إلى العرس ٢/٣٨١، ٣٨٢.

وفي صحيح البخاري قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله»[1].

لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضًا حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه يقول الابن: أتوب.

قوله: «**حدثوا الناس**»: أي كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ.

قوله: «**بما يعرفون**»: أي بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتى لايفتتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2] ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لايمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويداً رويداً حتى تستقر عقولهم، وليس معنى «بما يعرفون» أي بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: «**أتريدون أن يكذب الله ورسوله**»:

الاستفهام للإنكار أي أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله؟ لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب إذا كانت عقولهم لاتبلغه، وهم لايكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله لامباشرة، ولكن بواسطة القائل.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم/ باب من خص بالعلم قوماً دون قوم ١/٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١/١١.

. . . .

فإن قيل: أن ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس؟

أجيب: لا ندعه ولكن نحدثهم عن طريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويداً رويداً حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع مالا تبلغه عقولهم ونقول هذا شيء مستنكر لا يتكلم به.

ومثل ذلك العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات:

مناسبته: ظاهرة لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة، فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيء عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا[1]، مع ثبوت العلو، فلو حدثت العام بأنه ينزل إلى السماء الدنيا بذاته مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذانزل صارت السموات فوقه وصار العرش خالياً منه وحينئذ لابد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبين لهم أن الله عز وجل ينزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «**من يدعوني فأستجيب له**. . .» الحديث.

والعامي يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله عز وجل في هذه الساعة من الليل.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٨٥).

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس: «أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك فقال ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه». انتهى[1].

قوله: **(انتفض)** أي اهتز جسمه، والرجل مبهم، والصفة التي حدث بها لم تبين، وبيان ذلك ليس مهما، وهذا الرجل انتفض استنكاراً لهذه الصفة لا تعظيماً لله وهذا أمر عظيم صعب؛ لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره.

قوله: **(ما فرق)**:

فيها: ثلاث روايات:

١ - (فَرَقُ).

٢ - (فَرّقَ).

٣ - (فَرَقَ).

فعلى رواية (فَرَقُ) تكون (ما) استفهامية مبتدأ و(فرق) خبر المبتدأ، أي ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد/ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ١/٣٥٦، ومسلم في صلاة المسافرين/ باب الترغيب في الدعاء ١/٥٢١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وهو عند مسلم أيضاً عن حديث أبي سعيد الخدري في الموضع السابق ١/٥٢٢.

. . . .

عز وجل كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله وهذا ينصب تماماً على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه.

وعلى رواية: (فَـرّق أو فَرَقَ) بمعنى ما فرّقهم كقوله تعالى: **﴿وقرآناً فرقناه﴾**[1]، أي فرقناه و(فرق) تكون فعلاً ماضياً و(ما) يحتمل أن تكون نافية، والمعنى ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه؟

قوله: (**يجدون رقة عند محكمه**)، الرقة: اللين والقبول، و (**محكمه**) أي محكم القرآن.

قوله: (**ويهلكون عند متشابهه**)، أي متشابه القرآن.

والمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا كان المحكم مفرداً دون المتشابه فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل لا كذب في أخباره ولا جور في أحكامه قال تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾**[2]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه وذلك مثل قوله تعالى: **﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿كتاب أحكمت آياته﴾**[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ١.

(٤) سورة هود، الآية: ١.

وإذا أفـرد المتشـابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضاً ولا يتناقض قال تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني**﴾[1]. والتشابه نوعان:

تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفى على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف على قوله تعالى: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾[2]، فالوقف على (إلا الله) يكون المراد بالمتشابه المتشابه المطلق، وعلى الوصل (إلا الله والراسخون في العلم) يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وللسلف في ذلك قولان:

القـول الأول: بالوقف على (إلا الله) وعليه أكثر السلف، وعلى هذا فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار قال الله تعالى في نعيم الجنة ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾[3]، أي لا تعلم حقائق ذلك ولذلك قال ابن عباس: (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء)[4].

والقول الثاني: بالوصل فيقرأ (إلا الله والراسخون في العلم)، وعلى هذا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٤) أخرجه ابن حزم في الفصل ٢/١٠٨، وقال: «هذا سند غاية في الصحة»، وقال المنذري في الترغيب ٤/٥٦٠: «رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد».

. . . .

فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبي وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابهاً، ولهذا يروى عن ابن عباس أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» ولم يقل هذا مدحاً لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه، فالقرآن معانيه كلها بينة لكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفي على بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعاً فإنها تحمل عليهما جميعاً.

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾**[1]، ثم تستثنى آيات الصفات وهي أعظم وأشرف وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول لكان مقتضاه أن أشرف مافي القرآن يكون خفيا ويكون معنى قوله: **﴿ليدبروا آياته﴾**. أي آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول بل جميع القرآن يفهم معناه إذ لايمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرأون آيات الصفات، وهم لايفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية ا، ب، ت. . . والصواب: أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾[1][2].

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابه على جميع الناس.

قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن»: أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: «أما الرحمن فلا والله ما أدري ما هو، وقالوا: إننا لا نعرف رحماناً إلَّا رحمٰن اليمامة فأنكروا الاسم دون المسمى فأنزل الله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾»، أي بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾.

وقوله: «ولما سمعت قريش»: الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر صح أن ينسب لهم جميعاً، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٣/١٠١ عن مجاهد مرسلاً.

فيه مسائل : الأولى : عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات . **الثانية** : تفسير آية الرعد . **الثالث** : ترك التحديث بما لا يفهم السامع . **الرابعة** : ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر. **الخامسة** : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه .

بقوة﴾[1]، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين.

فيه مسائل : الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات: «عدم» بمعنى انتفاء أي انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل في ذلك.

الثانية : تفسير آية الرعد: وهي قوله تعالى: **﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾** وسبق تفسيرها.

الثالثة : ترك التحديث بما لا يفهم السامع : وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر: ذكر العلة في عدم التحديث، وهو أن الذي لايبلغ عقله ما حدث به يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، فيكذب ويقول: هذا غير ممكن وهذا يوجد في أشياء كثيرة كما أخبر النبي ﷺ مما يكون يوم القيامة وكما أخبر النبي ﷺ: **«أن الأرض يوم القيامة كخبزة في يد الله عز وجل يتكفؤها بيده كما يتكفأ الإنسان**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

. . . .

خبزته»[1]، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعر وغير هذه الأمور لو حدَّثنا بها إنساناً عامياً لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تبين له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثلما نعلم الصبي شيئاً فشيئاً.

وقوله: **«ولو لم يتعمد المنكر»** أي: ولو لم يقصد المنكر تكذيب الله ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه: وذلك قوله: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة ـ أي ليناً ـ عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهه» فينكرونه.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق/ باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ٤/١٩٥، ومسلم في المناقين/ باب نزل أهل الجنة ٤/٢١٥٠.



باب قول الله تعالى :
﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾[1]

قوله: «**يعرفون**»: أي يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.

قوله: «**نعمة الله**»: واحدة والمراد بها الجمع فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[2]، والقاعدة الأصولية: أن المفرد الصفاف يعم، والنعمة تكون بجلب المحبوبات، وتطلق أحياناً على رفع المكروهات.

قوله: (**ثم ينكرونها**):

أي ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو الله سبحانه، وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله متناسين الذي خلق السبب فوجد به المسبب.

قوله: (**الآية**) أي إلى آخر الآية، وهي منصوبة بفعل محذوف تقديره أكمل الآية.

قوله: «**وأكثرهم الكافرون**» أي الذين كفروا بالله عز وجل.

وقوله: «**أكثرهم**» بعد قوله (يعرفون) الجملة الأولى أضافها إلى الكل،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن آبائي» وقال عون بن عبدالله: يقولون: «لولا فلان لم يكن كذا» وقال ابن قتيبة: «يقولون هذا بشفاعة آلهتنا».

والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأن منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون.

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره فقد جعل معه شريكاً في الربوبية؛ لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل هذا من وجه، ومن وجه آخر أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات وترك الشكر مناف للتوحيد؛ لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم سبحانه وتعالى، فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية.

قوله: **«قال مجاهد»** هو إمام المفسرين في التابعين عرض المصحف على ابن عباس رضي الله عنه يقفه عند كل آية ويسأله عن تفسيرها، وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، أي كافيك، ومع هذا فليس معصوماً عن الخطأ.

قوله: **«هو قول الرجل»** هذا من باب التغليب والتشريف؛ لأن الرجل أشرف من المرأة وإلا فالمرأة مثله.

قوله: **«هذا مالي ورثته عن آبائي»** ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها،

. . . .

فلو قال لك واحد من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائي فليس فيه شيء لأنه خير محض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملك هذا الشيء إلى السبب الذي هو الإرث متناسياً المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله عز وجل أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله عز وجل انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم، فمن هنا صار هذا القول نوعاً من كفر النعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق فلا شيء في ذلك، ولهذا ثبت أن النبي ﷺ قيل له يوم الفتح: «أتنزل في دارك غداً؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع»[1] فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث.

فتبين أن هناك فرقاً بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسياً المسبب وهو الله عز وجل.

قوله: **«وقال عون بن عبدالله: يقولون لولا فلان لم يكن كذا»** إن أراد بها الخبر وكان الخبر صدقاً مطابقاً للواقع فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سبباً خفياً لا تأثير له إطلاقاً كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا كذا، فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفاً في الكون مع أنه ميت فهو تصرف سري خفي.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج / باب توريث دور مكة وبيعها ١/٤٨٩، ومسلم في الحج / باب النزول بمكة للحاج ٢/٩٨٤ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

. . . .

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعاً أو حساً فهذا جائز بشرط أن لايعتقد أن السبب مؤثر بنفسه أو أن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سبباً لا شرعاً ولا حساً فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التولة والقلائد التي يقال إنها تمنع العين وما أشبه ذلك؛ لأنه أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً فكان مشاركاً لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة [لولا] إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[1]، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيداً لله تعالى، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلى سببه لكنه شرعي حقيقي وأنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضحاح من النار عليه نعلان يغلي منهما دماغه لا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً؛ لأنه لو يرى أن أحداً أشد منه عذاباً هان عليه بالتسلي، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم ـ رحمه الله ـ وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به. قال في الميمية يمدح الصحابة:

أولئك أتباع النبي وحزبه ... ولولاهمو ما كان في الأرض مسلم

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار/ باب قصة أبي طالب ٣/ ٦٢، ومسلم في الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ١/ ١٩٤ من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «أن الله تعالى قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» الحديث[1]، وقد تقدَّم: وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثيرة».

ولولاهو كادت تميد بأهلها ... ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولاهو كانت ظلاماً بأهلها ... ولكن هو فيها بدور وأنجم

فأضاف [لولا] إلى سبب صحيح.

قوله: «**وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آلهتنا**»: هؤلاء أخبث من الأولين؛ لأنهم مشركون يعبدون غير الله ثم يقولون إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلاً شفعت عند الله أن ينزل المطر، فهؤلاء أثبتوا سبباً من أبطل الأسباب، لأن الله عز وجل لا يقبل شفاعة آلهتهم قال تعالى: ﴿**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً**﴾[2] والله عز وجل لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه محذورين:

١ ـ الشرك بهذه الأصنام.

٢ ـ إثبات سبب غير صحيح.

قوله: «**وقال أبو العباس**»: هو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

قوله: «**وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى**

---

(١) سبق ص (١٢٧).

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٩.

. . . .

غيره. . . » وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذموماً؛ لأنه لو أتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد كان هذا سوء أدب مع السيد وكفراناً لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق لما يأتي:

١ ـ أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.
٢ ـ أن السبب قد لايؤثر كما ثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «ليس السنة أن لا تمطروا، بل السنة أن تمطر ثم لاتنبت الأرض»[١].
٣ ـ أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف ضعف إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

قوله: «**كانت الريح طيبة**» هذا في السفن الشراعية التي تجري بالريح قال تعالى: ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها**»[٢] فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة وكان الملاح ـ وهو قائد السفينة ـ حاذقاً أي مجيداً للقيادة.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن/باب في سكنى المدينة ٤/٢٢٢٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) سورة يونس، الآية: (٢٢).

فيه مسائل : الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. **الثانية**: معرفة أن هذا جار على السنة كثيرة. **الثالثة**: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة. **الرابعة**: اجتماع الضدين في القلب.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها وسبق ذلك.

الثانية: معرفة أن هذا جار على السنة كثيرة، وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً وما أشبه ذلك.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة، يعني إنكاراً لتفضل الله تعالى بها وليس إنكاراً لوجودها لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها.

الرابعة: **اجتماع الضدين في القلب**: وهذا من قوله: (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة.



باب قول الله تعالى

﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾[1]

قوله: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾: لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره: ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾[2]. فكل من أقرَّ بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له لأنه لايستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولاينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسبب، أي: فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أنداداً.

و[لا] هذه ناهية، فلا تجعلوا له أنداداً في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أنداداً في الربوبية، وأيضاً لا تجعلوا له أنداداً في أسمائه وصفاته؛ لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله عز وجل كاشتقاق العزى من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة.

قوله: (**أنداداً**) جمع ند وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أنداد في العبادة.

قوله: (**وأنتم تعلمون**)

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

وقال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يافلان، وحياتي، تقول لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم(1).

الجملة في موضع نصب حال من فاعل «تجعلون» أي والحال أنكم تعلمون، والمعنى: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له يعني في الربوبية؛ لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أنداداً وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما في الألوهية فيجعلون له أنداداً قالوا للنبي ﷺ: **﴿أجعل الآلهة إلـهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾**(2)، ويقولون في تلبيتهم: «**لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك**». وهذا من سفههم فإنه إذا صار مملوكاً فكيف يكون شريكاً، ولهذا نفى الله عنهم عقولهم في قوله: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾** إذ الأنداد بالمعنى العام ـ بقطع النظر عن كونه يخاطب أقواماً يقرون بالربوبية ـ يشمل الأنداد في الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

قوله: «**وقال ابن عباس في الآية**» أي في تفسيرها.

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير ١/٥٧. وقال الشيخ سليمان في تيسير العزيز ص(٥٨٧): «وسنده جيد».

(2) سورة ص، الآية: ٥.

. . . .

قوله: «**هو الشرك**»: هذا تفسير بالمراد لأن التفسير تفسيران:

١ - تفسير بالمراد.

٢ - تفسير بالمعنى، وهو الذي يسمى تفسير الكلمات. فعندنا الآن وجهان للتفسير أحدهما التفسير اللفظي وهو تفسير الكلمات وهذا يقال فيه معناه كذا وكذا، والثاني التفسير بالمراد، فيقال المراد بكذا كذا، والأخير هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد الأشباه والنظراء فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا الأنداد الشركاء أو الشرك فهو تفسير بالمراد، والمعنى يقول رضي الله عنه: «الأنداد هو الشرك» فإذاً الند الشريك المشارك لله سبحانه وتعالى فيما يختص به أو فيما يجب له.

قوله: «**دبيب**» أي أثر دبيب النمل، وليس فعل النمل.

قوله: «**على صفاة**» وليس على تراب.

قوله: «**سوداء**» وليس على بيضاء، إذ لو كان على بيضاء لتلوث البياض مع كثرة التردد.

قوله: «**في ظلمة الليل**» وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هذا فنسأل الله أن يعين على التخلص منه ولهذا قال بعض السلف: «ما عالجت نفسي معالجتها على الإخلاص»، ويروي عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا! قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال «قولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك ونحن نعلم ونستغفرك مما لا نعلم»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٤٠٣، والطبراني في الأوسط والكبير كما في المجمع ١٠/٢٢٣، =

. . . .

قوله: «**والله وحياتك**» فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: إشراك مع الله بقوله والله وحياتك، فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة فهو شرك أكبر، وإلا فهو شرك أصغر.

قوله: «**وحياتي**» فيه حلف بغير الله فهو شرك.

قوله: «**لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص**» كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: «**لولا كليبة هذا**» يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب وهو الله عز وجل، أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم فقد تقدم أنه لا بأس به وأن النبي ﷺ قال: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[1]، لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال لولا كذا لحصل كذا أو ما كان

= ٢٢٤، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال المنذري في الترغيب ١/٧٦: «ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح، وأبو علي وثقه ابن حبان ولم أر أحداً جرحه»، وكذا قال الهيثمي في المجمع.

وأخرجه المروزي في مسند أبي بكر (١٧)، وأبو يعلى كما في المجمع ١٠/٢٢٤، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٧) من حديث أبي بكر، وفيه ليث بن أبي سليم وقد اختلط.

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦) وفيه ليث بن أبي سليم مع رجل من أهل البصرة.

وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/٣٠، وأبو نعيم في الحلية ٧/١١٢ وفيه يحيى بن كثير البصري مجمع على ضعفه.

(١) سبق ص (٣١٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم[1] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً**»[2].

كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب وهو الله عز وجل.

قوله: «**لولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص**» إذا دخل اللص البيت وفيه بط فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص.

قوله: «**وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت**» فيه شرك لأنه شرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوي الله عز وجل في التدبير والمشيئة فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء فهو شرك أصغر.

قوله: «**هذا كله شرك**» المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك.

قوله: «**وعن عمر**»: صوابه عن ابن عمر.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٨٩٦)، وأحمد ٢/٣٤، ٨٦، وأبو داود في الإيمان/ باب كراهة الحلف بالآباء ٣/٥٧٠، والترمذي في الأيمان/ باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله ٥/٢٥٣، وحسنه، وابن حبان (١١٧٧)، والحاكم ١/١٨، ٤/٢٩٧ وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي، والبيهقي ١٠/٢٩.
وقال الزين العراقي في أماليه إسناده ثقات كما في التيسير ص(٥٨٩).

(٢) سبق ص (١٢٤).

. . . .

قوله: «**من حلف بغير الله**» من شرطية فتكون للعموم.

قوله: «**أو أشرك**» شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث (أشرك).

وقوله: «**من حلف بغير الله**» يشمل كل محلوف به سوى الله سواء بالكعبة أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله؛ لأن الصفة تابعة للموصوف، وعلى هذا فيجوز أن تقول وعزة الله لأفعلن كذا.

قوله: «**بغير الله**» ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع فهو حلف بالله.

والحلف: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، بالباء أو التاء أو الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء، التاء، الواو:

الباء أعمها لأنها تدخل على الظاهر والمضمر، وعلى اسم الله وغيره، ويذكر معها فعل القسم ويحذف، فيذكر معها فعل القسم كقوله تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم**﴾[1]، ويحذف مثل قولك: بالله لأفعلنَّ، وتدخل على المضمر مثل قولك: الله عظيم أحلف به لأفعلنَّ. وعلى الظاهر كما في الآية، وعلى غير لفظ الجلالة مثل قولك: بالسميع لأفعلن، وأما الواو فإنه لا يذكر معها فعل القسم ولا تدخل على الضمير ويحلف بها مع كل اسم، وأما التاء فإنه لا يذكر معها فعل القسم وتختص بالله وربّ. قال ابن مالك: «والتاء لله ورب».

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

. . . .

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء إن قوله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾** .[1] أي الشرك الأكبر **﴿ويغفر ما دون ذلك﴾** أي الشرك الأصغر والكبائر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر[2] لأن قوله: **﴿أن يشرك به﴾** مصدر مؤول فهو نكرة في سياق النفس فتعم الأصغر والأكبر والتقدير: لا يغفر شركاً به أو إشراكاً به.

وأما قوله تعالى: **﴿والشمس وضحاها﴾**[3]. وقوله: **﴿لا أقسم بهذا البلد﴾**[4]، وقوله: **﴿والليل إذ يغشى﴾**[5]، وما أشبه ذلك من المخلوقات التي أقسم الله بها فالجواب من وجهين:

الأول: أن هذا من فعل الله والله لايسئل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه وهو سائل غير مسؤول وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قسم الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته، فيكون القسم بها الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمناً للثناء على الله عز وجل بما يقتضيه من الدلالة على عظمته.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) انظر: الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة) ص (١٤٦).

(٣) سورة الشمس، الآية: ١.

(٤) سورة البلد، الآية: ١.

(٥) سورة الليل، الآية: ١.

. . . .

وأما نحن فلا نقسم بغير الله؛ لأننا منهيون عن ذلك.

وأما ماثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[1].

فالجواب من وجوه:

الأول: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لا تثبت في الحديث، لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك فلا تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ فيكون باطلاً.

الثاني: أنها تصحيف من الرواة والأصل: «أفلح والله إن صدق».

وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات و «أبيه» تشبه «الله» إذا حذفت النقط السفلى.

الثالث: أن هذا مما يجري على الألسنة بغير قصد وقد قال تعالى: ﴿**لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان**﴾.[2]

وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.

الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ وهو أبعد الناس عن الشرك فيكون من خصائصه وأما غيره فهم منهيون عنه، لأنهم لا يساوون النبي ﷺ في الإخلاص والتوحيد.

الخامس: أنه على حذف مضاف والتقدير «أفلح ورب أبيه».

السادس: أن هذا منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل وهذا أقرب الوجوه. ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهي

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١/ ٤٠ من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

. . . .

لأنهم لما كانوا حديثي عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهي الناس حين كانوا حديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها(١)؟

فالجواب عنه: أن هذا اليمين كان جارياً على ألسنتهم فتركوا حتى استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهوا عنه ونظيره إقرارهم على شرب الخمر أولاً ثم أمروا باجتنابه(٢).

أما بالنسبة للوجه الأول فضعيف؛ لأن الحديث ثابت وما دام يمكن حمله على وجه صحيح فإنه لايجوز إنكاره.

وأما الوجه الثاني فبعيد، وإن أمكن فلا يمكن في قوله ﷺ لما سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**أما وأبيك**».

وأما الوجه الثالث فغير صحيح؛ لأن النهي وارد مع أنه كان يجري على ألسنتهم كما جرى على لسان سعد فنهاه النبي ﷺ(٣)، ولو صحّ هذا لصح أن يقال لمن فعل شركاً اعتاده لا ينهىٰ لأن هذا من عادته وهذا باطل.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز/ باب استئذان النبي ﷺ ربه زيارة أمه ٢/٦٧٢ من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ [سورة المائدة، الآية: ٩٠.

(٣) حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «حلفت مرة باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «**قل: لا إلـه إلا الله وحده لاشريك له ثم انفث عن يسارك ثلاثًا ثم تعوذ ولا تعد**».

أخرجه أحمد ١/١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، والطحاوي في المشكل ١/٣٦٠، وعنده الأمر بالاستغفار بدلاً من التعوذ، وابن حبان (١١٧٨).

والحديث ضعيف كما في إرواء الغليل ٨/١٩٣.

. . . .

وأما الرابع فدعوى التخصيص تحتاج إلى دليل، وإلا فالأصل التأسي به.

وأما الخاص فضعيف لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهماً باطلاً ولا يمكن أن يتكلم الرسول ﷺ بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد، وعلى هذا يكون أقربها الوجه السادس أنه منسوخ ولا نجزم بذلك لعدم العلم بالتاريخ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم، وإن كان النووي رحمه الله ارتضىٰ أن هذا مما يجري على اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لايمكن القول به.

قوله: «**لأن أحلف بالله كاذباً**»: اللام لام الابتداء، و«أن» مصدرية فيكون قوله: «أن أحلف» مؤولاً بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله.

قوله: «**أحب إليَّ**»: خبر المبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾.[1]

قوله: «**كاذباً**» حال من فاعل أحلف.

قوله: «**أحب إليَّ**» هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام، لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتاً في المفضل وفي المفضل عليه، وأحياناً في المفضل دون المفضل عليه، وأحياناً لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضي الله عنه لايحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذباً أهون عليه من الحلف بغيره صادقاً، فالحلف كاذباً بالله محرم من وجهين:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

. . . .

١ ـ أنه كذب والكذب محرم لذاته.

٢ ـ أن هذا الكذب قرن باليمين، واليمين تعظيم لله عز وجل، فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تنقص لله عز وجل حيث جعل اسمه مؤكداً لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذباً عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقاً فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذباً، وأعظم من اليمين الغموس إذا قلنا إن الحلف بالله كاذباً من اليمين الغموس؛ لأن الشرك لا يغفر قال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾**[1]، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك فهو أعظم الذنوب قال تعالى: **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**[2] وسئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[3]، والشرك متضمن للكذب فإن الذي جعل غير الله شريكاً لله كاذب؛ لأن الله لا شريك له.

قوله: «لاتقولوا»: (لا) ناهية ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون.

قولـه: «ماشاء الله وشاء فلان»: والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسوياً مشيئةالله

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير/ باب: ﴿والذين لايدعون مع الله إلـهاً آخر﴾ ٣/ ٢٧١، ومسلم في الإيمان/ باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/ ٩١ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»**. رواه أبو داود بسند صحيح[1]، وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك. قال: ويقول لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

بمشيئة المخلوق، وهذا شرك ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق أو أنه مساو له فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل فهو شرك أصغر.

قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»: لما نهىٰ عن اللفظ المحرم بيَّن اللفظ المباح، لأن (ثم) للترتيب والتراخي فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: (ما شاء الله فشاء فلان)، فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم) فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب، فالظاهر أنها جائزة ولكن التعبير بـ (ثم)

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨٤/٥، ٣٩٤، ٣٩٨، وأبو داود في الأدب/ باب لا يقال: خبثت نفسي ٢٥٩/٥، والطيالسي (٤٣٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩١)، وابن السني في عمل اليوم والليل (٦٧١)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٤١)، والطحاوي في المشكل ٩٠/١، والبيهقي في السنن ٢١٦/٣، وفي الأسماء والصفات ص(١٤٤)، وفي الاعتقاد ص(١٥٦).
والحديث صححه النووي في الأذكار (٣٠٨)، وفي الرياض (١٧٤٨). وقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: «بسند صحيح».

. . . .

أولى، لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وأبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ - إثبات المشيئة للعبد لقوله: (ثم شاء فلان) فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢ - أنه ينبغي لمن سد على الناس بابا محرماً أن يفتح لهم الباب المباح لقوله: (ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا**﴾[1]. وكذلك النبي ﷺ لما جيء له بتمر جيد وأخبره الآتي به أنه آخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة قال: (لا تفعل ولكن بع الجمع بالدراهم ثم اشتر بالدراهم جنيباً)[2]، أي تمراً جيداً فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم.

قوله: «عن إبراهيم النخعي»: من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث كما ذكر ذلك حماد بن زيد.

قولـه: «يكـره أعـوذ بالله وبك»: العياذ: الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللياذ بالشخص هو اللجوء إليه لطلب المحبوب قال الشاعر:

يامـن ألـوذ به فيـما أأملـه ... ومـن أعـوذ به مما أحـاذره

لا يجبر النـاس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضـون عظماً أنت جابـره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلاً لكن كما قال ابن كثير رحمه الله: هذا القول لا ينبغي أن يكون إلا لله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع/ باب إذا أراد بيع تمر بتمر ٢/١٠٦ ومسلم في المساقاة/ باب بيع الطعام مثلاً بمثل ٣/١٢١٥ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد. الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر. الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك. الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس. الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

وقوله: «أعوذ بالله وبك»: هذا محرم؛ لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو [الواو].

ويجوز بالله ثم بك؛ لأن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي، فإن قيل سبق أن من الشرك الاستعاذة بغير الله، وعلى هذا يكون قوله أعوذ بالله ثم بك محرماً؟

أجيب: أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة؛ لقوله ﷺ في صحيح مسلم: «**من وجد ملجأ فليعذ به**»[1]. لكن لو قال: أعوذ بالله ثم بفلان وهو ميت فهذا شرك أكبر؛ لأنه لايقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»[2]، ثم قال رحمه الله: والاستعاذة لاتكون بمخلوق، فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لا تكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق وهو كلام الله، و الكلام تابع للمتكلم به إن كان مخلوقاً فهو مخلوق وإن كان غير مخلوق فهو غير مخلوق.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد، وقد سبق.

---

(١) سبق ص ١/ ٢٥٦.

(٢) سبق ص ١/ ٢٥٤.

. . . .

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر»:
لأن قوله تعالى: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾**، نازلة في الأكبر، لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر؛ لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق، أو في بعض الأمور.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك، لحديث ابن عمر.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس، واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذباً، وقال بعض العلماء ـ وهو الصحيح ـ أن يحلف كاذباً ليقتطع بها مال امريء مسلم.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ، لأن الواوتقتضي المساواة فتكون شركاً، و(ثم) تقتضي الترتيب والتراخي فلا تكون شركاً.

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمـر أن رسول الله ﷺ قال: **«لاتحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصـدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»**. رواه ابن ماجة بسند حسن[1].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله؛ لأن الحالف أكَّد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن تصدَّق ذلك الحالف وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله وهذا ينافي كمال التوحيد، والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضـا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمـين على المدعىٰ عليه فحلف، فيجب الرضـا بهذا الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية فإن كان الحالف موضع صدق وثقة فإنك ترضىٰ بيمينه، وإن كان غير ذلك فلك أن ترفض الرضـا بيمينه،

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الكفارات/ باب من حلف له بالله فليرض ١/ ٦٧٩ وقال في الزوائد: «رجال إسناده ثقات».

وحسنه الحافظ في الفتح ١١/ ٥٣٦.

وحسنه أيضاً الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.

وصححه الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (٩٥٦) على شرط مسلم.

. . . .

ولهذا لما قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: «**تبرئكم يهود بخمسين يميناً قالوا: كيف نرضىٰ يارسول الله بأيمان اليهود؟**»[1]، فأقرهم النبي ﷺ على ذلك.

قوله: «لا»: ناهية ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون و«آباؤكم» جمع أب ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم لأنه شرك وقد سبق بيانه[2].

قوله: «من حلف بالله فليصدق ومن حلف له بالله فليرض»: هنا أمران:

الأمر الأول: للحالف أن يكون صادقاً، والصدق هو: الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب وهو: الإخبار بما يخالف الواقع فقوله: (من حلف بالله فليصدق) أي فليكن صادقاً في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقاً للواقع أو يكفي الظن؟ الجواب: يكفي الظن فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه، وقد سبق لنا من ذلك أمثلة.

وقوله: «**فيصدق**» اللام لام الأمر.

الثاني: «من حلف له بالله فليرض»، إذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني ينزل على ماإذا كان الحالف صادقاً، لأنه جمع أمرين أمر موجه للحالف، وأمر موجه للمحلوف له فإذا كان الحالف صادقاً وجب الرضا، فإن قيل إن كان صادقاً فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟

أجيب: أن اليمين تزيده تأكيداً.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب/ باب إكرام الكبير ٤/١١٧، ومسلم في القسامة/ باب القسامة ٣/١٢٩٢ ـ ١٢٩٥ عن رافع بن خديج وسهل بن أبي حثمة.

(٢) ٣٢٥.

فيه مسائل : الأولى : النهي عن الحلف بالآباء . **الثانية** : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى . **الثالثة** : وعيد من لم يرض .

قوله : **(ومن لم يرض فليس من الله)**؟ ، أي من لم يرض بالحلف إذا حلف له فليس من الله فهنا تبرأ منه ، فتدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب ، ولكن لابد من ملاحظة ما سبق وقد أشرنا أن في حديث القسامة دليلاً على أنه إذا كان الحالف غير ثقة فلك أن ترفض الرضا به ، لأنه غير ثقة لو أن أحداً حلف لك ، وقال والله إن هذه الحقيبة من خشب ، فيجوز أن لا ترضى به لأنك قاطع بكذبه والشرع لايأمر بشيء يخالف الحس والواقع ، بل لا يأمر إلا بشيء يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن وإن كان العقل لا يدرك أحياناً مدى حسن هذا الشيء الذي أمر به الشرع ، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[1] ، فإذا اشتبه عليك حسن شيء من أحكام الشرع فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله فهو حق وهو أحسن الحكم .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الحلف بالآباء ، لقوله : «**لا تحلفوا بآبائكم**» ، والنهي للتحريم .

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٥٠ .

. . . .

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى، لقوله: (ومن حلف له بالله فليرض).

الثالثة: وعيد من لم يرض، لقوله: (ومن لم يرض فليس من الله).

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف: أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب في غير اليمين فكيف باليمين، وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم وقال بعض العلماء إنها اليمين الغموس.

وأما بالنسبة للمحلوف له هل يلزمه أن يصدق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمسة:

الأولى: أن يعلم كذبه فلا أحد يقول إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية أما الأمور الشرعية في باب التحاكم فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي.



باب قول ما شاء الله وشئت

عن قتيلة: «أن يهوديا أتى للنبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه(١).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن قول ما شاء الله وشئت من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساو لله فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

قوله: «**أن يهوديا**»: اليهودي هو المنتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب، فتكون النسبة من أجل النسب، وفي الأول تكون النسبة من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٦/٣٧١، ٣٧٢، والنسائي في الأيمان/ باب الحلف بالكعبة ٦/٧، والطحاوي في المشكل ١/٩١، ٣٥٧، والحاكم ٤/٢٩٧ وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ٣/٢١٦، والمزي في تهذيب الكمال ٣/١٦٩٤، وصححه الحافظ في الإصابة ٤/٣٨٩

. . . .

قوله: «**إنكم تشركون**»: أي تقعون في الشرك أيها المسلمون.

قولـه: «**مـاشـاء الله وشئت**»: الشرك هنـا أنه جعل المعطوف مساويا للمعطوف عليه وهو الله عز وجل.

قوله: «**والكعبة**»:

الشرك هنا أنه حلف بغير الله، ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي بل أمر بتصحيح هذا الكلام فيقال: ورب الكعبة، فيكون القسم بالله.

ويقال: ما شاء الله، ثم شئت فيكون الترتيب بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق وبذلك يكون الترتيب صحيحاً أما الأول؛ فلأن الحلف صار بالله وأما الثاني فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله وأنه لا مساواة بينهما.

ويستفاد من الحديث:

١ - أن النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

٢ - مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نبه عليه ليس محقا.

٣ - أنه ينبغي أن يغير الشيء إلى شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: «**ورب الكعبة**» ولم يقل احلفوا بالله وأمرهم أن يقولوا: «**ماشاء الله ثم شئت**».

فيــه إشكـال:

وهو أن يقال كيف لم ينبه على هذا العمل إلا هذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم فكيف يقرهم؟ فيبقى الإشكال، لكن يجاب

وله أيضا عن ابن عباس: «أن رجلا قال للنبي ﷺ: ماشاء الله وشئت فقال: أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده»(1).

أن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركا أكبر ولا يرون عيبهم.

قوله: «**أن رجلا قال للنبي ﷺ**»:

الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيماً، وأنه جعل الأمر مفوضا لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

قوله: «**أجعلتني لله ندا**»:

الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنى التعجب، ومن جعل للخالق ندا فقد أتى شيئا عجابا.

والند هو النظير والمساوي أي أجعلتني لله مساويا في هذا الأمر.

قوله: «**بل ما شاء الله وحده**»:

أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بعدت.

يستفاد من الحديث:

١ - أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك فهو أصغر وإذا كان هذا شركا فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟ هذا أعظم لأنه ﷺ ليس

---

(1) سبق ص (١٢٦).

. . . .

له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع ويحمل السلاح، ويجوع ويتألم ويمرض ويعطش، كبقية الناس ولكن الله فضله على البشر لما أوحي إليه من هذا الشرع العظيم قال تعالى: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾ فهو بشر وأكد هذه البشرية بقوله: «**مثلكم**» ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿**يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد**﴾[1] ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم وأعطاه من الكرم ومن الجود لكنها كلها في حدود البشرية أما أن تصل إلى خصائص الربوبية فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعى ذلك فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولكننا لا ننزله منزلة الرب عز وجل.

٢ ـ إنكار المنكر، وإن كان في أمر يتعلق بك لقوله ﷺ: «**أجعلتني لله ندا**» مع أنه فعل ذلك تعظيماً للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحنى لك شخص عند السلام فالواجب عليك الإنكار.

٣ ـ أن من حسن الدعوة إلى الله عز وجل أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قول: «**ماشاء الله وشئت**» أرشده إلى الجائز وهو قوله: «**بل ما شاء الله وحده**».

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

ولابن ماجة عن الطفيل أخى عائشة لأمها قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ـ قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير بن الله. قالوا: وأنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: هل أخبرت بها أحدا؟ قلت: نعم. قال: **فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم. وأنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ماشاء الله وحده**»(١).

قوله: «**كأني أتيت على نفر من اليهود**»: أي رؤيا في المنام.

وقوله: «**كأن**» اسمها الياء، وجملة «**أتيت**» خبرها.

وقوله: «**على نفر**»: من الثلاثة إلى التسعة.

واليهود أتباع موسى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الكفارات/ باب النهي أن يقال: ماشاء الله وشئت ١/٦٨٥ وقال البوصيري: «رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري».

وهو عند ابن ماجه من طريق أبي عوانة اليشكري، وقد تابعه شعبة عند الدارمي ٢/٢٩٥، والخطيب في الموضح ١/٣٠٣، وحماد بن مسلمة عند أحمد ٥/٧٢، والطبراني في الكبير=

. . . .

قوله: «**لأنتم القوم**» كلمة مدح كقولك هؤلاء هم الرجال.

وقوله: «**عزير هو**»: رجل صالح ادعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم وهو كفر، واليهود لهم مثالب كثيرة لكن خصت هذه لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: «**ماشاء الله وشاء محمد**»: هذا شرك أصغر، لأن الصحابة الذين قالوا هذا لاشك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقد عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله عز وجل باللفظ.

قوله: «**تقولون المسيح ابن الله**»:

هو عيسى بن مريم وسمي مسيحـا بمعنى ماسح، فهو فعيل بمعنى فاعل؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا بريء بإذن الله كالأكمه والأبرص.

والشيطان لعب بالنصارى فقالوا: هو ابن الله؛ لأنه أتى بدون أب ولا سيما إذا كان في الإنجيل كما في القرآن: ﴿**فنفخنا فيها من روحنا**﴾[1] قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه والجزء هو الابن، وقد سبق الجواب عن هذه الشبهة.

= (٨٢١٤) والمزي في تهذيب الكمال ٢/٦٢٦، ٦٢٧، وزيد بن أبي أنيسة عند الطبراني في الكبير (٨٢١٥).

وخالف سفيان بن عيينة فأخرجه أحمد ٥/٣٩٣، وابن ماجه ١/٦٨٥ من طريقه عن حذيفة ابن اليمان.

وكذا معمر بن راشد فأخرجه الطحاوي في المشكل ١/٩٠ من طريقه عن جابر بن سمرة رضي الله عنهم.

وقد رجح الحافظ أن الحديث من رواية الطفيل.

انظر فتح الباري ١١/٥٤٠.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

. . . .

والروح: على الراجح عند أهل السنة ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملك عند الموت وتكفن ويصعد بها ويراه الإنسان عند موته، فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول إنها صفة ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذاً نقول لهؤلاء النصارى إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والناقة إليه وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولاشك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفا وعظمة حتى إن بعض الشعراء يقول في معشوقته:

لا تدعنـــي إلا بيـــا عبدهـــا   فإنـــه أشـــرف أسمائـــي

قولـه: «**فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت**»: المقصود بهذه العبارة الإبهام كقوله تعالى: ﴿**فغشيهم من اليم ماغشيهم**﴾[1] والإبهام وقد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقد يكون للتحقير حسب السياق، وقد يراد به معنى آخر.

قوله: «**هل أخبرت بها أحداً**»:

سأل النبي ﷺ هذا السؤال لأنه لو قال: لم أخبر أحدا، فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لا تخبر أحدا. هذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم عليه الصلاة والسلام لكن لما قال إنه أخبر بها صار لابد من بيانها للناس عموما؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصا فهذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: «**فحمد الله**»: الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٨.

فيه مسائل: الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر. الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى. الثالثة: قوله ﷺ: **«أجعلتني لله ندا»** فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده؟ الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: **«يمنعني كذا وكذا»**. الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي. السادسة: أنها قد تكون سببا لشرع الأحكام.

قوله: **«وأثنى عليه»**: أي كرر ذلك الوصف.

قوله: **«أما بعد»**: سبق أنها بمعنى مهما يكن من شيء بعد، أي: بعد ماذكرت فكذا وكذا.

قوله: **«يمنعني كذا وكذا»**:

أي يمنعه الحياء كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة، أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق ولكن الحياء من أن ينكر شيئا قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتى حرمت في سورة المائدة، فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين.

قوله: **«قولوا ماشاء الله وحده»**: نهاهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

فيه مسائل:

الأولى: «معرفة اليهود بالشرك الأصغر»: لقوله: «إنكم لتشركون».

. . . .

الثانية: «**فهم الإنسان إذا كان له هوى**»: أي إذا كان له هوى فهم شيئاً، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه فاليهود ـ مثلاً ـ أنكروا على المسلمين قولهم: «ماشاء الله وشئت». وهم يقولون أعظم من هذا يقولون: عزير ابن الله.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه، ولذلك تجده يحمل النصوص على ما يوافق مذهبه ويحملها من الدلالات ما لا تحتمل، كذلك أيضا بعض العصريين يحملون النصوص ما لا تحتمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذلك، كل هذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها، فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هي عليه ثم يكون فهمه تابعا لها، لا أن يخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقده ولهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأنك إذا اعتقدت ثم استدللت ربما يحملك اعتقادك على أن تحرف النصوص إلى ما تعتقده كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل: أن الإنسان إذا كان له هوى، فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه.

الثالثة: «**قوله ﷺ**: «**أجعلتني لله ندا**» **فكيف بمن قال: ياأكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك. والبيتين بعده**»؟

قوله: «**أجعلتني لله ندا**»: هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «**فكيف بمن قال: ياأكرم الخلق. . .**»: يشير رحمه الله إلى بيتين للبوصيري في البردة ـ القصيدة المشهورة يقول:

ياأكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذا يوم المعاد يدي ... عفوا وإلا فقل يازلة القدم

. . . .

فإن من جودك الـدنـيا وضرتهـا ... ومن علومـك علم اللوح والقلم

وهـذا غاية الكفر والغلو فلم يجعل لله شيئا، والنبي ﷺ شرفه بكونه رسول الله، لا لأنه محمد بن عبد الله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «**يمنعني كذا وكذا**»: لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي:

تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**»[1] وهذا موافق للواقع بالنسبة للوحي الذي أوحى إلى النبي ﷺ لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان وهذا ستة أشهر فإذا نسبت هذا إلى بقية زمن الوحي كان جزءًا من ستة وأربعين جزء لأن الوحي كان ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر.

والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن صلاح الرجل، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام.

أما أضغاث الأحلام فإنها مشوشة غير منظمة، وذلك مثل التي قصها رجل على النبي ﷺ قال: «إني رأيت رأسي قد قطع وإني جعلت اشتد وراءه سعيا، فقال النبي ﷺ: «**لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك**»[2] والغالب أن المرائي المكروهة من الشيطان قال تعالى: ﴿**ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله**﴾[3]، ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات وأن يقول: «أعوذ بالله من شر

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير/ باب القيد في المنام ٤/٣٠٣، ومسلم في الرؤيا ٤/١٣٧٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الرؤيا/ باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام ٤/١٧٧٦ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

الشيطان ومن شر ما رأيت وأن يتحول إلى الجانب الآخر وأن لا يخبر أحداً»[1]، وفي رواية: «أمره أن يتوضأ وأن يصلي»[2].

السادسة: أنها قد تكون سببا لشرع بعض الأحكام: من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان وقال النبي ﷺ: «**إنها رؤيا حق**»[3] وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن شماس، فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعي تحت برمة، وعندها فرس يستن فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس[4]، فنفذ أبو بكر وصيته، لوجود القرائن التي تدل على صدقها.

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه: «. . . وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» أخرجه البخاري في التعبير/ باب الرؤيا من الله ٤/٢٩٦، وحديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا، وليستعذ من الشيطان ثلاثا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه**».
أخرجه مسلم ٤/١٧٧٣.

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «. . . **فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل**».
أخرجه البخاري في التعبير/ باب القيد في المنام ٤/٣٠٣.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٤٣، وأبو داود في الصلاة/ باب كيف الأذان ١/٣٣٧، والترمذي أخرج آخره دون صفة الأذان ١/٢٣٦، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في الأذان/ باب بدء الأذان وقال النووي في المجموع ٣/٧٦: «رواه أبو داود بإسناد صحيح وروى الترمذي بعضه بطريق أبي داود».

(٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٣٢١ وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».



باب من سب الدهر فقد آذى الله

السب: الشتم والتقبيح والذم، وما أشبه ذلك.

الدهر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم، فهذا جائز مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم، أو برده وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات واللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: «**هذا يوم عصيب**»[1].

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقا لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقا فهو كافر كما أن من اعتقد أن مع الله إلها يستحق أن يعبد فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل لكن يسبه؛ لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك؛ وذلك لأن سبه إياه لا يخلو إما أن يعتقد أنه هو الفاعل وهذا شرك، وإما ألَّا يعتقد أن الله هو الفاعل فتكون حقيقة السب لله عز وجل لأن الله تعالى هو الذي يصرفه ويكون فيه ما أراد من خير أو من شر، فليس الدهر فاعلا فسبه في الحقيقة يعود إلى سب الله عز وجل؛ فيكون هذا محرما، وليس

(١) سورة هود، الآية: ٧٧.

وقول الله تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. . .﴾[1] الآية.

بشرك لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

قوله: «فقد آذى الله»:

لا يلزم من الأذية الضرر، فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن قال تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهيناً﴾[2] وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار»[3]. ونفى عن نفسه التضرر قال تعالى: ﴿إنهم لن يضروا الله شيئا﴾[4] وفي الحديث القدسي: «ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني»[5] رواه مسلم.

قوله: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا»:

المراد المشركون الموافقون للدهرية ـ بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغير فيه الحركة ـ والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا، فليس هناك آخرة بل يموت بعض ويحيا آخرون هذا يموت فيدفن، وهذا يولد فيحيا، ويقولون إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.

قوله: «وما يهلكنا إلا الدهر»:

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(٣) يأتي ص (٣٥٤).
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٦.
(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة/ باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٤ من حديث أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه.

. . . .

أي: ليس هلا كنا بأمر الله وقدره، بل طول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته.

قوله: «**وما لهم بذلك من علم**»:

«ما»: نافية و«علم»: مبتدأ وأكد بمن فيكون للعموم، أي مالهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

قوله: «**إن هم إلا يظنون**»:

«إن»: هنا نافية لوقوع «إلا» بعدها، أي ما هم إلا يظنون.

الظن هنا بمعنى الوهم فليس ظنهم مبنيا على دليل يجعل الشيء مظنونا، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له فلا حجة لهم إطلاقا وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضا يستعمل بمعنى العلم واليقين كقوله تعالى: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم**﴾[1].

الرد على قولهم بما يلي:

أولا: قولهم: «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا»:

هذا يرده المنقول والمعقول، أما المنقول فالكتاب والسنة تدل على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكده.

وأما المعقول فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله مع ما في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك ترابا لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبى هذا قال تعالى: ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**﴾[2] أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٥.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**»[1] وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**»[2].

إليه لابد أن يردك إلى معاد تجازى عليه ويجازي عليه كل من بلغته الدعوة.

ثانيا: قولهم: «**وما يهلكنا إلا الدهر**»:

هذا يرده المنقول والمحسوس، فأما المنقول فالكتاب والسنة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿**هو يحيي ويميت وإليه ترجعون**﴾[3] وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**وأحيي الموتى بإذن الله**﴾[4] وأما المحسوس فإننا نعلم من يبقى سنين طويلة على قيد الحياة كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشبابا يموتون في قوة شبابهم فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب:

إن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر ومن نسبها إلى الدهر فسوف يسب الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

قوله: «**وفي الصحيح عن أبي هريرة... إلى آخره**»:

هذا الحديث يسمى الحديث القدسي أو الإلهي أو الرباني، وهو كل ما

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير/ تفسير سورة الجاثية ٣/٢٩١، ومسلم في الأدب/ باب النهي عن سب الدهر ٤/١٧٦٢.

(٢) أخرجها مسلم في الموضع السابق ٤/١٧٦٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

. . . .

يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل والأحاديث القدسية لا تثبت لها أحكام القرآن:

- فيجوز مسها بلا طهارة.
- ويجوز للجنب والحائض قراءتها.
- ولا تقرأ في الصلاة.
- ويصح بيعها.
- والسفر بها إلى أرض العدو.
- ولا يتعبد بتلاوتها.
- وتروى بالمعنى.

واختلف هل هي منسوبة إلى الله لفظاً ومعنى، أو لفظاً فقط؟.

والصحيح أنها من كلام الله معنى، واللفظ من الرسول ﷺ، فاللفظ مخلوق والمعنى غير مخلوق، إذ لو كانت من كلام الله لفظاً لكانت معجزة؛ لأن كلامه تعالى لا يشبه كلام البشر، وأيضا لو كانت من كلام الله لما حصل الاختلاف في ألفاظ روايتها؛ لأن كلامه تعالى محفوظ، ولهذا لا يزاد في القرآن ولا ينقص.

فإن قال قائل: إن النبي ﷺ ينسب القول فيها إلى الله، وإذا نسب القول إلى قائله كان قولا له لفظاً ومعنى؟. فالجواب: أن هذا صحيح، وأن هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع وهنا قد منع منه مانع وهو أنه لو كان كلام الله لفظاً ومعنى لثبتت له أحكام القرآن؛ لأن الشريعة لا تفرق بين متماثلين ولا غرابة أن ينسب القول إلى قائله باعتبار معناه فإن جميع ما في القرآن من الأقوال المنسوبة إلى الرسل السابقين وأممهم كلها منسوبة لهم باعتبار المعنى؛ لأنها بلفظ عربي وتلك الأمم السابقة ليس لسانهم عربيا، وأيضا فإن الله يذكر القول عن

. . . .

قائله بلفظ مختلف لمناسبة أسلوب القرآن كما في قوله عن سحرة آل فرعون: **﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾**(١) وقال في آية أخرى: **﴿فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾**(٢) فقدم هارون على موسى لتناسب رؤوس الآي.

قوله: «**قال الله تعالى**»: «تعالى» من العلو وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترفعه جل وعلا عن كل نقص وسفل، فهو متعال بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا أي ترفع وتنزه عما يشركون علوا كبيرا.

قوله: «**يؤذيني ابن آدم**»: أي يلحق بي الأذى، فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها، لأن الله أثبتها لنفسها، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق بدليل قوله تعالى: **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**(٣) وقدم النفي على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه فليس فيه احتمال للتمثيل إذ لو كان احتمال التمثيل جائزا في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه لكان احتمال الكفر جائزا في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «**ابن آدم**»: شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبوالبشر خلقه الله تعالى من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعلمه من أسماء كل شيء.

اعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الآدميين نشأوا من قرد لا من طين ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٤٧ - ٤٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

. . . .

ويمكن على مر السنين أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن، فيجب علينا أن ننكره إنكاراً بالغاً وأن لا نقره في كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يقال له بل أنت قرد في صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله ... وتزويجه ابنيه بابنتيه في الخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وأجابه بعض العلماء بجواب فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول ومثلك، كما قال الشاعر:

كذلك إقرار الفتى لازم له ... وفي غيره لغو كما جاء شرعنا

ولكن أنا في الحقيقة يؤلمني أن يوجد هذا بين أيدي شبابنا، فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

الثانية: أيضاً مما يحذر عنه كلمة [فكر إسلامي] إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر.

قوله: **«يسب الدهر»**: الجملة تعليلية للأذية، أو تفسيرية للأذية أي بكونه يسب الدهر أي يشتمه ويقبحه ويلومه وربما يلعنه ـ والعياذ بالله ـ والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: **«وأنا الدهر»**: أي مدبر الدهر ومصرفه قال تعالى: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾**[1] ولقوله في الحديث: **«أقلب الليل والنهار»** والليل والنهار هما الدهر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

. . . .

ولا يقـال بأن الله هو الـدهر، ومن قال ذلك فقد جعل الخالق مخلوقا والمقلب مقلبا.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعا في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟.
أجيب: أن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره وأنا مقلب الدهر لأنه فسره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**» ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلب هو المقلب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله كابن حزم رحمه الله، فإنـه قال: إن الدهر من أسمائه الله، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في الأسماء، فالأصل في أسماء الله أن تكون حسنى أي بالغة في الحسن غايته، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسما جامدا أبدا؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنى فيلزم من ذلك بأن تكون دالة على معانٍ، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن وعلى هذا فينتفي أن يكون اسم الله لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات فلا يحمل المعنى الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن ولكن مقلب الزمن هو الله ولهذا قال: «**أقلب الليل والنهار**».

قولـه: «**أقلب الليـل والنهار**»: أي ذواتهما وما يحدث فيهما، فالليل والنهار يقلبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي

فيه مسائل: الأولى: النهي عن سب الدهر. الثانية: تسميته أذى لله. الثالثة: التأمل في قوله: «**فإن الله هو الدهر**». الرابعة: أنه قد يكون سابا ولو لم يقصده بقلبه.

الأسبوع وفي الشهر وفي السنة قال تعالى: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**﴾[1] وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله عز وجل، وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

قوله: «**وفي رواية لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»:

فائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

قوله: «**فإن الله هو الدهر**»:

وفي نسخة: «**فإن الدهر هو الله**» والصواب فإن الله هو الدهر.

وقوله: «**فإن الله هو الدهر**»: أي فإن الله مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المعلل حكما.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر: لقوله: «**لا تسبوا الدهر**».

الثانية: تسميته أذى لله: تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم**».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

. . . .

الثالثة: التأمل في قوله: فإن الله هو الدهر: فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مقلب الدهر ومصرفه وليس معناه أن الله هو الدهر وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: أنه قد يكون سابا ولو لم يقصده بقلبه: تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر**» ولم يذكر قصدا ولو عبر بقوله: أنه قد يكون مؤذيا لله ولم يقصده لكان أوضح وأصح؛ لأن الله صرح بقوله «يسب الدهر». والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على المؤلف بعض المسائل منها: تفسير آية الجاثية وقد سبق ذلك.

تم الجزء الثاني ولله الحمد

ويليه الجزء الثالث وأوله

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

فهـــرس الآيـــات
الجزء الثانـــي

الفاتحـــة

سورة البقـــرة

سورة آل عمـران

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

فهرس أحاديث الجزء الثاني



فهرس الجزء الثاني
من كتاب القول المفيد

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

القول المفيد على كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ

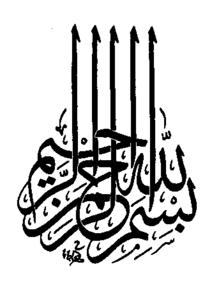
محمد بن صالح العثيمين

اعتنى به جمعًا وترتيبًا وتصويبًا، وعزا آياته
وخرّج أحاديثه، ووضع فهارسه، وأشرف على طبعه

د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل
د. خالد بن علي بن محمد المشيقح

الجزء الثالث

دار العاصمة
للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى ١٤١٥هـ

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قوله: «**باب التسمي بقاضي القضاة**»: أي: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أو رضاه به من غيره.

قوله: «**قاضي القضاة**»:

قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة: أي:الحكام، و«أل» للعموم.

والمعنى التسمي بحاكم الحكام ونحوه، مثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان؛ لأن القاضي جمع بين الإلزام والإفتاء، بخلاف العالم فهو لايلزم، ولهذا قالوا: القاضي جمع بين الشهادة، والإلزام، والإفتاء فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه، ويفتي أي: يخبر عن حكم الله وشرعه، ويلزم الخصمين بما حكم به.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

إن من تسمى بهذا الاسم فقد جعل نفسه شريكا مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة، أو حكم الحكام، أو ملك الأملاك إلا الله سبحانه وتعالى، فالله هو القاضي فوق كل قاضٍ، وهو الذي له الحكم ويرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن.

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين:

١ ـ قضاء كوني.

٢ ـ قضاء شرعي.

والقضاء الكوني لابد من وقوعه، ويكون فيما أحب الله وفيما كرهه قال تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين**﴾[1] فهذا قضاء كوني متعلق بما يكرهه الله؛ لأن الفساد في الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكوني لابد أن يقع ولا معارض له إطلاقا.

وأما النوع الثاني من القضاء وهو القضاء الشرعي فمثل قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**﴾[2]. والقضاء الشرعي لايلزم منه وقوع المقضي، فقد يقع، وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيما يحبه الله، وقد سبق الكلام على ذلك.

فإن قلت: إذا أضفنا القضاة وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، أو بفن معين، مثل أن يقال: قاضي القضاة في الفقه، أو قاضي قضاة المملكة العربية السعودية، أو قاضي قضاة مصر، أو الشام، أو ماأشبه ذلك فهل يجوز هذا؟.

الجـــواب: هذا جائز؛ لأنه قيد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقيد، فحينئذ لا يكون فيه مشاركة لله عز وجل، على أنه لا ينبغي أيضا أن يتسمى الإنسان أو يسمى بذلك وإن كان جائزاً؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضي قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغـرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأي بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه فإن هذا خطرعظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغي أن يقبله اسماً لنفسه، أو وصفاً له، ولا أن يتسمى به.

إذا قُيد بزمان، أو مكان قلنا إنه جائز، ولكن الأفضل ألَّا يفعل؛ لكن إن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

. . . .

قُيد بفن من الفنون هل يكون جائزا؟ .

مقتضى التقييد أن يكون جائزاً. لكن إن قيد بالفقه، بأن قيل: (عالم العلماء في الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: «**من يرد الله به خيرا يفقه في الدين**»[1] صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم في الشرع إليه، فهذا في نفسي منه شيء والأولى التنزه عنه.

وأما إن قُيد بقبيلة فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف حتى لا يغتر ويعجب بنفسه، ولهذا قال النبي - ﷺ - للمادح: «**قطعت عنق صاحبك**»[2].

وأما التسمي بـ [شيخ الإسلام] مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أي: أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام فهذا لا يمكن أن يصح إذ إن أبا بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف، لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه فلا بأس بإطلاقه[3].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم / باب من يرد الله به خيراً ١/٤٢، ومسلم في الزكاة / باب النهي عن المسألة ٢/٧١٨ من حديث معاوية، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب/باب ما يكره من التمادح ٤/١٠٢، ومسلم في الزهد/باب النهي عن المدح ٤/٢٢٩٦ من حديث أبي بكرة، رضي الله عنه.

(٣) وقال الشيخ بكر أبوزيد في رسالته تسمية المولود ص (٤١): «وتكره التسمية بكل اسم، أو مصدر، أو صفة مشبهة مضاف إلى لفظ «الدين»، أو «لفظ الإسلام» مثل نور الدين، ضياء الدين، نور الإسلام، وذلك لعظيم منزلة هذين اللفظين: «الدين» و «الإسلام» فالإضافة إليهما على وجه التسمية فيها دعوى فجة تطل على الكذب، ولهذا نص بعض العلماء على التحريم، والأكثر على الكراهة؛ لأن منها مايوهم معاني غير صحيحة مما لا يجوز إطلاقه، =

. . . .

وأما بالنسبة للتسمي بـ [الإمام] فهو أهون بكثير من التسمي بـ [شيخ الإسلام]؛ لأن النبي - ﷺ - سمى إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان.

لكن ينبغي أن ينبه أنه لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع، كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ممن له أثر في الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بها لا يستحق هضم للأمة؛ لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق في عينه. قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدرُه إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ومن ذلك أيضاً [آية الله، حجة الله، حجة الإسلام] فإنها ألقاب حادثة لاتنبغي؛ لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله: فإن أريد المعنى الأعم فلا مدح فيه؛ لأن كل شيء آية لله، كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وإن أريد المعنى الأخص أي: أن هذا الرجل آية خارقة فهذا في الغالب يكون مبالغاً فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم، مفتي، قاضٍ، حاكم، إمام لمن كان مستحقا لذلك.

= وكانت في أول حدوثها ألقاباً زائدة على الاسم، ثم استعملت أسماء، وقد يكون الاسم منهياً عنه من جهتين، مثل: شهاب الدين، فإن الشهاب الشعلة من النار، ثم إضافة ذلك إلى الدين، وكان النووي رحمه الله يكره تلقيبه بمحي الدين، وشيخ الإسلام ابن تيمية يكره تلقيبه بتقي الدين، ويقول: لكن أهلي لقبوني بذلك فاشتهر».

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»[1].

قوله: «**إن أخنع اسم**» أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك. لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة فجعل مرتبته فوق مرتبتهم وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، ولهذا عوقب بنقيض قصده فصار أوضع اسم عند الله إذ قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، ولهذا أحبُّ اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع مثل عبد الله وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم.

قوله: «**لا مالك إلا الله**»:

وأيضاً لا ملك إلا الله ـ عز وجل ـ ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين ﴿**ملك يوم الدين**﴾ و﴿**مالك يوم الدين**﴾[2] لكي يجمع بين الملك وتمام السلطان، فهو ـ سبحانه ـ ملك مالك، ملك ذو سلطة وعظمة،وقول نافذ، ومالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

فالله له الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله قال تعالى: ﴿**هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض**﴾[3] فالاستفهام بمعنى النفي وقد أشرب معنى التحدي، أي: إن وجدتموه فهاتوه،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب/ باب أبغض الأسماء إلى الله تعالى ٤/١٢٩، ومسلم في الآداب/ باب تحريم التسمي بملك الأملاك ٣/١٦٨٨.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.

وقال تعالى: ﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾[1] فيها توكيد وحصر وهذا دليل انفراده بالخلق، وقال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له﴾[2] فـ ﴿الذين﴾ اسم موصول يشمل كل من يُدعى من دون الله ﴿لن يخلقوا ذبابا﴾ وهذا على سبيل المبالغة، وما كان على سبيل المبالغة فلا مفهوم له كثرة أو قلة.

وقال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾[3] وقال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾[4] وهذا دليل انفراده بالملك وقال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾[5] وقال تعالى: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون الله﴾[6].

قوله: «قال: سفيان مثل شاهان شاه»:

وذلك أنه باللغة الفارسية يقدمون المضاف على المضاف إليه، مثل غلام محمد يقولون: محمد غلام.

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.
(٣) سورة الملك، الآية: ١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣١.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

وفي رواية «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»[1] قوله: «أخنع» يعني: أوضع.

قوله: وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»:

أغيظ: من الغيظ وهو الغضب، أي: أن أغضب شيء عند الله ـ عز وجل ـ وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سببا لغضب الله وخبيثاً فإنه من الكبائر.

وقوله: «**أغيظ**»:

فيه إثبات الغيظ لله ـ عز وجل ـ فهي صفة تليق بالله ـ عز وجل ـ كغيرها من الصفات، والظاهر: أنها أشد من الغضب.

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب/باب تحريم التسمي بملك الأملاك ٣/١٦٨٨.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك. **الثانية**: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان. **الثالثة**: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه. **الرابعة**: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك: وتؤخذ من قول الرسول، ﷺ: «**إن أخنع اسم عند الله ـ عز وجل ـ رجل تسمى ملك الأملاك**»، والمؤلف يقول: النهي عن التسمي... والنهي شرعاً لا يستفاد من الصيغة المعينة المعروفة، بل إذا ورد الذم فيه، أو سب فاعله، أو ما أشبه ذلك فإنه يفيد النهي، وصيغة النهي هي المضارع المقرون بـ «لا» الناهية مثل: لا تفعل، ولكن إذا كان هناك ذم أو وعيد أو ما أشبه ذلك فهو متضمن للنهي وزيادة.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان: والذي مثله: قاضي القضاة، وحاكم الحكام: وشاهان شاه في الفارسية.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

أي: إذا سمينا شخصاً بقاضي القضاة، أو حاكم الحكام وهو ليس كذلك، بل هو من أجهل القضاة، ومن أضعف الحكام جمعنا بين أمرين، بين الكذب والوقوع في اللفظ المنهي عنه وإن كان صدقاً، وصحيح أن هذا الرجل إذا كان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويرجع القضاة إليه فهذا وإن كان مطابقاً للواقع لكنه واقع في المنهي عنه، هذا مع أن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه:

. . . .

يؤخذ من قوله: «**لا مالك إلا الله**» فالرسول ـ ﷺ ـ أشار إلى العلة وهي: «لا مالك إلا الله» فكيف تقول: ملك الأملاك، وهو لا مالك إلا الله، عز وجل.

الفرق بين ملك ومالك:

ليس كل ملك مالكاً، وليس كل مالك ملكاً، فقد يكون الإنسان ملكاً، ولكنه لا يكون بيده التدبير وقد يكون الإنسان مالكاً ويتصرف فيما يملكه، فالملك مَنْ ملك السلطة المطلقة لكن قد يفعل ويكون ملكاً مالكاً، وقد لايفعل ويكون ملكا وليس بمالكٍ، أما المالك فهو الذي له التصرف بشيء معين كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشبه ذلك فهذا ليس بملك يعني: ليس له سلطة عامة.

ويستفاد من الحديث، أيضاً:

١ ـ إثبات صفة الغيظ لله ـ عز وجل ـ وأنه يتفاضل لقوله: «**أغيظ**» وهو اسم تفضيل.

٢ ـ حكمة الرسول ـ ﷺ ـ في التعليم؛ لأنه لمّا بيّن أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة وهو: «لا مالك إلا الله» وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بما تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية قال ابن القيم:

العلم معرفة الهدى بدليله ماذاك والتقليد يستويان

فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية، أو النظرية، فالأثرية ماكان من كتاب، و سنة، أو إجماع، والنظرية: العقلية أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع.

باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

أسماء الله ـ عز وجل ـ هي: التي سمى بها نفسه، أو سماه بها رسوله، ﷺ.

وقد سبق لنا الكلام فيها على مباحث كثيرة منها:

هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟.

وقلنا: باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله، عزّ وجل، وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التي تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تضمنه الآخر من باب دلالة اللزوم فمثلاً [الخلاق] يتضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم لكنه بالالتزام.

الثاني: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة؟ يعني: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة؟.

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يسمى محمدا وهو من أشد الناس ذما، وقد يسمى عبدَ الله وهو من أفجر عباد الله.

أما أسماء الله ـ عز وجل ـ وأسماء الرسول ـ ﷺ ـ وأسماء القرآن، وأسماء اليوم الآخر وما أشبه ذلك فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها معلوم وبعضها غير معلوم لنا بدليل قول الرسول ـ ﷺ ـ في الحديث الصحيح في دعاء الكرب: «**أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من**

. . . .

خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي . . .»[1].

ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله هل هي محصورة بعدد معين؟.

والجواب: غير محصورة، وقد سبق الكلام على ذلك والجواب عن قوله، ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»**[2].

الخامس: أن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين[3]، وهذا من حكمة إبهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية ولهذا نظائر: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل، ليجتهد الناس في الطلب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة: ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولا: الإحاطة بها لفظا.

ثانيا: فهمها معنى.

ثالثا: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها لقوله، تعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾**[4] بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب

---

(١) سبق (٢/٢٩٤).

(٢) سبق (٢/٢٩٤).

(٣) وانظر تعيينها في القواعد المثلى للشارح حفظه الله.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

. . . .

لمطلوبـك فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور، وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء. فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبا لرحمة الله، ومقتضى الغفـور المغفـرة، إذاً افعـل مايكـون سببـا في مغفـرة ذنوبك هذا هو معنى إحصـائِها، فإذا كان كذلك فهو جدير لأن يكون ثمنا لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب؛ لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلا، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ قوله: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1].

فلا تغتر يا أخي بعملك ولا تعجب وتقول: أنا عملت بكذا وكذا وسوف أدخل الجنة قال تعالى: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان**﴾[2]، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا فيجب أن نرى لله المنة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء قـال تعـالى: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾[3].

السابع: أسماء الله ـ عز وجل ـ ودلالتها على الذات والصفة جميعا دلالة مطابقـة، ودلالتهـا على الذات وحدها،أو على الصفة وحدها دلالة تضمن،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق/باب القصد والمداومة ٤/١٨٤، ومسلم في المنافقين/باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٤/٢١٦٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

ودلالتها على أمر خارج دلالة التزام.

مثـال ذلك: (الخلّاق) دل على الذات، وهو الرب - عز وجل - وعلى الصفة وهي الخلق جميعاً دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها، أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودل على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله - عز وجل - لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم متعديا: الإيمان بالاسم اسما لله والإيمان بما تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحكم، فالعليم مثلا لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله. ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم ونؤمن بالحكم المرتب على ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير متعد فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة.

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به مثل الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

ومنها ما لا يختص به مثل الرحيم، السميع، العليم قال تعالى: ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا**﴾[1] وقال تعالى عن النبي ﷺ: ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾[2] [3].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٣) انظر أيضاً رسالة القواعد المثلى للشيخ العثيمين حفظه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد ١/ ١٥٩ ماملخصه:

مايجري صفة أو خبرا عن الرب تعالى أقسام:

الأول: مايرجع إلى الذات نفسها كالشيء، والموجود.

الثاني: مايرجع إلى صفات معنوية كالسميع، والعليم، والقدير.

الثالث: مايرجع إلى أفعاله كالخالق، والرزاق. =

. . . .

= الرابع: مايرجع للتنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس، السلام.

الخامس: الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة كالمجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد..

فإن الغني صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر.

ثم قال ابن القيم: ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن مايدخل في باب الاخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا انقسمت إلى كمال ونقص فلا تدخل بمطلقها في أسمائه كالصانع والفاعل والمريد، فلذا لم يطلق على نفسه من هذا إلا أكمله فعلاً وخبرا كقوله: «فعال لما يريد».

الثالث: لا يلزم من الإخبار عنه بفعل مقيد أن يشتق له منها اسم، ولذا غلط من سماه بالمضل والماكر والفاتن.

الرابع: أن أسماءه الحسنى أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن مايطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، ومايطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيا كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه.

الثامن: أن الإسم إذا أطلق جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلاً ومصدرا نحو السميع، البصير، القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدر ويخبر عنه بالأفعال =

. . . .

= نحو «قد سمع الله» هذا إن كان الفعل متعديا، فإن كان لازماً يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل كالحي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله... فالرب لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته فأفعاله صادرة عن كماله كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم.

الحادى عشر: أسماؤه كلها حسنى، وأفعاله صادرة عنها، فالشر ليس إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته البائنة عنه دون فعله الذي هو وصفه.

الثاني عشر: إحصاء أسماء الله تعالى له مراتب. (وقد سبق أن بينها الشارح) حفظه الله.

الثالث عشر: أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا عد.

(وقد تكلم عليها الشارح) حفظه الله.

الرابع عشر: من أسمائه مايطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره وهو غالبها كالسميع والبصير ونحوهما، فيسوغ أن يدعا به ويثنى عليه ويخبر عنه به مفرداً ومقترناً بغيره فتقول: ياعزيز ياحليم..

ومنها: مالا يطلق إلا مقروناً بغيره لكون الكمال لا يحصل إلا به كالضار والمنتقم والمانع، فلا تطلق إلا مقرونة بمقابلها كالضار النافع، والمنتقم العفو، والمانع المعطي إذ كمال التصرف لا يحصل إلا به.

قال شيخنا في كتابه المنتقى ص (١٥): «قلت: لكن لو أطلق عليه من ذلك اسم مدح لم يمتنع، فيسوغ أن يقال: العفو من دون المنتقم كما ورد في القرآن الكريم، ومثله النافع والمعطي، فإن هذه الأسماء تستلزم الثناء والمدح المطلق على أن شيخ الإسلام رحمه الله ينكر تسمية الله المنتقم، ويقول: إن هذا لم يرد إلا مقيداً كقوله تعالى: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾.

الخامس عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطق على الله وعلى العباد، كالحي والسميع ونحوهما، فقالت طائفة: هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال. =

. . . .

قوله: «باب احترام أسماء الله»:

أي وجوب احترام أسماء الله، لأن احترامها احترام لله ـ عز وجل ـ ومن تعظيم الله ـ عز وجل ـ فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يصح إلا لله فهذا لا يسمى به غيره، وإن سمي وجب

= الثاني: أنها حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول أبي العباس الناشي.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالى مايليق به، وللعبد مايليق به.

السادس عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد. الاعتبار الثاني: اعتباره مضافاً للرب مختصاً به. الاعتبار الثالث: اعتباره مضافاً إلى العبد مقيداً به.

السابع عشر: الصفات أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي واحداً منهما، وصفات تقتضيهما باعتبارين، والرب تعالى منزه عن هذه الثلاثة موصوف بالأول، وهكذا أسماؤه أسماء كمال فلا يقوم غيرها، وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير، دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان: البر الرحيم، دون الرفيق والشفوق، وكذلك العلي العظيم، دون الرفيع الشريف.

الثامن عشر: الإلحاد في أسمائه أنواع:

الأول: أن يسمى به غيره من الأصنام.

الثاني: أن يسمى بما لا يليق بجلاله كتسميته أباً أو علة فاعلة.

الثالث: وصفه بما ينزه عنه كقول أخبث اليهود: إنه فقير.

الرابع: تعطيلها عن معانيها وجحد حقائقها كقول الجهمية: إنها ألفاظ مجردة لا تدل على أوصاف: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر.

الخامس: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا. =

عن أبي شريح: «أنه كان يكنى أبا الحكم فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال: **ما أحسن هذا فمالك من ولد؟** قلت: شريح ومسلم وعبد الله، قال: **فمن أكبرهم؟** قلت: شريح، قال: **فأنت أبو شريح**» رواه أبو داود وغيره[1].

تغييره مثل الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله مثل: الرحيم والسميع والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم محض.

قوله: «**عن أبي شريح**»: هو هانيء بن يزيد الكندي، جاء وافدا إلى النبي - ﷺ - مع قومه.

قوله: «**إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْمُ**»:

هو الحكم: أي المستحق أن يكون حاكما على عباده، وحاكم بالفعل يدل له قوله: ﴿**وإليه الحكم**﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢٢٧/٨، وفي الأدب (٨١١)، وأبو داود في الأدب/باب في تغيير الاسم القبيح ٢٤٠/٥، والنسائي في القضاء/باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم ٢٢٦/٨، والدولابي في الكنى ٧٤/١، والبيهقي ١٤٥/١٠، عن يزيد بن مقدام بن شريح عن أبيه شريح عن أبيه هانيء أبي شريح الخزاعي.
وأخرجه ابن سعد ٤٩/٦، والحاكم ٢٧٩/٤ من طريق قيس بن الربيع، وفي توثيقه خلاف.
والحديث صححه الألباني في الإرواء ٢٣٧/٨، وفي تعليقه على المشكاة (٤٧٦٦) قال: «إسناده جيد».

. . . .

وقوله: «**وإليه الحكم**» الخبر فيه جار ومجرور مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر وعلى هذا يكون الحكم خاصا بالله سبحانه.

وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني، وهـذا لا راد له فلا يستـطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالى: ﴿**فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين**﴾[1].

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين مؤمن وكافر، فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر ومنه قوله تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾[2].

وأما قوله: ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾[3] وقوله تعالى: ﴿**ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾[4] فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعا للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء.

وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: [الحَكَـم].

وأما بالنسبة للعدل فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: «إن الله حَكَمٌ عَدْلٌ» ولا أعرف فيه حديثاً مرفوعاً[5]، ولكن قوله، تعالى: ﴿**ومن أحسن من**

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٣) سورة التين، الآية: ٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٥) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً في سرد الأسماء: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو. . . . . الحكم العدل**» الحديث.
وقد سبق تخريجه، وبيان ضعفه.

. . . .

الله حكما﴾[1] لاشك أنه متضمن للعدل بل هو متضمن للعدل وزيادة.

قوله: «**فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني**»:

هذا جواب عن سؤال الرسول - ﷺ - له؛ لأن الرسول - ﷺ - سأله لماذا يكنونك بهذه الكنية؟.

والكنية: ماصدر بأب أو أم، وقال بعضهم: أو أخ أو عم أو خال.

وقد تكون للمدح كما في الحديث، وقد تكون للذم كأبي جهل، وقد تكون لمصاحبة الشيء مثل أبي هريرة، وقد تكون مجرد علم كأبي بكر وأبي العباس ابن تيمية، إذ ليس له ولد.

قوله: «**ما أحسن هذا**»: الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي - ﷺ - غيّره.

قوله: «**شريح ومسلم وعبد الله**»:

الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى فلو كان عنده بنات لعدهن.

قوله: «**فأنت أبو شريح**»:

غيّره النبي - ﷺ - لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم كأنه قيل: يا أبا الله.

الثاني: أن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقا لاسم الله، وليس لمجرد العلمية المحضة بل للعلمية المتضمنة للمعنى وبهذا يكون مشاركا لله سبحانه وتعالى ولهذا كناه النبي - ﷺ - بما ينبغي أن يكنى به.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه. **الثانية**: تغيير الاسم لأجل ذلك. **الثالثة**: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

فيــه مسائــل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه:

قوله: «**ولو لم يقصد معناه**» هذا في النفس منه شيء؛ لأنه إذا لم يقصد معناه فهو جائز إلا إذا سمى بما لا يصح إلا لله مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله فإنه يسمى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة بل كان المقصود مجرد العلمية فقط؛ لأنه لا يكون مطابقا لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه «الحكم»[1] ولم يغيره النبي ـ ﷺ ـ لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه «**حكيم**»[2] وأقره النبي ﷺ.

فالذي يحترم من أسمائه تعالى، ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك: وقد سبق الكلام عليه.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية:

تؤخذ من سؤال النبي ﷺ: «**ما أكبر ولدك؟ قال: شريح. قال: فأنت أبو شريح**».

---

(١) كالحكم بن الحارث السلمي، والحكم بن سعيد بن العاص، والحكم بن عبد الله الثقفي وغيرهم، رضي الله عنهم. انظر الإصابة ١/٢٦-٣٢.

(٢) كحكيم بن حزام، وحكيم بن الحارث الطائفي، وحكيم بن طليق الأموي وغيرهم رضي الله عنهم. انظر الإصابة ١/٣٢-٣٤.

. . . .

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني ؛ لأن النبي - ﷺ - أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة ولم يأمره النبي - ﷺ - أن يكنى ابتداء.

ويستفاد من الحديث مايلي :

١ - أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا بابا محرما أن يبينوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

٢ - أن الحكم لله لقوله ﷺ : «**وإليه الحكم**»، أما الكوني فلا نزاع فيه بين أحد من الخلق ولا يعارض الله أحدٌ في أحكامه الكونية.

وأما الشرعي : فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرّع للناس شرعا سوى شرع الله ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، أو أنه مساوٍ لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه فإنه كافر؛ لأنه جعل نفسه نداً لله، عز وجل، سواء في العبادات أو المعاملات، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾[1] فدلت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساوي لحكم الله ؛ لأن أحسن اسم تفضيل : معناه لا يوجد شيء في درجته، ومن زعم ذلك فقد كذب الله عز وجل، وقال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[2] وهذا دليل على أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلى غيره وأنه كفر.

فإن قيل : قال الله تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾[3]. قلنا : قال الله تعالى : ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا**

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٥٠.

(٢) سورة المائدة، الآية : ٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية : ٤٧.

. . . .

أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا﴾[1] وهذا دليل على كفرهم؛ لأنه قال: «يزعمون أنهم آمنوا» وهذا إنكار لإيمانهم، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق.

فقوله ﷺ: «**وإليه الحكم**» يدل على أن من جعل الحكم لغير الله فقد كفر.

فائــدة:

يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظاماً يمشي عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله فهذا قد يكون كفرا أو فسقا أو ظلما.

فيكون كفرا إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له.

ويكون فسقا إذا كان لهوى في نفس الحاكم.

ويكون ظلما إذا أراد مضرة المحكوم عليه، وظهور الظلم في هذه أبين من ظهوره في الثانية، وظهور الفسق في الثانية أبين من ظهوره في الثالثة.

٣ - تغيير الاسم إلى ما هو أحسن إذا تضمن أمرا لا ينبغي، كما غير النبي - ﷺ - بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلى إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ.

والمـراد بالرسول هنا: اسم الجنس فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمداً ﷺ. فـ [أل] للجنس وليست للعهد.

قوله: «من هزل»: سخر واستهزأ ورآه لعبا ليس جدا.

ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله فهو كافر؛ لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.

كيف يسخر ويستهزيء بأمر يؤمن به؟ فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

والكفـر كفران: كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزيء كافر كفر معارضة، فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط، وهذه المسألة خطيرة جدا ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله ـ عزوجل ـ لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار.

فمن استهزأ بالصلاة ـ ولو نافلة ـ أو بالزكاة أو الصوم أو الحج فهو كافر بإجماع المسلمين.

كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال: مثلا: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فهذا كفر مخرج عن الملة؛ لأن الرب عز وجل كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها

. . . .

بل لا نستطيع بلوغها.

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه هل تقبل توبته؟. على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافرا، ولا يصلى عليه ولا يدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ، لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة كقوله تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا**﴾[1] ومن الكفار من يسبون الله ومع ذلك تقبل توبتهم.

وهذا هو الصحيح، إلا أن سابَّ الرسول ـ ﷺ ـ تقبل توبته ويجب قتله بخلاف من سب الله فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ـ ﷺ ـ بل أن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد بأنه يغفر الذنوب جميعا، أما ساب الرسول ـ ﷺ ـ فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعي لكونه رسولَ الله ﷺ وهذا يقبل إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي، لكونه من بني آدم، وهذا يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وقد ألف كتابا في ذلك اسمه

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

. . . .

(الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول)[1] وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ وكذا لو قذفه فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول - ﷺ - وقبل منه وأطلقه؟.

أجيب: بلى هذا صحيح لكن هذا في حياته - ﷺ - وقد أسقط حقه، وبعد موته لا ندري فننفذ ما نراه واجبا في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟.

أجيب: أنه لا يوجب التوقف؛ لأن المفسدة حصلت بالسب وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

---

(١) قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص (٤٤٠): «إنه اجتمع في الساب سببان كل منهما يوجب نوعاً من القتل مخالف للنوع الآخر، وإن كان أحدهما يستلزم الآخر، فالكفر يوجب القتل للكفر الأصلي أو الكفر الارتدادي، وله أحكام معروفة، والسب يوجب القتل لخصوصه حتى يندرج فيه قتل الكفر وقتل الردة، وهذا هو المغلب في حق مثل هذا... إلى أن قال: إذا سقط موجب الكفر والردة لم يسقط موجب السب».

وقال ص (٣٦١): «فعوده إلى الإسلام يسقط موجب الردة المحضة، ويبقى خصوص السب، ولابد من إقامة حده، كما أن توبة القاطع قبل القدرة عليه تسقط تحتم القتل ويبقى حق أولياء المقتول».

وقال ص (٣٣٧): «إن الذي عصم دم ابن أبي السرح عفو النبي - ﷺ -، وأنه بالإسلام والتوبة انمحى عنه الإثم، وبعفو النبي - ﷺ - احتقن الدم، وليس للأمة أن يعفوا عن حقه».

وفي ص (٤١٥): «أن قتل الساب لا يسقط عن مسلم ولا معاهد بالتوبة».

وفي ص (٣٩٥): التصريح بأنه حد.

وقول الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾[1] الآية.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول - ﷺ - عفا عمن سبه؟.

أجيب: بلى وربما كان في حياة الرسول - ﷺ - إذا عفا قد تبقى المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه - ﷺ - يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحدا بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول - ﷺ - فقط.

قوله: «**ولئن سألتهم**»: الخطاب للنبي ﷺ أي سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله ورسوله وكتابه والصحابة.

قوله: «**ليقولُنَّ**»: جواب القسم، قال ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخّرتَ فهو مُلْتَزم[2]

ولهذا جاءت اللام في الجواب.

قوله: «**ليقولن**»: أي المسؤولون.

قوله: «**إنما كنا نخوض ونلعب**»:

أي ما لنا قصد ولكننا نخوض ونلعب، واللعب يقصد به الهزء، وأما الخوض فهو كلام عائم لا زمام له.

هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول فإنه يكون الخوض في الكلام واللعب في الجوارح.

وقوله: «**إنما كنا نخوض ونلعب**»:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) ألفية ابن مالك ص (٥٢).

إنما أداة حصر، أي ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونلعب.

قوله: ﴿**قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**﴾:

الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلا للسخرية؟

قوله: «**أبالله**»: أي بذاته وآياته فيشمل الشرعية كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هذا أساطير الأولين ـ والعياذ بالله ـ أو يستهزأ بشيء من الشرائع كالصلاة والزكاة والصوم والحج.

ويشمل الكونية كأن يسخر بما قدره الله تعالى، كيف يأتي هذا في هذا الوقت؟ كيف يخرج هذا الثمر من هذا الشيء؟ كيف يخلق هذا الذي يضر الناس ويقتلهم استهزاء وسخرية.

قوله: ﴿**ورسوله**﴾: المراد هنا محمد ﷺ.

قوله: ﴿**لا تعتذروا**﴾: المراد بالنهي التيئيس أي انههم عن الاعتذار تيئيسا لهم بقبول اعتذارهم.

قوله: ﴿**قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾: أي بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين ولكن إيمانهم ضعيف، ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

قوله: ﴿**إن نَعْفُ عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين**﴾: ﴿**نعفو**﴾: ضمير الجمع للتعظيم أي الله، عز وجل. وقوله: ﴿**عن طائفة منكم**﴾: قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: ﴿**نعذب طائفة**﴾: هذا جواب الشرط أي لا يمكن أن نعفوَ عن

. . . .

الجميع بل إن عفونا فلابد أن يصاب الآخرون.

قوله: ﴿**بأنهم كانوا مجرمين**﴾: الباء للسببية، أي بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم - والعياذ بالله - فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يُعفى عنهم.

ويستفاد من الآيتين:

١ - بيان علم الله - عز وجل - بما سيكون لقوله: ﴿**ولئن سألتهم ليقولون**﴾ وهذا مستقبل، فالله عالم ما كان وما سيكون لو كان كيف يكون قال، تعالى: ﴿**له غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله**﴾[1].

٢ - أن الرسول - ﷺ - يحكم بما أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: ﴿**أبالله وآياته . . .**﴾.

٣ - أن أعظم الكفر الاستهزاء يكون بالله وآياته ورسوله بدليل الاستفهام.

٤ - أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله هو أعظم استهزاء، لقوله: ﴿**أبالله وآياته . .**﴾، وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه ما بقي إلا أن تستهزوا بهؤلاء الذين ليسوا محلا للاستهزاء، بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

٥ - أن المستهزيء بالله يكفر لقوله: ﴿**لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾.

٦ - استعمال الغلظة في محلها، وإلا فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلا للرحمة.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض: أنه قال رجل في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني الرسول ﷺ وأصحابه القراء - فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه.

---

٧ - قبول توبة المستهزيء بالله، لقوله: ﴿**إن نعف عن طائفة...**﴾ وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عفي عنه وهُديَ للإسلام وتاب وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزيء بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بيّن على صدق توبته، لأن كفره أشد، فليس مثل كفر الإعراض.

وهؤلاء الذين حضروا مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿**وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم**﴾[1] وهم يستطيعون المفارقة، والنبي - ﷺ - امتثل غاية الامتثال، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾[2] ولا يزيد على هذا أبدا مع إمكان أن يزيد توبيخا وتقريعا.

قوله: «**عن ابن عمر**»: وهو صحابي و«**محمد بن كعب**» وهو تابعي و«**زيد بن أسلم**» وهو تابعي و«**قتادة**» وهو تابعي فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

قوله: «**دخل حديث بعضهم في بعض**»:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

(٢) يأتي ص (٣٤).

. . . .

أي أن هذا الحديث مجموع من كلامهم وهذا يفعله بعض أئمة الرواة، كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص، كحديث الإفك مثلا فيجمعون هذا ويجعلونه في حديث واحد و يشيرون إلى هذا فيقولون ـ مثلا ـ دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بعضهم بكذا، وبعضهم بكذا وما أشبه ذلك.

قوله: «**في غزوة تبوك**»: تبوك في أطراف الشام، وكانت هذه الغزوة في رجب حين طابت الثمار، وكان مع الرسول ـ ﷺ ـ في هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفا، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أبي بنحو نصف المعسكر حتى قيل إنه لا يدرى أي الجيشين أكثر الذين رجعوا أو الذين ذهبوا مما يدل على وفرة النفاق في تلك السنة، وكانت في السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبي ـ ﷺ ـ إن قوما من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له فأراد أن يغزوهم ـ ﷺ ـ إظهارا للقوة وإيمانا بنصر الله، عز وجل.

قوله: «**ما رأينا**»: تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: «**مثل قرائنا**»: المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه.

قوله: «**أرغب بطونا**»: المفعول الثاني أي أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة؛ لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

قوله: «**ولا أكذب ألسنا**» الكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن جمع لسان والمراد: ولا أكذب قولا، واللسان يطلق على القول كثيراً في اللغة العربية كما في قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾[1] أي بلغتهم.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

. . . .

قوله: «**ولا أجبن عند اللقاء**»: الجبن: هو خور في النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره، فهو خلق نفسي ذميم، ولهذا كان النبي - ﷺ - يستعيذ منه[1] لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعي واحد ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس ألسنا، ولا سيما النبي - ﷺ - وأصحابه فإن الله وصفهم بالصدق في قوله: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون**﴾[2].

والمنافقون أكذب الناس كما قال الله فيهم: ﴿**والله يشهد إنهم لكاذبون**﴾[3] وجعل النبي - ﷺ - الكذب من علامات النفاق[4]، والمنافقون من أجبن الناس قال تعالى: ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم**. . . ﴾[5] فلو سمعوا أحدا ينشد ضالته لقالوا: عدو، عدو. وهم أحب الناس للدنيا إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمى دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

قوله: «**كذبت**»: أي أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل على

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/باب ما يتعوذ من الجبن ٢/٣١٢ من حديث سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١١.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان/باب علامة المنافق ١/٢٧، ومسلم في الإيمان/باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سورة المنافقون، الآية: ٤.

فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض نتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾؟ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه»[1][2].

وجوب تكذيب الكذب مهما كان الأمر وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: **«ولكنك منافق»**: لأنه لا يطلق هذه الأوصاف على رسول الله - ﷺ - وأصحابه رجل تسمى بالإسلام، وبهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله - ﷺ - أنه كافر؛ لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته.

فيكون طعناً في الله، لأنه طعن في حكمته حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه.

وطعناً في الرسول - ﷺ -: لأنهم أصحابه والمرء على دين خليله، والإنسان يُستدل على صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين.

وطعناً في الشريعة: لأنهم الواسطة بيننا وبين الرسول - ﷺ - في نقل الشريعة وإذا كانوا بهذه المثابة فلا يوثق بهذه الشريعة.

قوله: **«فوجد القرآن قد سبقه»**:

أي بالوحي من الله تعالى، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٠/١١٩، وابن أبي حاتم كما في الصحيح المسند لمقبل بن هادي ص(٧٧).

. . . .

يبيتون، قال تعالى: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول﴾[1].

قوله: «وقد ارتحل وركب ناقته»: الظاهر: أن هذا من باب عطف التفسير.

قوله: «كأني أنظر إليه»: كأن إذا دخلت على مشتق فهي للتوقع، وإذا دخلت على جامد فهي للتشبيه وهنا دخلت على جامد، والمعنى: كأنه الآن أمامي من شدة يقيني به.

قوله: «بنسعة»: هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قولـه: «والحجارة تنكب رجليه»: أي يمشي والحجارة تضرب رجليه وكأنه ـ والله أعلم ـ يمشي بسرعة ولكنه لا يحس في تلك الحال؛ لأنه يريد أن يعتذر.

قوله: «وما يزيده عليه»: أي لا يزيده على ما ذكر من توبيخ، امتثالا لأمر الله ـ عز وجل ـ وكفى بالقول الذي أرشد الله إليه نكاية وتوبيخا[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٨.

(٢) مسألة في سب الصحابة رضي الله عنهم.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص (٥٨٦ ـ ٥٨٧): «وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله، ﷺ، إلا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفساً، أو أنهم فسقوا عامتهم فهذا لا ريب أيضاً في كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم، بل من يشك في كفر هذا فإن كفره متعين... إلى أن قال: وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام».

وقال الهيثمي في الصواعق المحرقة ص (٣٧٩): «ثم الكلام ـ أي الخلاف ـ إنما هو في سب بعضهم أما سب جميعهم فلا شك في أنه كفر». =

. . . .

= وقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الرد على الرافضة ص (١٩): «ومن خص بعضهم بالسب فإن كان ممن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء، فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته فقد كفر لتكذيبه ماثبت قطعاً عن رسول الله ﷺ ومكذبه كافر، وإن سبه من غير اعتقاد حقية سبه أو إباحته فقد تفسق؛ لأن سباب المسلم فسوق، وقد حكم البعض فيمن سب الشيخين بالكفر مطلقا».

وقال أيضاً: «وإن كان ممن لم يتواتر النقل في فضله وكماله، فالظاهر أن سابه فاسق إلا أن يسبه من حيث صحبته لرسول الله ﷺ فإنه يكفر».

وقال شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص (٥٨٦): «وأما سبهم سباً لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك، فهو الذي يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من العلماء».

وذكر أبو يعلى من الأمثلة على ذلك اتهامهم بقلة المعرفة بالسياسة، كما في الصارم المسلول ص (٥٧١).

قال ابن كثير في تفسيره ٣/٢٧٦: «وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها ـ أي عائشة ـ بعد هذا ورماها بمارماها به بعد هذا الذي ذكر في الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن».

وانظر القول بتكفير من قذف عائشة رضي الله عنها في الشفا ٢/١١٠٩ الصارم المسلول ص (٥٦٥) وتفسير ابن جرير ١٨/٨٣، وتفسير القرطبي ١٢/١٣٦، والمحلى ١١/٤١٥.

وأما قذف بقية أمهات المؤمنين فالأكثرون على كفر فاعل ذلك؛ لأن المقذوف زوجة رسول الله ﷺ والله تعالى إنما غضب لها؛ لأنها زوجته فهي وغيرها منهن سواء، وفيه نقص وأذى لرسول الله ﷺ.

انظر: الشفا ٢/١١١٣، والبداية والنهاية ٨/٩٥، والصواعق المحرقة ص (٣٨٧)، والمحلى ٨/٩٥.

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة أن من هزل بهذا كافر. **الثانية**: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان. **الثالثة**: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ورسوله. **الرابعة**: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

فيه مسائل:

الأولى وهي العظيمة: أن من هزل بهذا كافر: المشار إليه: «بالله، وآياته، ورسوله».

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان، أي سواء كان منافقاً أو غير منافق ثم استهزأ فإنه يكفر كائنا من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله:

النميمة: من نم الحديث أي نقله ونسبه إلى غيره وهي: نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد. وهي من أكبر الذنوب قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»[1] وأخبر - ﷺ - عن رجل يعذب في قبره؛ لأنه كان يمشي بالنميمة[2]، وأما النصيحة لله ورسوله فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله - عز وجل - وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه.

ومن ذلك لو أن رجلا اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزيء به في المجالس فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك فليس هذا من النميمة بل من النصيحة.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله:

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤٧٦ فتح، ومسلم ١/١٠١.

(٢) أخرجه البخاري ١/٣١٧ فتح، ومسلم ١/٢٤٠.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح؛ لأن الله اشترط في العفو فقال: ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾[1] أي كان عفوه مشتملا على الإصلاح، وقال بعضهم: أي أصلح الود بينه وبين من أساء إليه وهذا تفسير قاصر، والصواب: أن المراد به أصلح في عفوه أي كان في عفوه إصلاح.

فمن كان عفوه افساداً لا إصلاحاً فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر، لأن الله قال: ﴿**عفا وأصلح**﴾ ولأن العفو إحسان والفساد إساءة ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم.

والنبي - ﷺ - غلظ على هذا الرجل، لأن النبي - ﷺ - لم يلتفت إليه ولا يزيد على هذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تنكب رجل الرجل ولم يرحمه النبي - ﷺ - ولم يرق له،ولكل مقام مقال فينبغي أن يكون الإنسان شديدا في موضع الشدة لينا في موضع اللين، لكن أعداء الله - عز وجل - الأصل فيهم الشدة، قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير**﴾[2] ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحيانا للدعوة والتأليف، قد يكون مستحسنا.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل:

فالأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان المعتذر محسنا لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه اعتذار باطل فإنه لا يقبل.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٩.

باب قول الله تعالى:

﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولَـنَّ هذا لي﴾[1] الآية.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ماأعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل ففيه نوع من التعلي والترفع في جانب العبودية.

قوله: «**ولئن أذقناه**»: الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل: المراد به الكافر.

والظاهر: أن المراد به الجنس إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى في أول الآية: **﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، ويوم يناديهم أين شركائي قالوا: آذناك ما منا من شهيد، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص، لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾**[2] هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: «**منا**»: أضافه الله إليه، لوضوح كونها من الله ولتمام منته بها.

قوله: «**من بعد ضراء مسته**»: أي أنه لم يذق الرحمة من أول أمره بل

(١، ٢) سورة فصلت، الآيتين ٤٧ ـ ٥٠.

قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به، وقال ابن عباس: يريد من عندي، وقوله: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب.

أصيب بضراء كالفقر، وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتى يحس بها مثل الذائق للطعام.

قوله: «**مسته**»: أي أصابته وأثرت فيه.

قوله: «**لَيَقُولَنَّ هذا لي**»: هذا كفر عظيم، واللام في قوله: «**لَيَقُولَنَّ**»: واقعة في جواب القسم المقدر قبل اللام في قوله: «**ولئن أذقناه**».

قوله: «**وما أظن الساعة قائمة**» بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله ثم كشفها ثم وجد بعد ذلك لذة وسرورا يشكر الله على ذلك، أما هذا فقد نسي الآخرة وكفر بها.

قوله: ﴿**ولئن رُجِعْتُ إلى ربي إن لي عنده للحسنى**﴾:

[إن] شرطية وتأتي فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن وقوعه كقوله تعالى: ﴿**لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾[1] والمعنى على فرض أن أرجع إلى الله إن لي عنده للحسنى.

والحسنى اسم تفضيل أي الذي هو أحسن من هذا واللام للتوكيد.

قوله: ﴿**فلننبأن الذين كفروا بما عملوا**﴾:

أي فلننبأن هذا الإنسان، وأظهر في مقام الإضمار من أجل الحكم على هذا القائل بالكفر ولأجل أن يشمله الوعيد وغيره.

قوله: «**إنما أوتيته على علم**»: في القرآن آيتان آية قال الله فيها: ﴿**إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾، الثانية: ﴿**إنما أوتيته**

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل، وهذا معنى قول مجاهد أوتيته على شرف[1].

على علم عندي﴾ والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية.

قوله: ﴿على علم﴾: في معناه أقوال:

الأول: قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدا على الإنسان أي: أنني عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد علي فيما أوتيته وإنما الفضل لي.

الثاني: قال آخرون: على علم من الله أني له أهل، فيكون بذلك مدلاً على الله وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله أي: أوتيت هذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له.

فصار معنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول: أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل، وكأنه هو الذي له الفضل على الله، لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلا لهذه النعمة.

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله، عز وجل، والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله فهو الذي يسّرها حتى حصلنا عليها، بل كل ما نحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله، فالواجب علينا أن نضيف هذه ا لنعم إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾[2] حتى ولو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك فالذي أعطاك هذا العلم أو المهارة

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٠٧، الدر المنثور ٥/١٣٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا، فأتى

هو الله، عز وجل، ثم إن المهارة أو العلم قد لا يكون سببا لحصول الرزق، فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلا.

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١ ـ الاعتراف بها في القلب.

٢ ـ الثناء على الله باللسان.

٣ ـ العمل بالجوارح.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه فهذا لم يشكر النعمة، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه.

قوله: «**وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن ثلاثة من بني إسرائيل**»:

جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب**﴾[1].

قوله: «**من بني إسرائيل**»:

هم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قوله: «**أبرص**»: من في جلده بياض، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيرا إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد لكن رفعها لا يمكن، ولهذا جعلها الله آية لعيسى، قال تعالى: ﴿**تبريء الأكمه والأبرص بإذني**﴾[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١. (٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به قال: فمسحه فذهب عنه قذره

قوله: «**أقرع**»: من ليس على رأسه شعر.

قوله: «**أعمى**»: من فقد البصر.

قوله: «**فأراد الله**»: وفي بعض النسخ «**أراد الله**» فعلى إثبات الفاء يكون خبر [إن] محذوفا دل عليه السياق تقديره: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أقص عليكم نبأهم فأراد الله أن يبتليهم.

ولا يمكن أن يكون «أبرص وأقرع وأعمى» خبرا لأنها بدل، وعلى حذف الفاء يكون الخبر جملة: «**أراد الله**» والإرادة هنا كونية.

قوله: «**يبتليهم**»: أي يختبرهم كما قال الله تعالى: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر**﴾[2].

قوله: «**ملكا**»: أحد الملائكة: هم عالم غيبي خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يسأمون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم وهو أحد أركان الإيمان الستة.

قال أهل اللغة: وأصل الـ [ملك] مأخوذ من الألوكة وهي الرسالة، وعلى هذا يكون أصله مَألَك فصار فيه إعلال قلبي، فصار مَلأك ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام الساكنة وحذفت الهمزة تخفيفا، فصار مَلَك ولهذا في الجمع تأتي الهمزة: ملائكة.

وهذا الملك الذي بعث جعله الله من جنس هؤلاء.

قوله: «**ويذهب**»: يجوز الرفع والنصب، والرفع أولى.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

فأعطى لوناً حسناً وجلداً حسنا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأعطى ناقة عشراء فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس به، فمسحه فذهب عنه قذره

قوله: «**قذرني**»: أي استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله.

قوله: «**به**»: الباء للسببية أي بسببه.

قوله: «**فمسحه**»: ليتبين أن لكل شيء سببا، وبريء بإذن الله عز وجل وبدأ يذهب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن، لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب كما يقال: التخلية قبل التحلية.

قوله: «**قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق**»:

الظاهر: أنه الإبل كما يفيد السياق، وإسحاق أحد رواة الحديث.

قوله: «**عشراء**»: قيل: هي الحامل مطلقا، وقال في القاموس: هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية، سخرها الله عز وجل وذللها ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها.

قوله: «**بارك الله لك فيها**»:

يحتمل أن لفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاء، وهو الأقرب؛ لأنه أسلم من التقدير. ويحتمل أنه خبر محض كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها ويكون المعنى على تقدير (قد) أي: فقال: قد بارك الله لك فيها.

قوله: «**فأتى الأقرع**»:

وهو الرجل الثاني في الحديث.

قوله: «**فقال: أي شيء أحب إليك قال: شعر حسن**» ولم يكتف بمجرد الشعر بل طلب شعرا حسنا.

وأعطي شعرا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل فأعطي بقرة حاملا قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك.؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك. قال: الغنم

قوله: «**الذي قذرني الناس به**»:

أي القرع لأنه إذا كان أقرع كرهه الناس واستقذروه، وهذا يدل على أنهم لا يغطون رؤوسهم بالعمائم ونحوها، وإن كان يبدو بعض الرأس من جوانب العمامة فيكرهه الناس مما بدأ منها.

قوله: «**فذهب عنه**»:

وهذه نعمة من الله عز وجل أن يستجاب للإنسان.

قوله: «**البقر أو الإبل**»: الشك من إسحاق، وسياق الحديث يدل على أنه أعطي البقر.

قوله: «**فأتى الأعمى**»:

هذا هو الرجل الثالث في هذه القصة.

قوله: «**فأبصر به الناس**»:

لم يطلب بصرا حسنا كما طلبه صاحباه، وإنما طلب بصرا يبصر به الناس فقط.

لقوله: «**فرد الله إليه بصره**» الظاهر: أن بصره الذي كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس فقط.

قوله: «**قال: الغنم**»:

هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينة وتواضع. لأن السكينة في أصحاب الغنم.

فأعطي شاة والدا فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته قال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله

قوله: «**شاة والدا**»:

قيل: إن المعنى قريبة الولادة ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملا، ولما يأتي من قوله: «**فأنتج هذان وولد هذا**» والشيء قد يسمى بالاسم القريب فقد يعبر عن الشيء حاصلا وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول.

قوله: «**فأُنتج هذان**»: بالضم، وفي رواية بالفتح: «**فأَنتج**» وفي رواية: «فنَتَجَ هذان».

والأصل في اللغة في مادة [نتج] أنها مبنية للمفعول والإشارة إلى صاحب الإبل والبقر، و«**أنتج**» أي حصل لهما نتاج الإبل والبقر.

قوله: «**وولد هذا**»:

أي صار لشاته أولاد، قالوا: والمنتج من أنتج، والناتج من نتج، والمولد من ولد، ومن تولى توليد النساء يقال له: القابلة، ومن تولى توليد غير النساء يقال له: منتج أو ناتج أو مولد.

قوله: «**فكان لهذا واد من الإبل**»:

مقتضى السياق أن يقول فكان لذلك. لأنه أبعد المذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيد وهذا جائز وكذا العكس.

قوله: «**في صورته وهيئته**»:

الصورة في الجسم، والهيئة في الشكل واللباس وهذا هو الفرق بينهما.

قوله: «**رجل مسكين**»:

ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيرا أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله عز وجل المال؟ فقال:

خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا رجل مسكين، والمسكين: الفقير وسمي الفقير مسكينا؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، والغني في الغالب يكون عنده قوة وحركة.

قوله: «**انقطعت بي الحبال في سفري**»:

الحبال الأسباب، فالحبل يطلق على السبب وبالعكس قال تعالى: ﴿**فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع**﴾[1] ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلى مقصوده كالرشاء يتوصل به الإنسان إلى الماء الذي في البئر.

قوله: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»:

[لا]: نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول ومنه تبليغ الرسالة أي إيصالها إلى المرسل إليه والمعنى: لا شيء يوصلني إلى أهلي إلا بالله ثم بك، فالمسألة فيها ضرورة.

قوله: «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن**»:

السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء؛ لأن «سأل» تأتي بمعنى استجدى وبمعنى استخبر، تقول: سألته عن فلان أي استخبرته، وسألته مالاً أي استجديته واستعطيته، ولم يقل أسألك بالله لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين، لأنه جمع بين أمرين كونه مسكينا وكونه ابن سبيل، ففيه سببان يقتضيان الإعطاء.

قوله: «**بعيراً**»:

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٥.

إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا ورد

يدل على أن الأبرص أعطى الإبل، وتعبير إسحاق «الإبل أو البقر» من باب ورعه.

قوله: «**أتبلغ به في سفري**»: أي ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلى أهلي فقط.

قوله: «**الحقوق كثيرة**»:

أي هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة ليس حقك أنت فقط. وتناسى - والعياذ بالله - أن الله هو الذي منَّ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قولـه: «**كأني أعرفك**»: كأن هنا: للتشبيه؛ لأنها إذا دخلت على جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق فهي للظن والحسبان، والمعنى: أعرفك معرفة تامة.

قوله: «**ألم تكن أبرص يقذرك الناس**»:

ذكره الملك بنعمة الله عليه، وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على «لم» كقوله تعالى: ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾[1].

قوله: «**كابرا عن كابر**»:

أنكر أن المال من الله لكنه لم يستطع أن ينكر البرص.

و[كابرا] منصوبة على نزع الخافض أي من كابر أي ممن يكبرني، وهو الأب عن كابر له وهو الجد، وقيل المراد: الكبر المعنوي أي أننا شرفاء وسادة

---

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

عليه مثل ما رد عليه هذا فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورتـه فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد

وفي نعمة من الأصل وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعا.

قوله: «**إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت**»:

[إن] شرطية ولها مقابل، يعني وإن كنت صادقا فأبقى الله عليك النعمة.

فإن قيل: كيف يأتي بـ «إن» الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟.

أجيـب: أن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك فأبقى الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذبا وأنك لم ترثه كابرا عن كابر فصيرك الله إلى ما كنت، ولم يقل: «إلى ما أقول»؛ لأنه كان على ذلك بلا شك.

والتنزل مع الخصم يرد كثيرا في الأمور المتيقنة كقوله تعالى: ﴿**آلله خيرٌ أمَّا يشركون**﴾[1] ومعلوم أنه لا نسبة وأن الله خير مما يشركون ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته.

قوله: «**وأتى الأقرع في صورته**»: الفاعل المَلَك وهنا قال: «**في صورته**» فقط وفي الأول قال: «**في صورته وهيئته**» فالظاهر أنه تصرف من الرواة وإلا فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعا في اللباس ونحوه.

قوله: «**فقال له مثل ما قال لهذا**»: المشار إليه الأبرص.

قوله: «**فرد عليه**»: أي الأقرع.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٩.

انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. قال: كنت أعمى فرد الله علي بصري فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله،

قوله: «**مثل مارد عليه هذا**» أي الأبرص.

فكلا الرجلين ـ والعياذ بالله ـ غير شاكر لنعمة الله ولا معترف بها، ولا راحم لهذا المسكين الذي انقطع به السفر.

قوله: «**فصيرك الله إلى ما كنت عليه**»:

أي ردك الله إلى ما كنت عليه من القرع الذي يقذرك الناس به.

قوله: «**ابن سبيل**»: أي مسافر سمي بذلك لملازمته للطريق، ومنه سمي ابن الماء لطير الماء، فكل شيء يلازم شيئا فإنه يضاف إليه بلفظ البنوة.

قوله: «**فرد الله إليَّ بصري**»: اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثاني: العمل بالجوارح في طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة في القلب قال الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المحجبا

قوله: «**فوالله لا أجهدك بشيء أخذته لله**»:

الجهد: المشقة، والمعنى: لا أشق عليك بمنع ولا منة، واعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه فيكون دالا على الشكر بالقلب بالتضمن.

قوله: «**خذ ما شئت ودع ما شئت**»:

هذا من باب الشكر بالجوارح، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله: «**لله**»:

اللام للاختصاص، والمعنى لأجل الله، وهذا ظاهر في إخلاصه لله فكل ما تأخذه لله فأنا لا أمنعك منه ولا أردك.

فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» أخرجاه[1].

قوله: «**فإنما ابتليتم**»:

ابتلاهم الله وظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس؛ لأن قوله: «**إنما ابتليتم**» يدل على أن عنده علم بما جرى لصاحبيه وغالبا أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس.

قوله: «**فقد رضي الله عنك**»:

يعني لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح.

قوله: «**وسخط على صاحبيك**»:

لأنهما كفرا نعمة الله، سبحانه، وأنكرا أن يكون الله منَّ عليهما بالشفاء والمال.

وفي هذا الحديث من العبر شيء كثير منها:

١ ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ يقص علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جرى وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولاشك أن هذه قاعدة صحيحة.

٢ ـ بيان قدرة الله عز وجل بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم.

٣ ـ أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر؛ لقوله: «فأتى الأبرص في صورته».

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء/باب حديث أبرص وأقرع وأعمى في بني إسرائيل ٢/٤٩٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٥.

. . . .

---

٤ ـ أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحا أو معاني أو قوى فقط.

٥ ـ حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.

٦ ـ أن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله ـ أي بالمقضي ـ لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا وهذا يدل على عدم الرضا.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات:

جزع، وهو محرم.

صبر، وهو واجب.

رضا، وهو مستحب.

شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال وهو كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهي لا تلائمه؟.

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب على هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

وأما قوله ﷺ: «**فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السُّخْطُ**»[1].

فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله فهذا يجب الرضا به؛ لأن الله ـ عز وجل ـ حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضي.

والمقضي ينقسم إلى: مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعية يجب الرضا بها.

٧ ـ جواز الدعاء المعلق لقوله: «**إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت**» وفي القرآن قال الله تعالى: ﴿**والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين**﴾[2] ﴿**والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين**﴾[3].

---

(١) ٢/٢٢٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٧.

(٣) سورة النور، الآية: ٩.

. . . .

٨ ـ جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقربه الخصم المتنزل؛ لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وأن المال ورثه كابرا عن كابر، وقد سبق بيان وروده في القرآن ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾[1] ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

٩ ـ أن بركة الله لا نهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

١٠ ـ هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟.
الظاهر: أنها قضية عين وإلا لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله علمنا أن الدعاء قد استجيب.

١١ ـ بيان أن شكر كل نعمة بحسبها، فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء.
ونظير هذا مامر أن التوبة من كل ذنب بحسبه لكن لا يستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب.

١٢ ـ جواز التمثيل وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل أن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنساناً بمثل هذا فله ذلك.

١٣ ـ أن الابتلاء قد يكون عاما وظاهرا يؤخذ من قوله: «**فإنما ابتليتم**» وقصتهم مشهورة كما سبق.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

. . . .

---

١٤ ـ فضيلة الورع والزهد وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه؛ لأن الأعمى كان زاهدا في الدنيا فكان شاكرا لنعمة الله.

١٥ ـ ثبوت الإرث في الأمم السابقة لقوله: **«ورثته كابرا عن كابر»**.

١٦ ـ أن من صفات الله ـ عز وجل ـ الرضا والسخط والإرادة؛ وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة.

وإرادة الله نوعان: كونية، وشرعية، والفرق بينهما: أن الكونية يلزم بها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوبا لله.

وأما الشرعية: فإنه لا يلزم بها وقوع المراد ويلزم أن يكون محبوبا لله.

فإن قيل: هل الله يريد الخير كونا أو شرعا؟.

أجيب: أن الخير إذا وقع فهو مراد لله كونا وشرعا، وإذا لم يقع فهو مراد لله شرعا فقط.

ولهذا نقول الإرادة الشرعية بمعنى المحبة، والكونية بمعنى المشيئة.

وإثبات صفة الرضا لله سبحانه لا يقتضي انتفاء صفة الحكمة، بخلاف رضا المخلوق فقد تنتفي معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضي عن شخص مثلا فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه بكل شيء ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق، فلا تنتفي الحكمة مع غضب الخالق بخلاف غضب المخلوق فقد يخرجه عن الحكمة لشدة غضبه.

ومن فسر الرضا بالثواب أو إرادته فرأيه مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن

معنى [رضي] أي أراد أن يثيب فمعناه أنه لا يرضى، ولو قالوا: لا يرضى لكفروا لكن أولوها تأويلا يستلزم جواز نفي الرضا، لأن المجاز معناه نفي الحقيقة وهذا أمر خطير جدا.

ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم: أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة خلافا لمن قال: كل شيء في اللغة مجاز.

١٧ ـ أن الصحبة تطلق على المشاكلة في شيء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة لقوله: «وسخط على صاحبيك» فالصاحب هنا: من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس.

١٨ ـ اختبار الله ـ عز وجل ـ بما أنعم عليهم به.

١٩ ـ أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.

٢٠ ـ أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئا لم يكن من أجل الاختبار لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

٢١ ـ أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة لقوله: «**فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك**».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية، **الثانية**: ما معنى: «ليقولن هذا لي».
الثالثة: ما معنى قوله: «إنما أوتيته على علم». **الرابعة**: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية:

وهي قوله تعالى: ﴿**ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي**﴾: وقد سبق أن الضمير في قوله: «**أذقناه**» يعود على الإنسان باعتبار الجنس.

الثانية: ما معنى: «**ليقولن هذا لي**»:

اللام للاختصاص، والمعنى أني حقيق به وجدير به.

الثالثة: ما معنى قوله: «**إنما أوتيته على علم**»: وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة: وقد سبق ذكر عبر كثيرة وهذا ليس استيعابا ومن ذلك:

١ - الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمى.

٢ - أن الأبرص والأقرع جحدا نعمة الله، عز وجل، والأعمى اعترف بنعمة الله.

٣ - عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة قال خذ ما شئت فدل هذا على جوده وإخلاصه لله، لأنه قال: فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، عز وجل. بخلاف الأبرص والأقرع حيث كانوا أشحاء بخلاء منكرين نعمة الله، عز وجل.

باب قول الله تعالى:

﴿فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾[1] الآية[2].

قولـه: «**فلما آتاهما**»: الضمير يعود على ما سبق ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: «**هو الذي خلقكم من نفس واحدة...**»[3]:

قوله: «**خلقكم من نفس واحدة**» فيها قولان:

الأول: أن المراد بالنفس الواحدة العين الواحدة، أي من شيء معين وهو آدم، عليه السلام، وقوله: «**وجعل منها زوجها**» «مِنْ»: للتبعيض، لأن حواء خلقت من ضلع آدم.

الثـاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، ولم يجعل زوجه من جنس البقر أو الضأن أو الملائكة مثلا، والنفس قد يراد بها الجنس كما في قوله تعالى: **﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾**[4] أي من جنسهم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٠.

(٢) قال الشيخ عبدالرحمن السعدي في القول السديد ص (١٣١):

«مقصـود الـترجمة: أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمَّل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على انعامه، وأن لا يُعَبِّدُوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد».

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

. . . .

قوله: «**ليسكن إليها**»:

سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:

أولا: لأن بينهما من المودة والرحمة ما يقتضي الأنس والاطمئنان والاستقرار.

ثانيا: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وابنها.

وقوله: «**ليسكن إليها**»: تعليل لكونها من جنسه أو من النفس المعينة.

قوله: «**فلما تغشاها**»:

أي جامعها، وعبارة القرآن والسنة عن الجماع كناية، قال تعالى: ﴿**أو لامستم النساء**﴾[1] وقال: ﴿**اللاتي دخلتم بهن**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**وقد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾[3] كأن الاستحياء من ذكره بصريح اسمه أمر فطري؛ ولأن الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يصرح به كما في قوله ـ ﷺ ـ لما عز وقد أقر عنده بالزنى: «أنكتها لا يكني»[4]، لأن الحاجة هنا داعية للتصريح حتى يتبين الأمر جليا، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وتشبيه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامه. قال، تعالى: ﴿**والليل إذا يغشى**﴾[5] ولم يقل: فلما غشيها، لأن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢١.

(٤) أخرجه البخاري في الحدود/باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست ٤/٢٥٦.

(٥) سورة الليل، الآية: ١.

. . . .

تغشى أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، ولهذا جاء في الحديث: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها**»[1] الجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان و[جهدها] هذا تغشي.

قوله: «**حملت حملا خفيفا**»:

الحمل في أوله خفيف نطفة ثم مضغة.

قوله: «**فمرت به**»: المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنى تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله: «**فلما أثقلت**»: الإثقال في آخر الحمل.

قوله: «**دعوا الله**»:

ولم يقل: دعيا، لأن الفعل واوي فعاد إلى أصله.

قوله: «**الله ربهما**»:

أتى بالألوهية والربوبية؛ لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثاني: جانب الربوبية، لأن في الدعاء تحصيلا للمطلوب وهذا يكون متعلقا بالله.

والظاهر أنهما قالا: اللهم ربنا، ويحتمل أن يكون بصيغة أخرى.

قوله: «**لئن آتيتنا صالحا**»: أي أعطيتنا.

وقوله: «**صالحا**»:

هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين؟ أي لئن آتيتنا بشراً سوياً ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحا بالدين فيكون تقيا قائما بالواجبات؟.

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل/باب إذا التقى الختانان ١/١١١، ومسلم في الحيض/باب نسخ الماء من الماء ١/٢٧١.

. . . .

الجـواب: يشمل الأمرين جميعاً، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول وهو الصلاح البدني، لكن لا مانع من أن يكون شاملا للأمرين جميعا.

قوله: «**لَنكونن من الشاكرين**»:

أي من القائمين بشكرك على هذا الولد الصالح.

والجملة هنا فيها قسم وشرط، قسم متقدم وشرط متأخر، والجواب فيه للقسم ولهذا جاء مقرونا باللام: لنكونن.

قوله: ﴿**فلما آتاهما صالحا**﴾ هنا حصل المطلوب، لكن النتيجة بالعكس فلم يحصل الشكر الذي وعدا الله به، بل جعلا له شركاء فيما آتاهما.

قوله: «**جعلا له شركاء فيما آتاهما**»:

الذين يرجحون أن المراد بالصلاح صلاح البدن يقولون إنه قال: ﴿**فلما آتاهما صالحا جعلا له**. . . ﴾ والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك حين الإتيان وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أيصلح في المستقبل أم لايصلح ولهذا أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني.

فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه، ولكن الغالب أنه لا تكون، ففي سورة التوبة قال تعالى: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون**﴾[1] وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿**لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء**﴾ فكانوا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي - ﷺ - عن النذر لأن النذر معاهدة مع الله، عز وجل، ولهذا نهى النبي - ﷺ - عن النذر وقال: «**إنه لا**

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٧٥ - ٧٦.

يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»[1] وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر[2]، لأن الرسول ـ ﷺ ـ نهى عنه ونفى أنه لا يأتي بخير، إذاً مالذي نستفيد من أمرٍ نهى عنه الرسول ﷺ؟

الجواب: لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، ولهذا القول بتحريم النذر قول قوي جدا ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصا مما نذروا.

قوله: **«جعلا له شركاء فيما آتاهما»**:

هذا الولد الذي آتاهما الله ـ عز وجل ـ كان صالحا فكيف جعلا في هذا الولد شركا بل شركاء؟ نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقدا أن الذي أتى بهذا الولد هو الولي الفلاني أو الصالح الفلاني فهذا شرك أكبر، لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضا ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن، فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني، كما يزعمون أنه ولي الله ـ والله أعلم بولايته ـ فتقول: يا سيدي فلان أعطني الولد.

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم، وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون مثلا سلم هذا الولد من الطلق؛ لأن

---

(١) أخرجه مسلم في النذر/باب النهي عن النذر ٣/١٢٦١ وأخرج البخاري نحوه في الأيمان/باب الوفاء بالنذر ٤/٢٢٧، ومسلم في النذر/باب النهي عن النذر ٣/١٢٦١ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) انظر الاختيارات ص (٣٢٨).

القابلة امرأة متقنة جيدة، فهنا أضاف النعمة إلى غير الله وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر، لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسي المسبب وهو الله، عز وجل.

الوجه الثالث أن لا يشرك من ناحية الربوبية بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالما بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية فيقدم محبته على محبة الله ورسوله، ويلهيه عن طاعة الله ورسوله قال تعالى: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**﴾[1] فكيف تجعل هذا الولد ندا لله في المحبة؟ وربما قدمت محبته على محبة الله، والله هو المتفضل عليك به، ولهذا قال: «**فلما آتاهما**» ففيه نقد لاذع أن يجعل شريكا مع الله مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾ أي: ترفّع وتقدّس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

فالآية صريحة وواضحة، وهي على القول بأن قوله: ﴿**خلقكم من نفس واحدة**﴾: أي من جنس واحد ليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جاريا على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن كقوله تعالى:

﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ جعل فيهم رسولا من أنفسهم**﴾[2] أي من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البيّن يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الثاني بأن المراد بقوله تعالى: ﴿**من نفس واحدة**﴾ أي آدم ﴿**وجعل منها زوجها**﴾[3] أي حواء، فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

. . . .

فلما جامع آدم حواء حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا ـ أي آدم وحواء ـ الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما، فأشرك آدم وحواء بالله لكن يقولون إشراك طاعة لا إشراك عبادة، «**فتعالى الله عما يشركون**» وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وسنبين ـ إن شاء الله تعالى ـ وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿**من نفس واحدة**﴾ أي آدم وحواء: «**فلما تغشاها**» انتقل من العين إلى النوع، أي من آدم، إلى النوع الذي هو جنس بني آدم أي فلما تغشى الإنسان الذي تسلسل من آدم وحواء زوجته... إلى آخره، ولهذا قال تعالى: ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾ بالجمع ولم يقل عما يشركان ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾[1] أي جعلنا الشهب الخارجة منها رجوما للشياطين، وقوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة**﴾[2] أي جعلناه بالنوع فأول الآية في آدم وحواء ثم انتقلت من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر فقوله: «**فلما تغشاها**» هذا شيء آخر غير الأول.

وأما قوله تعالى: ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾: فجمع لأن المراد بالمثنى الجنس أو الاثنين من هذا الجنس فصح أن يعود الضمير إليه مجموعا كما في قوله تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا**﴾[3] ولم يقل اقتتلتا لأن الطائفتين جماعة.

---

(١) سورة الملك، الآية: ٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٩.

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب.

قوله: «**فتعالى الله عما يشركون**»: تعالى: أي ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

قوله: «**اتفقوا**».

أي أجمعوا، والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي تثبت بها الأحكام.

والأدلة هي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

قوله: «**وما أشبه ذلك**»: مثل: عبد الحسين، عبد الرسول، عبد المسيح، عبد علي.

وأما قوله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم....**»[1] الحديث، فهذا وصف وليس عَلَما، فشبَّه المنهمكَ بمحبة هذه الأشياء المُقدِّمَ لها على ما يرضي الله بالعابد لها كقولك: عابد الدينار فهو وصف فلا يتناوله، فلا يعارض الإجماع.

قوله: «**حاشا عبد المطلب**»:

حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليه [ما] وجب نصب ما بعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر.

وبالنسبة: [لعبد المطلب] مستثنى من الإجماع على تحريمه فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول - ﷺ - قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/باب الحراسة في الغزو ٢/٣٢٧، من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

وعن ابن عباس في الآية قال: «لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما

أنا النبي لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المطلبْ[1]

فالنبي ـ ﷺ ـ لا يفعل حراما فيجوز أن يُعبَّد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ وهذا تقرير ابن حزم، رحمه الله، ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**» فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جدا اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ـ ﷺ ـ أنه سمى عبد المطلب أو أنه أمر أحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحدا على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار ولهذا قال النبي، ﷺ: «**إنما بنو هاشم وبنو عبد مناف شيء واحد**»[2] ولا يجوز التسمي بعبد مناف.

وقد قال العلماء: إن حاكي الكفر ليس بكافر، فالرسول ـ ﷺ ـ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى، فالصواب أنه لا يجوز أن يُعبّد لغير الله مطلقا لا بعبد المطلب ولا غيره، وعليه فيكون التعبيد لغير الله من باب الشرك.

قوله: «**إبليس**»: فعليل، فقيل من أبلس إذا يئس، لأنه يئِس من رحمة الله، تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/باب من قاد راية غيره في الجهاد ٢/٣٢٢ من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الخمس/باب ومن الدليل على أن الخمس للإمام ٢/٤٠٠ عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه.

فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث. فذلك قوله: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ رواه ابن أبي حاتم[1]. وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لئن آتيتنا صالحا﴾ قال: أشفقنا أن لا يكون إنسانا، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما[2].

قوله: «لَتطيعاني»: جملة قسمية، أي والله لتطيعاني.

قوله: «إيِّل»: ذكر الأوعال.

قوله: «سمياه عبد الحارث»: اختار هذا الاسم، لأنه اسمه، فأراد أن يعبداه لنفسه.

قوله: «فخرج ميتا»: لم يحصل التهديد الأول، ويجوز أن يكون من جملة: «ولأفعلن» ولأنه قال: «ولأخرجنه ميتا».

قوله: «شركاء في طاعته»:

أي أطاعاه فيما أمرهما به، لا في العبادة لكن عبّدا الولد لغير الله، وفرق بين الطاعة والعبادة فلو أن أحدا أطاع شخصا في معصية لله فلم يجعله شريكا مع الله في العبادة لكن أطاعه في معصية الله.

قوله: «أشفقنا أن لا يكون إنسانا»:

أي خاف آدم وحواء أن يكون حيوانا أو جنيا أو غير ذلك.

قوله: «وذكر معناه عن الحسن»:

لكن الصحيح أن الحسن يرحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وأن المراد بها المشركون من بني آدم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥، وسعيد بن منصور ٢/ ١٣٨٧.
وانظر كلام الشيخ حفظه الله على هذه القصة.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٩/ ٩٨، ٩٩، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥.

وهذه القصة باطلة من وجوه :

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي ، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة : إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة .

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه ، فإن قلنا ماتا عليه كان دلك أعظم من قول بعض الزنادقة :

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية ، وإن كان تابا من الشرك فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ، ولا يذكر توبتهما منه ، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا ، ولم يذكر توبتهما ، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها .

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء .

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية ، ولو وقع منه الشرك لكان اعتذاره به أعظم وأولى وأحرى[1] .

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال : «**أنا**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير / باب قول الله تعالى : ﴿**ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا**﴾ ٣ / ٢٥٠ ، ومسلم في الإيمان / باب أدنى أهل الجنة منزلة ١ / ١٨٤ من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

. . . .

صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة» وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، بل هذا وسيلة إلى رد كلامه، فيأتي بشيء يقرب من قبول قوله، فإذا قال: **«أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة»** سيعلمان علم اليقين أنه عذر لهما فلا يتقبلان منه صرفا ولا عدلا.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: **«لأجعلن له قرني إيل»** إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه وهذا شرك في الربوبية، لأنه لا خالق إلا الله أو لا يصدقا فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجة السابع: قوله تعالى: **﴿فتعالى الله عما يشركون﴾** بضمير الجمع ولو كان آدم وحواء لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحـوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرؤن منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركا حقيقيا فإن منهم مشركاً ومنهم موحدا.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

فيـه مسائـل:

الأولى: تحريم كل اسم معبّد لغير الله:

تؤخذ من الإجماع على ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها في الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل لقوله تعالى: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾[1] و«إن» هذه شرطية لا تدل على وقوع التنازع، بل إن فرض ووقع فالمراد إلى الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة.

لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلى بينة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلانا يقول: أجمعوا على كذا أنكر ذلك وقال: وما يدريه لعلهم اختلفوا، فمن ادعى الإجماع فهو كاذب.

ولعل الإمام أحمد قال ذلك، لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلى إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون هذا إجماع المحققين وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لا يجوز التعبيد للمطّلب، وأن قول الرسول ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»[2] أنه من قبيل الإخبار وليس إقراراً ولا إنشاءً، والإنسان له أن ينتسب إلى أبيه وإن كان معبدا لغير الله وقد قال النبي ﷺ:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سبق ص (٦٥).

الثانية: تفسير الآية. **الثالثة**: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم يقصد حقيقتها. **الرابعة**: أن هبة الله للرجل البنتَ السوية من النعم. **الخامسة**: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

«**يا بني عبد مناف**»[1] وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار.

الثانية: تفسير الآية: وقد سبق ذلك.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها: وهذا بناء على ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما، والصواب: أن هذا الشرك حق حقيقة وأنه شرك من إشراك بني آدم، ولهذا قال تعالى في الآية نفسها: ﴿**أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون**﴾ فهذا الشرك الحقيقي الواقع من بني آدم.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم: هذا بناء على ثبوت القصة وأن المراد بقوله: «**صالحا**» أي بشرا سويا، وأتى المؤلف بالبنت دون الولد؛ لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم، قال تعالى: ﴿**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون**﴾[2]، وإلا فهبة الولد الذكر السوي من باب النعم، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثى، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

---

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «. . . **يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار**» الحديث.

أخرجه البخاري في الوصايا/باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب ٢/٢٩١، ومسلم في الإيمان / باب في قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ ١/١٩٢.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

. . . .

وقبـل ذلـك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة، فالطاعة إذا كانت منسوبة لله فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ـ ﷺ ـ لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع ملكا من ملوك الدنيا وهو يكرهه.

فالشرك بالطاعة: أنني أطعته لا حبا وتعظيما وذلا كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه ولكن طاعته أي اتباعا لأمره فقط هذا هو الفرق.

وبناء على القصة فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة.

باب قول الله تعالى:

﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾[1] الآية.

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله ـ عز وجل ـ بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثلت لم توحد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي، أي إثبات الحكم للموحد ونفيه عما عداه، فمثلا إذا قلت: زيد قائم لم توحده بالقيام؛ وإذا قلت زيد غير قائم لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد وحدته بالقيام.

وإذا قلت: لا إله إلا الله، وحدته بالألوهية، وإذا أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه فهذا تعطيل، وإن مثلت فهذا إشراك.

قوله: **«ولله الأسماء الحسنى»**:

طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ففي الآية توحيد الأسماء لله.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

. . . .

قوله: «**الحسنى**»:

مؤنثه أحسن فهي اسم تفضيل، ومعنى الحسنى أي البالغة في الحسن أكمله، لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق؛ لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقا مثل زيد الأفضل وقد يكون مقيدا مثل زيد أفضل من عمرو.

وهنا التفضيل مطلق لأنه قال: «**ولله الأسماء الحسنى**».

فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه ليس فيها نقص، لا فرضا، ولا احتمالا.

وما يَخْبَر به عن الله أوسع مما يسمى به الله؛ لأن الله يُخبر عنه بالشيء ويخبر عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشيء لا يتضمن مدحاً والمتكلم والمريد يتضمنان مدحا من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك، فلا يسمى بالشيء ولا بالمتكلم ولا بالمريد.

وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله، تعالى:

الأول: هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف؟.

الثاني: هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟.

الثالث: هل أسماء الله هي الله أو غيره؟.

الرابع: أسماء الله توقيفية.

الخامس: أسماء الله غير محصورة بعدد معين[1].

السادس: أسماء الله إذا كانت متعدية فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة

---

(١) انظر هذه المباحث وغيرها في باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات، وباب احترام أسماء الله تعالى.

. . . .

وبالحكم الذي يسمى أحيانا بالأثر، وإن كانت غير متعدية فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

السابع: إحصاء أسماء الله معناه:

١ ـ الإحاطة بها لفظا ومعنى.

٢ ـ دعاء الله بها لقوله تعالى: ﴿**فادعوه بها**﴾ وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء فتقول: ياذا الجلال والإكرام، يا حي ياقيوم، وما أشبه ذلك.

٣ ـ أن تتعبد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمته، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت إنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه وإذا علمت أنه بصير اجتنبت الفعل الذي لا يرضاه.

قوله: «**فادعوه بها**»: الدعاء هو السؤال.

والدعاء قد يكون: بلسان المقال مثل: اللهم اغفر لي يا غفور وهكذا.

أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة وعبادة، لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه.

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها.

وهذا خلافا لما قاله بعض المداهنين في وقتنا الحاضر إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيها ولا حاجة منه.

أيريدون أن يعبدوا شيئا لا أسماء له ولا صفاتٍ؟

أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المحرفين حتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟

. . . .

وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس لا تبحثوا في الأسماء والصفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بها.

والأمر للوجوب ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضا أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني بل لابد أن لها معاني فلابد أن نبحث فيها.

لأن علمها ألفاظا مجردة لا فائدة فيه وإن قدر أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ فإنه لا يحصل به كمال الفائدة.

وقوله: «**فادعوه بها**»: له معنيان:

الأول: دعاء العبادة وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الأسماء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾[1] ولم يقل عن دعائي فدل على أن الدعاء عبادة.

فمثلا: الرحيم يدل على الرحمة، وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها، والغفور يدل على المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله ـ عز وجل ـ بكثرة التوبة والاستغفار كذلك، وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع بحيث لا تسمع الله قولا يغضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلا يكرهه منك.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

. . . .

الثاني: دعاء المسألة وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلا بها إلى الله تعالى.

مثلا: يا حي يا قيوم اغفر لي، وارحمني وقال ﷺ: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[1] والإنسان إذا دعا وعلل فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالبا أن يكون سببا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المرغوبة له سبب للإجابة، فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة.

قوله: «**وذروا الذين يلحدون**»:

ذروا: اتركوا. الذين: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول.

ثم توعدهم بقوله: «**سيجزون ما كانوا يعملون**» وهو الإلحاد أي سيجزون جزاءه المطابق للعمل تماما، ولهذا يعبر الله ـ تعالى ـ بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزى الإنسان إلا بقدر عمله.

والمعنى: ذروهم: أي لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم إذ لا يترك الظالم على ظلمه.

والإلحاد: مأخوذ من اللحد وهو الميل، لحد وألحد بمعنى مال، ومنه سمي الحفر بالقبر لحدا، لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد في أسماء الله الميل بها عما يجب فيها وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحادا ـ أنه مال بها عما يجب لها إذ الواجب إثباتها.

---

(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب الدعاء قبل السلام ١/٢٦٨، ومسلم في الذكر والدعاء/باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٨، من حديث أبي بكر، رضي الله عنه.

الثاني: أن يثبت أسماء الله ويزيد أسماء لم يسم الله بها نفسه كقول الفلاسفة في الله إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله.

وبعضهم يسميه العقل الفعال فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أبا وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله سبحانه وتعالى مماثلا للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات.

ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعاني في المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان حتى يلقوا عليها شيئا من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه لوجوه ثلاثة:

١ ـ أنه هو الذي نفاه الله في القرآن فقال: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[1].

٢ ـ أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنى من بعض الوجوه.

فمثلا: الخالق والمخلوق اشتركا في معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجوده هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس «يلحدون في أسمائه»: يشركون. وعنه: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز[1]. وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

الخالق والمخلوق في أصل المعنى ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣ ـ أن الناس اختلفوا في معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهاً فيكون المعنى بلا تشبيه أي بلا إثبات الصفات تشبيها فيكون المعنى بلا تشبيه أي بلا إثبات صفات على اصطلاحهم.

قوله: ﴿**سيجزون ما كانوا يعملون**﴾:

لم يقل سيجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد وهو كقوله تعالى: ﴿**سنفرغ لكم أيه الثقلان**﴾[2] وليس المعنى أن الله ـ عز وجل ـ مشغول الآن وسيحلقه الفراغ فيما بعد.

قوله: «**يعملون**»: العمل يطلق على القول والفعل قال تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾ وهذا يكون في الأفعال والأقوال.

قوله: «**يشركون**»: يتضمن الإشراك بها من الجهتين:

١ ـ بأن يجعلوها دالة على المماثلة.

٢ ـ أو يشتقوا منها أسماء للأصنام.

فمن جعلها دالة على المماثلة فقد أشرك؛ لأنه جعل لله مثيلا، ومن أخذ منها أسماء لأصنامه فقد أشرك؛ لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله عز وجل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ١٤٩/٣.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٣١.

. . . .

وقوله: «**وعنه**»: **أي ابن عباس**.

قوله: «**سموا اللات من الإله . . .**»: وهذا أحد نوعي الإشراك بها أن يشتق منها اسماء للأصنام.

تنبيـه :

فيه كلمة تقولها النساء عندنا وهي [واعِزّالي] فما هو المقصود بها؟.

الجواب: المقصود أنها من التعزية أي أنها تطلب الصبر والتقوية وليست تندب العزى التي هي الصنم، لأنها قد لا تعرف أن هناك صنما اسمه العزى ولا يخطر ببالها هذا، وبعض الناس قال يجب إنكارها؛ لأن ظاهر اللفظ أنها تندب العزى وهذا شرك، ولكن نقول: لو كان هذا هو المقصود لوجب الإنكار، فنحن نعلم علم اليقين أن هذا غير مقصود بل يقصد بهذا اللفظ التقوية والصبر والثبات على هذه المصيبة.

قوله: «**عن الأعمش:يدخلون فيها ما ليس منها**»:

هذا أحد أنواع الإلحاد وهو أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد. لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع.

والإلحاد في الآيات دليله قوله تعالى: ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا**﴾[1] فقوله: «**لا يخفون علينا**» فيها تهديد لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مؤكدة بإنّ.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١ ـ **آيات كونية**: وهي كل المخلوقات من السموات والأرض والنجوم والجبال والشجر وسائر الدواب وغير ذلك، قال الشاعر:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

. . . .

فواعجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

١ ـ اعتقاد أن أحدا سوى الله منفرد بها أو ببعضها.

٢ ـ اعتقاد أن أحدا مشارك لله فيها.

٣ ـ اعتقاد أن لله فيها معينا في إيجادها وخلقها، وتدبيرها.

والدليل قوله تعالى: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾**[1] ظهير: أي معين.

وكل ما يُخلّ بتوحيد الربوبية فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

٢ ـ **آيات شرعية**: وهو ما جاءت به الرسل من الوحي كالقرآن قال تعالى: **﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾**[2].

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

١ ـ تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

٢ ـ مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

٣ ـ التحريف بالأخبار والأحكام.

والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام.

ومنه ما يكون كفرا كتكذيبها فمن كذب شيئا مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبرا به فهو كافر.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.

. . . .

ومنه ما يكون معصية من الكبائر كقتل النفس والزنا.

ومنه ما يكون معصية من الصغائر كالنظر لأجنبية لشهوة.

قال الله تعالى في الحرم: ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾[1] فسمى الله المعـاصي والظلم إلحاداً؛ لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان إذ الواجب عليه السير على صراط الله ـ تعالى ـ ومن خالف فقد ألحد.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء. **الثانية**: كونها حسنى. **الثالثة**: الأمر بدعائه بها. **الرابعة**: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين. **الخامسة**: تفسير الإلحاد فيها. **السادسة**: وعيد من ألحد.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء: وتؤخذ من قوله: ﴿**ولله الأسماء**﴾ وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفي الجملة حَصْرٌ لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنى، لا باعتبار الاسماء.

وأنكر الأسماءَ الجهميةُ وغلاةُ المعتزلة.

الثانية: كونها حسنى:

أي بلغت في الحسن أكمله؛ لأن «حسنى» مؤنث أحسن وهي: اسم تفضيل.

الثالثة: الأمر بدعائه بها:

والدعاء نوعان دعاء مسألة ودعاء عبادة وكلاهما مأمور فيه أن يُدْعى الله بهذه الأسماء الحسنى، وسبق تفصيل ذلك(١).

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين، أي ترك سبيلهم، وليس المعنى أن لا ندعوهم ولا نبين لهم، والآية تتضمن أيضا التهديد.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها: وقد سبق بيان أنواعه.

السادسة: وعيد من ألحد:

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**سيجزون ما كانوا يعملون**﴾.

---

(١) انظر ص (٧٢).

باب لا يقال: السلام على الله

هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفي وهو محتمل للكراهة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضي أنه للتحريم وهو كذلك.

والسلام له عدة معانٍ:

١ ـ التحية كما يقال: سلم على فلان، أي حياه بالسلام.

٢ ـ السلامة من النقص والآفات، كقولنا: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

٣ ـ السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿**الملك القدوس السلام**﴾.

قوله: «**لا يقال السلام على الله**»:

أي لا تقل السلام عليك يا رب لما يلي:

أ ـ أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه، فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك، إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلا أن يتصف به، والله سبحانه منزه عن صفات النقص.

ب ـ إذا دعوت الله أن يسلم نفسه فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يُدعى ولا يدعى له، فهو غني عنا لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور سميع، عليم. . . .

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات:

ظاهرة؛ لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنى، والدليل على أن

. . . .

صفاته عليا قوله، تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوء، ولله المَثَلُ الأعلى﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وله المَثَلُ الأعلى في السموات والأرض﴾[2].

والمثل الأعلى: الوصف الأكمل فإذا قلنا: السلام على الله أوهم ذلك أن الله ـ سبحانه ـ قد يلحقه النقص وهذا ينافي كمال صفاته.

ومناسبة هذا الباب لما قبله: ظاهرة، لأن موضع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحسنى لله، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمن كمالها ولا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها، فإنك لو قلت: زيد فاضل أثبت له الفضل، وجاز أن يلحقه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل ولم يتخذ شيئا من طريق السفول فالآن أثبت له الفضل المطلق في هذه الصفة.

والرب ـ سبحانه وتعالى ـ يتصف بصفات الكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل، ولهذا أعقب المؤلف ـ يرحمه الله ـ الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يلحقها نقص.

والسلام اسم ثبوتي سلبي.

فسلبي: أي أنه يراد به نفي كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتي: أي: ثبوت هذا الاسم له، والصفة التي تضمنها وهي السلامة.

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: **لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام**»[1].

قوله: «**في الصحيح**»:

هذا أعم من أن يكون ثابتا في الصحيحين، أو أحدهما، أو غيرهما، وهذا الحديث المذكور في الصحيحين.

قوله: «**كنا إذا كنا مع النبي - ﷺ - في الصلاة**»: الغالب أن المعية مع النبي - ﷺ - في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض؛ لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة كالاستسقاء.

قوله: «**قلنا السلام على الله من عباده**»:

أي يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده؛ لأن قول الإنسان السلام عليكم له معنيان:

١ - اسم السلام عليك، أي عليك بركاته.

٢ - السلامة من الله عليك، فهو سلام بمعنى تسليم ككلام بمعنى تكليم.

قوله: «**السلام على فلان وفلان**»: أي جبريل وميكائيل، وكلمة فلان هذه يكنى بها عن الشخص، وهي مصروفة، لأنها ليست علما ولا صفة. كصفوان في قوله تعالى: ﴿**كمثل صفوانٍ عليه تراب**﴾[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان/باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد ١/٢٦٩. وأخرجه أيضا البخاري في الأذان/باب التشهد في الآخرة ١/٢٦٨، ومسلم في الصلاة/باب التشهد في الصلاة بلفظ: «**إن الله هو السلام فإذا صلى أحدكم فليقل التحيات لله...**» ١/٣٠١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

. . . .

وقـد جاء في لفظ آخر: «**السلام على جبريل وميكال**»[١] كانوا يقولون هكذا في السلام، فقال النبي ﷺ: «**لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو سلام**» وهـذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه ـ عز وجل ـ سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب فلا نقول السلام على الله، لأنه:

١ ـ يوهم جواز النقص في حق الله، عز وجل.

٢ ـ يقتضي أننا ندعو الله لله، والله يدعى ولا يدعى له؛ لأنه ليس بحاجة إلى أحد، بل هو ـ عز وجل ـ يحب أن يمدح ويثنى عليه لا شخص أحب إليه المدح من الله.

وفيه دليل على جواز السـلام على الملائكة، لأن النبي ﷺ لم ينه عنه، ولأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: عليه السلام[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان/باب التشهد في الآخرة ١/٢٦٨.

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله، ﷺ، «**هذا جبريل يقرأ عليك السلام، قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته**».

أخرجه البخاري في بدء الخلق / باب ذكر الملائكة ١١/٣٣، ومسلم في الاستئذان / باب تسليم الرجال على النساء ٤/١٨٩٥.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام. **الثانية**: أنه تحية. **الثالثة**: أنها لا تصلح لله. **الرابعة**: العلة في ذلك. **الخامسة**: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام: فبالنسة لكونه اسما من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان:

الأول: تقدير مضاف أي اسم السلام عليك، أي اسم الله الذي هو السلام عليك.

الثاني: أن السلام بمعنى التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنى التكليم أي تخبر خبرا يراد به الدعاء أن السلام على فلان، ولكنه خبرٌ لفظاً، إنشاءٌ معنىً، أي أسأل الله أن يسلمك تسليما.

الثانية: أنه تحية: وسبق ذلك.

الثالثة: أنها لا تصلح لله: وسبق ذلك.

الرابعة: العلة في ذلك: أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله: وتؤخذ من تكملة الحديث: «**التحيات لله...**» وفيه حسن تعليم الرسول - ﷺ - فإنه حينما نهاهم علَّل النهي.

وفيه فوائد:

١ - طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

٢ - بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة؛ لأن العلة حكمة.

. . . .

---

٣ ـ القياس على ما شارك الحكم المعلل بتلك العلة.

ويستفاد من الحديث: أنه لا يجوز الإقرار على المحرم لقوله: «**لا تقولوا السلام على الله**» وهذا واجب على كل مسلم، ويجب على العلماء بيان الأمور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جائز قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾[1].

عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله وذلك من صفات الكمال.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

باب قول اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له**»[1] ولمسلم: «**وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[2].

قوله: «**اللهم**»: معناه يا الله، لكن لكثرة الاستعمال حذفت الياء وعوض عنها الميم، وجعل العوض في الآخر تيمناً بالابتداء بذكر الله.

قوله: «**اغفر لي**»: المغفرة ستر الذنب مع التجاوز عنها؛ لأنها مشتقة من المغفر وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا بشيء ساتر واقٍ، ويدل له قول الله ـ عز وجل ـ للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**».

قوله: «**لا يقل أحدكم**»:

لا: ناهية بدليل جزم الفعل بعدها قوله:

«اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني»، ففي الجملة الأولى «**اغفر لي**» النجاة من المكروه، وفي الثانية «**ارحمني**» الوصول إلى المطلوب. فيكون هذا الدعاء شاملا لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه وذكر المغفرة والرحمة على سبيل التمثيل.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات/باب ليعزم المسألة ٤/١٦٠، ومسلم في الذكر والدعاء/باب العزم بالدعاء ٤/٢٠٦٣.

(٢) الموضع السابق.

. . . .

قوله: «**ليعزم المسألة**»: اللام لام الأمر، ومعنى عزم المسألة أن لا يكون في تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق.

والمسألة: السؤال أي ليعزم في سؤاله فلا يجعله مترددا بقوله: إن شئت.

قوله: «**فإن الله لا مكره له**»:

تعليل للنهي عن قول: «**اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت**» أي لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله.

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه فيقول: أنا لا أكرهك إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر.

الثاني: أن قول القائل: إن شئت كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشاؤه، لكونه عظيما عنده، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس - والمثال للصورة بالصورة لا للحقيقة بالحقيقة -: أعطني مليون ريال إن شئت فإنك إذا قلت له ذلك ربما يكون الشيء عظيما يتثاقله فقولك: إن شئت، لأجل أن تهون عليه المسألة فالله - عز وجل - لا يحتاج أن تقول له إن شئت، لأنه - سبحانه وتعالى - لا يتعاظمه شيء أعطاه، ولهذا قال، عليه الصلاة والسلام: «**وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**» وليعظم الرغبة: أي ليسأل ما شاء من قليل وكثير ولا يقل هذا كثير لا أسأل الله إياه ولهذا قال: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**» أي لا يكون الشيء عظيما عنده حتى يمنعه ويبخل به - سبحانه وتعالى - كل شيء يعطيه فإنه ليس عظيما عنده فالله عز وجل يبعث الخلق بكلمة واحدة وهذا أمر عظيم، قال تعالى: ﴿**قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير**﴾[1] وليس بعظيم فكل ما يعطيه الله - عز

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٧.

. . . .

وجل ـ لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه، أي: لا يكون الشيء عظيما عنده حتى لا يعطيه، بل كل شيء عنده هين.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني، ولهذا قال: «**وليعظم الرغبة**» أي يسأل برغبة عظيمة، والتعليق ينافي ذلك؛ لأن المعلق للشيء المطلوب يشعر أنه مستغنٍ عنه، والإنسان ينبغي أن يدعو الله ـ تعالى ـ وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الافتقار، وأن الله قادر على أن يعطيه ما سأل، وأن الله ليس يعظم عليه شيء، بل هو هين عليه، إذاً من آداب الدعاء أن لا يدعو بهذه الصيغة، بل يجزم فيقول: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم وفقني وما أشبه ذلك، وهل يجزم بالإجابة؟

الجواب: إذا كان الأمر عائدا إلى قدرة الله فهذا يجب أن تجزم بأن الله قادر على ذلك قال الله تعالى: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾[1].

أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع، أو عدم توافر الأسباب فإنك قد تتردد، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله، لأن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ فالذي وفقك لدعائه أوّلاً، سيمن عليك بالإجاب آخرا لا سيما إذا أتى الإنسان بأسباب الإجابة، وتجنب الموانع، ومن الموانع الاعتداء في الدعاء كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم.

ومنها أن يدعو بما لا يمكن شرعا أو قدرا:

فشرعا كأن يقول: اللهم اجعلني نبيا.

وقدرا: بأن يدعو الله تعالى بأن يجمع بين المتناقضين، وهذا أمر لا يمكن، فالاعتداء بالدعاء مانع من إجابته، وهو محرم وهو أشبه ما يكون

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

. . . .

بالاستهزاء بالله سبحانه وتعالى.

مناسبة الباب للتوحيد:

من وجهين:

١ - من جهة الربوبية، فإن من أتى بها يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى، لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له، بل إنه لا يسأل عما يفعل كما قال تعالى: **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾**[١].

وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى وهو أن الله يتعاظم الأشياء التي يعطيها فكان فيه قدح في جوده وكرمه.

٢ - من ناحية العبد، فإنه يشعر باستغنائه عن ربه وهذا نقص في توحيد الإنسان سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهذا ذكره المصنف في الباب الذي يتعلق بالأسماء والصفات.

فإن قلت: ما الجواب عما ورد في دعاء الاستخارة: «**اللهم إني أسألك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقـدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كان هذا الأمر خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه**»[٢] وكذا ما ورد في الحديث المشهور: «**اللهم أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت أن الوفاة خيراً لي**»[٣] فالجواب:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد/باب قول الله، تعالى: **﴿قل هو القادر﴾** ٤/٣٨٢ من حديث جابر ابن عبدالله، رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى/باب تمني المريض الموت ٤/٣٠ من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه.

. . . .

أنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر والله يعلم فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدره لي فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا أعلم هل هو خير لي أو لا؟ وكذا بالنسة للحديث الآخر؛ لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك؛ لأن طول البقاء لا يعلم فقد يكون خيراً وقد يكون شراً، ولكن يقال الله أطال بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيرا بكل حال، وعلى هذا فلا يكون في هذا الحديث معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث: **«اللهم أحيني ما علمت الحياة خيراً لي»** لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقاً بالمشيئة والنهي إنما هو عما كان معلقاً بالمشيئة.

لكن لو قال: اللهم اغفر لي إن أردت وليس إن شئت؟ فالحكم واحد، لأن الإرادة هنا كونية فهي بمعنى المشيئة، فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثرا بالحكم[1].

---

(١) وقال الشيخ السعدي في القول السديد ص (١٣٦):

«الأمـور كلهـا وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدِّين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك قد أمر العبد أن يسألهـا من ربه طالباً ملحاً جازماً، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة، لأنه مأمور به وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد، فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له أصلح الأمرين كالدعاء المأثور: «اللهم أحيني. . .» وكدعاء الاستخارة.

فافهم هذا الفرق البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علما».

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء. **الثانية**: بيان العلة في ذلك. **الثالثة**: قوله: (ليعزم المسألة)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء:

والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله - ﷺ - لضباعة بنت الزبير: «**حجي واشترطي فإن لكِ على ربكِ ما استثنيت**»[1]، ووجهه أنك إذا قلت: أكْرِم زيدا إلا ألا يكرمك.

الثاني: بيان العلة في ذلك: وقد سبق أنها ثلاث علل:

١ - أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك.

٢ - أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

٣ - أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله وهذا غير لائق وليس من الأدب.

الثالثة: قوله: «**ليعزم المسألة**»: فإذا سألت فاعزم ولا تتردد وفي الحديث: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[2] صححه بعض أهل العلم، وضعفه آخرون.

---

(١) حديث ضباعة بنت الزبير عن النبي - ﷺ - قال: «**حجي واشترطي أن محلي حيث حبستني**».

أخرجه البخاري في النكاح/باب الأكفاء في الدين ٣/٣٦٠، ومسلم في الحج/باب جواز اشتراط المحرم ٢/٨٦٨. وقوله ﷺ: «**فإن لك على ربك ما استثنيت**»، أخرجه النسائي في المناسك/باب كيف يقول إذااشترط ١٦٨/٥، والدارمي ٢/٣٤ - ٣٥، وأبو نعيم ٩/٢٢٤، وهو صحيح كما في الإرواء ٤/١٨٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات/باب ادع تجب ٩/١٥٦ وقال: «حديث غريب»، وابن حبان =

وهل يجزم بالإجابة؟ . سبق الكلام على هذا .

الرابعة : إعظام الرغبة : لقوله ﷺ : «**وليُعظم الرغبة**» أي ليسأل ما بدا له فلا شيءَ عزيزٌ أو ممتنع على الله .

الخامسة : التعليل لهذا الأمر: بقوله : «**لا يتعاظمه شيء ، أو لا مكره له**» وبقوله : «**وليعظم الرغبة**» وفي هذا حسن تعليم الرسول ـ ﷺ ـ إذا ذكر شيئا قرنه بعلته .

وفيه فوائد :

الأولى : سمو هذا الشريعة ، وأنه ما من شيء تحكم به إلا وله علة وحكمة .

الثانية : زيادة طمأنينة الإنسان ؛ لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن ولهذا لما سئل ـ ﷺ ـ عن بيع الرطب بالتمر ـ لم يقل حلالاً أو حراماً ـ بل قال : أينقص إذا جف؟ قالوا : نعم فنهى عنه[1] .

= في المجروحين ١/٣٧٢ ، والحاكم ١/٤٩٣ ، والخطيب في التأريخ ٤/٣٥٦ .

وقال الحاكم : «حديث مستقيم تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة» ، وقال المنذري في الترغيب ٢/٤٩٣ : «صالح المري لا شك في زهده ولكن تركه أبو داود والنسائي» ، وقال العراقي في تخريج الإحياء ١/٣٠٦ : «قلت : لكنه ضعيف الحديث» .

وقال ابن حبان كما في التهذيب ٤/٣٨٣ : «كان من عباد البصرة وقرائهم . . . . غلب عليه الخير والصلاح حتى غفل عن الإتقان في الحفظ ، وكان يروي الشيء الذي سمعه من ثابت والحسن ونحو هؤلاء على التوهم فيجعله عن أنس فظهر في روايته الموضوعات التي يرويها عن الأثبات ، فاستحق الترك عند الاحتجاج» .

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/١٧٥ ، ١٧٦ ، وأبو داود في البيوع/باب في التمر بالتمر ٣/٦٥٤ ـ ٦٥٧ ، والترمذي في البيوع/باب في النهي عن المحافلة ٤/٢٢١ ، وقال : «حسن صحيح» ، والنسائي في البيوع/باب اشتراء التمر بالرطب ٧/٢٦٩ ، وابن ماجة في التجارات/باب بيع =

. . . .

«والرجل الذي قال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود ـ لم يقل الولد لك ـ بل قال هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ ـ الأورق: الأشهب الذي بين البياض والسواد ـ قال: نعم، قال من أين؟ قال: لعله نزعة عرق، قال: لعل ابنك نزعه عرق»[1]، فاطمأن وعرف الحكم وأن هذا هو الواقع، فقرْنُ الحكم بالعلة يوجب الطمأنينة، ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

الثـالثة: القياس إذا كانت المسألة في حكم من الأحكام، فيلحق ما شاركه في العلة.

= الرطب التمر ٢/٧٦١، ومالك في الموطأ في البيوع/باب ما يكره من بيع التمر ٢/٦٢٤، والشافعي في الرسالة (٩٠٧)، وكذا أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٨ وصححه، من حديث سعد بن أبي وقاص.

(١) أخرجه البخاري في الطلاق/باب إذا عرض بنفي الولد ٣/٤١٣، ومسلم في اللعان ٢/١١٣٧ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

باب لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطعمْ ربك، وضىءْ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»[1].

قوله: «لا يقل»: أي الإنسان «عبدي» أي، للغلام و«أمتي» أي للجارية، والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفه إلى غيره فهذا جائز. قال تعالى: ﴿**وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم**﴾[2] وقال النبي ﷺ: «**ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة**»[3].

الثاني: أن يضيفه إلى نفسه وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر مثل: أطعمت عبدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة فلا بأس فيه، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا فلا؛ لأن القائل بذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل وإنما يقصد أنه مملوك.

---

(١) أخرجه البخاري في العتق/باب كراهة التطاول على الرقيق ٢/٢٢١، ومسلم في الأدب/باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة ٤/١٧٦٥.

(٢) سورة النور، الآية: (٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة / باب ليس على المسلم في عبده صدقة ١/٤٥٤ ومسلم في الزكاة / باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه ٢/٦٧٥ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

. . . .

قوله: «**لا يقل أحدكم**»: أي للعبد أو الأمة.

الثانية: أن يكون بصيغة الدعاء، مثل: يا عبدي، يا أمتي، فلا يجوز للنهي عنه.

قوله: «**أطعم ربك**»:

إضافة الرب تنقسم إلى أقسام:

الأول: أن تكون الإضافة إلى ضمير المخاطب، مثل: أطعم **ربك**، وضيء **ربك** فيكره هذا لمحذورين:

١ ـ من جهة الصيغة؛ لأنه يوهم معنى فاسد بالنسبة لكلمة رب؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو ـ سبحانه ـ يطعِم ولا يطعَم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير الرب الذي يطعم ولا يطعم.

٢ ـ من جهة المعنى أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد ربا كان العبد أو الأمة مربوبا[1].

الثاني: أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب، فهذا لا بأس به كقوله ـ ﷺ ـ في حديث أشراط الساعة: «**أن تلد الأمة ربَّها**»[2] وأما لفظ «ربتها»[3] فلا

---

(١) قال في تيسير العزيز الحميد ص (٦٥٣): «قال الخطابي وسبب المنع أن الإنسان مربوب معبد بإخلاص التوحيد لله تعالى وترك الإشراك به، فترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، وأما من لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله: رب الدار والثوب.
قال ابن مفلح في الفروع: وظاهر النهي التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهية، وجزم به غير واحد من العلماء».

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان/باب سؤال جبريل النبي ﷺ ١/٣٣.
ومسلم في الإيمان/باب بيان الإيمان ١/٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير/باب إن الله عنده علم الساعة ٣/٢٧٥، ومسلم في الإيمان/باب بيان الإيمان ١/٣٦.

. . . .

إشكال فيه لوجود تاء التأنيث فلا اشتراك مع الله في اللفظ؛ لأن الله يقال له رب ولا يقال له ربة، وفي حديث الضالة، وهو متفق عليه: «**حتى يجدها ربها**»[1] وقال بعض أهل العلم إن حديث الضالة في بهيمة لا تتعبد ولا تتذلل كالإنسان، والصحيح عدم الفارق؛ لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة قال تعالى: ﴿**ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب**﴾ وقال في الناس: ﴿**وكثير من الناس**﴾ ليس جميعهم: ﴿**وكثير حق عليه العذاب**﴾[2].

الثالث: أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربي فهل يجوز هذا؟.

قد يقول قائل: إن هذا جائز؛ لأن هذا من العبد لسيده وقد قال تعالى عن صاحب يوسف: ﴿**إنه ربي أحسن مثواي**﴾[3] أي سيدي؛ ولأن المحذور من قول: ﴿**ربي**﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتف لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

الرابع: أن يضاف إلى الاسم الظاهر فيقال: هذا رب الغلام فظاهر الحديث الجواز وهو كذلك ما لم يوجد محذور فيمنع كما لو ظن السامع أن السيد رب حقيقي خالق.

قوله: «**وليقل سيدي ومولاي**»:

المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك، لأن مقتضى الحال أن يرشد إلى ما يناسب اللفظ المنهي عنه وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة/باب شرب الناس والدواب من الأنهار ٢/١٦٧، ومسلم في اللقطة ٣/١٣٤٦ من حديث زيد بن خالد الجهني، رضي الله عنه.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٨. (٣) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

. . . .

التكلم وليقل: «**سيدي ومولاي**» ففهم المؤلف رحمه الله ـ كما سيأتي في المسائل ـ أن فيه إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نهي أن يقول: للعبد أطعم ربك فالعبد من باب أولى أن ينهى عن قول هذا ربي أو لربي، ولا يقل أطعمت ربي، بل يقل سيدي ومولاي.

وأما إذا قلنا: بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: سأطعم ربي فإنه ينتفي الإذلال فإنه يقال: إن الرسول ـ ﷺ ـ لما وجه الخطاب لم يتكلم في شأن العبد، بل وجّه الخطاب إلى العبد نفسه فقال: «**وليقل سيدي ومولاي**».

وقوله: «**سيدي**»:

السيادة في الأصل الشرف؛ لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

والسيد يطلق على معان منها المالك، والزوج، والشريف المطاع.

وسيدي هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليس السيد على وجه الإطلاق.

فالسيد على وجـه الإطـلاق لا تكون إلا لله، عز وجل. قال ﷺ: «**السيد الله**» (١).

وأما السيد مضافةً فإنها تكون لغير الله. قال تعالى: ﴿**وألفيا سيدها لدى**

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٤، ٣٥، والبخاري في الأدب المفرد (٢١١)، وأبو داود في الأدب/باب في كراهة التمادح ٥/١٥٤، والنسائي في عمل اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ٤/٣٦٠، وابن السني (٣٨٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٢٢) من حديث عبد الله بن الشخّير، رضي الله عنه.

وقال ابن مفلح في الآداب ٣/٤٦٤: «إسناده جيد»، وقال الحافظ في الفتح ٥/١٧٩: «رجاله ثقات وقد صححه غير واحد» وصححه صاحب عون المعبود ٤/٤٠٢.

. . . .

الباب﴾[1] وقال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»[2]. والفقهاء يقولون: إذا قال: السيد لعبده.

تنبيـــه:

اشتهر عند الناس إطلاق السيدة على المرأة فيقولون مثلا: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق؛ لأن السادة هم الرجال قال تعالى: ﴿**وألفيا سيدها لدى الباب**﴾ وقال: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾[3] وقال ﷺ: «**إن النساء عوان عندكم**»[4] أي بمنزلة الأسير، وقال في الرجل: «**راع في أهله ومسؤول عن رعيته**»[5].

قوله: «**ومولاي**»: أي ليقل مولاي.

والمولى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة وهذه لله عز وجل، كالسيادة المطلقة وهي نوعان:

النوع الأول: عامة، وهي الشاملة لكل أحد. قال الله، تعالى: ﴿**ثم**

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

(٢) سبق ١/٣٣٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٥/٧٢، والترمذي في الرضاع/باب في حق المرأة على زوجها ٤/١٤٣، ١٤٤ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة في النكاح/باب حق المرأة على زوجها ١/٥٩٤، والنسائي في الكبرى في كتاب عشرة النساء، من حديث عمرو بن الأحوص الجشمي، رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة/باب الجمعة في القرى ١/٢٨٥، ومسلم في الإمارة/باب فضيلة الإمام العادل ٣/٤٥٩ من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما.

. . . .

ردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[1] فجعل له ولاية على هؤلاء المفترين وهذه ولاية عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين قال تعالى: **﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾**[2]، وهذه ولاية خاصة، ومقتضى السياق أن يقول: وليس مولى الكافرين لكن قال: **«لا مولى لهم»** أي لا هو مولى للكافرين، ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله مَوالٍ لهم.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة فهذه تكون لغير الله، ولها في اللغة معان كثيرة منها: الناصر، والمتولي للأمور، والمعتق، والسيد.

قال تعالى: **﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾**[3] وقال ﷺ: **«من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»**[4] وقال ﷺ: **«إنما**

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ١١.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد ١/٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، وابن حبان ص٥٤٤، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وأخرجه أحمد ٥/٣٦٨، ٣٧٠، وابن ماجه في المقدمة/فضل علي بن أبي طالب ١/٤٣ عن البراء ابن عازب، وفيه علي بن زيد وهو ضعيف كما في الزوائد.

أخرجه أحمد ٤/٦٣٨، والترمذي في المناقب/مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٩/٣٠٠ وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي في الخصائص ص٢١، والحاكم ٣/١١٠، والدولابي في الكنى ٢/٦١ عن زيد بن أرقم.

وأخرجه أحمد في المسند ٥/٣٤٧، والنسائي في الخصائص ص٢١ عن بريدة وانظر أيضاً مجمع الزوائد ٩/١٠٣.

وإسناده صحيح، انظر فيض القدير ٦/٢١٨.

الولاء لمن أعتق»[1].

وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب مَلِكا بقوله: مولاي، لأن المراد بمولاي: أي متولي أمري، ولا شك أن رئيس الدولة يتولى أمورهم كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[2].

قوله: «**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**»:

هذا خطاب للسيد أن لا يقول عبدي وأمتي، لأننا جميعا عباد الله، ونساؤنا إماء لله قال النبي ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[3].

فالسيد منهي أن يقول ذلك؛ لأنه إذا قال عبدي وأمتي فقد تشبه بالله ـ عز وجل ـ ولو من حيث ظاهر اللفظ لأن الله ـ عز وجل ـ يخاطب عباده بقوله: عبدي، كما في الحديث: «**عبدي استطعمتك فلم تطعمني. . .**»[4] وما أشبه ذلك.

وإن كان السيد يريد بقوله: «عبدي» أي مملوكي ولكن هذا من باب التنزه باللفظ الذي يوهم الإشراك وقد سبق بيان حكم ذلك[5].

---

(١) أخرجه البخاري في المكاتب/باب استعانة المكاتب ٢/٢٢٥، ومسلم في العتق/باب إنما الولاء لمن أعتق ٢/١١٤١ من حديث عائشة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة/باب حدثنا عبد الله بن محمد ١/٢٨٦ ومسلم في الصلاة/باب خروج النساء ١/٣٢٧ عن ابن عمر، رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب فضل عيادة المريض ٤/١٩٩٠ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٥) انظر ص (٩٧).

. . . .

وقوله: «**وأمتي**»:

الأمة الأنثى من المملوكات وتسمى جارية.

والعلة من النهي: أن فيه إشعارا بالعبودية فهي تقابل عبدي، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى في اللفظ، ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبد الرحمن السعدي - يرحمه الله - إلى أن النهي في الحديث ليس على سبيل التحريم وأنه على سبيل الأدب والأفضل والأكمل[1] وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلا.

قوله: «**وليقل فتاي وفتاتي**»: ، مثله جاريتي وغلامي فلا بأس به.

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١ - حسن تعليم الرسول ﷺ حيث إنه إذا نهى عن شيء فتح للناس ما يباح لهم فقال: «**لا يقل عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي**» وهذه كما هي طريقة النبي ﷺ فهي طريقة القرآن أيضا. قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا**﴾[2]، وهكذا ينبغي أيضا لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا على الناس بابا محرما أن يفتحوا لهم الباب المباح حتى لا يضيقوا على الناس ويسدوا الطرق أمامهم؛ لأن في ذلك فائدتين عظيمتين:

الأولى: تسهيل ترك المحرم على هؤلاء؛ لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلاً هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامي فيه سعة وأن كل ما يحتاج إليه الناس

---

(١) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٣٧): «وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمتي إلى فتاي وفتاتي تحفظاً عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو على وجه بعيد وليس حراما. . فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

. . . .

فإن الدين الإسلامي يسعه فلا يحكم على الناس أن لا يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئا إلا وفتح لهم ما يغني عنه وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

٢ - أن الأمر يأتي للإباحة لقوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**» وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتى في مقابلة شيء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر في مقابلة شيء ممنوع ومثله قوله تعالى: ﴿**وإذا حللتم فاصطادوا**﴾[١].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبـدي وأمتي. **الثـانيـة**: لا يقـول العبـد: ربي ولا يقال له: أطعم ربك. **الثالثة**: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي. **الرابعة**: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي. **الخامسة**: التنبيـه للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول عبدي وأمتي:

تؤخذ من قوله: «**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**» وقد سبق بيان ذلك.

الثـانيـة: لا يقـول العبـد ربي ولا يقـال له: أطعم ربك: تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك.

الثالثة: تعليم الأول وهو السيد قول فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني وهو العبد قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ، وقد سبق ذلك.

باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل بالله فأعطوه ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه»** رواه أبوداود والنسائي بسند صحيح(١).

قوله: **«باب لا يرد»**:

«لا» نافية بدليل رفع المضارع بعدها والنفي يحتمل أن يكون للكراهة وأن يكون للتحريم(٢).

والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما السؤال بالله بالصيغة مثل أن يقول: أسألك بالله ومثل ما تقدم في حديث الثلاثة حيث قال المَلَك: أسألك بالذي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيرا(٣).

---

(١) سبق ١/١١٧.

(٢) قال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد ص (٣٤٧): «لأن منع من سأل بالله، أو بوجه الله من عدم إعظام الله وإجلاله، وقد جاء الوعيد على ذلك».

لحديث أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله، ﷺ، قال: **«ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله مالم يسأل هجرا»**.

أخرجه الطبراني كما في المجمع ٣/١٠٣، وحسنه العراقي كما في الفيض ٦/٤، والمناوي في التيسير ٢/٤٧٨.

(٣) سبق ص (٥١).

. . . .

الثاني: السؤال بشرع الله، عز وجل، أي يسأل سؤالا يبيحه الشرع كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسؤول.

وهنا عدة مسائل:

المسألة الأولى: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟.

وهذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف يرحمه الله فنقول: أولاً السؤال من حيث هو مكروه ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحدًا شيئا إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبي - ﷺ - أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا حتى إنَّ عصا أحدهم لَيسقط منه وهو على راحلته فلا يقول لأحد ناولنيه، بل ينزل ويأخذه(١).

والمعنى يقتضيه؛ لأنك إذا أعزرت نفسك ولم تذلها لسؤال الناس بقيت محترما عند الناس وصار لك منعة من أن تذل وجهك لأحد؛ لأن من أذل وجهه لأحد فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه إذا سأله اضطر إلى أن يجيبه ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»(٢) فالسؤال أصلا مكروه إلا لحاجة.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة/باب كراهة المسألة للناس ٢/٧٢١ عن عوف بن مالك، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجة في الزهد/باب الزهد في الدنيا ٢/١٣٧٤، وقال في الزوائد: «في إسناده خالد بن عمرو وهو ضعيف متفق على ضعفه، واتهم بالوضع، وأورد له العقيلي هذا الحديث وقال ليس له أصل من حديث الثوري».

وأخرجه الحاكم ٤/٣١٣ وقال: صحيح الإسناد، ونازعه الذهبي فقال: خالد وضاع.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/٢٥٣، ٧/١٣٦، والعقيلي في الضعفاء ٢/١١ من حديث =

. . . .

أما سؤال المال فهو محرم، ولا يجوز أن يسأل من أحد مالاً إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وقال الفقهاء - يرحمهم الله - في باب الزكاة: «إن من أبيح له أخذ شيء أبيح له سؤاله». ولكن فيما قالوه نظر، فإن الرسول - ﷺ - حذر من السؤال وقال: «**إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم**»[1] وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة فلا بأس.

وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن فهذه مكروهة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

أما رد السائل فهو موضوع بابنا هذا.

وأما إجابة من سأل بالله، فإن السائل لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يسأل سؤالا مجردا كأن يقول مثلا: يا فلان أعطني كذا وكذا، فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه كالفقير يسأل شيئاً من الزكاة.

الثاني: أن يسأل بالله فهذا تجيبه، وإن لم يكن مستحقا؛ لأنه سأل بعظيم فإجابته من تعظيم هذا العظيم، لكن لو سأل اثما أو كان في إجابته ضرر على المسؤول، فإنه لا يجاب.

مثال الأول: أن يسألك بالله نقودا ليشتري بها محرما كالخمر.

= سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه.

والحديث حسنه النووي في الرياض (٤٧٣)، وفي الأربعين النووية حديث رقم (٣١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٤)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١٥٧/٤: «وقد حسن بعض مشايخنا إسناده وفيه بعد لأن من رواته خالد بن عمرو، وخالد هذا قد ترك واتهم»، وضعفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص(٢٧٢).

(١) أخرجه البخاري في الزكاة/باب من سأل الناس تكثرا ٤٥٧/١، ومسلم في الزكاة/باب كراهة المسألة ٧٢٠/١ عن ابن عمر، رضي الله عنهما.

. . . .

ومثال الثاني: أن يسألك بالله أن تخبره عما في سرك وما تفعله مع أهلك فهذا لا يجاب، لأن إجابته في الأول إعانة على الإثم، وإجابته في الثاني ضرر على المسؤول.

قوله: «**من سأل بالله**»: «مَنْ» شرطية للعموم.

قول: «**فأعطوه**»: الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثما أو ضررا على المسؤول؛ لأن في إعطائه إجابةً لحاجته وتعظيما لله عز وجل الذي سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال الـمَلَك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى: أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا[1].

قوله: «**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**»:

أي قال: أعوذ بالله منك فإنه يجب عليك أن تعيذه؛ لأنه استعاذ بعظيم ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك قال لها: «**لقد عذت بعظيم ـ أو مُعاذ ـ ألحقي بأهلك**»[2].

لكن يستثنى من ذلـك لو استعـاذ من أمر واجب، كأنه ألزمت أحدا بصلاة الجماعة فقال: أعوذ بالله منك، فأنت لا تعيذه.

وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم فاستعاذ بالله منك فأنت لا تعيذه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصيا بل العاصي تحل عقوبته لا الانتصار له وإعاذته.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه ـ وإن لم يقل

---

(١) سبق ص (٥١).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق/باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٣/٤٠١ عن أبي أسيد، رضي الله عنه.

. . . .

أستعيذ بالله ـ فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يضيق عليه فلا يبايع ولا يشترى منه ولا يؤجر حتى يخرج.

بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم، فإن الحرم لا يعيذه.

قوله: **«ومن دعاكم فأجيبوه»**:

«مَنْ» شرطية للعموم؛ والظاهر: أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث: وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة وهو مذهب الظاهرية.

وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس فإنها واجبة لقوله ـ ﷺ ـ فيها: **«شر الطعام طعام الوليمة يُدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب فقد عصى الله ورسوله»**[1].

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب فإنه يشترط لذلك شروط:

١ ـ أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن.

٢ ـ ألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة، فإن كان هناك منكر فإن أمكنه إزالته وجب عليه الحضور لسببين:

ـ إجابة الدعوة.

ـ وتغيير المنكر.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح/باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ٣/٣٨١، ومسلم في النكاح/باب الأمر بإجابة الداعي ٢/١٠٥٥ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

. . . .

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور، لأن حضوره يستلزم اثمه وما استلزم الاثم فهو اثم.

٣ ـ أن يكون الداعي مسلما، وإلا لم تجب الإجابة، لقوله ﷺ: «**حق المسلم على المسلم ست. . .**» وذكر منها «**إذا دعاك فأجبه**»[١] قالوا وهذا مقيِّد للعموم الوارد.

٤ ـ أن لا يكون كسبه حراما؛ لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعاما حراما وهذا لا يجوز، وبه قال بعض أهل العلم.

وقال آخرون: ما كان محرما لكسبه فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرما لعينه كالخمر والمغصوب ونحوهما وهذا القول وجيه قوي بدليل أن الرسول ـ ﷺ ـ اشترى من يهودي طعاما لأهله[٢]، وأكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر[٣]، وأجاب دعوة اليهودي[٤] ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقوي هذا القول قوله ـ ﷺ ـ في اللحم الذي تصدق به على بريرة: «**هو لها صدقة ولنا منها هدية**»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في السلام / باب من حق المسلم للمسلم ١٤٠٧/٤ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع/باب شراء النبي ـ ﷺ ـ بالنسيئة ٧٩/٢، ومسلم في المساقاة/باب الرهن ١٢٢٦/٣ عن عائشة، رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة/باب قبول الهدية من المشركين ٢٤١/٢، ومسلم في السلام/باب السم ١٧٢١/٤ عن أنس، رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢١٠/٣، ٢١١، ٢٥٢، ٢٧٠، ٢٨٩، وفي الزهد (٥)، وانظر الإرواء ٧١/١.

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة/باب إذا تحولت الصدقة ٤٦٣/١، ومسلم في العتق/باب إنما الولاء لمن أعتق ١١٤٤/٢.

. . . .

وعلى القول الأول فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام وقلته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل.

٥ ـ أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦ ـ أن لا تتضمن ضررا على المجيب، مثـل: أن يحتاج إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسـألة:

هل إجابة الدعوة حق لله أو للآدمي؟.

الجواب: حق لله وللآدمي جميعا، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقيلك فقبل فلا إثم عليك فهي واجبة بأمر الله، عز وجل، لكن لصاحبها أن يسقطها كما أن له أن لا يدعوك أيضا، ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلا من غير اقتناع فإنه لا ينبغي أن تطلب الإقالة منه بل تجيب.

مسـألة:

هل بطاقات الدعوة التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟.

الجواب: الباطاقات ترسل إلى الناس ولا يدرى لمن ذهبت إليه فيمكن أن نقول إنها تشبه دعوة الجَفَلَى فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله: **«من صنع إليكم معروفا فكافئوه»**:

المعـروف: الإحسـان فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائدا عن الواجب عليه تكافئه وهكذا، لكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته فلا يمكن أن تكافئه كالملك

. . . .

والرئيس . . مثلا إذا أعطاك هدية فمثل هذا يدعى له؛ لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضا من حقه فتكون مسيئا له، والنبي - ﷺ - أراد أن تكافئه لإحسانه وللمكافئة فائدتان:

١ - تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

٢ - أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه؛ لأن من صنع إليك معروفا فلابد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: **«اليد العليا خير من اليد السفلى»**[1] واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروف لئلا يرى لأحد عليه منة إلا لله، عز وجل، لكن بعض الناس يكون كريما جدا فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة ولكن يُدعى له، لقوله، ﷺ: **«فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له»** وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني فإنه يدعو له.

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة؛ لأنه من باب المسارعة إلى أمر الرسول، ﷺ.

قوله: **«حتى تُروا أنكم قد كافأتموه»**:

تروا بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتروا بالضم بمعنى تظنوا، أي حتى تظنوا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسِكوا.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة/باب لا صدقة إلا عن ظهر غني ١/٤٤١، ومسلم في الزكاة/باب بيان أفضل الصدقة ٢/٧١٧ عن حكيم بن حزام، رضي الله عنه.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله. **الثانية**: إعطاء من سأل بالله. **الثالثة**: إجابة الدعوة. **الرابعة**: المكافأة على الصنيعة. **الخامسة**: أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه. **السادسة**: قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله:

وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته إلا أن يستعيذ بشيء واجب فعلا أو تركا فإنه لا يعاذ.

الثانية: إعطاء من سأل بالله: وسبق التفصيل فيه.

الثالثة: إجابة الدعوة:

وسبق كذلك التفصيل فيها.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة:

أي على صنيعة من صنع إليك معروفا وسبق التفصيل في ذلك.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة: وسبق أنه مكافأة في ذلك وفيها إذا كان الصانع لا يكافأ مثله عادة.

«**السادسة**: قوله: «**حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»: أي أنه لا يقصر في الدعاء، بل يدعو له حتى يعلم أو يغلب على ظنه أنه قد كافأه.

بـــاب
لا يسأل بوجه الله إلا الجنـة

عن جابـر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**» رواه أبوداود(١).

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن فيه تعظيمَ وجه الله، عز وجل، بحيث لا يُسأل به إلا الجنة(٢).

قوله: «**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**».

اختلف في المراد بذلك على قولين:

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة/باب كراهية المسألة بوجه الله ٢/٣٠٩، وابن منده في الرد على الجهمية ص(٩٨)، والبيهقي في سننه ٤/١٩٩، وفي الأسماء والصفات ص(٣٠٦)، والخطيب في الموضح ١/٣٥٢، ٣٥٣ عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه.
وقال المنذري في مختصر السنن ٢/٢٥٣: «وسليمان بن قرم تكلم فيه غير واحد»، والحديث ضعفه عبد الحق وابن القطان كما في الفيض ٦/٤٥١، والمناوي في التيسير ٢/٥٠٥.
لكن يشهد لعموم النهي حديث أبي موسى - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «**ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه ثم منع سائله ما لم يسأل هجرا**».
أخرجه الطبراني كما في المجمع ٣/١٠٣، وحسنه العراقي كما في الفيض ٦/٤، والمناوي في التيسير ٢/٤٧٨.

(٢) قال ابن قاسم في حاشية على كتاب التوحيد ص (٣٥٠): «أي لا يجوز ذلك إجلالاً لله وإكراماً وإعظاماً له أن يسأل بوجهه العظيم ماهو حقير لديه من حوائج الدنيا مالم يرد به غاية المطالب وهي الجنة، أو الإعانة على أعمال الآخرة الموصلة إلى الجنة، وأما سؤال المخلوق بوجه الله فتقدم النهي عنه في الباب قبله».

. . . .

القول الأول: أن المراد لا تسألوا أحدًا من المخلوقين بوجه الله؛ فإذا أردت أن تسأل أحدا من المخلوقين فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا بالجنة. والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة، فإذاً لا يسألون بوجه الله مطلقا، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأي في شرح الحديث ولذلك أعقبه بقوله: «**باب لا يرد من سأل بالله**».

القول الثاني: أنك إذا سألت الله فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت شيئا من أمور الدنيا فلا تسأله بوجه الله لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا.

فأمور الآخرة تسأل بوجه الله كقولك مثلا أسألك بوجهك أن تنجيني من النار والنبي - ﷺ - استعاذ بوجه الله لما نزل قوله، تعالى: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم**﴾ قال: أعوذ بوجهك: أو من تحت أرجلكم» قال: أعوذ بوجهك: ﴿**أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾[1] قال: هذه أهون أو أيسر»[2].

ولو قيل: إنه يحتمل المعنيين جميعاً لكان له وجه.

وقوله: «**بوجه الله**»:

فيه إثبات الوجه لله، عز وجل، وهو ثابت في القرآن والسنة وإجماع السلف فالقرآن في قوله تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[3]، وقوله،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد/باب قول الله تعالى: «**كل شيء هالك إلا وجهه**» ٣٨٥/٤ عن جابر، رضي الله عنه.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.

. . . .

تعالى: ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم**﴾[1]، والآيات كثيرة.

والسنة كما في الحديث السابق: «**أعوذ بوجهك**»[2].

واختلف في هذا الوجه الذي أضافه الله إلى نفسه هل هو وجه حقيقي أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات؟ أو أنه يعبر به عن الشيء ويراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقي؟ أو أنه يعبر به عن الجهة أو أنه يعبر به عن الثواب؟

فيه خلاف، لكن هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق فقالوا: إنه وجه حقيقي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾[3]، ولما أراد غير ذاته قال: ﴿**تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام**﴾[4] فـ[ذي] صفة لرب وليست صفة لاسم و[ذو] صفة لوجه وليست صفة لرب، فإذا كان الوجه موصوفا بالجلال والإكرام فلا يمكن أن يراد به الثواب، أو الجهة، أو الذات؛ لأن الوجه غير الذات.

وقال أهل التعطيل: إن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب قالوا: ولو أثبتنا لله وجها حقيقيا للزم أن يكون جسما والأجسام متماثلة ويلزم من ذلك إثبات المثل لله، عز وجل، والله، تعالى، يقول: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[5] فهذا تكذيب للقرآن وأنتم يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقد أن لله مثيلا فيما يختص به فهو كافر، فنقول لهم:

أولا: ما تعنون بالجسم الذي فررتم منه؟ أتعنون به المركب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث يفتقر كل جزء منه إلى الآخر؟ إن أردتم ذلك فنحن

(1) سورة الرعد، الآية: ٢٢.
(2) سبق ص (١١٧).
(3) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.
(4) سورة الرحمن، الآية: ٧٨.
(5) سورة الشورى، الآية: ١١.

. . . .

نوافقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمكن أن يكون.

وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقية الثابتة المتصفة بصفات الكمال فلا محذور في ذلك، والله تعالى وصف نفسه بأنه أحد صمد قال تعالى: **﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾**(1) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصمد: الذي لا جوف له(2).

ثانيا: قولكم إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا، فهل جسم الدب مثل جسم الذرة فبينهما تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك.

فإذا بطلت هذه الحجة بطلت النتيجة وهي استلزام مماثلة الله لخلقه.

ونحن نشاهد حتى البشر لا يتفقون في الوجوه، ولذلك يزعمون أنه ما من إنسان في الدنيا إلا وله أربعون شبيها، والظاهر عدم صحة ذلك فإنك لا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلى آخر.

ويلاحظ أن التعبير بنفي المماثلة أولى من التعبير بنفي المشابهة؛ لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن، ولأنه ما من شيئين موجودين إلا ويشتبهان من وجه ويفترقان من وجه آخر فنفي مطلق المشابهة لا يصح، وقد تقدم.

وأما حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: **«إن الله خلق آدم على صورته»**(3) ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين فيجاب عنه:

أولا: أنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب ـ عز وجل ـ بإجماع المسلمين

---

(1) سورة الإخلاص، الآيتان: ١ ـ ٢.

(2) أخرجه ابن جرير ٣٠/٧٤٢.

(3) أخرجه البخاري في الاستئذان/باب بدء السلام ٤/١٣٥، ومسلم في البر/باب النهي عن ضرب الوجه ٤/٢٠١٧.

. . . .

والعقلاء؛ لأن الله ـ عز وجل ـ وسع كرسيه السموات والأرض، والسموات والأرضون كلها بالنسبة للكرسي ـ موضع القدمين ـ كحَلْقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفا ولا تخييلا ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعا وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه وعلى هذا لا ينبغي أن يقبح أو يضرب؛ لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثاني: أن الله خلق آدم على صورة الله عز وجل ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: «**إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضوء كوكب في السماء**»[1] ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر؛ لأن القمر أكبر من أهل الجنة وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: على صورته أي صورة آدم، أي أن الله خلق آدم أول أمره على هذه الصورة، وليس كبنيه يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة.

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنـه يفقد الحديث معناه، وأيضا يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ: «**على صورة الرحمن**».

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق/باب ما جاء في صفة الجنة ٢/٤٣٢، ومسلم في الجنة ونعيمها/باب أول زمرة تدخل الجنة ٤/٢١٧٩ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

فيه مسألتان:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب: تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

الثانية: إثبات صفة الوجه: وقد سبق الكلام عليه.

باب ما جاء في اللو

وقول الله تعالى: **﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾**[1] وقوله: **﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾**[2].

قوله: **«في اللو»**:

دخلت «أل» على «لو» وهي لا تدخل إلا على الأسماء قال ابن مالك:

بالجـر والتنـوين والنـدا وأل   ومسنـد للاسم تمييز حصـل[3]

لأن المقصود بهذا اللفظُ أي: باب ما جاء في هذا اللفظ.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء لأن «لو» تستعمل على عدة أوجه[4]:

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع.

وهذا محرم قال تعالى: **﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾**. في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبيّ في نحو ثلث الجيش فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلا اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا فرأينَا خير من شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

(٣) ألفية ابن مالك ص (٣).

(٤) انظر: إعلام الموقعين ٣/١٦٩.

. . . .

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر.

وهذا محرم أيضا قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾**[1] أي لو أنهم بقوا ما قتلوا فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر.

وهذا محرم أيضا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزنا وانقباضا والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط قال، ﷺ: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»**[2].

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئا يظن أن فيه ربحا فخسر، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيرا وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في التمني.

وحكمه حسب المتمنيٍّ إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر، وفي الصحيح عن النبي - ﷺ - في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: **«لو أن عندي مال فلان لعملت فيه عمل فلان» فهذا تمنى خيرا وقال الثاني: «لو أن عندي مال فلان الذي ينفقه في غير مرضاة الله» فهذا تمنى شرا فقال النبي - ﷺ - في الأول: «فهو بنيته، فهما بالأجر سواء» وقال في الثاني: «فهو بنيته فهما في الوزر سواء»**[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

(٢) يأتي ص (١٢٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ٢٣٠، ٢٣١، والترمذي في الزهد/باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة =

الخامسة: أن تستعمل في الخبر المحض.

وهذا جائز مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأحللت معكم»**[1] فأخبر النبي - ﷺ - أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحل، وهذا هو الظاهر لي.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي.

فالظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبي - ﷺ - لا يتمنى شيئا قدر الله خلافه.

قوله: «**يقولون**»: الضمير للمنافقين.

قوله: «**ما قُتِلنا**»: أي ما قتل بعضنا؛ لأنهم لم يقتلوا كلهم ولأن المقتول لا يقول.

قوله: «**لو كان لنا من الأمر**»:

«لو» شرطية وفعل الشرط «كان» وجوابه «ما قتلنا»، ولم يقترن الجواب باللام؛ لأن الأفصح إذا كان الجواب منفيا عدم الاقتران، فقولك: لو جاء زيد ما جاء عمرو أفصح من قولك: لو جاء زيد لما جاء عمرو. وقد ورد قليلاً كقول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لاخيار مع الليالي

= نفي ٧/٨١ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد/باب النية ٢/١٤١٣ عن أبي كبشة عمرو بن سعد الأنماري، رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الحج/باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف ١/٥٠٦، ومسلم في الحج/ باب بيان وجوه الإحرام ٢/٨٨٥ عن جابر، رضي الله عنه.

. . . .

قوله: «**ها هنا**»: أي في أحد.

قولـه: «**قـل لو كنتم في بيـوتكم لبرز الـذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**»: هذا رد عليهم فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله بهم.

وقولهم: «**لو كان لنا من الأمر شيء**»:

هذا من الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضا على القدر أيضا، أي لو كان لنا من حسن التدبير والرأي ما خرجنا فنقتل.

قوله: «**وقعدوا**»:

الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على: «**قالوا**» ويكون وصف هؤلاء بأمرين:

- بالاعتراض على القدر بقولهم: «**لو أطاعونا ما قتلوا**».
- وبالجبن عن تنفيذ الشرع «الجهاد» بقولهم: «**وقعدوا**»، أو تكون الواو للحال والجملة حالية على تقدير «قد» أي والحال أنهم قد قعدوا، ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: «**لإخوانهم**»:

قيل في النسب لا في الـدين. وقيل: في الـدين ظاهرا؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين لكان صحيحا.

قوله: «**لو أطاعونا ما قتلوا**»:

هذا غير صحيح ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿**قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾ وإن كنتم قاعدين فلا تستطيعون أيضاً أن تدرؤا عن أنفسكم الموت.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[1].

فهذه الآية والتي قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوما بشرع الله.

مناسبة الباب للتوحيد:

أن من جملة أقسام [لو] الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر فإنه لم يرض بالله ربا، ومن لم يرض بالله ربا، فإنه لم يحقق التوحيد توحيد الربوبية.

والواجب أن ترضى بالله ربا ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله ربا تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، ولهذا قال ﷺ: **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»**[2] ومهما كان فالأمر سيكون على ما كان، فلو خرجت مثلا في سَفَرٍ ثم أصبت في حادث، فلا تقل: لو أني ما خرجت في السفر ما أصبت، لأن هذا مقدر لابد منه.

قوله: **«وفي الصحيح»**: أي الصحيحين.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ حذف منه جملة، وأتى بما هو مناسب للباب،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد/باب المؤمن أمره كله خير ٤/٢٢٩٥ عن صهيب بن سنان، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في القدر/باب في الأمر بالقوة وترك العجز ٤/٢٠٢٥ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

. . . .

والمحذوف قوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**».

شـرح الحديـث :

قوله: «**القوي**»: أي في إيمانه وما يقتضيه إيمانه، ففي إيمانه يعني ما يحل في قلبـه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه يعني العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحزم في العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل في ذلك قوة البدن؟.

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن، إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو ما يقتضيه؛ لأن «القوي» وصف عائد على موصوف وهو المؤمن، فالمراد القوي في إيمانه أو ما يقتضيه ولا شك أن قوة البدن نعمة إن استعملت في الخير فخير، وإن استعملت في الشر فشر.

قوله: «**خير وأحب إلى الله**»:

خير: في تأثيره وآثاره فهو ينفع ويقتدى به، وأحب إلى الله باعتبار الثواب.

قوله: «**من المؤمن الضعيف**»: وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن.

قولـه: «**وفي كل خير**»: أي في كل من القوي والضعيف خير، وهذا النوع من التذييل يسمى عند البلاغيين بالاحتراس حتى لا يظن أنه لا خير في الضعيف.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله: «**خير وأحب**»، لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟.

. . . .

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل كما في قوله تعالى: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً**﴾[1] مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: «خير وأحب» صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: «وفي كل خير» رفع من شأنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح، وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى**﴾[2].

قوله: «احرص على ما ينفعك»:

الحرص: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السبر والتقسيم لا تخلو من أربع حالات:

١ - نافعة وهذه مأمور بها.

٢ - ضارة وهذه محذر عنها.

٣ - فيها نفع وضرر.

٤ - لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهي فتأخذ حكم الغاية؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره ويكون نفعاً، ولا يمكن أن تجد شيئا من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر إما ذاتي أو عارض إنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٠.

. . . .

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»(١).

واتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهر جدا؛ لأن من القوة الحرص على ما ينفع.

و[ما] اسم موصول بفعل [ينفع] والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم فاعل كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن نقدم الأنفع على النافع؛ لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة وهذه الزيادة لابد أن نحرص عليها؛ لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد ذلك الوصف، فإذا قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق إليك أكره؛ فنقدم الأنفع على النافع لوجهين:

١ - أنه مشتمل على النفع وزيادة.

٢ - أن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار؛ لأن هذا انتفاع وسلامة لقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

قوله: «**واستعن بالله**»:

الواو تقتضي الجمع، ولم يقل: استعن لتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب/باب حق الضيف ٤/١١٦، ومسلم في الإيمان/باب الحث على إكرام الجار ١/٦٨ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

. . . .

والاستعانة: طلب العون بلسان المقال كقولك: اللهم أعني، أو لا حول ولا قوة إلا بالله عند شروعك بالفعل.

أو بلسان الحال وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك - عز وجل - أن يعينك على هذا الفعل وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة.

أو طلب العون بهما جميعا، والغالب أن من استعان بلسان المقال فقد استعان بلسان الحال.

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلا فهذا جائز، ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض كما لوعجزت عن حمل شيء بيد واحدة فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى، وعلى هذا فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك، فلا تنافي قوله ﷺ: **«استعن بالله»**.

قوله: **«ولا تعجزَنْ»**:

فعل مضارع مبني على الفتح لا تصاله بنون التوكيد الخفيفة و«لا» ناهية والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى: لا يصيبك عجز؛ لأن العجز عن الشيء غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان؛ لأن ذلك لا طاقة له به فلا يتوجه عليه نهي، ولهذا قال النبي، ﷺ: **«صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب»**[1].

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل.

---

(1) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة/باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب ١/٣٤٨ عن عمران بن حصين، رضي الله عنه.

. . . .

لأن بعض الناس من يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ فما دمت عرفت أن هذا نافع فلا تدعه؛ لأنك إذا عجزت نفسك خسرت العمل الذي عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدني من حالة النشاط والقوة إلى حالة العجز والكسل وكم من إنسان بدأ العمل ـ ولا سيما النافع ـ ثم أتى الشيطان فثبطه.

لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وذُكر في ترجمة الكسائي أنه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعاما تريد أن تصعد به حائطا كلما صعدت قليلا سقطت وهكذا حتى صعدت فأخذ درسا من ذلك فكابد حتى صار إماما في النحو.

قوله: **«وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا»**:

هذه المرتبة الثالثة: فإذا حصل خلاف المقصود، فالمرتبة الأولى الحرص، والمرتبة الثانية: المضي في الأمر والاستمرار فيه وهاتان المرتبتان إليك. المرتبة الثالثة: إذا حصل خلاف المقصود فهذه ليست إليك، ولهذا قال: **«وإن أصابك. . .»**.

قوله: **«وإن أصابك شيء»** أي مما لا تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأولى: أن يقول: لو لم أفعل ما حصل كذا.

الثانية: أن يقول لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لو لم أسافر ما فاتني الربح.

ومثال الثاني: أن يقول لو سافرت لربحت.

. . . .

وذكر النبي - ﷺ - الثاني دون الأول؛ لأن هذا الإنسان عامل فاعل، فهو يقول لو أني فعلت الفعل الفلانى دون هذا الفعل لحصلت مطلوبي، بخلاف الإنسان الذي لم يفعل وكان موقفه سلبيا من الأعمال.

قوله: «**كذا**»: كناية عن مبهم، وهي مفعول لفعلت.

قوله: «**لكان كذا**»: فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله: «**قدر الله**»:

خبر لمبتدأ محذوف أي هذا قدر الله.

و [قدر] بمعنى مقدور؛ لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله أي مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى أن هذا الذي وقع قدر الله وليس إليّ، أما الذي إليّ فقد بذلت ما أراه نافعا كما أمرت، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله، عز وجل، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي فإنه لا يلام على شيء، ويفوض الأمر إلى الله.

قوله: «**وما شاء فعل**»:

جملة مصدرة بـ [ما] الشرطية و[شاء] فعل الشرط، وجوابه [فعل] أي: ما شاء الله أن يفعله فعله؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه قال تعالى: ﴿**لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب**﴾[1] وقد سبق ذكر قاعدة وهي أن كل فعل معلق بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، وليس هناك شيء معلق بالمشيئة المجردة؛ لأن الله لا يشرع ولا يفعل إلا لحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤١.

. . . .

يلزم منها وقوع المشاء ولهذا كان المسلمون يقولون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد ففيه تفصيل:

الإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد وهي التي بمعنى المحبة قال، تعالى: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾[1] بمعنى يحب ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله على جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد، كما قال الله، تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد**﴾[2].

قوله: «**فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان**»:

[لـو] اسم إن قصد حكايتها أي فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.

وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسـان من الحسرة والنـدم والحـزن فإن الشيطان يحب ذلك قال تعالى: ﴿**إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله**﴾[3] حتى في المنام يريه أحلاما مخيفة ليعكر عليه صفوه ويشوش فكره، وحينئذ لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي ولهذا نهى النبي - ﷺ - عن الصلاة حال تشوش الفكر فقال ﷺ: «**لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان**»[4] فإذا رضي الإنسان بالله ربًّا وقال هذا قضاء الله وقدره وأنه لابد أن يقع اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ١/٣٩٣.

. . . .

ويستفاد من الحديث:

١ ـ إثبات المحبة لله، عز وجل، لقوله: «**خير وأحب**».

٢ ـ اختلاف الناس في قوة الإيمان وضعفه، لقوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

٣ ـ زيادة الإيمان ونقصانه، لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذي عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص؛ لأن النقص لم يرد في القرآن قال تعالى: ﴿**ويزداد الذين آمنوا إيمانا**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم**﴾[2]. والراجح القول الأول؛ لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالا على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[3] يعني النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية، فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿**رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾[4].

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر زاد يقينه، ولهـذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني وهذا دليل على تفاوت

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان/باب نقصان الإيمان ١/٨٦ عن ابن عمر، رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

. . . .

القلوب بالتصديق، وأما الأعمال فظاهر فمن صلى أربع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين.

٤ ـ أن المؤمن وإن ضعف فهو خير أو فيه خير، لقوله: «**وفي كل خير**».

٥ ـ أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها، لقوله: «**احرص على ما ينفعك**» فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ـ ﷺ ـ فهو عبادة.

٦ ـ أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع، لقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

٧ ـ أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة، لقوله: «**ولا تعجزَنْ**».

٨ ـ أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر، لقوله: «**ولكن قل قدر الله وما شاء فعل**» وأما الذي يمكنك فليس لك أن تحتج بالقدر.

وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وقال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله علي[1]؟ فهذا احتجاج بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون القدر يكذبون هذا الحديث؛ لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبوه، وإلا حرفوه ولكن هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج بل احتج بالخروج نفسه.

معناه: أن فعلك صار سببا لخروجنا، وإلا فإن موسى ـ عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري في القدر/باب تحاج آدم وموسى ٤/٢١٢، ومسلم في القدر/باب حجاج آدم وموسى ٤/٢٠٤٢ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

. . . .

والسـلام ـ أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم ـ رحمه الله ـ إلى وجه آخر في تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقوا في المعصية ويستمروا عليها فالمشركون لما قالوا: ﴿**لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا**﴾[1] كذبهم الله، لأنهم لا يحتجون على شيء مضى ويقولون تبنا إلى الله ولكن، يحتجون على البقاء في الشرك.

٩ ـ أن للشيطان تأثـيرا على بني آدم؛ لقـوله: «**فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**» وهذا لاشك فيه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[2].

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعني الوساوس التي يلقيها في القلب فتجري في العروق، وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله ـ عز وجل ـ كما أن الروح تجري مجرى الدم وهي جسم إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لمة المَلَك فإن للشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفق غلبت لمة الملك لمة الشيطان فهما دائما يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة، ونفس لوامة وهذه وصف للنفسين جميعا.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) أخـرجه البخاري في الاعتكاف/باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ٢/٦٨، ومسلم في السلام/باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة ٤/١٧١٢ عن صفية بنت حيي، رضي الله عنها.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران. **الثانية**: النهي الصريح عن قول: (لو) إذا أصابك شيء. **الثالثة**: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان. **الرابعة**: الإرشاد إلى الكلام الحسن. **الخامسة**: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران:

وهما: الأولى: ﴿**الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا**﴾ الثانية: ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا**﴾ أي ما أخرجنا وما قتلنا، ولكن الله تعالى أبطل ذلك بقوله: ﴿**قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**﴾. والآية الأخرى: ﴿**لو أطاعونا ما قتلوا**﴾ فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: ﴿**فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾ أي إن كنتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل فادرؤا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت بل لابد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد لكانوا على ضلال مبين.

الثانية: النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء، لقول الرسول، ﷺ: «**فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا**».

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان، فالنهي عن قول «لو» علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن: لقوله: «**ولكن قل قدر الله وما شاء فعل**».

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله؛ لقوله ﷺ:

«احرص على ما ينفعك واستعن بالله».

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز: لقوله: **«ولا تعجزن»** فإن قال قائل: العجز ليس باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز فكيف نهى النبي - ﷺ - عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟.

أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء؛ لأنه هو الذي في مقدور الإنسان.

باب النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها وشر ما أمرت به» صححه الترمذي[1].

المؤلف - رحمه الله - أطلق النهي ولم يفصح هل المراد به التحريم أو الكراهة وسيتبين - إن شاء الله - من الحديث[2].

قوله: «الريح»، الهواء الذي يصرفه الله عز وجل، وجمعه رياح.

---

(١) أخرجه أحمد ١٢٣/٥، والترمذي في الفتن/ باب ما جاء في النهي عن سب الريح ٣٣/٧ وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٣٣، ٩٣٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٩)، والطحاوي في المشكل ٣٩٨/١.
وأخرجه النسائي (٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص(٨٣)، والطحاوي في المشكل ٣٩٨/١ عن أبي بن كعب موقوفا.
والحديث له شاهد مرفوع عن أبي هريرة، وعائشة، رضي الله عنهما.

(٢) وقال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٤٢): «وهذا نظير ماسبق في سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر وهذا خاص بالريح، ومع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي فإن الريح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره، فالساب لها يقع سبه على من صرفها، ولو لا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالبا لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم».

. . . .

وأصـولها أربعة: الشمال والجنوب والشرق والغرب، وما بينهما يسمى النكباء؛ لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب.

وتصريفهـا من آيات الله ـ عز وجـل ـ فأحيانـا تكـون شديدة تقلع الأشجـار، وتهـدم البيوت وتدفن الزروع، ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانـا تكـون هادئـة، وأحيانا تكون باردة، وأحيانا حارة، وأحيانا عالية، وأحيانا نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولـو اجتمعت جميع المكـائن العـالمية النفـاثـة لتُوجِد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ولكن الله ـ عز وجل ـ بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد، فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟.

الجـواب: لا، لأن هذه الريح مسخرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانا تضر بإحراقها بعض الأشجار فمع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها، ولهذا قال: «**لا تسبوا الريح**».

قوله: «**لا تسبوا الريح**».

«لا» ناهية والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به.

والسب: الشتم والعيب والقـدح واللعن، وما أشبه ذلك؛ لأن سب المخلوق سب لخالقـه فلو وجـدت قصرا مبنيا وفيه عيب فسببته فهذا السب ينصب على من بناه، وكذلك سب الريح، لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله، عز وجل.

ولكن إذا كانت الريح مزعجة فقد أرشد النبي ـ ﷺ ـ إلى ما يقال.

قوله: «**من خير هذه الريح**»: الريح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون

. . . .

عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط.

قوله: **«وخير ما فيها»**:

أي ما تحمله، لأنها قد تحمل خيرا كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شرا كإزالة تلقيح الثمار، وأمراض تضر الإنسان والبهائم.

قوله: **«وخير ما أمرت به»**:

مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله.

قوله: **«ونعوذ بك»**: أي نعتصم ونلجأ.

قوله: **«من شر هذه الريح»**:

أي شرها بنفسها، كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

قوله: **«وشر ما فيها»**:

أي ما تحملة من الأشياء الضارة كالأنتان والقاذورات والأوبئة وغيرها.

قوله: **«وشر ما أمرت به»**:

كالإهلاك والتدمير، قال ـ تعالى ـ في ريح عاد: **﴿تدمر كل شيء بإذن ربها﴾**[1] وتيبيس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع وطمس الآثار والطرق، فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: **«ما أمرت به»**: هذا الأمر حقيقي أي يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله. قال ـ تعالى ـ للأرض والسماء: **﴿ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾**[2] وقال للقلم: **«اكتب. قال ربي وماذا اكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة»**[3].

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) تخريجه ص (١٨١)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح. **الثانية**: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره. **الثالثة**: الإرشاد إلى أنها مأمورة. **الرابعة**: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح:

وهذا النهي للتحريم؛ لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

وهو أن يقول: «**اللهم إني أسألك من خيرها....**» الحديث مع فعل الأسباب الحسية أيضا، كالاتقاء بالجدران أو الجبال من شر هذه الريح.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة: لقوله: «**ما أمرت به.**»

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر: لقوله: «**خير ما أمرت به وشر ما أمرت به**».

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبَّه، وأن يكون مستسلما لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلما لأمره الشرعي؛ لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئا إلا بأمر الله، سبحانه وتعالى.

باب قوله تعالى

﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله﴾[1] الآية[2].

قوله: «يظنون»: الضمير يعود للمنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين كما في قوله تعالى: **﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾**[3] أي يتيقنون، وضد الراجح المرجوح ويسمى وَهماً.

قوله: «ظن الجاهلية»:

عطف بيان لقوله: «غيرَ الحق».

و«الجاهلية» الحال الجاهلية، والمعنى يظنون بالله ظن الحال الجاهلية التي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) وقال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٤٣): «وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ماأخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ماأخبر به وأنه يفعله، وماوعد به من نصر الدين واحقاق الحق وابطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان.

وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ سوء ظن بالله ونفي لكماله، وتكذيب لخبره، وشك في وعده».

وقال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد ص (٣٥٨): «أراد رحمه الله بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، وأنه من واجبات التوحيد».

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

. . . .

لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل.

والظن بالله ـ عز وجل ـ على نوعين:

الأول أن يظن بالله خيرا.

والثاني: أن يظن بالله شرا.

والأول: له متعلقان:

١ ـ متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون، فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله ـ عز وجل ـ فيما يفعله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هولحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لاتصل، وبهذا يتبين عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شيئا في الكون فعله لإرادة سيئة حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير فهذا واقع، كما قال تعالى: ﴿**قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة**﴾[1].

٢ ـ متعلق بالنسبة لما يفعله بك فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك فعليك أن تظن أن الله يقبل منك ولا تسيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مفرطا في الواجبات فاعلا للمحرمات وظن بالله ظنا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٧.

. . . .

حسنا، فهذا هو ظن المتهاون المتهالك، بل هو من سوء الظن بالله إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثاني: وهو أن يظن بالله شرا، مثل: أن يظن في فعله سفها أو ظلما أو نحو ذلك، فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب.

قوله: **«يقولون هل لنا من الأمر من شيء»**:

مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: **«لنا»** خبر مقدم. وقوله: **«من شيء»** مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قوله: **«قل إن الأمر كله لله»**:

أي: فإذا كان كذلك فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره فالله ـ عز وجل ـ يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: **«إن الأمر»**:

واحد الأمور لا واحد الأوامر، أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله، سبحانه، فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

قوله: **«يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك»**:

فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق فيخفي في نفسه ما لا يبديه لغيره؛ لأنه يرى من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان.

قوله: **«ما قُتلنا هاهنا»**:

. . . .

أي: في أُحُد، والمراد بمن «قتل» من استشهد من المسلمين في أحد، لأن عبد الله بن أبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أحد وقال: إن محمدا يعصيني ويطيع الصغار والشبان.

قوله: **«قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم»**:

هذا الاحتجاج لا حقيقة له؛ لأنه إذا كتب القتل على أحد لم ينفعه تحصنه في بيته، والكتابة قسمان:

١ - كتابة شرعية: وهذا لا يلزم منه الوقوع مثل قوله تعالى: **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾** وقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾**.

٢ - كتابة كونية: وهذه يلزم منها الوقوع مثل قوله تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** وقوله: **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾** ومثل هذه الآية.

قوله: **«وليبتلي الله ما في صدوركم»**:

أي يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره، والإيمان بحكمته، فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك.

قوله: **«وليمحص ما في قلوبكم»**:

أي: إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر صار في ذلك تمحيص لما في القلب: أي تطهيرا له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي.

وقد حصل الابتلاء والتمحيص في قصة أحد، بدليل أن الصحابة لما

ندبهم الرسول ـ ﷺ ـ حين قيل له: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم»[2] خرجوا إلى حمراء الأسد ولم يجدوا غزوا فرجعوا: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[3][4].

قوله: «والله عليم بذات الصدور»:

جملة خبرية فيها إثبات أن الله عليم بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور والمراد بها القلوب كما قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ فالله لا يخفى عليه شيء فيعلم ما في قلب العبد وما ليس في قلبه متى يكون وكيف يكون؟.

قوله: «الظانين»:

المراد بهم: المنافقون والمشركون قال تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء﴾[5] أي ظن العيب،

---

(١)(٥) سورة الفتح، الآية: ٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

(٤) حديث عائشة، رضي الله عنها: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيم﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ـ ﷺ ـ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال من يذهب في أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير»، أخرجه البخاري في المغازي/باب الذين استجابوا لله والرسول ٣/١١٠، ولم يخرجه البخاري في التفسير في هذا الباب المشار إليه، بل ساقه ابن حجر في الفتح لكون البخاري لم يسق حديثاً في الباب كله وأشار ابن حجر أن الحديث تقدم في المغازي الفتح ٨/٧٦ ط الريان. ومسلم في فضائل الصحابة/باب من فضائل طلحة والزبير ٤/١٨٨٠.
وأما خروجهم إلى حمراء الأسد فقد أخرجه النسائي، وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس كما في الدر المنثور ٢/١٠١، وقال السيوطي: «بسند صحيح».

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله

وهو كقوله فيما سبق: ﴿ظن الجاهلية﴾[1].

ومنه ما نقله المؤلف عن ابن القيم، رحمهما الله: أنهم يظنون أن أمر الرسول - ﷺ - سيضمحل وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك.

قوله: «**عليهم دائرة السوء**»:

أي أن السوء محيط بهم جميعا من كل جانب كما تحيط الدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيضمحل فإن الواقع خلاف ظنهم، وأن الدائرة راجعة عليهم.

قوله: ﴿**وغضب الله عليهم**﴾:

الغضب: من صفات الله الفعلية التي تتعلق بمشيئته ويترتب عليه الانتقام، وأهل التعطيل، قالوا: إن الله لا يغضب.

فمنهم من قال: المراد الانتقام.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام. قالوا: لأن الغضب غليان القلب لطلب الانتقام، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنه جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم**»[2].

فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١٩/٣، ٦١، والترمذي في الفتن/باب ما جاء ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ٣٥١/٦، وقال: حسن صحيح.

ﷺ، وأن يظهـره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء، الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق. فمن ظن أنه يُديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

في المعنى التوافق في المثلية والكيفية. قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[1] ويدل على أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالى: ﴿**فلما آسَفُونا انتقمنا منهم**﴾[2] فآسفونا: بمعنى أغضبونا، «انتقمنا منهم». فجعل الانتقام مرتبا على الغضب فدل على أنه غيره.

وقوله: «**ولعنهم**»:

اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: «**وأعد لهم جهنم**»:

أي هيأها لهم وجعلها سكنا لهم.

قوله: «**وساءت مصيرا**»:

تمييز الفاعل مستتر، أي: ساءت النار مصيرا يصيرون إليه.

قوله: «**قال ابن القيم**»:

هو محمد بن قيم الجوزية أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الكبار الملازمين له رحمهما الله.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده.

قوله: «وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته»: يؤخذ من قولهم: «**لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا**» قال ابن القيم في الآية: يعني قوله: «**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية**» فسر بأن الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل أي يزول.

وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، ونأخذ هذا التفسير من قولهم: ﴿**لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا**﴾ وفسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره الله على الدين كله ففسر بما يكون طعنا في الربوبية وطعنا في الأسماء والصفات، فالطعن في القدر طعن في ربوبية الله عز وجل؛ لأن من تمام ربوبيته ـ عز وجل ـ أن نؤمن بأن كل ما جرى في الكون فإنه بقضاء الله وقدره، وطعن في أفعاله وحكمته حيث ظن أن الله تعالى سوف لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمره، لأنه إذا ظن الإنسان هذا الظن بالله فمعنى ذلك أن إرسال الرسول عليه ـ الصلاة والسلام ـ عبث وسفه؛ فما الفائدة من أن يُرسَلَ رسول ويؤمر بالقتال وإتلاف الأموال والأنفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى فهذا بعيد.

ولا سيما رسول الله ـ ﷺ ـ الذي هو خاتم النبيين، فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة.

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح».

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل

. . . .

معها الحق فهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح قال تعالى: ﴿**بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا**﴾[1].

الثاني: أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون في ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبا وسفها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئا أو يشرعه إلا لحكمة قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس في علل الأحكام الشرعية اختلافا كبيرا بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله، سبحانه وتعالى.

ورأي الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لا يسئل عما يفعل، وهذا من أعظم الظن بالله؛ لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمي سفيها فما بالك بالخالق العظيم؟. قال تعالى: ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا**﴾[2] فالقول بأنها خلقت باطلا لا لحكمة عظيمة ظن الذين كفروا. وقال تعالى: ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق**﴾[3] الذي هو ضد الباطل، وهؤلاء قالوا: إن الله تعالى خلقهما باطلا لغير حكمة قال الله: ﴿**ذلك ظن الذين كفروا**﴾ أي: الذين يظنون أن الله خلقهما باطلا وعبثا وسهوا ولعبا.

والمعتزلة على العكس من ذلك يقولون: لا يقدر إلا لحكمة ويفرضون على الله ما يشاؤن وقد ذكر صاحب مختصر التحرير الفتوحي، رحمه الله: أن في

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٢.

(٢) سورة صٓ، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الدخان، الآيتان: ٣٨ ـ ٣٩.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمستقل ومستكثر وفتش نفسك هل أنت سالم.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإنــي لا إخالــك ناجيــا

المسألة قولين في المذهب.

ولكن الصواب بلا ريب أنه لا يفعل شيئا ولا يقدره على عبده ولا يشرع شيئا إلا لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر.

قوله: «**فويل للذين كفروا من النار**»[1]:

ويل: مبتدأ؛ وساغ الابتداء بالنكرة: التعظيم، وخبر المبتدأ ﴿**للذين كفروا**﴾. والجار والمجرور «**من النار**» بيان لويل، وفي هذا دليل على أن كلمة «ويل» كلمة وعيد وليست كما قيل: وادٍ في جهنم، ولهذا نقول: ويل لك من البرد، ويل لك من فلان، ويقول المتوجع: ويلاه، وإن كان قد يوجد واد في جهنم اسمه ويل لكن ويل في مثل هذه الآية كلمة وعيد.

قوله: «**وأكثر الناس**»:

أي: من بني آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء، أي العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم وهذا ظن السوء، أو فيما يفعله بغـيرهم كما إذا رأوا من ابتـلي بمرض بدني، أو رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.

. . . .

المسلمين دائما، فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقتضي ذلك.

قوله: «**ولا يسلم من ذلك**»: أي من الظن السوء.

قوله: «**إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده**»:

صدق رحمه الله لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله، عز وجل، وما له من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشرعه، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حقة لا معرفة تحريف وتأويل.

ولهـذا أولئك المحرفون والمؤولون حجبوا عن معرفة أسماء الله وصفاته فتجد قلوبهم مظلمة غالباً، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما من أبقى أسماء الله وصفاته على ما دلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف فإن قلبه لا يرد عليه مثل هذه الاعتراضات التي ترد على قلوب أولئك المحرفين؛ لأن المحـرفين إنما أُتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دل ظاهرهما على التمثيل والتشبيه فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكـرون ما أثبت الله لنفسه، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما كون كل معطل ممثلاً فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضي التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيء بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها فمثّل أولاً وعطّل ثانياً.

وعلى هذا فالذي عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ما جرى عليه سلف هذه الأمة وأئمتها وعرف موجب حكمة الله أي مقتضي حكمة الله.

وقوله: «موجب» موجَب بالفتح هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضى، وبالكسر السبب الذي يقتضي الشيء بمعنى المقتضي.

فالذي يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة، فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبدا، ولاحظ الحكمة التي حصلت للمسلمين في هزيمتهم في حنين وفي هزيمتهم في أحد، فإن في ذلك حِكَماً عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمران فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه.

بل كل ما يجريه الله في الكون كمنع الإنبات والفقر فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده؛ لأنه ـ عز وجل ـ أكرم الأكرمين وعلى هذا فقس.

قوله: **«اللبيب»**: على وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

قوله: **«بهذا»**: المشار إليه هو الظن بالله، عز وجل، ليعتنى بهذا حتى يظن بالله ظن الحق، لا ظن السوء وظن الجاهلية.

قوله: **«وليتب إلى الله»**:

أي يرجع إليه؛ لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله: **«وليستغفره»**:

أي يطلب منه المغفرة، واللام في قوله: **«وليتب»** وقوله: **«وليستغفره»** للأمر.

قوله: **«تعنتا على القدر وملامة له»**:

أي إذا قدر الله شيئا تجده يقول: ينبغي أن ننتصر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي أن لا نصاب بالجوائح، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا.

قوله: **«فمستقل ومستكثر»**:

مستقل: مبتدأ، خبره محذوف. ومستكثر: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر، ونظير ذلك قوله تعالى: **﴿فمنهم شقي**

. . . .

وسعيد﴾[1] فسعيد مبتدأ، خبره محذوف تقديره ومنهم سعيد، ولا يقال بأن «سعيد» معطوف على شقي لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله: «**وفتش عن نفسك هل أنت سالم؟**»:

وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك هل أنت سالم من التقصير فيه؟.

ومما حرمه الله عليك هل أنت سالم من الوقوع فيه؟.

قوله: «**فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة**»:

«تنج» الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو «تنج» الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو.

وقوله: «**من ذي عظيمة**»: أي من ذي بلية عظيمة، أو نحوها.

قوله: «**وإلا فإني لا إخالك ناجيا**»:

التقدير: أي وإلا تنج من هذه البلية فإني لا إخالك ناجيا.

ومعنى إخالك: أظنك، وهي تنصب مفعولين الأول الكاف، والثاني ناجيا.

كأن ابن القيم ـ رحمه الله ـ يقول: إن نجوت من هذا الأمر فقد نجوت من أمر عظيم، وإن لم تنج فلست بناج.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٥.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. **الثانية**: تفسير آية الفتح. **الثالثة**: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر. **الرابعة**: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران:

وهي قوله تعالى: ﴿**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية...**﴾ وقد سبق. والضمير فيها للمنافقين.

الثانية: تفسير آية الفتح:

وهي قوله تعالى: ﴿**الظانين بالله ظن السوء...**﴾ وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر:

أي ظن السوء، والذي أخبر بذلك ابن القيم، رحمه الله، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

فابن القيم ـ رحمه الله ـ ذكر أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده، وأشار إلى معرفة النفس بقوله: «**فتش نفسك**»، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب فهو محل الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

. . . .

مناسبة الباب للتوحيد:

أن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾[1] فإذا ظن بالله ظن السوء لم تكن الأسماء حسنى، وقال في الصفات: ﴿**ولله المثل الأعلى**﴾[2] وإذا ظن بالله ظن السوء لم يكن له المثل الأعلى.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

باب ما جاء في منكري القدر[1]

قوله: «منكري»: أصله منكرين ـ جمع ـ فحذفت النون للإضافة كما يحذف التنوين أيضا، قال الشاعر:

كأنـــي تنويـــن وأنـــت إضافـــة فأيـــن تراني لا تحـــل جـــواري

وقيل: (مكاني) بدل (جواري).

قوله: «القدر»: هو تقدير الله ـ عز وجل ـ للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله، أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله ـ عز وجل ـ في خلقه ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سواء كان خيرا أو شرا.

والقدر يطلق على معنيين:

الأول: التقدير، أي فعل الله، عز وجل.

الثاني: المقدر، أي ما قدره الله، عز وجل.

والتقدير يكون مصاحبا للفعل وسابقا له فالمصاحب للفعل هو الذي: تعلق به القدرة، والسابق هو الذي قدره الله ـ عز وجل ـ في الأزل، مثال ذلك:

خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي تتعلق به القدرة أي تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

---

(١) لما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر ذكر المصنف ماجاء من الوعيد فيمن أنكره تنبيهاً على وجوب الإيمان به. (حاشية ابن قاسم ص (٣٦٤)).

. . . .

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات كمال الله، عز وجل[1].

والناس في القدر ثلاثة أقسام:

الأول: الغلاة في إثباته وهم الجبرية: أثبتوا القدر، وأن الله خالق كل شيء وعالم كل شيء، لكنهم نفوا قدرة الإنسان واختياره فهو ينام ويأكل ويعصي بغير اختيار، لأن الله يقول: **﴿الله خالق كل شيء﴾**[2] وقال: **﴿والله خلقكم وما تعملون﴾**[3] وفعل الإنسان من الأشياء.

وهذا القول باطل يبطله الكتاب، والسنة، والعقل، وإجماع السلف.

فالكتاب والسنة أثبتا للإنسان إرادة وقدرة واختيارا قال، تعالى: **﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾**[4] وقال تعالى: **﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾**[5].

وفي القدرة قال تعالى: **﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾**[6] وقال تعالى: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**[7].

وأثبت الله له فعلا قال تعالى: **﴿إنه خبير بما تفعلون﴾**[8] وقال تعالى: **﴿إن الله خبير بما تعملون﴾**[9].

---

(١) وقد أفرد له ابن القيم رحمه الله كتابه القيم شفاء العليل.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٥) سورة التكوير، الآية: ٢٨.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٧) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٨) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(٩) سورة المائدة، الآية: ٨.

. . . .

وأثبت له قولا قال تعالى: ﴿**يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم**﴾[1].

ومن السنة قوله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[2].

والعقل والحس يدلان على أن الإنسان يفعل باختياره، ويفرق بين الفعل الاختياري وبين الفعل غير الاختياري.

وذكر أن سارقا جيء به إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين: ما سرقت إلا بقدر الله فقال: ونحن نقطعك بقدر الله، فحجه مع أن قطع عمر ليده فيه القدر والشرع.

وهذا القول ـ أعني القول بالجبر ـ باطل ويترتب عليه ـ والعياذ بالله ـ من ظن السوء بالله الشيء الكثير فمن ذلك:

١ ـ أن الله يظلم العباد حيث يعاقبهم على أمر ليس باستطاعتهم، وليس لهم فيه اختيار.

٢ ـ أن الله يثيب الإنسان بغير فعل منه وهذا سفه، لأنه مجبور على فعله.

٣ ـ انتفاء حكمة الله بالشرع، لأن الله يقول: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾[3] فإذا كان الذي يحسن العمل والذي لا يحسنه سواء فأين الحكمة؟.

الثاني: الغلاة في إنكار القدر، وهم الذين قالوا: إن الإنسان يفعل باختياره، ينام ويصلي ويأكل ويقوم ويقعد باختياره، ثم قالوا: إن العبد مستقل بعمله ليس لله فيه قدرة ولا اختيار، فالله لم يشأ أفعال العبد ولم يخلقها، ثم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام/باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٤/٣٦١، ومسلم في الحج/باب فرض مرة في العمرة ٢/٩٧٥ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٣) سورة الملك، الآية: ٢.

. . . .

اختلفوا: فمنهم من قال: إن الله يعلم ما سيصنعه العبد، وأن الله مقدره مع نفي الخلق والمشيئة.

وقال غلاتهم: إن الله لم يعلمه ولم يقدره، وأن الأمر أنف مستأنف، وأن الله لا يعلم من أفعال العباد إلا ما وقع، وما لم يقع لا يعلمه، وهؤلاء كفّرهم السلف، لأنهم أنكروا عموم علم الله سبحانه.

ثم استقر أمر القدرية، على إثبات العلم والتقدير، وعلى نفي المشيئة والخلق.

والقدرية يناظَرون بالعلم فإن أقروا به خُصِموا؛ لأنهم إذا أقروا به نقول لهم: هل جاء هذا المقدور على مقتضى علم الله أو على خلافه؟ إن قالوا: على مقتضى علم الله خصموا، وإن قالوا: على خلافه فقد أنكروا العلم، وإذا أنكروا العلم كفروا.

الثالث: أهل السنة والجماعة، توسطوا بين الطائفتين فآمنوا بعلم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، وأن للعبد اختيارا وقدرة على فعله، فجمعوا بين النصوص ووافقوا بين المعقول والمنقول.

والرد على القدرية:

١ ـ نقول: إذا أثبت أن الإنسان مستقل بعمله، فقد أثبتم وجود شيء في ملك الله لا يريده الله وهذا إشراك به، ولهذا سمى النبي ـ ﷺ ـ القدرية مجوسَ هذه الأمة[1].

(١) أخرجه أبوداود في السنة/ باب القدر (٤٦٩١)، والحاكم ١/ ٨٥، من طريق أبي حازم سلمة بن دينار عن ابن عمر، وهو منقطع؛ لأن أبا حازم لم يسمع من ابن عمر.
وأخرجه اللالكائي في شرح السنة (١١٥٠)، والآجري في الشريعة من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم عن ابن عمر وزكريا. . ضعيف.

. . . .

٢ ـ نقول لهم ـ والمراد غير غلاتهم ـ هل تقرون بعلم الله؟ فسيقولون: نعم نقر، فنقول: هل وقع هذا الشيء على خلاف معلومه أم على وفق معلومه؟.

فإن قالوا على خلاف معلومه فقد أنكروا العلم، وإن قالوا على وفقه فقد أقروا أنه بإرادته.

فأنت أيها الإنسان لا تعلم ما أراد الله، فإذا وقع على مقتضى علم الله كان ذلك بتقديره فأنت حينما فعلت لا تعلم أن الله ـ عز وجل ـ قدر لك ذلك حتى جعلته موافقا لمعلومك، وإنما جرى على وفق معلوم الله بإرادة الله، فيكون هذا دليلا على أن ما فعلت فهو مراد لله، عز وجل، ولهذا قال الشافعي مقولته المشهورة: ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا.

وأما بالنسبة للجبرية فاستدلوا بأدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾[١] فنفي الفعل عن النبي ـ ﷺ ـ وأثبته لله، عز وجل.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء**﴾[٢] أي لو شاء الله ما أشركوا ولكنه شاء أن يشركوا فأشركوا إجبارا ـ فهذه كلمة حق إريد بها باطل ـ فصحيح أنه لو شاء الله ما أشركوا كما قال تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما أشركوا**﴾[٣] لكنهم أرادوا الاحتجاج على الشرك والمعاصي بالقدر، وقد أبطل الله حجتهم هذه بقوله: ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا**﴾[٤] وما كان الله تعالى ليذيقهم بأسه وهم على حق وصواب فيما قالوا.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

ونرد عليهم بالأدلة النقلية والعقلية:

فأما الأدلة النقلية فمنها:

١ ـ أنه يلزم على قولهم أن إرسال الرسل لا تقوم به الحجة؛ لأن القدر لا يزال موجوداً حتى بعد إرسال الرسل وقد نفى الله ـ عز وجل ـ الحجة بعد إرسال الرسل فقال: ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾[1] ولو كان الإنسان مجبرا لقال: ياربِّ وما تفيد الرسل.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**﴾[2] فأثبت للعبد إرادة.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿**لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العـٰلمين**﴾[3].

وأما الأدلة العقلية:

١ ـ أننا لو قلنا بكلامهم هذا وأن الإنسان يجبر على العمل لم يكن هناك فرق بين المطيع والعاصي ولم يستحق المطيع الثواب ولا العاصي العقاب، مع أن كلا منهم يستحق جزاء عمله.

٢ ـ أنـه يعلم بالضرورة الفـرق بين الأشياء التي يفعلهـا الإنسان باختيار، والأشياء التي يفعلهـا مجبراً عليها، فمثلاً شخص يقود السيارة وجاء على جدار وصدمه باختياره، وآخر انفلتت منه السيارة وعجز عن قيادتها، فبينهما فرق، وكذلك فرق بين من ينزل من الدرج باختياره درجةً درجةً، وآخر دفعه شخص من أعلى حتى تدحرج..

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة التكوير، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

. . . .

وكـل يعلم ويعـرف أن الإنسـان يذهب ويجيء ويقوم ويقعد ويصلي ويصوم ويزكي ويفعل الأشياء باختياره، ولا يرى أن أحدا أجبره.

فبهـذا نعـرف أن إنكار القدر ضلال مبين، وأن الغلو في إثباته أيضا ضلال مبين، وأن خير الأمور الوسط وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة في خمسة أصول ذكرها في العقيدة الواسطية فلْتُراجَع هناك.

مراتب القـدر:

وهي أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولى: العلم وذلك بأن تؤمن بأن الله ـ تعالى ـ علم كل شيء جملة وتفصيلا، فعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون. فكل شيءٍ عَلِمَه، الدقيق والجليل.

ودليل ذلك في الكتاب كثير، منها قوله، تعالى: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾[2] فالأوراق التي تتساقط ميتة، أيُّ ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر فإن الله ـ تعالى ـ يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى ولاحظ سعة علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم وحبـة في قاع البحـر عليها ظلمات متعددة، ظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر، ثم المطر، ثم السحاب المتراكم، ثم ظلمة الليل، فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿**ولا حبة في ظلمات الأرض**﴾، ثم جاء العموم المطلق

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ ولا كتابة إلا بعد علم.

ففي هذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: **﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾**[1] ففي الآية أيضا إثبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السموات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته، فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدا سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق قال تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾**[2] وقال تعالى: **﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾**[3] وقال تعالى: **﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم... ﴾**[4] الآية.

المرتبة الرابعة: الخلق: فما من شيء في السموات ولا في الأرض إلا الله خالقُه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: **﴿الله خالقُ كلِّ شيءٍ﴾**[5] وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١ ـ إرادة جازمة.

٢ ـ قدرة تامة.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٢) سورة يّس، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

. . . .

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابي بم عرفت ربك قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١ - خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢ - مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد، وينسب إليه. قال، تعالى: **﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾**[١] وقال تعالى: **﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾**[٢] ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثباته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع وقد جمعت في بيت:

علـمٌ كتابــةُ مولانـــا مشيئتُــهُ   وخَلْقُــه وهْـــو إيجــادٌ وتكـويـنُ

وهناك تقديرات أخرى نسبية:

منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد[٣].

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل ص (٥٦): «فاجتمعت هذه الأحاديث والآثار على تقدير رزق العبد وأجله وشقاوته وسعادته وهو في بطن أمه، واختلفت في وقت هذا التقدير. . . ففي حديث ابن مسعود أن هذا التقدير يقع بعد مائة وعشر يوماً من حصوله النطفة في الرحم، وحديث أنس غير مؤقت، أما حديث حذيفة بن أسيد فقد وقت فيه التقدير بأربعين يوما، وفي لفظ بأربعين ليلة، وفي لفظ ثنتين وأربعين ليلة، وفي لفظ بثلاث وأربعين ليلة، وهو حديث تفرد به مسلم ولم يروه البخاري».

ثم جمع رحمه الله بين هذه الآثار بأن هناك تقديرين:

=

. . . .

ومنها: التقدير الحولي، وهو: الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يقدر في السماء.

ومنها التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم[1] واستدل له بقوله

الأول: قبل نفخ الروح، وذلك أن الملك الموكل بالنطفة يكتب ماقدره الله سبحانه على رأس الأربعين الأولى حين يأخذ في الطور الثاني، وهو العلقة.

الثاني: حين نفخ الروح، فيؤمر الملك الذي ينفخ فيه الروح عند نفخ الروح فيه يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

(١) قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل ص (١٧): «الباب الأول في تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»** رواه مسلم، وفيه دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم» وقال ص (٢٣): «الباب الثاني في تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: **«كنا في جنازة في بقيع الغرقد فقعد وقعدنا حوله... ثم قال: مامنكم من أحد مامن نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة، قال: فقال رجل: يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى... إلى قوله العسرى﴾»**.

- رواه البخاري ومسلم - ثم ذكر ابن القيم أحاديث منها: مارواه هشام بن حكيم بن حزام «أن رجلاً قال: يارسول الله أتبتدأ الأعمال؟ أم قد مضى القضاء؟ فقال: **«إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بكفيه، فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار»** - رواه أحمد وحسنه في المجمع ١٨٧/٧ -.

وقال ص (٥١): «الباب الرابع: في ذكر التقدير الثالث والجنين في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله، وسائر مايلقاه.. عن عبدالله بن مسعود قال: حدثنا =

. . . .

تعالى: ﴿يسأله من في السموات والأرض كلَّ يوم هو في شأن﴾[1] فهو كل يوم يغني فقيرا، ويفقر غنيا، ويوجد معدوما، ويعدم موجودا، ويبسط الرزق ويَقدِرُهُ، وينشيء السحاب والمطر وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه، لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن في الشام طاعونا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم فقال بعضهم: نرجع فعزم على الرجوع فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح فقال:

= رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» متفق عليه.

وقال ص (٥٩): «الباب الخامس: في ذكر التقدير الرابع ليلة القدر.

قال تعالى: ﴿حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ وهذه ليلة القدر قطعاً، لقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾.... عن ابن عباس قال: «يكتب من أم الكتاب ليلة القدر مايكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: حج فلان ويحج فلان».

وقال ص (٦١): «الباب السادس في التقدير الخامس اليومي، قال تعالى: ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾... وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر ويعز ويذل، ويفك عانيا، ويشفي مريضا، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويتوب على قوم، ويكشف كربا، ويغفر ذنباً، ويضع قوماً ويضيع آخرين، دخل كلام بعضهم في بعض».

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

. . . .

يا أمير المؤمنين أفرارا من قدر الله؟. فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله[1].

يعني أن مضينا في السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلا قال: أرأيت لو كان لك غنم وعندك وادٍ له شعبتان إحداهما مُخْصِبة والأخرى مجدبة فإن رعيت المخصبة فبقدر الله، وإن ذهبت إلى المجدبة فبقدر الله.

فالإنسان وإن كان يفعل فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك لزم أن يكون العاصي معذوراً بمعصيته؛ لأنه عصى بقدر الله؟.

أجيب: أن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر:

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء**﴾ فهم قالوا هذا على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا**﴾ ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون**﴾[2] وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال، تعالى: ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾[3] فأبطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل، لأن القدر باق حتى مع إرسال الرسل،

---

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب ما يذكر في الطاعون ٤/٤١، ومسلم في السلام، باب الطاعون والطيرة ٤/١٧٤٠ عن ابن عباس، رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

. . . .

وهذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر: فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن طلبت الأخرى فإذا لم يحصل له شيء منها فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس.

وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر على باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر، وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة، فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!.

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج، فنقول: تزوج حتى يأتيك فقال: لا، فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب.

وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة، والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك فلا يمكن أن ينجو.

فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالأثر والنظر، ولهذا قال النبي - ﷺ - كلمة جامعة مانعة نافعة: **«ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار. قالوا: يا رسول الله: أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له»**[1] فالنبي - ﷺ - أعطانا كلمة واحدة فقال: «اعملوا. . . . » وهذا فعل أمر «فكل ميسر لما خلق له».

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير/باب فأما من أعطى واتقى ٣٢٤/٣، ومسلم في القدر/باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ٢٠٣٩/٤ - ٢٠٤٠ عن علي، رضي الله عنه.

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1] رواه مسلم.

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة منها:

١ ـ أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢ ـ أنه يوجب صدق الاعتماد على الله، عز وجل؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣ ـ أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

٤ ـ منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملا يشكر عليه؛ لأن الله هو الذي من عليه وقدره له. قال، تعالى: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾[2] أي فرح بطر وإعجاب بالنفس.

٥ ـ عدم حزنه على ما أصابه، لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦ ـ أن الإنسان يفعل الأسباب لأنه يؤمن بحكمة الله عز وجل، وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطةً بأسبابها.

قوله: ﴿**والذي نفس ابن عمر بيده**﴾:

الصيغة هنا قسم، جوابه جملة «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/باب بيان الإيمان والإسلام ١/٣٦.

(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

. . . .

أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

وابن عمر ـ رضي الله عنه وعن أبيه ـ ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جوابا على ما نقل عنه من أن أناسا من البصرة يقولون: إن الله ـ عز وجل ـ لم يقدر فعل العبد وأن الأمر أنف، وأنه لا يعلم بأفعال العبد حتى يعملها وتقع منه، فابن عمر حكم بكفرهم اللازم من قوله: «ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر» والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر، لقوله تعالى: **﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾** ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»** فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة فأنت كافر بالجميع؛ لأن الإيمان كلٌ لا يتجزأ، كما قال تعالى: **﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا﴾**[1].

ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ـ ﷺ ـ جعل الإيمان مبنيا على هذه الأركان الستة وإذا فات ركن من الأركان سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئا واحدا من هذه الأركان الستة صار كافرا، وإذا كان كافرا فإن الله لا يقبل منه.

قوله: «أن تؤمن بالله»:

والإيمان بالله ـ عز وجل ـ يتضمن أربعة أمور:

١ ـ الإيمان بوجوده.

٢ ـ وبربوبيته.

٣ ـ وبألوهيته.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١.

. . . .

---

٤ ـ وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصا بها فهو غير مؤمن بالله.

قوله: «**وملائكتـــه**»:

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١ ـ الإيمان بوجودهم.

٢ ـ الإيمان بم علمنا اسمه منهم.

٣ ـ الإيمان بأفعالهم.

٤ ـ الإيمان بصفاتهم.

فِممن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التي خُلِقَ عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جدا، فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحيانا بصورة بشر، فأتى مرة بصورة دحيةَ الكلبي، وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي ـ ﷺ ـ جلسة المتعلم المتأدب[1].

قوله: «وكتبـه»:

والإيمان بالكتب يتضمن مايلي:

١ ـ الإيمان بأنها حق من عند الله.

٢ ـ بتصديق أخبارها.

٣ ـ التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/باب بيان الإيمان ١/٣٦ عن ابن عمر عن أبيه، رضي الله عنهما.

. . . .

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤ ـ وكذلك نؤمن بما علمناه معينا منها، مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور وصحف إبراهيم وموسى.

٥ ـ ونؤمن بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب كما قال تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب﴾**(١) وقال عيسى: **﴿إني عبد الله آتاني الكتاب﴾**(٢) وقال عن يحيى كذلك(٣).

قوله: **«ورسله»**:

والإيمان بالرسل يتضمن مايلي:

١ ـ أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدوقون.

٢ ـ ونؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام ما لم تنسخ.

٣ ـ ونؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل لكل أمة رسولا، تقوم به الحجة عليهم، كما قال تعالى: **﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾**(٤).

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورون؛ لأنهم يقولون يا ربنا ما أرسلت إلينا رسولا، كما قال تعالى: **﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله**

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٠.

(٣) كما في قوله تعالى: **﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتينه الحكم صبيا﴾** سورة مريم، الآية: ١٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

. . . .

لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾[1] فلابد من رسول يهدي به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿على فترة من الرسل﴾**[2] يدل على أنه فيه فترة، فهل قامت عليهم الحجة؟.

الجواب: أن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويله، وقد قامت عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا مثل ما جاء في الحديث الصحيح في مسلم: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم فمقتهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[3] وكما قال تعالى: **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾**[4].

قوله: «واليوم الآخر»:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ـ ﷺ ـ مما يكون بعد الموت، ذكر هذا في العقيدة الواسطية وهو كتاب مختصر لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه[5].

وعلى هذا فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً بُهْماً من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين بالصحف والصراط

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة/باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ٤/٢١٩٧ من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٦.

(٥) الواسطية ص (٢٣٢) مع التنبيهات السنية.

. . . .

والحوض والشفاعة كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.

ومنه ما هو معلوم بالقرآن ، ومنه ما هو معلوم بالتواتر، ومنه ما هو معلوم بالآحاد من السنة لكن كل ما صحت به الأخبار عن رسول الله ـ ﷺ ـ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: **«وتؤمن بالقدر خيره وشره»**:

هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله ـ عز وجل ـ للأشياء كلها سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله ـ عز وجل ـ قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فالعلم سابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم الله ـ سبحانه وتعالى ـ مكتوب، لأن الذي كتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله، عز وجل، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنها مكتوبة.

وهذا القدر قال بعض العلماء إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يُطْلِع الله عليه أحدا، لا مَلَكا مقربا ولا نبيا مرسلا، إلا ما أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى رسله، وإلا فإنه سر مكتوم. قال تعالى: ﴿**وما تدري نفس ماذا تكسب غدا**﴾[1] وإذا قلنا: إنه سر مكتوم، فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على معصيته؛ لأننا نقول لهذا الذي عصى الله ـ عز وجل ـ وقال هذا مقدر علي، ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت؟ أفلا كان الأجدر

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

بك أن تقدر أن الله ـ تعالى ـ قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة؛ لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[1] فالقول تطمئن له النفس، بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس.

وقوله: «**خيره وشره**»:

الخير: ما يلائم العبد. والشر:

ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير وشر فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنِي خير والفقر شر، والصحة خير والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله فكيف يقال الإيمان بالقدر خيره وشره؟ وهل الشر ينسب إلى الله؟

الجواب: الشر لا ينسب إلى الله قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»[2] فلا ينسب إليه الشر لا فعلا ولا تقديرا ولا حكما، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلى كي تكويه بالنار، فالمفعول شر لكن الفعل خير؛ لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شرا محضا بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر صار ذلك شراً بالنسبة له، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به فيكون خيرا. قال ـ تعالى ـ في

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧١).

. . . .

القـرية التي اعتـدت في السبت: ﴿**فجعلنـاها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين**﴾[1].

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تَكْسِرُ من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنبا ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيرا منه قبلها؛ لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من عليائها، فهذا آدم عليه ـ الصلاة والسلام ـ لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم وقال: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾[2] فقال تعالى: ﴿**ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾[3].

والثـلاثـة الذين خلفوا بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم حتى ضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وصار ينكرهم الناس حتى أقـاربهم ـ صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه ـ ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبدا، وصارت حالهم أيضا، بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعيانهم قال تعالى: ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنـوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الـرحيم**﴾[4] فهـذه آيات عظيمة تتلى في محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

القيامة، وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن ههنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله، سبحانه وتعالى، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ: «**الخير بيديك، والشر ليس إليك**»[1] ولم يقل والشر بيديك، فلا ينسب الشر إلى الله أبدا، فضلا عن أن يكون بيديه فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء، فالله لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان، وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية فهذا في المقضي، ومع ذلك فهو وإن كان شرا في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضا، حتى المقضي على كونه شرا ليس شرا محضا، بل هو شر من وجه خيرٌ من وجه، أو شر في محل خيرٌ في محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلا: الجدب والفقر هذا شر، لكنه خير باعتبار ما ينتج عنه قال تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا ـ وليس كله ـ لعلهم يرجعون**﴾[2] والرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيرا كثيرا، فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله ـ عز وجل ـ واشتغلوا بالمال فإذا أصيبوا بفقر رجعوا إلى الله وعرفوا أنهم ضالّون، فهذا الشر صار خيرا باعتبار آخر.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١).

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

وعن عباد بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن

كذلك قطع يد السارق لاشك أنه شر عليه لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضا خير في غير السارق فإن فيه ردعاً لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضا حفظ للأموال؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجد وديت	ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له	ونستجير بمولانا من النار

لكنه أجيب في الرد عليه ردا مفحما فقيل فيه:

قل للمعري عار أيما عاري	جهل الفتى وهو من ثوب التقي عاري
يد بخمس مئين عسجد وديت	لكنها قطعت في ربع دينار
حماية النفس أغلاها وأرخصها	حماية المال فافهم حكمة الباري

قوله: «**أنه قال: لابنه: يا بني**»:

أفاد عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال: «**يا بني**» وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

قوله: «**لن تجد طعم الإيمان**»:

هذا يفيد أن للإيمان طعما كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة، فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعام آخر أزالها لكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة حتى أن الإنسان أحيانا يفعل عبادة في صفاء

ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: وماذا أكتب؟ قال: «اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**»[1].

وحضور قلب وخشوع لله، عز وجل، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة، فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة. وهذا الطعم.

قوله: «**حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك**»:

قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني هذا تحصيل حاصل، لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلابد أن نعرف معنى هذه العبارة، فتحمل هذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعا:

الأول: أن المعنى ما أصابك أي ما قدر الله أن يصيبك، فعبر عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة/باب في القدر ٤/٧٦، وفيه حبيش بن شريح، وهو مقبول.
ومن طريق آخر أخرجه الترمذي في القدر ٦/٣٢٥، والطيالسي (٥٧٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٥) وفي عبد الواحد بن سليم.
ومن طريق آخر أخرجه ابن أبي عاصم (١٠٤) في السنة، والأوائل (٢).
وفيه بقية بن الوليد، ومعاوية بن سليم.
ومن طريق آخر أخرجه أحمد ٥/٣١٧، وابن أبي عاصم (١٠٧)، والآجري ص١٧٧، ١٧٨، وفيه أيوب بن زياد الحمصي.
وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (١٠٣) وفيه ابن لهيعة والحديث صححه الألباني كما في تعليقه على المشكاة ١/٣٤.

. . . .

الثاني: ما أصابك فلا تفكر أن يكون مخطئا لك، فلا تقل لو أنني فعلت كذا ما حصل كذا؛ لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول لو أني فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئا وأيا كان فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلابد أن يصيبه، ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبا للإنسان فإنه لن يمنعه ويرفعه شيء فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبدا.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة فدب بعض الأولاد إلى بركة عميقة فسقط فغرق فمات فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور على ما جرت عليه ولا يمكن أن تتغير فما أصابك لم يكن ليخطئك فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان، فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسو على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾**[1] فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك ذقت حلاوة الإيمان وأطمأننت واستقر قلبك وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير ولهذا دائما بإذن الله يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة فتجده يعمل أعمالا لم يكن من عادته أن يعملها حتى يصل إلى ما أراد الله، عز وجل، مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره.

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

. . . .

قوله: «**وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»: نقول فيه مثل الأول يعني ما قدر أن يخطئك فلن يصيبك فلو أن أحدا سمع بموسم تجارة في بلد ما وسافر بأمواله لهذا الموسم فلما وصل وجد أن الموسم قد فات نقول له: ما أخطأك من هذا الربح الذي كنت تعد له لم يكن ليصيبك مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك؛ لأن الأمر لابد أن يجري على ما قضاه الله وقدره، وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول بقوله: «**سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: إن أول ما خلق الله القلم**»:

القلم: بالرفع والنصب، وهي مروية بالوجهين.

فعلى رواية الرفع يكون (القلم) خبر «إنّ»، ويكون المعنى أولُ ما خلقَ الله القلمُ، لكن ليس من كل المخلوقات كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما على رواية (النصب فإن أولَ ما خلق الله القلمَ فقال له اكتب. فقال ربي: وما أكتب)، يكون خبر «إنَّ» محذوفا أو: (قال له اكتب)، وتكون الفاء زائدة، ويكون المعنى أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له، يعني خَلَقَه ثم أمره أن يكتب وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع يشكل، هل إن أول المخلوقات كلها هو القلم؟ الجواب لا، لأننا لو قلنا إن القلم أول المخلوقات وأنه أمر بالكتابة عندما خلق لكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله ـ عز وجل ـ خلق أشياء عظيمة وكثيرة قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله ـ عز وجل ـ لأن الله ـ عز وجل ـ لم يزل ولا يزال خالقا، وعلى هذا فيكون: إن أول ما خلق الله القلمُ، ويحتاج إلى

. . . .

تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله ـ تعالى ـ له مخلوقات عظيمة قبل هذا الزمن.

قال أهـل العلم: وتأويله: أن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم مما يتعلق بما نشاهده فقط من المخلوقات كالسموات والأرض.. فهي أولية نسبية أي بالنسبة لخلق السموات والأرض وقد قال ابن القيم في نونيته:

والنـاسُ مختلفـون في القلـم الذي كُتِـبَ القضـاءُ بـه مـن الديّـان

هـل كـان قبلَ العـرش أو هو بعدَه قولان عنـد أبـي العـلا الهمذانـي

والحق أن العرش قبل؛ لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان.

قوله: «**فقال: له اكتب**»:

القائل هو الله، عز وجل، يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿**قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها**﴾ أي لابد أن تنقاد لأمر الله طوعا أو كرها فكان الجواب: ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾[1] إذا خوطبت السموات والأرض وأجابت ودل قوله: «طائعين» على أن لها إرادة وأنها تطيع فكل شيء أمام الله فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل.

قوله: «**قال: اكتب قال: ربي وماذا أكتب؟**»:

«ما» اسم استفهام، و«أكتب» فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة.

أمـا إذا لم تلغ «ما» فنقول: «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«الذي» خبره،

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٩، ١٠، ١١.

. . . .

أي: ما الذي أكتب. والعائد على الموصول محذوف، تقديره: ما الذي أكتبه.

هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على الإنسان في طلب استبانته، أو لا حرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هذا فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملاً فإن طلب استبانته لا يكون معصية، فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله - سبحانه وتعالى - ومع ذلك قال: **«رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»** فكتب المقادير.

وهل القلم يعلم الغيب؟.

الجواب: لا، لكن الله أمره، ولابد أن يمتثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذي يعتبر جمادا بالنسبة لمفهومنا كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه، لأن الله إذا أراد شيئا قال له كن فيكون على حسب مراد الله فلهذا قال: **«أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»**:

و «كل» من صيغ العموم فتعم كل شيء، مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

وقوله: **«حتى تقوم الساعة»**:

الساعة هي القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة، لأن كل شيء عظيم من الدواهي له ساعة، يعني الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم الساعة وذلك عند النفخ في الصور.

قوله: «يا بني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: **«من مات على غير هذا»**: المشار إليه قوله: **«إن الله كتب مقادير كل شيء. . .»**.

قوله: **«فليس مني»**:

تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول - ﷺ - بريء من كل كافر.

ويستفاد من هذا الحديث:

وفي رواية لأحمد: «**أن أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1].

---

١ ـ ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بني».

٢ ـ أنه ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذلك أنه لم يقل إن الله كتب.. وسكت ولكنه أسند إلى الرسول ﷺ فمثلا إذا أردت أن تقول لابنك سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت، فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، لكن إذا قلت سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت لأن النبي ـ ﷺ ـ يقول: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها**»[2]، إذا فعلت ذلك استفدت فائدتين:

الأولى: أن تعود ابنك على اتباع الأدلة.

الثاني: أن تربيه على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ـ ﷺ ـ هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه في الحقيقة كثير ما يغفل عنها فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة.

قوله: «**وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب....**»:

نقول فيه ما قلنا فيما سبق، ولكنه يفيد أمرا زائدا على ما سبق وهو قوله: «فجرى في تلك الساعة»: فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٥/٣١٧ وابن أبي عاصم (١٠٧).
وفيه أيوب بن زياد الحمصي لم يوثقه غير ابن حبان كما في تعجيل المنفعة ص (٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء/باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب ٤/٢٠٩٥ عن أنس، رضي الله عنه.

يقـول: «**اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»[1] وليس فيه أنه كتب، ولكننا نعلم أنه سيكتب، إلا أن هذا فيه التصريح بأنه كتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله ـ سبحانه وتعـالى ـ كل شيء إلى قيام السـاعة، وهذا موجود في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها**﴾ أي من قبل أن نبرأ الخليقة ﴿**إن ذلك على الله يسير**﴾[3].

قوله: «**إلى يوم القيامة**»:

هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة؛ لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام النـاس من قبـورهم لرب العالمين كما قال تعالى: ﴿**ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾[4].

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم لقوله تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾[5].

الثالث: قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**﴾[6].

---

(١) سبق ص (١٨١).

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٤) سورة المطففين، الآيتان: ٥، ٦.

(٥) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: **«فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»**. وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: **«أتيت أبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ»** حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه[1].

قوله: **«فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»**: في هذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به فإنه يحرق بالنار.

وقوله: **«أحرقه الله بالنار»**: بعد قوله: **«فمن لم يؤمن»** يدل على أن من أنكر، أوشك فإنه يحرق بالنار، لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان، والجزم بالقدر بمراتبه الأربعة.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/١٨٥، ١٨٩، وأبو داود في السنة/باب في القدر ٥/٧٥، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر ١/٢٩، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص (١٠٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٥)، والطبراني في الكبير (٤٩٤٠)، وابن حبان (١٨١٧)، والخطيب في الموضح ١/١٨٤.
وأخرجه من طريق آخر الآجري في الشريعة ص (١٨٧).
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٩٨: رواه الطبراني بإسنادين ورجال هذه الطريق ثقات».

. . . .

الثاني: إنكار ذلك.

وهذان واضحان؛ لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد فهل يلحق بالإيمان أو بالكفر؟.

الجواب: يلحق بالكفر، ولهذا قال: «**فمن لم يؤمن**» ودخل في هذا النفي من أنكر ومن شك.

وفي قوله: «**أحرقه الله بالنار**»: دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حمما[1] يعني فحما أسود. وقد دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿**وذوقوا عذاب الحريق**﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب**﴾[3].

قوله: «**في نفسي شيء من القدر**»:

لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثا، صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق ولا سيما أن الرسول ـ ﷺ ـ خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في القدر فغضب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذلك وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا فكف الناس عن

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق/باب صفة الجنة والنار ١/٢٠، ومسلم في الإيمان/باب معرفة طريق الرؤية ١/١٦٧ ـ ١٧١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٦.

. . . .

هذا[1] حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشبه فلهذا يقول ابن الديلمي: «في نفسي شيء من القدر. . .».

قوله: **«فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي»**:

أي يذهب هذا الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء ولا سيما مثل الصحابة، رضي الله عنهم، كأبيّ بن كعب، فلكل داء طبيب.

قوله: **«لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر»**:

هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذي لا تقبل منه النفقات هم الكفار.

قوله: **«حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك»**: وقد سبق الكلام على هذه الجملة.

قوله: **«ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار»**:

مُتّ بالضم، لأنها من مات يموت، وفيه لغة أخرى بالكسر مِت كما في قوله تعالى: ﴿**ولإن متم أو قتلتم**﴾[2] في إحدى القراءتين، وهي على هذه

---

(1) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرج رسول الله ـ ﷺ ـ على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال: بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم».
أخرجه ابن ماجه في المقدمة/باب في القدر ١/٣٣، قال في الزوائد: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات»، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١١١٩).
وأخرجه أيضاً أحمد في المسند ـ تحقيق شاكر ـ طريق حماد (٦٨٤٦)، ومن طريق أبي معاوية (٦٦٦٨)، ومن طريق أنس بن عياض عن أبي حازم (٦٧٠٢) وقال أحمد شاكر: «إسناد صحيح».

(2) سورة آل عمران، الآية: ١٥٨.

. . . .

القراءة من مات يَميت بالياء.

قوله: **«على غير هذا لكنت من أهل النار»**:

جزم أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار؛ لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وهل هذا الدواء يفيد؟.

الجـواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا، فلابد أن يرتدع ولا بد أن يؤمن بالقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقـوله: **«فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك»**:

المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وكل هؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن:

فأبي بن كعب من أهل القرآن ومن كتبة القرآن، حتى إن الرسول ـ ﷺ ـ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: ﴿لم يكن. . .﴾ البينة، وقال: **«إن الله أمرني أن أقرأها عليك»** فقال: يا رسول الله سماني الله لك قال: نعم فبكى ـ رضي الله عنه ـ بكاء فرح أن الله عز وجل سماه باسمه لنبيه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة»[1].

وأما عبد الله بن مسعود فقد قال النبي ﷺ: **«من أراد أن يقرأ القرآن**

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار/باب مناقب أبي بن كعب ٣/٤٤، ومسلم في فضائل الصحابة/ باب من فضائل أبي ٤/١٩١٤ عن أنس رضي الله عنه.

. . . .

غضا طريا كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد»[1].

وأما زيد بن ثابت فهو أحد كتاب القرآن في عهد أبي بكر، رضي الله عنه[2].

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذي أسر إليه النبي - ﷺ - بأسماء المنافقين[3].

والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع.

مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو بالأسماء والصفات؟.

الجواب: تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية والأسماء والصفات،

---

(١) أخرجه أحمد ١/٧، وابن ماجه في المقدمة / فضل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه ١/٤٩، عن أبي بكر وعمر.

وأخرجه أحمد ١/٢٦، ٣٨، وابن سعد ٢/٤٣٢، ٧/٣٥، والحاكم ٣/٣١٨ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، عن عمر، رضي الله عنه.

وأحمد ١/٤٤٥، ٤٥٤، وابن سعد، والطيالسي ٢/١٥، والطبراني والبزار كما في مجمع الزوائد ٩/٢٨٧ عن ابن مسعود، وقال الهيثمي: «وفيه عاصم بن أبي النجود وهو على ضعفه حسن الحديث وبقية رجال أحمد رجال الصحيح، ورجال الطبراني رجال الصحيح عن فرات بن محبوب وهو ثقة».

والبخاري في التاريخ الكبير ١/٣٦٠ عن عمار بن ياسر، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير/باب **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾** ٣/٢٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة / باب مناقب عمار وحذيفة ٣/٣٠ عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

. . . .

ثم تعلقه بالأسماء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضا ظاهر؛ لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد فلها تعلق بالقدر. فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة.

مسألة: هل اختلف الناس في القدر؟.

الجواب: نعم اختلفوا فيه على ثلاث فرق وقد سبق[1].

---

(١) انظر ص (١٥٩).

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. **الثانية**: بيان كيفية الإيمان. **الثالثة**: إحباط عمل من لم يؤمن به. **الرابعة**: الإخبار أن أحدا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

دليله قوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

الثانية: بيان كيفية الإيمان.

أي بالقدر وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر؛ لأنه لم يذكرها ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جُمعت اختصارا في بيت واحد وهو قوله:

علم كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به:

تؤخذ من قوله: «**لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**».

ويتفرع منه ماذكرناه سابقاً بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل.

الرابعة: الإخبار أن أحدا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به:

أي بالقدر، وهو كذلك. وقد سبق أن الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه الله، عز وجل، ويستريح، لأنه علم أن هذا أمر لابد أن يقع

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله. **السادسة**: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة. **السابعة**: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

على حسب المقدور، لا يتخلف أبدا «**ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، لأن لو تفتح عمل الشيطان**»[1] ولا ترفع شيئا وقع مهما قلت.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله، لأنه ثبت في صحيح البخاري: «**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء**»[2] وهذا واضح في الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين وأنه على الرواية التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد فهو قبل خلق السموات والأرض فتكون أوليته نسبية.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة، لقوله: «**فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

وفيه أيضا من الفوائد: توجيه خطاب الله إلى الجماد، وأنه يعقل أمر الله؛ لأن الله وجه الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل في الأول وقال: «ماذا أكتب»؟

السابعة: براءته - ﷺ - ممن لم يؤمن به.

لقوله: «**من مات على غير هذا فليس مني**» وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من

---

(١) سبق ص (١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد / باب وكان عرشه على الماء ٤/ ٣٨٧ عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

الثـامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء. التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرا مخرجا عن الملة.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

لأن ابن الديلمي يقول: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، بعد أن أتى أبي بن كعب، فدل هذا على أن من عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم.

وفيه، أيضا، مسألة ثانية، وهي جواز سؤال أكثر من عالم للتثبت؛ لأن ابن الديلمي سأل عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم لتتبع الرخص فهذا لا يجوز كما نص على ذلك أهل العلم وهذا من شأن اليهود، فاليهود لما كان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محصنا وكثر الزنا في أشرافهم غيروا هذا الحد، ولمـا قدم النبي - ﷺ - المدينة، وزنا منهم رجل بامرأة قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئا آخر؛ لأجل أن يتتبعوا الرخص.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله - ﷺ - فقط:

لقوله: «**كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ**» وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله زالت الشبهة تماما، لكن تزيلها عن المؤمن، أما غير المؤمن فلا تنفعه فالله - عز وجل - يقول: ﴿**فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنـون**﴾[1] وقال: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾[2] لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١. (٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

. . . .

بما جاء عن الله ورسوله، كما قال تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسولـه أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾**[1] ولهذا لما قالت عائشة للمرأة: «كان يصيبنا ذلك ـ تعني الحيض ـ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»[2] لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن لعله يؤمن، ولهذا يذكر الله ـ عز وجل ـ إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلك، فقال في أدلة العقل: **﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾**[3] فهذه دلالة عقلية، فالعقل يؤمن إيمانا كاملا بأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى.

وذكر أدلة حسية منها قوله تعالى: **﴿أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى﴾**[4].

فإذاً لا مانع أن تأتي الأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن نقنع الخصم وَنُطَمْئِن الموافق.

وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة فلا مانع أيضا أن نأتي به للاستدلال على ما نقول من الحق لنلزم الخصم به ونطمئن الموافق، ومازال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبي المعالي الجويني مع الهمذاني حيث إن أبا المعالي الجويني ـ غفر الله لنا وله ـ كان يقرر نفي استواء الله على عرشه، فقال له الهمذاني «دعنا من ذكر العرش فما تقول في هذه الضرورة ما قال عارف قط

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في الحيض/باب لا تقضي الحائض الصلاة ١/١٢٠، ومسلم في الحيض/باب وجوب قضاء الصوم على الحائض ١/٢٦٥.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

. . . .

يااالله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو»، فجعل أبو المعالي يضرب على رأسه ويقول حيرني الهمذاني.

فإذاً الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية.

وأشدها إقناعا للمؤمن هو الدليل السمعي؛ لأنه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإنْ ظنه صاحبه حقا.

باب ما جاء في المصورين

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

قوله: باب ما جاء في المصورين: يعني من الوعيد الشديد.

ومناسبة هذا الباب للتوحيد: أن في التصوير خلقا وإبداعا يكون به المصوِّر مشاركا لله في ذلك الخلق والإبداع(1).

قوله في الحديث: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**» ينتهي سند هذا الحديث إلى، الله عزوجل، ويسمى حديثا قدسيا لقداسته وفضله على الأحاديث النبوية، وإذا كان منتهى السند إلى النبي - ﷺ - سمي مرفوعا، وإذا كان منتهاه إلى الصحابي سمي موقوفا لتوقفه عليه، وإلى التابعي فمن بعده يسمى مقطوعا، فعندنا أربعة أشياء مقطوع، وموقوف، ومرفوع، وقدسي، أعلاها القدسي ثم المرفوع ثم الموقوف ثم المقطوع فمثلا إذا نسب الحديث إلى مجاهد فهو مقطوع، لأن مجاهداً تابعي وإذا نسب إلى ابن مسعود يسمى موقوفا وإذا نسب إلى محمد - ﷺ - فهو مرفوع وهو إما حكمي وإما حقيقي.

وإذا نسب إلى الله - عز وجل - سمي قدسيا لقداسته.

والبحث في الحديث القدسي هل هو من كلام الله لفظا ومعنى، أم هو

---

(1) ولما فيه من المضاهاة بخلق الله، بل هو منشأ الوثنية، ولما دخل على القرون قبلنا إنما هو من هذا الباب؛ لأن صورة المألوف تعظيم، وإذا ارتسمت في الحافظة وبقي ذكرها يمر على البصر الناظر إليها من رسمها لابد أن تستولي على قلبه، وتحل فيه حلول التعبد له. انظر حاشية ابن قاسم ص (٣٧١).

. . . .

من كلام الله عز وجل معنى لا لفظا؟. الجواب: الأخير أقرب لما يلي:

أولا: أنه لا يتعبد بلفظه بمعنى أنك لا تتعبد بتلاوته، فلو كان كلام الله لفظا لكان متعبدا بتلاوته كالقرآن.

ثانيا: أنه لو كان من كلام الله لفظاً لجازت قراءته في الصلاة كالقرآن.

ثالثاً: أنه لو كان من كلام الله لفظاً لكان معجزاً كالقرآن.

رابعاً: أنه لو كان من كلام الله لفظاً لكان أعلى سندا من القرآن، لأن سند القرآن فيه بين الرسول ـ ﷺ ـ وبين ربه ـ عز وجل ـ جبريل، وهذا يقوله الرسول ـ ﷺ ـ عن الله مباشرة كما يظهر من لفظه، ولا يمكن أن يكون الحديث القدسي أعلى سندا من القرآن.

وقال بعض أهل العلم: إننا نقول كما قال النبي ﷺ: قال الله، ولا نبحث هل لفظه من كلام الله أو من كلام النبي ﷺ.

ولكن القرآن لاشك أنه أعلى من الأحاديث القدسية بالاتفاق؛ لأنه يتعلق به أحكام لا تتعلق بالأحاديث القدسية:

١ ـ فالقرآن لا يمسه إلا طاهر، وعلى هذا لو ألف الإنسان كتابا كله أحاديث قدسية لجاز للطاهر وغير الطاهر أن يمسه.

٢ ـ القرآن لا يقرأه الجنب والحديث القدسي للجنب أن يقرأه.

٣ ـ القرآن لو أنكر الإنسان منه حرفا واحدا مما أجمع القراء عليه لكان كافرا بخلاف الحديث القدسي.

٤ ـ القرآن لا يصح بيعه على رأي كثير من أهل العلم بخلاف الحديث القدسي.

قوله: **«ومن أظلم»**:

«من» اسم استفهام والمراد به النفي، أي لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي

. . . .

بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المجرد أو المحض؛ لأنه يكون مشرَبا معنى التحدي والتعجيز.

فإن قيل كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله**﴾[1] وقوله: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا**﴾[2] وغير ذلك من النصوص؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى أنها مشتركة في الأظلمية، أي: أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم.

الثاني: أن الأظلمية نسبية، أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء فيقال مثلا: من أظلم ممن يشابه أحدا في صنع شيء ممن ذهب يخلق كخلق الله.

قوله: «**يخلق**»: حال من فاعل ذهب أي ممن ذهب خالقاً.

والخلق في اللغة التقدير قال الشاعر:

ولأنـــت تفـــري مـــا خلقـــت   وبعـض الناس يخلق ثم لا يفـري

تفري: أي تفعل. ما خلقت: أي ما قدرت.

ويطلق الخلق على الفعل بعد التقدير وهذا هوالغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، وأما بالنسبة للخالق فإنه لا يحتاج إلى تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: «**يخلق كخلقي**»: فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله، وقد سبق الكلام على هذا والجواب عنه في أول الكتاب.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤.   (٢) سورة الأنعام، الآية: ٢١.

فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة﴾ أخرجاه[1].

قوله: «**فليخلقوا ذرة**»: اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالى: **﴿فليأتوا بحديث مثله﴾**[2] من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذرة: واحدة الذر وهي النمل الصغار، وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ؛ لأن النبي - ﷺ - يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية؛ وذكر الله الذرة لأن فيها روحا، وهي من أصغر الحيوانات.

قوله: «**أو ليخلقوا حبة**»: «أو» للتنويع أي انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع وليس لها روح.

قوله: «**أو ليخلقوا شعيرة**»:

يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل هذه الشجرة وهي الحبة، ويحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب التنزل من العموم إلى الخصوص.

أو تكون «أو» شكاً من الراوي.

فالله تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة، أو يخلقوا حبة أو شعيرة.

فإن قيل يوجد رز أمريكي مصنوع. أُجيب: أن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: «**أو ليخلقوا حبة**» ثم قال: «**أو ليخلقوا شعيرة**» لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالى: **﴿إن**

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس/باب نقض الصور ٨٢/٤، ومسلم في اللباس والزينة/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان ١٦٧١/٤.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٤.

. . . .

الله فالق الحب والنوى﴾[1]، وقال تعالى: **﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾** أي اجتمعوا لخلقه، متعاونين عليه، وقد هيأوا كل ما عندهم **﴿وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾**[2].

قال العلماء: لو أن الذباب وقع على هذه الأصنام فامتص شيئا من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالبا لهم، «ضعف الطالب» أي العابد والمعبود «والمطلوب» أي الذباب.

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله، تحريمُ التصوير، لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله، والتصوير له أحوال:

الحالة الأولى:

أن يصور الإنسان ما له ظل، كما يقولون، أي ما له جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، فإن قلت إذا صور الإنسان لا مضاهاةً لخلق الله، ولكن صور عبثا، يعني صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئا على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضع لصبي ليهدأه به فهل يدخل في الحديث؟. الجواب: نعم يدخل في الحديث، لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة فمتى حصلت ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنسانا لبس لبسا يختص بالكفار ثم قال أنا لا أقصد التشبه بهم نقول التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحدا تشبه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

. . . .

بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال ما أردت التشبه قلنا له حصل التشبه .

الحالة الثانية :

أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النمرقة حيث أقبل النبي - ﷺ - إلى بيته فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه فقالت عائشة رضي الله عنها : ما أذنبت يا رسول الله فقال : «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يقال لهم أحيوا ما خلقتم**»[1] فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم ، وقوله في صحيح البخاري : «**إلا رقما في ثوب**»[2] إن صحت الرواية هذه فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها .

الحالة الثالثة :

أن تلتقط الصور التقاطا بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين :

فالقول الأول: أنه تصوير وإذا كان كذلك فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة فحركته تعتبر تصويرا فيكون داخلا في العموم .

القول الثاني: أنها ليست بتصوير، لأن التصوير فعل المصور وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله .

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس/باب من كره القعود على الصور ٤/٨٢، ومسلم في اللباس/باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٦٩ عن عائشة، رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الموضع السابق، ومسلم في الموضع السابق ٣/١٦٦٥ .

ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير ثم خرج من هذه الآلة فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا يعـرف الكتـابة إطلاقا أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعا ولا مخططا، ولكن يبقى النظر هل يحل هذا الفعل أو لا؟.

إذا كان لغرض محرم صار حراما، وإذا كان لغرض مباحٍ صار مباحا؛ لأن الـوسـائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا فلو أن شخصاً صور إنسانا لما يسمونه بالذكرى سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه فإن ذلك محرم ولا يجوز، لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه فهذا يكون مباحا، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلى رخصة إلى هذاالمصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره وقال صورني فصوره، فإن هذا المصور لا نقول إنه داخل في الحديث، أما إذا قال صورني لغرض آخر غير مباح صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحالـة الرابعـة:

أن يكون التصوير لما لا روح فيه وهذا على نوعين:

النوع الأول: إن يكون مما يصنعه الآدمي فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة مثل أن يصور الإنسان سيارته فهذا يجوز، لأن صنع الأصل جائز فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

النـوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله فهذا نوعان: نوع نامي، ونـوع غير نامي، فغير النامي كالجبال والأودية والبحار والأنهار فهذا لا بأس بتصويرها بالاتفاق.

ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»[1].

أما النوع الذي ينمو فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله، عز وجل، والحديث عام «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»، ولأن الله ـ عز وجل ـ تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة[2]، والحبة والشعيرة ليس فيها روح لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا فيكون تصويرها حراما وقد ذهب إلى هذا مجاهد، رحمه الله، أعلم التابعين بالتفسير وقال إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومَنْ قال بقوله؟ الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله:

أولا: العموم لقوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**».

ثانيا: قوله: «**أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**». فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يرى رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي:

أن قوله: «**أحيوا ما خلقتم**»[3] وقوله: «**كلف أن ينفخ فيها الروح**»[4] يدل على أن المراد الحيوان ذو الروح.

قوله: «**أشد**»: كلمة أشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى.

قوله: «**الناس**»: للعموم.

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس/باب ما وطيء من التصاوير ٤/٨٢، ومسلم في اللباس/باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٦٨.

(٢) سبق ص (١٩٩).

(٣) سبق ص (٢٠٤).

(٤) ص (٢١٠).

. . . .

وقوله: «**عذابا**»: تخص الناس، يعني أشد الناس الذين يعذبون عذابا. وعذابا تمييز مبين للمراد بالأشد، لأن التمييز كما قال ابن مالك:

اسمٌ بمعنى «مِنْ» مُبينٌ نكرة يُنْصَبُ تمييزا بما قد فَسَّرهْ[1]

والعذاب يطلق على العقاب، ويطلق على ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقابا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿**أدخِلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾[2] أي العقوبة والنكال، لأنه يدخل النار والعياذ بالله ﴿**يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار**﴾[3]، ومن الثاني قول النبي، عليه الصلاة والسلام: «**السفر قطعة من العذاب**»[4] وقوله: «**الميت يعذب بالنياحة عليه**»[5].

قوله: «**يوم القيامة**»:

هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك.

وقوله: «**أشد**» مبتدأ «**والذين يضاهئون**» خبره. ومعنى يضاهئون: أي يشابهون.

بخلق الله: أي بمخلوقات الله، سبحانه وتعالى.

والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية، فالجسمية أن يصنع صورة

---

(١) ألفية ابن مالك ص (٣١).

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٨.

(٤) أخرجه البخاري في العمر/باب السفر قطعة من العذاب ١/٥٤٥، ومسلم في الإمارة/باب السفر قطعة من العذاب ٣/١٥٢٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز/باب ليس منا من شق الجيوب ١/٣٩٨، ومسلم في الإيمان/باب تحريم ضرب الخدود ١/٩٩ عن عمر رضي الله عنه.

. . . .

بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة؛ لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع هذا التلوين الذي يكون وصفاً لخلق الله، عز وجل.

هذا الحديث يدل على أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذابا وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله، عز وجل، وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتُعبد من دون الله، فذلك شيء آخر فمن صنع شيئا ليعبد من دون الله فإنه حتى ولو لم يصور كما لو أتى بخشبة وقال اعبدوها دخل في التحريم، لقوله تعالى: **﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾**[1]، لأنه أعان على الإثم والعدوان.

وقوله: **«يضاهئون»** هل الفعل يشعر بالنية، أو نقول المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟.

الجواب الثاني: لأن المضاهاة حصلت سواء نوى أم لم ينو، لأن العلة هي المشابهة وليست العلة قصد المشابهة، فلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكرى مثلاً وما أشبه ذلك. نقول هذا حرام، لأنه متى حصلت المشابهة ثبت الحكم، لأن الحكم يدور مع علته كما قلنا فيمن لبس لباساً خاصا بالكفار إنه يحرم عليه هذا اللباس، ولو قال إنه لم يقصد المشابهة نقول لكن حصل التشبه، فالحكم مقرون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم.

فيستفاد من الحديث:

١ ـ تحريم التصوير وأنه من الكبائر لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة منه المضاهاة بخلق، الله عز وجل.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

. . . .

---

٢ ـ وجوب حماية جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله، عز وجل، لقوله: «**يضاهئون خلق الله**» ومن أجل هذا حرم الكبر، لأن فيه منـازعة للرب، عز وجل، وحرم التعاظم على الخلق؛ لأن فيه منازعة للرب سبحانه وتعالى، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع ليضاهي خلق الله، فيه منازعة لله ـ عز وجل ـ في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

قوله: «**أشد الناس عذابا**»:

فيه إشكال لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنبا كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذابا، وقد أجيب عن ذلك بوجوه:

الأول: أن الحديث على تقدير «مِنْ» أي من أشد الناس عذابا، بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: «**إن من أشد الناس عذابا**».

الثاني: أن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشاركهم، بل يشاركهم غيرهم قال تعالى: ﴿**ادخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾[1] ولكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط، فكيف يسوى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟.

الثالث: أن الأشدية نسبية يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها أشدهم عذابا الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلى كل حال ليس لنا أن نقـول إلا كما قال النبي ﷺ: «**أشـد النـاس عذابـا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**».

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم»**(١) ولهما عنه مرفوعا: **«من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»**(٢).

قوله: **«كل مصور في النار»**:

كل: من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

فيشمل من صور الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار.

قوله: **«يُجعل له بكل صورة صورها نفس»**: الحديث في مسلم ولفظه **«يَجعلُ»** وعلى هذا تكون «نفساً» بالنصب.

قوله: **«يعذب بها»**: كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: **«كل مصور في النار»**:

هذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود؛ لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر؛ لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبدا، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها.

وقوله: **«بكل صورة صورها»**:

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع/باب بيع التصاوير ٢/ ١٢٠، ومسلم في اللباس/باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/ ١٦٧١.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس/باب من لعن المصور ٤/ ٨٣، ومسلم في الموضع السابق ٣/ ١٦٧١.

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[1].

يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة، فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: انفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقى في النار معذبا حتى تنتهي هذه الصور.

قوله: «**كلف**»:

أي ألزم، والمكلِّف له هو الله، عز وجل.

قوله: «**وليس بنافخ**»:

أي كلف بأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه، وعذب بهذا الفعل ليذوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه حيث إنه عذب بما كان في الدنيا يراه راحة له إما باكتساب أو إرضاء صاحب أو إبداع صنعة.

قوله: «**عن أبي الهياج**»: هو من التابعين.

قوله: «**قال لي علي**»: هو علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

قوله: «**ألا أبعثك**»: البعث: الإرسال بأمر مهم كالدعوة إلى الله قال، تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا**﴾[2].

قوله: «**على ما بعثني**».

يحتمل أن تكون «على» ظاهرها للاستعلاء؛ لأن المبعوث يمشي على ما بعث عليه، كأنه طريق له وهذا هو الأولى؛ لأن ما وافق ظاهر اللفظ من المعاني فهو أولى باللفظ، ويحتمل أن «على» بمعنى الباء أي بما بعثني عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز/باب الأمر بتسوية القبر ٢/٦٦٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

. . . .

وقد بعث النبي - ﷺ - عليا إلى اليمن، وقدم على النبي - ﷺ - وهو في مكة في حجة الوداع[1].

قوله: «**أن لا تدع**»:

«أن» مصدرية، «لا» نافية، «تدع» منصوب بأن المصدرية وهي بدل بعض من كل من «ما» في قوله: «**على ما بعثني**» لأن النبي - ﷺ - بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ.

قوله: «**صورة**»: نكرة في سياق النفي فتعم.

وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو تصوير الحيوان فقط لما ورد في الصحيح من حديث جبريل أن النبي - ﷺ - قال: «**فمر برأس التمثال فليقطع حتى يكون كهيئة الشجرة**»[2].

وقال مجاهد: إن الشجر المثمر يحرم أن يصور لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**فليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**»[3].

قوله: «**إلا طمستها**»:

إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالاً فإنه يقطع رأسه كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه، فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تُعبد من دون الله أو لا.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي/باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن ١٦٢/٣، ومسلم في الحج/باب بيان وجوه الإحرام ٨٨٣/٢.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠٥/٢، وأبو داود في اللباس/باب في الصور ٣٨٨/٤، والترمذي في الأدب/باب ما جاء أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ٣٥/٨ وقال: «حسن صحيح».

(٣) سبق ص (٢٠٢).

. . . .

قوله: «**ولا قبرا مشرفاً**»: أي عالياً.

قوله: «**إلا سويته**»: له معنيان:

الأول: أي سويته بما حوله من القبور.

الثاني: جعلته حسنا على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿**الذي خلق فسوى**﴾[1] أي: سوى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان.

والإشراف له وجوه:

الأول: أن يكون مشرفا بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصايل) أو (نصائب).

الثاني: أن يبني عليه وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ: «**لعن المتخذين عليها المساجد والسرج**»[2].

الثالث: أن تشرف بالتلوين وذلك بأن يوضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

فكل شيء مشرف أي ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك.

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور:

أن كلاً منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثانا تعبد من دون الله، وهذا ما وقع في البلاد الإسلامية، وقد أطال الشارح ـ رحمه الله ـ في هذا الباب أطال الكلام

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ٢.

(٢) سبق (١/٤٣٥).

. . . .

على البناء على القبور وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة ومنتشرة، ما عدا بلادنا، ولله الحمد، فإنها سالمة من ذلك نسأل الله أن يديم عليها وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها.

عقوبـة المصـور مايلـي :

١ ـ أنه أشد الناس عذابا.

٢ ـ يجعل له في كل صورة روحا يعذب بها في نار جهنم.

٣ ـ يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

٤ ـ أنه في النـار.

٥ ـ أنه ملعون كما في حديث أبي جحيفة[1].

فائدتـــان :

الأولى: «**كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**»[1] يقتضي أن المراد التصوير، تصوير الجسم كاملاً وعلى هذا فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحـده بلا رأس فالـظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق لقوله: «**مر برأس التمثال فليقطع**» ولم يقل فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد أما بقية الجسم بلا رأس فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثاني: يؤخذ من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ وهو قوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها**» أنه لا يجوز اقتناء الصور وهذا محل تفصيل، فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصوَّر، لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك، فهذا حرام بلا شك ولا تدخل الملائكة بيتا فيه هذه الصـورة، لأن تعـظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب

---

(١) سبق ص (٢١٠).

. . . .

الربوبية، وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهذا حرام أيضا، لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حنانا أو تلطفا كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضا حرام للحوق الوعيد به في قوله ﷺ: «**إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة**»[1].

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقا، ولكنها تأتي تبعا لغيرها كالتي تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك، فالظاهر أن هذا لابأس به؛ لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة فهو أولى.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مُهانةً ملقاة في الزبل، أو مفترشة، فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة، لأن في ذلك امتهانا للصورة، ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟ الجواب: نقول لا يلحق بذلك بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه، لظهور الفرق بينهما وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة سواء كان قميصاً أم سراويل أم عمامة أم غيرها.

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس/باب من لم يدخل بيتاً فيه صورة ٤/٨٣، ومسلم في اللباس/باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/١٦٦٩ عن عائشة، رضي الله عنها.

. . . .

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾[1].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشـديد في المصورين. **الثانية**: التنبيه على العلة وهـو ترك الأدب مع الله لقوله: ﴿**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**﴾. **الثالثة**: التنبيه على قدرته وعجزهم لقوله: ﴿**فليخلقوا ذرة أو شعيرة**﴾. **الرابعة**: التصريح بأنهم أشد الناس عذابا. **الخامسة**: أن الله يخلق بعـدد كل صورة نفسـا يعـذب بها المصـور في جهنم. **السادسة**: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح. **السابعة**: الأمر بطمسها إذا وجدت.

فيـه مسائـل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين: تؤخذ من قوله: «**أشد الناس عذابا**» الحديث.

الثانية: التنبيه على العلة وهي ترك الأدب مع الله: تؤخذ من قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**» فمن ذهب يخلق كخلق الله فهو مسيء للأدب مع الله، عز وجل، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه.

الثالثة: التنبية على قدرته وعجزهم لقوله: «**فليخلقوا ذرة أو شعيرة**»: لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة.

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً: لقوله: «**أشد الناس عذاباً**» الحديث.

الخـامسـة: أن الله يخلق بعـدد كل صورة نفسا يعذب بها المصور في جهنم: لقوله: «**يجعل له بكل صورة صورها نفسا يعذب بها في جهنم**».

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح لقوله: «**كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**».

. . . .

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت: لقوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها**».

ويؤخـذ من حديث الباب أيضاً الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور: لقوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرا مشرفا إلا سويته**»، لأن في كلٍّ منهما وسيلةً إلى الشرك.

ويؤخـذ منه أيضاً: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل، لأنه يجعل له بكل صورة صورها نفسا يعذب بها في جهنم.

باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿واحفظوا أيمانكم﴾[1]

الحلف بغير الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يعتقد الحالف أن المحلوف به يستحق من التعظيم مثل ما يستحق الله، فهذا شرك أكبر.

الثاني: أن لا يعتقد ذلك فهو شرك أصغر.

ومراد المؤلف بهذا الباب الحلف بالله، لا الحلف بغير الله.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله ـ تعالى ـ من تمام التوحيد.

قوله: «**واحفظوا أيمانكم**»:

هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط، فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقا فقد بر وإلا فهو آثم، لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مستقبل.

لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن ولم يحصل فقيل تلزمك كفارة. وقيل:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

. . . .

لا تلزمك وهو الصحيح كما لو حلفت على ماض، مثاله:

قلت: والله ليقدمن زيد غداً بناء على ظنك فلم يقدم فالصحيح أنه لا كفارة عليك، لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل، كأنك تقول: والله إن هذا هو ظني.

إذن قوله: «**واحفظوا أيمانكم**»: بعد أن ذكر اليمين والكفارة والحنث فما المراد بحفظ اليمين هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أي: هل المراد لا تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد إذا حلفتم فلا تحنثوا؟ أو المراد إذا حلفتم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة؟.

الجواب: المراد كلها فتشمل أحوال اليمين الثلاثة، ولهذا جاء المؤلف بها في هذا الباب، لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف.

والمراد بعدم كثرة الحلف ما كان معقودا ومقصوداً، أما ما يجرى على اللسان بلا قصد مثل: لا والله، وبلى والله في عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيه، لقوله تعالى: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾(١).

وكذلك مِنْ حِفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل، لأن النبي - ﷺ - قال لعبد الرحمن بن سمرة: «**إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير**»(٢). فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيرا، وإلا فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث. مثال ذلك:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان/باب قول الله تعالى: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ ٤/٢١٤، ومسلم في الأيمان/باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ٣/١٢٧٤ عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

. . . .

رجل قال: والله لا أكلم فلانا، وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم، فهذا يجب أن يحنث في يمينه ويكلمه. مثال آخر:

رجل قال: والله لأعينن فلانا على شيء محرم، فهذا يجب الحنث فيه ولا يعينه، لقوله تعالى: ﴿**ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾[1] وإذا كان الأمر متساويا والحنث وعدمه سواء في الإثم فالأفضل حفظ اليمين.

كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث. والكفارة واجبة فوراً، لأن الأصل في الواجبات الفورية؛ وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة وهذا على سبيل التخيير فمن لم يجد مطعما أو إطعاما فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة[2].

فحفظ اليمين له ثلاثة معان:

١ ـ حفظها ابتداء وذلك بعدم كثرة الحلف.

٢ ـ حفظها وسطا وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثني كما سبق[3].

٣ ـ حفظها انتهاء في إخراج الكفارة بعد الحنث.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك معنى رابع وهو أن لا يكون القسم بغير الله، لأن الرسول ـ ﷺ ـ سمى الحلف بغير الله يمينا.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) أخرجها أحمد في المسند ٢/٢٣٥، ٢٤٢، ٤١٣.

(٣) أخرجها ابن جرير ٧/٣١، رقم (١٢٥٠٣)، وعبدالرزاق (١٦١٠٢)، والبيهقي ١٠/٦٠ وإسنادها صحيح كما في الإرواء ٨/٢٠٣.

وعن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب**» أخرجاه[1].

قوله: «**الحلف**»:

المراد به الحلف الكاذب كما بينته رواية أحمد: «**اليمين الكاذبة**»[2] أما الصادقة فليس لها عقوبة.

قوله: «**منفقة للسلعة**»:

أي ترويج للسلعـة، مأخـوذة من النَّفَـاق وهـو مضي الشيء ونفاذه، والحلف على السلعة قد يكون حلفا على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها ملك فلان، وهي مشهورة بالجودة وليست ملكه.

النوع: كأن يحلف أنها من الحديد، وهي من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهي رديئة.

القيمة: كأن يحلف أن قيمتها بعشرة، وهي بثمانية.

قوله: «**ممحقة للكسب**»:

أي متلفة له، والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي بأن يسلط الله على ما له ما يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي بأن ينزع الله البركة من ماله فلا ينتفع به لا دينا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع بها صار ـ والعيـاذ بالله ـ بخيلا يعيش عيشة الفقراء وهو غني، لأن البركة قد محقت.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع/باب يمحق الله الربا ٢/٨٤، ومسلم في المساقاة/باب النهي عن الحلف في البيع ٣/١٢٢٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٣٥، ٢٤٣، ٤١٣.

وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم أشيمط زانٍ، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه**»[1] رواه الطبراني بسند صحيح.

قوله: «**ثلاثة**»: مبتدأ، وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: «**لا يكلمهم الله**»:

التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه فلا يسمى كلاما على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قولا بالتقييد بالنفس، كقوله تعالى: ﴿**ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله**﴾[2] وقال عمر رضي الله عنه - في قصة السقيفة - زوّرت في نفسي كلاما[3] أي قدرته.

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس في كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم في الصواعق المرسلة.

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأخذنا منهما عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات، لأنه ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا، وعليه فكلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله فلا شك أنه بحرف يفهمها المخاطب إذ لو كان يتكلم

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١١١)، والصغير ٢/٢١، والأوسط كما في المجمع وقال المنذري في الترغيب ٢/٥٨٧، والهيثمي في المجمع ٤/٧٨: «ورواته محتج بهم في الصحيح».

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٨.

(٣) أخرجه البخاري في الحدود/باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ٤/٢٥٨.

. . . .

بحروف لا تشبه الحروف التي نتكلم بها لم يفهم كلامه أبداً، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله ـ عز وجل ـ يخاطب كل أحد بلغته.

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله، لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم.

وبهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: **﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾**[1] فلما حجب الفجار عن رؤيته إلا ورآه الأبرار، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقا لكن الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله ـ عز وجل ـ عن كل أحد فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه سبحانه أن يكون له آلة كالآدمي كاللسان، والأسنان، والحلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أذن، فالأرض مثلا تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان قال تعالى: **﴿يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها﴾**[2] وكذا الجلد ينطق يوم القيامة قال تعالى: **﴿حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾**[3] وكذا الأيدي والأرجل قال تعالى: **﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾**[4] فالأيدي والأرجل والألسن ليس لها لسان ولا شفتان.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٥.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

(٤) سورة النور، الآية: ٢٤.

. . . .

فإن قيل: إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرماً وهم أهل النار؟.

فالجواب: أن المراد بنفي الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

قوله: «**ولا يزكيهم**»:

التزكية بمعنى التوثيق، والتعديل، فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم ولا يشهد لهم بالإيمان لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

قوله: «**ولهم عذاب أليم**»:

عذاب: عقوبة، وأليم: أي شديد موجع مؤلم.

قوله: «**أشيمط**»:

هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنا، ولكنه زنا مما دل على خبث في إرادته، ولأنه عادة قد بلغ أشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقلة أكثر من هواه، فالزنا منه غريب إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله فصار السبب المقتضي لزناه ضعيفا، والحكمة التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأن تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل ولكنه خالف مقتضى ذلك ولهذا صغره تحقيرا لشأنه فقال: «**أشيمط**» تصغير أشمط.

قوله: «**زانٍ**»:

صفة لأشيمط وهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة والحركة التي على النون ليست حركة إعراب.

والزنا فعل الفاحشة في قبل أو دبر، وقد نهى الله عنه وبين أنه فاحشة فقال: ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾[1].

(1) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

. . . .

قوله: «**عائل مستكبر**»:

أي فقير قال تعالى: ﴿**ووجدك عائلا فأغنى**﴾[1] فالمقابلة هنا في قوله: «**فأغنى**» بينت أن معنى عائلا: فقيرا.

والاستكبار الترفع والتعاظم وهو نوعان: استكبار عن الحق بأن يرده أو أن يترفع عن القيام به.

واستكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم كما قال النبي ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[2].

وأما الفقير فداعي الاستكبار عنده ضعيف فيكون كبره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته ولذلك كانت عقوبته أشد.

قوله: «**ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه**»:

أي جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا لأن النبي ﷺ هو الذي فسره بذلك حيث قال: «**لا يشتري إلا بيمينه. . . .**» وإذا كان المتكلم هو الذي أخرج كلامه عن ظاهره فهو أعلم بمراده وهذا كما في الحديث القدسي: «**عبدي استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني**» فبينه الله عز وجل بقوله: «**عبدي فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه**»[3].

فقوله: «**لا يبيع إلا بيمينه، ولا يشتري إلا بيمينه**»: استئنافية تفسيرية لقوله: «**جعل الله بضاعته**».

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٨.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان/باب تحريم الكبر ١/٩٣ عن ابن مسعود، رضي الله عنه.

(٣) سبق ص (١٠٣).

. . . .

واستحق هذه العقوبة العظيمة لاستهانته بالله فإن كان كاذبا جمع بين أربعة أمور محذورة:

١ - استهانته بالله عز وجل.

٢ - كذبه.

٣ - أكله المال بالباطل.

٤ - أن يمينه يمين غموس وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امريء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»(١) وكل ما في هذا الحديث يجب أن نتربى به وبمقتضاه، بمعنى أن نتجنب هذه الأمور، وما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء بل نحن أعظم ولذلك لا ينبغي أن تمر علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضا بوصفنا مما أتاهم الله العلم أن نحذر الناس منه لنكون وارثين للرسول ﷺ، فالنبي ﷺ كان عالماً عاملاً داعياً، أما طالب العلم فإنه ليس وارثا للرسول عليه الصلاة والسلام حتى يقوم بما قام به من العمل والدعوة، فعلينا أن نحذر إخواننا المسلمين في هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم لا يبيعون إلا بأيمانهم ولا يشترون إلا بأيمانهم.

مناسبة الحديث للباب:

أن من جعل الله بضاعته فإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري الأيمان/باب قول الله تعالى: **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا﴾** ٤/٢٢، ومسلم في الأيمان/باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة ١/١٢٢ عن ابن مسعود، رضي الله عنه.

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا، ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»**[(١)].

قوله: **«وفي الصحيح»**: أي الصحيحين، ولعل المؤلف رحمه الله تعالى اطلع على الحديث في أحد الصحيحين فنقله منه، أو المراد في الصحيح بقطع النظر عن الاصطلاح.

قوله: **«خير أمتي قرني»**: خير مبتدأ، وقرني خبر.

وفي لفظ البخاري: **«خيركم قرني»** وفي حديث ابن مسعود: **«خير الناس قرني»**[(٢)] وهذا هو المراد، إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عموما، وليس للأمة فقط ولهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: **«بعثت من خير قرون بني آدم»**[(٣)].

وعليه فالخيرية في القرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط.

وأما قوله: **«خير أمتي»**: فإنه يقال إن الخيرية إذا كانت مضافة إلى عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقيت الناس، والأخذ بالعموم الداخل فيه الخاص أولى وقد يقال: إن معنى اللفظين

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات/باب لا يشهد على شهادة جور ٢/٢٥١، ومسلم في فضائل الصحابة/ باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ٤/١٩٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الموضع السابق ٢/٢٥١، ومسلم في الموضع السابق ٤/١٩٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب/باب صفة النبي ﷺ ٢/٥١٧ عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

. . . .

واحد فإن هذه الأمة خير الأمم فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن: مأخوذ من الاقتران والمراد الطائفة المقترنون بشيء من الأشياء كالملة، أو السن وما أشبه ذلك.

وبعض العلماء عرفه: بالطائفة كما سبق، وبعضهم عرفه بالزمن وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال:

فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بمائة، ومنهم من حده بمائة وعشرين سنة.

والمشهور: أنهم الطائفة المشتركون بشيء من الأشياء كالصحبة مثلاً، أو مائة سنة.

فيكون معنى: «خير أمتي قرني» خير أمتي الصحابة سواء بلغوا مائة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مائة وعشرة أو مائة وعشرين، فإذا قلنا: مائة وعشرين فهذه المدة زائدة على المائة.

وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مائة وثلاثاً وثلاثين سنة؛ لأن التقويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشرة سنة وهذا القرن الأول، أما التابعون فإن آخرهم مات سنة مائة وثمانين فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعوا التابعين فإن آخرهم مات سنة مائتين وعشرين وهذا منتهى القرن الثالث.

فقرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار [١٣٣] سنة، وإن ابتدأته من الهجرة صار [١٢٠] سنة.

وقرن التابعين [٦٠] سنة.

وقرن تابع التابعين [٤٠] سنة.

. . . .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس فإذا كان معظم الناس الصحابة فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين فالقرن قرنهم وهكذا قوله:

«**أمتي**»: المراد أمة الإجابة؛ لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير.

قوله: «**فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً**»: وإذا كان عمران لا يدري فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.

قوله: «**ثم إن بعدكم قوم**»: وفي رواية البخاري «**ثم إن بعدكم قوما**» بنصب «قوما» وهذا لا إشكال فيه لكن في هذه الرواية برفع «قوم»[1] فيه إشكال لأن «قومٌ» اسم إن وقد اختلف العلماء في هذا:

فقيل: على لغة ربيعة الذين لا يقفون على المنصوب بالألف، فلم يثبت الكاتب الألف فصارت «قوم».

وهذا جواب ليس بسديد؛ لأن الرواية ليست مكتوبة فقط بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن «**إن**» اسمها ضمير الشأن محذوف، فألحقها بإن المخففة لإن «إن» المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن

فإن المشـددة هنا حملت على إن المخففة فاسمها ضمير الشأن محذوف وعليه يكون «بعدكم» خبر مقدم و«قوم» مبتدأ مؤخر والجملة خبر «إنّ».

---

(١) انظر فتح الباري ٧/٧.

. . . .

وقيل: «**إن**» هنا بمعنى نعم فيكون المعنى ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكلف.

والظاهر: القول الثاني إن صحت الرواية.

قوله: «**يشهدون**»:

أي يخبرون عما علموه مما شاهدوه، أو سمعوه، أو لمسوه، أو شموه، لأن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلم قال تعالى: ﴿**إلا من شهد بالحق وهم يعلمون**﴾[1]. ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلانا يقول: «إن العشرة في الجنة ولا أشهد» فقال: إن قاله فقد شهد.

قوله: «**ولا يستشهدون**»:

أي لا تطلب منهم الشهادة، واختلف العلماء في ذلك:

فقيل: «**لا يستشهدون**» أي لا يطلب منهم تحمل الشهادة فيكون المراد الذين يشهدون بغير علم.

وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة، فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يدعي لأدائها، فيكون ذلك دليلا على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها**»[2] بدليل قوله: «**ألا أخبركم بخير الشهداء**» وظاهره: أنه معارض لحديث عمران فجمع بعض العلماء بينهما بأن

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية/باب خير الشهود ٣/١٣٤٤.

. . . .

المراد بحديث زيد من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

وجمع بعض العلماء: بأن المراد بحديث زيد من يشهد بشيء من حقوق الله تعالى؛ لأن حقوق الله تعالى ليس لها مطالب فيؤدي الشهادة من غير أن يسألها.

وجمع بعضهم: بأن المراد بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة بأداء الشهادة، فكأنه لشدة إسراعه يؤديها قبل أن يسألها.

وبعض العلماء: رجح حديث عمران؛ لأنه في الصحيحين على حديث زيد بن خالد لأنه في مسلم.

ولكن إذا أمكن الجمع فلا يجوز الترجيح، والجمع هنا ممكن كما تقدم.

قوله: «**يخونون ولا يؤتمنون**»:

هذا هو الوصف الثاني لهم، أي: أنهم أهل خيانة وليسوا أهل أمانة، وليس المعنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال لماذا لم يقل: يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم فلخيانتهم لا يؤتمنون.

الخيانة: الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال.

وأما المكر والخديعة، فهي مذمومة في حال دون حال فقد يكون محمودا، ولهذا يوصف الله سبحانه وتعالى بالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مدحاً قال تعالى: ﴿**ويمكرون ويمكر الله**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**يخادعون الله وهو خادعهم**﴾[2].

وأما الخيانة فلا يوصف بها أبداً ولهذا كان قول العامة: خان الله من خان حراماً؛ لأنهم وصفوا الله بما لا يصح أن يوصف به قال الله تعالى: ﴿**وإن**

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.　　(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

. . . .

يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾[1] ولم يقل فخانهم.

قوله: «**ولا يؤتمنون**».

أي ليسوا أهلا للأمانة، فلا يؤتمنون على الدماء، ولا الأموال، ولا الأعراض ولا أي شيء، والظاهر: أن هذا في القرن الرابع فما بالك بالقرن الخامس عشر وفي حديث آخر: «**ويفشو بينهم الكذب**»[2].

قوله: «**وينذرون ولا يوفون**» هذا هو الوصف الثالث لهم.

النذر: إلزام الإنسان نفسه بالشيء، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله كنذر العبادة يجب الوفاء به فهم ينذرون لله ولا يوفون له ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له وهذا من صفات النفاق.

قوله: «**ويظهر فيهم السِّمَن**»: هذا هو الوصف الرابع لهم.

السمن: كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان فكيف يجعلها صفة ذم؟

قال أهل العلم: المعنى أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها.

أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه فلا يذم عليه كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧١.

(٢) أخرجه أحمد ١٨/١، والترمذي في الفتن/باب ما جاء في لزوم الجماعة ٣٣٣/٦ وقال: «حسن صحيح غريب»، وابن ماجه في الأحكام/باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ٧٩١/٢ عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**».

قال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»(1).

قوله: «**خير الناس**» دليل على أن قرنه خير الناس، فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ.

قوله: «**ثم يجيء قوم**» أي بعد القرون الثلاثة قوله:

«تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

اختلف في ذلك على وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين، فتارة تسبق الشهادة، وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة، ولا باليمين حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان.

والمعنيان لا يتنافيان فيحمل عليهما الحديث جميعا.

وقوله: «**ثم يجيء قوم**»: يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف، لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، والفرق واضح.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد،

---

(1) أخرجه البخاري في الشهادات/باب لا يشهد على جور ٢/٢٥١، وأيضاً أخرجه في فضائل الصحابة (٣٦٥١)، وفي الرقاق (٦٤٢٩)، وفي الأيمان (٦٦٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة/باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ٤/١٦٩٢، ١٦٩٣.

وقوله: «ثم الذين يلونهم» الثالثة ليست في الصحيحين، وهي في المسند ١/٣٧٨، ٤١٧.

. . . .

فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحبة فلا يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علماً وعبادة.

قوله: «**وقال إبراهيم**»:

هو إبراهيم النخعي من التابعين، ومن فقهائهم.

قوله: «**كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار**»: في نسخة: «**على الشهادة والعهد**» والظاهر: أن الذي يضربهم ولي أمرهم.

وقوله: «**على الشهادة**»: أي يضربوننا عليها إن شهدنا زوراً، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها.

قوله: «**والعهد**»: أي: إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله: «**ونحن صغار**»: الجملة حالية وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبي تقبل منه الشهادة؛ لأن قوله: «**ونحن صغار**» أي لم يبلغوا وهذا محل خلاف بين أهل العلم:

فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغا، فإذا تحمل وهو صغير لم تقبل منه حتى يبلغ.

وقال بعضهم: شهادة الصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملاً وأداءً؛ لأن البالغ يندر أن يوجد بين الصغار.

وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا في الحال؛ لأنه بعد التفرق يحتمل النسيان، أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا وإلا لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان.

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبي على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب.

فيه مسائل:

الأولى: الـوصية بحفظ الأيمان. **الثانية**: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة. **الثالثة**: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشـتري إلا بيمينـه. **الـرابعة**: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي. **الخامسة**: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

فيـه مسائـل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان:

تؤخذ من قوله، تعالى: ﴿**واحفظوا أيمانكم**﴾ والأمر وصية.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة:

تؤخذ من قوله ﷺ: «**الحلف منفقة للسلعة**....».

الثالثة: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه:

تؤخـذ من قولـه ﷺ: «**ورجـل جعـل الله بضـاعتـه لا يشـتري إلا بيمينه... إلخ**».

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي: تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني، والعائل المستكبر، وغلظ في عقوبتهم؛ لأن الداعي عندهم قليل.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون:

لقوله ﷺ: «**ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه**....».

ولكن هذا ليس على إطلاقه بل النبي - ﷺ - حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل أمره الله سبحانه أن يحلف بقوله: ﴿**ويستنبئونك أحق هو، قل إي وربي**﴾(١) وهو لم يستحلف.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٣.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث. **السابعة**: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون. **الثامنة**: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

وقوله: «**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن**»[1] وقوله: «**وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم**»[2] وعليه فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه، أو اقتضته المصلحة فإنه جائز، بل قد يكون مندوبا إليه كحلف النبي - ﷺ - في قصة المخزومية حيث قال: «**وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[3] فقد وقع موقعاً عظيماً من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية، وممن يأتي بعدهم.

السادسة: ثناؤه - ﷺ - على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث:

تؤخذ من قوله، ﷺ: «**خير الناس قرني....**» وقوله: أو الأربعة، بناء على الشك.

وقوله: «**وذكر ما يحدث**» لو جعلت هذه مسألة مستقلة لكان أبين وأوضح؛ لأن الإخبار عن شيء مستقبل ووقوعه كما أخبر دليل على رسالته ﷺ.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون:

تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد:

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٧.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٣) أخرجه البخاري في الحدود/باب كراهة الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان ٤/٢٤٨، ومسلم في الحدود/باب قطع السارق الشريف ٣/٣١٥ عن عائشة، رضي الله عنها.

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه[1]

وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها[2] . . . ﴾ الآية.

الذمة: العهد، وسمي بذلك؛ لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته.

والله له عهد على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

وللعباد عهد على الله، وهو: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا. قال الله، تعالى: **﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾** فهذا عهد الله عليهم ثم قال: **﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾**[3] وهذا عهدهم على الله.

قوله: **﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾**[4]، وللنبي - صلى الله عليه وسلم - عهد على الأمة وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يبتدعوا فيها، وللأمة عليه

---

(١) قال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد ص (٣٨٢): «أي من الدليل على وجوب حفظها والوفاء بها، والمراد التي تدخل في العهود وأن عدم الوفاء عدم تعظيم له، فهو قدح في التوحيد».

(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

. . . .

عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئا.

وقد أخبر النبي - ﷺ - أنه ما من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما هو خير[1].

والمراد بالعهد هنا ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي - ﷺ - وأهل مكة في صلح الحديبية.

قوله: «**وأوفوا**»:

أمر من الرباعي من أوفى يوفي، والإيفاء إعطاء الشيء تاماً، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

قوله: «**بعهد الله**»:

يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله، أي بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم، لأن فاعل الفعل يقتضي المشاركة من الجانبين.

قوله: «**إذا عاهدتم**»:

فائدتها التوكيد والتنبيه على وجوب الوفاء، أي: إذا صدر منكم العهد فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء ثم أكد ذلك بـ قوله:

«**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**» نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبّه العهد بالعقدة لأنه عقد بين المتعاقدين.

قوله: «**بعد توكيدها**»:

توكيد الشيء بمعنى تثبيته، والعهود توكد يقال وكد الأمر وأكده تأكيداً وتوكيداً، والواو أفصح من الهمزة.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة/باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ٤/١٤٧١ عن عبد الله بن عمرو ابن العاص، رضي الله عنه.

وعن بريدة قال: «كـان رسـول الله ـ ﷺ ـ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً فقال:

قوله: **«وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً»**:

الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ على نقض العهد واليمين.

ووجه جعل الله كفيلاً؛ لأن الإنسان إذا عاهد غيره قال: أعاهدك بالله، أي أنه جعل الله عليه كفيلاً.

قوله: **«إن الله يعلم ما تفعلون»**:

ختم الله الآية بالعلم تهديداً عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعل فإنه لا ينقض العهد.

ومناسبة الآية للترجمة:

واضحة جداً، لأن الله قال: **﴿أوفوا بعهد الله﴾** وقال: **﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾**.

قوله: **«إذا أَمَّرَ»**: أي جعله أميراً والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ، والحكم والفتوى والإمامة.

قوله: **«أو سرية»**: هذه ليست للشك، بل للتنويع فإن الجيش ما زاد على أربعمائة رجل والسرية مادون ذلك.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ ـ قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر.

ب ـ قسم يُنفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

جـ ـ قسم ينفذ في الرجعة وذلك بعد رجوع الجيش.

وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة، فلسرية الابتداء الربع بعد

. . . .

الخمس؛ لأن الجيش وراءها فهو ردء لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس، لأن الجيش قد ذهب عنها فالخطر عليها أشد.

وهذا الذي تعطاه السريتان راجع إلى اجتهاد الإمام إن شاء أعطى وإن شاء منع، حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله: **«أوصاه»**:

الوصية الأخبار بشيء على وجه الاهتمام.

قوله: **«بتقوى الله»**: التقوى هي: امتثال آوامره واجتناب نواهيه، وهي مأخوذة من الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وقال بعضهم:

التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

وقال بعضهم:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التقى

واعمل كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذرُ ما يرى

لا تحقِرَنَّ صغيرةً ... إن الجبالَ من الحصى

وهذه التعريفات كلها تؤدي معنى واحداً.

وكانت الوصية بالتقوى لأمير الجيش؛ لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفع يخشى منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته.

قوله: **«وبمن معه من المسلمين خيراً»**:

أي أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيراً في أمور الدنيا والآخرة، فيسلك بهم ا لأسهل ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع

اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغـدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركـين

عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب على من تولى أمراً من أمور المسلمين أن يسلك بهم الأخير، بخلاف عمل الإنسان بنفسه فإنه لا يلزم إلا بالواجب.

قولـه: «**اغزوا باسم الله**»: يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائماً مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتتح الغزو باسم الله.

والأول أظهر والثاني أيضاً محتمل، لأن بعث الجيوش من الأمور ذات البال وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر.

قوله: «**في سبيل الله**»:

متعلق بـ «اغـزوا»، وهـو تنبيه من الـرسـول ـ ﷺ ـ على حسن النية والقصد؛ لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدى الحسنيين ما كان خالصاً لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليُرى مكانه أو لطلب دنيا.

فإن قاتل لأجل الوطن: فمن قاتل لأنه وطن إسلامي تجب حمايته وحماية المسلمين فيه فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط فهو حمية، وليس في سبيل الله.

وقوله: «**في سبيل الله**» تشمل النية والعمل، فالنية سبقت.

والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

قوله: «**قاتلوا من كفر بالله**»:

. . . .

قاتلوا: فعل أمر وهو للوجوب، أي يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله، قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾[2] فإذا قاتلنا الذين يلوننا فأسلموا نقاتل من وراءهم وهكذا إلى أن نخلص إلى مشارق الأرض ومغاربها.

و (مَنْ) اسم موصول، واسم الموصول وصلته يفيد العِلِّيَّة أي لكفره، فنحن لا نقاتل الناس عصبية.

والكفر مداره على أمرين: الجحود، والاستكبار.

أي استكبار عن طاعته، أو جحود لما يجب قبوله وتصديقه.

قوله: «**اغزوا**»: تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول لا تحقروا الغزو واغزوا بجد.

قوله: «**ولا تَغُـلُّوا**»:

الغلول: أن يكتم شيئا من الغنيمة، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿**ومن يغلل يأتِ بما غل يوم القيامة**﴾[3] أي معذباً به. قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته.

وما فيه روح لأنه لا يجوز تعذيبه بالنار.

قوله: «**ولا تغدروا**»: الغدر الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد فلنا ذلك، لأن الحرب خدعة، وقد ورد أن علي بن أبي طالب خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه فلما

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

أقبل الرجل على علي قال علي ما خرجت لأبارز رجلين، فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده فقتله علي رضي الله عنه.

وليعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن لا يكون بيننا وبينهم عهد فيجب، قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحال الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم، لقوله تعالى: **﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾**[1] وقوله: **﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾**.

الحال الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم، لقوله تعالى: **﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾**[2].

قوله: **«ولا تمثلوا»**:

التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء، كالأنف واللسان وغيرهما، وذلك عند أسرهم، وذلك أنه لا حاجة إليه، لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك:

فقيل: لا يمثل بهم للعموم، والنبي - ﷺ - لم يستثن شيئاً، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم، فقد يكون لا يرضى بما فعل قومه فكيف نمثل به؟

وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا، لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر وهو قوله تعالى: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**[3]

---

(١) سورة براءة، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

. . . .

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا فقد يفسر هذا بأنه ضعفٌ، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثاني.

فإن قيل قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟

فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله - عز وجل - يخاطب اليهود في عهد الرسول - ﷺ - بأمور جرت في عهد موسى قال تعالى: **﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾**[1] وقال تعالى: **﴿وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾**[2] وما أشبه ذلك.

قوله: «**ولا تقتلوا وليداً**»: أي لا تقتلوا صغيراً، لأنه لا يقاتِل، ولأنه ربما يسلم.

وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فانٍ ولا امرأة[3]،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

(٣) حديث ابن عمر رضي الله عنهما «أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان».

أخرجه البخاري في الجهاد/باب قتل الصبيان ٢/٣٦٢، ومسلم في الجهاد/باب تحريم قتل النساء ٣/١٣٦٤.

وحديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة. . .**».

أخرجه أبو داود في الجهاد/باب في دعاء المشركين ٣/٨٦.

وقال الشوكاني في النيل ٧/٢٤٦: «وحديث أنس في إسناده خالد الفِزْر وليس بذلك».

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه أن النبي ﷺ قال: «**لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا** =

فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابونك فاقبل منهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين.

إلا أن يقاتلوا، أو يحرضوا على القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب كما قتل دريد ابن الصمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه[1].

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل الإسلام ولكنه لحماية الإسلام بدليل أننا لا نقاتل هؤلاء، ولو كان من أجل الإسلام لقتلناهم، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة في ذلك اسمها «قتال الكفار».

قوله: **«وإذا لقيت عدوك»**:

أي قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجاً لقتالهم؛ لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، ولهذا قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾**[2] وهذا أبلغ من قوله في آية أخرى **﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾**[3].

والعدو ضد الولي، والولي ضد العدو، وهو من يتولى أمورك ويعتني بك بالنصر، والعدو يخذلك ويبتعد عنك.

= تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع» أخرجه أحمد ١/٣٠٠، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/٢٢٥.

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير ٢/١٠٣: «وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وهو ضعيف».

(١) أخرجه البخاري في المغازي/باب غزوة أوطاس ٣/١٥٦.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

. . . .

قوله: «**من المشركين**»: يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى وعبدة الأوثان.

قوله: «**خصال أو خلال**»: بمعنى واحد وعليه فـ[أو] للشك.

قوله: «**فأيتهن ما «أجابوك**»: أيتهن اسم شرط مبتدأ «ما» زائدة وهي تزاد بالشرط تأكيداً للعموم كقوله تعالى: ﴿**أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى**﴾[1]، والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط محذوف والتقدير: فأيتهن ما أجابوك إليه فاقبل منهم وكف عنهم، فلا تقاتلهم.

قوله: «**ثم ادعهم**»: «ثم» زائدة كما في رواية أبي داود، ولأنه ليس لها معنى، ويمكن أن يقال إنها ليست من كلام الرسول - ﷺ - بل من كلام الراوي، على تقدير ثم: قال ادعهم.

وقوله: «**إلى الإسلام**»: أي المتضمن للإيمان، لأنه إذا أفرد شمل الإيمان، وإذا اجتمعا افترقا كما فرق النبي - ﷺ - بينهما في حديث جبريل.

والإيمان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال قال، ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[2] فإن أجابوا للإسلام فهذا ما يريده المسلمون فلا يحل لنا أن نقاتلهم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان/باب أمور الإيمان ١/ ٢٠ ولفظه: «**الإيمان بضع وستون شعبة**» الحياء شعبة من الإيمان»، ومسلم في الإيمان / باب بيان عدد شعب الإيمان ١/ ٦٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.

قوله: **«ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين»**:

هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية فإذا أسلموا طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله؛ لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم قال تعالى: **﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾**[1] وهذا أصل في توطين البوادي.

وقوله: **«إلى دار المهاجرين»**:

يحتمل أن المراد بها العين أي المدينة، ويحتمل أن المراد بها الجنس أي الدار التي تصلح أن يُهَاجَرَ إليها لكونها بلد إسلام سواء كانت المدينة أو غيرها.

فإذا نظرت إلى الاحتمال الأول وهو أن المراد بها المدينة قلت: إن الرسول ـ ﷺ ـ كان يعبر عنها باسمها، ولا يأتي بالوصف المشتق العام.

وإذا نظرت إلى الاحتمال الثاني قلت: إن دار المهاجرين الأولى هي المدينة. والظاهر الثاني.

قوله: **«فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين»**: وهذا تمام العدل، ولا يقال إن الحق لصاحب البلد الأصلي فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفيء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

. . . .

قوله: «**ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»:

الغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

والفيء لبيت المال، وله من الغنيمة خمس الخمس.

وقوله: «**إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**» يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة.

وأما بالنسبة للفيء فاختلف أهل العلم في ذلك:

فعند الإمام أحمد لهم حق في الفيء مطلقاً، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا.

وقيل: لاحق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة، إذ ليس مَنْ في البلد يستنفر للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله.

فإذا أسلموا فلهم ثلاث مراتب:

١ ـ التحول إلى دار المهاجرين.

٢ ـ البقاء في أماكنهم مع الجهاد.

٣ ـ البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد. وقد علمت أحكام هذه المراتب.

قوله: «**فإن هم**»: «هم» عند البصريين توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، والتقدير: فإن أبواهم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده.

والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون في مسألة: أن نتبع الأسهل، والأسهل إعراب الكوفيين.

قوله: «**فاسألهم الجزية**»: سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء أن سؤال الاستفهام يتعدى بـ «عن»، قال الله،

فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة

تعالى: ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرسها﴾[1]، وأما سؤال الإعطاء فمثل قوله تعالى: ﴿لا يسئلون الناس إلحافا﴾[2] وهذا يتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه.

والجزية: فِعْلة من جزى يجزي، وظاهر فيها أنها مكافئة على شيء.

وهي: عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضاً عن حمايته وإقامته بدارنا.

والذمي معصوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزية، قال تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[3] أي يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو ابنه، بل لابد أن يأتي بها هو.

وقيل: «عن يد» عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين.

وقيل: «عن يد» أن يعطيك إياه فتأخذها بقوة بأن تجر يده حتى يتبين لك قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: «وهم صاغرون» أي يجب أن يتَّصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صَغارهم أن يطال وقوفهم عند تسلمها منهم.

قوله: «فاستعن بالله وقاتلهم»:

بدأ النبي ـ ﷺ ـ بطلب العون من الله، لأنه إذا لم يعنك في جهاد أعدائه فإنك مخذول، والجملة جواب الشرط.

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

نبيه، ولكن اجعل ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا» رواه مسلم[1].

قوله: **«وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك»**:

الحصر: التضييق، أي طوقتهم وضيقت عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد.

والحصن: كل ما يُتَحصَّنُ به من قصور، أو أحواش وغيرها.

قوله: **«أرادوك»**: أي طلبوك، وضمَّن الإرادة معنى الطلب، وإلا فإن الأصل أن تتعدى بـ «مِنْ» فيقال: أرادوا منك.

قوله: **«فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه»**:

الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون نريد أن ننزل على عهد الله ورسوله، فإنه لا يجوز أن ينزلهم على عهد الله ورسوله. وعلل النبي ـ ﷺ ـ ذلك بقوله: **«فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون....»**.

قوله: **«أن تخفروا»**: بضم التاء وكسر الفاء، من أخفر الرباعي أي غدر، وأما خفر يخفر الثلاثي فهي بمعنى أجار، والمتعين الأول.

وقوله: **«أن تخفروا»**: «أن» مصدرية، ولا يصح أن تكون شرطية، لأن أهون خبر «إن» وأن وما دخلت عليه محلها من الإعراب النصب على أنها بدل اشتمال من اسم «إن»، والتقدير: فإن خفركم ذممكم، والبدل يصح أن يحل محل المبدل منه، ولهذا قدرتها بما سبق.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد/باب تأمير الإمام الأمراء ٣/١٣٥٦.

. . . .

قوله: **«أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه»**: لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم، وقوله: «**أهون**» من باب اسم التفضيل الذي ليس في المفضل ولا في المفضل عليه شيء من هذا المعنى، لأن قوله: «**أهون**» يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهون، والأمر ليس كذلك، لأن إخفار الذم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله، أو ذمة المجاهدين كله ليس بهين، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس على حقيقته.

فهنا أرادوا أن ينزلوا على العهد بدون أن يحكم عليهم بشيء بل يعاهدون على حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم.

قوله: **«ولكن أنزلهم على حكمك»**:

فإذا أرادوا أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله، فإنهم لا يجابون فإنا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

وقال: **«أنزلهم على حكمك»**: ولم يقل وحكم أصحابك؛ لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.

وقوله: **«لا تدري»**: هذا الفعل معلق عن العمل بالاستفهام وإلا فهو ينصب مفعولين.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل: إن أهل الحصن لا ينزلون على حكم الله وحكم رسوله؛ لأن قائد الجيش وإن اجتهد فإنه لا يدري أيصيب فيهم حكم الله أم لا فليس كل مجتهد مصيبا.

وقيل: بل ينزلون على حكم الله وحكم رسوله، والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ـ ﷺ ـ فقط؛ لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم، إذ

. . . .

من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يغير الله هذا الحكم، وإذا كان كذلك فلا تنزلهم على حكم الله؛ لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟

أما بعد انقطاع الوحي فنزلهم على حكم الله، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتبر صوابا، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾[1] وهذا أصح، لأنه يحكم للمجتهد بإصابته الحكم ظاهراً شرعاً وإن كان قد يخطيء، وإن حصل الاحتراز بأن يقول: ننزلك على ما نفهم من حكم الله ورسوله فهو أولى، لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحاً أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

واخترنا هذه العبارة لأنه قد يتغير الاجتهاد، ويأتي أمير آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحكم، فيقول الكفار إن أحكام المسلمين متناقضة.

ويستفاد من هذا الحديث مايلي:

١ - تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه.

٢ - يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا.

٣ - لا يجوز القتال قبل الدعوة، لأنه جعل القتال آخر مرحلة، وأما ما ورد في الصحيح أن النبي - ﷺ - أغار على بني المصطلق وهم غارون[2]؟ فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع فيها للمصلحة.

٤ - جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس، لأن أهل الكتاب

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في العتق/باب من ملك من العرب رقيقاً ٢/٢١٨، ومسلم في الجهاد/باب جواز الإغارة على الكفار ٣/١٣٥٦ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

. . . .

نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء فاختلف أهل العلم:

فقيل: لا تأخذ من غير هؤلاء، وقيل لا تأخذ من مشركي العرب، لأن فيها إذلالاً.

والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار للعموم، لقوله، ﷺ: «**من كفر بالله**» ولم يقل اليهود والنصارى.

٥ ـ الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت الجزية؛ لأنه يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس...**»[1] الحديث.

فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

٦ ـ عظم العهود ولا سيما إذا كانت عهداً لله ورسوله.

٧ ـ جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨ ـ أنه لا يجوز أن ينزلهم على حكم الله إما في عهد الرسول ﷺ أو مطلقاً حسب الخلاف السابق.

٩ ـ أن المجتهد قد يصيب وقد يخطيء لقوله: «**فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟**» وقال النبي ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد**»[2] وعليه فهل نقول إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان/باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة ١/٢٤، ومسلم في الإيمان/باب قتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/٩٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام/باب أجر الحاكم إذا اجتهد ٤/٣٧٢، ومسلم في الأقضية/باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد ٣/١٣٤٢ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

. . . .

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب. وقيل: ليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: كل مجتهد مصيب في الفروع دون الأصول، حذراً من أن نصوب أهل البدع في باب الأصول.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق فإنه يخطيء ويصيب، ويدل له قوله ﷺ: «**فاجتهد فأصاب، واجتهد فأخطأ**» فهذا واضح في تقسيم المجتهدين إلى مخطيء ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين، لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً والسلف غير مصيبين سواء في علم الأصول والفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكرا تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئاً من أكبر أصول الدين بالفروع مثل الصلاة وهي ركن من أركان الإسلام، ويخرجون أشياء في العقيدة اختلف فيها السلف يقولون إنها من الفروع، لأنها ليست من العقيدة ولكن فرع من فروعها، ونحن نقول: إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة فكل الدين أصول؛ لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها.

والصحيح: أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمي بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف فليس بمقبول مطلقاً.

١٠ ـ أن باب الاجتهاد باق لقوله: «**لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا**»؟ وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد

. . . .

للأمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ بل الواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يأخذ منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثا في هذا الحكم حتى يتثبت؛ لأن هذا الحكم قد يكون منسوخا أو مقيداً وأنت تظنه مطلقاً، أو عاماً وأنت تظنه خاصا وهكذا.

وأما أن نقول لا تنظر في القرآن والسنة، لأنك لست أهلاً للاجتهاد، فهذا غير صحيح، ثم إنه على قولنا إن باب الاجتهاد مفتوح لا يجوز أبداً أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أوأن تنزل من قدرهم، لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم، أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم فهذا أيضا لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادي محرمة فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في استخراج المسائل من أدلتها، ثم يأتي في آخر الزمان من يقول إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال، ويقولون كذا وكذا. مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدها وأصولها.

١١ ـ فيه إثبات الحكم لله ـ عز وجل ـ وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

أ ـ حكم كوني: وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالى: ﴿**فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي**﴾[١].

ب ـ حكم شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به ومنه قوله تعالى: ﴿**ذلكم حكم الله يحكم بينكم**﴾[٢].

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠. (٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

وفيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين. **الثانية:** الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً. **الثالثة:** قوله: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله**».

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين:

لو قال: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين لكان أوضح؛ لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها وليس كذلك فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصَرين محرمة، وذمة المسلمين جائزة.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً:

لقوله: «**ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك...**» وهذه قاعدة، وتقال على وجه آخر وهو: ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وقد دل عليها الشرع. قال، تعالى: ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم**﴾[1] فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله ـ عز وجل ـ صار منهياً عنه، لأن سب الله أعظم من السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيئاً من المفسدة، ولكن نسكت لئلا نقع في مفسدة أعظم، وأيضاً العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة وهي: جلب أعلى المصلحتين بترك أدناهما، فإذا اجتمعت مصلحتان فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان فخذ بأدناهما.

الثالثة: قوله: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله**»:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله». الخامسة: قوله: ﴿استعن بالله وقاتلهم﴾. السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء. السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟.

يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص، والتمشي على شرعه.

الرابعة: قوله: **«قاتلوا من كفر بالله»**:

يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر بل الكفر سبب للقتال، فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله قوتلوا، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: قوله: **«استعن بالله وقاتلهم»**:

يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقوته.

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء:

وفيه فرقان:

١ ـ أن حكم الله مصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.

٢ ـ تنزيل أهل الحصن على حكم الله ممنوع إما في عهد الرسول ـ ﷺ ـ فقط أو مطلقا، وأما على حكم الأمير فهو جائز.

فائـــدة:

لا ينبغي أن يقال ما حكم الإسلام في كذا أو ما رأى الإسلام في كذا، فإنه قد لا يكون حكم الإسلام، إلا فيما هو نص واضح صريح فلا بأس.

. . . .

مثل أن يقول: ما حكم الإسلام في أكل الميتة؟.

فنقول حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟

وهذا ليس خاصا بالصحابة، بل حتى من بعدهم، فإن له أن يحكم بما يرى أنه حكم عند الحاجة.

باب ما جاء في الإقسام على الله

الإقسام: مصدر أقسم يقسم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء هي: يمين، ألية، حلف، قسم وكلها بمعنى واحد قال تعالى: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**فلا أقسم بالشفق**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾[3] أي لا أحلف، وقال: ﴿**للذين يؤلون من نسائهم**﴾[4] أي يحلفون، وقال: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾[5].

واختلف أهل العلم في «لا» في قوله: ﴿**لا أقسم**﴾ فقيل إنها نافية على الأصل وأن معنى الكلام لا أقسم بهذا الشيء على المقسم به، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف، لأن من قرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفي.

وقيل: إن «لا» زائدة والتقدير أقسم. وقيل: إن «لا» للتنبيه وهذا بمعنى الثاني؛ لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشيء مقدر، أي لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا في قوله تعالى: ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾ فيه شيء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتنبيه.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ١٦.
(٣) سورة القيامة، الآية: ١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

. . . .

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل، مثل: والله ليفعلن الله كذا، أو والله لا يفعل الله كذا.

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله مثل: والله ليشفّعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة. ومثل: والله لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي ـ ﷺ ـ ذلك في قصة الربيّع بنت النضر عمة أنس بن مالك، رضي الله عنهما. «حينما كسرت ثنية لجارية من الأنصار فاحتكموا إلى النبي ﷺ فأمر النبي ـ ﷺ ـ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح فأبوا فقام أنس بن النضر فقال: أتُكسر ثنية الربيّع؟ والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع. وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي. فقال الرسول ﷺ: يا أنس كتاب الله القصاص، السن بالسن قال: والله لا تكسر ثنية الربيع» وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص.

فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا، فقال النبي ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»[1] فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه ألقى الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ـ ﷺ ـ على القصاص فعفوا.

فثناء الرسول ـ ﷺ ـ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله أبر

---

(١) أخره البخاري في الصلح/باب الصلح في الدية ٢/٢٦٩، ومسلم في القسامة/باب إثبات القصاص في الأسنان ٣/١٣٠٢ عن أنس رضي الله عنه.

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: **«قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الـذي يتـألّى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك»** رواه مسلم[1].

قسمه، ولين له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذي قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد ولما استشهد وجد به بضعة وثمانون ما بين ضربة بسيف أو رمح، وقيل: إنه لم يعرفه إلا أخته ببنانه[2].

ويدل أيضاً لهذا القسم قوله ﷺ: **«رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره[3]»**.

القسم الثـالث: أن يكـون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله عز وجل، وسوء الظن به تعالى، فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله.

مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد:

أن من تألى على الله ـ عز وجل ـ ساء الأدب معه وتحجر فضله، وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد وربما ينافي أصل التوحيد، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصاً في حقه.

قوله: **«قال رجل والله لا يغفر الله لفلان»**:

هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله، وإعجاب هذا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله ٤/٢٠٢٣.

(٢) أخرجـه البخـاري في الجهـاد/ باب قول الله عز وجل: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا﴾** ٦/٢١، ومسلم في الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد ٣/١٥١٢.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب فضل الضعفاء والخاملين ٤/٢٠٢٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الإنسان بنفسه، لأنه لو كانت حاله مثل حال هذا الرجل من المعاصي لم يقل مثل هذا الكلام.

والمغفرة: من الغفرة الذي يغطى به الرأس عند الحرب، ففيها وقاية وستر، وهي ستر الذنب، والتجاوز عنه.

قوله: **«من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟»**:

«من» اسم استفهام مبتدأ «ذا» ملغاة، «الذي» اسم موصول خبر مبتدأ «يتألى» يحلف، أي من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي. والاستفهام للإنكار.

والحديث ورد مبسوطاً في حديث أبي هريرة[1] أن هذا الرجل كان عابداً وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية ويزجره وينهاه فيقول: خلني وربي أبُعثت علي رقيبا؟ ثم يأتيه من الغد ويقول له كما قال، والثاني يقول كما سبق، وهذا يدل على أن عنده حسن ظن بالله، وفي المرة الثالثة لما رآه على حاله قال: والله لا يغفر الله لك.

فالمسرف كان عنده حسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه، لأنه قال: خلني وربي، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحاً ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى فإن توبته الأولى صحيحة، فإذا تاب ثانية فتوبته صحيحة، لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله له إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضل الله عليه فغفر له، أما

---

(١) يأتي ص (٢٦٥).

. . . .

لو كان شركاً وبدون توبة فإنه لا يغفر له، لأن الله يقول: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾**[1].

قوله: **«وأحبطت عملك»**:

ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عاما.

ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم ـ حسب فهمنا والعلم عند الله ـ أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله كأنه يمن على الله بعمله وحينئذ يفتقد ركناً عظيما من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلابد أن تكون عبداً لله ـ عز وجل ـ بما تعبدك به وبما بلغك من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحيه، قد يصعب عليهم أن يرجعوا عن رأيهم إذا تبين لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويحرفون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبداً حتى فيما بلغك من وحيه بحيث تخضع له خضعاناً كاملاً حتى تحقق العبودية.

وفيه احتمال معنى «أحبطت عملك» أي عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل وهذا أهون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره.

ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله ـ ﷺ ـ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده فيمن منع الزكاة: **«فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا»**[2] فقوله: **«وشطر ماله»** هل المراد جميع ماله، أو ماله الذي منع

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢، ٤، وأبو داود في الزكاة/باب زكاة السائمة ٢/٢٣٣، =

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوْبَقت دنياه وآخرته»[1].

زكاته؟ يحتمل الأمرين فمثلاً إذا كان عنده عشرون من الإبل فزكاتها أربع شياه فمنع الزكاة فهل نأخذ عشرين من الإبل فقط، أو إذا كان عنده أموال أخرى من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك؟ اختلف في ذلك:

فقيل: يأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفة.

وقيل: يأخذ نصف جميع المال.

والراجح: أنه راجع إلى رأي الإمام حسب المصلحة، فإن كان أَخْذُ نصف المال كله، أبلغ في الردع أَخَذَ نصف المال كله وإلا أخذ نصف المال الذي حصلت فيه المخالفة.

قوله: **«أوبقت»**:

أي أهلكت ومنه حديث: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**[2] أي المهلكات.

قوله: **«دنياه وآخرته»**:

= والنسائي في الزكاة/باب عقوبة مانع الزكاة ٥/١٥، والدارمي في الزكاة/باب ليس في عوامل الإبل صدقة ١/٣٩٦، والحاكم في الزكاة ١/٣٩٨، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

وقال ابن قدامة في المغني ٤/٧: «وسئل ـ أي أحمد ـ عن إسناده فقال: هو عندي صالح الإسناد».

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٠٠)، وأحمد ٢/٣٢٣، وأبو داود في الأدب/باب في النهي عن البغي ٥/٢٠٧، والبغوي في شرح السنة ١٤/٣٨٤، ٣٨٥، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٤٥)، وفي شرح الطحاوية ٢/٤٣٧: «وإسناده حسن».

(٢) سبق ص (١٤).

. . . .

أما كونها أوبقت آخرته فالأمر ظاهر، لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أوبقت دنياه فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب بها عملاً صالحاً وإلا فهي خسارة، قال تعالى: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[1] وقوله: ﴿**قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين**﴾[2] فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح فقد خسر دنياه حقيقة، لأن مآلهاللفناء،وكل شيء فان كأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق تجده مر عليك وكأنه لم يكن وهذا من حكمة الله، عز وجل، لئلا يركن إلى الدنيا.

وقوله: «**قال أبو هريرة**»: يعني في الحديث الذي أشار إليه المؤلف، رحمه الله.

---

(١) سورة العصر.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٥.

فيه مسائل :

الأولى: التحذير من التألي على الله ، **الثانية**: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله . **الثالثة**: أن الجنة مثل ذلك . **الرابعة**: فيه شاهد لقوله : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة . . . إلى آخره**» .

فيـه مسائـل :

الأولى: التحذير من التألي على الله :

لقوله : «**من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان**» وكونه أحبط عمله بذلك .

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله .

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك :

هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المتألي والمغفرة للمسرف على نفسه ، ثم ذكر حديثا رواه البخاري ، ويقصد بهما تقريب الجنة أو النار ، والشراك سير النعل الذي يكون بين الإبهام والأصابع .

الرابعة: فيه شاهد لقوله : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة إلى آخره**» :

يشير المؤلف إلى حديث : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا فتهوي به في جهنم سبعين خريفا**»[1] أو «**أبعد مما بين المشرق والمغرب**»[2] وهذا فيه الحذر من مزلة اللسان ، فقد يسبب الهلاك ، ولهذا قال النبي ﷺ : «من

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٩٧ ، ٣٥٥ ، والترمذي في الزهد/باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس ٧/٧٦ ، وقال : «حسن غريب» ، وابن ماجه في الفتن/باب كف اللسان في الفتنة ٢/١٣١٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) حديث أبي هريرة ولفظه عند مسلم : «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» أخرجه البخاري في الرقاق/باب حفظ اللسان ٤/١٨٦ ، ومسلم في الزهد/باب التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٤/٢٢٩٠ .

يضمن لي ما بين رجليه ولحييه أضمن له الجنة»[1] وقال لمعاذ : «**كف عليك هذا** - يعني لسانه - قلت يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به قال : «**ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟** . »[2] .

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدى به ، كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيامة .

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه :

فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب ، وهذه لم تظهر لي من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله : «**قد غفرت له**» .

ولا شك أن الإنسان قد يغفر له بشيء هو من أكره الأمور إليه مثل الجهاد في سبيل الله ، قال ، تعالى : ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم**﴾[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق ٤/١٨٦ عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص(٧٣) ، والحاكم ٤/٢٨٦ ٢٨٧ ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي عن عبادة بن الصامت .
وأخرجه أحمد ٥/٢٣١ ، والترمذي في الإيمان/باب ما جاء في حرمة الصلاة ٧/٢٧٠ وقال : «حسن صحيح» ، وابن ماجه في الفتن/باب كف اللسان في الفتنة ٢/١٣١٤ ، والجصاص في أحكام القرآن ٣/٣٥٣ عن طريق أبي وائل عن معاذ .
وأخرجه أحمد ٥/٢٣٣ ، ٢٣٧ ، والطيالسي (٥٦٠) ، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٨/٤١٠ من طريق الحكم بن عتيبة عن عروة بن النزال عن معاذ .
وأخرجه أحمد ٥/٢٣٦ من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ .
وانظر جامع العلوم والحكم شرح حديث رقم (٢٩) ، والترغيب للمنذري ٣/٥٢٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢١٦ .

باب لا يُستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي إلى النبي - ﷺ - فقال يا رسول الله: نُهكتِ الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك فإننا نستشفع بالله عليك، وبك على الله فقال النبي ﷺ: **سبحان الله، سبحان الله!!** فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: **ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يستشفع بالله على أحد...**» وذكر الحديث رواه أبو داود[1].

استشفع بالشيء أي جعله شافعاً له، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعاً. وهي التوسط للغير بجلب منفعة له، أو دفع مضرة عنه.

---

(1) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٢٢٤، وأبو داود في السنة/باب في الجهمية ٥/ ٩٤، وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية ص٢٤، والنقض على المريسي ص٨٩، ١٠٥، وابن خزيمة في التوحيد ص١٠٣، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٥)، ومحمد بن أبي شيبة في العرش (١١)، والطبراني في الكبير (١٥٤٧)، والدارقطني في الصفا (٣٨، ٣٩)، والبيهقي في الأسماء (٤١٧، ٤١٨)، والبغوي في شرح السنة ١/ ١٧٥، ١٧٦، والمزي في تهذيب الكمال ١/ ١٨٤، ١٨٥، والذهبي في العلو ص ٣٧ - ٣٩.
والحديث استغربه ابن كثير في تفسيره ١/ ٣١٠، وفي الحديث عنعنة ابن إسحاق، وجهالة جبير بن محمد فإنه لم يوثقه غير ابن حبان، وللحافظ ابن عساكر جزء سماه: «بيان وجوه التخليط في حديث الأطيط».

. . . .

مناسبة الباب لكتاب التوحيد :

لا شك أن المشفوع إليه أعلى درجة من الشافع غالباً، وإذا كان كذلك فإن الاستشفاع بالخلق على الله جائز بشروطه المعروفة، والاستشفاع بالله على الخلق محرم لأن رتبة الشافع أدنى من مرتبة المشفوع إليه.

والاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله عز وجل؛ لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده بل يأمره أمراً والله ـ عز وجل ـ لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد؛ لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعاً، ولهذا أنكر النبي ـ ﷺ ـ ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد.

قوله: «**أعرابي**»:

واحد الأعراب وهم: سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

قوله: «**نُهكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال**»: نهكت: أي ضعفت.

وجاع العيال وهلكت الأموال، أي: من قلة المطر والخصب، فضعف الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التي تحصل فيها إذا لم يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال؛ لأنها لم تجد ما ترعاه.

قوله: «**فاستسق لنا ربك**»:

أي اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا بأس به؛ لأن طلب الدعاء ممن ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء.

قوله: «**نستشفع بالله عليك**»:

أي نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة

. . . .

الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ .

قوله: «**ونستشفع بك على الله**»:

أي نطلب منك أن تكون شافعاً لنا عند الله فتدعو الله لنا، وهذا صحيح.

قوله: «**سبحان الله، سبحان الله**»:

قاله - ﷺ - استعظاما لهذا القول، وإنكارا له، وتنزيها لله - عز وجل - عما لا يليق به من جعله شافعا بين الخلق وبين الرسول ﷺ .

«وسبحان» اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق من سبح يسبح تسبيحا، وإذا جاءت الكلمة بمعنى المصدر وليس فيها حروفه فهي اسم مصدر مثل: كلام، اسم مصدر كلم والمصدر تكليم، ومثل: سلام اسم مصدر سلم والمصدر تسليم.

و«سبحان» مفعول مطلق، وهو لازم النصب وحذف العامل أيضا، فلا يأتي مع الفعل، فلا تقول: سبحت الله سبحانا إلا نادرا في الشعر ونحوه.

والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أو مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك.

وإن شئت أدخل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب؛ لأن مماثلة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالناقص تجعله ناقصا، كما قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

قوله: «**فمازال**»:

إذا دخلت «ما» على زال الذي مضارعها يزال صار النفي إثباتاً مفيداً للاستمرار، كقوله تعالى: ﴿**فمازالت تلك دعواهم...**﴾[1] الآية، وكقوله تعالى في المضارع: ﴿**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك**﴾[2].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٥ (٢) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

. . . .

وجملة «يسبح» هي الخبر.

قوله: «**حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه**»:

أي عرف أثره في وجوه أصحابه، وأنهم تأثروا بذلك؛ لأنهم عرفوا أنه ـ ﷺ ـ لا يسبح في مثل هذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسبيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شيء من التنقص لله ـ تعالى ـ فسبح النبي ـ ﷺ ـ ربـه تنـزيها له عما توهمه هذه الكلمة، ولهذا إذا كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه في السفر وهبطوا واديا سبحوا، تنزيها لله تعالى عن السفول الذي كان من صفاتهم، وإذا علوا نشزا كبروا تعظيما لله، عز وجل[1]، وأن الله تعالى هو الذي له الكبرياء في السموات والأرض.

قوله: «**ويحك**»:

ويح: منصوبة بعامل محذوف، تقديره: الزمك الله **ويحك**.

وتارة تضاف فيقال: **ويحك**، وتارة تقطع عن الإضافة فيقال: **ويحاً لك**، وتارة ترفع على أنها مبتدأ فيقال: **ويحه** أو ويحٌ له.

وهي وويل، وويش كلها متقاربة في المعنى.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنى **ويحك**: إني أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير.

فعلى معنى أن ويح بمعنى الترحم يكون قوله ـ ﷺ ـ لهذا الرجل: أي ترحموا لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله.

قوله: «**أتدري ماالله**»:

---

(١) أخـرجـه البخـاري في الجهاد/باب التسبيح إذا هبط وادياً، وباب التكبير إذا علا شرفا ٢/٢٥٧ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

المراد بالاستفهام التعظيم أي شأن الله عظيم، ويحتمل أن المعنى: لا تدري مالله بل أنت جاهل به، فيكون المراد بالاستفهام النفي.

وقوله: «مالله»: جملة استفهامية معلقة لـ «تدري» عن العمل؛ لأن درى تنصب مفعولين لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي تدري.

قوله: **«إن شأن الله أعظم من ذلك»**:

أي أن أمر الله وعظمته أعظم مما تصورت حيث جئت بهذا اللفظ.

قوله: **«أنه لا يستشفع بالله على أحد»**:

وذلك لكمال عظمته وكبريائه، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.

فإن قيل: أليس قد قال النبي ﷺ: **«من سألكم بالله فأعطوه»**[1] وهذا دليل على جواز السؤال بالله، إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزاً لم يكن إعطاء السائل واجباً؟

والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لا يقتضي أن تكون مرتبة المسؤول به أدنى من مرتبة المسؤول بخلاف الاستشفاع، بل يدل على أن مرتبة المسؤول به عظيمة بحيث إذا سئل به أعطي.

على أن بعض العلماء قال: «من سألكم بالله» أي من سألكم سؤالا بمقتضى شريعة الله فأعطوه، وليس المعنى من قال: أسألك بالله.

والمعنى الأول أصح وقد ورد مثله في قول الملك: **«أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن»**[2].

---

(١) سبق ص (١٠٧).

(٢) سبق تخريجه ص (٥١).

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال : «نستشفع بالله عليك» . **الثانية** : تغيره تغيرا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة . **الثالثة** : أنه لم ينكر عليه قوله : «نستشفع بك على الله» . **الرابعة** : التنبيه على تفسير سبحان الله . **الخامسة** : أن المسلمين يسألونه - ﷺ - الاستسقاء .

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال : «نستشفع بالله عليك» :

تؤخذ من قوله : «**سبحان الله أتدري ما الله**» وقوله : «**إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**» .

الثانية : تغيره تغيرا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة :

تؤخذ من قوله : «**فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه**» وكونه يكرر سبحان الله هذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة ، وهذا دليل على أن هذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة .

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله : «**نستشفع بك على الله**» :

لأنه قال : لا يستشفع بالله على أحد ولم يقل لا يستشفع بأحد على الله ، فدل هذا على أن المنكر أن يستشفع الإنسان بالله على أحد من خلقه .

الرابعة : التنبيه على تفسير «**سبحان الله**» :

لأن قوله : «**إن شأن الله أعظم**» دليل على أنه منزه عما ينافي تلك العظمة .

الخامسة : أن المسلمين يسألونه الاستسقاء :

وهذا في حال حياته ، أما بعد وفاته فهو شرك أكبر، لأنه - ﷺ - انقطع عمله وعبادته .

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبي الذي جاء إلى قبره -

. . . .

ﷺ ـ وأناخ راحلته عند القبر وقال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما**﴾[1] وإني قد جئت تائبا إلى الله، وتوسل إليه أن يستغفر له، ثم أنشد:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبه الآلاءُ والأكمُ
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وأنه رأى في المنام أن النبي ـ ﷺ ـ جاءه وقال له: إن الله قد غفر لك.

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها؛ لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح؛ لأن الآية: ﴿**ولو أنهم إذ ظلموا**﴾ ولم يقل: إذا ظلموا، و«إذ» لما مضى بخلاف «إذا»، والصحابة رضي الله عنهم ـ لما لحقهم الجدب في زمن عمر لم يستسقوا بالرسول ـ ﷺ ـ وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم[2].

ومن فوائد الحديث:

١ ـ أنه ينبغي أن يقدم الإنسان الأوصاف التي تستلزم العطف لقوله: «**نهكت الأنفس**».

٢ ـ الترحم على المذنب إذا قلنا: إن «ويح» للترحم.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء/باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء ١/٣١٨ عن أنس رضي الله عنه.

باب ما جاء في حماية النبي - ﷺ - حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله - ﷺ - فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله، تبارك وتعالى، قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا، فقال: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبوداود بسند جيد[1].

مناسبة الباب للتوحيد :

لما تكلم المؤلف - رحمه الله - فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد، وعلى ذكر ما ينافيه، أو ينافي كماله ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك.

قوله: «**انطلقت في وفد بني عامر**»:

الظاهر أن هذا الوفد قدم على النبي - ﷺ - في العام التاسع؛ لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يسمى عام الوفود.

قوله: «**أنت سيدنا**»:

السيد: ذو السؤدد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر، وما أشبهه.

وسيد: صفة مشبهة على وزن فَيْعِل؛ لأن الياء الأولى زائدة.

---

(١) سبق ص (١٠٠).

. . . .

قوله: «**السيد الله**»:

لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع حيث إنه رد على قولهم سيدنا لوجهين:

الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من [أل]؛ لأن [أل] للعموم، والمعنى أن الذي له السيادة المطلقة هو الله عز وجل، ولكن السيد المضاف يكون سيدا باعتبار المضاف إليه مثل: سيد بني فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه.

والسيد من أسماء الله ـ تعالى ـ وهي من معاني الصمد، كما فسر ابن عباس الصمد: بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده(١) وما أشبه ذلك.

ولم ينههم ـ ﷺ ـ عن قولهم: «**أنت سيدنا**» ولم يقرهم الإقرار الكامل، لكنه أشار إلى أنه لا ينبغي أن يترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، و«السيد» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قوله: «**تبارك**»:

قال العلماء: معنى تبارك: أي كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله فلا يقال تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله.

وقول العامة: أنت تباركت علينا لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله، عز وجل، وإنما يريدون أصابنا بركة من مجيئك، والبركة يصح إضافتها

---

(١) أخرجه ابن جرير ٣٠/٧٤٤، وأورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات.

. . . .

إلى الإنسـان إذا كان أهلاً لذلك قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها: «ماهذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر»[1].

قوله: «**وأفضلنا**»: أي فضلك فاضل أكثر من فضلنا.

قوله: «**وأعظمنا طَولاً**»:

أي أعظمنا شرفاً وغنى، والطول: الغنى قال تعالى: ﴿**ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات**﴾[2] ويكون بمعنى العظمة قال تعالى: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول**﴾[3] أي ذي العظمة والغنى.

قوله: ﴿**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**﴾:

الأمر للإرشاد، ووجه ذلك: أنه لا يجب عليهم أن يقولوا بهذا القول، فلو قالوا: يا رسول الله وما أشبه ذلك جاز، إلا أن يقال: إن هذا الأمر يتضمن النهي عن الزيادة فيكون بمعنى لا تقولوا أكثر من ذلك، فإذا حول إلى هذا المعنى صار الأمر للوجوب.

وقوله: «**قولوا بقولكم**» أي قولهم: أنت سيدنا أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

قوله: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»:

استجراه: بمعنى جذبه وجعله يجري معه، أي لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولاً منكراً فأرشدهم - ﷺ - إلى ما ينبغي أن يفعل، ونهاهم عن الأمر الذي لا ينبغي إن يفعل.

---

(١) أخـرجـه البخـاري في التيمم/بـاب حدثنـا عبـد الله بن يوسف ١/١٢٥ ومسلم في الحيض/باب التيمم ١/٢٧٩ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٣.

. . . .

والحماية تعظم كلما كانت المعصية أعظم وأكبر، فإن الشيطان يلقي في قلب الإنسان الوسائل التي توصل إلى هذا الأمر، ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه، وأيضاً باب الزنا حمي حماية عظيمة، حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وما أشبه ذلك؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا، لأن النفوس تطلبه، وفي باب الربا أيضا حمي الربا بحماية عظيمة حتى إن الرجل ليعطي الرجل صاعا طيبا من البر بصاعين قيمتهما واحدة ويكون ذلك ربا محرما، مع أنه ليس فيه ظلم.

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعو إليه النفوس كثيرا لكنه أعظم الظلم، فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك فحماه النبي ـ ﷺ ـ حماية تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه، وهذا هو معنى الباب الذي ذكره المؤلف.

والجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**»[1] وقوله: «**قوموا إلى سيدكم**»[2] وقوله في الرقيق: «**وليقل سيدي ومولاي**»[3] اختلف في ذلك على أقوال:

القول الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز، فالنهي ليس على سبيل التحريم فلا يعارض الجواز.

---

(١) سبق ص (١٠١)

(٢) أخرجه البخاري في المغازي/باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ٣/١١٩ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سبق ص (٩٧).

. . . .

القـول الثـاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو، والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

القول الثالث: أن النهي بالخطاب أي أن تخاطب الغير بقولك: سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئاً آخر وهو خضوع هذا المتسيد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء على الغيبة مثل: «**قوموا إلى سيدكم**» و«**أنا سيد ولد آدم**» لكن هذا يرد عليه إباحته ـ ﷺ ـ للرقيق أن يقول لمالكه: سيدي.

لكنه يجاب عن هذا: بأن قول الرقيق لمالكه ذلك أمر مطلوب، ولهذا يحرم عليه أن يمتنع مما يجب عليه نحو سيده.

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن هذا جائز لكن بشرط: أن يكون الموجه إليه السيادة أهلا، لذلك، أما إذا لم يكن أهلا كما لو كان فاسقا أو زنديقا فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاها، وقد جاء في الحديث: «**لا تقولوا للمنافق سيد فإنكم إذا قلتم ذلك أغضبتم الله**»[1] فإذا كان أهلاً لذلك وليس هناك محذور، فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل فلا يجوز.

والمحذور في هذا الحديث هو الخشية من الغلو فيه ﷺ.

قوله: «**يا رسول الله**»:

هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء**

---

(١) أخرجه أحمد ٣٤٦/٥، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٠)، وأبو داود في الأدب/باب لا يقول المملوك ربي وربتي ٢٥٧/٥، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة، والحاكم ٣١١/٤ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» عن بريدة رضي الله عنه وقال النووي في الرياض (١٧٢٨): «رواه أبو داود بإسناد صحيح».

وعن أنس، رضي الله عنه: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا. فقال: **يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل**» رواه النسائي بسند جيد[1].

بعضكم بعضا﴾[2] أي لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضا فتقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، أو يا نبي الله.

وفي الآية معنى آخر: أي إذا دعاكم الرسول فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا إن شئتم أجبتم وإن شئتم أبيتم، فهو كقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾**[3] وعلى المعنى الأول تكون «دعاء» مضافة إلى المفعول، وعلى الثاني تكون مضافة إلى الفاعل.

قوله: «**يا خيرنا**»: هذا صحيح فهو خيرهم.

قوله: «**وابن خيرنا**»:

هذا غير صحيح لأن أباه - ﷺ - ليس بمسلم، ولكن إن أرادوا بالخيرية خيرية النسب فهذا صحيح لأن أباه - ﷺ - من بني هاشم، وهم من أشراف قريش وأسيادهم، وكذلك يقال في قوله: «**وابن سيدنا**».

قوله: «**قولوا بقولكم**»:

أي قولوا بقولكم الذي خاطبتموني به أولاً وهو: يا رسول الله، والدليل

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٢٤١، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٩، ٢٥٠)، وابن حبان (٦٧٠٧)، وأبونعيم في الحلية ٦/٢٥٢، عن أنس رضي الله عنه.

وقال ابن عبدالهادي في الصارم المنكي ص (٢٤٦): «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

. . . .

قوله: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**».

قوله: «**ولا يستهوينكم الشيطان**»:

أي لا يستميلنكم الشيطان فتهووه، وتتبعوا طرقه، ونظيره قوله تعالى: ﴿**كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران**﴾[1].

قوله: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**»:

هذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات، فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**﴾[2] ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾[3] ووصفه بها في مقام المعراج، قال تعالى: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾[4] ووصفه في مقام الدفاع عنه قال تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا**﴾[5].

وكذلك بالنسبة للأنبياء، كقوله تعالى: ﴿**ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكوراً**﴾[6] وهذه العبودية خاصة، وهي أعلى أنواع الخاصة.

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو الشيطان، قال تعالى: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**»[7] قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خُلقوا له ... فبُلُوا برق النفس والشيطان

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(2) سورة الفرقان، الآية: ١.

(3) سورة الإسراء، الآية: ١.

(4) سورة النجم، الآية: ١٠.

(5) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(6) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(7) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

. . . .

وقال الشاعر:

لا تَدْعُـنـي إلا بيا عبـدهـا فإنـه أشرف أسمائي

«ورسوله»:

أي المرسل من عنده إلى جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**﴾[1].

ورسول الله - ﷺ - في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا**﴾[2] والنبيون فيهم الرسول ﷺ بل هو أفضلهم، ومن عبارة المؤلف - رحمه الله - في الرسول ﷺ: «**عبد لا يُعبد ورسول لا يُكذَّب**».

وقد تطرف في الرسول - ﷺ - طائفتان: طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.

وطائفة كذبته وزعمت أنه كاذب، ساحر، شاعر، مجنون.

وفي قوله: «**عبد الله ورسوله**» رد على الطائفتين.

قوله: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**»:

«ما» نافية، و«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أحب، أي ماأحب رفعتكم إياي فوق منزلتي لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال.

قوله: «**التي أنزلني الله**»:

يستفاد منه أن الله - تعالى - هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى في الألفاظ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨. (٢) سورة النساء، الآية: ٦٩.

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلو. **الثانية** : ما ينبغي أن يقول : مَنْ قيل له : أنت سيدنا. **الثالثة** : قوله : «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق. **الرابعة** : قوله : «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

فيــه مسائــل :

الأولى : تحذير الناس من الغلو:

يعني في قوله : «**ولا يستجرينكم الشيطان**»، ووجهه : أن الرسول ـ ﷺ ـ جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان.

الثانية : ما ينبغي أن يقول من قيل له : أنت سيدنا :

وتؤخذ من قوله : «**السيد الله**» فينبغي أن يقول من قيل له ذلك : «السيد الله».

الثالثة : قوله : «**لا يستجرينكم الشيطان**» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق :

ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان، فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم : من استجراء الشيطان.

ويحتمل أن المعنى : قولوا بهذا القول ولكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان.

الرابعة : قوله : «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**» :

أي أني أكره أن ترفعوني فوق منزلتي وهي العبودية والرسالة.

باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ [1] الآية[2].

قوله: «وما قدروا»:

الضمير يعود على المشركين و«قدروا» عظموا أي ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

قوله: «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة» يحتمل أن تكون الواو للحال أي ما قدروا الله حق قدره في هذه الحال.

ويحتمل أن تكون للاستئناف لبيان عظمة الله، عز وجل، وهذه أقوى؛ لأن الأرض جميعاً بكل ما فيها قبضته يوم القيامة.

والقبضة هي ما يقبض باليد، وليس المراد بها المُلْك، نعم لو قال: والأرض في قبضته لكان تفسيرها بالملك محتملاً.

قوله: «جميعاً»:

يشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٥٧): «ختم المصنف كتابه بهذه الترجمة، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه ومجده وجلاله، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه؛ لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده المحمود وحده الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه، وسر الإخلاص».

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة**﴾ الآية»[1].

قبضته يوم القيامة، والسموات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله، عز وجل: ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده**﴾[2].

قوله: «**سبحانه وتعالى عما يشركون**» هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما ينزه عنه هذه الأنداد.

وقوله: «**يشركون**» أي كل شرك يشركونه به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق، أو العكس.

قوله: «**حبر**»:

الحبر: هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق الحروف، ولهذا العالم أحيانا يسمى بالحبر وأحيانا بالبحر.

قوله: «**إنا نجد**» أي في التوراة.

قوله: «**فضحك النبي ﷺ**» ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكاراً،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر/باب قول الله تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ ٣/٢٨٥ وفي التوحيد (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣) ومسلم في صفات المنافقين/باب صفة القيامة ٤/٢١٤٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

. . . .

لأن من حدثك بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: «تصديقاً لقول الحبر»، فكانت إقراراً لا غير ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ الآية فهذا يدل على أنه ـ ﷺ ـ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، فضحكه واستشهاده تقرير لقول الحبر وسبب الضحك هو سروره حيث جاء في القرآن ما يصدق ما وجد هذا العالم في كتبه، لأنه لا شك إذا جاء ما يصدق القرآن فإن الرسول ـ ﷺ ـ سوف يسر به، وإن كان الرسول ـ ﷺ ـ يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله لكن تضافر البينات مما يقوي الشيء، أرأيت أسامة بن زيد وأبوه زيد هل كان عند النبي ـ ﷺ ـ شك في أن أسامة ابنٌ لزيد؟. **الجـواب**: ليس عنده في ذلك شك ولما مرّ بهما مجزز المدلجي وهو من أهل القيافة وقد تغطيا برداء لم يبد منهما إلا أقدامهما فنظر إلى أقدامهما فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر النبي ـ ﷺ ـ سروراً عظيماً حتى دخل على عائشة مسرورا وقال: ألم تر إلى مجزز المدلجي نظر إلى أسامة بن زيد وإلى زيد فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض[1] فالمهم أن الرسول ـ ﷺ ـ دخل تبرق أسارير وجهه؛ لأن في ذلك تأييداً للحق، وكان المشركون يقدحون في أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما لكن الأمر ليس كما قالوا بل هم كاذبون في ذلك.

قوله: «**أصبع**»:

واحـدة الأصابع وهي مثلثة الأول والثالث ففيها تسع لغات والعاشر أُصْبُوع وفي هذا يقول الناظم:

وهمـز أنـمـلة ثَلِّثْ وثـالـثَـه ... التسـع في أصبع واختم بأصبـوع

---

(١) أخـرجه البخاري في الفرائض/باب القائف ٤/٢٤٤، ومسلم في الرضاع/باب العمل بإلحاق القائف الولد ٢/١٠٨١ عن عائشة رضي الله عنها.

. . . .

قوله: «**أنا الملك**»:

هذه الجملة تفيد الحصر؛ لأنها اسمية معرّفة الجزئين، ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد. قال تعالى: ﴿**يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾(١) وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلا وبهذا يظهر ملكوت الله - عز وجل - في ذلك اليوم ظهوراً بيناً، لأنه - سبحانه - ينادي لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه: «**لله الواحد القهار**».

وقوله: «**المَلِك**»:

أي ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف بل هو المتصرف فيما يملك على وجه السلطة والعلو، وأما «**المالك**» فدون ذلك ولهذا يمتدح نفسه - تعالى - بأنه: الملك. وقوله تعالى: ﴿**مالك يوم الدين**﴾(٢) فيها قراءتان «**ملك، ومالك**» ليتبين بذلك أنه ملك مالك ولهذا جعلت فاتحة الكتاب لأجل أن يتبين بذلك أن ملك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكا لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك.

قوله: «**حتى بدت نواجذه**»:

أي ظهرت، ونواجذ جمع ناجذ وهو أقصى الأضراس.

وهذا الضحك من النبي - ﷺ - تقرير لقول الحبر، ولهذا قال ابن مسعود: «**تصديقا لقول الحبر**» ولو كان منكرا ما ضحك الرسول - ﷺ - ولا استشهد بالآية ولقال له كذبت كما كذب الذين ادعوا أن الذي يزني لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقا لقول الحبر وسرورا بأن ما ذكره موافقٌ لما جاء به القرآن الذي أوحي إلى محمد ﷺ.

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٦. (٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

. . . .

قوله: ثم قرأ ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته**﴾ الآية:

هذا معنى الآية التي لا تحتمل غيره وأن السموات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه أي يده تبارك وتعالى؛ لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره في الدرجة الثانية من حيث الترتيب لكنه في الدرجة الأولى من حيث القبول.

وأما تفسير أهل التحريف فيقول بعضهم: «**قبضته**» أي في قبضته وملكه وتصرفه، وهو خطأ لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله.

وقول بعضهم: «**السموات مطويات**» أي تالفة وهالكة كما تقول: انطوى ذكر فلان، أي زال ذكره «بيمينه» أي بقسمه؛ لأنه قال تعالى: ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك**﴾[1] فجعلوا المراد باليمين القسم إلى غير ذلك من الخرافات التي يلجأ إليها أهل التحريف، وهذا لظنهم الفاسد بالله حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل، فصاروا ينكرون ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججا.

فيقال لهم: هل أنتم أعلم بالله من الله؟ إن قالوا: نعم كفروا، وإن قالوا: لا، قلنا: هل أنتم أفصح في التعبير عن المعاني من الله؟ إن قالوا: نعم كفروا، وإن قالوا: لا، خصموا وقلنا لهم: إن الله بين ذلك أبلغ بيان بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والرسول ـ ﷺ ـ أقر الحبر على ما ذكر فيما يطابق الآية وهل أنتم أنصح من الرسول ﷺ لعباد الله؟ فسيقولون: لا.

فإذا كان كلامه ـ تعالى ـ أفصح الكلام، وأصدقه، وأبينه، وأعلم بما يقول، لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه ولسنا بمذنبين بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقته التي أراده الله بها.

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

. . . .

ومن فوائد الحديث :

إثبات الأصابع لله عز وجل، لإقراره ـ ﷺ ـ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله ـ عز وجل ـ كاليد، وليس المراد بقوله: «**على إصبع**»سهولة التصرف في السموات والأرض كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ، لأنه ـ ﷺ ـ أثبت ذلك بإقراره ولقوله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن**»[1] فيجب أن نقبل قوله ﷺ، ولا يلزم من البينية المماسة، بدليل قوله تعالى: ﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾[2] والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما وتقول: عنيزة بين الزلفي والرس، ولا يلزم أن تكون مماسة لهما، وتقول: شعبان بين ذي القعدة وجمادى، ولا يلزم أن يكون مواليا له، فتبين أن البينية لا تستلزم الاتصال في الزمان أو المكان. وكما ثبت عنه ـ ﷺ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكون قِبَلَ وجه المصلي[3]، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التي يصلي إليها، فهو قبل وجهه وإن كان على عرشه ومثال ذلك: الشمس حين تكون في الأفق فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك في العلو.

فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم

---

(١) أخرجه مسلم في القدر/باب كل شيء بقدر ٤/٢٠٤٥ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.
وتمامه: «كقلبٍ واحدٍ يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة/باب حك البزاق باليد في المسجد ١/١٤٩ عن ابن عمر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في ا لزهد/باب حديث جابر الطويل ٤/٢٣٠٣ عن جابر رضي الله عنه.

. . . .

أعلم وأحكم فقد ضل. ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم وهذا القول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر فهو:

أولا: فيه تناقض لأنهم قالوا: طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم؛ لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة في سلوك هذه الأسباب.

ثانيا: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل؟

ثالثا: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله - ﷺ - وأصحابه؛ لأن طريقة السلف هي طريقة النبي - ﷺ - وأصحابه.

رابعاً: أنها قد تصل إلى الكفر لأنها تستلزم تجهيل النبي - ﷺ - وتسفيهه، فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم.

فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحا، لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا في أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها فإن خوضهم في هذه الأشياء هو الذي ضرهم وأوصلهم إلى الحيرة والشك، وصدق - ﷺ - حين قال: «**هلك المتنطعون**»[1] فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح ولم يتنطعوا لما وصلوا إلى هذا الشك والحيرة والتحريف حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنى أن يموت على عقيدة أمه، العجوز التي لا تعرف هذا الضلال، ويقول بعضهم: ها أنا أموت على عقيدة عجائز نيسابور.

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبدا، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا

---

(١) أخرجه مسلم في العلم/باب هلك المتنطعون ٤/٢٠٥٥ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

على عقيدة سليمة، وإلا ابتلي بالشك والقلق والحيرة، وقد قال بعضهم: أكثر النـاس شكاً عند الموت أهل الكلام، وما بالك ـ والعياذ بالله ـ بالشك عند الموت، يختم للإنسان بضد الإيمان.

لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ـ ﷺ ـ بسهولة وبما جرى عليه السلف، ونقول كما قال الرازي وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: اقرأ في الإثبات **﴿الرحمن على العرش استوى﴾**[1] فأثبت، وأقرأ في النفي **﴿ليس كمثله شيء﴾**[2] **﴿ولا يحيطون به علما﴾**[3] ومن جرب مثـل تجربتي عرف مثل معرفتي، لأنه أقر قبل هذا الكلام فقال: لقد تأملت الـطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي غليلا ولا تشفي عليلا، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن[4]. . .

والحاصل أن هؤلاء المنكرين لما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله ـ عز وجل ـ اعتماداً على هذا الظن الفاسد أنها تقتضي التمثيل، قد ضلوا ضلالا مبينا، فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هل ناقشوا الرسول ـ ﷺ ـ في هذا؟ والذي نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له فيجمعون بين الإثبات وبين النفي.

إذاً موقفنا من هذا الحديث الذي فيه إثبات الأصابع لله ـ عز وجل ـ أن نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر على مجرد إمراره بدون معنى فنكون بمنزلة الأميين الذين لايعلمون الكتاب إلا أماني، بل نقرأه ونقول: معناه أصبع حقيقي يجعل

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٤) انظر أول الجزء الأول ص (١٤).

وفي رواية لمسلم: «**والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله**»[1].

وفي رواية للبخاري: «**يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع**»[2] أخرجاه.

الله عليه هذه الأمور، ولكن لا يجوز أبدا أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله عالم بكيفية هذه الأصابع، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة فكذلك لا نعلم كيفية هذه الصفات من صفاته بل نكل علمها إلى الله سبحانه وتعالى.

قوله: «**ثم يهزهن**»:

أي هزا حقيقيا، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ـ ﷺ ـ يقرأ هذه الآية ويقبض يده ويبسطها يقول: «**يهزهن**» فصار المنبر يتحرك ويهتز لأنه ـ ﷺ ـ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالى.

فإن قلت: هل نهز أيدينا كما فعل النبي ﷺ؟

فالجواب: أن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه، فليس كل من شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل، فينبغي أن نكف؛ لأن هذا ليس بواجب حتى نقول ينبغي علينا أن نبلغ كما بلغ الرسول ـ ﷺ ـ بالقول والفعل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هذا ويريد أن يحول الأمر إلى معنى لا إلى حقيقة، فحينئذ نفعل كما فعل الرسول، ﷺ: فلو قال قائل: إن الله سميع بصير لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا

---

(١) أخرج هذه الرواية مسلم في صفات المنافقين/باب صفة القيامة ٤/٢١٤٧.

(٢) أخرجها البخاري في التفسير/باب: «وما قدروا الله حق قدره» ٣/٢٨٥.

بصر مع أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين قرأ قوله تعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيراً﴾**[1] وضع أصابعه على عينه وعلى أذنه، وأبو هريرة حين حدث به كذلك[2]، فهذا الإنسان الذي يقول إن الله سميع بلا سمع بصير بلا بصر نقول له هكذا.

وكـذلـك الذي ينكر حقيقة اليد، ويقول إن الله لا يقبض السموات بيمينه وأن معنى في قبضته أي في تصرفه، فهذا نقول له كما فعل الرسول، ﷺ.

فالمقام ليس بالأمر السهل بل هو أمر صعب ودقيق للغاية فإنه يخشى من أن يقع أحد في محذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول ـ ﷺ ـ في جميع تصرفاته إذا تأملتها حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء مثل ما أخر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفا من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثاً[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) وأخـرجه أبو داود في السنة/باب في الجهمية ٥/٩٦،٩٧، وابن خزيمة في التوحيد ص (٤٢، ٤٣)، والحاكم ١/٢٤، وقال: «صحيح ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بحرملة بن عمران وأبي يونس، والباقون متفق عليهم»، ووافقه الذهبي على شرط مسلم، والبيهقي في الأسماء والصفات ص(١٧٩)، وابن حبان (١٧٣٢) موارد، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/١٧٥: وعزاه أيضاً لابن المنذر، وأبي حاتم، عن أبي هرير رضي الله عنه.
وانظر: تحفة الأشراف ١١/٩٥ رقم (١٥٤٦٧)، وجامع الأصول ٧/٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في الحج/باب فضل مكة وبنيانها ١/٤٨٨، ومسلم في الحج/باب نقض الكعبة ٢/٩٦٨ عن عائشة رضي الله عنها.

ولمسلم عن ابن عمر، مرفوعاً: **«يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»**(١).

قوله: **«والماء والثرى على إصبع»**:

هذا لا ينافي قوله: **«الأرضين على إصبع»** لأنه يقال: **«الماء والثرى على إصبع»** أي الأرض كلها على إصبع، ويراد بالأصبع الجنس، وإلا لتناقض معنى الحديث الذي قبله **«الشجر على إصبع والماء على إصبع، والثرى على إصبع»** إذ النكرة إذاكررت بلفظ النكرة، فالثاني غير الأول غالبا، وإذا كررت بلفظ المعرفة فالثاني هو الأول غالبا، فيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقي، إما اختصارا أو اقتصارا.

قوله: (ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات...»).

سبق معنى هذا الحديث، وأن المراد بالطي الطي الحقيقي.

قوله: **«ثم يقول: أنا الملك»**:

يقول ذلك ثناء على نفسه، سبحانه، وتنبيها على عظمته الكاملة، وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان فهو مالك ذو سلطان.

قوله: **«أين الجبارون»؟**:

الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر، والتكبر على عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين/باب صفة القيامة ٤/٢١٤٨.

. . . .

قوله: «**يطوي الأرضين السبع**»:

أشار الله في القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يرد العدد صريحا في القرآن، قال تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾[1] والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد، لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما السنة فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: «**ثم يأخذهن بشماله**»:

كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر.

ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه[2].

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في صحيح مسلم أن الرسول - ﷺ - قال: «**المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين**»[3] وهذا

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) قال البيهقي في الأسماء والصفات ص (٣٢٤): «ذكر الشمال فيه تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيد الله بن مقسم عن ابن عمر ولم يذكرا فيه الشمال، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره عن النبي ﷺ فلم يذكر أحد منهم الشمال، وروي ذكر الشمال في حديث آخر غير هذه القصة إلا أنه ضعيف بمرة تفرد بأحدهما جعفر بن الزبير، وبالآخر يزيد الرقاشي وهما متروكان، وكيف يصح ذلك وصحيح عن النبي ﷺ أنه سمى كلتا يديه يمين؟! وكأن من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له، أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين».

وانظر أيضاً: التذكرة للقرطبي ص(٢١٦)، فتح الباري ١٣/٣٩٦، الأنوار البهية ١/٢٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة/باب فضيلة الإمام العادل ٣/١٤٥٨ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وروي عن ابن عباس قال: «**ما السموات السبع، والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**»[1].

يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة «شمال» محفوظة فهي عندي لا تنافي «كلتا يديه يمين»؛ لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى فقال: «**كلتا يديه يمين**» أي ليس فيها نقص ويؤيد هذا قوله في حديث آدم: «**اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة**»[2] فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال يعني النقص في هذه اليد دون الأخرى قال: «**كلتا يديه يمين**» ويؤيده، أيضاً، قوله: «**المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن**» فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم وأنهم على يمين الرحمن، سبحانه.

وعلى كلٍ فإن يديه ـ سبحانه ـ اثنتان بلاشك، وكل واحدة غير الأخرى، إذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ـ ﷺ ـ فنحن نؤمن بها، وإن لم تثبت فلن نقول بها.

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٤/١٧، وفي إسناده: عمرو بن مالك النُكري قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٨/٩٦: «ذكره ابن حبان في الثقات وقال: مات سنة تسع وعشرين ومائة، وقال: يعتبر حديثه من غير رواية ابنه عنه يخطيء ويغرب».
وقال الشيخ سليمان بن عبدالله كما في إبطال التنديد ص (١٧٠): «وهذا الإسناد في نقدي صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي مطولا في التفسير/باب الأمر بالكتابة والشهود ٩/٨٨ وقال: «حسن غريب»، والحاكم مختصرا ٤/٢٦٣ وصححه، ووافقه الذهبي، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٤) (٢٠٥)، وصححه الألباني كما تعليقه على المشكاة ٣/١٣٢٢.

وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرْس»**[1].

قال: قال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«ما الكرسي في العرش إلا كحَلْقة من حديث ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»**[2].

قوله: **«أنا الملك»**:

هذه الجملة كلتا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ أو الخبر كل منهما معرفة فإن ذلك من طرق الحصر، أي أنا الذي لي الملكية المطلقة لا ينازعني فيها أحد.

قوله: **«في كف الرحمن»**: فيه إثبات الكف.

قوله: **«إلا كخردلة»**: هي حبة نبات صغيرة جداً، يضرب بها المثل في

---

(١) أخرجه ابن جرير ٣/٧، ٨.
وقال الشيخ سليمان بن عبد الله كما في إبطال التنديد ص(١٧٠) «رواه أصبغ بن الفرج بهذا الطريق واللفظ وهو مرسل، وعبد الرحمن بن زيد ضعيف».

(٢) أخرجه محمد بن أبي شيبة في العرش (٥٨) وفي إسناده إسماعيل بن مسلم المكي كما في السلسلة (١٠٩) وهو متروك، وفيه أيضاً: المختار بن غسان مجهول لا يعرف بجرح ولا تعديل، انظر التهذيب ١٠/٦٨، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٠٤ ـ ٤٠٥) وفيه يحيى بن سعيد ٣/١٢٩: «يروي المقلوبات والملزقات لا يجوز الاحتجاج إذا انفرد»، وفيه أيضا ابن جريج وهو مدلس وقد عنعنه.
وأخرجه أيضاً من طريق آخر وفيه: إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني كذبه أبو حاتم وأبو زرعة كما في الميزان ١/٧٢ ـ ٧٣.
وأخرجه ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير ١/٣٠٩، ٣١٠ وفيه مجهول، وضعيفان.

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم» أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زرّ عن عبد الله ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبي، رحمه الله تعالى. قال: وله طرق[1].

الصغر والقلة، وهذا يدل على عظمته سبحانه، وأنه ـ سبحانه ـ لا يحيط به أحد، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي، لأنه ـ تعالى ـ لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفهام.

قوله: **«قال: ابن جرير»**:

هو المفسر المشهور، يرحمه الله، وله تفسير يعتبر تفسيراً آثاريا، يعتمد فيه على الآثار، لكن آفته أنه لم يمحص هذه الآثار، وأتى بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضا، وكأنه ـ رحمه الله ـ أراد أن يقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولا إلى القاريء، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحصه ولكن لم يتيسر إليه ذلك.

قوله: **«ما الكرسي في العرش»**:

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص(٢٦)، وفي النقض على المريسي ص(٧٣، ٩٠، ١٠٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص(١٠٥، ١٠٦، ٣٧٦، ٣٧٧)، والطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، والبيهقي في الأسماء ص(٤٠١)، والخطيب في الموضح ٢/٤٧، وقد صححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص(١٠٠)، والذهبي في العلو ص(٦٤)، وقال الهيثمي ١/٦٨ بعد ما عزاه للطبراني «رجاله رجال الصحيح».

. . . .

ذكر ابن القيم وغيره أن السموات السبع، والأرضين السبع في الكرسي كحلقة أُلقيت في فلاة من الأرض، وأن فضل الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، وهذا يدل على عظمته، عز وجل، فيكون مناسبا لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب.

قوله: «**وعن ابن مسعود. . . .**»:

هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع، إلا إذا كان ممن عرف بالأخذ عن الإسرائيليات، وابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لم يعرف بذلك.

قوله: «**بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام**»:

وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: «**إن كثف كل سماء خمسمائة عام**»[1] وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة، وإن صح الحديث فمعناه أن علو الله ـ عز وجل ـ بعيد جداً.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة؟.

يقال في الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ فإنا نضرب بما عارضها عرض الحائط، لكن إذا قدر أننا رأينا الشيء بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع، إن أمكن الجمع بينهما بأي

---

(١) هذا اللفظ قطعه من حديث الأوعال كما هو في المسند ٢٠٦/١، والمستدرك ٤١٢/٢ وغيرهما.

وانظر تخريج حديث الأوعال بكامله ص (٣٠٢) مع بيان ضعفه.

. . . .

طريق من طرق الجمع.

الثـاني: إن لم يمكن الجمـع تبـين ضعف الحـديث، لأنـه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئا حسيا واقعا أبدا، كما قال شيخ الإسلام في كتابه «العقل والنقل»: «لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبدا، لأن تعارضهما يقتضي إما رفع النقيضين، أو جمع النقيضين وهذا مستحيل، فإن ظُنَّ التعارضُ بينهما فإما أن لا يكون تعارض، ويكون الخطأ من الفهم، وإما أن يكون أحدهما ظنيا والآخر قطعي».

فإذا جاء الأمر الواقع الذي لا إشكال فيه مخالفاً لظاهر شيء من الكتاب أو السنة فإن ظاهر الكتاب يؤول حتى يكون مطابقا للواقع. مثال ذلك:

قولـه تعالى: **﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾**[1] وقال تعالى: **﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾**[2] أي في السموات.

والآية الثانية أشد إشكالا من الآية الأولى، لأن الآية الأولى يمكن أن نقول المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هي المشكلة جدا، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس في السماء نفسها بل هو في فلك بين السماء والأرض.

الجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مرصع في السماء كما يرصع المسمار في الخشبة دلالة قطعية فإن قولهم: إننا وصلنا القمر ليس صحيحا بل وصلوا جرما في الجو ظنوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحا وليست دلالته قطعية في أن القمر مرصع في السماء فآية الفرقان قال الله فيها: **﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾**[3] فنقول: إن المراد بالسماء العلو كقوله تعالى: **﴿أنزل**

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

وعن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله، ﷺ: «**هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله ـ تعالى ـ فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم**» أخرجه أبو داود وغيره[1].

من السماء ماء﴾[2] والماء ينزل من السحاب بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: **﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾**[3] وهذا التأويل للآية قريب.

---

(١) أخرجه أحمد ١/٢٠٦، ٢٠٧، وأبو داود في السنة/باب في الجهمية ٥/٩٣، والترمذي في تفسير القرآن/سورة الحاقة ٩/ ٦٠ وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة/باب فيما أنكرت الجهمية ١/٩٦، وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية ص(٢٤)، وفي النقض على المريسي ص (٩٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٧)، وابن خزيمة في التوحيد (١٠١، ١٠٢)، والآجري في الشريعة (٢٩٢، ٢٩٣)، ومحمد بن أبي شيبة في العرش (٩، ١٠)، والحاكم ٢/٢٨٨، ٤١٢ وصححه، واللالكائي (٦٥١)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/٢، والبيهقي في الاسماء ص (٣٩٨)، وابن عبد البر في التمهيد ٧/ ١٤٠، وابن حزم في الفصل ٢/ ١٠٠، وابن قدامة في العلو ص(٧) والمزي في تهذيب الكمال ٢/ ٧١٩، والذهبي في العلو (٤٩-٥٠).
من طريق عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس، وقال الذهبي في الميزان ٢/٤٦٩: «فيه ـ أي عبدالله ـ فيه جهالة قال البخاري: لا يعرف له سماع من الأحنف بن قيس».
وهذا الحديث يعرف بحديث الأوعال، وقد قال ابن العربي في عارضته: «إن خبر الأوعال متلقف من الإسرائيليات» وانظر تهذيب السنن لابن القيم ٧/٩٢، ٩٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤. (٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

. . . .

وأما قوله: «**وجعل القمر فيهن نورا**» فيمكن فيها التأويل، أيضا، بأن يقال: في جهتهن، وجهة السموات العلو، وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع.

قوله: «**والله فوق العرش**»:

هذا نص صريح بإثبات علو الله، تعالى، علوا ذاتيا، وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ ـ علو الصفة: وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله.

ب ـ علو الذات وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: «**والله فوق العرش**» أي في القوة، والسيطرة، والسلطان، وليس فوقه في الذات، ولا شك أن هذا تحريف. والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ ـ من قال: إن الله بذاته في كل مكان.

ب ـ من قال: إنه لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال ولا متصل بالخلق، ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار، والعياذ بالله، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل: لنا صفوا العدم ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.

ففروا من شيء دلت عليه النصوص، والعقول، والفطر، إلى شيء تنكره النصوص، والعقول، والفطر.

قوله: «**العباس**»: يقال العباس، وعباس، و«أل» هنا لا تفيد التعريف، لأن عباس معرفة لكونه علماً، لكنها لِلَمح الأصل كما يقال: الفضل لفضله، والعباس لعبوسه على الأعداء. قال ابن مالك:

. . . .

وبـعض الأعـلام عليه دَخـلا   للمـح ما قد كان عنـه نُقـلا[1]

قوله: «**هل تدرون**»:

هل: استفهامية، يراد بها أمران:

أ - التشويق.

ب - التنبيه إلى ما سيلقيه عليهم، وهـذا كقـوله تعالى: ﴿**هل أتاك حديث الغاشية**﴾[2] هذا تنبيه وتشويق إلى شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالى: ﴿**هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم**﴾[3] هذا تنبيه وتشويق على شيء من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا**﴾[4] تنبيه وتحذير.

وقوله: ﴿**هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبةً عند الله**﴾[5] تنبيه وتحذير.

قوله: «**كم**»: استفهامية.

قوله: «**قلنا الله ورسوله أعلم**»:

وذلك، لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذي يعلمه بما لا يدركه البشر، ولهذا أتى بالواو.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: «الله ورسوله أعلم» إنه - ﷺ - أعلم الخلق بشرع الله وليس هذا كقوله: «**ما شاء الله وشئت**»[6]، لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول - ﷺ - مشاركا لله.

---

(١) ألفية ابن مالك ص (١٥).

(٢) سورة الغاشية، الآية: ١.

(٣) سورة الصف، الآية: ١٠.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٦) سبق ١/٥٣.

. . . .

ففي الأمور الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم، وفي الأمور الكونية لا يقال ذلك.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾**[1] بعد موت الرسول - ﷺ - وتعذر رؤيته، فالله يرى، ولكن رسوله لا يرى فلا تجوز كتابته، لأنه كذب عليه ﷺ.

قوله: «**خمسمائة سنة**»: الميم في خمسمائة مكسورة والألف لا ينطق بها.

قولـه: «**وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض**»: وذلك خمسمائة سنة.

قوله: «**والله تعالى فوق ذلك**»:

هذا دليل على العلو العظيم لله، عز وجل، وأنه - سبحانه - فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاتـه، كالسمـوات ولا غيرها، وعليه فإنه - سبحـانه - لا يوصف بأنه في جهة تحيط به، لأن ما فوق السموات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتى يقال: إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

ولهذا في بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقا، وينكرون العلو ظنا منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر.

وليس كذلك، لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ما ثَمَّ إلا الله، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبداً.

فالجهة إثباتها لله فيه تفصيل، أما إطلاق لفظها نفيا وإثباتا فلا نقول به، لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهة، ولكن نفصل فنقول: إن الله في جهة العلو، لأن الرسول - ﷺ - قال للجارية أين الله؟

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

. . . .

و«أين» يستفهم بها عن المكان، فقالت: في السماء.

فأثبتت ذلك، فأقرها على ذلك وقال: «أَعتِقْها فإنها مؤمنة»[1].

وأهـل التحريف يقولون: «أين» بمعنى «مَنْ» أي من الله؟ قالت في السماء أي هو من في السماء وينكرون العلو.

وقد رد عليهم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتبه، ومنها النونية وقال لهم: اللغة العربية لا تأتي فيها «أين» بمعنى «من»، وفرق بين «أين» و«من».

فالجهـة لله ليست جهـة سفـل لوجوب العلو له فطرةً وعقلا وسمعا، وليست جهة علو تحيط به، لأنه ـ تعالى ـ وسع كرسيه السموات والأرض، وهو موضع قدميه، فكيف يحيط به ـ تعالى ـ شيء من مخلوقاته؟

فهو في جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال إن شيئا يحيط به، لأننا نقول: إن ما فوق العرش عدم إلا الله، سبحانه، ولهذا قال: «**والله تعالى فوق ذلك**».

قوله: «**وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم**»:

وقوله: «أعمال» إن قرنت بالأقوال صار المراد، بها: أعمال الجوارح، وإن أطلقت شملت أعمال الجوارح، وأقوال اللسان، وأعمال القلوب، وعليه يشمل كل ما يتعلق باللسان، أو القلب، أو الجوارح بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم في المستقبل فهو يعلم ما يكون فضلاً عما وقع، قال تعـالى: ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾[2] أي ما يستقبلونه، وما مضى عليهم، ولما قال فرعون لموسى: ﴿**فما بال القرون الأولى**﴾، أي: ما شأنها

---

(1) أخرجه مسلم في المساجد/باب تحريم الكلام في الصلاة ٣٨٢/١ عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

(2) سورة طه، الآية: ١١٠.

. . . .

قال: ﴿علمهـا عند ربي في كتاب﴾ أي محفوظة ﴿لا يضل ربي﴾ لا يجهل ﴿ولا ينسى﴾[1] لا يذهل عما مضى، ولا يجهل عما يستقبل، سبحانه وتعالى.

والنبي ـ ﷺ ـ صدر هذا الأمر بـ«هل» الدالة على التشويق والتنبيه، من أجل أن يثبت عقيدة عظيمة وهو أنه ـ تعالى ـ فوق كل شيء بذاته، وأنه محيط بكل شيء في علمه، لقوله: «**وليس يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم**» فإذا علمنا ذلك أوجب لنا تعظيمه، والحذر من مخالفته، لأنه فوقنا فهو عالٍ علينا وأمره محيط بنا.

وفي الحديث صفتان لله: ثبوتية: وهي العلو.

وسلبية: ليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، ولا يوجد في صفات الله ـ عز وجل ـ صفة سلبية محضة، بل صفاته السلبية التي هي النفي متضمنة لمعنى كامل، أي نفى عنه ذلك لكمال علمه، ونفى عنه اللغوب لكمال قوته، ونفى عنه العجز لكمال قدرته، فانتفاء هذه الصفات عنه لا لأنه غير قابل لها من حيث العقل، فممكن أن يلحق هذه الصفات عجز لكن باعتبارها مضافة إلى الخالق لا يمكن ذلك لا عقلاً، ولا سمعا أن يلحقها شيء من النقص، ولهذا إذا نفى الله عن نفسه شيئا من الصفات فالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال ضدهـا، قال تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾[2] السنة: النعاس، والنوم: الإغفاء العميق، وذلك لكمال حياته وقيوميته، إذ لو كان ناقص الحياة لاحتاج إلى النوم ولو نام ما كان قيوما على خلقه، لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقوم عليهم، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم، ولأن النوم في الجنة يذهب عليهم وقتا بلا فرح ولا سرور ولا لذة؛ لأن السرور فيها دائم،

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

. . . .

ولأن النوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها.

وليس في صفات الله نفي محض لأنه عدم، ولا ثناء فيه ولا كمال، بل هو لا شيء؛ ولأن النفي أحيانا يرد لكون المحل غير قابل له مثل قولك: الجدار لا يظلم.

وقد يكون النفي للذم، أي تنفي عنه صفة ذم تذمه بذلك قال الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حَبَّةَ خردلِ

وهذا لضعفهم فهو ذم، وقال الشاعر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «**إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما**»[1] هذا لكمال عدله وإلا فهو قادر على أن يظلم، إذ لو شاء لعذب المطيع،وتحريم الشيء يدل على إمكانه لولا أنه حرمه على نفسه.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٤ عن أبي ذر رضي الله عنه.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله تعالى : ﴿**والأرض جميعا قبضته يوم القيامة**﴾ . **الثانية** : إن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه - ﷺ - لم ينكروها ولم يتأولوها . **الثالثة** : أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ : صدقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك . **الرابعة** : وقوع الضحك من رسول الله - ﷺ - لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله ، تعالى : ﴿**والأرض جميعا قبضته يوم القيامة**﴾ .

وقد تقدم من حديث ابن مسعود حيث أقر النبي ﷺ الحبر على ذلك[1] .

الثانية : أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها .

كأنه يقول : إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها ؛ لأنهم لم يكذبوها ، ولم يتأولوها وجاء قوم من هذه الأمة فقالوا ليس لله أصابع ، والمراد بها القدرة ، فكأنه يقول اليهود خير منهم وأعرف بالله .

الثالثة : أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ : صدقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك .

ظاهر كلام المؤلف بقوله : «**ونزل القرآن**» أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك لأنه في حديث ابن مسعود قال : ثم قرأ قوله : ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ وهذا يدل على أن الآية نزلت من قبل ، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من النبي ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم :

---

(١) سبق ص (٢٨٦) .

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السموات في اليد اليمنى والأراضين في الأخرى. **السادسة**: التصريح بتسميتها الشمال. **السابعة**: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك. **الثامنة**: قوله: كخردلة في كف أحدكم. **التاسعة**: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء. **العاشرة**: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

ففيه دليل على جواز الضحك في تقرير الأشياء؛ لأن الضحك يدل على الرضا، وعدم الكراهية.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السموات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى.

قوله: «**في اليد الأخرى**» لا يعني أنه ينفي ذكر الشمال لما ذكره في المسألة الثانية وهي:

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

وقد سبق الكلام على ذلك.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك:

ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن فليقولوا ذلك تحديا لهم.

الثامنة: قوله: كخردلة في كف أحدكم.

يعني بذلك قوله: «**ما السموات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم**»، وفيه صحة إطلاق الكف على يد الله، عز وجل.

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء: حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي: لأنه جعل ذلك كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء. **الثالثة عشرة**: كم بين السماء السابعة والكرسي. **الرابعة عشرة**: كم بين الكرسي والماء. الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء. **السادسة عشرة**: أن الله فوق العرش.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء:

ولم أر من قال إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسي لحديث: «**أن الله يضع كرسيه يوم القيامة**»[1] وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.

لذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم فقالوا في قوله تعالى: ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾ أي علمه.

والصواب أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذي استوى عليه، سبحانه.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء؟

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي؟

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء؟

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

---

(١) في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «.... يوم ينزل الله فيه على كرسيه يئط به كما يئط الرحل من تضايقه كسعة ما بين السماء والأرض».

أخرجه الحاكم مطولا في التفسير/تفسير سورة بني إسرائيل ٢ / ٣٦٤ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي: «قلت: لا والله فعثمان ضعفه الدارقطني والباقون ثقات».

الســابعة عشرة: كم بين السماء والأرض. **الثامنة عشرة**: كثف كل سماء مائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة،والله أعلم.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض؟

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة.

وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل، ويستفاد من أحاديث في الباب:

١ ـ أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

٢ ـ التحذير من مخالفة الله عز وجل.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وأسأل الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد، آمين.

تم بحمد الله ومنّتِه الجزء الثالث
من كتاب القول المفيد على كتاب التوحيد
وبه تم الكتاب

فهرس الآيات
الجزء الثالث

الفاتحة

البقرة

آل عمـــران

فهرس أحاديث الجزء الثالث

فهرس الجزء الثالث
من كتاب القول المفيد

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الجمع التصويري والإخراج - *الفرقان*
هاتف: ٤٠٤٣٧٣٢/ ٤٠٤٣٧٨٧ ص.ب ٢١٤٤١
الرياض ١١٤٧٥ - المملكة العربية السعودية